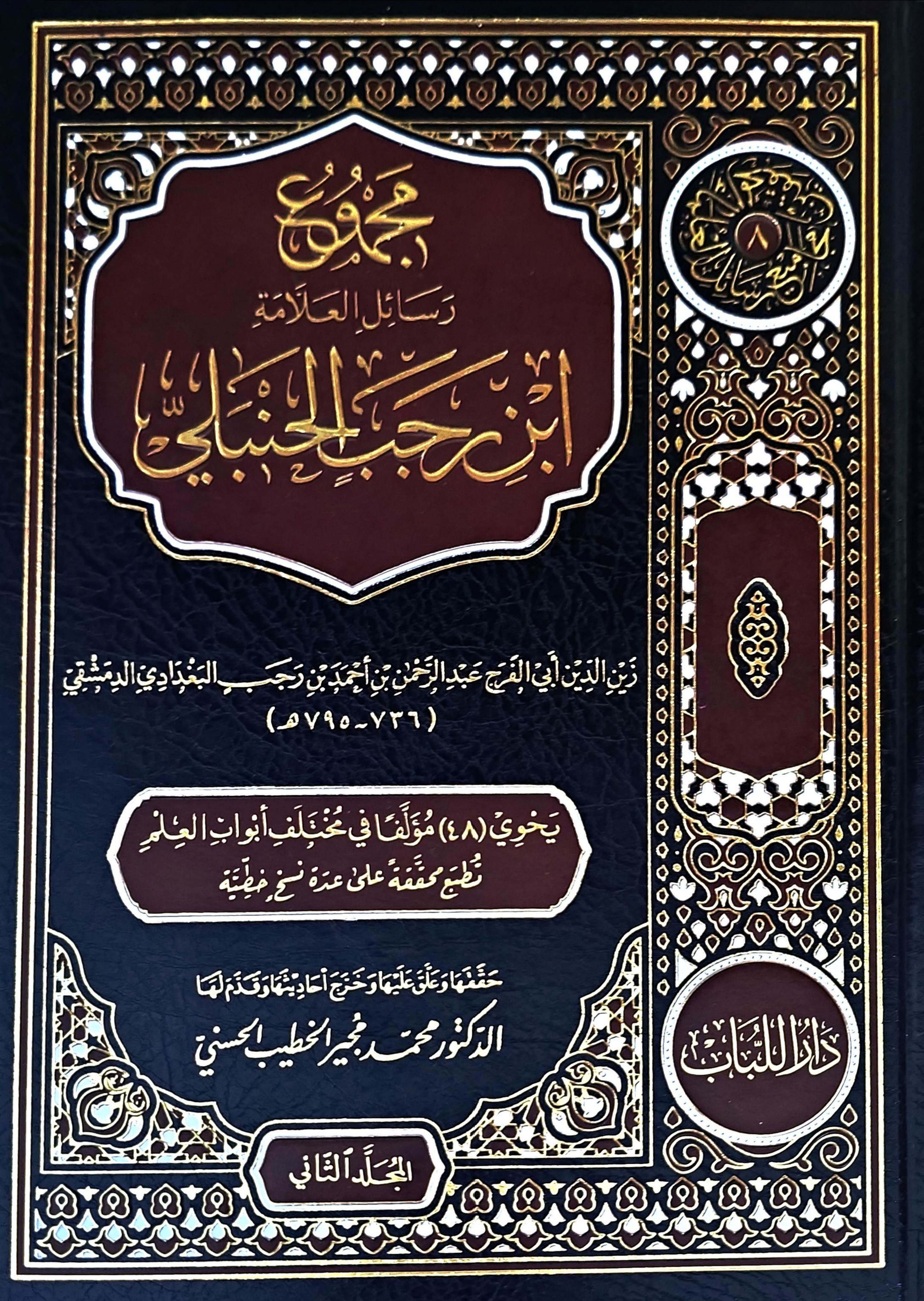


مجموع
رسائل العلامة
ابن رجب الحنبلي
زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي الدمشقي
(٧٣٦-٧٩٥هـ)
يحوي (٤٨) مؤلفًا في مختلف أبواب العلم
تُطبع محققة على عدة نسخ خطية
حققها وعلق عليها وخرج أحاديثها وقدم لها
الدكتور محمد مجير الخطيب الحسني
دار اللباب
المجلد الثاني



الطبعَة الأولى

١٤٤٦هـ - ٢٠٢٤م



DAR-ALLOBAB

Lubab Yazma Eserleri İhya ve İlmi Araştırma Yayınları

اسطنبول - تركيا
00902125255551
00905454729850

دمشق - سوريا
00963993151546
info@allobab.com
Www.allobab.com

بيروت - لبنان
009615813966
0096170112990

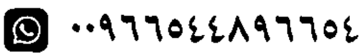


İskenderpaşa mh. Kıztaşı cd. No:7 D:5 Fatih (Özel Fatih Hastanesi Karşısı)

يطلب هذا الكتاب داخل المملكة حصراً من



المملكة العربية السعودية - الرياض







dar-atlas@hotmail.com



مجموع

رسائل العلامة

ابن رجب الحنبلي

زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الحسن البغدادي الدمشقي

(٧٣٦-٧٩٥هـ)

يحوي (٤٨) مؤلفاً في مختلف أبواب العلم

تطبع محققة على عدة نسخ خطية

حققها وعلق عليها وخرج أحاديثها وقدم لها

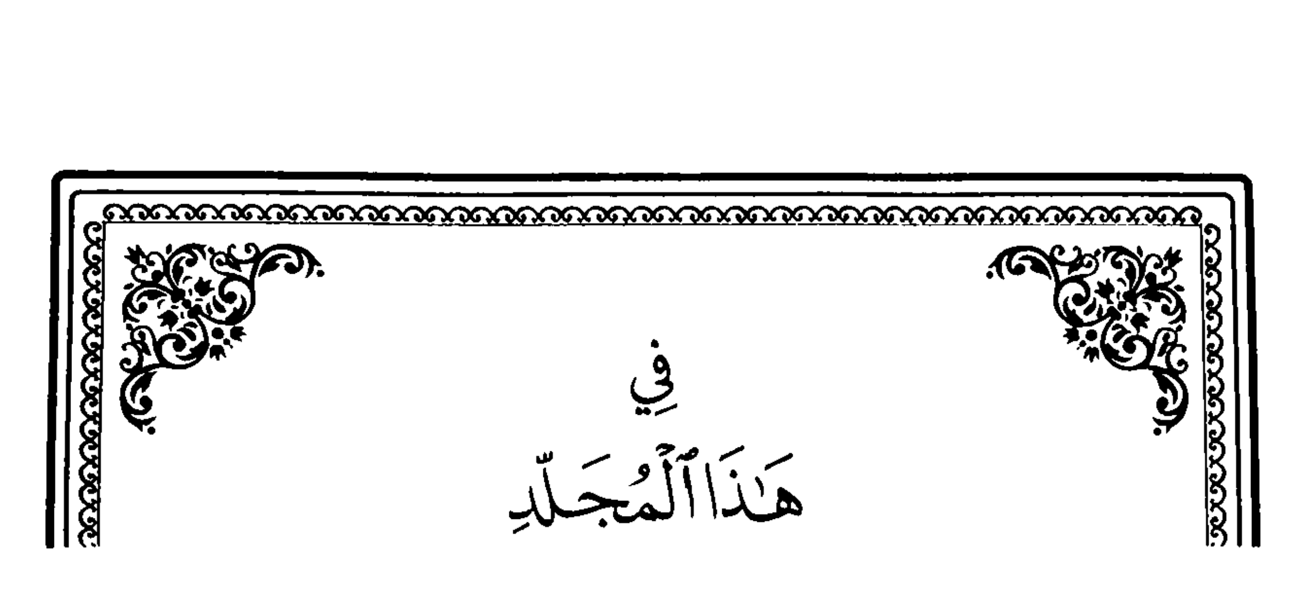
الدكتور محمد مجير الخطيب الحسني

المجلد الثاني



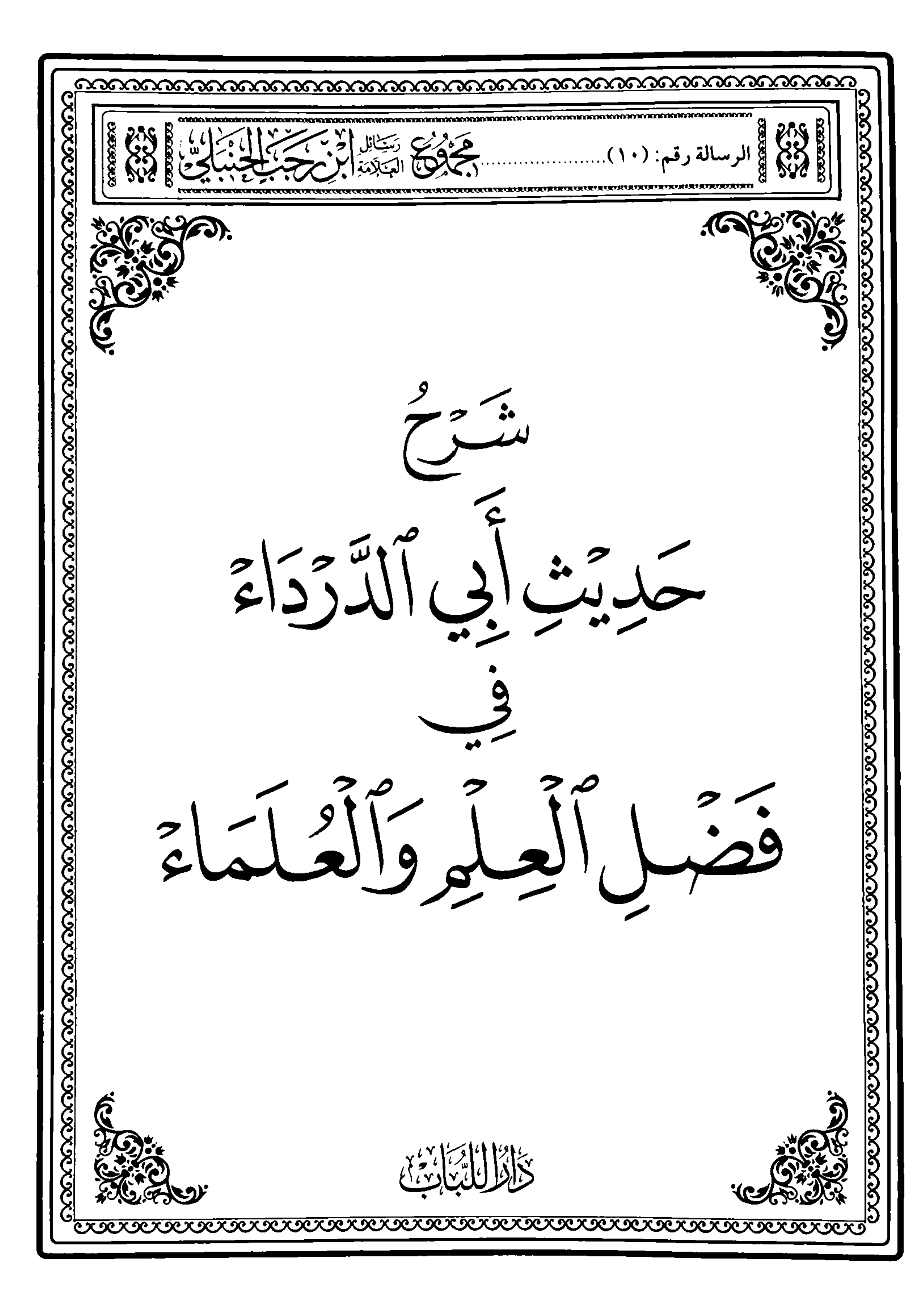
دار اللباب





في
هذا المجلد

* * *



شرح حديث أبي الدرداء في فضل العلم والعلماء

دار اللباب

المكتبة المحمودية بالمدينة المنورة (م)

مكتبة الرياض العامة بدار الإفتاء بالرياض (ض)

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين ولا حول ولا قوة الا بالله
الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه من يهده الله فلا مضل له ومن
يضلل فلا هادي له واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له واشهد
ان محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا
خرج الامام احمد وابو داود والترمذي وابن ماجة في كتبهم ان
رجلا قدم من المدينة على ابي الدرداء وهو بدمشق فقال ما اقدمك يا اخي
قال حديث بلغني انك تحدث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اما
جئت لحاجة الا في طلب هذا الحديث قال نعم قال فاني سمعت رسول
الله صلى الله عليه وسلم يقول من سلك طريقا يلتمس فيه علما سلك الله
به طريقا الى الجنة وان الملائكة لتضع اجنحتها رضى لطالب العلم
وان العالم يستغفر له من في السموات ومن في الارض حتى الحيتان
في الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر
الكواكب

سائر الكواكب ان العلماء ورثة الانبياء وان الانبياء لم يورثوا دينارا
ولا درهما وانما ورثوا العلم فمن اخذه اخذ بحظ وافر وكان
السلف الصالح رضي الله عنهم لتوفر هممهم في العلم والدين والخير يرحل
الرجل منهم الى بلد بعيد لطلب حديث واحد بلغه عن النبي صلى الله عليه وسلم
وقد رحل ابو ايوب الانصاري من المدينة الى مصر للقاء رجل من الصحابة
بلغه عنه حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك
فعل جابر بن عبد الله ... مع كثرة ما سمع من النبي صلى الله
عليه وسلم من الحديث ...
في الفضل لطالب شيء من العلم لا يجده الا عنده وينبغي في هذا المعنى
ما قص الله علينا من قصة موسى ... في طلب العلم فلو
استغنى احد عن الرحلة في طلب العلم لاستغنى عنها موسى عليه
السلام حيث كان الله قد كلمه واعطاه التوراة التي كتب فيها من
كل شيء ومع هذا فلما اخبره الله عن الخضر ان عنده علما ...
به سال السبيل الى لقيه ثم سار هو وفتاه اليه كما قال تعالى واذ
قال موسى لفتاه لا ابرح حتى ابلغ مجمع البحرين او امضي حقبا
... ثم اخبر انه لما لقيه قال له هل اتبعك على ان
تعلمن مما علمت رشدا وكان من امرهما ما قصه الله في كتابه وحديث
ابي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم في قصة موسى والخضر مخرج

مكتبة الرياض العامة (هـ)

ويليه شرح حديث من سلك طريقا يلتمس فيه
علما لابن رجب في فضل العلم وطلبه للمؤلف
المذكور رحمه الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه من يهدي الله فلا مضل
له ومن يضلل فلا هادي له واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك
له واشهد ان محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه
وسلم تسليما كثيرا اخرج الامام احمد وابو داود والترمذي
وابن ماجة في كتبهم ان رجلا قدم من المدينة على ابي الدرداء وهو بدمشق
فقال ما اقدمك يا اخي قال حديث بلغني انك تحدث به عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال اما جئت لحاجة قال لا قال اما قدمت لتجارة قال لا قال
ما جئت الا في طلب هذا الحديث قال نعم قال فاني سمعت رسول الله صلى
الله عليه وسلم يقول من سلك طريقا يلتمس فيه علما سلك الله له به طريقا
الى الجنة وان الملائكة تضع اجنحتها رضى لطالب العلم وان العالم ليستغفر
له من في السموات ومن في الارض حتى الحيتان في الماء وفضل العالم على العابد كفضل

مكتبة جامعة الرياض ثم جامعة الملك سعود (س)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً خرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه في كتبهم أن رجلاً قدم المدينة على أبي الدرداء وهو بدمشق فقال ما أقدمك يا أخي قال حديث بلغني أنك تحدث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أما جئت لحاجة قال لا قال ما جئت إلا في طلب هذا الحديث قال نعم قال فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سلك الله له به طريقاً إلى الجنة وإن الملائكة تضع أجنحتها رضى لطالب العلم لما يصنع وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر وكان السلف الصالح رضي الله عنهم لقوة رغبتهم في العلم والدين والخير يرتحل أحدهم من بلده إلى بلد لطلب حديث واحد يبلغه عن النبي صلى الله عليه وسلم وقد رحل أبو أيوب الأنصاري من المدينة إلى مصر للقاء رجل من الصحابة بلغه عنه حديث يحدثه عن النبي صلى الله عليه وسلم وكذلك فعل جابر بن عبد الله الأنصاري مع كثرة ما سمع من النبي صلى الله عليه وسلم من الحديث ورواه عنه وكان أحدهم يرحل إلى من دونه في الفضل والعلم لطلب شيء من العلم لا يجده عنده ويكفي في هذا المعنى ما قص الله علينا من قصة موسى وارتحاله مع فتاه فلو استغنى أحد من الرحلة في طلب العلم لاستغنى عنها موسى عليه السلام حيث كان الله قد كلمه وأعطاه

مكتبة الرياض (ط)

مركز جمعة الماجد (ج)

وعلى نبينا الصلاة والسلام، ويندرج تحت ذلك: معرفة فضلها، واحتساب أجرها، والتأدب بآدابها من العالم ومن المتعلم.

ـ **تمييز العلم النافع عما سواه**: وإنما العلمُ النافعُ ما أورثَ صاحبه معرفة الله تعالى وعظمته، وخشيته، وإجلاله، وتعظيمه، ومحبته، فكان لشرع الله طائعاً، ولله تعالى خاشعاً، وبقربه سبحانه طامعاً.

ـ **معرفة شرف العلم وفضله والقيام بحقه**: وأن الخلائق من الملائكة فمن دونهم حتى الحيتان تُعظِّم طالب العلم، وتستغفر له؛ فيدعو ذلك طالبَ العلم إلى معرفة هذه النعمة وشكرها بالقيام بحقها، والتواضع للخلائق، والرحمة لهم، والشفقة عليهم، كما أن هذا يدل أيضاً على مدى السوء والكبر والبغي عند العصاة ممن يُبغضون مَنْ أحبه الخالق واستغفرت له الخلائق.

ـ **فضل العالم على العابد، وفضل العلم على العبادة**: وذلك فيما فَضَل على الفريضة منها، وفي فهم هذا سبيل النجاة مما يعرض للناس من الخطأ في تصوراتهم في هذا الباب.

ـ **العلماء ورثة الأنبياء، وخلفاؤهم في أممهم**: وهذا مما جاء في الكتاب العزيز، وأشار إليه قول الله جل جلاله ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦]، وقوله عن زكريا ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾ [مريم: ٤ـ٥]. وهذا ميراث العلم والنبوة لا المال باتفاق العلماء. وعلماء الأمة ورثوا علم نبيهم ﷺ، وهذا من عظيم التشريف، لكن وراءه ثقيل التكليف، فمن لم يراع حق التكليف لم يحظ بذلك التشريف.

إن يقظة الأمة من سباتها، ونهضتها من كبواتها ونكباتها لا تكون إلا بأن يسبقها

علماؤها إلى ذلك، وما لـم يـع الناس حقيقة العلم وحقيقة العالم؛ فإنهم على شفا هلكة باتِّباعهم السُّبل التي تفرَّق بهم عن سبيل الله.

وعلى الله قصد السبيل.

* * *

لم يذكر هذه الرسالة أحد ممن ترجم للحافظ ابن رجب رحمه الله، وقد ذكر خلاصة مقاصدها في كتابه «جامع العلوم والحكم» في شرح الحديث السادس والثلاثين حديث أبي هريرة رضي الله عنه (٢/ ٢٩٦ ـ ٣٠٠).

وقد اعتمدت في تحقيق الرسالة على ست نسخ خطية:

١ ـ نسخة المكتبة المحمودية بالمدينة المنورة على ساكنها الصلاة والسلام، ورمزها (م)، وأثبتُّ عنوان الكتاب كما جاء فيها.

وهي الرسالة الخامسة من مجموع رقمه (١٧٤٢) ـ وقد تقدم التعريف بـه في المقدمات ـ، تقع في (٣٩) لوحة (من ٧٩/ أ إلى ١١٧/ ب).

وهي بخط أحمد بن محمد بن خضر القطان النجاد الحنبلي، كتبت في القرن التاسع الهجري، ففي المجموع سماع بتاريخ ٨٣٦.

٢ ـ نسخة مكتبة الرياض العامة بدار الإفتاء بالرياض، ورمزها (ض)، وهـي الرسالة الرابعة من مجموع رقمه (٦٨٦/ ٨٦) ـ وقد تقدم التعريف به في المقدمات، ولم يُذكر فيها عنوان الرسالة. وتقع في (١٦) لوحة (من ٢٧/ أ إلى ٤٢/ ب).

وهي بخط إبراهيم بن حمد بن محمد بن حمد بن عبد الله بن عيسى، في شهر ربيع الأول ١٢٥٤. وبحاشيتها عناوين تدل على عناية صاحبها.

٣ ـ نسخة مكتبة الرياض العامة، ورد إليها من مكتبة الشيخ محمد بن إبراهيم، ورمزها (هـ)، وهي الرسالة العاشرة من مجموع رقمه (٢٦٩/ ٨٦)، وجاء العنوان فيها: «شرح حديث أبي الدرداء في فضل طلب العلم». وتقع في ٢٦ لوحة. لم يذكر الناسخ اسمه، وتاريخها: الجمعة ٤ جمادى الآخرة ١٣١٦.

٤ ـ نسخة مكتبة جامعة الرياض (ثم جامعة الملك سعود)، ورمزها (س)، وهي الرسالة الخامسة من مجموع رقمه (١٦٣٧) ـ وقد تقدم التعريف به في المقدمات. وعنوان الرسالة فيها «شرح حديث من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً إلى آخره في فضل العلم وطلبه».

وتقع في ١٦ لوحة (من ص: ١٠٩ إلى ص: ١٣٩)، وهي بخط عبد الله بن إبراهيم بن محمد بن ربيعة الربيعي. ووقع تاريخ الرسالة التي تليها في المجموع ـ ذم المال والجاه ـ في رجب ١٣٣٣. وهي مقابلة ومصححة على نسختين.

٥ ـ نسخة مكتبة الرياض السعودية، ورمزها (ط)، وهي الرسالة الخامسة من مجموع رقمه (٥٢٧/ ٨٦) ـ وقد تقدم التعريف به في المقدمات ـ، وكانت في حوزة الشيخ محمد بن عبد اللطيف آل الشيخ، وعنوان الرسالة فيها: «شرح حديث من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً إلى آخره في فضل العلم وطلبه».

وتقع في (١٨) لوحة، وهي كثيرة التصحيف والأغلاط، ويبدو أنها منقولة من النسخة (س) لتطابقهما حتى في العنوان. لم يُذكر اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ، لكنه في حدود (١٣٣٦) كما في رسائل أخرى من المجموع.

٦ ـ مصورة مكتبة جمعة الماجد (٩١٦٩١٢)، ورمزها (ج) وهي ضمن مجموع، يسبقها رسالة «تحقيق كلمة الإخلاص» للمصنف رحمه الله. وعنوان الرسالة فيها: «شرح حديث أبي الدرداء في فضل طلب العلم». وتقع في (١٣) لوحة (من ١٠٣/أ

إلى ١١٤/ أ). لم يُذكر اسم الناسخ، وأما تاريخ النسخ فهو ١٠ صفر ١٣٣٩، وهي كثيرة التصحيف والأغلاط، وتتوافق كثيراً مع النسخة (هـ).

وثمة نسخ أخرى منها.

ـ نسخة في ضمن كتاب «الكواكب الدراري» لابن عروة الحنبلي في المجلد (٢٨) منه.

ـ نسخة المكتبة الصديقية بحلب، وهي الآن في المكتبة العامة بدمشق (١٧٣٩٥ت١) ضمن مجموع بخط فارسي (١٧ ورقة) (من ٢٢ إلى ٣٨)، مسطرتها: ١٩ سطراً.

ـ نسخة بغدادية، في مكتبة الأوقاف العامة (٤٧٦٧/ ١٥) في ١٤ صفحة.

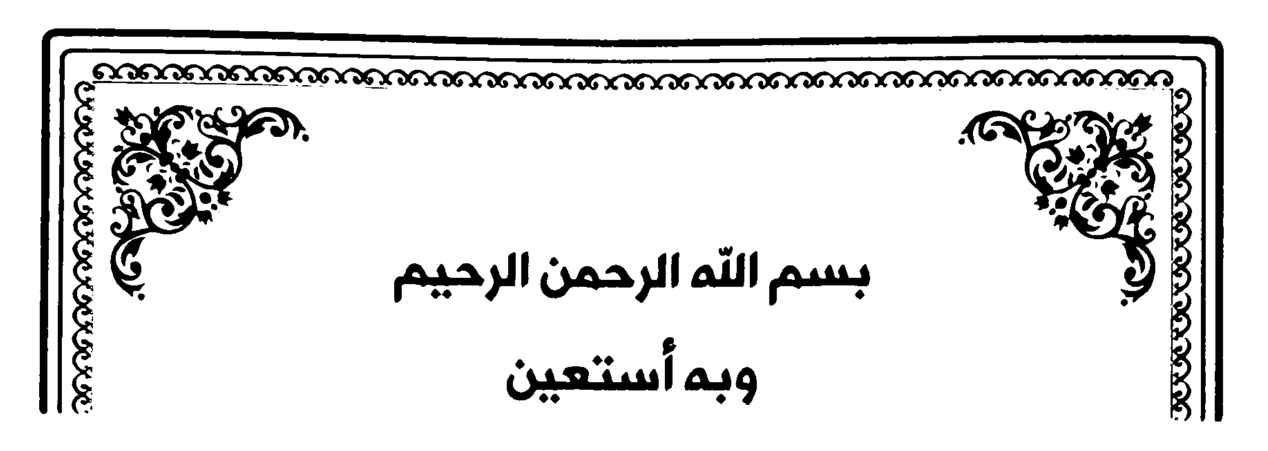
ـ نسخ نجدية متأخرة.

وقد نَشَر الكتاب قديماً بمكة المكرمة: الشيخ عبد الظاهر أبو السمح، ثم نشره السيد محب الدين الخطيب بمصر ١٣٤٧، ثم الأستاذ محمد مفيد الخيمي بدمشق ـ دار الخافقين ـ ١٤٠٢، ثم الأستاذ أشرف عبد المقصود بالقاهرة ـ مكتبة التراث الإسلامي ـ ١٤٠٧، لكنه سمَّى الكتاب بما لم يسمه به مؤلفه، ولا يوجد في شيء من نسخه الخطية: «ورثة الأنبياء شرح حديث أبي الدرداء» بل هو اجتهاد منه أو من الناشر، وعنه أثبت ذلك ناشر المجموع، فلينتبه لذلك. ولم نقابل نسختنا هذه بشيء من تلك المطبوعات.

والله تعالى أعلم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه

محمد مجير الخطيب الحسني



بسم الله الرحمن الرحيم

وبه أستعين

قال الشيخُ الإمامُ العالمُ العلَّامة، شيخُ الإسلام، أبو الفرجِ عبدُ الرحمن ابنُ الشيخِ الإمامِ الزَّاهدِ أبي العباس أحمدَ بنِ رجبٍ الحنبليُّ رحمه الله ورضي عنه[1]:

الحمدُ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستهديه، مَن يهدِه اللهُ فلا مضِلَّ له، ومَن يُضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إلهَ إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وصحبِه وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

خرَّجَ الإمامُ أحمدُ، وأبو داودَ، والتِّرمذيُّ، وابنُ ماجه في كُتُبِهم: أنَّ رجلًا قَدِمَ منَ المدينةِ على أبي الدَّرداءِ وهو بدمشقَ، فقالَ: ما أقدَمَكَ يا أخي؟ قالَ: حَديثٌ

---

(١) هذه مقدمة النسخة (م). وفي (ض): «قال الشيخ الإمام العالم العلامة عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى». وفي (هـ): «هذا شرح حديث أبي الدرداء في فضل طلب العلم، لابن رجب رحمه الله. بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين ولا حول ولا قوة إلا بالله».

ولا شيء في (س) و(ط)، وجاء العنوان فيهما: «شرح حديث من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً إلى آخره في فضل العلم وطلبه».

وفي (ج): «شرحُ حديثِ أبي الدَّرداءِ في فضلِ طلَبِ العلمِ، تأليفُ الشَّيخِ العالمِ العلَّامةِ والبحرِ الفهّامةِ أبو الفرجِ عبدُ الرَّحمنِ بنُ أحمدَ بنِ رجَبٍ الحنبليُّ رحمَه اللهُ تعالى وعفى عنه بمنِّه وكَرَمِه. بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ وبه نستعينُ وعليه نتوكَّلُ ونعتَمِدُ، وبه الثِّقةُ والعِصمةُ، ولا حولَ ولا قوّةَ إلّا باللهِ العليِّ العظيمِ».

بلَغَني أنَّكَ تحدِّثه[١] عن رسولِ اللهِ ﷺ، قالَ: أما جئتَ لحاجةٍ؟ قالَ: لا، قالَ: أما قدِمتَ لِتجارةٍ؟ قالَ: لا، قالَ: ما جِئتَ[٢] إلّا في طَلَبِ هذا الحديثِ؟ قالَ: نعم، قالَ: فإنِّي سمعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «مَن سَلَكَ طَريقًا يلتَمِسُ فيه عِلمًا سَلَكَ اللهُ لهُ به طَريقًا إلى الجنَّةِ، وإنَّ الملائكةَ لتضع[٣] أجنِحتَها لطالِبِ العِلمِ رضىً[٤]، وإنَّ العالِمَ لَيستغفِرُ[٥] له مَن في السَّماواتِ ومَن في الأرضِ حتى الحيتانُ في الماءِ، وفَضْلُ العالِمِ على العابِدِ كفَضْلِ القَمَرِ لَيلةَ البَدرِ على سائِرِ الكَواكِبِ، إنَّ العُلماءَ[٦] ورثةُ الأنبياءِ، وإنَّ الأنبياءَ لم يُورِّثوا دِينارًا ولا دِرهمًا، وإنَّما وَرَّثوا العِلمَ، فمَن أخذَه أخذَ بحظٍّ وافِرٍ»[٧].

---

(١) في (س) و(ط): «تحدث به»، وفي (ج): «تحدث».

(٢) قوله: «قال: لا، قال: أما قدمت لتجارة؟ قالَ: لا، قالَ: ما جئتَ» من (س) وحدها، ولا توجد في سائر نسخنا، وهي ثابتة في «المسند» و«الترمذي» لذلك أثبتها في الصلب.

(٣) في (س) و(ط): «تضع».

(٤) في (س) و(ط): «رضى لطالب العلم لما يصنع»، وفي الترمذي: «رضا لطالب العلم». ونقله ابن الملقن في «التوضيح» (٣/ ٣٢٢) عن الترمذي كما هو المثبت هنا.

(٥) في (هـ) و(ج): «يستغفر».

(٦) في (س) و(ط): «وإن».

(٧) مدار الحديث على عاصم بن رجاء بن حيوة:

أخرجه الإمام أحمد (٢١٧١٥)، والترمذي (٢٦٨٢) عنه، عن قيس بن كثير، عن أبي الدرداء.

وأخرجه أبو داود (٣٦٣٦)، وابن ماجه (٢٢٣) عنه، عن داود بن جميل، عن كثير بن قيس، به.

قال الترمذي بعد روايته: «وليس هو عندي بمتصل»، وذكر أن من رواه بزيادة ـ داود بن جميل ـ أصح. قال: «ورأي محمد بن إسماعيل: هذا أصح» أي بدون الزيادة.

وذكر البخاري في كتاب العلم من «صحيحه»، باب العلم قبل القول والعمل (١٠) جملاً منه ولم يذكرها عن النبي ﷺ.

وقد عقد الإمام ابن عبد البر فصلاً في «جامع بيان العلم وفضله» لهذا الحديث، وبيَّن علله.

كانَ[1] السَّلفُ الصَّالحُ رَضِيَ اللهُ عنهم لِقوّةِ رَغبتِهم في العِلمِ والدِّينِ والخَيرِ يرتَحِلُ أحدُهم إلى بلَدٍ بَعيدٍ، لطَلَبِ حديثٍ واحدٍ يبلُغُه عنِ النَّبيِّ ﷺ[2]، وقد رَحَلَ أبو أيُّوبَ الأنصاريُّ منَ المدينةِ إلى مصرَ للقاءِ رَجُلٍ منَ الصَّحابةِ بلغَه عنه حديثٌ يُحدِّثُه عنِ النَّبيِّ ﷺ[3]، وكذلكَ فعلَ جابرُ بنُ عبدِ اللهِ الأنصاريُّ، معَ كَثرةِ ما سَمِعَ منَ النَّبيِّ ﷺ منَ الحديثِ ورَوَى عنه[4].

وكانَ أحدُهم يرحَلُ[5] إلى مَن دُونَه في الفَضلِ[6]؛ لطَلَبِ شيءٍ منَ العِلمِ لا يجدُه إلّا عندَه، ويكفي في هذا المعنى ما قصَّ اللهُ علينا من قِصّةِ موسَى وارتحالِه معَ فتاهُ في طلب العِلمِ، فلو استغنى أحدٌ عنِ الرِّحلةِ في طَلَبِ العِلمِ لاستغنى عنها موسى عليه السَّلامُ، حيثُ كانَ اللهُ قد كلَّمَه، وأعطاه التَّوراةَ التي كتَبَ له فيها من كلِّ شيءٍ، ومعَ هذا فلمّا أخبرَه اللهُ عزَّ وجلَّ عنِ الخَضِرِ أنَّ عندَه عِلمًا يختَصُّ به سألَ السَّبيلَ إلى لُقيِّه[7]، ثمَّ سارَ هو وفتاه إليه، كما قالَ تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ [الكهف: ٦٠] يعني: سِنينَ عديدةً،

---

(١) في (س) و(ط): «وكان».

(٢) وقد جمع ذلك الحافظ البغدادي في جزء «الرحلة في طلب الحديث الواحد» مطبوعة بتحقيق شيخنا العلامة نور الدين عتر رحمه الله.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (١٧٤٥٤)، والصحابي هو عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٤) علقه البخاري في كتاب العلم، باب الخروج في طلب العلم (١٩) رحل إلى عبد الله بن أنيس في حديث واحد، وعلقه أيضاً بعد حديث (٧٤٨١). والحديث أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٦٠٤٢).

(٥) في (ض) و(هـ) و(ج): «يرتحل».

(٦) زاد ناسخ (س) و(ط): «والعلم».

(٧) في حاشية (س) إشارة إلى نسخة (لقائه). والصواب المثبت.

ثم أخبرَ أنَّه لمّا لَقِيَه قالَ له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦] وكان مِن أمرِهما ما قصَّه اللهُ في كتابِه.

وحديثُ أُبيِّ بـنِ كَعبٍ عنِ النَّبيِّ ﷺ في قِصَّةِ موسى والخَضِرِ مخرَّجٌ في الصَّحيحَينِ، وهو مشهورٌ[١].

وكانَ ابنُ مسعودٍ يقولُ: واللهِ الذي لا إلهَ إلّا هوَ ما أُنزِلَت سورةٌ من كتابِ اللهِ إلّا وأنا أعلَمُ أينَ أنزلت، ولا أُنزلت آيةٌ من كتابِ اللهِ إلّا وأنا أعلمُ فيما[٢] أُنزِلَت، ولو أعلمُ أحدًا أعلمَ منِّي بكتابِ اللهِ تَبلُغُه الإبلُ لَركبتُ إليه[٣].

وقالَ أبو الدَّرداءِ: لو أَعيَتْني آيةٌ من كتابِ اللهِ فلَم أجِدْ أحدًا يفتَحُها عليَّ إلّا رجلًا[٤] بِبِرْكِ الغُماد لرَحَلْتُ إليه. وبِرْكُ الغُمادِ: أقصَى اليَمَنِ[٥].

وخرجَ مسروقٌ منَ الكوفةِ إلى البَصرةِ إلى رجلٍ يسأله عن آيةٍ فلم يجِدْ عندَه فيها عِلمًا، فأُخبِرَ عن رجلٍ من أهلِ الشّامِ، فرَجَعَ إلى الكوفةِ، ثمَّ خرَجَ إلى الشّامِ إلى ذلكَ الرَّجلِ في طَلَبِها[٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤)، ومسلم (٢٣٨٠).

(٢) في (ج): «فيمن».

(٣) أخرجه البخاري (٥٠٠٢)، ومسلم (٢٤٦٣).

(٤) المثبت من (م)، وفي جميع النسخ: «رجلٌ»!

(٥) أخرجه أبـو عبيد فـي «فضائل القرآن» (ص: ١٠١)، وضَبْطُ (بِرك الغُماد) منه. وذَكـر غيره الضمَّ والفتح. وفـي (م) ضبطت بالقلم بفتح الراء وكسر الغين. وانظر: «فتح الباري» لابن حجر (شرح الحديث ٣٩٠٥).

(٦) أخرجه ابن أبي خيثمة في «تاريخه» (السفر الثالث ٤٠٤٠).

ورحلَ رجلٌ منَ الكوفةِ إلى الشّامِ إلى أبي الدَّرْداءِ، ليستفتيه[1] في يَمينٍ حَلَفَها[2].

ورحلَ سعيدُ بنُ جُبيرٍ منَ الكوفةِ إلى ابنِ عبّاسٍ ليسأله عن تفسيرِ آيةٍ[3].

ورحلَ الحسنُ إلى الكوفةِ إلى كَعبِ بنِ عُجرةَ ليسألَه عن قصَّته في فِديةِ الأذَى[4]. واستقصاءُ هذا البابِ يطولُ.

وحلفَ رجلٌ بيمين[5] فأشكَلَت على الفُقهاءِ، فدُلَّ على بَلَدٍ فاستبعَدَه، فقِيلَ له: إنَّ ذلكَ البلَدَ قريبٌ على مَن أهمَّه دِينُه.

وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ مَن أهمَّه أمرُ دِينِه كما يهمُّه أمرُ دُنياهُ، إذا حَدَثَت له حادِثةٌ في دِينِه لا يجِدُ مَن يسألُه عنها إلّا في بَلَدٍ بعيدٍ فإنَّه لا يتأخَّرُ عنِ السَّفرِ إليه؛ لِيستَبرِئَ لِدينِه، كما أنَّه لو عَرَضَ له هناكَ كَسْبٌ دُنيويٌّ لَبادَرَ إلى السَّفرَ إليه ولم يتأخَّرُ.

* * *

---

(١) في (س) و(ط): «يستفتيه».

(٢) أخرج ابن أبي شيبة (١٩٣٩٩) عن أبي عبد الرحمن السلمي، في قصة: أن امرأة حلفت أن طعام ابنها وشرابه عليها حرام حتى يطلق امرأته، وأخرجه الإمام أحمد (٢١٧١٧) من وجه آخر: أن والديه أمراه بتطليق امرأته، فجعل عليه مئة محرر، فأتى أبا الدرداء...

(٣) أخرجه البخاري (٤٥٩٠)، ومسلم (٣٠٢٣). والآية في خلود القاتل في النار.

(٤) أخرجه الخطيب في «الرحلة في طلب الحديث» (٥٢)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٠/ ١٤٧).

(٥) المثبت من (م)، وفي (هـ) و(ج): «على يمين»، وفي (ض) و(س) و(ط): «رجل يمين»!

وفي هذا الحديثِ: أنَّ أبا الدَّرداءِ بشَّرَ مَن أخبرَه أنَّه رَحَلَ إليه لِطلَبِ الحديث بما سَمِعَه من النَّبيِّ ﷺ في فضلِ العِلمِ وطَلَبِه، وهذا مأخوذٌ من قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] الآية.

وقد ازدَحَمَ النّاسُ مرّةً على بابِ الحَسنِ البّصريِّ لِطَلَبِ العِلمِ، فأسمعَهم ابنه كلامًا، فقالَ الحَسنُ: مهلًا يا بُنيَّ، ثمَّ تلا هذه الآيةَ[1].

وفي كتابِ التِّرمذيِّ، وابنِ ماجَه، عن أبي سعيدٍ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ وَصّاهم بطَلَبةِ العِلمِ والمتفقِّهينَ في الدِّينِ[2].

ولما جاءَ زِرُّ بنُ حُبيشٍ إلى صَفوانَ بنِ عَسّالٍ في طَلَبِ العِلمِ قالَ له: بلغَني «أنَّ الملائكةَ تضعُ أجنحتَها لطالِبِ العِلمِ»[3]، وفي رِوايةٍ: أنّه روَى له ذلكَ عنِ النَّبيِّ ﷺ[4].

---

(١) أخرج ابن أبي الدنيا في «قصر الأمل» (٣٠٩) أثراً في ازدحام الناس على درجة الحسن رحمه الله، ونهر ابنه لهم، لكن ليس فيه أنه تلا الآية، بل فيه اعتذاره عن تجديد بنائه لهم.
وأما تلاوة هذه الآية ترحيباً بطلاب العلم، فأخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٢٢١) عن أبي العالية رحمه الله.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٥٠) (٢٦٥١)، وابن ماجه (٢٤٧) (٢٤٩) من حديث أبي هارون العبدي قال: كنا نأتي أبا سعيد، فيقول: مرحباً بوصية رسول الله ﷺ، إن رسول الله ﷺ قال: «إن الناس لكم تبع، وإن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرضين يتفقهون في الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً».

(٣) أخرجه الإمام أحمد (١٨١٠٠)، والترمذي (٣٥٣٥) (٣٥٣٦) مطولًا وذكر أحاديث، وقال: حسن صحيح، والنسائي (١٥٨).

(٤) أخرجه الإمام أحمد (١٨٠٨٩)، وابن ماجه (٢٢٦).
وفي حاشية (ض): «قال أبو حاتم الرازي: سمعت ابن أبي أويس يقول: سمعت مالك بن أنس يقول: =

وازدَحَمَ النّاسُ مرّةً على بابِ ابنِ المباركِ فقالَ: حُقَّ لهم. من ورائه[1] سُرورُ الأبدِ[2]. يغبِطُهُم بازدحامِهم على طَلَبِ العِلمِ؛ لأنَّه يؤدِّي إلى الخُلودِ في النَّعيمِ المقيمِ. ولهذا تأسَّفَ معاذٌ عندَ موتِه وبكَى على مفارقةِ مجالِسِ الذِّكرِ، فقالَ: إنَّما أبكي على ظَمَأِ الهواجِرِ، وقيامِ ليلِ الشِّتاءِ، ومزاحمةِ العلماءِ بالرُّكبِ عندَ حِلَقِ الذِّكرِ[3].

وينبغي للعالِمِ أن يترحَّبَ[4] بطلَبَةِ العِلمِ، ويوصيَهم بالعَمَلِ به، كما قالَ الحسنُ

= معنى قول رسول الله ﷺ «تضع أجنحتها»: يعني تبسطها بالدعاء لطالب العلم بدلاً من الأيدي.

وقال أحمد بن مروان المالكي في كتاب «المجالسة» (٢١٥٤) له: ثنا زكريا بن عبد الرحمن البصري قال: سمعت أحمد بن شعيب يقول: كنا عند بعض المحدثين بالبصرة، فحدثنا بحديث النبي ﷺ: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم»، وفي المجلس معنا رجل من المعتزلة، فجعل يستهزئ بالحديث، فقال: والله لأقطرنَّ غداً نعلي فأطأ بها أجنحة الملائكة، ففعل ومشى في النعلين، فجفَّت رجلاه جميعاً، ووقعت في رجليه الأَكَلة.

وقال الطبراني: سمعت أبا يحيى زكريا بن يحيى الساجي قال: كنا نمشي في أزقة البصرة إلى باب بعض المحدثين، فأسرعنا المشي، وكان معنا رجلٌ ماجن، متهم في دينه، فقال: ارفعوا أرجلكم عن أجنحة الملائكة، لا تكسروها! كالمستهزئ. فما زال منه موضعه حتى جفَّت رجلاه، وسقط. من «مفتاح دار السعادة» للشمس ابن القيم رحمه الله تعالى».

وهو في «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة» (١/ ١٧٣) ط: عطاءات العلم.

ومعنى أقطرن: أي يريد طلائها بالقطران.

(١) المثبت من (م). وتصحفت في (ض) و(هـ) و(ج) إلى: «رواية»، وفي (س) و(ط) إلى: «ولاية» وفي حاشيتهما «رؤية»! وكل ذلك تصحيف.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «العمر والشيب» (٣٦).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (١٠١١)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٣٩) (٥/ ١٠٣).

(٤) في (س) و(ط): «يرحِّب».

لأصحابِه وقد دخَلوا عليه يومًا: مرحبًا بكم وأهلًا، حيّاكم اللهُ بالسَّلامِ، وأدخَلنا وإيّاكم دارَ السَّلامِ، هذه عَلانيةٌ حسنةٌ أن صَبرْتم وصَدقْتم وأيقَنْتم، لا يكونَنَّ حظُّكم من هذا الخَيرِ رحمَكُم اللهُ أن تسمعوه[١] بهذه الأذُنِ فيخرُجَ من هذه الأذُنِ، فإنَّه مَن رأى محمَّدًا ﷺ فقد رآه غاديًا ورائحًا، لم يضَعْ لَبِنةً على لَبِنةٍ، ولا قَصَبةً على قَصَبةٍ، ولكنْ رُفِعَ له عَلَمٌ فشمَّرَ إليه، الوَحا الوَحا، النَّجا النَّجا، عَلامَ تُعرِّجونَ[٢]؟ أُتيتُم وربِّ الكَعبةِ كأنَّكم والأمرُ معًا[٣].

* * *

ولْنشرَعِ الآنَ في شرحِ حديثِ أبي الدَّرداءِ رَضِيَ اللهُ عنه الذي رواه عنِ النَّبيِّ ﷺ.

فقولُه ﷺ: «مَن سَلَكَ طَريقًا يلتَمِسُ فيه عِلمًا سَلَكَ اللهُ له بِهِ طَريقًا إلى الجَنَّةِ».

وفي روايةٍ أخرى: «**سهَّلَ اللهُ له به طَريقًا إلى الجنَّةِ**»[٤].

وفي صحيحِ مسلمٍ عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «مَن سَلَكَ طَريقًا يلتَمِسُ فيه عِلمًا سَهَّلَ اللهُ له به طَريقًا إلى الجنَّةِ»[٥].

سُلُوكُ الطَريقِ لالتماسِ العِلمِ، يحتَمِلُ أن يُرادَ به: السُّلوكُ[٦] الحقيقيُّ، وهو

---

(١) في (ض) و(هـ) و(ج): «تسمعوا»، وفي (س) و(ط): «تستمعوه».

(٢) في حاشية (س) و(ض) و(هـ) و(ج): «تعرضون».

(٣) الوحا: السرعة والاستعجال. وأخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (١٥٩٦)، وابن أبي الدنيا في «قصر الأمل» (١٧٦).

(٤) عند ابن ماجه.

(٥) «صحيح مسلم» (٢٦٩٩).

(٦) في (ج) وحدها: «السلوك للطريق».

السعي[١] بالأقدامِ إلى مجالِسِ العلمِ، ويحتَمِلُ أن يشمَلَ ما هو أعمُّ من ذلكَ من سُلوكِ الطرق[٢] المعنويّةِ المؤدِّيةِ إلى حُصولِ العلمِ، مثلُ حفظِه، ودِراستِه، ومطالعتِه، وكتابتِه، ومذاكرتِه، والتَّفهُّمِ له، والتَّفكُّرِ فيه، ونحوِ ذلكَ من الطُّرُقِ التي يُتوصَّلُ بها إلى العلمِ.

وأمّا قولُه: «سَهَّلَ اللهُ له به طَرِيقًا إلى الجنّةِ» فإنّه يحتَمِلُ أمورًا:

منها: أن يُسهِّلَ اللهُ لطالبِ العِلمِ العِلمَ الذي طلبَه وسَلَكَ طريقَه، وييسِّرَه عليه، فإنَّ العِلمَ طريقٌ موصِلٌ إلى الجنّةِ، وهذا كقولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧] قالَ طائفةٌ منَ السَّلفِ في هذه الآيةِ: هل من طالِبِ علمٍ فيُعانَ عليه[٣].

ومنها: أن ييسِّرَ اللهُ لطالبِ العِلمِ العملَ بمقتضى العلمِ[٤]، إذا قصَدَ بتعلُّمِه وجهَ اللهِ، فيجعلُه اللهُ سببًا لهدايتِه والانتفاعِ به والعملِ به، وذلك من طُرُقِ الجنّةِ الموصِلةِ إليها.

ومنها: أنَّ اللهَ تعالى ييسِّرُ لطالبِ العلمِ الذي يطلُبُه[٥] للعمَلِ به علومًا أُخرَ ينتفِعُ بها، فيكونُ ذلك طريقًا موصِلًا إلى الجنّةِ، وهذا كما قيلَ: مَن عَمِلَ

---

(١) في (س) و(ط): «المشي».

(٢) في (هـ) و(س) و(ط): «الطريق».

(٣) علقه البخاري في «صحيحه» عن مطر الوراق، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ قبل حديث (٧٥٥١). وأخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ١٣١) عن مطر، ونحوه أيضاً عن قتادة.

(٤) في (س) و(ط): «ذلك العلم».

(٥) في (ض) و(ج): «طلبه». وفي (م): «للطالبِ العلمَ الذي يطلبه».

بما عَلِمَ أورثَه اللهُ عِلمَ ما لم يكن يعلَمْ[1]، وكما يقالُ: ثوابُ الحسنةِ الحسنةُ بعدَها[2]، وإلى هذا الإشارةُ[3] بقولِه تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى ﴾ [مريم: ٧٦]، وقولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد: ١٧]، فمَن التمسَ العِلمَ ليهتَدِيَ به زادَه اللهُ هدًى وعلومًا نافعةً، تُوجِبُ له أعمالًا صالحةً، وكلُّ هذه طُرُقٌ موصِلةٌ إلى الجنّةِ.

ومنها: أنَّ اللهَ تعالى قد ييسِّرُ على طالبِ العِلمِ[4] للانتفاعِ به في الآخرةِ سلوكَ[5] الطَّريقِ الحسِّيِّ المفضي إلى الجنّةِ، وهو الصِّراطُ، وما بعدَه وما قبلَه منَ الأهوالِ العظيمةِ والعَقباتِ الشَّديدةِ الشّاقّةِ.

وسَببُ تيسيرِ طريقِ الجنّةِ على طالبِ العِلمِ إذا أرادَ به وجهَ اللهِ عزَّ وجلَّ

---

(١) في (هـ) و(س) و(ط) و(ج): «لم يعلم». وأخرج أبو نعيم في حكاية ذكرها في «الحلية» (١٠/ ١٥) أن أحمد بن حنبل ذكر عن يزيد بن هارون، عن حميد الطويل، عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «من عمل بما يعلم ورثه الله ما لم يعلم» قال أبو نعيم: ذكر أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى بن مريم عليه السلام فوهم بعض الرواة أنه ذكره عن النبي ﷺ، فوضع هذا الإسناد عليه لسهولته وقربه، وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الإسناد عن أحمد بن حنبل.

وأخرج ابن المقرئ في «معجمه» (٣١٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٦٣) عن عبد الواحد بن زيد قال: كان يقال: من عمل بما علم فتح له علم ما لا يعلم.

وأخرج أبو عثمان البحيري في «فوائده» (٢١) عن الفضيل: من عملَ بما علم وفقه الله لما لا يعلم.

(٢) أخرجه أبو عبد الرحمن السلمي في «طبقات الصوفية» (ص: ٣٨٢)، ومن طريقه: البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٨٢٩) من كلام أبي الحسن علي بن محمد المزين.

(٣) في (هـ) و(ج): «أشار».

(٤) المثبت من (م)، وفي سائر النسخ «لطالب».

(٥) في (س) و(ط): «الانتفاعَ به في الآخرة وسلوك».

وطلبَ[(١)] مرضاتـه: أنَّ العِلـمَ يـدلُّ علـى اللهِ مـن أقـرب الطُّرق إليـه[(٢)]، فمَن سـلَكَ طريقَـه ولـم يُعَـرِّج عنـه وصَـلَ إلـى اللهِ وإلـى الجنّـةِ مـن أقـربِ الطُّـرُقِ وأسـهلِها، فسـهلت عليهـم[(٣)] الطُّـرُقُ الموصِلةُ إلـى الجنّـةِ[(٤)] كلُّها، فـي الدُّنيا وفي الآخـرةِ[(٥)]، ومَـن سـلَكَ طريقًـا يظنُّـه طريـقَ الجنّةِ بغيـرِ علمٍ فقد سـلَكَ أعسَـرَ الطُّرُقِ وأشـقَّها، ولا يُوصِـلُ إلـى المقصـودِ مـعَ عُسـرِه وشـدّتِه، فـلا طريـقَ إلـى معرفـةِ اللهِ وإلـى الوصـولِ إلـى رِضوانِه والفـوزِ بقُربِـه ومجاورتِه في الآخـرةِ إلّا بالعِلـمِ النّافعِ، الذي بعَـثَ اللهُ به رُسُـلَه وأنـزلَ به كُتُبَه، فهـو الدَّليلُ عليـه، وبه يُهتدَى في ظلمـاتِ الجهلِ والشُّـبَهِ[(٦)] والشُّـكوكِ، وقـد سـمّى اللهُ كتابَـه نـورًا يُهتدَى به فـي الظُّلمـاتِ، كما قالَ تعالـى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥ ـ ١٦].

وقد ضرَبَ النَّبيُّ ﷺ مثلَ مَن حملَ العِلمَ الذي جاءَ به بالنُّجومِ التي يُهتدَى بها في الظُّلماتِ، كما في «المسندِ»، عن أنسٍ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إنَّ[(٧)] مثَلَ العلماءِ

---

(١) في (هـ) و(ج): «من طلب».

(٢) سبق نظر ناسخ (س) و(ط)، فزاد: «وأسهلها» من السطر الذي يليه.

(٣) في (س) و(ط): «عليه».

(٤) في (م): «الموصلة الجنةَ».

(٥) في (هـ) و(ج): «والآخرة».

(٦) في (هـ): «والشبهة»، وفي (ج): «والشبهات» ورسمها في (م) محتمل.

(٧) في (ج): «قال إنما».

في الأرضِ كمَثلِ النُّجومِ في السَّماءِ، يُهتدَى بها في ظُلماتِ البرِّ والبحرِ، فإذا انطمست[١] النُّجومُ أوشَكَ أن يَضِلَّ[٢] الهُداةُ»[٣].

وهذا مثَلٌ[٤] في غايةِ المطابقةِ؛ لأنَّ طريقَ التَّوحيدِ والعِلمِ باللهِ تعالى وأحكامِه وثوابِه وعقابِه لا يُدرَكُ بالحِسِّ، إنَّما يُعرَفُ بالدَّليلِ، وقد بيَّنَ ذلك كلَّه في كتابِه وعلى لسانِ رسولِه ﷺ، فالعلماءُ بما أنزلَ اللهُ على رسولِه ﷺ همُ الأدِلّاءُ الذينَ يُهتدَى بهم في ظُلماتِ الجهلِ والشُّبهِ والضَّلالِ، فإذا فُقِدوا ضلَّ السّالكُ.

وقد شبَّه العلماءَ بالنُّجومِ، والنُّجومُ في السَّماءِ فيها ثلاثُ فوائدَ: يُهتدَى بها في الظُّلماتِ، وهي زينةٌ للسَّماءِ، ورُجومٌ للشَّياطِينِ الذينَ يسترِقونَ السَّمعَ منها.

والعلماءُ في الأرضِ تجتمِعُ فيهم هذه الأوصافُ الثّلاثةُ، بهم يُهتدَى في الظُّلماتِ، وهم زِينةُ الأرضِ[٥]، ورجومٌ[٦] للشَّياطِينِ الذينَ يخلِطونَ الحقَّ بالباطلِ ويُدخِلونَ في الدِّينِ ما ليسَ منه من أهلِ الأهواءِ، وما دامَ العِلمُ باقيًا في الأرضِ فالنّاسُ في هدًى، وبقاءُ العِلمِ بقاءُ حملَتِه[٧]، فإذا ذهبَ حملتُه ومَن يقومُ به وقعَ النّاسُ في الضَّلالِ، كما في الحديثِ الصَّحيحِ عنِ النَّبيِّ ﷺ: «إنَّ اللهَ لا يقبِضُ العِلمَ انتزاعًا ينتزِعُه من صُدورِ الرِّجالِ، ولكن يذهَبُ العِلمُ

---

(١) في (س) و(ط): «طمست».

(٢) في (ض) و(س) و(ط): «تضل».

(٣) أخرجه الإمام أحمد (١٢٦٠٠).

(٤) «مثل» من (س) و(ط)، ولا توجد في سائر النسخ.

(٥) في (س) و(ط): «للأرض».

(٦) في (س) و(ط): «وهم رجوم».

(٧) في (ج): «ببقاء».

بذهابِ العلماءِ، فإذا لم يبقَ عالمٌ اتَّخذَ النّاسُ رؤوساً جُهّالًا، فسُئِلوا، فأفتَوا بغيرِ علمٍ، فضَلُّوا وأضَلُّوا»[١].

وخرَّجَ التِّرمذيُّ من حديثِ جُبيرِ بنِ نُفَيرٍ، عن أبي الدَّرداءِ قالَ: كنّا معَ النَّبيِّ ﷺ فقالَ: «هذا أوانُ يُختَلَسُ[٢] العِلمُ منَ النّاسِ حتّى لا يقدِروا منه على شيءٍ»، فقالَ زيادُ بنُ لَبيدٍ: كيفَ يُختَلَسُ منّا العِلمُ وقد قرأنا القرآنَ؟ فوَاللهِ لَنقرأنَّه ولَنُقرِئَنَّه نساءَنا وأبناءَنا، فقال: «ثكِلَتكَ أمُّكَ يا زيادُ، إن كُنتُ لأعُدُّكَ[٣] من فُقهاءِ المدينةِ، هذه التَّوراةُ والإنجيلُ عندَ اليهودِ والنَّصارَى، فماذا تُغني عنهم؟». قالَ جُبَيرُ بنُ نُفَيرٍ: فلَقيتُ عُبادةَ بنَ الصّامِتِ فقلتُ: ألا تسمَعُ ما يقولُ أبو الدَّرداءِ؟ فأخبرتُه بالذي قالَ، فقال: صدَقَ أبو الدَّرداءِ، لو شِئتُ لأخبرتُكَ بأوَّلِ عِلمٍ يُرفَعُ[٤] منَ النّاسِ: الخُشوعُ، يوشِكُ أن تدخُلَ مسجدَ[٥] الجامعِ فلا ترى فيه خاشِعًا[٦].

وخرَّجه النَّسائيُّ من حديثِ جُبَيرِ بنِ نُفَيرٍ، عن عَوفِ بنِ مالكٍ، عنِ النَّبيِّ ﷺ بنحوِه، وفي حديثِه: فذكَرَ ﷺ ضَلالةَ اليهودِ والنَّصارى على ما في أيديهم من

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما. واللفظ الذي ذكره المصنف أدرج فيه من غير الصحيحين: «ينتزعه من صدور الرجال»، وهي في «تاريخ دمشق» (٤٩/ ٥٤)، وفيهما: «من العباد».

(٢) في (م): «به يختلس»، وفي (س) و(ط): «يختلس به»، والمثبت من سائر النسخ وهو الموافق للمصادر.

(٣) في (ج): «لأعدنك».

(٤) في (هـ) و(ج): «ينتزع».

(٥) في (هـ) و(س) و(ج): «المسجد»، وفي الترمذي: «مسجد جماعة».

(٦) أخرجه الترمذي (٢٦٥٣)، قال: حسن غريب. وأشار إلى أنه روي من حديث جبير بن نفير عن عوف بن مالك، وسيذكره بعده من رواية النسائي.

كتابِ اللهِ، قالَ جُبَيرٌ: فلَقِيتُ شدّادَ بنَ أوسٍ فحدَّثْتُه بحديثِ عَوفٍ، فقالَ: صَدَقَ، ألا أُخبِرُكَ بأوَّلِ ذلكَ يُرفَعُ؟ الخُشوعُ حتّى لا ترى خاشِعًا[١].

وخرَّجَ الإمامُ أحمدُ نحوَه من حديثِ زِيادِ بنِ لَبيدٍ، عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّه ذكَرَ شيئًا فقالَ: «ذاكَ عندَ أوانِ ذَهابِ العِلمِ»، فذَكرَ الحديثَ، وفيه قالَ: «أوَ ليسَ اليهودُ والنَّصارى يقرؤون التَّوراةَ والإنجيلَ، لا يعملونَ بشيءٍ ممّا فيهما[٢]؟»، ولم يذكُرْ ما بعدَ هذا.

ففي هذهِ الأحاديثِ أنَّ ذهابَ العِلمِ بذهابِ العَمَلِ به[٣]، وأنَّ الصَّحابةَ رضيَ اللهُ عنهم فسَّروا ذلكَ بذهابِ العِلمِ الباطِنِ منَ القلوبِ، وأوَّلُه الخُشوعُ.

وكذا رُوِيَ عن حُذيفةَ: إنَّ أوَّلَ ما يُرفَعُ منَ العِلمِ الخُشوعُ[٤].

فإنَّ العِلمَ عِلمانِ كما قالَ الحسنُ: العِلمُ عِلمانِ: عِلمٌ على اللِّسانِ، فذاكَ حُجّةُ اللهِ على ابنِ آدمَ، وعِلمٌ في القلبِ، فذاكَ العِلمُ النّافعُ[٥].

ورُوِيَ عنِ الحسنِ مرسَلًا، عنِ النَّبيِّ ﷺ[٦].

وفي «صحيحِ مسلمٍ» عنِ ابنِ مسعودٍ قالَ: إنَّ أقوامًا يقرؤونَ القرآنَ لا يُجاوِزُ تَراقِيَهم، ولكن إذا وَقَعَ في القَلبِ فرَسَخَ فيه نفَعَ[٧].

---

(١) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٥٨٧٨).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١٧٩١٩، ١٧٩٢٠، ١٧٤٧٣) واللفظ لآخر موضع.

(٣) في (هـ) و(ج): «العلماء به»

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٩٥٤)، والإمام أحمد في «الزهد» (١٠٠٣) بنحوه.

(٥) أخرجه الدارمي (٣٧٦).

(٦) اخرجه المروزي في زوائده على «الزهد لابن المبارك» (١١٦١)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٥٠٢)، والدارمي (٣٧٧).

(٧) أخرجه مسلم (٨٢٢).

فالعِلمُ النَّافعُ هو ما باشرَ القلبَ فأوقرَ[١] فيه معرفةَ الله تعالى، وعظَمتَه، وخشيتَه وإجلالَه، وتعظيمَه، ومحبّتَه، ومتى سكنَت هذه الأشياءُ في القلب خشَعَ، فخَشَعت الجوارحُ كلُّها تَبَعًا لخُشوعِه.

وفي «صحيحِ مسلمٍ» عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّه كانَ يقولُ: «أعوذُ بالله من عِلمٍ لا ينفَعُ، ومنَ قَلبٍ لا يخشَعُ»[٢].

وهذا يدلُّ على أنَّ العِلمَ الذي لا يُوجِبُ الخُشوعَ للقلبِ فهو عِلمٌ غيرُ نافعٍ.

ورُوِيَ عنه ﷺ: «أنَّه كانَ يسألُ اللهَ عِلمًا نافعًا»[٣].

وفي حديثٍ آخرَ قالَ: «سَلوا اللهَ عِلمًا نافعًا، وتعوَّذوا باللهِ من عِلمٍ لا ينفعُ»[٤].

وأمَّا العِلمُ الذي على اللِّسانِ: فهو حُجّةُ اللهِ على ابنِ آدمَ، كما قالَ النَّبيُّ ﷺ: «و[٥] القرآنُ حُجّةٌ لكَ أو عليكَ»[٦]، فإذا ذهبَ منَ النّاسِ العِلمُ الباطِنُ بقيَ العِلمُ الظّاهرُ على الألسنةِ حُجّةً، ثمَّ يذهبُ هذا العِلمُ الذي هو حُجّةٌ بذهابِ حمَلَتِه، ولا يبقى منَ الدِّينِ إلّا رسمُه[٧]، فيبقى القرآنُ في المصاحِفِ، ثمَّ يُسرى به في آخرِ الزَّمانِ، فلا يبقى منه في المصاحِفِ ولا في القُلوبِ شيءٌ[٨].

---

(١) في (هـ) و(ج): «فأوقد»!. وفي (ض): «فأقر».

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٢٢)، من حديثٍ أطول من هذا لزيد بن أرقم رضي الله عنه. وفي (س): «إني أعوذ»، وهو في مسلم «اللهم إني أعوذ...».

(٣) أخرجه النسائي في الاستعاذة من «السنن الكبرى» (٨٠١٦) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٣٨٤٣) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٥) من (س) و(ط) وسقط من سائر النسخ.

(٦) أخرجه مسلم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٧) المثبت من (م) وتصحف في سائر النسخ إلى: «اسمه».

(٨) انظر الأحاديث والآثار في ذلك في الجزء الذي صنفه الحافظ ضياء الدين المقدسي رحمه الله تعالى: «اختصاص القرآن بعوده إلى الرحيم الرحمن»، وهو مطبوع.

ومن هنا قسَمَ مَن قسَمَ منَ العلماءِ العِلمَ إلى: باطنٍ وظاهرٍ.

فالباطنُ: ما باشرَ القلوبَ فأثمرَ لها الخشيةَ، والخشوعَ، والتَّعظيمَ، والإجلالَ، والمحبّةَ، والشَّوقَ، والأُنس.

والظّاهرُ: ما كانَ على اللِّسانِ، فبه تقومُ حُجّةُ اللهِ على عبادِه.

وكتبَ وَهْبُ بنُ منبِّهٍ إلى مكحولٍ: إنَّكَ امرؤٌ قد أَصبْتَ بما ظَهرَ من عِلمِ الإسلامِ شَرفًا، فاطلُبْ بما بطَنَ من عِلمِ الإسلامِ محبّةً وزُلفى[١].

وفي رِوايةٍ أُخرَى أنّه كتبَ إليه: إنّكَ قد بلغتَ بظاهِرِ عِلمِكَ عندَ النّاسِ منزلةً وشَرفًا، فاطلبْ بباطنِ عِلمِكَ عندَ اللهِ منزلةً وزُلفَى، واعلَمْ أنَّ إحدى المنزلتَينِ تمنعُ الأُخرَى[٢].

فأشارَ وَهْبٌ بعِلمِ الظّاهرِ إلى عِلمِ الفتاوى والأحكامِ، والحلالِ والحرامِ، والقَصصِ والوَعظِ، وهو ما يظهرُ على اللِّسانِ، وهذا العِلم يوجِبُ لصاحبِه محبّةَ النّاسِ له وتقدُّمَه عندَهم، فحذَّرَه منَ الوقوفِ عندَ ذلكَ والرُّكونِ إليه، والالتفاتِ إلى تعظيمِ النّاسِ ومحبّتِهم؛ فإنَّ مَن وقفَ معَ ذلكَ فقد انقطَعَ عنِ اللهِ وانحجَبَ بنظرِه إلى الخَلقِ عنِ الحقِّ. وأشارَ بعِلمِ الباطنِ إلى العِلمِ الذي يُباشِرُ القلوبَ فيُحدِثُ لها الخشيةَ والإجلالَ والتَّعظيمَ، وأمرَه أن يطلُبَ بهذا المحبّةَ منَ اللهِ والقُربَ منه والزُّلفَى لدَيه.

وكانَ كثيرٌ منَ السَّلفِ ـ كسفيانَ الثَّوريِّ وغيرِه ـ يقسِمونَ العلماءَ إلى ثلاثةِ أقسامٍ[٣].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ١٧٨).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٥٩). وانظر نحوه فيها: (٤/ ٥٤). وزاد ناسخ (س) و(ط) آخره: «من الأخرى».

(٣) كلام سفيان الثوري عند الدارمي (٣٧٥)، وابن أبي حاتم في «تقدمة المعرفة» (١/ ٩١). =

يقولونَ: عالمٌ باللهِ، عالمٌ بأمرِ اللهِ: ويُشيرونَ بذلكَ إلى مَن جمعَ بينَ هذَينِ العِلمَينِ المشارِ إليهما الظّاهرِ والباطنِ، وهؤلاءِ أشرفُ العلماءِ، وهم الممدوحونَ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ إلى قولِه: ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩].

وقالَ كثيرٌ منَ السَّلفِ: ليسَ العِلمُ كثرةَ الرِّوايةِ، ولكنَّ العِلمَ الخَشيةُ[1].

وقالَ بعضُهم: كفى بخشيةِ اللهِ عِلمًا، وكفى بالاغترارِ باللهِ جَهلًا[2].

ويقولون أيضًا: عالمٌ باللهِ ليسَ بعالمٍ بأمرِ اللهِ: وهم أصحابُ العِلمِ الباطنِ الذينَ يخشونَ اللهَ، وليسَ لهم اتِّساعٌ في العِلمِ الظّاهرِ.

ويقولونَ: عالِمٌ بأمرِ اللهِ ليسَ بعالِمٍ باللهِ[3]: وهم أصحابُ العِلمِ الظّاهرِ، الذينَ لا نفاذَ لهم في العِلمِ الباطِنِ، وليسَ لهم خشيةٌ ولا خشوعٌ، وهؤلاءِ مذمومونَ عندَ السَّلفِ. وكانَ بعضُهم يقولُ: هذا هو العالِمُ الفاجرُ[4].

= ويذكر أيضاً عن أبي حيَّان التيمي، أخرجه يحيى بن معين (تاريخ الدوري عنه ـ ٢٦٢٤)، والبيهقي في «المدخل إلى السنن» (١٦٣٦).

ويروى عن سفيان بن عيينة من قول بعض الفقهاء، أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٧٧٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٧٩).

ويذكر عن غيرهم رحمهم الله.

(١) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (٨٦٧) من كلام ابن مسعود رضي الله عنه. ويذكر عن غيره.

(٢) هو من كلام ابن مسعود رضي الله عنه أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٦٧٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٣٢)، وغيرهما.

(٣) من قوله: «العلم الباطن.. إلى قوله بعالم بالله» سقط من (م) و(ض) و(هـ) و(ج) وهو سقط خطير يختل به المعنى اختلالاً شديداً، والمثبت من (س) و(ط).

(٤) كما قال الثوري رحمه الله، وهو في «الدارمي» (٣٧٥).

وهؤلاءِ الذينَ وَقفوا معَ ظاهرِ العِلمِ، ولم يصلِ العِلمُ النّافعُ إلى قلوبِهم، ولا شمّوا له رائحةً، غلبَت عليهم الغفلةُ والقَسوةُ، والإعراضُ عن الآخرةِ، والتّنافسُ في الدُّنيا، ومحبّةُ العُلوِّ فيها والتّقدُّمِ بينَ أهلها، وقد مُنِعوا إحسانَ الظَّنِّ بمن وصل العِلمُ النّافعُ إلى قلبِه، فلا يحبُّونَهم ولا يُجالِسونَهم، وربّما ذمُّوهم وقالوا: ليسوا بعلماءَ، وهذا من خِداعِ الشَّيطانِ وغُرورِه؛ لِيحرِمَهم الوصولَ إلى العِلمِ النّافعِ الذي مدحَه اللهُ ورسولُه وسلفُ الأمّةِ وأئمّتُها، ولهذا المعنى: كانَ علماءُ الدُّنيا يُبغِضُون علماءَ الآخرةِ، ويَسْعَونَ في أذاهم جُهدَهم، كما سَعَوا في أذى سعيدِ بنِ المسيّبِ، والحسنِ، وسُفيانَ[1]، ومالكٍ، وأحمدَ وغيرِهم منَ العلماءِ الرَّبّانيِّينَ، وذلكَ لأنَّ علماءَ الآخرةِ خلفاءُ الرُّسلِ، وعلماءَ السُّوءِ فيهم شَبَهٌ منَ اليهودِ وهم أعداءُ الرُّسلِ وقَتلةُ الأنبياءِ ومَن يأمرُ بالقِسطِ منَ النّاسِ، وأشدُّ النّاسِ عداوةً وحسَدًا[2] للمؤمنينَ، ولشِدّةِ محبّتِهم للدُّنيا لا يعظِّمونَ عِلمًا ولا دِينًا، وإنَّما يعظِّمونَ المالَ والجاهَ والتَّقدُّمَ عندَ الملوكِ، كما قالَ بعضُ الوزراءِ للحجّاجِ بنِ أَرْطاةَ: إنَّ لكَ دِينًا وإنَّ لكَ عِلمًا وفِقهًا، فقالَ الحجّاجُ: أفلا تقولُ إنَّ لكَ شَرفًا وإنَّ لكَ قَدْرًا؟ فقالَ الوزيرُ: واللهِ إنَّكَ لتُصَغِّرُ ما عظَّمَ اللهُ وتُعظِّمُ ما صغَّرَ اللهُ[3].

وكثيرٌ ممَّن يدَّعي عِلمَ الباطنِ ويتكلَّمُ فيه ويقتَصِرُ عليه يذمُّ العِلمَ الظّاهرَ، الذي هو الشَّرائعُ والأحكامُ، والحلالُ والحرامُ، ويطعنُ في أهلِه. ويقولون: هم محجوبونَ! أصحابُ قُشورٍ!، وهذا يُوجِبُ القدحَ في الشَّريعةِ والأعمالِ الصّالحةِ،

---

(١) «وسفيان»: المثبت من (س) و(ط) وسقط من سائر النسخ.

(٢) المثبت من (س) و(ط)، وفي سائر النسخ: «حسداً وعداوة»، وسقطت: «وأشد الناس».

(٣) أخرجه وكيع في «أخبار القضاة» (٢/ ٥٢).

التي جاءَتِ الرُّسُلُ بالحثِّ عليها[1] والاعتناءِ بها، وربَّما انحلَّ بعضُهم عنِ التَّكاليفِ وادَّعى أنَّها للعامّةِ، وأمّا مَن وصلَ فلا حاجةَ له إليها وأنَّها حِجابٌ له، وهؤلاءِ كما قالَ الجُنيدُ وغيرُه منَ العارفِينَ: وصلوا ولكن إلى سَقرَ[2]! وهذا من أعظمِ خِداعِ الشَّيطانِ وغُرورِه لهؤلاءِ لم يزلْ يتلاعبُ بهم حتّى أخرجَهم عنِ الإسلامِ.

ومنهم مَن يظُنُّ أنَّ هذا العِلمَ الباطِنَ لا يُتلقّى من مشكاةِ النُّبوّةِ ولا منَ الكتابِ والسُّنّةِ، وإنَّما يُتلقَّى منَ الخواطرِ والإلهاماتِ والكُشوفاتِ، فأساؤوا الظَّنَّ بالشَّريعةِ الكاملةِ، حيثُ ظنُّوا أنَّها لم تأتِ بهذا العِلمِ النّافعِ الذي يُوجِبُ صلاحَ القلوبِ وقُربَها من علّامِ الغُيوبِ، وأوجبَ لهم ذلكَ الإعراضَ عمّا جاءَ به الرَّسولُ ﷺ في هذا البابِ بالكلّيّةِ، والتَّكلُّمَ فيه بمجرَّدِ الآراءِ والخواطرِ فضلُّوا وأضلُّوا.

فظهرَ بهذا: أنَّ أكملَ العلماءِ وأفضلَهم: العلماءُ بالله العلماء بأمر الله، الذينَ جمعوا بينَ العِلمَينِ، وتلقَّوهما معًا منَ الوَحيَينِ، أعني: الكتابَ والسُّنّةَ، وعرَضوا كلامَ النّاسِ في العِلمَينِ معًا على ما جاءَ في الكتابِ والسُّنّةِ، فما وافقَ قَبِلوه وما خالَفَ ردُّوه، وهؤلاءِ خُلاصةُ الخَلقِ، وهم أفضلُ النّاسِ بعدَ الرُّسُلِ، وهم خلفاءُ الرُّسلِ حقًّا، وهؤلاءِ كثيرٌ في الصَّحابةِ: كالخلفاءِ الأربعةِ، ومعاذٍ، وأبي الدَّرداءِ، وسلمانَ، وابنِ مسعودٍ، وابنِ عمرَ، وابنِ عبّاسٍ، وغيرِهم.

---

(١) في (ض) و(هـ) و(ج): «بالبحث عنها».

(٢) نقل هذا أبو عبد الرحمن السلمي في «طبقات الصوفية» (ص: ٢٧١) لكن عن أبي علي الروذباري وهو من أصحاب الجنيد، فيمن يسمع الملاهي ويقول: هي لي حلال، لأني قد وصلت إلى درجة لا يؤثر في اختلاف الأحوال.

وعن السلمي أخرجه القشيري في «الرسالة» (١/ ١١٩).

وكذلكَ فيمَن بعدَهم: كالحسنِ، وسعيدِ بنِ المسيِّب، وعطاءٍ، وطاوسٍ، ومجاهدٍ، وسعيدِ بنِ جُبيرٍ، والنَّخَعيِّ، ويحيى بنِ أبي كثيرٍ.

وفيمَن بعدَهم: كالثَّوريِّ، والأوزاعيِّ، وأحمدَ، وغيرِهم منَ العلماءِ الرَّبّانيِّينَ.

وقد سمّاهم عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنه العلماءَ الرَّبّانيِّينَ، يُشيرُ إلى أنَّهم الرَّبّانيُّونَ الممدوحونَ في غيرِ موضعٍ من كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فقالَ: النّاسُ ثلاثةٌ: عالمٌ ربّانيٌّ، ومتعلِّمٌ على سبيلِ نجاةٍ، وهمَجٌ رَعاعٌ[1]. ثمَّ ذكرَ كلامًا طويلًا وصفَ به علماءَ السُّوءِ والعلماءَ الرَّبانيِّينَ، وقد شَرحْناه في غيرِ هذا الموضِعِ[2].

والمقصودُ هاهنا: أنَّ التماسَ العلمِ سببٌ موصِلٌ إلى الجنّةِ.

وفي الحديثِ المعروفِ عنِ النَّبيِّ ﷺ: «إذا مرَرْتُم برياضِ الجنّةِ فارتَعوا»، قالوا: وما رياضُ الجنّةِ؟ قال: «حِلَقُ الذِّكرِ».

وكانَ ابنُ مسعودٍ إذا ذكرَ هذا الكلامَ يقولُ: أما إنِّي لا أعني القُصّاصَ[3]، ولكن حِلَقَ الفقهِ[4].

ورُوِيَ عن أنسٍ معناه أيضًا[5].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٧٩)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٨٧٨)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٧/ ٤٠٨).

(٢) في كتاب «كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة».

(٣) في (هـ) و(ج): «القصص».

(٤) أخرجه القاضي أبو يوسف في «الآثار» (٩٥٩)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٩٥ ـ ٩٦) عن ابن مسعود، وقبله الحديث السابق. وأخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٩٤) من كلام عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وقبله الحديث المرفوع السابق.

(٥) أخرجه الإمام أحمد (١٢٥٢٣)، والترمذي (٣٥١٠) وقال: حسن غريب من هذا الوجه، من حديث =

وقالَ عطاءٌ الخُراسانيُّ: مجالِسُ الذِّكرِ مجالِسُ الحلالِ والحرامِ، كيفَ تشتري وتبيعُ، وتصلِّي وتصومُ، وتنكِحُ وتُطلِّقُ وتحجُّ، وأشباه هذا[1].

وقالَ يحيى بنُ أبي كَثيرٍ: دَرسُ الفِقهِ صلاةٌ[2].

وكانَ أبـو السَّـوّارِ العَدويُّ فـي حَلْقةٍ يتذاكـرونَ العِلمَ ومعَهم فتًى شـابٌّ فقالَ لهـم: قولـوا: سـبحانَ اللهِ والحمـدُ للهِ، فغَضِـبَ أبو السَّـوّارِ وقـالَ: ويحـكَ في أيِّ شـيءٍ كنّا إذًا[3].

والمرادُ من هذا أنَّ مجالِسَ الذِّكرِ لا تختَصُّ بالمجالِسِ التي يُذكَرُ فيها اسمُ اللهِ بالتَّسبيحِ والتَّكبيرِ والتَّحميدِ ونحوِه، بل يَشملُ ما فيه[4] أمرُ اللهِ ونهيُه، وحلالُه وحرامُه، وما يُحبُّه ويرضاه، فإنَّه ربَّما كانَ هذا الذِّكرُ أنفعَ من ذلكَ؛ لأنَّ معرفةَ الحلالِ والحرامِ واجبةٌ في الجملةِ على كلِّ مسلمٍ بحسَبِ ما يتعلَّقُ به من ذلك.

وأمّا ذكرُ اللهِ باللِّسانِ: فإنَّ أكثرَه يكونُ تطوُّعًا، وقد يكونُ واجبًا كالذِّكرِ في الصَّلواتِ المكتوبةِ.

وأمّا معرفةُ ما أمرَ اللهُ به وما نهى عنه، وما يُحبُّه ويرضاهُ وما يكرَهُه وينهى عنه:

= ثابت عن أنس رضي الله عنه بأصل الحديث، وأخرجه عن أنس بمعنى كلام ابن مسعود: أبو يعلى (٤٠٨٧ ـ ٤٠٨٨)، والخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٩١) من حديث يزيد الرقاشي، عن أنس رضي الله عنه.

(١) أخرجه أبو زرعة الدمشقي في «تاريخه» (ص: ٣٥٩)، ومن طريقه: الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٩٤).

(٢) أخرجه بنحوه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٦٧)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٩٥).

(٣) أخرجه عبد الله بن الإمام الأحمد في زياداته على «الزهد» (١٨٤٤).

(٤) في (س) و(ط): «تشمل ما ذكر فيه».

فيجِبُ على كلِّ مَن احتاجَ إلى شيءٍ من ذلكَ أن يتعلَّمَه؛ ولهذا رُوِيَ: «طَلَبُ العِلمِ فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ»[1]، فإنَّه يجبُ على كلِّ مسلمٍ معرفةُ ما يحتاجُ إليه في دِينِه كالطَّهارةِ والصَّلاةِ والصِّيامِ، ويجبُ على مَن له مالٌ معرفةُ ما يجِبُ عليه في مالِه من زكاةٍ ونَفقةٍ وحجٍّ وجِهادٍ، وكذلكَ يجبُ على مَن يبيعُ ويشتري أن يتعلَّمَ ما يحلُّ ويحرُمُ منَ البيوعِ، كما قالَ عمرُ رضي الله عنه: لا يبيعُ في سُوقِنا إلّا مَن قد فَقِه في الدِّينِ. خرَّجه التِّرمذيُّ[2].

ويُروَى بإسنادٍ فيه ضَعفٌ، عن عليٍّ رضيَ اللهُ عنه قالَ: الفقهُ قبلَ التِّجارةِ، إنَّه مَن اتَّجرَ قبلَ أن يتفقه فقد[3] ارتَطمَ في الرِّبا ثمَّ ارتَطمَ[4].

وسُئِلَ ابنُ المباركِ: ما الذي يجبُ على النّاسِ من تعلُّمِ العِلمِ؟ قالَ: ألّا يُقدِمَ

---

(١) أخرجه البزار (٦٧٤٦)، وابن ماجه (٢٢٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

قال البزار: «وكل ما يروى عن أنس في طلب العلم فأسانيدها لينة كلها».

وقال ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (ص: ١٥) ط الرسالة: «هذا حديث يروى عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة كلها معلولة، لا حجة في شيء منها عند أهل العلم بالحديث من جهة الإسناد».

وقال البيهقي في «المدخل» (١٤٤٢): «هذا حديث متنه مشهور، وأسانيده ضعيفة، لا أعرف له إسناداً يثبت بمثله الحديث». وقد حسنه بعد ذلك المزي، وصححه السيوطي!

ومعنى الحديث: فريضةُ طلب علمٍ ما تصح به إقامة الفرائض واجتناب المحرمات.

(٢) أخرجه الترمذي (٤٨٧) وقال: حسن غريب.

وقد وقع في حاشية (س) إشارة إلى نسخة: «لا يبيع في سوقنا من قلَّ فقهه في الدين». وهو تصحيف فلا يغتر به.

(٣) في (ص) و(ط): «قبل التفقه».

(٤) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٧٢).

الرَّجلُ على شيءٍ إلّا بعلمٍ يسألُ ويتعلَّمُ، فهذا الذي يجبُ على النّاسِ مِن تعلُّمِ العلمِ. ثمَّ فسَّرَه فقالَ: لو أنَّ رجلًا لم يكنْ له مالٌ لم يكنْ عليه واجبٌ[1] أن يتعلَّمَ الزَّكاةَ، فإذا كانَ له مئتا درهمٍ وجبَ عليه أن يتعلَّمَ كم يُخرِجُ ومتى يُخرِجُ وأين يضَعُ، وسائرُ الأشياءِ على هذا[2].

وسُئِلَ الإمامُ أحمدُ رحمَه اللهُ عنِ الرَّجلِ ما يجبُ عليه من طلبِ العلمِ، فقالَ: ما يُقيمُ به الصلاةَ، وأمرَ دِينِه منَ الصَّومِ والزَّكاةِ، وذَكرَ شرائعَ الإسلامِ، وقالَ: ينبغي له أن يتعلَّمَ ذلكَ[3].

وقالَ أيضًا: الذي يجبُ على الإنسانِ منَ العِلمِ: ما لا بدَّ له منه في صلاتِه وإقامةِ دِينِه[4].

واعلَمْ أنَّ عِلمَ الحلالِ والحرامِ عِلمٌ شريفٌ، ومنه ما تعلُّمُه فرضُ عينٍ، ومنه ما هو فرضُ كِفايةٍ.

وقد نصَّ العلماءُ أنَّ تعلُّمَه أفضلُ من نوافلِ العباداتِ، منهم أحمدُ وإسحاقُ[5]، وكانَ أئمّةُ السَّلفِ يتوقَّونَ الكلامَ فيه تورُّعًا؛ لأنَّ المتكلِّمَ فيه مخبرٌ عنِ اللهِ بأمرِه ونهيِه، مبلِّغٌ عنه شرعَه ودِينَه.

---

(١) هكذا رسمت في جميع النسخ: «واجب» فحافظنا على الرسم، ووضعنا التنوين بالنصب ليوافق صواب الإعراب.

(٢) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٧١).

(٣) «مسائل الإمام أحمد» رواية ابنه عبد الله (١٥٨٩).

(٤) نقله ابن أبي يعلى في «طبقات الحنابلة» (١/ ٢٧٥) من رواية إسماعيل الشالنجي عن الإمام أحمد رحمه الله.

(٥) انظر: «مسائل الإمام أحمد وإسحاق» للكوسج (٣٣٠٩ ـ ٣٣١١).

كانَ ابنُ سيرينَ إذا سُئلَ عن شيءٍ منَ الحلالِ والحرامِ تغيَّرَ لونُه وتبدَّلَ، حتَّى كأنَّه ليسَ بالذي كانَ[١].

وقالَ عطاءُ بنُ السّائبِ: أدركتُ أقوامًا إن كانَ أحدُهم لَيُسألُ عنِ الشيءِ[٢]، فيتكلَّمُ وإنَّه لَيُرعَدُ[٣].

ورُوِيَ عن مالكٍ أنَّه كانَ إذا سُئِلَ عن مسألةٍ كأنَّه بينَ الجنّةِ والنّارِ[٤].

وكانَ أحمدُ شديدَ التَّورُّعِ في إطلاقِ لفظِ الحلال والحرام، أو دعوى النَّسخِ، ونحوِ ذلكَ، مما يجسُرُ عليه غيرُه كثيرًا، وأكثرُ أجوبتِه: أرجو، أو: أخشى، أو: أحَبُّ إليَّ، ونحوُ ذلكَ، وكانَ هو ومالكٌ وغيرُهما يقولونَ كثيرًا: لا ندري[٥]، وكان أحمدُ يقولُ ذلكَ في مسألةٍ يَذكُرُ فيها السَّلفُ[٦] أقوالًا عديدةً، ويُريدُ بقولِه: لا أدري: أي الرّاجحَ المفتَى به من ذلكَ.

ومن مجالِسِ الذِّكرِ أيضًا: مجالِسُ العِلمِ، التي يُذكرُ فيها تفسيرُ كتابِ اللهِ، أو

---

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٩/ ١٩٤ ط الخانجي)، ويعقوب بن سفيان في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٦٠ ط العراق»، ومن طريقه: الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٣٥٣).

(٢) المثبت من (س) و(ط) موافقاً للمصادر، وفي سائر النسخ: «عن شيء».

(٣) أخرجه يعقوب بن سفيان في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٨١٧)، ومن طريقه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٣٥٣).

(٤) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٣٥٤).

(٥) قال أبو داود في «مسائله للإمام أحمد» (١٧٨٢): «وما أحصي ما سمعت أحمد يُسأل عن كثير مما فيه اختلاف من العلم، فيقول: لا أدري». وذلك في مسائل الفقه، وفي معرفة الرجال أيضاً.

وأخرج أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٣٢٣) عن ابن وهب قال: لو شئت أن أملأ ألواحي من قول مالك بن أنس: لا أدري؛ فعلت.

(٦) في (م): «يذكر فيها للسلف» وفي (س) و(ط): «يذكر للسلف فيها».

يُرْوَى فيها سنّةُ رسولِ اللهِ ﷺ، فإن كانَت روايةُ الحديثِ معَ تفسيرِ معانيه فذلكَ أكملُ وأفضلُ من مجرَّدِ روايةِ ألفاظِه، ويدخُلُ في الفقهِ في الدِّينِ: كلُّ عِلمٍ مستنبَطٍ من كتابِ اللهِ، أو سنّةِ رسولِه ﷺ، سواءٌ كانَ من **علومِ الإسلامِ**، التي هي الأعمالُ الظّاهرةُ والأقوالُ، أو من **علومِ الإيمانِ** التي هي الاعتقاداتُ الباطنةُ، وأدلّةُ ذلكَ وبراهينُه المقرَّرةُ[١] في الكتابِ والسُّنّةِ، أو **من علومِ الإحسانِ** التي هي علومُ المراقبةِ والمشاهدةِ بالقلبِ، ويدخُلُ في ذلكَ: عِلمُ الخَشيةِ، والمحبّةِ، والرَّجاءِ، والإنابةِ، والصَّبرِ، والرِّضا، وغيرِ ذلكَ من المقاماتِ.

وكلُّ ذلكَ قد سمّاهُ النَّبيُّ ﷺ في حديثِ سؤالِ جَبرَئيلَ له: دِينًا لنا[٢]، فالفقهُ فيه منَ الفقهِ في الدِّينِ، ومجالِسُه من أفضلِ مجالِسِ الذِّكرِ، التي هي من رياضِ الجنّةِ، وهي أفضلُ من مجالِسِ ذكرِ اسمِ اللهِ بالتَّسبيحِ والتَّكبيرِ والتَّحميدِ ؛ لأنَّها دائرةٌ بينَ فرضِ عينٍ أو فرضِ كفايةٍ، والذِّكرُ المجرَّدُ تطوُّعٌ محضٌ.

وقد دخلَ بعضُ السَّلفِ مسجدَ البَصرةِ، فرأى فيه حلَقتَينِ: في إحداهما قاصٌّ، وفي الأخرى فقيهٌ يعلِّمُ الفقهَ، فصلَّى ركعتَينِ، واستخارَ اللهَ في الجلوسِ إلى إحداهما، فنَعِسَ، فرأى في نومِه قائلًا يقولُ له: أَوَ قد سوَّيتَ بينَهما؟ إن شئتَ أريناكَ مَقعدَ جبريلَ عليه السَّلامُ من فلانٍ، يعني الفقيهَ الذي يعلِّمُ العِلمَ[٣].

---

(١) هكذا في جميع النسخ: «المقررة»، ولعل الصواب: «مقررةٌ».

(٢) في (س): «له عنه ديناً لنا». والحديث هو أول حديث في «صحيح مسلم» من رواية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الدارمي (٣٥٣)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٢٤٨) عن ابن سيرين. والقاص هو الأسود بن سريع، والفقيه: حميد بن عبد الرحمن رحمهم الله.

وسنذكرُ فيما بعدُ النُّصوصَ الدّالةَ على فضلِ العِلمِ على أنواعِ العباداتِ، من الذِّكرِ وغيرِه إن شاءَ اللهُ تعالى.

وكانَ زيدُ بنُ أسلَمَ من جِلَّةِ علماءِ المدينةِ، وكانَ له مجلِسٌ في المسجدِ، يذكرُ فيه التَّفسيرَ والحديثَ والفقهَ وغيرَ ذلكَ، فجاءَ إليه رجلٌ فقالَ له: إنِّي رأيتُ بعضَ أهلِ السَّماءِ وهو يقولُ لأهلِ هذا المجلسِ: هؤلاءِ في روضاتِ الجنَّات[1] آمنونَ، ثمَّ أراه أَنزَلَ على أهلِ المجلسِ حوتًا طريًّا ووضعَه بينَ أيديهم[2].

وجاءَ إليه رجلٌ فقالَ له: إنِّي رأيتُ النَّبيَّ ﷺ وأبا بكرٍ وعمرَ خرجوا من هذا البابِ[3]، والنَّبيُّ ﷺ يقولُ: انطلِقوا بنا إلى زيدِ بنِ أسلَمَ نجالسُه ونسمعُ من حديثِه، فجاءَ النَّبيُّ ﷺ حتّى جلسَ إلى جنبِكَ، وأخذَ بيدِكَ، فلم يبقَ زيدٌ بعدَ هذه الرُّؤيا إلّا قليلًا حتّى ماتَ رحمَه اللهُ تعالى[4].

ومعَ ما ذكرْنا من تفضيلِ العلمِ على القَصصِ؛ فالعالِمُ لا يستغني أحيانًا عن موعظةِ النّاسِ والقَصصِ عليهم، وإزالةِ قسوةِ قلوبِهم[5] بالتَّذكيرِ باللهِ وأيامِه، فإنَّ القرآنَ يشتَمِلُ على ذلكَ كلِّه، والفقيهُ العالِمُ حقًّا هو مَن فَهِمَ كتابَ اللهِ، واتَّبعَ ما فيه، كما قالَ عليٌّ: الفقيهُ حقُّ الفقيهِ مَن لا يُقنِّطُ النّاسَ من رحمةِ اللهِ،

---

(١) في (م): «الجنة»، وفي (س) و(ط): «الجنان».

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المنامات» (٣٢٢)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٢/ ٧٣).

(٣) في (م) و(ض) و(هـ) و(ج): «من الباب».

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المنامات» (٣٢٠)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٩/ ١١١)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٩/ ٢٩٢). وفي (م) و(هـ) و(ج): «زيد» فحسب.

(٥) في (س) و(ط): «القسوة عن قلوبهم».

ولا يُرخِّصُ لهم في معاصي اللهِ، ولا يدَعُ القرآنَ رغبةً عنه إلى غيرِه[١].

وقد كانَ النَّبيُّ ﷺ يتخوَّلُ أصحابَه بالموعِظةِ خشيةَ السَّآمةِ عليهم[٢].

* * *

قولُه ﷺ: «وإنَّ الملائكةَ لتضعُ أجنحتَها لطالِبِ العِلمِ رضًى[٣]».

وخرَّجَ ابنُ ماجَه من حديثِ زِرِّ بنِ حُبَيشٍ، قالَ: أتيتُ صفوانَ بنَ عسّالٍ، فقالَ: ما جاءَ بكَ؟ فقلتُ أُنْبِطُ[٤] العِلمَ. قالَ: فإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «ما مِن خارجٍ يخرُجُ من بيتِه في طَلَبِ العِلمِ إلّا وضَعَت له الملائكةُ أجنحتَها رضًى بما يصنعُ»[٥].

وخرَّجَه التِّرمذيُّ وغيرُه موقوفًا على صَفوانَ[٦].

وقد اختلفَ النّاسُ في تأويلِ وضعِ الملائكةِ أجنحتَها:

فمنهم: مَن حملَه على ظاهرِه، وأنَّ المرادَ فَرْشُ الأجنحةِ وبسطُها لطلّابِ العِلمِ؛ لتحمِلَهم عليها إلى مقاصدِهم منَ الأرضِ التي يطلبونَ فيها العِلمَ، إعانةً لهم على الطَّلبِ وتيسيرًا عليهم، وقد سَمِعَ هذا الحديثَ بعضُ الملحدِينَ، فقالَ لطلَبةِ

---

(١) أخرجه الدارمي (٣٠٥ـ٣٠٦).

(٢) كما قال ابن مسعود رضي الله عنه. أخرجه البخاري (٦٨)، ومسلم (٢٨٢١).

«يتخول»: يتعهد أصحابه، ويراعي أوقاتهم.

(٣) زاد ناسخ (س) و(ط): «بما يطلب».

(٤) في (س) و(ط): «أطلب». وهو من تصرف النساخ. وأُنبط العلم: أستخرجه من العلماء.

(٥) أخرجه ابن ماجه (٢٢٦).

(٦) في (هـ) و(ج): «صفوان بن عسال»، وأخرجه الترمذي (٣٥٣٥) وقال: حسن صحيح.

العِلمِ: ارفعوا أرجلَكم عن أجنحةِ الملائكةِ. لا تكسروها!، يستهزِئُ بذلك!، فما زالَ من موضعِه حتّى جفَّت رِجلاه وسقَطَ[(١)].

ورُوِيَ عن آخر أنه[(٢)] قالَ: لأكسِرَنَّ أجنحةَ الملائكةِ، فصنعَ له نَعلًا طَرقَها بمساميرَ كثيرةٍ، ثم مشى بها إلى مجلِسِ العِلمِ، فجفَّت رِجلاه، ووقعَت فيهما الأَكَلَةُ[(٣)].

ومنهم: مَن فسَّرَ وَضْعَ الملائكةِ أجنحتَها: بالتَّواضُعِ منهم والخضوعِ لطلّابِ العِلمِ، كما في قولِه تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٥]، وفي هذا نظَرٌ؛ لأنَّ للملائكةِ أجنحةً حقيقةً بخلافِ البَشرِ.

ومنهم: مَن فسَّرَ ذلكَ بأنَّ الملائكةَ تحفُّ بأجنحتِها مجالِسَ الذِّكرِ إلى السَّماءِ، كما جاءَ ذلكَ صريحًا في حديثِ أبي هريرةَ عن النَّبيِّ ﷺ[(٤)].

ووردَ مثلُه في بعضِ ألفاظِ حديثِ صفوانَ بنِ عسّالٍ مرفوعًا: «إنَّ طالبَ العِلمِ لَتحفُّه الملائكةُ، وتُظِلُّه بأجنحتِها، ثمَّ يركبُ بعضُهم بعضًا حتى يبلُغوا إلى سماء الدُّنيا من حبِّهم لما يطلُبُ»[(٥)]، ولعلَّ هذا القولَ أشبهُ[(٦)]، واللهُ أعلمُ.

---

(١) سبق ذكره في حاشية سابقة، وقد نقله ابن القيم من رواية الطبراني عن الساجي. انظر: «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٧٣ ـ ط عطاءات العلم).

(٢) المثبت من (ض)، وفي (م) و(هـ) و(ج): «وروى آخر أنه»، وفي (س) و(ط): «وروي أن آخر».

(٣) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٢١٥٤).

(٤) أخرجه البخاري (٦٤٠٨) في حديثٍ لأبي هريرة رضي الله عنهم مرفوعاً: «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا...».

(٥) في سائر النسخ: «السماء الدنيا»، والمثبت من (م) وهو الموافق لما أخرجه الآجري في «أخلاق العلماء» (ص: ٣٩)، وهو عند الطبراني في «الكبير» (٧٣٤٧).

(٦) وفسره الإمام مالك أنها تبسطها بالدعاء لطالب العلم بدلًا من الأيدي. انظر: «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ١٧٣) واعتمده ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٨٣).

قولُه ﷺ: «وإنَّ العالِمَ لَيستغفرُ له مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ حتّى الحيتانُ في الماءِ».

قد أخبرَ اللهُ تعالى في كتابِه باستغفارِ ملائكةِ السَّماءِ للمؤمنِينَ عمومًا بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٧]، وقولِه تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الشورى: ٥]، فهذا للمؤمنِينَ عمومًا، فأمّا العلماءُ: فيستغفِرُ لهم أهلُ الأرضِ حتّى حيتانُ البحرِ.

وخرَّجَ التِّرمذيُّ من حديثِ أبي أُمامةَ، عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «إنَّ اللهَ وملائكته وأهلَ السَّماواتِ وأهلَ الأرضِ حتّى النَّملةُ في جُحرِها وحتّى الحوتُ لَيُصلُّونَ[١] على معلِّمِ[٢] النّاسِ الخَيرَ»، وصحَّحَه التِّرمذيُّ[٣].

وخرَّجَ الطَّبرانيُّ من حديثِ جابرٍ عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «مُعلِّمُ[٤] الخيرِ يستغفرُ له كلُّ شيءٍ حتّى الحيتانُ في البِحارِ»[٥].

ويُروَى من حديثِ البراءِ بنِ عازبٍ، عنِ النَّبيِّ ﷺ: «العلماءُ وَرثةُ الأنبياءِ يُحبُّهم أهلُ السَّماءِ، وتستغفرُ لهم الحيتانُ في البحرِ إذا ماتوا إلى يومِ القيامةِ»[٦].

---

(١) في (س) و(ط): «في البحر ليصلون».

(٢) في (س) و(ط): «معلمي».

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٨٥) وقال: حسن صحيح غريب.

(٤) في (س) و(ط): «معلم الناس».

(٥) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٢١٩).

(٦) أخرجه الواحدي في «الوسيط» (١/ ٤٦)، والديلمي «زهر الفردوس ـ ٢٠٥٤»، وأبو نعيم كما ذكر الحافظ ابن حجر في «زهر الفردوس» (٢٠٥٤).

وورد الاستغفارُ أيضًا لطالبِ العِلمِ:

ففي «مسندِ الإمامِ أحمدَ» عن قَبيصةَ بنِ المُخارِقِ قالَ: أتيتُ النَّبيَّ ﷺ فقالَ: «ما جاءَ بكَ؟» فقلتُ: كَبِرَت سنِّي، ورَقَّ عظمي، فأتيتُكَ لتُعلِّمَني ما ينفعُني اللهُ به، قالَ: «يا قَبيصةُ، ما مررْتَ بحَجَرٍ ولا شَجَرٍ ولا مَدَرٍ إلّا استغفرَ لكَ»[1].

وقد دلَّ قولُه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤١ ـ ٤٣] على أنَّ اللهَ وملائكتَه يُصلُّونَ على أهلِ الذِّكرِ، والعِلمُ من أفضلِ أنواعِ الذِّكرِ كما سبقَ تقريرُه.

وخرَّجَ الحاكمُ من حديثِ سُليمِ بنِ عامرٍ قالَ: جاءَ رجلٌ إلى أبي أُمامةَ فقالَ: يا أبا أُمامةَ، إنِّي رأيتُ في منامي كأنَّ الملائكةَ تصلِّي عليكَ، كلَّما دخلتَ، وكلَّما خرجتَ، وكلَّما قمتَ، وكلَّما جلستَ، فقال أبو أُمامةَ: اللَّهم غُفرًا دَعُونا عنكم، وأنتم لو شئتُم لصلَّت عليكم الملائكةُ، ثُمَّ قرأَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[2].

وقد ذكرَ بعضُهم السِّرَّ في استغفارِ دوابِّ الأرضِ للعلماءِ، وهو أنَّ العلماءَ يأمرونَ النّاسَ بالإحسانِ إلى المخلوقاتِ كلِّها، وبإحسانِ قِتْلَة ما يجوزُ قتلُه أو ذَبحُه منَ الحيوانِ، فيتعدَّى نفعُهم إلى الحيواناتِ كلِّها، فلذلكَ يستغفِرونَ لهم.

ويظهرُ فيه معنًى آخرُ: وهو أنَّ سائرَ المخلوقاتِ مطيعةٌ للهِ، قانتةٌ له، مسبِّحةٌ له، غيرَ عُصاةِ الثَّقلَينِ الجِنِّ والإنسِ، فكلُّ الخلقِ المطيعِينَ للهِ يحبُّونَ أهلَ طاعتِه، فكيفَ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٠٦٠٢).

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٤١٨) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

بمَن دعا الخلقَ إلى طاعةِ اللهِ وحضَّهم وعلَّمَهم؟ والعِلمُ هو نورُ اللهِ في الأرضِ، به يُعرَفُ اللهُ وتُعرَفُ حقوقُه وطاعتُه، فمَن كانَت هذه صِفتَه فإنَّ اللهَ يحبُّه ويزكّيه ويثني عليه، ويأمرُ عبادَه من أهلِ السَّماءِ والأرضِ وسائرَ خلقِه بمحبَّتِه والدُّعاءِ له، وذلكَ هو صلاتُهم عليه، ويجعلُ له المودّةَ في قلوبِ عبادِه المؤمنِينَ، كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: ٩٦].

ولا تختصُّ محبَّتُه بالحيواناتِ، بل تحبُّه الجماداتُ أيضًا، كما جاءَ في تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [الدخان: ٢٩]: أنَّ السَّماءَ والأرضَ تبكي على المؤمنِ إذا ماتَ أربعِينَ صباحًا[١].

وفي الحديثِ: إنَّ الأرضَ تقولُ للمؤمنِ إذا دُفِنَ: إنْ كنتَ لأَحبَّ مَن يمشي على ظَهري، فسترى إذ صرتَ إلى[٢] بطني صَنيعي بِكَ[٣].

وإنَّما يُبغِضُ المؤمنَ والعالِمَ عُصاةُ الثَّقلَينِ؛ لأنَّ معصيتَهم للهِ اقتضَت تقديمَ أهواءِ نفوسِهم على محبّةِ اللهِ وطاعتِه، فكرِهوا طاعةَ اللهِ وأهلَ طاعتِه.

ومَن أحبَّ اللهَ وأحبَّ طاعتَه أحبَّ أهلَ طاعتِه، وخصوصًا مَن دعا إلى طاعتِه وأمرَ النّاسَ بها وحثَّ عليها، وأيضًا فإنَّ العلمَ إذا ظهرَ في الأرضِ وعمِلَ به درَّتِ البركاتُ وزَكَت[٤] الأرزاقُ، فيعيشُ أهلُ الأرضِ كلُّهم حتّى النَّملةُ وغيرُها منَ الحيواناتِ ببركة ذلك، ويستبشرُ أهلُ السَّماءِ بما يرفع لأهلِ الأرضِ

---

(١) ذكر السيوطي في تفسير هذه الآية في «الدر المنثور» ذلك عن مجاهد، وعزاه إلى عبد بن حميد وأبي الشيخ في «العظمة».

(٢) في (هـ) و(ج): «في». وفي بعض النسخ: «إذا صرت» والصواب: «إذ».

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٦٠) وقال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٤) تصحفت في (س) إلى: «ونزلت».

منَ الطّاعاتِ والأعمالِ الصّالحاتِ، فيستغفرونَ لمَن كانَ السّببَ في ذلك.

وعكسُ هذا: أنَّ مَن كتمَ العِلمَ الذي أمرَ اللهُ بإظهارِه لعنَه اللهُ وملائكتُه وأهلُ السَّماءِ والأرضِ، حيثُ سعى في إطفاءِ نورِ اللهِ في الأرضِ، الذي بسببِ إخفائِه تظهرُ المعاصي والظُّلمُ والعدوان[1] والبَغيُ، قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]، وقد قِيلَ: إنَّها نزلَت في أهلِ الكتابِ الذينَ كتَموا[2] ما عندَهم في كتبهم من صفةِ النَّبيِّ ﷺ[3].

وكانَ أبو هريرةَ يقولُ: لولا آيةٌ في كتابِ اللهِ ما حدَّثتُكم شيئًا[4] أبدًا، ويتلو هذهِ الآيةَ[5].

وفي «سننِ ابنِ ماجَه»، عن البَراءِ بنِ عازِبٍ، عنِ النَّبيِّ ﷺ في قولِه: ﴿وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]، قالَ: دوابُّ الأرضِ[6].

وقد رُوِيَ هذا موقوفًا على البَراءِ[7].

ورُوِيَ عن طائفةٍ منَ السَّلفِ، وقالوا: تلعنُهم دوابُّ الأرضِ، ويقولونَ: مُنِعْنا القطرَ بخطايا بني آدمَ[8].

---

(١) في (س) و(ط): «والعداوة».

(٢) في (ض) و(ج): «يكتمون».

(٣) كما روي عن ابن عباس رضي الله عنه، أخرجه الطبري (٢/ ٧٣٠).

(٤) في (ض): «حديثاً».

(٥) أخرجه البخاري (١١٨) (٢٣٥٠).

(٦) أخرجه ابن ماجه (٤٠٢١).

(٧) انظر: «تفسير ابن أبي حاتم» (١٤٤٤).

(٨) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٧٣٤)، والبيهقي في «الشعب» (٣٠٤٦) من كلام مجاهد رحمه الله.

فإنَّ كِتمانَ العِلمِ النّافعِ سببٌ لظُهورِ الجهلِ والمعاصي، وذلكَ يُوجِبُ قُحوطَ المطرِ ونزولَ البلاءِ، فيعمُّ دوابَّ الأرضِ، فتهلِكُ بخطايا بني آدمَ، فتَلعَنُ الدَّوابُّ مَن كانَ سَببًا في ذلك.

وقد ظهرَ بهذا: أنَّ محبّةَ العلماءِ مِنَ الدِّينِ، كما قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنه لكُمَيلِ بنِ زِيادٍ: ومحبّةُ العالِمِ دِينٌ يُدانُ بها[1].

وفي الأثرِ المعروفِ: كنْ عالمًا، أو متعلِّمًا، أو مستمِعًا، أو محبًّا، ولا تكنِ الخامسَ فتهلِكَ[2].

قالَ بعضُ السَّلفِ عندَ هذا: سبحانَ اللهِ لقد جعَلَ اللهُ لهم مخرَجًا[3]، يعني أنَّه لا يخرُجُ عن هذهِ الأربعةِ الممدوحةِ إلّا الخامسُ الهالِكُ، وهو مَن ليسَ بعالِمٍ ولا متعلِّمٍ ولا مستمِعٍ ولا محبٍّ لأهلِ العِلمِ وهو الهالِكُ، فإنَّ مَن أبغضَ أهلَ العِلمِ أحبَّ هلاكَهم، ومَن أحبَّ هلاكَهم فقد أحبَّ أن يُطفَأَ نورُ اللهِ مِن الأرضِ، وتظهَرَ فيها المعاصي والفسادُ، فيُخشَى ألّا يرتفع لهم[4] معَ ذلكَ عملٌ، كما أنَّ مَن أحبَّ ظالمًا أو دعا له بالبقاءِ فقد أحبَّ أن يُعصى اللهُ، فيُخشَى ألّا يُرفَعَ لهم عملٌ معَ ذلكَ، كما قاله سفيانُ الثَّوريُّ وغيرُه منَ السَّلفِ[5].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٧٩) في حديث طويل، سبق ذكر طرف آخر منه.

(٢) ورد مرفوعاً وموقوفاً على عدد من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم. وقول المصنف «وفي الأثر المعروف» إشارة إلى ترجيح كونه موقوفاً، والمرفوع أخرجه البزار (٣٦٢٦)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٦١١٦) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه. وفي (س) و(ط): «محبًا لهم».

(٣) أخرج ذلك عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله: زهير بن حرب في «العلم» (٢)، ويعقوب بن سفيان في «المعرفة والتاريخ» (٣/ ٣٩٨)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم» (١٤٣)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٧/ ٦٣).

(٤) في (س) و(ط): «يُرفع له».

(٥) «من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله» أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٤٦) من رواية =

وكانَ بعضُ خدَمِ بعضِ الخلفاءِ يُبغِضُ أبا الفَرجِ بنَ الجوزيِّ، ويسعى فـي أذاه بجُهدِه، فـرآه بعضُهم فـي منامِه وهـو يذهَبُ به إلى النّارِ فسأَلَ عن سبب ذلكَ، فقيلَ لـه: كانَ يُبغِضُ ابنَ الجوزيِّ.

قالَ ابنُ الجوزيِّ: ولمّا زادَ تعصُّبه عليّ وأذاه: لجأتُ إلى اللهِ في كفِّ شَرِّهِ[1]، فقَصَمَه اللهُ قريبًا[2].

ولمّا قتَلَ الحجّاجُ سعيدَ بنَ جُبَيرٍ كانَ النّاسُ كلُّهم محتاجِينَ إلى علمِه، فمنعَهم الانتفاعَ بعلمِه، فرُئِيَ في المنامِ أنَّ الحجّاجَ قُتِلَ بكلِّ قتيلٍ قَتلَه في الدُّنيا قَتْلةً، وقُتِلَ بسعيدِ بنِ جُبيرٍ سبعِينَ قَتْلةً[3].

ولهذا المعنى: كانَ أشدُّ النّاسِ عذابًا مَن قتلَ نبيًّا؛ لأنَّه سعى في الأرضِ بالفسادِ، ومَن قتلَ عالمًا فقد قتلَ خليفةَ نبيٍّ، فهو ساعٍ في الأرضِ بالفسادِ أيضًا، ولهذا قرَنَ اللهُ بينَ قَتلِ الأنبياءِ وقَتلِ العلماءِ الآمِرينَ بالمعروفِ في قولِه: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

= يوسف بن أسباط عن الثوري.

وأخرجه الدينوري في «المجالسة» (٢٠٠٨) (٢٣٧٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٤٠) عن يوسف بن أسباط.

وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٦٠٠) عن الحسن رحمهم الله.

(١) تصحفت في بعض النسخ إلى: «كشف ستره»، وفي (هـ) و(ج): «كف شر أذاه».

(٢) هو مرجان الخادم، مات سنة (٥٦٠هـ) بالسل. انظر: «المنتظم» لابن الجوزي (١٨/ ١٦٦)، والذي رآه في المنام هو سعد الله البصري.

(٣) ذكره ابن خلكان في «وفيات الأعيان» (٢/ ٣٧٤).

وقالَ عِكرمةُ وغيرُه منَ السَّلفِ في قولِه تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ﴾ [المائدة: ٣٢] مَن قَتَلَ نبيًّا أو إمامَ عَدْلٍ[١] قالَ: فكأنَّما قتلَ النّاسَ جميعًا، ومَن شدَّ على عَضُدِ نبيٍّ أو إمامِ عَدْلٍ فكأنَّما أحيا النّاسَ جميعًا[٢].

* * *

قولُـه ﷺ: «وفضـلُ العالِـمِ علـى العابـدِ كفَضـلِ القمرِ ليلـةَ البَدرِ على سـائرِ الكواكبِ».

وقد رُوِيَ هذا المعنى عنِ النَّبيِّ ﷺ أيضًا من حديثِ معاذٍ[٣] وأبي الدَّرداءِ[٤]، ولكنْ إسنادُهما منقطِعٌ.

وفي هذا المثَلِ: تشبيهٌ للعالِمِ بالقمرِ ليلةَ البدرِ، وهو نهايةُ كمالِه، وتمامُ نورِه. وتشبيهٌ للعابدِ بالكواكبِ، وأنَّ بينَ العالِمِ والعابدِ منَ التَّفاوتِ في الفضلِ كما بينَ القمرِ ليلةَ البدرِ والكواكبِ، والسِّرُّ في ذلكَ ـ واللهُ أعلمُ ـ أنَّ الكوكبَ ضوءَه لا يعدو نفسَه، وأمّا القمرُ ليلةَ البدرِ فإنَّ نورَه يشرِقُ على أهلِ الأرضِ جميعًا، فيعمُّهم نورُه فيستضيئونَ بنورِه، ويهتدونَ به في سَيرِهم.

وإنَّما قالَ: «على سائرِ الكواكبِ»، ولم يقلْ: على سائرِ النُّجومِ؛ لأنَّ الكواكبَ

---

(١) المثبت من (س) و(ط). موافقاً للمصادر، وفي سائر النسخ: «إماماً عدلًا»، وفي بعض النسخ في هذا الموضع أو الذي يليه: «عادلاً».

(٢) إنما قاله عكرمة روايةً عن ابن عباس رضي الله عنهما، أخرجه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٣٤٨).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٤٥). وفيه عثمان بن عطاء عن أبيه عن معاذ، وعطاء لم يسمع معاذاً وفي السند خطأ في إثبات السماع.

(٤) حديث أبي الدرداء هو الذي يشرحه المصنف، فلعله سبق قلم.

هي التي لا تسيرُ ولا يُهتدَى بها، فهي بمنزلةِ العابدِ الذي نفعُه مقصورٌ على نفْسِه، وأمّا النُّجومُ فهي التي يُهتدَى بها، كما قالَ تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧]، فلذلكَ مَثَّلَ العلماءَ من أمَّتِه بالنُّجومِ في الحديثِ الذي سبقَ ذِكرُه.

وكذلكَ رُوِيَ عنه أنَّه قالَ: «أصحابي كالنُّجومِ بأيِّهم[1] اقتدَيتُم اهتديتُم»[2].

وقد قيلَ: إنَّ القمرَ إنَّما يستفيدُ نورَه من ضَوءِ الشَّمسِ، كما أنَّ العالِمَ نورُه مقتبَسٌ من نورِ الرِّسالةِ، فلذلكَ شُبِّه بالقمرِ ولم يُشبَّه بالشَّمسِ، وشُبِّه الرَّسولُ ﷺ بالسِّراجِ المنيرِ، لأنَّ نورَه غيرُ مقتبَسٍ من جهةِ الخلقِ، ولمّا كانَ الرَّسولُ سراجًا منيرًا يُشرِقُ نورُه على الأرضِ كانَ العلماءُ ورثتُه وخلفاؤُه مشبَّهينَ بالقمرِ عندَ تمامِ نورِهِ وإضاءتِه.

وفي «الصَّحيحِ» عنِ النَّبيِّ ﷺ: «إنّ أوَّل زُمرةٍ يدخلونَ الجنَّةَ على صورةِ القمرِ ليلةَ البَدرِ، ثمَّ الذينَ يلونَهم على أضوأِ كوكبٍ دُرِّيٍّ في السَّماءِ»[3].

ولا يبعُدُ ـ واللهُ أعلمُ ـ أن يكونَ العلماءُ الرَّبّانيُّونَ منَ الزُّمرةِ الأولى، كما كانوا في الدُّنيا بمنزلةِ القمرِ ليلةَ البَدرِ لأهلِ الأرضِ، وقد يُشاركُهم في ذلكَ المبرِّزونَ[4]

---

(١) في (س) و(ط): «فبأيهم».

(٢) أخرجه عبد بن حميد في «المنتخب» (٧٨٣) من حديث ابن عمر، لكن أخرجه ابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٧٠٢) بالسند نفسه من حديث ابن عباس. فأحدهما خطأ والله أعلم.

وأخرجه البيهقي من حديث عمر وابن عباس وجوَّاب بن عبيد الله في «المدخل» (١٢٤٧ ـ ١٢٤٨ ـ ١٢٤٩) ثم قال: «هذا حديث متنه مشهور، وأسانيده ضعيفة، لم يثبت في هذا إسناد».

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٢٧)، ومسلم (٢٨٣٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) في (ض) ونسخة على حاشية (س): «المقربون».

منَ العُبَّادِ، لا سيَّما مَن انتفعَ النَّاسُ بسماعِ أخبارِهم، ورقَّتِ القلوبُ عندَ ذكرِهم، وحنَّت إلى اقتفاءِ آثارِهم.

وأمّا الزُّمرةُ الثّانيةُ فهم عمومُ العُبَّادِ، واللهُ أعلمُ.

ولمّا ماتَ الأوزاعيُّ، وكانَ إمامَ أهلِ الشّامِ في العِلمِ، معَ شدّةِ عبادتِه، وكثرةِ خشيتِه وخوفِه منَ اللهِ عز وجل رُئيَ في المنامِ فقالَ: ما رأيتُ هناكَ أعظمَ من دَرجةِ العلماءِ، ثمَّ درجةِ المحزونِينَ[1]. يعني: أهلَ الخوفِ منَ اللهِ والخشيةِ والحُزنِ.

وقد دلَّ هذا الحديثُ على تفضيلِ العِلمِ على العبادةِ تفضيلًا بيِّنًا، والأدلَّةُ الدّالّةُ على ذلكَ كثيرةٌ جدًّا، قالَ اللهُ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، يعني على الذينَ آمنوا ولم يُؤتَوا العِلمَ، كذا قالَ ابنُ مسعودٍ وغيرُه منَ السَّلفِ[2].

وخرَّجَ التِّرمذيُّ من حديثِ أبي أُمامةَ، عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّه ذُكِرَ له رجلانِ: أحدُهما عابدٌ، والآخرُ عالِمٌ، فقالَ النبي ﷺ: «فَضْلُ العالِمِ على العابدِ كفَضْلي على أدناكُم». وقالَ صحيحٌ حسَنٌ غريبٌ[3].

وخرَّجَ أيضًا هو وابنُ ماجَه من حديثِ ابنِ عبّاسٍ، عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «فَقيهٌ واحِدٌ أشدُّ على الشَّيطانِ من ألفِ عابِدٍ»[4].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الهم والحزن» (١٦١). والرائي: يزيد بن مذكور رحمهم الله.

(٢) أخرجه ابن المنذر عن ابن مسعود كما في تفسير الآية من «الدر المنثور»، وهو أيضاً مروي عن ابن عباس رضي الله عنهم.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٨٥).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٦٨١)، وقال: غريب، وابن ماجه (٢٢٢).

وخرَّج ابنُ ماجه من حديث عبد الله بن عمرٍو[(١)] قال: خرج رسولُ اللهِ ﷺ ذات يومٍ فدَخل المسجد، فإذا هو بحلْقتين: إحداهما يقرؤون القرآنَ ويدعون الله عزَّ وجلَّ، والأخرى يتعلَّمون ويُعلِّمون، فقال رسولُ الله ﷺ: «كُلٌّ على خَيرٍ، هؤلاء يقرؤونَ القرآنَ ويدعونَ الله، فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وهؤلاء يتعلَّمونَ ويُعلِّمونَ، وإنَّما بُعثتُ معلِّمًا»، ثم جلس معهم[(٢)].

وخرَّجَه ابنُ المباركِ في «كتابِ الزُّهدِ»، وزادَ فيه بعدَ قولِه: «وإنَّما بُعثتُ معلِّمًا»: «هؤلاءِ أفضلُ»[(٣)].

وخرَّجَ الطَّبرانيُّ من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو عنِ النَّبيِّ ﷺ: «قليلُ الفِقهِ خيرٌ من كثيرِ العِبادةِ»[(٤)].

وخرَّجَ البزّارُ والحاكمُ وغيرُهما بأسانيدَ متعدِّدةٍ مرفوعًا: «فضلُ العِلمِ أحبُّ إليَّ[(٥)] من فضلِ العبادةِ، وخيرُ دِينِكم الوَرَعُ»[(٦)].

---

(١) صوابه «عَمرو» كالمثبت، ووقع في (م) وغيرها دون واو.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٢٩).

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٣٨٨).

(٤) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٤٥٤١)، و«المعجم الأوسط» (٨٦٩٨)، و«مسند الشاميين» (٢٠٩٨).

وفي نُسَخِ المعجمَينِ سقطٌ في الإسناد، لعله من النسَّاخ. وأخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» في ترجمة يزيد بن رجاء بن حيوة (٣٢٠٦) عنه مرسلاً.

(٥) هكذا الحديث، وزاد فيها ناسخ (س) و(ط): «إلى الله».

(٦) أخرجه البزار (٢٩٦٩)، والحاكم (١/ ٩٢ ـ ٩٣) من حديث حذيفة رضي الله عنه. وقال البزار: «وإنما يعرف هذا الكلام من كلام مطرف». وأخرجه الحاكم أيضاً من حديث سعد بن أبي وقاص.

وفي مراسيلِ الزُّهريِّ، عنِ النَّبيِّ ﷺ: «فُضِّلَ العالِمُ على العابدِ سبعينَ درجةً، ما بينَ كلِّ دَرجتَينِ مسيرةُ حُضْرِ جَوادٍ مئةَ عامٍ»[١].

والآثارُ الموقوفةُ عنِ السَّلفِ في هذا كثيرةٌ جدًّا:

فرُوِيَ عن أبي هريرةَ وأبي ذرٍّ قالا: لَبَابٌ يتعلَّمُه الرَّجلُ أحبُّ إلينا من ألفِ ركعةٍ تطوُّعًا[٢]. وخرَّجَه ابنُ ماجَه من حديثِ أبي ذرٍّ مرفوعًا[٣].

ورُوِيَ عن أبي الدَّرداءِ قالَ: مذاكرةُ العِلمِ ساعةً خيرٌ من قيامِ ليلةٍ[٤].

ويُروَى عن أبي هريرةَ مرفوعًا: «ما عُبِدَ اللهُ بشيءٍ أفضلَ من فقهٍ في الدِّينِ»[٥]. قال أبو هريرةَ: لَأنْ أفقهَ ساعةً أحبُّ إليَّ من أن أُحييَ ليلةً أُصلِّيها حتّى أُصبِحَ[٦].

وعنه قالَ: لَأن أعلَمَ بابًا منَ العِلمِ في أمرٍ ونهيٍ أحبُّ إليَّ من سبعِينَ غَزوةً في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ[٧].

وعنِ ابنِ عبَّاسٍ قالَ: تذاكُرُ العِلمِ بعضَ ليلةٍ أحبُّ إليَّ من إحيائِها[٨].

---

(١) مرسل الزهري ذكره الدارقطني في «العلل» (١٧٤٩). وذكره أيضاً مرفوعاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال: والمرسل أصح. وأخرجه الدارمي (٣٦٤) من كلام الزهري مقطوعاً.
والحُضْرُ: العَدْو.

(٢) أخرجه البزار (٨٥٧٤) (٨٥٧٥).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢١٩).

(٤) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٠٢).

(٥) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٢٣).

(٦) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٢٤).

(٧) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٠٢).

(٨) أخرجه عبد الرزاق عن معمر (٢٠٤٦٩)، ونحوه عند الدارمي (٦٣٨).

وصحَّ عن أبي موسى الأشعريِّ أنَّه قالَ: لَمجلِسٌ أجلسُه من عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ أوثقُ في نفسِي من عَمَلِ سنةٍ[1].

ورُوي عنِ الحسنِ أنَّه قالَ: لَأن أتعلَّمَ بابًا منَ العِلمِ فأُعلِّمَه مسلمًا أحبُّ إليَّ من أن تكونَ ليَ الدُّنيا كلُّها أجعلُها في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ[2].

وعنه قالَ: إن كانَ الرَّجلُ لَيُصيبُ البابَ منَ العِلمِ فيَعمَلُ به، فيكونُ خيرًا له من الدُّنيا وما فيها لو كانَت له فيجعلُها في الآخرةِ[3].

وعنه قالَ: مِدادُ العلماءِ ودمُ الشُّهداءِ مجرًى واحدٌ[4].

وعنه قالَ: ما من شَيءٍ ممّا خلقَ اللهُ أعظمَ عندَ اللهِ في عِظَمِ الثَّوابِ من طَلَبِ العِلمِ، لا حجَّ ولا عمرةَ ولا جهادَ ولا صدقةَ ولا عِتقَ، ولو كانَ العِلمُ صورةً لكانَت صورتُه أحسنَ من صورةِ الشَّمسِ والقمرِ والنُّجومِ والسَّماءِ والعرشِ[5].

وقالَ الزُّهريُّ: تعلُّمُ سُنَّةٍ أفضلُ من عبادةِ مئتي[6] سَنَةٍ[7].

---

(١) أخرجه يعقوب بن سفيان في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٥٤٥)، والإمام أحمد في «العلل» رواية عبد الله (١١٢٩).

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٠٢).

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٧٩)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٦٣٤٩)، والدارمي (٣٩٧)، وابن حبان في «روضة العقلاء» (ص: ٤٠) وغيرهم.

(٤) ذكر نحوه عن الحسن: الثعالبي في «التمثيل والمحاضرة» (ص: ١٦٥).

(٥) لم أجده عند غير المصنف رحمه الله.

(٦) في (ض) وحاشية (س): «ألفي».

(٧) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٣/ ٦).

وقالَ سفيانُ الثَّوريُّ وأبو حنيفةَ: ليسَ شيءٌ بعدَ الفرائضِ أفضلَ من طلَبِ العِلمِ[١].

قالَ الثَّوريُّ: لا نعلمُ شيئًا منَ الأعمالِ أفضلَ من طلَبِ العلمِ والحديثِ لمن حَسُنَت فيه نيَّتُه، قيلَ له: وأيُّ شيءٍ النِّيَّةُ فيه؟ قالَ: يريدُ به الله والدّارَ الآخرةَ[٢].

وقالَ الشّافعيُّ: طلبُ العِلمِ أفضلُ من صلاةِ النافلةِ[٣].

ورأى مالكٌ بعضَ أصحابِه يكتبُ العِلمَ ثمَّ تركَه وقامَ يصلِّي، فقال: عَجَبًا لكَ، ما الذي قمتَ إليه بأفضلَ من الذي تركتَه[٤].

وسُئِلَ الإمامُ أحمدُ: أيُّما أحبُّ إليكَ: أن أصلِّيَ باللَّيلِ تطوُّعًا أو أجلسَ أنسخُ العِلمَ؟ قالَ: إذا كنتَ تنسخُ ما تعلمُ به أمرَ دِينِكَ فهو أحبُّ إليَّ[٥].

وقالَ أحمدُ أيضًا: العِلمُ لا يعدِلُه شيءٌ[٦].

وقالَ المُعافَى بنُ عِمرانَ: كتابةُ حديثٍ واحدٍ أحبُّ إليَّ من قيامِ ليلةٍ[٧].

---

(١) عزاه ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٣٢) إلى الشافعي وسفيان الثوري وأبي حنيفة.

وهو عن الشافعي في «المدخل» للبيهقي (١٥٨١) (١٥٨٢).

وهو عن الثوري في «حلية الأولياء» (٦/ ٣٦٣).

وهو عن أبي حنيفة في «مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه» للذهبي (ص: ٤٢٠) عن ابن المبارك، قال: سئل أبو حنيفة: أي الأعمال أفضل؟ قال: طلب العلم...

(٢) في (هـ) و(ج): «يريد به وجه الله...». أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٦٦). والسائل هو ابن أبي الحواري، والمجيب هو الفريابي الراوي عن سفيان.

(٣) أخرجه البيهقي في «المدخل إلى السنن» (١٥٨٠).

(٤) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٢٢) عن ابن وهب، في صلاة ظهر أو عصر، ومراد مالك رحمه الله تفضيل طلب العلم على المبادرة لإحراز فضيلة أول الوقت.

(٥) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٠٣).

(٦) «سؤالات ابن هانئ للإمام أحمد» (١٩٣١).

(٧) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٢٠).

وممّا يدلُّ على تفضيلِ العِلمِ على جميعِ النَّوافلِ: أنَّ العِلمَ يجمَعُ جميعَ فضائل الأعمالِ المتفرِّقةِ، فإنَّ العِلمَ أفضلُ أنواعِ الذِّكرِ كما سبقَ تقريرُه، وهو أيضًا أفضلُ أنواعِ الجهادِ.

ويُروَى من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عُمرَ والنُّعمانِ بنِ بشيرٍ مرفوعًا: «إنَّه يُوزنُ مِدادُ العلماءِ بدَمِ الشُّهداءِ، فيرجُحُ مِدادُ العلماءِ»[١].

وخرَّجَ التِّرمذيُّ من حديثِ أنسٍ عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «مَن خرَجَ في طلبِ العِلمِ فهو في سبيلِ اللهِ حتّى يرجِعَ»[٢].

وورِدَ في حديثٍ آخرَ: «إذا جاءَ الموتُ طالبَ العِلمِ فهو شَهيدٌ»[٣].

وقالَ معاذُ بنُ جبلٍ: «تعلَّموا العِلمَ فإنَّ تعلُّمَه للهِ خشيةٌ، وطلَبَه عبادةٌ، ومُدارستَه تسبيحٌ، والبحثَ عنه جهادٌ، وتعليمَه لمَن لا يعلمُه صدقةٌ، وبذلَه لأهلِه قربةٌ[٤]، وهو الأنسُ[٥] في الوَحدةِ، والصّاحبُ في الخَلوةِ[٦][٧]. بـه يُعرَفُ اللهُ ويُعبَدُ، وبه يُمجَّدُ

---

(١) حديث ابن عمر أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٢/ ٥٩٢) من حديث محمد بن الحسن بن الأزهر، وذكر أن هذا الحديث مما صنعت يده!
وأما حديث النعمان بن بشير، واللفظ المذكور له. فأخرجه السهمي في «تاريخ جرجان» (ص: ٩٢) (ص: ٢٢٢)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٨٥) وقال: هذا لا يصح.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٤٧) وقال: حسن غريب، ورواه بعضهم فلم يرفعه.

(٣) أخرجه البزار (٨٥٧٤) (٨٥٧٥) من حديث أبي هريرة وأبي ذر رضي الله عنهما.

(٤) في حاشية (س)، وعنها (ط): «لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سُبُل أهل الجنة». قال ناسخ (س): «هذه الزيادة التي على الهامش في غير هذه النسخة، نقلتها لأجل النفع، رزقنا الله العمل».

(٥) في (س) و(ط): «الأنيس».

(٦) في المصادر: «والصاحب في الغربة».

(٧) في حاشية (س)، ونقلها ناسخ (ط) في صلب الكتاب «والمحدِّثُ في الخَلوةِ، والدَّليلُ على السَّرّاءِ =

ويُوحَّدُ، يرفعُ اللهُ بالعلمِ أقوامًا فيجعلُهم قادةً وأئمّةً للنّاسِ، يقتدونَ بهم ويرجِعونَ إلى رأيِهم». في كلامٍ أكثرَ من هذا(١).

وقد رُوِيَ هذا مرفوعًا من حديثِ أبي هريرةَ وغيرِه(٢).

وممّا يدلُّ على تفضيلِ العِلمِ على العبادةِ: قِصّةُ آدمَ عليه السَّلامُ، فإنَّ اللهَ تعالى إنَّما أظهرَ فضلَه على الملائكةِ بالعِلمِ، حيثُ علَّمَه أسماءَ كلِّ شيءٍ واعترفَ الملائكةُ بالعَجزِ عن معرفةِ ذلكَ، فلمّا أنبأَهم آدمُ بالأسماءِ ظهرَ حينَئذٍ فضلُه عليهم، وقالَ الله عزَّ وجلَّ لهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣].

= والضَّراءِ، والسِّلاحُ على الأعداءِ، والزَّينُ عندَ الأخلّاءِ، يرفعُ اللهُ به أقوامًا فيجعلُهم في الخَيرِ قادةً وأئمّةً، تُقتَصُّ آثارُهم، ويُقتدَى بفِعالِهم، ويُنتَهى إلى رأيِهم، ترغبُ الملائكةُ في خُلَّتِهم، وبأجنحتِها تمسحُهم، ويستغفِرُ لهم كلُّ رَطبٍ ويابسٍ، وحيتانُ البحرِ وهوامُّه، وسباعُ البرِّ وأنعامُه؛ لأنَّ العِلمَ حياةُ القلوبِ منَ الجهلِ، ومصابيحُ الأبصارِ منَ الظُّلَمِ، يبلغُ العبدُ في العلمِ منازلَ الأخيارِ، والدَّرجاتِ العُلى في الدُّنيا والآخرةِ، التَّفكُّرُ فيه يعدِلُ الصِّيامَ، ومُدارستُه تعدِلُ القيامَ، به تُوصَلُ الأرحامُ، وبه يُعرَفُ الحلالُ منَ الحرامِ، وهو إمامُ العملِ، والعملُ تابعُه، يُلهَمُه السُّعداءُ ويحرَمُه الأشقياءُ». رواه ابنُ عبدِ البَرِّ». وهي ليست في سائر النسخ.

(١) أخرجه من حديث معاذ: أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٣٩)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٢٣٨)! وقال: «وهو حديث حسن جدًّا، ولكن ليس له إسناد قوي». أخرجه ابن عبد البر مرفوعاً وموقوفاً على معاذ رضي الله عنه. والحسن هنا: حسن الألفاظ لا الإسناد.

(٢) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٠٠) من طريق الطبراني من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأخرجه الثعلبي في «التفسير» (٧٥٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

وذكرَ طائفةٌ منَ السَّلفِ أنَّ الذي كتموه أنَّهم قالوا في أنفُسِهم: لن يَخلُقَ اللهُ خَلقًا إلّا ونحنُ أكرمُ عليه منه[1].

وممّا يدلُّ على فضلِ[2] العِلمِ: أنَّ جبريلَ عليه السَّلامُ إنَّما فُضِّلَ على الملائكة المشتغلِينَ بالعبادةِ بالعِلمِ الذي خُصَّ به، فإنَّه صاحبُ الوحيِ الذي ينزلُ به على الأنبياءِ عليهم السَّلامُ، وكذلكَ خواصُّ الرُّسلِ إنَّما فُضِّلوا على غَيرِهم منَ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ بمزيدِ العِلمِ المقتَضِي لزيادةِ المعرفةِ باللهِ والخشيةِ له؛ ولهذا وَصفَ اللهُ تعالى في كتابِه محمّدًا ﷺ ومدَحه بالعِلمِ الذي اختصَّه به، وامتنَّ به عليه في مواضِعَ كثيرةٍ، وأمرَه أن يُعلِّمَه لأمته[3]، فأوَّلُ ما ذكَّره بالعِلمِ وبتعليمِه في قصَّةِ إبراهيمَ حينَ دعا ربَّه لأهلِ البيتِ الحرامِ أن يبعَثَ فيهم رسولًا منهم يتلو عليهم آياتِه [ويزكيهم][4] ويُعلِّمُهم الكتابَ والحِكمةَ، ثمَّ امتنَّ تعالى علينا بأن بعثَ فينا رسولًا منّا، وهو محمَّدٌ ﷺ بهذه الصِّفةِ، فقالَ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وأوَّلُ ما أنزَلَ على محمَّدٍ ﷺ منَ القرآنِ: ذِكرُ العِلمِ وفضلِه، وهو قولُه تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥] وامتنَّ على محمَّدٍ ﷺ بالعِلمِ في مواضِعَ، كقولِه تعالى:

---

(١) في (ض): «منهم» وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (١/ ٤٩٤) (١/ ٥٣٢ ـ ٥٣٣) عن الحسن وقتادة والربيع بن أنس. وأخرجه ابن أبي حاتم (٣٥٦) عن أبي العالية.

(٢) في (هـ) و(ج): «تفضيل».

(٣) في (ض) و(هـ): «الأمة».

(٤) «ويزكيهم» من (ض) و(س) و(ط)، ولا توجد في سائر النسخ، وحقها أن تكون بعد: «ويعلمهم الكتاب والحكمة» لتطابق ترتيب دعاء الخليل عليه السلام (سورة البقرة: ١٢٩).

﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، وأمرَه أن يسألَ ربَّه أن يزيده علمًا فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وكانَ ﷺ يقولُ: «أنا أعلمُكم باللهِ وأشدُّكم له خَشيةً»[1].

وامتنَّ اللهُ تعالى علينا أن بعثَ فينا هذا الرَّسولَ ﷺ الذي يُعلِّمُنا ما لم نكنْ نعلمُ، وأمرَنا بشُكرِ هذه النِّعمةِ، كما قالَ تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ۝١٥١ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١ ـ ١٥٢].

وأخبرَنا سبحانَه أنَّه ما[2] خلَقَ السَّماواتِ والأرضَ ونزَّلَ الأمرَ إلا لنعلَمَ بذلكَ قُدرتَه وعِلمَه، فيكونَ دليلًا على معرفتِه ومعرفةِ صِفاتِه، كما قالَ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

ومدحَ في كتابِه العلماءَ في مواضِعَ كثيرةٍ، وقد سبقَ ذِكرُ بعضِها، وأخبرَنا أنَّه إنَّما يخشاه من عبادِه العلماءُ، وهم العلماءُ به، قالَ ابنُ عبّاسٍ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] قالَ: إنَّما يخافُني من عِبادي مَن عرَفَ جلالي وكِبريائي وعظَمَتي[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٠١) (٧٣٠١)، ومسلم (٢٣٥٦) من حديث عائشة رضي الله عنها، ولفظهما: «.. أعلمهم بالله وأشدهم له خشية».

(٢) في جميع النسخ: «إنما»، ولعل صوابها: «ما» كما أثبته، ليستقيم معنى الجملة.

(٣) لم أجد هذا الأثر، وذكر الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٤٢١) عن ابن عباس «إنما يخافني من خلقي من علم جبروتي وعزتي وسلطاني».

فأفضلُ العِلمِ العِلمُ باللهِ، وهو العِلمُ بأسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه الذي يُوجِبُ لصاحبِه معرفةَ اللهِ وخشيتَه، ومحبّتَه وهيبتَه، وإجلالَه وعظَمتَه، والتَّبتُّلَ إليه والتَّوكُّلَ عليه، والرِّضا عنه، والاشتغالَ به دونَ خَلقِه.

ويتبعُ ذلكَ: العِلمُ بملائكتِه وكتبِه ورسلِه واليومِ الآخرِ وتفاصيلِ ذلكَ، والعلمُ بأوامرِ اللهِ ونواهيه وشرائعِه وأحكامِه، وما يحبُّه من عبادِه منَ الأقوالِ والأعمالِ الظّاهرةِ والباطنةِ، وما يكرهُه من عبادِه منَ الأقوالِ والأعمالِ الظّاهرةِ والباطنةِ.

ومَن جمعَ هذه العلومَ فهو منَ العلماءِ الرَّبانيِّينَ، العلماءِ باللهِ العلماءِ بأمرِ اللهِ، وهم أكملُ ممَّن قصُرَ عِلمُه على العِلمِ باللهِ دونَ العِلمِ بأمرِه وبالعكسِ. وشاهِدُ هذا: النَّظرُ في حالِ الحَسنِ، وابنِ المسيِّبِ، والثَّوريِّ، وأحمدَ، وغيرِهم منَ العلماءِ الرَّبانيِّينَ، وحالِ: مالكِ بنِ دينارٍ، والفُضيلِ بنِ عياضٍ، ومعروفٍ، وبشرٍ، وغيرِهم منَ العارفِينَ، فمَن قايسَ بينَ الحالَينِ عرَفَ فضلَ العلماءِ باللهِ وبأمرِه على العلماءِ باللهِ فقط، فما الظَّنُّ بتفضيلِ العلماءِ باللهِ وبأمرِه على العلماءِ بأمرِه فقط؟ فإنَّ هذا واضحٌ لا خفاءَ به، وإنَّما يظُنُّ بعضُ مَن لا عِلمَ له تفضيلَ العُبَّادِ على العلماءِ؛ لأنَّهم تخيَّلوا أنَّ العلماءَ هم العلماءُ بأمرِ اللهِ فقط، وأنَّ العُبَّادَ هم العلماءُ باللهِ[1]، فرجَّحوا العالِمَ باللهِ على العالِمِ بأمرِه وهذا حقٌّ، ونحنُ إنَّما نقولُ: إنَّ العلماءَ باللهِ والعلماءَ بأمرِه أفضلُ منَ العُبَّادِ ولو كانَ العبادُ منَ العلماءِ باللهِ؛ لأنَّ العلماءَ الرَّبّانيِّينَ شاركوا العُبَّادَ في فضيلةِ العِلمِ باللهِ، بل ربَّما زادوا عليهم فيه، وانفردوا بفضيلةِ العِلمِ بأمرِ اللهِ وبفضيلةِ دعوةِ الخلقِ إلى اللهِ وهدايتِهم إليه،

(١) في (س) و(ط): «العلماء بالله وحده».

وهو مقامُ الرُّسلِ عليهم السَّلامُ ولذلكَ[1] كانوا خلفاءَ الرُّسلِ وورثتَهم، كما سنذكرُه[2] إن شاءَ اللهُ تعالى.

وهذا القَدرُ الذي انفردوا به عنِ العُبَّادِ أفضلُ من القدرِ الذي انفردَ به العُبَّادُ من نوافلِ العباداتِ، فإنَّ زيادةَ المعرفةِ بما أنزلَ اللهُ على رسولِه توجِبُ زيادةَ المعرفةِ باللهِ والإيمانِ به، وجنسُ المعرفةِ باللهِ والإيمانِ به أفضلُ من جنسِ العملِ بالجوارحِ والأركانِ، ولكن مَن لا علمَ له تعظُمُ في نفْسِه العباداتُ على العِلمِ؛ لأنَّه لا يتصوَّرُ حقيقةَ العِلمِ ولا شرفَه ولا قُدرةَ له على ذلكَ، وهو يتصوَّرُ حقيقةَ العباداتِ وله قُدرةٌ على جِنسِها في الجملةِ.

ولهذا تجدُ كثيرًا ممَّن لا علمَ لديه يُفضِّلُ الزُّهدَ في الدُّنيا على العلومِ والمعارفِ، وسببُه ما ذَكرْناه، وهو أنَّه لا يتصوَّرُ معنى العلمِ والمعرفةِ، ومَن لا يتصوَّرُ شيئًا لا يَقدُرُ[3] في صدرِه عظمتُه، وإنَّما يتصوَّرُ الجاهلُ بالعِلمِ حقيقةَ الدُّنيا، وقد عظُمَت في صدرِه فعظُمَ عندَه مَن تركَها، ولو تصوَّرَ حقارةَ الدُّنيا وهوانَها على اللهِ لم يعظُمْ عندَه قَدرُ تركِها، كما قالَ محمَّدُ بنُ واسعٍ وقد رأى شُبّانًا، فقيلَ له: هؤلاءِ زُهّادٌ، فقالَ: وأيُّ شيءٍ قَدرُ الدُّنيا حتى يُمدَحَ مَن زهِدَ فيها[4]؟

وقالَ أبو سليمانَ الدَّارانيُّ قريبًا من هذا المعنى أيضًا[5].

---

(١) من (م)، وتصحفت في سائر النسخ إلى: «وكذلك».

(٢) في (س) و(ط): «سيأتي ذكره».

(٣) في (س) و(ط): «يَقِرُّ».

(٤) أخرجه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (٣٠١١).

(٥) قال: «الدنيا عند الله أقل من جناح بعوضة، فما قيمة جناح بعوضة حتى يُزهد فيها»؟! أخرجه الخطيب في «الزهد والرقائق» (٦٠).

فالمفتخِرُ بالزُّهدِ في الدُّنيا كأنَّه يفتخِرُ بتركِ نزرٍ يسيرٍ من شيءٍ هو أقلُّ عندَ اللهِ من جناحِ بعوضةٍ، وهذا هو أحقرُ من أن يُذكَرَ فضلًا عن أن يُفتَخَرَ به.

ولهذا أيضًا يعظُمُ في نفوسِ كثيرٍ منَ النّاسِ ذِكرُ الخَوارقِ والكراماتِ، ويرونَها أفضلَ ممّا أُعطيَه العلماءُ منَ المعرفةِ باللهِ وبشَرعِه، وهذا من أعظمِ الغَلطِ، وسببُه: قِلّةُ تصوُّرِهم حقيقةَ المعرفةِ والعِلمِ، وإنَّما يتصوَّرونَ حقيقةَ الخَوارقِ، لأنَّها من جنسِ القُدرةِ والسُّلطانِ في الدُّنيا، الذي يعجِزُ أكثرُ النّاسِ عنه.

وأمّا العلماءُ باللهِ فلا تعظُمُ هذه الخوارقُ عندَهم، بل يرَونَ الزُّهدَ فيها، وأنَّها من نوعِ[1] الفِتنةِ والمحنةِ وبسطِ الدُّنيا على العبدِ، فيخافونَ منَ الاشتغالِ بها والوقوفِ معَها الانقطاعَ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

وقد ذكرَ أبو طالبٍ المكيُّ هذا المعنى في كتابِه عن كثيرٍ منَ العارفِينَ، منهم أبو يزيدَ، ويحيى بنُ معاذٍ، وسهلٌ، وذو النُّونِ، والجُنَيدُ، وغيرُهم[2].

وقيلَ لبعضِهم: إنَّ فلانًا يمشي على الماءِ، فقالَ: مَن مكَّنه اللهُ من مخالفةِ هواه فهو أفضلُ[3].

وكانَ أبو حفصٍ النَّيسابوريُّ يومًا جالسًا معَ أصحابِه خارجَ المدينةِ، وهو يتكلَّمُ عليهم فطابَت أنفُسُهم، فجاءَ أُيَّلٌ[4] قد نزلَ منَ الجبلِ حتى برَكَ بينَ يديه، فبكَى بُكاءً شديدًا وانزعَجَ، فسُئلَ عن سببِ بكائِه، فقالَ: رأيتُ اجتماعَكم حولي، وقد طابَت

---

(١) في (هـ) و(ج): «أنواع».

(٢) انظر: الفصل الثاني والثلاثين: شرح مقام الزهد (٢/ ٨٤٤ ـ ٨٤٥ ـ ط: دار التراث القاهرة).

(٣) أخرجه أبو عبد الرحمن السلمي في «طبقات الصوفية» (ص: ٢٦٧).

(٤) الذَّكَر في الأوعال، وضبطها ناسخ (م): «أَيِّل»!

قلوبُكم، فوقعَ في قلبي لو أنَّ لي شاةً ذبحتُها[١]، ودعوتُكم عليها، فما تحكَّم هذا الخاطرُ حتى جاءَ هذا الوحشُ فبركَ بينَ يديَّ، فخُيِّلَ لي أنِّي مثلُ فِرعونَ الذي سألَ ربَّه أن يُجرِيَ له النِّيلَ فأجراه له، قلتُ: فما يُؤمِّنُني أن يكونَ اللهُ يُعطيني كلَّ حظٍ لي في الدُّنيا وأبقى في الآخرةِ فقيرًا لا شيءَ لي؟، فهذا الذي أزعَجَني[٢].

فأحوالُ العارفِينَ كلُّها تـدلُّ على أنَّهم لم يكونوا يلتفتونَ إلى هذه الخوارقِ، وإنَّما كانَ اهتمامُهم بمعرفةِ اللهِ وخشيتِه، ومحبَّتِه والأُنسِ به، والشَّوقِ إلى لقائِه وطاعتِه، والعلماءُ الرَّبَّانيُّونَ يشاركونَهم في ذلكَ ويزيدونَ عليهم بالعِلمِ بأمرِ اللهِ وبدعوةِ الخلقِ إلى اللهِ، وهذا هو الفضلُ العظيمُ عندَ اللهِ وملائكتِه ورسلِه، كما قالَ بعضُ السَّلفِ: مَن عَلِمَ وعملَ وعلَّمَ فذلكَ[٣] يُدعَى عظيمًا في ملكوتِ السَّماءِ[٤].

وإذا ظهرَ فضلُ العالِمِ على العابدِ، فإنَّما المرادُ: تفضيلُه على العابدِ بعِلمٍ، فأمَّا العابدُ بغيرِ علمٍ فإنَّه مذمومٌ؛ ولهذا شبَّهه السَّلفُ بالسَّائرِ على غيرِ طريقٍ، وبأنَّه يُفسِدُ أكثرَ ممَّا يُصلحُ، وبأنَّه كالحمارِ في الطاحونة[٥] يدورُ حتَّى يهلِكَ منَ التَّعبِ ولا يبرحُ من مكانِه[٦]، وهذا أشدُّ ظهورًا ووضوحًا من أن يحتاجَ إلى بسطِ القولِ فيه.

***

(١) في (س) و(ط): «ذبحتها لكم».

(٢) أخرجه ابن الجوزي في «القصاص والمذكرين» (١٤٠).

(٣) في (س) و(ط): «فذلك الذي».

(٤) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (٣٣٠)، وأبو خيثمة في «العلم» (٧) من كلام المسيح عليه السلام.
وأخرجه أحمد في «الزهد» (ص: ٢٦٤) من كلام سفيان رحمه الله.
وأخرجه الترمذي عقب الحديث (٢٦٨٥) من كلام الفضيل بن عياض رحمه الله.

(٥) في (س) و(ط): «الطاحون»، وفي حاشية (س): «مثل عجيب».

(٦) في (هـ) و(ج): «ولا يبرحُ مكانَه».

وَلنضرِبْ هاهنا مثلًا جامعًا لأحوالِ الخلقِ كلِّهم بالنِّسبةِ إلى دعوةِ الرَّسولِ ﷺ، وانقسامِهم في إجابةِ دعوتِه إلى: سابقٍ، ومقتصِدٍ، وظالمٍ لنفْسِه، وبه يظهرُ فضلُ العلماءِ الرَّبّانيِّينَ على غيرِهم منَ النّاسِ أجمعينَ، فنقولُ:

مثلُ ذلكَ كمَثلِ رسولٍ قدِمَ من بلدِ الملِكِ الأعظمِ، فأدّى رسالةَ الملِكِ إلى سائرِ البلدانِ، وظهرَ لهم صِدقُه في رسالتِه، فكانَ مضمونُ رسالتِه التي أدّاها من عندِ الملِكِ الأعظمِ إلى رعيّتِه أنَّ هذا الملِكَ لا إحسانَ أتمُّ من إحسانِه، ولا عدلَ أكملُ من عدلِه، ولا بطشَ أشدُّ من بطشِه، وأنَّه لابدَّ أن يستدعيَ الرَّعيّةَ كلَّهم إليه ليُقيموا عندَه، فمَن قَدِمَ عليه بإحسانٍ جزاه بإحسانِه أفضلَ الجزاءِ، ومن قَدِمَ عليه بإساءةٍ جازاه بإساءتِه أشدَّ الجزاءِ، وأنَّه يحبُّ كذا وكذا ويكرَه كذا وكذا، ولم يدعْ شيئًا ممّا تعملُه الرَّعيّةُ إلّا أخبرَهم بما يحبُّه الملِكُ منه وبما يكرهُه، وأمرَهم بالتَّجهُّزِ والسَّيرِ إلى دارِ الملِكِ التي فيها الإقامةُ، وأخبرَهم بخرابِ جميعِ البُلدانِ سِوى ذلكَ البلدِ، وأنَّ مَن لم يتجهَّزْ للسَّيرِ بعثَ إليه الملِكُ من يزعِجُه عن وَطنِه، ونقلَه[1] منه على أسوأِ حالٍ، وجعلَ يصِفُ صفاتِ هذا الملِكِ الحُسنى منَ الجمالِ والكمالِ والجلالِ والإفضالِ.

فانقسَمَ النّاسُ في إجابةِ هذا[2] الرَّسولِ الدّاعي إلى الملِكِ أقسامًا عديدةً:

فمنهم مَن صدَّقَه، ولم يكنْ له همٌّ إلّا السُّؤالُ عمّا يحبُّ هذا الملِكُ منَ الرَّعيّةِ استصحابَه إلى دارِه عندَ السَّيرِ إليه، فاشتغَلَ بتحصيله لنفْسِه، وبدعاءِ مَنْ يمكنُه دُعاؤه منَ الخلقِ إلى ذلكَ، وعمّا يكرَهُه هذا الملِكُ، فاجتنبَه وأمرَ النّاسَ باجتنابه، وجعلَ همَّه الأعظمَ السُّؤالَ عن صفاتِ الملِكِ وعَظَمتِه وإفضالِه، فزادَ بذلكَ محبّتَه

---

(١) في (س) و(ط): «وينقله».

(٢) في (هـ) و(ج): «دعوة هذا».

لهذا الملِكِ وإجلالُه والشَّوقُ إلى لقائِه، فارتحلَ إلى الملِكِ مستصحبًا لأنفَسِ ما يقدِر عليه ممّا يحبُّه الملِكُ ويرتضيه، واستصحَبَ معَه رَكبًا عظيمًا على مثلِ حالِه، سارَ بهم إلى دارِ الملِكِ، وقد عرَفَ من جهةِ ذلكَ الدَّليلِ الذي هو الرَّسولُ الصّادقُ أقربَ الطُّرُقِ التي يُتوصَّلُ بالسَّيرِ فيها إلى الملِكِ، وما ينفعُ من التَّزوُّدِ للسيرِ فيها[١]، وعَمِلَ بمقتضى ذلكَ في السَّيرِ هو ومَن اتَّبعَه. فهذه صِفةُ العلماءِ الرَّبّانيِّينَ، الذينَ اهتدَوا وهدَوا الخَلقَ معَهم إلى طريقِ اللهِ، وهؤلاءِ يقدَمونَ على الملِكِ قُدومَ الغائبِ على أهلِه المنتظِرينَ لقُدومِه، المشتاقِينَ إليه أشدَّ الشَّوقِ.

وقسمٌ آخرونَ: **اشتغلوا بالتَّأَهُّبِ لمسيرِهم بأنفُسِهم إلى الملِكِ**، ولم يتفرَّغوا لاستصحابِ غَيرِهم معَهم، وهذه صفةُ العُبَّادِ الذينَ تعلَّموا ما ينفعُهم في خاصّةِ أنفُسِهم، واشتغلُوا بالعَملِ بمقتضاه.

وقسمٌ آخرونَ: **تشبَّهوا بأحدِ القِسمَينِ**، وأظهروا للنّاسِ أنَّهم منهم، وأنَّ قصدَهم التَّزوُّدُ للرَّحيلِ، وإنَّما كانَ قصدُهم استيطانَ دارِهم الفانيةِ، وهمُ العلماءُ والعُبَّادُ المراؤونَ بأعمالِهم[٢]؛ لينالوا بذلكَ مصالحَ دارِهم التي هم بها مستوطِنُونَ، وحالُ هؤلاءِ عندَ الملِكِ الأعظمِ إذا قدِموا عليه شرُّ حالٍ، ويُقالُ لهم: اطلبوا جزاءَ أعمالِكم ممَّن عملتُم لهم فليسَ لكم عندَنا من خَلاقٍ، وهم أوَّلُ مَن تُسعَّرُ بهم النّارُ من أهلِ التَّوحيدِ[٣].

وقسمٌ آخرونَ: **فَهِمُوا ما أدّاه الرَّسولُ من رسالةِ الملِكِ**، لكنَّهم غلَبَ عليهم

---

(١) في (س) و(ط): «للمسير فيها إلى الملك».

(٢) في (هـ): «بعملهم»، وفي (ج): «العلماء المراؤون بعلمهم».

(٣) كما في حديث الثلاثة الذين هم أول من تُسعَّر بهم النَّار. أخرجه مسلم (١٩٠٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الكَسلُ والتَّقاعدُ عنِ التَّزوُّدِ للسَّفرِ واستصحابِ ما يحبُّ الملِكُ واجتنابِ ما يكرهُه، وهؤلاءِ العلماءُ الذينَ لم يعملوا بعلمِهم، وهم على شَفا هَلَكةٍ، وربَّما انتفعَ غيرُهم بمعرفتِهم ووصفِهم لطريقِ السَّيرِ، فسارَ المتعلِّمونَ فنجَوا، وانقطعَ مَنْ تعلَّموا منه في الطَّريقِ[1] فهلكوا.

وقسمٌ آخرونَ: صدَّقوا الرَّسولَ فيما دعا إليه من دعوةِ الملِكِ، لكنَّهم لم يتعلَّموا[2] طريقَ السَّيرِ، ولا معرفةَ تفاصيلِ ما يحبُّه الملِكُ وما يكرهُه، فساروا بأنفُسِهم ورمَوا نفوسَهم في طُرُقٍ شاقَّةٍ، ومَفَاوزَ[3] وقِفارٍ وَعِرةٍ، فهلَكَ أكثرُهم، وانقطعوا في الطَّريقِ، ولم يصِلوا إلى دارِ الملِكِ وهؤلاءِ الذينَ يعملونَ بغيرِ عِلمٍ.

وقسمٌ: لم يهتمُّوا بهذه الرِّسالةِ، ولا رفعوا بها رأسًا، واشتغلوا بمصالحِ إقامتِهم في أوطانِهم التي أخبرَ الرَّسولُ بخرابِها، وهؤلاءِ:

منهم: مَن كذَّبَ الرَّسولَ بالكليَّةِ.

ومنهم: مَن صدَّقَه بقولِه ولكنَّه لم يشتغِلْ بمعرفةِ ما دلَّ عليه ولا بالعلمِ[4] به، وهؤلاءِ عمومُ الخَلقِ المعرِضونَ عنِ العلمِ والعملِ.

ومنهم: الكفَّارُ والمنافقونَ.

ومنهم: العُصاةُ الظَّالمونَ لأنفُسِهم.

فلم يشعروا إلَّا وقد طرَقَهم داعي الملِكِ، فأخرجَهم عن أوطانِهم، واستدعاهم إلى الملِكِ، فقَدِموا عليه قُدومَ الآبقِ على سيِّدِه الغضبانِ.

---

(١) في (س) و(ط): «وانقطع من تعلموا منه الطريق».

(٢) في (س) و(ط): «فلم يتعلموا منها».

(٣) في (س) و(ط): «ومخوفة».

(٤) في (س) و(ط): «بالعمل»، ولكلٍّ وجه.

فإذا تأمَّلتَ أقسامَ النّاسِ المذكورةَ، لم تجِدْ أشرفَ ولا أقربَ عندَ الملِكِ منَ العلماءِ الرَّبّانيِّينَ، فهم أفضلُ الخَلقِ بعدَ المرسَلِينَ.

* * *

قولُه ﷺ: «إنَّ العلماءَ ورَثةُ الأنبياءِ».

يعني أنَّهم وَرِثوا ما جاءَ به الأنبياءُ عليهم السلام منَ العِلمِ، فخلَفوا الأنبياءَ في أُمَمِهم بالدَّعوةِ إلى اللهِ وإلى طاعتِه، والنَّهيِ عن معاصي اللهِ والذَّبِّ عن دِينِ اللهِ.

وفي مراسيلِ الحسنِ عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «رحمةُ اللهِ على خُلفائي»، قالوا: يا رسولَ اللهِ، ومَن خُلفاؤُكَ؟ قالَ: «الذينَ يُحيونَ سُنَّتي[1] ويعلِّمونَها عبادَ اللهِ»[2].

ورُوِيَ نحوُه من حديثِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنه مرفوعًا أيضًا[3].

فالعَالِم في مقامِ الرُّسُلِ بينَ اللهِ وبينَ خَلْقِه، كما قالَ ابنُ المُنْكَدِرِ: إنَّ العالِمَ بينَ اللهِ وبينَ خَلْقِه فلينظُرْ كيفَ يدخُلُ عليهم[4].

---

(١) زاد في (س) و(ط): «من بعدي» وليست في المصادر.

(٢) أخرجه ابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٣٧)، وأخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٢٢٠) على أنه من مراسيل الحسن، كما ذكر (٢٢٢).
لكن أبا إسماعيل الهروي أخرجه في «ذم الكلام» (٤/ ٢٢٨) بإسناد ابن عبد البر على أنه من رواية الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما. لا الحسن البصري رحمه الله.
وأخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥١/ ٦١).

(٣) أخرجه ابن السني في «رياضة المتعلمين» (٣٣٥) وغيره، وفي الحديث هذا الذي يروى عن علي رضي الله عنه مقال مشهور.

(٤) أخرجه بهذا اللفظ: البيهقي في «المدخل» (١٩٠٣). وأخرجه بنحوه: الدارمي (١٣٩).

وقـالَ ابـنُ عُيينـةَ: أعظـمُ النّـاسِ منزلةً مَـن كانَ بيـنَ اللهِ وبيـنَ خَلقِـه، الأنبياءُ والعلماءُ[١].

وقالَ سهلٌ التُّستَرِيُّ: مَن أرادَ أن ينظُرَ إلى مجالِسِ الأنبياءِ فلينظُرْ إلى مجالِسِ العلماءِ، يجيءُ الرَّجلُ فيقولُ: يا فلانُ، أيْشٍ تقولُ في رجلٍ حلَفَ على امرأتِه بكذا وكذا؟ فيقولُ: طَلَقَت امرأتُه، ويجيءُ آخرُ فيقولُ: ما تقولُ في رجلٍ حلَفَ على امرأتِه بكذا وكذا؟ فيقولُ: ليسَ يحنَثُ بهذا القولِ، وليسَ هذا إلّا لنبيٍّ أو لعالِمٍ، فاعرفوا لهم ذلكَ[٢].

ورأَت امـرأةٌ مـنَ العابـداتِ ـ فـي زمـنِ الحسـنِ البصـريِّ ـ فـي منامِهـا كأنّها تستَفتي فـي المستَحاضةِ، فقيـلَ لهـا: أتسـتفتينا[٣] وفيكم الحسـنُ وفي يـدِه خاتَمُ جبريـلَ عليه السَّـلامُ[٤]؟

وفي هذا إشارةٌ إلى وِراثةِ الحسنِ ما جاءَ به جَبريلُ منَ الوحيِ بخاتمه[٥].

---

(١) روي عن سفيان بن عيينة من وجوه.

وهذا اللفظ أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٤٩).

وأخرجه ابن أبي خيثمة في «التاريخ الكبير» (السفر الثالث (٩٣٤))، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٣٩).

(٢) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٤٩).

(٣) في (س) و(ط): «أتستفتين».

(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائده على العلل ومعرفة الرجال» (٦٠٨٨)، وابن أبي الدنيا في «المنامات» (١٣٢).

(٥) في النسخ: «بختامه» لكن ناسخ (س): كشط التاء قبل الألف، ثم زادها قبل الميم: «بخاتمه»، ولعله الأصوب.

ورأى بعضُ العلماءِ النَّبيَّ ﷺ في المنام فقالَ له: يا رسولَ الله، قد اختُلفَ علينا في مالكٍ والليثِ، أيُّهما أعلمُ؟ فقالَ ﷺ: مالكٌ وِرثَ جَدِّي[١]. يعني: وَرِثَ عِلمي.

ورأى بعضُهم في منامه النَّبيَّ ﷺ قاعدًا في المسجدِ، والنّاسُ حولَه، ومالكٌ قائمٌ بينَ يدَيه، وبينَ يدَي رسولِ اللهِ ﷺ مِسكٌ، وهو يأخذُ منه قَبضةً فيدفعُها إلى مالكٍ، ومالكٌ ينثرها على النّاسِ، فأوَّلَ الناسُ ذلكَ لمالكٍ: العلمَ واتِّباعَ السُّنّةِ[٢].

ورأى الفضيلُ بنُ عِياضٍ في منامِه النَّبيَّ ﷺ جالِسًا وإلى جانبه فُرْجةٌ فجاءَ لِيجلِسَ، فقالَ له النَّبيُّ ﷺ: هذا مجلسُ أبي إسحاقَ الفَزاريِّ. فسُئِلَ بعضُهم: أيُّهما كانَ أفضلَ أبو إسحاقَ أو فُضَيلٌ؟ فقالَ: كانَ فُضَيلٌ رجُلَ نفْسِه، وكانَ أبو إسحاقَ رجُلَ عامّةٍ[٣].

يشيرُ إلى أنَّه كانَ عالمًا ينتَفِعُ النّاسُ بعِلمِه، وكانَ فُضيلٌ عابدًا نَفْعُه لِنفْسِه.

والعلماءُ في الآخرةِ يتلونَ الأنبياءَ في الشَّفاعةِ وغيرِها، كما في التِّرمذيِّ عن عثمانَ، عنِ النَّبيِّ ﷺ: «يشفَعُ يومَ القيامةِ الأنبياءُ، ثمَّ العلماءُ، ثمَّ الشُّهداءُ»[٤].

وقالَ مالكُ بنُ دِينارٍ: بلَغَنا أنَّه يُقالُ للعابدِ: ادخلِ الجنّةَ، ويقالُ للعالِمِ: قِفْ فاشفعْ[٥].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تقدمة المعرفة لكتاب الجرح والتعديل» (ص: ٢٨). والرائي: هو محمد بن رمح رحمه الله.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المنامات» (٢٥٤). والرائي: أبو عبد الله مولى الليثيين.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٥٤). والسائل هو إبراهيم بن سعيد الجوهري، سأل أبا أسامة الذي رواه عن الفضيل.

(٤) سبق قلم المؤلف رحمه الله، فكتب: «الترمذي». وإنما أخرج هذا الحديث ابن ماجه (٤٣١٣).

(٥) لم أجده عن مالك بن دينار عند غير المصنف رحمه الله.

وقد رُوِيَ هذا مرفوعًا من حديثِ أبي هريرةَ بإسنادٍ ضعيفٍ جدًّا[(١)].

وللعلماءِ الكلامُ في الموقفِ بالحقِّ إذا اشتبهتِ الأمورُ على النّاسِ، فإذا ظنَّ أهلُ الموقفِ أنّهم لم يلبثوا في قُبورِهم إلّا ساعةً بيَّنَ أهلُ العِلمِ أنَّ الأمرَ على خِلافِ ذلكَ، كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍۢ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٥ - ٥٦].

والعلماءُ يخبِرونَ يومَ القيامةِ بخِزيِ المشركِينَ باللهِ، كما قالَ تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [النحل: ٢٧].

وقد رُوِيَ في حديثٍ مرفوعٍ: «إنَّ النّاسَ يحتاجونَ في الجنّةِ إلى العلماءِ، كما كانوا يحتاجونَ إليهم في الدُّنيا، إذا استدعَى الرَّبُّ أهلَ الجنّةِ لزِيارتِه، وقالَ لهم: سَلوني ما شئتم، فيلتَفِتونَ إلى العلماءِ منهم، فيقولونَ لهم: سَلوه رُؤيتَه، فما في الجنّةِ أعظمُ منها»[(٢)].

وهذا كلُّه يُبيِّنُ ألّا درجةَ بعدَ النُّبوّةِ أفضلُ من درجةِ العلماءِ، وقد يُطلَقُ اسمُ العلماءِ ويُرادُ إدخالُ الأنبياءِ فيهم، كما في قولِه تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، فلم يُفرِدِ الأنبياءَ بالذِّكرِ، بل أدخلَهم في مسمَّى العلماءِ، وكفى بهذا شَرفًا للعلماءِ أنّهم يسمَّونَ باسمٍ يجتمعونَ هم والأنبياءُ فيه.

---

(١) الذي وجدته من حديث أبي هريرة: هو ما أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٨١ - ٨٢) في حديث طويل في فضل أويس القرني وفيه: «قيل للعباد: ادخلوا الجنة، ويقال لأويس: قف فاشفع».

(٢) أخرج ابن عساكر هذا المعنى من حديث جابر رضي الله عنه في «تاريخ دمشق» (٥١/ ٥٠).

ومن هنا قالَ مَن قالَ: إنَّ العلماءَ العاملِينَ هم أولياءُ اللهِ، كما قالَ أبو حنيفةَ والشَّافعيُّ: إن لم يكنِ الفقهاءُ والعلماء أولياءَ اللهِ فليسَ للهِ وليٌّ[١].

قالَ الإمامُ أحمدُ في أهلِ الحديثِ: إنَّهم هم الأبدالُ[٢].

***

قولُه ﷺ: «وإنَّ الأنبياءَ لم يُورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنَّما وَرَّثوا العِلمَ، فمَن أخذَه أخذَ بحظٍّ وافرٍ».

المرادُ بهذا: أنَّ العلماءَ وَرِثوا الأنبياءَ فيما خَلَّفُوه، وأنَّ الذي خلَّفَه الأنبياءُ هو: العِلمُ النَّافعُ، فمَن أخذَ العِلمَ، وحصَلَ له، فقد حصَلَ له الحظُّ العظيمُ الوافرُ الذي يُغبَطُ به صاحبُه.

ورأى ابنُ مسعودٍ قَومًا في المسجدِ يتعلَّمونَ، فقالَ رجلٌ: على ما اجتمعَ هؤلاءِ؟ قال على ميراثِ محمَّدٍ ﷺ يقتسمونَه[٣].

وخرَجَ أبو هريرةَ إلى السُّوقِ، فقالَ لأهلِه[٤]: تركتُم ميراثَ محمَّدٍ ﷺ يُقتَسَمُ في المسجدِ وأنتم هاهنا[٥]؟

فتِركةُ النَّبيِّ ﷺ وميراثُه هو هذا الكتابُ الذي جاءَ به، معَ السُّنَّةِ المفسِّرةِ له، المبيِّنةِ لمعانيه.

---

(١) أخرجه عن الإمامين: الخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٥٠).

(٢) أخرجه عن الإمام أحمد: الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (١٠١): «إن لم يكن أصحاب الحديث هم الأبدال فمن يكون؟».

(٣) أخرجه الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (٨٨).

(٤) أي أهل السوق.

(٥) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (١٤٢٩).

وفي «صحيحِ البخاريِّ» عن ابنِ عبّاسٍ أنَّه سُئِلَ: أتركَ النَّبيُّ ﷺ من شَيءٍ؟ قالَ: ما تركَ إلّا ما بينَ الدَّفَّتينِ، يعني دَفَّتيِ المصحفِ[1].

وفي الصَّحيحَينِ عنِ ابنِ أبي أوفَى أنَّه سُئِلَ: هل وصَّى رسولُ اللهِ ﷺ بشيءٍ؟ قالَ: أوصى بكتابِ اللهِ[2].

وخطبَ ﷺ في مرجِعِه من حَجّةِ الوداعِ بغديرِ خُمٍّ فقالَ: «إنَّما أنا بشرٌ يُوشِكُ أن يأتيَني رسولُ ربِّي فأُجيبَه، وإنِّي تاركٌ فيكم الثَّقلَينِ، أوَّلُهما: كتابُ اللهِ فيه الهدى والنُّورُ، مَن استمسَكَ به، وأخذَ به كانَ على الهُدى، ومَن أخطأَه ضَلَّ». خرَّجه مسلمٌ[3].

وفي «المسندِ» عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو قالَ: خرجَ علينا رسولُ اللهِ ﷺ يومًا كالمودِّعِ، فقالَ: «أنا النَّبيُّ الأميُّ ـ قالَ ذلكَ ثلاثَ مرّاتٍ ـ ولا نبيَّ بعدِي، أُوتيتُ فواتِحَ الكَلِمِ وجَوامِعَه، وعلمتُ كم خَزنةُ النّارِ وحملةُ العرشِ، وعُوفيتُ وعُوفِيَتْ أُمَّتي، فاسمعوا وأطيعوا ما دُمتُ فيكم، فإذا ذُهِبَ بي فعليكم بكتابِ اللهِ أحلُّوا حلالَه وحرِّموا حرامَه»[4].

* * *

قولُه ﷺ: «إنَّ الأنبياءَ لم يُورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنَّما ورَّثُوا العِلمَ».

يريدُ أنَّه لم يُورَثْ عنهم سِوى العِلمِ، وهذا يُبيِّنُ أن المرادَ بقولِه تعالى: ﴿وورث سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦]، وقولِه تعالى عن زكريّا أنَّه قالَ: ﴿هب[5] لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠١٩).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٤٠)، ومسلم (١٦٣٤).

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٠٨) من حديث زيد بن أرقم.

(٤) أخرجه الإمام أحمد (٦٦٠٦).

(٥) في التلاوة: ﴿فَهَبۡ﴾.

﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٥ ـ ٦]، إنَّما أُريدَ به ميراثُ العِلمِ والنُّبوّةِ لا المالِ، فإنَّ الأنبياءَ لا يجمعونَ مالًا يتركونَه بعدَهم ولا يُورَثُ عنهم، ولهذا قالَ ﷺ: «لا نُورَثُ، ما تركنا صدقةٌ»[١].

وقالَ: «ما تركتُ بعدَ مُؤنةِ عامِلي ونفقةِ عيالي فهو صدَقةٌ»[٢]. وما ترَكَ ﷺ إلّا دِرعَه، وسِلاحَه، وبغلتَه البيضاءَ، وأرضًا جعلَها صدقةً[٣]، فلم يُخلِّفْ سِوى آلةِ الجهادِ الذي بُعِثَ به، والأرضُ التي كانَ يقتاتُ منها هو وعيالُه ردَّها صدقةً على المسلمِينَ.

وكلُّ هذا إشارةٌ إلى أنَّ الرُّسلَ لم تُبعَثْ بجمعِ الدُّنيا وتوريثِها لأهليهم، وإنَّما بُعِثوا بالدَّعوةِ إلى اللهِ والجهادِ في سَبيلِه والعلمِ النّافعِ وتوريثِه لأُممِهم.

وفي مراسيلِ أبي مسلمٍ الخَولانيِّ[٤] عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «ما أوحى اللهُ إليَّ أن اجمعِ المالَ وكنْ[٥] منَ التّاجِرينَ، ولكن أوحَى إليَّ: أن سبِّحْ بحمدِ ربِّكَ وكُنْ منَ السّاجِدِينَ، واعبُدْ ربَّكَ حتى يأتيكَ اليقينُ»[٦]. خرَّجَه أبو نُعيمٍ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٩٣) (٦٧٢٧)، ومسلم (١٧٥٩) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وعنه عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٧٦)، ومسلم (١٧٦٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مؤنة عاملي: نفقته، وفي ضبطها لغات متعددة غير هذه، منها: مَؤونة. ومنها: مُوْنَة.

(٣) أخرج ذلك البخاري (٢٧٣٩) من حديث عمرو بن الحارث رضي الله عنه، وذكر الدرع في البخاري (٢٩١٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) في حاشية (س): «اسمه عبد الله بن ثُوَب».

(٥) في (ض) و(هـ) و(ج): «أن أجمعَ المالَ وأكن» وفي المصادر: «وأكون».

(٦) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (٢٣١٦). وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٣١).

وأخرجه السهمي في «تاريخ جرجان» (ص: ٣٤٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً.

والآية هي (٩٨ ـ ٩٩) من سورة الحجر.

وفي التِّرمذيِّ وغيرِه، عنِ ابنِ مسعودٍ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «ما لي وللدُّنيا؟! إنَّما مَثَلِي ومثَلُ الدُّنيا كراكبٍ استظلَّ في ظلِّ شجرةٍ، ثمَّ راحَ وتركَها»[1].

* * *

فقولُه ﷺ: «إنَّ العلماءَ وَرثةُ الأنبياءِ، وإنَّ الأنبياءَ لم يُورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنَّما وَرَّثوا العِلمَ» فيه إشارةٌ إلى أمرَينِ:

أحدُهما: أنَّ العالِمَ الذي هو وارثٌ للرَّسولِ ﷺ حقيقةً، كما أنَّه وَرَّثه علمَه فينبغي أن يُورِّثَ العلمَ كما وَرَّثَ الرَّسولُ العِلمَ، وتوريثُ العالِمِ العِلمَ هو: أن يُخلِّفَه بعدَه بتعليمٍ أو بتصنيفٍ، ونحو ذلكَ مما يُنتَفَعُ به بعدَه.

وفي «الصَّحيحِ» عنِ النَّبيِّ ﷺ: «إذا ماتَ العبدُ: انقطعَ عملُه إلّا من ثلاثٍ: عِلمٍ نافعٍ، أو صدقةٍ جاريةٍ، أو وَلَدٍ صالِحٍ يدعو له»[2]، فالعالِمُ إذا علَّمَ عِلْمَه مَن يقومُ به بعدَه فقد خلَّفَ عِلمًا نافعًا وصَدقةً جاريةً، لأنَّ تعليمَ العِلمِ صدقةٌ، كما سبقَ عن معاذٍ وغيرِه، والذينَ علَّمَهم بمنزلةِ أولادِه الصَّالحِينَ يدعونَ له، فيجتمعُ له بتخليفِ عِلمِه هذه الثّلاثُ خِصالٍ.

والأمرُ الثّاني أنَّ مِن كمالِ ميراثِ العالِمِ للرَّسولِ عليه السَّلامُ: ألّا يُخلِّفَ الدُّنيا كما لم يُخلِّفْها الرَّسولُ ﷺ، وهذا من جملةِ الاقتداءِ بالرَّسولِ ﷺ وبسنَّتِه في زُهدِه في الدُّنيا وتقلُّلِه منها، واجتزائِه منها باليَسيرِ، كما كانَ سهلٌ التُّسترِيُّ يقولُ: من علامةِ حُبِّ السُّنّةِ حبُّ الآخرةِ وبغضُ الدُّنيا، وألّا يأخُذَ منها إلّا زادًا وبُلغةً إلى الآخرةِ[3].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٧٧) وقال: «حسن صحيح». وفي (س) و(ط): «بظل شجرة».

(٢) أخرجه مسلم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) ذكره أبو طالب المكي في «قوت القلوب» (٢/ ٧٥٨، ١٠٥٠ ـ طبعة دار التراث).

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ: إنَّما العالِمُ الذي إذا أتيتَه في بيتِه فلم تجدْه قصَّ عليكَ بيتُه، رأيتَ حصيرَه للصَّلاةِ، ومصحفَه، ومِطْهرتَه في جانبِ البيتِ، ترَى أثرَ الآخرةِ[1].

وكانَ الفُضيلُ يقولُ: احذروا عالِمَ الدُّنيا لا يصدُّكم بسُكرِه. ثمَّ قالَ: إنَّ كثيرًا من علمائِكم زِيُّه أشبهُ بزيِّ كِسرَى وقيصرَ منه بمحمَّدٍ ﷺ، إنَّ محمَّدًا ﷺ لم يضَعْ لَبِنةً على لَبِنةٍ ولا قَصَبةً على قَصَبةٍ، ولكن رُفِعَ له عَلَمٌ فشمَّرَ إليه.

وكانَ يقولُ: العلماءُ كثيرٌ والحُكماءُ قليلٌ، وإنَّما يُرادُ منَ العِلمِ الحِكمةُ، فمَن أُوتِيَ الحكمةَ فقد أُوتِيَ خيرًا كثيرًا[2].

وهكذا كانَ حالُ العلماءِ الرَّبّانيِّينَ، كالحسنِ، وسفيانَ، وأحمدَ، اجتزؤوا من الدُّنيا باليسيرِ إلى أن خرجوا منها ولم يُخلِّفوا سوى العِلمِ، معَ أنَّ بعضَهم كانَ يلبَسُ لِباسًا حَسنًا، ويأكُلُ أكلًا متوسِّطًا بعيدًا منَ التَّقشُّفِ، **كالحسنِ البَصريِّ**، فإنَّه كان يأكُلُ اللَّحمَ كلَّ يومٍ، وكانَ يشتري بنصفِ دِرهمٍ لحمًا، فيطبُخُه مرقةً طيِّبةً، فيأكلُ منه هو وعيالُه، ويُطعِمُ كلَّ مَن دخلَ عليه[3]، وكانَ يلبَسُ الثِّيابَ الحسنةَ وهو معَ هذا

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٧٣).

(٢) أخرج هذه الأقوال عن الفضيل: الآجري في «أخلاق العلماء» (ص: ٨٦) ووقع في مطبوعه تصحيف: «بسكره» إلى «بشكره»!، وأخرجها أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٩٢).

وقوله: «إن محمداً ﷺ لم يضع لبنة على لبنة...» مروي من حديث السيدة عائشة عند الطبراني في «الأوسط» (٣٢٤١). وروي عن الحسن البصري أيضاً كما سيأتي. قال ابن القيم رحمه الله في «مدارج السالكين» (٤/ ٣٠١ ـ ط عطاءات العلم) «فإن سَيرَهم إنما هو على الشواهد، فمن لا شاهد له لا سير له، ولا طلب ولا سلوك. وأعظم الشواهد: شواهد صفات محبوبهم ونهاية مطلوبهم، وذلك هو العَلَم الذي رُفع لهم في السَّير فشمروا إليه، كما قالت عائشة رضي الله عنها: من رأى رسول الله ﷺ فقد رآه غادياً رائحاً، لم يضع لبنة على لبنة، ولكن رُفع له عَلَم فشمر إليه».

(٣) أخرج ذلك ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٩/ ١٦٧).

أزهدُ النّاسِ في الدُّنيا[١]، وما زاحمَ على شيءٍ منها قطُّ، وكانَ النّاسُ إذا دخَلوا عليه خرَجوا من عندِه ولا يعُدُّونَ الدُّنيا شيئًا[٢]، وما رأوا أشدَّ احتقارًا لأهلِ الدُّنيا منه، وكانوا يدخُلونَ عليه في مرَضِه يعودونَه، وليسَ في بيتِه إلّا سريرٌ مَرمُولٌ هو عليه، وليسَ فيه[٣] قليلٌ ولا كثيرٌ[٤]، حتَّى قالَ ابنُ عَونٍ: إنَّما بزَّ[٥] الحسنُ النّاسَ بالزُّهدِ في الدُّنيا، فأمّا العِلمُ فقد شُورِكَ فيه[٦].

وكانَ الحسنُ يقولُ: إنَّما الفقيهُ: الزّاهدُ في الدُّنيا، الرّاغبُ في الآخرةِ، المجتهدُ في العبادةِ، القائمُ بسنّةِ محمَّدٍ ﷺ[٧].

من رأى محمَّدًا فقد رآه غاديًا ورائحًا، لم يضَعْ لَبِنةً على لَبِنةٍ ولا قَصَبةً على قَصَبةٍ، إنَّما رُفِعَ له عَلَمٌ فشمَّرَ إليه[٨].

وكانَ سفيانُ الثَّوريُّ أشدَّ تقشُّفًا في مَلبَسِه منَ الحسنِ، حتى كانَ مَن يراه، ولا يعرفُه يظنُّه منَ السُّؤّالِ[٩]، وكانَ معَ شدّةِ وَرَعِه إذا وَجَدَ الحلالَ أكلَ منه طيِّبًا وإذا

(١) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٩/ ١٦٩) (٩/ ١٧٣). وانظر: «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٤٧).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٥٨) عن أشعث.

(٣) في (س) و(ط): «في بيته».

(٤) «مرمول»: نسج وجهه بسعف النخل ولا وطاء فوقه. أخرجه يعقوب بن سفيان في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٤٨).

(٥) في (س) و(ط): «استبد»، وفي حاشية (س): «بدا». وفي (ج): «فاق» وكل ذلك تصحيف.

(٦) أخرجه يعقوب بن سفيان في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٥٠).

(٧) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (١٥٩٩).

(٨) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (١٥٩٦)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ١٥٤).

(٩) انظر: «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٧/ ٣٧).

لم يجِدْ حلالًا استفَّ الرَّملَ، وربَّما بقيَ ثلاثًا لا يطْعَمُ شيئًا معَ عرض النّاسِ عليه الأموالَ الكثيرةَ[١].

وكانَ إذا شبعَ منَ الحلالِ يزيدُ في عمَلِه، ويقولُ: أطعمِ الزنجيَّ وكُدَّهُ[٢]. وكانَ أزهدَ النّاسِ في الدُّنيا في زمانِه حتى كانَ يُتَعَزَّى بمجلِسِه عنِ الدُّنيا[٣]. ولم يكن السَّلاطينُ والملوكُ والأغنياءُ أذلَّ منهم في مجلِسِه، ولا الفقراءُ والمساكينُ أعزَّ منهم في مجلِسِه[٤].

وكانَ الخَوفُ قد غلَبَ عليه، فلمّا مرِضَ مرَضَ الموتِ حُمِلَ ماؤُه إلى طبيبٍ، فقالَ: ليسَ لهذا دواءٌ، هذا قد فتَّتَ الحزنُ والخوفُ كبِدَه[٥]. ويُقالُ: إنَّه لم يكنْ في زمانِه مَن هو أخوفُ للهِ منه[٦]، ولا مَن هيبةُ اللهِ في صدرِه أعظمُ منه. ولمّا ماتَ قالَ بعضُ العلماءِ: معشرَ القراءِ: كُلُوا الدُّنيا بالدِّينِ فقد ماتَ سفيانُ[٧]. يعني: ما بقِيَ بعدَه أحدٌ يُسْتَحيى منه.

وأمّا الإمامُ أحمدُ فكانَ أشدَّ منهما تقشُّفًا في عَيشِه وأكثرَ صَبرًا على خُشونةِ العَيشِ والقِلّةِ، وكانَت معيشتُه من حَوانيتَ له وَرِثَها من أبيه[٨]، ويأخُذُ أجرتَها في الشَّهرِ دونَ عشرينَ درهمًا، وماتَ ولم يُخلِّفْ إلّا قِطَعًا في خِرقةٍ له كانَ وزنُها دونَ

---

(١) انظر: «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٧/ ٦٣) (٧/ ٦٧).

(٢) «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٦/ ٣٨٩)، وكُدَّه: أَتعِبْه في العمل.

(٣) «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٧/ ٥٧) (٧/ ٨٢).

(٤) «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٦/ ٣٦٥) (٧/ ٤٢).

(٥) «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٧/ ١٤، ٢٣).

(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٩٢) عن أبي أسامة.

(٧) أخرج أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٥٤ ـ ٥٥) عن العمري.

(٨) انظر: «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (ص: ٣٠٦) و(ص: ٥٠٠).

نصفِ دِرهمٍ[١]، وتركَ عليه دَينًا قُضِيَ عنه من أُجرةِ حوانيتِه[٢]، معَ كثرةِ ما كانَ يَرُدُّ على الخُلفاءِ منَ الجوائزِ والصِّلاتِ.

وكانَ **يحيى بنُ أبي كثيرٍ** منَ العلماءِ الرَّبّانيِّينَ المتوسِّعِينَ في العِلمِ، وكانَ يقالُ: إنَّه لم يبقَ على وجهِ الأرضِ مثلُه[٣]، وكانَ حسنَ الثِّيابِ حسنَ الهيئةِ، فلمّا ماتَ خلَّفَ ثلاثينَ دِرهمًا كفَّنوه بها[٤].

وكانَ محمَّدُ بنُ أسلمَ الطُّوسيُّ من العلماءِ الرَّبّانيِّينَ الزُّهادِ، فماتَ ولم يخلِّفْ سوى كسائِه ولِبْدِه فوضعوهما على نَعْشِه، وإناءٍ للوضوءِ تصدَّقوا به، فكانَ النِّساءُ على السُّطوحِ يقُلْنَ في جِنازتِه: هذا العالِمُ الذي خرَجَ منَ الدُّنيا وهذا ميراثُه الذي على جِنازتِه، ليسَ مثلَ علمائِنا هؤلاءِ عبيدِ بطونِهم يجلِسُ أحدُهم للعِلمِ سنتَينِ أو ثلاثًا فيشتَرِي الضِّياعَ ويستفيدُ المالَ[٥].

وقالَ العبّاسُ بنُ مَرْثَدٍ: سمعتُ أصحابَنا يقولونَ: صارَ إلى الأوزاعيِّ أكثرُ من سبعِينَ ألفَ دينارٍ ـ يعني منَ السُّلطانِ من بني أمية وبني العبّاسِ ـ فلمّا ماتَ ما خلَّفَ إلا سبعة دنانيرَ بقيَت من عطائِه وما كانَ له أرضٌ ولا دارٌ، قالَ العبّاسُ: نظرْنا فإذا هو أخرجَها كلَّها في سبيلِ اللهِ والفقراءِ[٦].

***

---

(١) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (ص: ٥٦٤).

(٢) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (ص: ٥٠٠).

(٣) قاله أيوب السختياني، أخرجه الطحاوي في «معاني الآثار» (٤/ ٣٦٧).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٦٧).

(٥) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٢٤١).

(٦) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٥/ ١٩٨).

وقد وصفَ اللهُ تعالى في كتابِه العلماءَ بأوصافٍ:

منها: الخشيةُ والخشوعُ والبكاءُ، كما سبقَ ذِكرُه.

ومنها: احتقارُ الدُّنيا والتَّزهيدُ فيها، كما قالَ تعالى في قصّةِ قارونَ: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٧٩ ـ ٨٠].

قيلَ للإمامِ أحمدَ: إنَّ ابنَ المبارَكِ قيلَ له: كيفَ يُعرَفُ العالِمُ الصّادقُ؟ فقالَ: الذي يزهَدُ في الدُّنيا ويُقبِلُ على أمرِ آخرتِه، فقالَ أحمدُ: نعَم، هكذا ينبغي أن يكونَ[1].

وكانَ الإمامُ أحمدُ يُنكِرُ على أهلِ العِلمِ حبَّ الدُّنيا والحرصَ على طلَبِها[2].

واعلمْ أنَّه إنَّما أهلَكَ أهلَ العِلمِ، وأوجبَ إساءةَ ظنِّ الجهّالِ بهم، وتقديمَ جهّالِ المتعبِّدِينَ عليهم: ما دخلَ عليهم منَ الطَّمعِ في الدُّنيا.

وقد رأى عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنه رجلًا يقُصُّ فقالَ له: لَأسألَنَّكَ مسألةً فإن خرجْتَ منها وإلّا علوتُكَ بهذهِ الدِّرّةِ، فقالَ له: سَلْ يا أميرَ المؤمنِينَ، فقالَ له: ما ثباتُ الدِّينِ وزَوالُه؟ فقالَ له: ثباتُ الدِّينِ الوَرعُ، وزوالُه الطَّمعُ. فقالَ له: قُصَّ فمثلُكَ يَقُصُّ[3].

---

(١) سأله المروذي للإمام أحمد، وهو في «الورع» (٤٠٠) له.

(٢) قال الإمام أحمد: «عزيز عليَّ أن تذيب الدنيا أكباد رجال وعت صدورهم القرآن». أخرجه ابن الجوزي في «مناقب الإمام أحمد» (ص: ٢٧٤).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٣٦)، وابن الجوزي في «القصاص والمذكرين» (٢٨ ـ ٢٩).

وهذا السُّؤالُ من عليٍّ رضيَ اللهُ عنه لهذا القاصِّ فيه إشارةٌ إلى أنَّ مَن نشرَ عِلمَه للنّاسِ، وتكلَّمَ عليهم ينبغي أن يكونَ وَرِعًا عمّا في أيديهم، غيرَ طامعٍ في شيءٍ من أموالِهم ولا أرزاقِهم، ولا اجتلابِ قلوبِهم إليه، وإنَّما ينشُرُ عِلمَه للهِ عزَّ وجلَّ، ويتعفَّفُ عنِ النّاسِ بالوَرَعِ.

وفي سننِ ابنِ ماجَه عن ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه قالَ: لو أنَّ أهلَ العِلمِ صانوا العِلمَ ووضعوه عندَ أهلِه لسادوا أهلَ زمانِهم، ولكنَّهم بذلُوه لأهلِ الدُّنيا لينالوا به من دُنياهم فهانوا عليهم، سمعتُ نبيَّكم ﷺ يقولُ: «مَن جَعَلَ الهُمومَ همًّا واحدًا همَّ آخرتِه كفاه اللهُ همَّ دُنياه، ومَن تشعَّبَت به الهُمومُ في أحوالِ الدُّنيا لم يُبالِ اللهُ في أيِّ أوديتِها هلَكَ»[1].

وقالَ أبو حازمٍ الزّاهدُ: لقد أتَتْ علينا بُرهةٌ من دَهرِنا وما عالِمٌ يطلُبُ أميرًا[2]، وكانَ الرَّجلُ إذا عَلِمَ اكتفَى بالعِلمِ عمّا سِواه، فكانَتِ الأمراءُ تغشاهم[3] وتقتَبِسُ منهم. فكانَ في ذلكَ صلاحُ الفريقَينِ: للوالي والمولَّى عليه، فلمّا رأتِ الأمراءُ أنَّ العلماءَ قد غشَوهم وجالَسوهم، وسألوهم ما في أيديهم، هانوا عليهم، وتركوا الاقتباسَ منهم[4]، فكانَ في ذلكَ هلاكُ الفريقَينِ الوالي والمولَّى عليه.

ودخلَ أعرابيٌّ البَصرةَ فقالَ: مَن سيِّدُ أهلِ هذه القريةِ؟ قالوا: الحسنُ، قالَ: وبِما سادَهم؟ قالوا: احتاجَ النّاسُ إلى علمِه واستغنى هو عن دُنياهم[5].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٥٧)، (٤١٠٦).

(٢) في (ج): «من أمير».

(٣) في (س) و(ط): «تغشاهم في منازلهم».

(٤) أخرج معناه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٤٤). وفي (س) و(ط): «وتركوا الأخذ عنهم والاقتباس منهم».

(٥) أخرجه بأطول من هذا: الرامهرمزي في «المحدث الفاصل» (ص: ٢٤٤).

وكانَ الحسنُ يقولُ: إنَّ لكلِّ شيءٍ شَينًا، وشَينُ العلم الطَّمعُ[١].

وقالَ: مَن ازدادَ عِلمًا فازدادَ على الدُّنيا حِرصًا لم يزدَدْ من الله إلا بُعدًا، ولم يزدَدِ اللهُ له إلّا بُغضًا[٢].

واجتازَ الحسنُ يومًا ببعضِ القرّاءِ على أبوابِ بعضِ السَّلاطِينِ، فقالَ: أقرَحْتُم جِباهَكم وفَرْطَحتُم نِعالَكم، وجئْتُم بالعِلمِ تحملونَه على رِقابِكم إلى أبوابِهم فزَهِدوا فيكم، أَما إنَّكم لو جلَسْتُم في بيوتِكم حتى يكونوا هم الذينَ يُرسِلون إليكم لكانَ أعظمَ لكم في أعيُنِهم، تفرَّقوا فرَّقَ اللهُ بينَ أضلاعِكم[٣].

وفي روايةٍ: تفرَّقوا فرَّقَ اللهُ بينَ أرواحِكم وأجسامِكم، فَرْطَحتُم نِعالَكم، وشمَّرتُم ثيابَكم، وجزَزتُم شُعورَكم. فضحتم القُرّاءَ فضَحَكم اللهُ، أَما واللهِ لو زَهِدتُم فيما عندَهم لَرغِبوا فيما عندَكم، ولكنَّكم رَغِبتُم فيما عندَهم فزَهِدوا فيما عندَكم، أَبْعَدَ اللهُ مَن أَبْعَدَ[٤].

وفي الجملةِ: فمَن لا يصونُ نفْسَه لا يَنتَفِعُ بعلمِه، ولا يَنتَفِعُ غيرُه به.

قالَ الشّافعيُّ: مَن قرأَ القرآنَ عَظُمت قيمتُه، ومَن كتبَ الحديثَ قَويَت حُجّتُه، ومَن تفقَّه نَبُلَ مِقدارُه[٥]، ومَن تعلَّمَ العربيّةَ رَقَّ طبعُه، ومَن تعلَّمَ الحِسابَ جَزُلَ رأيُه، ومَن لم يصُنْ نفْسَه لم ينفَعْهُ عِلمُه[٦].

---

(١) لم أجد هذا عند غير المصنف رحمه الله.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم الدنيا» (٧٩) (٣٥٨)، وفي «الزهد» (١٦٩) (٣٣٧).

(٣) أخرجه ابن الجوزي في «المنتظم» (٧/ ١٣٧)، وفي المطبوع منه: «أفرختم حمائمكم وفرطحتم نعالكم»!. وفرطحة النعال: كناية عن إفسادها بانبساطها وتوسعها لكثرة لبسها والسير فيها.

(٤) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٤٦١)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ١٥٠).

(٥) في (ض) و(س) و(ط): «قدره».

(٦) أخرجه البيهقي في «المدخل» (١٦١٨).

وفي هذا المعنى يقولُ أبو الحسنِ عليُّ بنُ عبدِ العزيزِ الجرجانيُّ رحمَه اللهُ أبياتَه المشهورةَ السّائرةَ:

يقولونَ لي فيكَ انقِباضٌ وإنَّما ... رَأَوا رجلًا عن مَوقِفِ الذُّلِ أحجَما

أرَى النّاسَ مَن داناهمُ هانَ عندَهم ... ومَن أكرَمَتْه عِزّةُ النَّفسِ أُكرِما

ولم أقضِ حقَّ العِلمِ إن كانَ كُلَّما ... بدا طَمَعٌ صيَّرتُه ليَ سُلَّما

إذا قِيلَ هذا مَنهلٌ قُلتُ قد أَرَى ... ولكنَّ نفسَ الحُرِّ تحتَمِلُ الظَّما

ولم أبتَذِلْ في خِدمةِ العِلمِ مُهجَتي ... لِأَخدُمَ مَن لاقَيتُ لكِنْ لِأُخدَما

أَأَشقَى به غَرسًا وأَجنِيهِ ذِلّةً ... إذًا فاتِّباعُ[1] الجَهلِ قد كانَ أحزَما

ولو أنَّ أهلَ العِلمِ صانوه صانَهم ... ولو عظَّموه في النُّفوسِ لَعَظَّما[2]

ولكنْ أهانوه فهانوا[3] ودَنَّسوا ... مُحيّاهُ بالأطماعِ حتّى تجَهَّما[4]

الحرصُ على الدُّنيا والطَّمعُ فيها قبيحٌ، وهو منَ العلماءِ أقبحُ، فإن كانَ بعدَ نزولِ الشَّيبِ فهو أقبحُ وأقبحُ.

لَبِسَ بعضُ العلماءِ[5] منَ التّابِعينَ ثِيابَه، وتَهيّأَ ليمضِيَ لبعضِ الملوكِ، فأخذَ

---

(١) في (م) و(هـ) و(ج): «إذًا لاتّباعُ».

(٢) الضبط من فوائد النسخة (س)، وفي حاشيتها: «يعني عظَّمهم». وهذا موافق لما ذكره الأخ الشيخ عبد القادر الخطيب في تعليقه على «خطبة الكتاب المؤمل» لأبي شامة (ص: ١٣٧) عند ذكر تلك الأبيات.

(٣) في (م): «أذلوه فهان»، وفي (ض): «ذلوه فهان». وصوابها: «أذالوه». بمعنى أهانوه.

(٤) «ديوان القاضي الجرجاني» (ص: ١٢٧).

(٥) هو شهر بن حوشب، والخبر في «العمر والشيب» لابن أبي الدنيا (٦٧).

المرآةَ فنظر فيها، فرأى في لحيتِه طاقةَ شَيبٍ، فقالَ: السُّلطانْ والشَّيبُ! ثمَّ نَزَعَ ثيابَه وجلَسَ[(١)]:

قد آنَ بعدَ ظلامِ الجَهلِ إبْصارِي ... للشَّيبِ صُبحٌ يُناديني بإسْفارِي

ليلُ الشَّبابِ قصيرٌ فَاسْرِ مُتَّئِدًا ... إنَّ الصَّباحَ قُصارى المدلِجِ السّاري

كم ذا اغتراريَ بالدُّنيا وزُخرُفِها ... أَبْني بِناها على جُرْفٍ لها هارِ

دارٌ مآثمُها تبقى ولذَّتُها ... تفنى ألا قُبِّحَتْ هاتيكَ مِن دارِ

ليسَ السَّعيدُ الذي دُنياهُ تُسعِدُه ... إنَّ السَّعيدَ الذي ينجو منَ النّارِ

أصبحتُ من سيِّئاتي خائفًا وَجِلاً ... واللهُ يعلَمُ إعلاني وإسراري

إذا تعاظمني ذَنْبي وآيَسَني ... رَجوتُ عَفوَ عظيمِ العَفوِ غَفّارِ[(٢)]

آخره، والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً[(٣)].

---

(١) زاد في (س) و(ط): «وأنشد شعرًا»، وليس هو قائل الأبيات.

(٢) الأبيات للوزير ظهير الدين أبي شجاع محمد بن الحسين، وهذه الأبيات من قصيدة ذكرها له العماد الأصبهاني في «خريدة القصر» (١/ ٧٩ ـ ٨٠). وفي (س) و(ط): «تعاظمت ذنبي ثم آيسني».

(٣) ثم جاء في (م): «علقه لنفسه العبد الفقير إلى الله تعالى أحمد بن محمد بن خضر حامداً لله ومصلياً على محمد ﷺ، عفا الله عنه وعن والديه، ولمن دعا له ولجميع المسلمين، وحسبنا الله ونعم الوكيل...».

وفي (ض): «وفرغ منه كاتبه أسير ذنبه، المفتقر إلى رحمة ربه، عبده وابن عبده، إبراهيم بن حمد بن محمد بن حمد بن عبد الله بن عيسى، غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين، وكان ذلك في شهر ربيع الأول (سنة ١٢٥٤)، والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم».

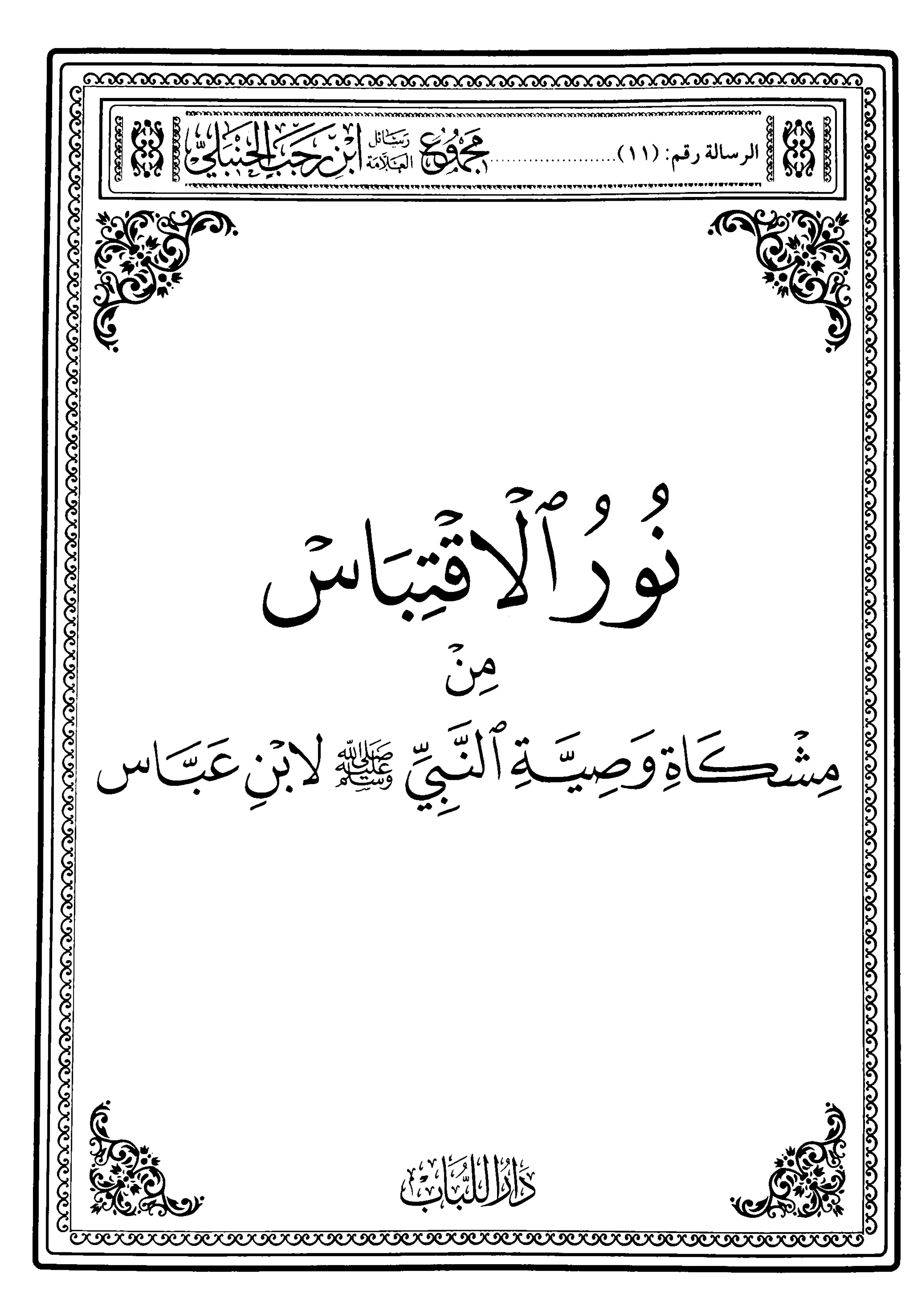
وفي (هـ): «آخره والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً =

= كثيراً، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. تمت هذه النسخة يوم الجمعة لأربع مضين من جمادى الآخرة (سنة ١٣١٦)».

وفي (س): «تمت». وفي الحاشية: «بلغ مقابلة وتصحيحاً على نسختين».

وفي (ط): «تمت. آخره والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيد الأنبياء والمرسلين محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين».

وفي (ج): «آخرُه وصلَّى اللهُ وسلم على سيِّدِنا ونبيِّنا محمَّدٍ وعلى آلِهِ وصحبِه وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا إلى يومِ الدِّينِ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمِينَ حمدًا كثيرًا طيِّبًا مبارَكًا فيه كما يحبُّ ربُّنا ويرضى وكما ينبغي لوجِهِه وعزِّ جلالِه، ولا إلهَ غيرُه ولا ربَّ لنا سِواه، ولا نعبدُ إلّا إيّاه ولا حولَ ولا قوّةَ إلّا باللهِ العليِّ العظيمِ، وصلَّى اللهُ على محمَّدٍ. غَفَرَ اللهُ لمؤلِّفِه ولِكاتبِه ولقارِئِه ولوالدِيهم ولإخوانِهم المسلمِينَ ولمَن دعا لهم بالمغفِرةِ، وصلَّى اللهُ على محمَّدٍ. ١٠ ص (سنة ١٣٣٩)». ويريد بـ(ص): صفر.



نور الاقتباس

من

مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس

دار اللباب

مكتبة شهيد علي باشا في اسطنبول (صل)

٢٤٨

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر بخير

كتاب الاقتباس من مشكاة وصية النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس للشيخ الإسلام زين الدين عبد الرحمن بن رجب رحمه الله تعالى

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى وكما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً خرج الإمام أحمد من حديث حنش الصنعاني عن ابن عباس قال كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا غلام أو يا غليم ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن فقلت بلى فقال احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة وإذا سألت فسل الله وإذا استعنت فاستعن بالله قد جف القلم بما هو كائن فلو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لم يقدروا عليه وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله لم يقدروا عليه واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً وأن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسراً هكذا ساقه من طريق حنش مع إسنادين آخرين منقطعين وفي السياق أنه لا يحفظ حديث بعضهم من بعض وخرجه أيضاً من طريق حنش وحده مختصراً ولفظه يا غلام إني محدثك حديثاً احفظ

٢٤٩

١

الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فسل الله وإذا استعنت فاستعن بالله قد رفعت الأقلام وجفت الكتب فلو جاءت الأمة ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لما استطاعت ولو أرادت أن تضرك بشيء لم يكتبه الله لك ما استطاعت وخرجه الترمذي بنحو هذا السياق المختصر ولفظه إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فسل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف وقال الترمذي حسن صحيح وقال الحافظ أبو عبد الله بن منده لهذا الحديث طرق عن ابن عباس وهذا أصحها قال وهذا إسناد مشهور ورواته ثقات قلت وقد روي هذا الحديث عن ابن عباس من رواية جماعة عنه علي ابنه وعطاء وعكرمة وابن أبي مليكة من رواية عمر مولى غفرة وعبد الملك بن عمير عن ابن عباس وقال ابن منده وغيرهما منه وفي أسانيدها جميعاً مقال وفي ألفاظها بعض الزيادة والنقص وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه وصى بذلك ابن عباس من حديث علي بن أبي طالب

مكتبة شستربتي (ش)

مكتبة برنستون (ب)

دار الكتب الوطنية بتونس (ت) وهي مخرومة في أولها

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر يا كريم
الحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب
ربنا ويرضى كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله وصلى الله على
محمد النبي الأمي وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً خرج الإمام
أحمد من حديث حنش الصنعاني عن ابن عباس قال كنت
رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا غلام أو يا غليم
ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن فقلت بلى فقال احفظ
الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك تعرف إلى الله في الرخاء
يعرفك في الشدة وإذا سألت فسأل الله وإذا استعنت فاستعن
بالله قد جف القلم بما هو كائن فلو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا
أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لم يقدروا عليه وإن
أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه واعلم
واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً وأن النصر مع الصبر
وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسراً هكذا ساقه
من طريق حنش مع إسنادين آخرين منقطعين وفي السياق
أنه لا يحفظ حديث بعضهم من بعض وخرجه أيضاً من طريق
حنش وحده مختصراً ولفظه يا غلام إني محدثك حديثاً
احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فسأل
الله وإذا استعنت فاستعن بالله فقد رفعت الأقلام وجفت

مكتبة الفاتح في اسطنبول (ف)

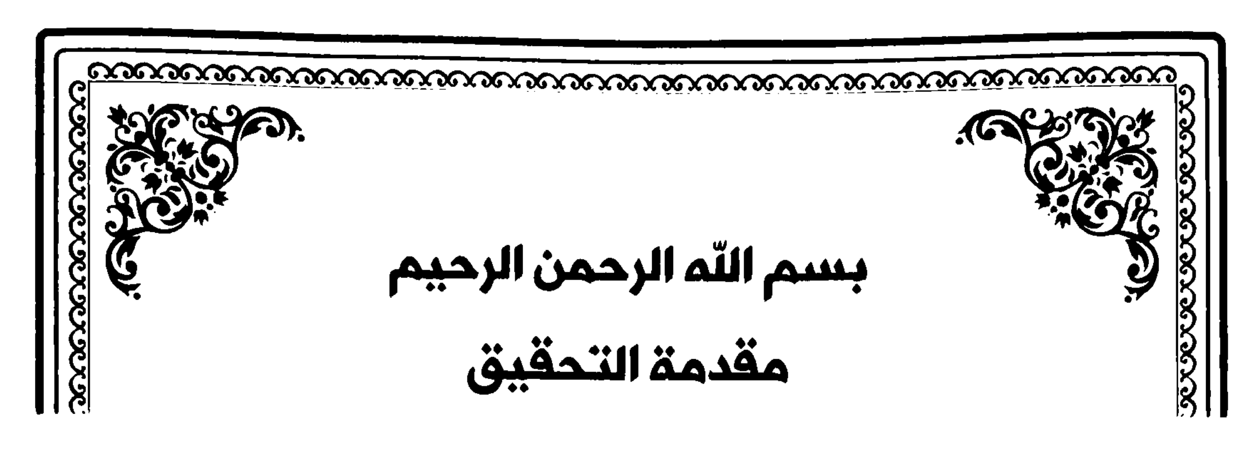
١٧٦
الصنعاني عن ابن عباس قال كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم فقال
يا غلام أو يا غليم ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن فقلت بلى فقال
احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك
في الشدة وإذا سألت فسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله
قد جف القلم بما هو كائن فلو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك
بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه وإن أرادوا أن يضروك بشيء
لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً
كثيراً وأن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسراً
هكذا ساقه من طريق حنش مع إسنادين آخرين منقطعين وفي السياق
أنه لا يحفظ حديث بعضهم من بعض وخرجه أيضاً من طريق حنش وحده
مختصراً ولفظه يا غلام إني محدثك حديثاً احفظ الله يحفظك احفظ الله
تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله فقد
رفعت الأقلام وجفت الكتب فلو جاءت الأمة لينفعوك بشيء لم يكتبه
الله لك لما استطاعت ذلك وخرج الترمذي بنحو هذا السياق المختصر ولفظه
إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت
فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت
على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك وإن اجتمعوا
على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام
وجفت الصحف وقال حديث حسن صحيح وقال أبو عبد الله بن منده
لهذا الحديث طرق عن ابن عباس وهذا أصحها قال وهذا إسناد مشهور
ورواته ثقات قلت قد روي هذا الحديث عن ابن عباس من رواية
ابنه علي وابنه وعطاء وعكرمة ومن رواية عمر مولى غفرة وعبد الملك بن عمير
عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس وقيل إنهما لم يسمعا منه وفي أسانيدها كلها
مقال وفي ألفاظها بعض الزيادة والنقص وروي عن النبي صلى الله عليه
وسلم الوصية لابن عباس من حديث علي بن أبي طالب وأبي سعيد

كتاب نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي
صلى الله عليه وسلم لابن عباس تصنيف الشيخ الإمام العالم الحافظ
زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب
الدين أحمد بن رجب الحنبلي تغمده الله برحمته آمين
بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين
الحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً كافيه كما يحب ربنا ويرضى
وكما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله وصلى الله على محمد النبي الأمي
وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً خرج الإمام أحمد من حديث حنش
الصنعاني

مكتبة جامعة الرياض ثم جامعة الملك سعود (س)

كتاب نور الاقتباس من مشكاة وصية
النبي لابن عباس تصنيف الشيخ الامام العالم الحافظ
زين الدين ابي الفرج عبد الرحمن بن الشيخ الصالح شهاب
الدين احمد بن رجب الحنبلي تغمده الله برحمته آمين

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين
الحمد لله رب العالمين حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يحب ربنا ويرضى وكما
ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله وصلى الله على محمد النبي الامي وآله وصحبه وسلم
تسليما كثيرا خرج الامام احمد من حديث حنش الصنعاني عن ابن عباس
قال كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا غلام او يا غليم الا اعلمك كلمات
ينفعك الله بهن فقلت بلى فقال احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده اما
مك تعرف الى الله في الرخاء يعرفك في الشدة اذا سألت فاسأل الله واذا
استعنت فاستعن بالله قد جف القلم بما هو كائن فلو ان الخلق كلهم
جميعا ارادوا ان ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم يقدروا عليه وان ارادوا ان
يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه واعلم ان في الصبر على ما تكره
خيرا كثيرا وان النصر مع الصبر وان الفرج مع الكرب وان مع العسر يسرا
هكذا ساقه من حديث حنش من اسنادين احدهما منقطع وفي
السياق انه لا يحفظ حديث بعضهم من بعض واخرجه الترمذي من طريق
حنش وحده مختصرا ولفظه يا غلام اني معلمك حديثا احفظ الله
يحفظك احفظ الله تجده تجاهك اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت



الحمد لله رب النَّاس، أنعم على الإنسان بتواتر الأنفاس، وخلق له مرهف الإحساس؛ ليميز به بين ما لا بأس به وما فيه الباس، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله الأطهار وعميه الحمزة والعباس، وعلى صحبه الأبرار خير الناس، وعلى من اقتفى أثرهم على المحجة البيضاء دون شك أو التباس.

أما بعد:

فقد أوصى رسول الله ﷺ ابنَ عمه عبدَ الله بن العباس ـ وكان غلاماً ـ بوصية من جوامعِ الكَلِم وبدائع الحِكم، وهي من معالم الهدي النبوي في إرشاد الفتية وتعليمهم، برَبْطٍ محكمٍ متينٍ بين الإيمان والسلوك، والعلم، والعمل.

وقد شرح الحافظُ ابن رجب رحمه الله هذه الوصية الجليلة بأسلوبه الماتع في شرح الحديث بالحديث وأقوال السلف والعارفين رضي الله عنهم.

وهذه الطريقة النبوية الشريفة هي التي تفتقر إليها نُظُم التعليم المعاصرة، التي يظهر فيها الفصل بين العلم والعمل، ولا يتلازم فيها السلوك مع الإيمان! مما تكون عاقبته جفاءً في التصور والسلوك؛ ينتج عنه نماذج مُختلَّة من تَدَيُّن صوري لا يجاوز العلم إلى صواب العمل أو تَدَيُّن صوري آخر يهتم بظاهر العمل دون حقيقة الإخلاص والتوجه إلى الله تعالى فيه.

وأشنع من هذا وذاك: تدُّينٌ مبتدع، يبرأ دينُ الإسلام منه، يجعل القرآنَ تابعاً لأهواء الإنسان، ولا يُقِرُّ بأن الإنسان عليه أن يتبع هدايات القرآن!

ولو التجأ الحيارى إلى هذه الوصية النبوية، واعتصموا بالجملة الأولى منها: «احفظ الله يحفظك» لكانت لهم منجاة من أودية التيه والضلال!

احفظ حدود الله وحقوقه وأوامره ونواهيه يحفظك الله في مصالح دنياك، ويحفظك في دينك وإيمانك من الشبهات المردية والبدع المضلة والشهوات المحرمة، ويتوفاك على الإسلام. فكيف لو قاموا بالوصية كلها؟ وكيف لو انتهجوا السنة النبوية كلها؟!

اللهم إنا نشهد أن رسولك محمداً ﷺ قد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، فجزاه الله تعالى خير ما جزى نبياً عن أمته، صلى الله وسلم وبارك عليه وزاده فضلاً وشرفاً وتكريماً لديه.

* * *

هـذا الكتاب أشار إليه المصنف رحمه الله في كتابه «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٦٢) لما شرح حديث ابن عباس رضي الله عنه هذا من ضمن أحاديث الأربعين النووية، وهو الحديث التاسع عشر، فقال: «ولقد أفردت لشرحه جزءًا كبيرًا، ونحن نذكر هاهنا مقاصده على وجه الاختصار، إن شاء الله تعالى».

وذكره للمصنف: ابنُ عبد الهادي في «الجوهر المنضَّد» (ص: ٥٠)، وسماه «نور الاقتباس في وصية النبي ﷺ لابن عباس»، وتبعه من نقل عنه من المؤرخين.

وهو مما يرويه الروداني في «صلة الخلف» (ص: ٤٣٩)، واسمه عنده: «نور الاقتباس في مشكاة وصية ابن عباس».

وأشار إليه الصنعاني في «سبل السلام» في شرح حديث ابن عباس (١٣٨٥ من «بلوغ المرام»)، وقال: «وهو حديث جليل أفرده بعض علماء الحنابلة بتصنيف مفرد، فإنه اشتمل على وصايا جليلة».

وقد اعتمدت ـ والاعتماد على الله ـ في تحقيق هذا الكتاب على سبع نسخ خطية:

١ ـ نسخة شهيد علي باشا في اصطنبول، ورمزها (صل)، وهي الرسالة الثانية من مجموع برقم (٥٤٣) ـ وقد سبق وصفه في المقدمات ـ.

وهي في (٣٤) لوحة (من ١٣/ أ إلى ٤٧/ ب) مسطرتها (١٨ ـ ١٩) سطراً.

وجاء عنوانها في أول ورقة من المجموع: «شرح حديث ابن عباس: يا غليم».

وهي بخط محمد بن محمد بن محمد بن عبد الدائم الباهي الحنبلي، فرغ منها يوم الجمعة ٦ جمادى الأولى ٧٨٧ بمصر، وذلك قبل وفاة المصنف رحمه الله بثماني سنين.

وقد أكلت الأرضة بعض أطراف النسخة.

وهي بخط عالم جليل، وفي حياة المصنف، لذلك ينبغي أن تكون أصلاً، ولكن مع ذلك أثبتُّ ما في غيرها في مواضع، لاقتضاء الصواب ذلك.

وفي آخرها: «طالعه وفرغ منه مالكه: محمد بن عمر بن أحمد السفيري عفا الله عنهم بمنه وكرمه، وذلك في شهر شوال من شهور سنة ٩٣٤».

والسفيري مترجم في «الكواكب السائرة» للغزي (٢/ ٥٤).

٢ ـ نسخة شستربتي، ورمزها (ش).

وهي الرسالة الثانية من مجموع برقم (٤٩٥١)، يسبقها رسالة: «معلم الطرفين فيما للعلماء والفقراء من الشرفين» لعيسى بن محمد بن قراجا السهروردي.

وجاء العنوان فيها: «الاقتباس مِنْ مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس» وهي في (٣٩) لوحة (من ١٢٥/ أ إلى ١٦٣/ ب).

بخط علي بن عمر بن أحمد بن محمود المقري الدمشقي، فرغ منها يوم الأحد ٢٩ المحرم سنة ٨١٦، وهي مخرومة قبل آخرها مقدار ثلاث ورقات، ومقابلة ومصححة، وخطها نسخي جيد.

٣ ـ نسخة برنستون، ورمزها (ب).

وهي الرسالة الأولى من مجموع مكتبة جامعة برنستون (مجموعة يهودا) رقم (٧٩٣)، ورقم الحفظ (٤١٦١)، ومصورتها في مركز جمعة الماجد برقم (٢٤٠٥٠١).

وجاء العنوان في الورقة الأولى من المجموع: «كتاب نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس» وتقع في (٣٢) ورقة.

وجاء في آخرها قيد الفراغ من نسخها وهو خامس ذي العقدة سنة (٨١٦هـ).

وهي نسخة مقابلة ومقروءة ـ كما جاء في آخرها ـ على الشيخ الإمام العالم علاء الدين أبي الحسن علي بن زيد ... على الشيخ داود الحنبلي على مؤلفه الإمام زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن رجب تغمده الله برحمته. وأجاز لنا جميع ما يجوز له وعنه روايته بشرطه. واتفق ذلك في [...] من شهر ذي الحجة الحرام سنة ست وأربعين وثمانمئة. قاله وكتبه محمد بن محمد [...] غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين.

ثم جاء في آخر قيد السماع هذا: صحيح ذلك. وكتبه علي بن زيد عفا الله عنه.

٤ ـ نسخة تونس، ورمزها (ت).

وهي الرسالة الحادية عشرة من مجموع برقم (١٥٧) ـ وقد سبق وصفه في المقدمات ـ.

وجاء العنوان في الورقة الأولى من المجموع «نور الاقتباس... مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس» ـ وموضع النقط ذهب مع طرف الورقة ـ.

وهي في (٢١) لوحة (من ١٠٢/ ب إلى ١٢٣/ أ)، وهي مخرومة مقدار أوراق من أولها.

لم يُذكر اسم الناسخ، ولا تاريخ النسخ، لكن رسالةً أخرى من المجموع نفسه فُرغ منها سنة ٨٥٢.

ويوجد في آخرها إجازة نصها:

«الحمد لله وكفى، أما بعد: فقد قرأ علي ولدي أحمد وفقه الله تعالى لكل صالحة، وجنبه الله كل موبقة، جميع هذا الكتاب المجموع إلى آخره، في مجالس آخرها في أوائل سنة أربع وتسعين وثمان مئة، وأذنت له أن يروي عني ذلك، وجميع ما يجوز لي وعني روايته، بشرطه المعتبر عند أهل الأثر. كتبه علي بن البهاء البغدادي[1] عفا الله عنه وعن والديه وعن جميع مشايخه، وعن جميع المسلمين آمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين يا رب العالمين».

---

(١) من علماء الحنابلة، بغدادي ثم دمشقي، له ترجمة في «الضوء اللامع» للسخاوي (٥/ ٢٠٧)، و«الجوهر المنضد» لابن عبد الهادي (ص: ١٠٤)، و«القلائد الجوهرية» لابن طولون (١/ ١٣٩)، ولم يذكروا وفاته، ولد قريباً من ٨١٨.

أما ابنه فهو مترجم في «الكواكب السائرة» للغزي (١/ ١٤٠) توفي ٩٢٩ رحمهما الله تعالى.

كُتب بعد ذلك بخط مغربي:

«والصلاة الدائم ـ كذا ـ والتسليم على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. انتهى بحمد الله وحسن عونه، وصلى الله على سيدنا محمد.».

وهذه النسخة قريبة جداً من نسخة الفاتح (ف)، وقد تأخر وصولها إلينا، ولذلك رجعنا إليها في المواطن المهمة.

٥ ـ نسخة الفاتح، ورمزها (ف).

وهي الرسالة الأخيرة ـ الثامنة عشرة ـ من المجموع رقم (٥٣١٨) بمكتبة الفاتح في اصطنبول ـ وقد سبق وصفه في المقدمات ـ

وجاء عنوان الرسالة في أول المجموع: «نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس»، وكذلك في خاتمة الرسالة التي قبلها: «يتلوه كتاب نور الاقتباس....».

وهي في (٤٧) لوحة (من ٢٢٩/ ب إلى ٢٧٥/ أ) ومسطرتها: ١٩ سطراً.

ناسخها وناسخ المجموع: عيسى بن علي بن محمد الحوراني الشافعي، بتاريخ الثلاثاء ٥ ربيع الأول سنة ٨٩٣.

٦ ـ نسخة مكتبة جامعة الرياض (ثم جامعة الملك سعود)، ورمزها (س).

وهي الرسالة الثامنة من مجموع رقمه (١٦٣٧) ـ وقد تقدم التعريف به في المقدمات ـ وعنوان الرسالة فيها: «نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس».

وهي في (٥٢) صفحة (من ١٧٦ إلى ٢٢٨)، أسطرها بين (٢٤ ـ ٢٧).

ناسخها: عبد الله بن إبراهيم بن محمد بن ربيعة الربيعي.

تاريخ نسخها: الأربعاء ٢٦ رجب ١٣٣٣. وهي مصححة ومقابلة.

٧ ـ **نسخة مكتبة الرياض السعودية، ورمزها (ط)**، وهي الرسالة السابعة من مجموع رقمه (٨٦/ ٥٢٧) من (ص: ٨٨ إلى ١١٤). ـ وقد تقدم التعريف به في المقدمات ـ، وكانت في حوزة الشيخ محمد بن عبد اللطيف آل الشيخ، وعنوان الرسالة فيها: «نور الاقتباس مِنْ مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس».

لم يذكر اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ، لكنه في حدود (١٣٣٦) كما في رسائل أخرى من المجموع.

ونظراً لتأخرها ـ وكونها مأخوذة ـ على الغالب ـ من (س) ـ لم نقابل بها، لكن استفدنا منها في إثبات عنوان الكتاب.

* وثمة نسخة أخرى وقفنا عليها وهي:

ـ نسخة جامعة ييل برقم (٦٧٣ ـ مجاميع) في (٣٨) لوحة، كان الفراغ من نسخها جمادى الآخرة ١٢٥٥، وهي مقابلة مع التحري، ولم نعتمد عليها لتأخرها.

ـ نسخة مكتبة الجامع الكبير بصنعاء اليمن، رقم (٢٤٦).

وطبع الكتاب طبعات كثيرة: من أقدمها طبعة المكتبة الماجدية بمكة المكرمة ١٣٤٧، وطبعة جماعة التعاون العلمي بمصر ١٣٦٥، وأجودها: طبعة الشيخ محمد بن ناصر العجمي جزاه الله خيراً.

تنبيه: جاء العنوان في (ش) و(ط): «من مشكاة»، وفي (ب) و(ف) و(س) وغيرها من النسخ المعتمدة في المطبوعات: «في مشكاة».

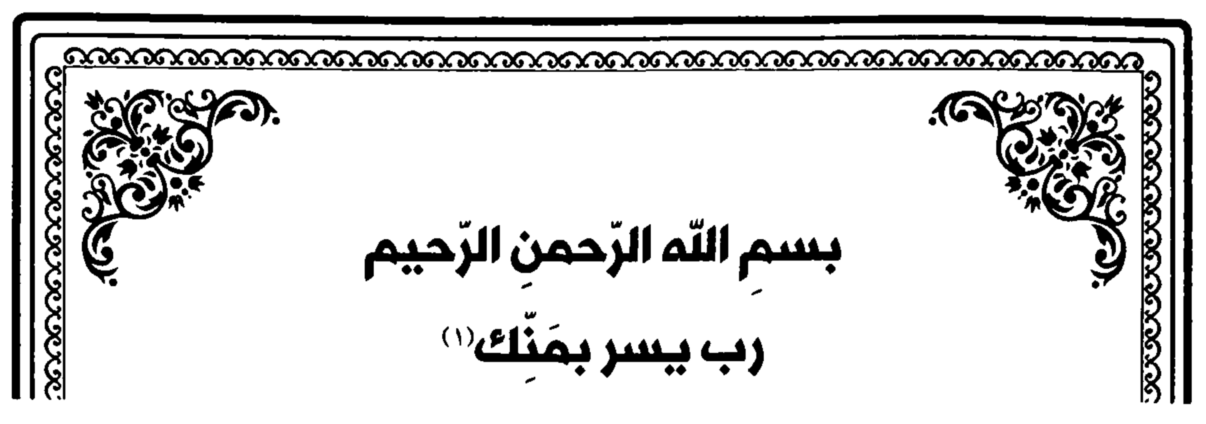
وقد أثبتُّ في العنوان (مِنْ)، فإن المشكاة هي الكُوَّة من الجدار التي يكون فيها السراج، والاقتباس يكون منها لا فيها، والاقتباس من المشكاة كناية عن الاقتباس من السراج. والله الهادي للصواب.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتب

محمد مجير الخطيب الحسني

* * *



بسمِ اللهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

رب يسر بمَنّك[1]

قال الإمامُ العلَّامةُ الحافظُ أبو عبدِ الرَّحمنِ بنُ الإمامِ العالمِ العلَّامةِ أحمدَ بنِ رَجبٍ، بلَّغه الله مِن فضلِهِ الأماني[2]:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، حَمداً كثيراً طيِّباً مُباركاً فيه، كما يحِبُّ ربُّنا ويرضى، وكما ينبغي لكَرمِ وجهِه وعِزِّ جلالِه، وصلَّى اللهُ على سيِّدنا محمَّدٍ النبيِّ الأميِّ وآلِه وصحبِه وسَلَّمَ تسليماً كثيراً.

خَرَّجَ الإمامُ أحمدُ مِنْ حديثِ حَنَشٍ الصَّنعانيِّ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ قال: كنتُ رِدْفَ[3] النَّبيِّ ﷺ، فقالَ: «يا غُلامُ ـ أو يا غُلَيِّمُ ـ ألا أُعلِّمُكَ كلِماتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهنَّ؟» فقلتُ: بلى، فقال: «احفَظِ اللهَ يحفَظْك، احفظِ اللهَ تجِدْه أمامَكَ، تَعرَّفْ إلى اللهِ في الرَّخاءِ يَعرِفْكَ في الشِّدَّةِ، وإذا سَألتَ فاسألِ اللهَ، وإذا استعَنْتَ فاستَعِنْ باللهِ، قَدْ جَفَّ القَلَمُ بما هُو كَائِنٌ، فلو أنَّ الخَلْقَ كلَّهُم جَميعاً أَرادُوا أن يَنْفَعوكَ بشيءٍ لم يَقْضِه اللهُ[4] لم يَقْدِرُوا عليهِ، وإنْ أرادُوا أنْ يَضُرُّوك بشيءٍ لم يَكْتُبْه اللهُ عليكَ لم يَقْدِرُوا عليه، واعلمْ

---

(١) من (ش)، وفي (ف): «رب يسر يا كريم» وفي (س) بدلها: «وبه نستعين». وفي (ب): «وبه أستعين».

(٢) من الأصل، وفي (ش): «قال الشيخ الإمام العالم العلامة أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي رحمه الله». ولا شيء في (ف) و(س) و(ب).

(٣) من الأصل موافقاً للمسند، وفي سائر النسخ: «رديف».

(٤) في (س): «يقضه الله لك».

أنَّ في الصَّبْرِ على ما تكْرَهُ خيراً كثِيراً، وأنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وأنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وأنَّ مَعَ العُسْرِ يُسراً».

هَكذا ساقَه مِنْ طَرِيقِ حَنَشٍ معَ إسنادَيْنِ آخرين مُنْقَطِعَين، وفي السِّياقِ أنَّه لا يُحْفَظُ حديثُ بعضِهم مِنْ بَعْض(١).

وخَرَّجَه أيضاً مِنْ طَرِيقِ حَنَشٍ وَحْدَه مُختَصراً، ولفظُه: «يا غُلامُ، إنِّي مُحدِّثُكَ حَدِيثاً: احفَظِ اللهَ يحفَظْكَ، احفَظِ اللهَ تَجِدْه تُجاهَكَ، إذا سَألتَ فاسألِ اللهَ، وإذا استَعَنْتَ فاستعِنْ باللهِ، فقدْ رُفِعَتِ الأقلامُ، وجَفَّت الكُتُبُ، فلو جَاءت الأُمَّةُ يَنْفَعُونَكَ بِشيءٍ لَمْ يكتُبْه اللهُ لكَ لما استطَاعَتْ، ولو أرادَتْ أَنْ تَضُرَّكَ بِشَيءٍ لم يكتُبْه اللهُ لك لما استَطاعَتْ»(٢).

وخَرَّجَهُ التِّرمِذِيُّ بنحوِ هذا السِّياقِ المختَصَرِ، ولفظُه: «إنِّي أُعَلِّمُكَ كلماتٍ: احفظِ اللهَ يحفَظْكَ، احفَظِ اللهَ تَجِدْه تُجاهَك، إذا سَألتَ فاسألِ اللهَ، وإذا استَعَنْتَ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٨٠٣) عن شيخه أبي عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المقرئ، وأبو عبد الرحمن له فيه ثلاثة أسانيد:

١ـ عن كهمس بن الحسن، عن الحجاج بن الفرافصة رفعه أو أسنده إلى ابن عباس، وهو منقطع.

٢ـ عن همام بن يحيى أسنده إلى ابن عباس، وهو منقطع.

٣ـ عن عبد الله بن لهيعة ونافع بن يزيد المصريان، عن قيس بن حجاج، عن حنشٍ الصنعاني عن ابن عباس، وهو متصل، قال أبو عبد الرحمن: ولا أحفظ حديث بعضهم من بعض.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢٧٦٣). عن يحيى بن إسحاق، عن ابن لهيعة، عن نافع بن يزيد أن قيس بن الحجاج حدثه أن حنشاً حدثه.... وأخرجه الإمام أحمد أيضاً (٢٦٦٩) عن يونس، عن ليث، عن قيس بن الحجاج، عن حَنشا الصنعاني به.

وكتب ناسخ (ف) سطراً ونصفاً سبق قلم ثم ضرب عليه، ومع ذلك أثبتها بعض الناشرين!

فاستَعِنْ بالله، واعلمْ أنَّ الأُمَّةَ لو اجتمعتْ على أَنْ ينفَعُوكَ بشيءٍ لم ينفَعُوكَ إلا بشيءٍ قَدْ كَتَبه اللهُ لكَ، وإنْ اجتَمَعُوا على أن يَضُرُّوكَ بشيءٍ لم يضُرُّوكَ إلا بشيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عليكَ، رُفِعَتِ الأقلامُ وجَفَّتِ الصُّحُفُ»[١] وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

قال[٢] الحافظُ أبو عبدِ اللهِ بنُ مَنْدَه: لهذا الحديثِ طُرقٌ عن ابنِ عَبَّاسٍ، وهذا أصحُّها. قالَ: وهذا إسنادٌ مشهورٌ، ورواتُه ثِقَاتٌ[٣].

قلت: قَدْ رويَ هذا الحديثُ عن ابنِ عبَّاسٍ من روايةِ جماعةٍ[٤] منهم[٥]: عليٌّ ابنُه[٦]، وعطاءٌ[٧]، ....

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦).

(٢) في الأصل دون واو، وفي سائر النسخ: «وقال».

(٣) قاله ابن منده عقب إخراجه الحديث من طريق ابن وهب عن ليث عن قيس بن الحجاج عن حنش عن ابن عباس، في كتاب «التوحيد» (٢٤٨).

(٤) في (ش) و(ف): «جماعة عنه».

(٥) في (ف) و(س) و(ب): «فمنهم». ووقع في سياق الأسماء اضطرابٌ في النسخ، والمثبت من (ش)، وهو الصواب وسقط من (صل): «عبد الملك بن عمير»، وأَخَّر «ابن أبي مليكة» وذلك خطأ. وكذلك سقط من (ف): «عبد الملك»، وأخر «ابن أبي مليكة». وأما في (س) فلم يسقط شيء لكن أخر «ابن أبي مليكة» ولا يستقيم تأخيره لأن اللذين لم يسمعا من ابن عباس هما عُمر وعبدُ الملك.

(٦) أخرجه الشجري في «أماليه» (ترتيب الأمالي الخميسية (٢٣٩٣)). من طريق أبي كريب، عن عُمر بن بَزِيع، عن الحارث بن الحجاج، عن أبي معمر قال: حدثني علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه.... وعمر والحارث وأبو معمر: مجاهيل. كما في تراجمهم من «الميزان»، للذهبي. وأما ابن عبد البر، فقد سمى أبا معمر عَبَّاد بن عبد الصَّمَد، وهو متروك الحديث كما في سند مماثل في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٠٣) (٩٣).

(٧) رواه عن عطاء جماعة منهم:

ـ يعقوب ابنه، عند الخليلي في «الإرشاد» (٨٩)، وعند السِّلَفي في الرابع والعشرين من «المشيخة البغدادية» (نسخة الأسكوريال/ ٢٣٤). =

وعكرمةُ[1]، وابنُ أبي مُليكة[2]، ومنْ رِوايةِ عُمرَ مَولى غُفْرَة[3]،...............

= - عبد الواحد بن سليمان، في «مسند ابن الجعد» (٣٤٤٥)، و«الفرج بعد الشدة» لابن أبي الدنيا (٦)، وعند الطبراني في «الكبير» (١١٤١٦)، والفريابي في «القدر» (١٥٨)، والآجري في «الشريعة» (٤١٣)، وابن بشران في (أماليه) (١٣٣٢).

- المثنى بن الصباح، عند عبد بن حميد (المنتخب ٦٣٦)، وأبي نعيم في «أخبار أصبهان» (٢/ ١٧٤ - ٢/ ٢٧٦) وقرنه بالحجاج بن الفرافصة. قال السخاوي في «المقاصد الحسنة»: سنده ضعيف.

- ابن جريج: عند السهمي في «تاريخ جرجان» (٢٦)، وابن عدي في ترجمة نوفل بن سليمان.

(١) رواه من حديث عكرمة: الطبراني في «الدعاء» (١٩٧٢)، وانظر ما سيأتي من حديث عمر مولى غفرة.

(٢) رواه عنه عيسى بن محمد القرشي. أخرجه: الفريابي في «القدر» (١٥٤)، والعقيلي في «الضعفاء» (٣/ ٣٩٧)، والطبراني في «الكبير» (١١٢٤٣)، وفي «الدعاء» (٤١)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٥٤٢)، وأبو نُعيم في «معرفة الصحابة» (٤٢٨٤)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٧٤٥)، والبيهقي في «الآداب» (٧٥٨)، وفي «شعب الإيمان» (٩٥٢٩). ومن طريق الطبراني أخرجه الضياء في «المختارة» (١١/ ١١٧ - ١١٨) وذكر قول أبي حاتم الرازي في عيسى بن محمد: ليس بالقوي. قال العقيلي: «وقد روي هذا الكلام عن ابن عباس من غير طريق، أسانيدها لينة، وبعضها أصلح من بعض».

(٣) رواه عن عمر مولى غفرة:

- إسماعيل بن عياش: عند الطبراني في «الكبير» (١١٥٦٠) - وأدخل عكرمة بن عمر وابن عباس - وعلقه كذلك ابن أبي عاصم في «السنة» (٣١٧). وأخرجه العقيلي (٣/ ١٧٨)، والبيهقي في «القضاء والقدر» (٣٠٧) من طريقه دون ذكر عكرمة. قال العقيلي: «وهذا المتن يروى عن ابن عباس وغيره عن النبي ﷺ بأسانيد لينة».

- عيسى بن يونس، ولم يذكر عكرمة عند: هناد بن السري في «الزهد» (٥٣٦)، والفريابي في «القدر» (١٥٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٥٢٨).

- علي بن القاسم الكندي، عند ابن بشران (١٨٨) وسمى مولى غفرة عاصم بن رجاء! وفي حاشية مخطوطة الظاهرية ولم يثبته محققه: «صوابه والله أعلم: عاصم بن رجاء عن عمر مولى غفرة، وفي أصل الشيخ كما كتبته في النسخة».

وعبدِ الملك بن عُمَير[١] عَنْ ابنِ عبَّاس، وقيل إنَّهما لم يَسْمَعا مِنْهُ[٢].

وفي أسانِيدها جميعِها[٣] مَقَالٌ[٤]، وفي ألفاظِها بعضُ الزِّيادة والنَّقْصِ.

ورُوِيَ عن النَّبيِّ ﷺ: أنَّه وَصَّى بذلكَ ابنَ عَبَّاسٍ مِنْ حديثِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ[٥]،

---

(١) أخرجه ابن شاهين في الخامس من «الأفراد» (٨٥) بطرف منه، وقال: فرد غريب من حديث عبد الملك بن عمير لا أعلم رواه عنه غير شهاب بن خراش، وأخرجه الدارقطني كما في «أطراف الغرائب والأفراد» لابن طاهر (٢٤٣٨)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٥٤١)، وقال: هذا حديث كبير عال من حديث عبد الملك بن عمير عن ابن عباس رضي الله عنهما إلا أن الشيخين رضي الله عنهما لم يخرجا شهاب بن خراش ولا القداح في الصحيحين وقد روي الحديث بأسانيد عن ابن عباس غير هذا.

(٢) ذكر العقيلي في «الضعفاء» قيل لعمر مولى غفرة: سمعت من ابن عباس؟ قال: أدركت زمانه.
وقال أبو حاتم الرازي (الجرح والتعديل ٦/ ٤١٣): لا أعلمه سمع من ابن عباس شيئاً.

(٣) في (س): «كلها».

(٤) ومما لم يذكره المصنف رحمه الله هنا:
ما رواه الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس. أخرجه أبو عبيد في «الخطب والمواعظ» (١٢٤)، والطبراني في «الدعاء» (٤٣)، والبيهقي في «القضاء والقدر» (٣٠٦)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٣١٤). وعلقه ابن أبي عاصم في «السنة» (٣١٨). وأخرجه ابن بطة في «الإبانة» (١٥٠٤) فلم يذكر عبيد الله. وفيه الحجاج بن الفرافصة: صدوق يهم.
ما رواه الحسن عن ابن عباس أخرجه البلاذري في «أنساب الأشراف» (٤/ ٣١)، والدارقطني في «المؤتلف والمختلف» (٢/ ٨٩٣). وهو منقطع.
ما رواه محمد بن كعب القرظي. أشار إليه البيهقي في «القضاء والقدر» (٣٠٧) وهو رواية شاذة من حديث عمر مولى غفرة.
ما رواه عبد الله بن ثابت العنبري، عن عمرو بن دينار عن ابن عباس. أخرجه وكيع الضبي في «أخبار القضاة» (ص: ٢٩١)، ولم أجد عبد الله بن ثابت، وأخشى أن يكون مُصحَّفاً.

(٥) أخرجه ابن بشران في «أماليه» (٧١٦) من طريق عنبسة بن عبد الرحمن، عن عبد الله بن الحسن عن =

وأبي سعيدٍ الخُدريِّ[1]، وسَهْلِ بنِ سَعْدٍ[2] وغيرِهم مَنَ الصَّحَابَةِ[3]، وفي أسانيدها أيضاً مقالٌ.

= أمه فاطمة بنت الحسن، عن أبيها، عن جدها علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عباس: «احفظ الله يحفظك...».

وعنبسة بن عبد الرحمن بن عنبسة الأموي، قال أبو حاتم في «الجرح والتعديل» (٦/ ٤٠٣): متروك الحديث، كان يضع الحديث.

(١) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (١٠٩٩) وفي معجمه (٩٦)، وابن عدي في «الكامل» - ترجمة يحيى بن ميمون -، واللالكائي في «شرح أصول أهل السنة والجماعة» (١٠٩٦)، والآجري في «الشريعة» (٤١٤)، وابن بطة في «الإبانة» (١٥٠٣)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٦/ ١٨٩) ومداره على يحيى بن ميمون التمار البصري، اتهم بوضعه.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» (٧)، ومن طريقه أبو القاسم الأصبهاني في «الترغيب» (١٦٠٣)، والتنوخي في «الفرج بعد الشدة» (١/ ١١٥ - ١١٦). وشيخ ابن أبي الدنيا أبو سعيد عبد الله بن شبيب الربعي المديني من سُرَّاق الحديث.

(٣) منهم عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما.

ومدار حديثه على علي بن أبي علي الهاشمي، وهو اللَّهبي المديني. قال أبو حاتم وأبو زرعة: منكر الحديث. كما في «الجرح والتعديل» (٦/ ١٩٧). يرويه عن جعفر الصادق، عن أبيه محمد الباقر، عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهم. رواه عنه: يعقوب بن حميد بن كاسب: عند أبي عاصم في «السنة» (٣١٥)، والطبراني في «الكبير» ١٣ (١٨٥)، وعنه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٤٠٤٤). ووقع في هذه الكتب: علي بن علي، واستدرك محققوها [ابن] من المراجع كـ«جامع المسانيد» و«مجمع الزوائد».

خالفه: عبد العزيز بن عبد الله الأويسي، فرواه عن علي بن أبي علي، عن جعفر بن محمد، عن أبيه عن جده عن علي رضي الله عنه! أن رسول الله ﷺ قال لعلي عليه السلام! أخرجه التنوخي في «الفرج بعد الشدة» (١/ ١١٢).

خالفهما: عبد الله بن ميمون القداح المكي فرواه عن جعفر بن محمد عن أبيه قال قال لي ابن عباس... فذكره. أخرجه عبد الغني المقدسي في أول جزئه «التوكل». وابن ميمون القداح هو راوي حديث شهاب بن خراش عن عبد الملك بن عمير عن ابن عباس المذكور سابقاً! وهو منكر الحديث متروك، فلا يصح حديثاه. =

وذكرَ العُقَيليُّ أنَّ أسانيدَ الحديثِ كلَّها لَيِّنَةٌ[١]، وبعضُها أصلَحُ مِنْ بَعْضٍ[٢].

قلتُ: وأجودُ أسانيدِه مِنْ روايةِ حَنَشٍ عنِ ابنِ عَبَّاسٍ، التي ذَكرناهَا، وهو إِسنادٌ حَسَنٌ لا بأسَ به، وقد استوفينَا ذِكْرَ طُرُقِ الحديثِ[٣] معَ الكلامِ عليها في كتابِ «شَرْحِ التِّرمِذِيِّ»[٤].

= ومنهم الفضل بن العباس رضي الله عنهما.

ذكر البلاذري في «أنساب الأشراف» (٤/ ٢٣) أن النبي ﷺ قال له ذلك.

(١) في حاشية (ف): «كَيِّسَة». وهذا تصحيف. وفي (س): «أسانيد هذا الحديث كلها لينة».

(٢) «الضعفاء»، للعقيلي (٣/ ٥٣).

(٣) في (س): «هذا الحديث».

(٤) شرح الترمذي كتاب جليل، احترق في فتنة تيمورلنك سنة ٨٠٣ ولم يبق منه سوى «شرح علل الترمذي» وهو من أعظم كتب المصنف رحمه الله. وقد شرح المصنف رحمه الله هذا الحديث باختصار في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٥٩) وهو الحديث التاسع عشر من الأربعين النووية، وأحال إلى كتابه هذا. وقال هناك: «فطريق حنش التي خرجها الترمذي حسنة جيدة».

وقال الإمام الحافظ أبو طاهر السِّلَفي في «الرابع والعشرون من المشيخة البغدادية» (لوحة ٢٣٤ من نسخة الأسكوريال): «وقد روى هذا الحديث اثنا عشر رجلاً من التابعين عن ابن عباس» وقد سبق ذكر عشرة منهم وقفت على الطرق إليهم. وأما رواية حنش الصنعاني، فلها عنه طريقان:

١ـ يزيد بن أبي حبيب: أخرجها الفريابي في «القدر» (١٥٧) وعنه الآجري في «الشريعة» (٤١٢).

٢ـ قيس بن الحجاج الكلاعي المصري، وعنه الإمام الجليل الليث بن سعد، روي عنه من طرق كثيرة، عند ابن وهب في «القدر» (٢٨)، والإمام أحمد في «المسند» (٢٦٦٩)، والترمذي (٢٥١٦)، وأبي يعلى (٢٥٥٦)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٤٢٥)، والفريابي في «القدر» (١٥٣)، والطبراني في «الكبير» (١٢٩٨٨)، وفي «الدعاء» (٤٢)، والدينوري في «فوائد العراقيين» (٩)، وابن منده في «التوحيد» (٢٤٨)، وابن بطة في «الإبانة» (١٥٠٥) (١٥٠٨)، واللالكائي (١٠٩٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٩٢)، وفي «القضاء والقدر» (٢٨٧)، وعلقه ابن أبي عاصم في «السنة» (٣١٦).

ورواه عن قيس أيضاً: ابن لهيعة ونافع بن يزيد، عند: أحمد في «المسند» (٢٨٠٣) (٢٧٦٣)، والترمذي (٢٥١٦)، والطبراني في «الكبير» (١٢٩٨٩)، والفريابي في «القدر» (١٥٦)، والبيهقي =

ومقصودُنا هاهُنا الكلامُ على معنى الحديثِ وشرحِ ألفاظِه، فإنَّه تضمَّن وصايا عظيمةً، وقواعدَ كُلِّيَةً مِنْ أهمِّ أمورِ الدِّين وأَجَلِّها، حتى قالَ الإمامُ أبو الفرجِ [ابنُ الجَوزيِّ رحمه الله][1] في كتابِه «صَيْدِ الخاطِرِ»: تدبَّرتُ[2] هذا الحديثَ فأَدْهَشَني وكدتُ أَطيشُ، ثمَّ قالَ: واأسفًا من الجَهْلِ بهذا الحَديثِ وقِلَّةِ الفَهْمِ[3] لِمَعْناه[4].

***

فقولُـه ﷺ: «احفَظِ اللهَ يحفَظْـكَ» يعنِـي: احفَـظْ حُـدُودَ اللهِ وحُقُوقَـه وأوامِـرَه ونواهِيَـه، وحِفْـظُ ذلكَ هو الوقـوفُ عندَ أوامِـره بالامتثالِ، وعندَ نواهيـه بالاجتِنابِ، وعنـدَ حُـدودِه فـلا تَتَجاوزْ ولا تَتَعـدَّ مَـا أَمَـر[5] بـه إلى مَـا نهى عنـه، ودَخَـل[6] في ذلـكَ فعـلُ الواجبـاتِ جميعـاً، وتَـرْكُ المحرَّماتِ كُلِّهـا، كما فـي حديثِ أبـي ثَعْلبةَ المرفـوعِ: «إنَّ اللهَ فـرَضَ فرائضَ فلا تُضَيِّعُوهـا، وحَرَّم حُرُماتٍ فـلا تَنْتَهِكوها، وحَدَّ حُـدُوداً فـلا تَعْتَدوها، [وسَـكتَ عَنْ أشـياءَ فـلا تَبْحَثُـوا عنها][7].

= في «الشعب» (١٠٤٣)، وفي «الأسماء والصفات» (١٢٦)، واللالكائي (١٠٩٤)، والسمرقندي في «تنبيه الغافلين» (٣٢٣).

(١) من (س) ولا توجد في سائر النسخ.

(٢) في (س): «قد تدبرت».

(٣) في (ش) وحاشية (س): «التفهم».

(٤) لم أجد هذا الكلام لابن الجوزي في «صيد الخاطر» المطبوع، ولم أجده لغيره، ونقله المصنف وأبهم قائله في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٦٢).

(٥) ضبطت في (ش): فلا تُتجاوَز ولا يُتَعدّى ما أمر به...

(٦) في (ف): «فدخل».

(٧) «وسكت عن أشياء فلا تبحثوا عنها» زيادة من (س). والحديث هو الثلاثون من الأربعين النووية قال النووي: حسن رواه الدارقطني وغيره. وقد رواه الطبراني في «الكبير» ٢٢ (٥٨٩)، والدارقطني في «السنن» (٤٣٩٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ١٧)، والبيهقي في «الكبرى» (١٠/ ١٢_١٣) وغيرهم.

وذلكَ كلُّه يدخلُ في حِفْظِ حُدودِ اللهِ، كما ذكَرَه اللهُ تعالى في قوله: ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢] الآية، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٢ ـ ٣٣] وفُسِّرَ الحفيظُ هاهُنا بالحافظ لأوامرِ اللهِ، وفُسِّرَ بالحافظِ لذُنُوبهِ حتى يَرجعَ منها، وكلاهما يَدْخُلُ في الآيةِ، ومَنْ حَفِظَ وصيَّةَ اللهِ لعبادِه وامتَثَلها فهو داخلٌ أيضاً، والكلُّ يرجعُ إلى معنى واحِد.

وقَدْ وَرَدَ في بعضِ ألفاظِ حديثِ يومِ المزيدِ في الجنَّة: إنَّ اللهَ تعالى يقولُ لأهلِ الجنَّةِ إذا استدعَاهُم إلى زِيارَتِه، وكشَفَ لهم الحُجُبَ: «مرحَباً بعبادي الذين حَفِظُوا وصيَّتي، ورَعَوا عَهْدِي، وخَافُوني بالغَيْبِ، وكانوا مِنِّي على كلِّ حالٍ مُشفِقين»[١].

فأمرُه ﷺ لابنِ عباسٍ بحفظِ اللهِ يدخل فيه هذا كله[٢].

ومِنْ أَعْظَمِ ما يَجِبُ حِفْظُه مِنَ المأمُوراتِ: الصلواتُ الخَمْس. قالَ تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وقالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٩][٣]، وقالَ النبيُّ ﷺ: «مَنْ حافَظَ عليها كانَ له عِنْدَ اللهِ عَهدٌ أنْ يُدخِلَه الجنَّة»[٤] الحديث، وفي حديثٍ آخر: «مَنْ حافظَ عليهنَّ كُنَّ له نُوراً وبُرهاناً ونجاةً يومَ القِيامةِ»[٥] الحديث.

---

(١) من مراسيل محمد الباقر رضي الله عنه، أخرجه بطوله: ابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» (٥٢)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (٤١١) وهو معضل.

(٢) في (س): «أن يحفظ» وفي حاشيتها نسخة توافق سائر النسخ، وفي (ش): «يدخل في هذا كلّه».

(٣) وفي (ف) و(س): «على صلاتهم يحافظون» وهي في سورة المعارج: ٣٤.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٦٩٣) (٢٢٧٠٤)، وأبو داود (١٤١٥) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، ولفظه: «خمس صلوات كتبهن الله على العباد، فمن جاء بهن لم يضيع منهن شيئاً استخفافاً بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة... ». وما هنا تصرف بالمعنى.

(٥) أخرجه الإمام أحمد (٦٥٧٦) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

وكذلكَ الطَّهارةُ، فإنَّها مِفتاحُ الصَّلاةِ، وقال النبيُّ ﷺ: «لا يحافِظُ على الوضوءِ إلا مؤمنٌ»[1]، فإنَّ العبدَ تنتقِضُ طهارتُه ولا يعلَمُ بذلكَ إلا اللهُ، فالمحافظةُ على الوضوءِ للصَّلاةِ[2] دليلٌ على ثبوتِ الإيمانِ في القَلْبِ.

وممّا أمرَ اللهُ تعالى بحِفْظِه: الأيمانُ. لمَّا ذكرَ كفَّارةَ اليمينِ قالَ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] فإنَّ الأيمانَ كثيراً ما تَقعُ مِنَ النَّاسِ، وموجباتُها مختلِفةٌ، فتارةً يجبُ بها كفارةُ يمينٍ، وتارةً يجبُ بها كفارةٌ مغلَّظَةٌ، وتارةً يلزمُ بها المحلوفُ عليهِ مِنْ طلاقٍ ونحوِه، فمَنْ حَفِظَ أَيمانَه دَلَّ على دُخولِ الإيمانِ في قلبِه.

وكانَ السَّلَفُ كثيراً يُحافِظُونَ على الأَيمانِ، فمنهم مَنْ كانَ لا يحلِفُ باللهِ ألبتَّة، ومنهم مَنْ كان يتورَّعُ حتَّى يكفِّرَ عمَّا شَكَّ في الحِنْثِ فيه[3].

ووصَّى الإمامُ أحمدُ عندَ موتهِ أَنْ تُخْرَجَ عنهُ كفَّارةُ يمينٍ، وقالَ: أظنُّ أَنِّي حنِثْتُ في يمينٍ حَلَفْتُها[4].

وقدْ رُويَ عن أيوبَ النبيِّ عليهِ السَّلام كانَ إذا مَرَّ باثنينِ يحلفانِ باللهِ ذَهَبَ فكفَّر

---

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (٦٦) بلاغاً، والإمام أحمد في «المسند» (٢٢٣٧٨) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٢) في الأصل: «والصلاة».

(٣) في (ش) وهامش (ب): «الحلف فيه» وفي (س): «فيما شك فيه الحنث».

وذكر الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٥/ ٨٤٧) عن وكيع: أن أبا حنيفة رحمه الله كان قد جعل على نفسه أن لا يحلف بالله في عرض كلامه إلا تصدق بدرهم فحلف فتصدق به، ثم جعل على نفسه إن حلف أن يتصدق بدينار فكان إذا حلف صادقاً في عرض الكلام تصدق بدينار.

(٤) أخرجه ابن الجوزي في «مناقب الإمام أحمد» (ص: ٣٥٨).

عنهُما يمينَهما، لئلَّا يأثمانِ وهما لا يَشعُرانِ[١]، ولهذا لمَّا حَلَفَ على ضَرْبِ امرأته مِئَةَ جَلْدةٍ أفتاهُ اللهُ بالرُّخْصَةِ لِحفْظِه[٢] لأيمانه وأيمان غيره.

وقَدْ اختلفَ العلماءُ هلْ تتعدَّى الرخصةُ إلى غيرِهِ أم لا[٣].

وقالَ يزيدُ بنُ أبي حَبيب: بلغَني أَنَّ مِنْ حَمَلةِ العَرْشِ مَنْ يسيلُ مِنْ عَينيهِ أمثالُ الأنهارِ مِنَ البُكاءِ، فإذا رَفَعَ رأسَه قالَ: سبُحانَكَ ما تُخْشى حَقَّ خَشْيَتِكَ، فيقولُ اللهُ تعالى: لكنَّ الذينَ يحلِفُون باسمي كاذِبينَ لا يَعْلَمُونَ ذلِكَ[٤].

وَقَدْ وردَ التشديدُ العظيمُ في الحَلِفِ الكاذِبِ، ولا يصدُرُ كَثْرةُ الحَلِفِ باللهِ والحلفِ به كاذِباً إلا مِنَ الجَهْلِ باللهِ وقِلَّةِ هيبَتِه في الصُّدور.

ومما يلزمُ المؤمنَ حفظُه: رأسُه وبطنُه، كما في حديثِ ابنِ مسعودٍ المرفوعِ: «الاستحياءُ مِنَ اللهِ حَقَّ الحياءِ: أنْ يحفظَ الرأسَ وما وَعى، ويَحفظَ البطْنَ وما حَوى» خَرَّجَهُ الإمامُ أحمدُ والتِّرمِذِي[٥].

---

(١) مما رواه نعيم بن حماد عن المبارك في «الزهد» (٢/ ٤٩) من مراسيل الزهري. وأخرجه ابن حبان (٢٨٩٨)، والحاكم (٢/ ٥٨١ ـ ٥٨٢) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. من حديث أنس رضي الله عنه. وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» (١/ ٢٠٨): وهذا غريب رفعه جدًا، والأشبه أن يكون موقوفاً.

(٢) تصحفت في (ف) إلى «لحلفه».

(٣) قال مجاهد رحمه الله: هي لأيوب عليه السلام خاصة، وقال عطاء: هي للناس عامة. كما في تفسير الآية ٤٤ من سورة (ص) من «الدر المنثور» للسيوطي. وإلى خصوصها ذهب الإمام مالك رحمه الله وأهل الرأي، وإلى كونها عامة ذهب الشافعي رحمه الله، كما ذكر القرطبي في تفسير تلك الآية.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (٤١١) ولعله من الإسرائيليات.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٣٦٧١) بلفظ الغائب «فليحفظ». والترمذي (٢٤٥٨) بلفظ =

وحفظُ الرأسِ وما وَعى يدخُلُ فيه حفظُ السَّمْعِ والبَصَرِ واللِّسانِ مِنْ المُحرَّماتِ، وحفظُ البطنِ وما حَوى يتضمنُ حِفْظَ القَلْبِ عنِ الإصرارِ على مُحَرَّم، وقد جمعَ اللهُ ذلكَ كلَّه في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، ويدخلُ في حِفْظِ البَطْنِ وما حَوى حفظُه مِنْ إدخالِ الحرامِ إليهِ مِنَ المأكولاتِ والمشرُوبات.

ومما يَجِبُ حفظُه من المنهيَّات: اللسانُ والفَرْجُ[١]، وفي حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه عَن النبيِّ ﷺ: «مَنْ حَفِظَ ما بينَ لحييهِ وما بينَ رِجليهِ دَخَلَ الجنَّةَ». خرَّجه الحاكمُ[٢].

وخرَّجَه البخاريُّ مِنْ حديث سَهْلِ بنِ سَعْدٍ عنِ النبيِّ ﷺ، ولفظه: «مَنْ يَضْمَنْ لي ما بينَ لَحييهِ ورِجلَيهِ أضمنْ لهُ الجنَّةَ»[٣].

وفي مُسندِ الإمامِ أحمدَ عنْ أبي مُوسى، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «مَنْ حَفِظَ ما بَيْنَ فَقْمَيهِ وفَرْجِه دَخَلَ الجنَّةَ»[٤].

= المخاطب: «أن تحفظ» وهو الذي أورده المصنف رحمه الله. وإسنادهما واحد، قال الترمذي، حديث غريب إنما نعرفه من حديث أبان بن إسحاق عن الصباح بن محمد.

قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢/ ٣٤٨): أبان والصباح مختلف فيهما، وقد ضُعِّف الصباح برفعه هذا الحديث، وصوابه: عن ابن مسعود موقوفاً عليه.

(١) في (ف) و(ب): «حفظ اللسان والفرج».

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣٥٧)، وقال: صحيح الإسناد.

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٧٤).

(٤) أخرجه الإمام أحمد (١٩٥٥٩). والفقمان: هما اللحيان، وهما طرفا الفم: الفك الأعلى والفك الأسفل، والمراد حفظ الفم عن التكلم بما لا ينبغي، وعن أكل ما لا ينبغي.

وقد أمرَ الله تعالى بحفظِ الفُرُوجِ خاصَّةً، ومدحَ الحافِظين لها، قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠][1]، وقالَ تعالى: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وقالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٥ ـ ٧].

وقَدْ رُوِيَ عَنْ أبي إدريسَ الخَولانِيِّ: أنّ أولَ ما وَصَّى اللهُ بهِ آدمَ عندَ إهباطِهِ إلى الأرضِ بحفظِ فَرْجِه، أنْ لا يضَعَه إلا في حَلالٍ[2].

وقولُه ﷺ «يحفَظْك» يعني أنَّ مَـنْ حَفِظَ حدودَ اللهِ وراعى حُقوقه حَفِظَه الله، فإنَّ الجزاءَ مِـنْ جنسِ العَمَلِ كما قالَ تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]،

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله تعالى في (الجواب الكافي» المعروف باسم «الداء والدواء» (ص: ٣٤٧)
«وأمر تعالى نبيه ﷺ أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم، وحفظ فروجهم، وأن يُعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم، مطلع عليها ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]
ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر: جعل الأمر بِغَضِّه مقدَّماً على حفظ الفَرْج، فإن الحوادث مبداها من النظر، كما أن معظم النار من مستصغرِ الشرر، فتكون نظرة، ثم خطرة، ثم خطوة، ثم خطيئة.
ولهذا قيل: من حفظ هذه الأربعة أحرز دينَه: اللحظات، والخطرات، واللفظات، والخطوات». اهـ.
وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر النساء بما أمر به الرجال من غضّ البصر وحفظ الفَرْج، وزادَ أمرَهُنَّ أن ﴿لَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور: ٣١].
فإبداءُ المرأة زينتها منافٍ لمقصِد حفظ الفَرج وغضّ البصر الذي أُمِرَ به الرجال والنساء سواءً.

(٢) لم أجد الأثر عن أبي إدريس رحمه الله، ولكن أخرج نحوه الطبراني في «الأوائل» (٢) مما رواه ليث بن أبي سُليم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما موقوفاً، ولفظه: «أول ما خلق الله من الإنسان فرجه، فلما تم خلقه قيل له: لا تنزله إلا في حِلّه».
وأخرجه بألفاظ مقاربة نحوه: ابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (٢٧٥)، وفي «الورع» (١٣٣) والمروذي في «تعظيم قدر الصلاة» (٥١٢).

وقالَ: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقالَ: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: ٧]، وحِفْظُ الله تعالى لِعبدِهِ يتضمَّنُ نوعين:

أحدُهما حفظُهُ له في مصالحِ دُنياهُ كحِفْظِهِ في بَدَنِه ووَلَدِه وأَهلِه ومالِهِ[1].

وفي حديثِ ابنِ عُمَرَ قالَ: لمْ يكنْ رسولُ اللهِ ﷺ يَدَعُ هؤلاءِ الدَّعواتِ حينَ يُمسِي وحينَ يُصبِحُ: «اللَّهمَّ إني أسأَلكَ العافيةَ في الدُّنيا والآخرةِ، اللَّهمَّ إني أسأَلكَ العفوَ والعافيةَ في دِيني ودُنياي[2]، وأهلِي ومالِي، اللَّهمَّ استر عَورَاتي وآمِنْ رَوعاتي[3]، واحفَظْنِي مْن بينِ يَدَيَّ ومِنْ خَلْفِي، وعَنْ يَميني وعَنْ شِمالي، ومِنْ فَوقي وأعوذُ بعظَمَتِكَ أَنْ أُغتالَ مِنْ تحتي». خرَّجَهُ الإمامُ أحمدُ وأبو داودَ والنَّسائيُّ وابنُ ماجَهْ[4].

وهذا الدُّعاءُ منتزعٌ ـ والله أعلم ـ مِنْ قولِه عَزَّ وجَلَّ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]. قالَ ابنُ عباسٍ: همُ الملائكةُ يحفظونَه بأمرِ اللهِ، فإذا جاءَ القَدَرُ خَلَّوا عَنْه[5].

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ: إنَّ مَعَ كلِّ رجلٍ مَلَكين يحفظانِه ممَّا لم يُقدَّرْ، فإذا جَاءَ القَدَرُ خَلَّيا بَيْنَه وبَيْنَه، وإنَّ الأَجَلَ جُنَّةٌ حَصِينَةٌ[6].

---

(١) وسيأتي النوع الثاني بعد كلام طويل.

(٢) في (س): «ودنياي وآخرتي» واللفظة زائدة لا توجد في الحديث.

(٣) المثبت من (ش) و(س) موافقاً لمطبوع مسند الإمام أحمد، وفي (صل): «استر عوراتي، وآمن روعتي»، وفي (ف) و(ب): «استر عورتي، وآمن روعتي».

(٤) أخرجه الإمام أحمد (٤٧٨٥)، وأبو داود (٥٠٣٥)، والنسائي (١٠٣٢٥)، وابن ماجه (٣٨٧١).

(٥) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٣٥٩)، والطبري في «جامع البيان» (١٣/ ٤٥٨)، وابن أبي حاتم (١٢١٩٦)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٩٦٣).

(٦) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٣٤)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٦٦).

وقالَ مجاهِدٌ: ما مِنْ عَبْدٍ إلا لَه مَلَكٌ يحفظُه في نَومِه ويَقَظَتِه مِنَ الجِنِّ والإِنْسِ والهوَّامِّ، فمَا مِنْ شيءٍ يأتِيه إلا قالَ: وراءَك، إلا شَيئاً أَذِنَ[1] اللهُ فيهِ فيصِيبُه[2].

ومِنْ حِفْظِ اللهِ للعبدِ أنْ يحفَظَه في صِحَّةِ بَدَنِه وقوَّتِه وعَقْلِه ومالِه.

[فائدة: في أنَّ العالِمَ وجامعَ القرآنِ لا يخْرَفان][3]

قالَ بعضُ السَّلَفِ: العالِمُ لا يَخْرَفُ[4].

وقالَ بعضُهم: مَنْ جَمَعَ[5] القرآنَ مُتِّعَ بعَقْلِه[6].

---

(١) في (س): «قد أذن».

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٦٥). ومعنى وراءَك: ارجع وراءَك.... يقوله المَلَك لمن يقصد السوء بالعبد من جن أو إنس أو هوام...

(٣) ما بين معقوفين كتب على حاشية (صل)، وليس من صلب الكتاب، لكن أثبتناه تنبيهاً على تلك الفائدة.

(٤) سئل أبو حاتم الرازي ـ «علل الحديث» (٢٨٢١) ـ عن حديث رواه العلاء بن زَيدَل، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «إن العالم لا يخرف» فقال: العلاء ضعيف الحديث، متروك الحديث. قد وجدنا مَنْ يُنْسَب إلى العلم: المسعوديَّ، والجريري، وسعيد بن أبي عروبة، وعطاء بن السائب، وغيرَهم. اهـ. يريد أن هؤلاء قد اختلطوا وتغير حفظهم، وهذا يشكل على هذه الرواية التي لا تصح.
وينسب هذا القول: «إن العالم لا يخرف» لابن طاوس، كما في «العلل ومعرفة الرجال لأحمد» (٥٦٣)، وغيره كـ«حلية الأولياء» (٤/ ١٠). قال ابن حجر الهيتمي رحمه الله في «الزواجر عن اقتراف الكبائر» (١/ ٣٨): فالمراد بكون العالِم لا يخرف أنه لا يصل إلى خرَف العوام من عود الكبير كالطفل في سائر أحواله، بل أقبح منه، فهذا هو الذي تصان عنه العلماء بالله.

(٥) في (س): «حفظ». مضبباً فوقها.

(٦) أخرجه ابن عدي في ترجمة رشدين بن سعد من «الكامل»، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥/ ٤٥٩) وغيرهم من حديث أنس رضي الله عنه، ورِشْدين متكلَّم فيه، وقد ذكره المصنف في «شرح علل الترمذي» (١/ ٩٦) في المشتغلين بالتعبد الذين يترك حديثهم، لانشغالهم بالعبادة عن الحفظ، فكثر الوهم في حديثهم من رفع الموقوف ووصل المرسل. =

وتأوَّلَ بعضُهم على ذلكَ قولَه تَعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ـ وهو أرذل العمر ـ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٥ ـ ٦][(١)].

وكانَ أبو الطَّيِّب الطَّبريُّ[(٢)] قَدْ جَاوَزَ المائةَ سنةٍ وهو مُمَتَّع[(٣)] بعقلِه وقوَّته،

= تنبيه: مَنْ جَمعَ القرآن أي حَفِظه، بينه وبين العالِم عموم وخصوص من وجه، فمن العلماء من جمع القرآن، ومنهم من لم يجمع القرآن، وممن جمع القرآن من ليس بعالم. وعلى فرض صحة معنى الأثرين وإن لم يصح إسنادهما، فيكون للعلماء جملة حفظٌ عن الوصول إلى الخرف المزري ولو طرأ عليهم الاختلاط والتغير، كما حصل لبعض حفاظ الحديث، ويكون لمن جمع القرآن مزيَّة زائدة وهي أن يمتَّع بعقله، والأمر يحتاج إلى استقراء طبقات القراء، هل فيهم من تغيَّر بأخرة! والله تعالى أعلم.

(١) أخرج الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٢٨) من طريق عاصم الأحول عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: من قرأ القرآن لم يُردَّ إلى أرذل العمر، وذلك قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قال: الذين قرؤوا القرآن، وأخرج الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٥١٣) ذلك من وجوه عن ابن عباس، وعن عكرمة من قوله، وإبراهيم، وقتادة.

(٢) هو الإمام الجليل أبو الطيب طاهر بن عبد الله الطبري، القاضي، الشافعي، ولد سنة ٣٤٨، وتوفي ببغداد سنة ٤٥٠ رحمه الله تعالى عن مئة وسنتين. قال تلميذه الإمام أبو إسحاق الشيرازي: لم يختل عقله ولا تغير فهمه، يفتي مع الفقهاء ويستدرك عليهم الخطأ ويقضي ويشهد، ويحضر المواكب إلى أن مات. انظر ترجمته في «تاريخ بغداد» للخطيب (٩/ ٧٤٥)، و«طبقات الشافعية» للسبكي (٥/ ١٢).
ونقل الخطيب سؤال أبي بكر بن بكران الشامي القاضي، للقاضي أبي الطيب وقد عُمِّر: لقد مُتِّعت بجوارحك أيها الشيخ! فقال: ولم لا؟ وما عصيت الله بواحدة منها قط.
والقصة التي أوردها المصنف رحمه الله هنا نادرة عزيزة لا توجد في مظان ترجمة الإمام أبي الطيب بهذا السياق. وقد خلّط الوعاظ فيها كثيراً فليتنبه له.

(٣) في (ف): «المائة سنة» وفي (س): «المائة السنة» وفي (س): «متمتع».

فوَثَبَ يوماً مِنْ سفينةٍ كانَ فيها إلى الأرضِ وثبةً شديدةً، فعوتبَ في[1] ذلكَ، فقال: هذه جوارح حَفِظْناها عَن المعاصِي في الصِّغَر فحَفِظها اللهُ علينا في الكِبَر.

وعَكْسُ هذا: أنَّ الجُنيدَ رأى شَيْخاً يسألُ النَّاسَ، فقالَ: إنَّ هذا ضَيَّعَ اللهَ في صِغَره فضيَّعَه اللهُ في كِبَره[2].

وقَدْ يحفظُ اللهُ العبدَ بصَلاحِه في وَلَده ووَلَدِ وَلَدِه كما قِيلَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢] أنَّهما حُفِظَا بصَلاحِ أبيهِما[3].

قالَ[4] محمَّدُ بنُ المنكَدِر: إنَّ اللهَ ليحفَظُ بالرَّجُلِ الصَّالحِ وَلَدَه، وَوَلَدَ ولدِه، وقَرْيَتَه[5] التي هُو فيها، والدُّويراتِ التي حَوْلَها. فما يَزالونَ في حفظٍ مِنَ اللهِ وسترٍ[6].

---

(١) في (ف) و(س) و(ب): «على».

(٢) لم أجده عن الجنيد رحمه الله، وفي «طبقات الصوفية» لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٢٨٤) ذكرت القصة بهذا اللفظ عن محمد بن علي الكتاني رحمه الله. وفي الطبقات أيضاً (ص: ٣٦٩) من كلام أبي عبد الله التروغبذي محمد بن محمد بن الحسن: من ضيع أمر الله في صغره أذله الله في كبره.

(٣) جاء هنا لحقاً في (س)، ولا يوجد في سائر النسخ.

ومنه قولُ بعضِهم:

رأيتُ صلاح المرء يُصلح أهله	ويُعديهم داءُ الفساد إذا فسدْ
ويشرفُ في الدنيا بفضل صلاحه	ويحفظ بعد الموت في الأهل والولد

والبيتان لمحمود الوراق، كما في «الديباج» للختلي (١٣٥).

(٤) في (ف) و(س) و(ب): «وقال».

(٥) في (ش): «وتربته»، وهو تصحيف.

(٦) مدار هذا الأثر على محمد بن سوقة عن ابن المنكدر. روي عنه من ستة أوجه:

أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣٣٠)، والحميدي في «مسنده» (٣٧٧)، وابن أبي شيبة (٣٦٥٦٤)، وابن أبي الدنيا في «العيال» (٣٥٩)، وأبو نُعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ١٤٨)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٦/ ٦٥). ولا ذكر للقرية عندهم. ولفظ كثير منهم: «إن الله يصلح بصلاح الرجل...». =

وقال ابنُ المسيّب لابنه: يا بُني لأزيدَنَّ في صَلاتي مِنْ أَجلِك، رجاءَ أنْ أُحفَظَ فيك، وتلا هذهِ الآيةَ ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢][1].

وقالَ عُمر بنُ عبدِ العَزيز رحمهُ الله: ما مِـنْ مـؤمِن يموتُ إلا حَفِظَه اللهُ في عَقِبه وعَقبِ عَقِبه[2].

وقالَ يحيى بنُ إسماعيلَ بنِ سَلَمةَ بنِ كُهَيل: كان لي أختٌ أَسنُّ مِنِّي، فاختَلَطَتْ، وذهبَ عقلُها، وتوحَّشَتْ، وكانتْ في غُرفةٍ في أقصى سُطُوحِنا فمكثَتْ بذلكَ[3] بضعَ عشرةَ سنةً، [وكانتْ معَ ذهابِ عقلِها تحرِصُ على الطُّهورِ، وتتفقَّدُ الصَّلواتِ، وربما غُلِبتْ على عقلِها الأيامَ، فتحفظُ ذلكَ حتى تقضِيَهُ. قال][4]: فبينا أنا نائمٌ ذاتَ ليلةٍ،

= وخالفه عثمان بن عبد الرحمن الوقاصي، وهو متروك، فرواه عن محمد بن المنكدر، عن جابر رضي الله عنه مرفوعاً. أخرجه أبو الشيخ في «طبقات المحدثين بأصبهان» (٤/ ٧٨). فلا يصح مرفوعاً.

(١) كتب ناسخ (س) في حاشيتها: «قصة عجيبة في معنى الحفظ بالصلاح». وفي (س): «إني لأزيدن». وهكذا وقع من الحافظ نسبة هذا إلى ابن المسيب، ولم أجده، وإنما وجدته عن سعيد بن جبير رحمه الله. أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٢٧٩) من وجهين عنه. قال الراوي عن سعيد: رجاء أن يحفظ فيه.

(٢) أخرجه في ضمن قصة: ابن أبي الدنيا في «الاعتبار وأعقاب السرور» (٧١)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣١/ ٢٢٢) ولفظه: «ما من ميت يموت».

(٣) في (ش): «في ذلك».

(٤) ما بين معقوفين لا يوجد في كتاب الحافظ ابن رجب، وأضافه ناسخ (س) في حاشيتها، وكتب قبله: «وجدت هذه الزيادة في حكاية ذكرها ابن الجوزي في سيرة عمر». وهي موجودة في المصادر، وبإثباتها تكون العبرة من القصة أكبر.

إذا بابُ بيتي يُدَقُّ نِصفَ الليلِ، فقلتُ: مَنْ هذا؟ قالتْ: كجَّةُ[١] فقلتُ: أُختي؟ قالت: أُختُكِ[٢]. ففتحتُ البابَ فدخلَتْ، ولا عهدَ لها بالبيتِ مِنْ[٣] أكثر من عشر سنين. [فقلتُ لها: يا أُختاه خير، قالت: خير.][٤] فقالتْ: أُتيتُ الليلةَ في منامِي فقيلَ لي [السلامُ عليكِ يا بخة ـ كذا ـ فقلتُ: وعليكَ السلامُ، فقيلَ لي:][٥] إنَّ اللهَ قدْ حَفِظَ أباكِ إسماعيلَ لسلمةَ جدِّك، وحفظكِ لأبيكِ إسماعيل، فإنْ شِئْتِ دعوتِ الله فأزال[٦] ما بِك، وإن شِئتِ صبرتِ ولكِ الجنة، فإنَّ أبا بكر وعُمر قد شَفَعا لك إلى اللهِ عزَّ وجلَّ بحُبِّ أبيكِ وجدِّك إيَّاهُما، فقلتُ: فإذَا كانَ لا بُدَّ مِن اختيارِ أحدِهما، فالصَّبرَ على مَا أنا فيهِ[٧] والجنَّةَ، وإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لواسع لخَلقِه[٨] لا يتعاظَمُه شيءٌ، إنْ شاءَ أنْ يجمَعَهُما لي فَعَلَ. قالتْ فقيلَ لي: إنَّ الله تَعالى قد جَمَعهُما لكِ، ورضيَ عنْ أَبيكِ وجدِّكِ بحبُهِّما أبا بكرٍ وعُمَرَ رضيَ اللهُ عنهما. قومِي فانزِلي، فأذهبَ اللهُ عز وجل ما كانَ بها[٩].

---

(١) اللفظة مهملة في (صل) وفي (ش): «كِجَّةُ»، وفي (ف) و(س): «كجه»، وفي حاشية (س) إشارة إلى نسخة: «بخة»، وكذلك أثبته محقق «تاريخ دمشق». وفي «القاموس»: كُجة: لعبة يأخذ الصبي خرقة فيدورها، كأنها كرة. والله أعلم بحقيقة الاسم وحقيقة معناه.

(٢) في حاشية (س): «قلت: لبيك».

(٣) المثبت من (ف)، وفي (س): «منذ»، وسقطت من (صل) و(ش) و(ب).

(٤) ما بين معقوفين زيادة من حاشية (س).

(٥) ما بين معقوفين زيادة من حاشية (س).

(٦) في (ف) و(ب): «فذهب»، وفي (س): «فأذهب».

(٧) «فيه» سقطت من (صل) و(ف) و(ب).

(٨) في (صل): «واسع لخلقه»، وفي (ف)، و(س) و(ب): «بخلقه».

(٩) في حاشية (س): «بلغ مقابلة». والأثر: أخرجه الثعلبي في تفسيره «الكشف والبيان» (٦/ ١٨٩)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٦/ ٣٥٥) من طبعة مجمع اللغة العربية، من طريق ابن حبيب في كتاب «عقلاء المجانين» (ص: ٢٩٤).

ومتى كانَ العبدُ مشتغِلاً بطاعةِ اللهِ عز وجل فإنَّ اللهَ تعالى يحفَظُه في تلكَ الحالِ، كما في مُسنَدِ الإمامِ أحمدَ، عَنْ حُميدِ بن هِلالٍ، عن رجلٍ قالَ: أتيتُ النبيَّ ﷺ فإذا هُو يُريني بَيتاً، فقال: «إنَّ امرأةً كانتْ فيهِ، فخرجَتْ في سَرِيَّةٍ منَ المسلمينَ، وتركتْ ثِنتي عَشرةَ عَنْزاً، وصِيْصِيتَها كانتْ تنسجُ بها[1]، قال: ففقَدَتْ عَنزاً لها، وصِيْصِيَتَها، فقالت: يا ربّ إنَّكَ قدْ ضَمِنْتَ لمنَ خرجَ في سبيلكَ أنْ تحفظَ عليهِ، وإنِّي قدْ فقدتُ عَنْزاً مِنْ غنمي[2] وصِيْصِيَتي، وإني أَنْشُدُكَ عَنْزي وصِيْصِيَتي». قالَ: فجعلَ رسولُ اللهِ ﷺ يذكرُ شِدَّةَ مناشَدَتِها ربَّها[3] تبارك وتعالى. قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «فأصبحَتْ عنزُها ومثلُها، وصِيْصِيَتُها ومثلُها، وهاتِيكَ فأْتِها إنْ شئتَ». قال: قُلْتُ بلْ أُصَدِّقُكَ[4].

وكانَ شيبانُ الرَّاعي يرعى غَنَمه[5] في البرِّيَّةِ، فإذا جاءَت الجمعةُ خَطَّ عليها خَطًّا، وذهبَ إلى الجُمعةِ ثم يَرْجِعُ وهي كما تَرَكها[6].

وكانَ بعضُ السَّلف في يدهِ الميزانُ يزنُ بها دراهِمَ، فسمعَ الأذانَ فنهضَ،

---

(١) في (صل): «التي كانت تنسج بها، وهي السنارة التي كانت تغزل بها وتنسج». وهي لا توجد في «المسند» ولا توجد في سائر النسخ، ولعل الناسخ أدرجها من حاشية للشرح. وفي حاشية (ف): «وهي الصنارة التي يُغزل بها، وشوك الحائك يسوي بها السداة واللحمة، ومنه: صيصية الديك في رجله. راموز».

(٢) في (صل): «أعنزي».

(٣) في (س): «لربها».

(٤) أخرجه الإمام أحمد (٢٠٦٦٤) من حديث رجل من الطُّفاوَة رضي الله عنه.

(٥) في (ف) و(ب): «غنماً».

(٦) ذكر القصة قوام السنة أبو القاسم إسماعيل الأصبهاني في كتابه «سير السلف الصالحين» (ص: ١٠١٥). وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣١٧).

ونَفَضَها على الأرضِ، وذهبَ إلى الصَّلاةِ فلمَّا عادَ جَمَعَها فلم يذهبْ منها شيءٌ[(١)].

ومِنْ أنواعِ حفظِ اللهِ لمَنْ حَفِظَه في دُنياه: أنْ يحفَظَه مِنْ شَرِّ كُلِّ مَنْ يريدُه بأذى مِنَ الجِنِّ والإِنْس[(٢)]، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]. قالتْ عائشةُ رضي اللهُ عنها: يكفيهِ غَمَّ الدُّنيا وهمَّها[(٣)].

وقالَ الربيعُ بن خُثَيم: يجعلُ لهُ مخرَجاً مِنْ كُلِّ ما ضَاقَ على النَّاسِ[(٤)].

وكتبتْ عائِشَةُ رضي الله عنها إلى مُعاويةَ: إن اتقيتَ اللهَ كفَاكَ النَّاسَ، وإن اتقيتَ الناسَ لم يُغنوا عنكَ مِنَ اللهِ شَيئاً[(٥)].

وكتبَ بعضُ الخلفاءِ إلى الحَكمِ بنِ عمروٍ الغِفارِيِّ كتاباً يأمرُهُ فيهِ بأمرٍ يخالِفُ كتابَ اللهِ، فكتبَ إليه الحَكَمُ: إنِّي نظرتُ في كتابِ اللهِ فوجدتُه قبلَ كتابِ أميرِ المؤمنين، وإنَّ السماواتِ والأرضَ لو كانتا رَتْقاً على امرئٍ فاتَّقى اللهَ عزَّ وجَلَّ جعلَ اللهُ له مَخْرجاً، والسلام[(٦)]. وأنشد بعضهم في هذا المعنى:

---

(١) لم أقف عليه عند غير المصنف. وفي حاشية (س): «بلغ مقابلة».

(٢) في حاشية (س): «الجنة والناس».

(٣) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١٤/ ٥٤٢) إلى ابن أبي حاتم في «تفسيره».

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٦٧٧٩).

(٥) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٩١)، ويعقوب بن سفيان في «المعرفة والتاريخ» (١/ ٥٥٠)، ومن طريقه: ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٠/ ٢٥٤). وأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٦٨٦٧) وأبو داود في «الزهد» (٣٢٠).

(٦) الحكم بن عمرو الغفاري، صحابي جليل، استعمله زياد بن أبيه على خراسان. والخبر في «الطبقات الكبرى» (٧/ ٢٨)، وفي «الكامل» لابن عدي في ترجمة (أوس بن عبد الله بن بريدة).

بتَقْــوى الإلــهِ نَجَــا مَــنْ نَجا وفــازَ وَصَــارَ إلــى مَــا رَجــا

ومَــنْ يتــقِ اللهَ يجعــلْ لــهُ كمــا قَــالَ مِــنْ أمــرهِ مَخْرَجــا

ويرزقْــه مِنْ حيــثُ لا يحتَسِــبْ وإنْ ضَــاقَ أمــرٌ بــه فَرَّجــا[١]

وكتبَ بعضُ السَّلفِ إلى أخيهِ: أما بعدُ: فإنَّه مَن اتقى اللهَ فقدْ حَفِظَ نفسَه، ومنْ ضيَّعَ تقواهُ فقَدْ ضيَّعْ نفسَه، واللهُ الغنيُّ عنه[٢].

ومِنْ عجيبِ حِفْظِ اللهِ تعالى لِمَنْ حَفِظَه[٣]: أنْ يجعلَ الحيواناتِ المؤذيةَ بالطَّبْعِ حافظةً لهُ مِنَ الأذى وساعيةً في مَصَالحه، كما جَرَى لسفينةَ مولى النبيِّ ﷺ حيثُ كُسِرَ بِهِ المركبُ، وخَرجَ إلى جزيرةٍ فرأى السَّبُعَ، فقال له: يا أبا الحارثِ أنا سفينةُ مولى رسول الله ﷺ فجعلَ يمشِي حولَه، ويدلُّه على الطَّريقِ حتى أوقعه[٤] عليها، ثم جعلَ يُهَمْهِمُ كأنَّه يودِّعُه وانصرفَ عنْهُ[٥].

---

(١) أنشد البيتين الأولين: ابنُ جميع الصيداوي في «معجم الشيوخ» (ص: ١٨١)، لأبي العتاهية، وفي «تاريخ أربل» لابن المستوفي (١/ ٢٤٣) نسبهما إلى المستنجد أمير المؤمنين. والبيت الثالث ليس في النسخ إلا في حاشية (ف) وحدها.

(٢) لم أقف عليه عند غير المصنف.

(٣) في حاشية (ف): «عجيب».

(٤) في (ف) و(س) و(ب): «أوقفه».

(٥) مدار الحديث على محمد بن المنكدر عن سفينة رضي الله عنه. ولعله لم يدركه (انظر ترجمة محمد بن المنكدر في «تهذيب التهذيب»، لابن حجر). رواه عنه:

محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، وعنه أسامة بن زيد الليثي مولاهم المدني. ورواه عن أسامة جماعة منهم:

ـ عبيد الله بن موسى فأسقط من السند محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان. أخرجه الروياني في «مسنده» (٦٦٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٦٤٣٣)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٦١٨) =

وكانَ أبو إبراهيم السَّايحُ قَدْ مَرضَ في بَرِّيَّةٍ بقرب دَيْر، فقالَ: لو كنتُ عندَ [باب][1] الدَّيرِ لنزلَ الرُّهبانُ فعالَجُوني، فجاءَ السَّبُعُ فاحتَمَلَهُ على ظَهْره حتى وَضَعهُ على بابِ الدَّيرِ فرآهُ الرُّهبانُ، فأسلَمُوا وكانُوا أربعَ مئةِ راهبٍ[2].

وكانَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ نائِماً في بُستانٍ وعندَهُ حيَّةٌ في فَمها طاقَةُ نَرْجِسٍ، فما زالتْ تَذُبُّ عنهُ حتى استيقَظَ[3].

= وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٦٩)، وفي «معرفة الصحابة» (٣٥١٠)، وفي «دلائل النبوة» (٥٣٥).

ـ وابن وهب، أخرجه الطبراني (٦٤٣٢)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٦٠٦) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٤٥).

ـ وعثمان بن عمر، وأسقط من السند محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان. أخرجه البزار (٣٨٣٨)، وأبو يعلى في «المفاريد» (ص: ٦٠٤)، وابن منده في «معرفة الصحابة» كما في «البداية والنهاية» لابن كثير (٥/ ٤٥٠).

ـ وجعفر بن عون. أخرجه البيهقي في «الاعتقاد» (ص: ٣١٦)، وفي «دلائل النبوة» (٦/ ٤٥).

ورواه عن ابن المنكدر: سعيد بن عبد الرحمن الجحشي، وعنه: معمر. أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٤٦)، واللالكائي في «الكرامات» (١١٤). وتصحّف فيهما الجحشي إلى الحجبي!! وسرى ذلك إلى المراجع، فلينتبه له.

ورواه عن ابن المنكدر: عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة. أخرجه أبو القاسم البغوي كما في «تهذيب الكمال» (٥/ ٤٥٠).

فائدة: ورواه عن سفينة رضي الله عنه: أبو ريحانة مختصراً، أخرجه البغوي كما في «البداية والنهاية»، لابن كثير (٥/ ٤٥٠).

(١) لا توجد في (صل) و(ش).

(٢) حَدَّث أبو إبراهيم بقصته إمام المسلمين أحمد بن حنبل كما في «طبقات الحنابلة»، لابن أبي يعلى (٢/ ١٨).

(٣) في حاشية (ف): «أعجب» وقد كتب قبلًا: «عجيب». وفي (س): «تذب عنه الذباب»، وليست في =

فَمَنْ حَفِظَ اللهَ حَفِظَهُ اللهُ مِنَ الحيواناتِ المؤذيةِ بالطَّبْعِ، وجعلَ تلكَ الحيواناتِ حافِظَةً له، ومَنْ ضَيَّعَ اللهَ ضَيَّعَهُ اللهُ، فضَاعَ[1] بين خَلْقِه، حتى يدخُلَ عليه الضَّررُ ممَّنْ كانَ يرجُو[2] أنَّه ينفَعُه، ويصيرُ أخصُّ أهلِه بِهِ وأرفقُهُم به يؤذيِهِ، كما قَالَ بعضُهم: إنِّي لأعصِي اللهَ فأعرِفُ ذلكَ في خُلُقِ خَادِمي وحمارِي[3]، يعني أنَّ خادِمَه يسوءُ خُلُقُه عليه، ولا يُطِيْعُه، وحِمَارُه يستَعْصِي عليهِ فلا يواتِيْهِ لرُكُوبه.

فالخيرُ كلُّه مجموعٌ في طاعَةِ اللهِ، والإقبالِ عليه، والشَّرُّ كلُّه مجموعٌ في مَعْصِيَتِهِ والإِعْرَاضِ عنه.

قالَ بعضُ العَارفينَ: مَنْ فارقَ سُدَّةَ سَيِّدِهِ لم يَجِدْ لقَدَميهِ قَراراً أبداً[4].

وقال بعضهم[5]:

والله مـا جِئْتُكـمُ زائِـراً ... إلا وجـدتُ الأرضَ تُطوى لي

ولا ثَنيتُ العـزمَ عـن بابِكُم ... إلا تَعَثَّـرتُ بأذيالـي[6]

= النسخ ولا في المصادر. والأثر أخرجه اللالكائي في «الكرامات» (٢٢٢)، والخطيب البغدادي في «الزهد والرقائق» (١٠٨)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦/ ٣١٨).

(١) في (س): «فضاع من».

(٢) في (ف) و(س): «بشيء ممن كان يرجو».

(٣) هو من كلام الإمام الجليل الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى. أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ١٠٩)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٨/ ٣٨٣).

(٤) لم أقف عليه عند غير المصنف.

(٥) في (ش) و(ف): «شعر»، وفي (س): «كما قيل».

(٦) البيتان للمرتضى عبد الله ابن الشهرزوري الموصلي، كما في «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٣/ ٥٢)، و«بغية الطلب» لابن العديم (١٠/ ٤٤٩١)، و«سير أعلام النبلاء» للذهبي (٢١/ ٥٨).
وأوردهما ابن القيم في عدد من كتبه دون ذكر قائلهما. =

النوعُ الثاني مِنَ الحِفْظِ وهُو أشرفهما وأفضلُهما: حِفْظُ اللهِ تعالى لعبده في دِينِه، فيحفَظُ عليهِ دينَه وإيمانَه في حياتِه مِنَ الشُّبُهاتِ المُرْدِيَةِ، والبدَع المُضِلَّةِ، والشَّهواتِ المحرَّمةِ، ويحفظُ عليه دينَه عندَ موتهِ فيتوفَّاه على الإسلامِ.

قالَ الحَكَمُ بنُ أبان، عن أبي مَكِين[1]: إذا حَضَرَ الرجلَ الموتُ، يقال للمَلَك: شُمَّ[2] رأسَه قال: أجدُ في رأسِهِ القرآنَ. قال: شُمَّ قلبَه. قال: أجدُ في قلبِه الصِّيامَ. قال: شُمَّ قدَميه. قال: أجدُ في قَدَميه القِيامَ. قال: حَفِظَ نفسَه فحفِظَه اللهُ عزَّ وجلَّ. خَرَّجَه ابنُ أبي الدُّنيا[3].

وقَدْ ثبتَ في الصَّحيحين في[4] حديثِ البَراءِ بن عَازِبٍ أنَّ النبيَّ ﷺ علَّمه أنْ يقولَ عِندَ منامِه: «إنْ قَبَضْتَ[5] نفسِي فارْحَمْها، وإنْ أرسَلْتَها فاحفَظْها بما تحفَظُ بهِ عبادَكَ الصَّالحين»[6].

= وفي هامش (ب) بخط مغاير زيادة بعدهما:

[بالله فاعفوا واصفحوا واجبروا كسري فحالي بكم حالي].

(١) في (ف) و(س): «مكي» وهو خطأ، وأبو مكين هو نوح بن ربيعة الأنصاري البصري، من أتباع التابعين، رحمه الله تعالى.

(٢) في حاشية (ف): «أمر حاضر» يعني هو فعل أمر للمخاطب. وضبطه في (ف) بالوجوه الثلاثة.

(٣) لم أجده في مصنفات ابن أبي الدنيا، وأورده المصنف في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٦٨) و«لطائف المعارف» (المجلس الثاني من وظائف شهر رمضان) من غير عزو.
وأورده السيوطي في «شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور» (٤٩) وعزاه إلى ابن أبي الدنيا أيضاً. وتصحفت فيه «مكين» إلى «بكرة»!

(٤) في (س): «من».

(٥) في (ف)، و(س) و(ب): «اللهم إن قبضت».

(٦) لا يوجد لفظ «قبضت» في الصحيحين، وليس هو من حديث البراء، وإنما أخرج البخاري (٦٣٢٠) ومسلم (٢٧١٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، =

وفي حديثِ عُمرَ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ ﷺ أنَّه علَّمه أنْ يقولَ: «اللهمَّ احفَظْني بالإسلامِ قائِماً، واحفَظْني بالإسلامِ قاعِداً، واحفَظْني بالإسلامِ راقِداً، ولا تُطِعْ فيَّ عَدُوًّا ولا حاسِداً» خَرَّجَهُ ابنُ حبَّانَ في صَحِيحِه[1].

وكانَ النبيُّ ﷺ إذا وَدَّعَ[2] مَنْ يريدُ السَّفَر يقولُ له: «أستودعُ اللهَ دينَكَ وأمانَتَكَ وخواتيمَ عَمَلِكَ»[3].

وفي روايةٍ: «وكانَ يقولُ: إنَّ اللهَ إذا استُودِعَ شيئاً حَفِظَه». خَرَّجَهُ النَّسائيُّ وغيرُه[4].

وخَرَّجَ الطبرانيُّ حديثاً مرفوعاً: إنَّ العبدَ إذا صَلَّى الصَّلاةَ على وجهِها صعدتْ إلى اللهِ ولها برُهانٌ كبُرهانِ الشَّمْسِ، وتقولُ لصاحِبِها: «حَفِظَكَ اللهُ كما حَفِظْتَني»، وإذا ضَيَّعها لُفَّتْ كمَا يُلَفُّ الثوبُ الخَلَقُ ثم ضُرِبَ[5] بها وجهُ صاحِبِها، وتقولُ له: «ضيَّعكَ اللهُ كما ضيَّعتَنِي»[6].

وكانَ عُمرُ رضي الله عنه يقولُ في خُطبتِه: اللَّهمَّ اعصِمْنا بحفْظِكَ، وثبِّتنا على أَمْرِك[7].

= إن أمسكت نفسي فأرحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين» لفظ البخاري، ولفظ مسلم: «إن أمسكت نفسي فاغفر لها».

(١) صحيح ابن حبان (٩٣٤) ولفظه: «عدواً حاسداً».

(٢) هنا تبتدئ النسخة التونسية (ت).

(٣) أخرجه أبو داود (٢٥٩٣)، والترمذي (٣٤٤٣) وقال: حسن صحيح غريب، من هذا الوجه من حديث سالم، والنسائي (٨٧٥٥)، وابن ماجه (٢٨٢٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

(٤) ذكره رسول الله ﷺ من كلام لقمان الحكيم عليه السلام. أخرجه النسائي (١٠٢٧٣).

(٥) في (ت) و(ف) و(س): «يُضرب».

(٦) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣٠٩٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٧) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٥٤) لكن لفظه: «أعصمنا بحبلك».

ودَعا رجلٌ لبعضِ السَّلَفِ بأنْ يحفَظَه الله، فقالَ له: يا أَخِي لا تَسْأَلْ عِنْ حِفْظِه، ولكنْ قُلْ يحفظُ[1] الإيمانَ[2].

يعني أَنَّ المُهِمَّ هو الدُّعاءُ بحفْظِ الدِّينِ، فإنَّ الحفْظَ الدُّنيوِيَّ قدْ يَشْتَرِكُ فيه البَرُّ والفَاجِرُ.

فاللهُ تعالى يحفَظُ على المؤمنِ دينَه، ويحُولُ بينَه وبينَ ما يُفْسِدُه عليه، بأسبابٍ قدْ لا يَشْعُرُ العبدُ ببعَضِها، وقدْ يكونُ يكرَهُه، وهذا كمَا حَفِظَ يوسُفَ عليه السَّلام. قالَ تعالى ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] فمَنْ أخلَصَ للهِ خَلَّصَهُ اللهُ مِنَ السُّوءِ والفَحشاءِ وعَصَمَه مِنها مِنْ حيثُ لا يَشعُر، وحالَ بينَه وبينَ أسبابِ المعاصي المُهْلِكَةِ، كمَا رأى معروفٌ الكَرْخِيُّ شَباباً يتهيؤُونَ للخروجِ إلى القِتالِ في فتنةٍ، فقال: اللَّهمَّ احفظْهُم، فقيل له: تدعُو لهؤلاءِ؟! فقالَ: إنْ حَفِظَهُمُ لمْ يخرجُوا إلى ما أرادوا[3].

وسَمِعَ عُمرُ رضي الله عنه رجلاً يقولُ: اللَّهم إنَّكَ تحولُ بين المرءِ وقَلْبِه، فحُلْ بينِي وبيَن معاصِيك، فأَعجَبَ ذلكَ عُمرَ، وَدَعَا له بخيرٍ[4].

ورُوي عن ابنِ عبَّاسٍ في قولِه تعالى: ﴿يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤]. قالَ: يحولُ بينَ المؤمنِ وبينَ المعصِيةِ التي تَجُرُّه إلى النَّارِ[5].

---

(١) في (ت): «بِحفظ» في (س): «يحفظ الله».

(٢) لم أجده عند غير المصنف.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٣٦٥) وفي (ت) و(ف): «لم يخرجوا إلى القتال» وفي (س): «إن حفظهم الله لم يخرجوا إلى القتال».

(٤) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائده على «الزهد» (٥٩٥).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» سورة الأنفال، والبيهقي في «القضاء والقدر» (٢٦٥)، وليس عندهما: «التي تجره إلى النار».

حَجَّ بعضُ المتقدِّمينَ، فباتَ بمكةَ مع قومٍ، فهَمَّ بمعصيةٍ، فسمعَ هاتِفاً يهتِفُ يقولُ: ويلَكَ ألَمْ تَحُجَّ؟! فعَصَمَه اللهُ ممَّا هَمَّ به[1].

وخَرجَ بعضُهم مع رِفقَةٍ إلى مَعْصِيةٍ، فلما هَمَّ بمُواقَعَتِها هَتَفَ به هاتفٌ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨] فترَكَها[2].

وَدَخَلَ رجلٌ غَيْضَةً ذاتَ شجرٍ، فقالَ: لو خلوتُ هاهُنا بمعصيةٍ مَنْ كانَ يراني؟ فسمِعَ صَوتاً ملأَ ما بينَ حافتي[3] الغَيضَةِ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤][4].

وهَمَّ رجلٌ بمعصيةٍ فخرجَ إليها، فمَرَّ في طريقِهِ بقَاصٍّ يقُصُّ على النَّاسِ، فوقفَ على حلقَتِه، فسمعَهُ يقول: أيُّها الهامُّ بالمعصيةِ، أما عَلِمْتَ أنَّ الله خالقَ الهِمَّةِ مطَّلعٌ على هِمَّتِكَ؟! فوقَعَ مَغْشِيًّا عليه، فما أفاقَ إلا عَنْ تَوبةٍ[5].

كانَ بعضُ الملوكِ الصَّالحينَ قدْ تعلَّقَ قلبُه بمملُوكٍ لهُ جميلٍ، فخَشِيَ على

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا من كلام محمد بن مخلد رحمه الله في «هواتف الجنان» (١٧٢).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «هواتف الجنان» (٢٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٣٥) وكانت سبب توبة عمرو بن جرير رحمه الله. «فتركها» من (ف) و(س) ولا توجد في (صل) و(ش).

(٣) تصحفت في (صل) و(ش) و(ت) و(ف) و(ب) إلى: «غابتي»، والمثبت من (س). وفي «اعتلال القلوب»: «لابتي».

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «هواتف الجنان» (٢٧)، والخرائطي في «اعتلال القلوب» (٨١)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٧/ ١٦٤) من كلام رزين أبي أسماء رحمه الله.

(٥) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩/ ٤١٣) من طريق ابن أبي الدنيا، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢/ ٣٠١) من كلام عمرو بن جرير، والقاص هو أبو طالب القاص رحمه الله تعالى.

نَفْسِه فقامَ ليلةً، واستغاثَ اللهَ[١]، فمرِضَ المملوكُ من ليلَتِه، وماتَ بعدَ ثلاثٍ[٢].

ومنهُم مَنْ عُصِمَ[٣] بموعظةٍ جرتْ على لسانِ مَنْ أرادَ منهُ الموافقةَ على المعصيةِ كما جرى لأحدِ الثَّلاثةِ الذينَ دخَلُوا الغارَ، وانطبقتْ عليهمُ الصَّخرةُ. فإنَّه لما جَلَسَ مِنْ تلكَ المرأةِ مجلِسَ الرَّجلِ من امرأتِهِ قالتْ له: يا عبدَ اللهِ اتقِ الله ولا تَفُضَّ الخاتَمَ إلا بحقِّه، فقامَ عنها[٤].

وكذلكَ: الكِفْلُ مِنْ بني إسرائيلَ، كانَ لا يتورَّعُ عن معصيةٍ فأعجبتْهُ امرأةٌ، فأعطاها ستينَ دِيناراً، فلمَّا قعدَ منها مَقْعدَ الرَّجلِ من امرأتِه ارتَعَدَتْ، فقال: أكرهتُكِ؟! قالت: لا، ولكن هذا عملٌ ما عَمِلتُه قَطُّ، وإنَّما حملني[٥] عليه الحاجَةُ. فقال: تخافينَ اللهَ ولا أخافُه! ثُمَّ قامَ عنها، ووهَبَ لها الدنانيرَ، وقالَ: واللهِ لا يعصي اللهَ الكِفْلُ أبداً، وماتَ منْ ليلَتِه، فأصبحَ مكتُوباً على بابِهِ: قَدْ غَفَرَ اللهُ للكِفْلِ. خَرَّجَ الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ حديثَه هذا[٦]، منْ حديثِ ابنِ عُمَر مرفوعاً[٧].

ورَاوَدَ رَجُلٌ امْرأةً عن نَفْسِها، وأمرَها بغَلْقِ[٨] الأبوابِ، ففعلتْ، وقالت له: قدْ

---

(١) في حاشية (ش): «واستغاث إلى الله».

(٢) لم أجد القصة عند غير المصنف.

(٣) في (س): «عَصَم نفسَه».

(٤) حديث الثلاثة الذين دخلوا الغار حديث مشهور من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. أخرجه البخاري في مواضع منها (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣).

(٥) في (ش) و(س): «حملتني».

(٦) في (ش): «خرجه أحمد والترمذي».

(٧) أخرجه الإمام أحمد (٤٧٤٧)، والترمذي (٢٤٩٦)، وقال: هذا حديث حسن. ولا يلتبِسَنَّ الكفل هذا بالنبي ذي الكفل عليه السلام، فإنه نبي معصوم.

(٨) في (صل): «تغلق».

بقِيَ بابٌ واحدٌ. قال: وأيُّ بابٍ هو؟ قالتْ: البابُ الذي بينَنَا وبينَ اللهِ عزَّ وجَلّ، فلم يتعرَّضْ[1] لها[2].

وراودَ رجلٌ أعرابيةً، وقال لها: ما يَرانا إلا الكواكبُ. قالت: فأينَ مُكوكِبُها[3]؟!

وهذا كلُّه مِنْ ألطافِ اللهِ تعالى وحيلولَته بينَ العبدِ وبينَ معصِيَته.

قالَ الحسنُ ـ وذكرَ أهلَ المعاصي[4] ـ: هانُوا عليهِ فعَصَوه، ولو عَزُّوا عليه لعَصَمَهُم[5].

وقالَ بِشْرٌ: ما أَصَرَّ على معصيةِ اللهِ كريمٌ، ولا آثرَ الدُّنيا على الآخرةِ حكيمٌ[6].

ومِنْ أنواعِ حِفْظِ اللهِ لعبدِهِ في دِينه: أنَّ العبدَ قدْ يَسْعى في سببٍ مِنْ أسبابِ الدُّنيا، إمَّا الولاياتِ أو التجاراتِ أو غير ذلك، فيحولُ اللهُ بينَه وبينَ ما

---

(١) في (صل): «يعترض»، وفي (ت) و(ف) و(ب): «يعرض».

(٢) أخرجه التنوخي في «الفرج بعد الشدة» (١/ ٣٥٥)، والخرائطي في «اعتلال القلوب» (٨٥).

(٣) أخرجه الخرائطي في «اعتلال القلوب» (٨٣)، ونحوه البيهقي في «شعب الإيمان» (٨٥٢) (٨٥٣). وغيرهما.

(٤) «فقال»: زيادة من (س).

(٥) ذكره ابن الجوزي عن الحسن في «ذم الهوى» (ص: ١٨٤)، وذكره ابن الجوزي أيضاً في ترجمة الخليفة القادر بالله العباسي من «المنتظم» (١٤/ ٣٥٦) حيث نسبه الخليفة إلى الحسن. لكن أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٦١)، والبيهقي في «الشعب» (٦٨٣٦) من كلام أبي سليمان، ولفظه: «... ولو كرموا عليه لمنعهم منها».

وفي «الإبانة» لابن بطة (١٩٤٥) هو من كلام يحيى بن معاذ الرازي، ولفظه: «... ولو كرموا عليه لأطاعوه».

(٦) في (صل): «ما اجترأ». والأثر لم أجده عند غير المصنف.

أراده لما يعلَمُ له في ذلك مِنَ الخِيرةِ[١]، وهُو لا يشعرُ، مع كراهيتِه[٢] لذلك.

قال ابنُ مسعودٍ: إنَّ العبدَ ليهُمُّ بالأمرِ مِنَ التِّجارةِ والإمارةِ، حتى يتيسَّرَ[٣] له، فينظرُ اللهُ إليهِ، فيقولُ للملائكةِ: اصرِفُوه عَنْه، فإنِّي إنْ يَسَّرتُه لهُ أدخلْتُه النَّارَ، فيصرفُه اللهُ عنْه، فيظَلُّ يتطيَّرُ، يقولُ سَبَقني فلانٌ، دهاني فُلانٌ، وما هو إلا فَضْلُ اللهِ عزَّ وجَلَّ[٤].

وأَعجبُ مِنْ هذا أنَّ العبدَ قد يَطْلبُ باباً من أبوابِ الطَّاعاتِ، ولا يكونُ له فيه خِيرةٌ، فيحولُ اللهُ بينَه وبينه صيانةً له، وهو لا يَشْعُر.

وخَرَّجَ الطبرانيُّ وغيرُه مِنْ حديثِ أنسٍ مرفوعاً، يقول اللهُ عزَّ وجل: «إنَّ مِنْ عِبادي مَنْ لا يُصْلِحُ إيمانَه إلا الفقرُ، وإنْ بسطتُ عليهِ أفسَدَه ذلك، وإنَّ مِنْ عِبادي مَنْ لا يُصْلِحُ إيمانَه إلا الغِنى، ولو أَفْقَرتُه[٥] لأفسَدَه ذلكَ، وإنَّ مِنْ عبادي مَنْ لا يُصْلِحُ إيمانَه إلا الصِّحةُ، ولو أسقَمْتُه لأفسَدَه ذلك، وإنَّ مِنْ عِبادي مَنْ لا يُصْلِحُ إيمانَه إلا السَّقَم، ولو أَصحَحْتُه لأفسَدَه ذلك، وإنَّ مِنْ عبادِي مَنْ يطلُبُ باباً مِن العِبادة، فأكفُّه عنه لكي لا يدخُلَه العُجْبُ، إنِّي أُدبِّر عبادِي بِعلْمِي بما في قُلُوبهم، إنِّي عليمٌ خبيرٌ»[٦].

---

(١) في (ت) و(ف) و(س) و(ب): «من الخيرة في ذلك».

(٢) من (صل)، وفي سائر النسخ: «كراهته».

(٣) من (صل)، وفي سائر النسخ: «ييسر».

(٤) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١٢١٩).

(٥) في (س): «إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته».

(٦) لم أجد هذا الحديث في معاجم الطبراني ولا في «مسند الشامين»! وإنما أخرجه بطوله ابن أبي =

كانَ بعضُ المتقدمينَ يَكثِرُ سؤالَ الشَّهادةِ، فهَتَفَ به هاتفٌ: إنَّكَ إنْ غزوتَ أُسِرْتَ، وإنْ أُسِرتَ تَنصَّرتَ، فكفَّ عَنْ سُؤالهِ(١).

وفي الجُملة: فَمَنْ حَفِظَ حدودَ اللهِ، وراعَى حقوقَه، تولَّى اللهُ حِفظَه في أُمورِ دينِهِ ودُنياه، وفي دنياه وآخرَته، وقدْ أخبرَ اللهُ تعالى في كِتابِه أنَّه وليُّ المؤمنينَ. وأنَّه يتولَّى الصَّالحين، وذلكَ يتضمَّنُ أنَّه يتولى مصالِحَهم في الدُّنيا والآخرة، ولا يَكِلُهُم إلى غيرِهِ. وقالَ تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقالَ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١]، وقالَ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، وقالَ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦] فَمَنْ قامَ بحقوقِ اللهِ عليه فإنَّ اللهَ يتكفَّلُ لهُ بالقيامِ بجميعِ مصالحِهِ في الدُّنيا والآخِرةِ، فمَنْ أرادَ أنْ يتولَّى اللهُ حفظَه ورعايَتَه في أُمورِه كلِّها فليراعِ حُقوقَ اللهِ عليه، ومَنْ أرادَ ألا يُصِيبَه شيءٌ مما يكرَهُ فلا يأتِ شَيئًا مما يكرَهُه اللهُ مِنْه.

= الدنيا في «الأولياء» (١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٣١)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٣١٨)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٧/ ٩٦).

ومداره على الحسن بن يحيى الخشني، عن صدقة بن عبد الله الدمشقي، عن هشام الكناني، عن أنس.

قال المصنف رحمه الله في «جامع العلوم والحكم» ـ وقد عزاه للطبراني ـ «والخشني وصدقة ضعيفان، وهشام لا يُعرف، وسئل ابن معين عن هشام هذا: من هو؟ قال: لا أحد يعني أنه لا يُعتبر به».

(١) ذكره ابن الجوزي في «صيد الخاطر» (ص: ٨٣)، و(ص: ١٧١) عن بعض السلف.

ونقل ابن قتيبة في «عيون الأخبار» (٢/ ٣٩٤) عن الفضيل بن عياض رحمه الله قوله: «استخيروا الله ولا تخيروا عليه، فكم من عبد تخير لنفسه أمراً كان هلاكه فيه، أما رأيتموه سأل ربه طرسوسَ فأعطيها، فأسر فصار نصرانياً».

كانَ بعضُ السَّلفِ يدورُ على المجالِسِ، ويقولُ: مَنْ أحبَّ أنْ تدومَ له العافيةُ فليتقِ اللهَ [تعالى][1].

وقالَ العُمَريُّ الزاهدُ لمنْ طلبَ منهُ الوصيَّةَ: كما تُحِبُّ أنْ يكونَ اللهُ لكَ فكُنْ للهِ عزَّ وجلَّ[2].

وقالَ صالحُ بنُ عبدِ الكريمِ: يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: وعِزَّتي وجلالي لا أُطْلِعُ على قلبِ عبدٍ أعلمُ أنَّ الغالِبَ عليه حُبُّ التَّمَسُّكِ بطاعتي إلا وَلِيتُ سياسَتَه وتقويمَه[3].

وفي بعضِ الكُتُبِ المتقدِّمةِ: يقولُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: ابنَ آدم، لا تُعَلِّمْني بما يُصْلِحُك، ابنَ آدم اتقني ونَمْ حيثُ شئتَ[4].

والمعنى: أنَّك إذا قُمتَ بما عليكَ للهِ منْ حقوقِ التَّقوى فلا تهتمَّ بعدَ ذلكَ بمصالحِكَ، فإنَّ اللهَ هو أعلَمُ بها مِنْكَ، وهو يوصِلُها إليكَ على أتمِّ الوجوهِ من غيرِ اهتمامٍ منكَ بها.

وفي حديثِ جابرٍ عن النبيِّ ﷺ: «مَنْ كانَ يحِبُّ أنْ يعلمَ منزِلَته عندَ اللهِ، فلينظُرْ كيفَ منزلةُ اللهِ عندَه، فإنَّ اللهَ يُنزِلُ العبدَ منهُ حيثُ أنزلَه مِنْ نفسِه»[5].

---

(١) أورده ابن الجوزي في «صيد الخاطر» (ص: ٣١).

(٢) المثبت من (ص ل)، وفي سائر النسخ: «فهكذا كن له». والأثر أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٢٣)، ولفظه: «كما تحب أن يكون الله لك غداً فكن له اليوم».

(٣) أخرجه ابن قدامة المقدسي في «المتحابين في الله» (٥٤). وصالح بن عبد الكريم بغدادي عابد توفي سنة ٢٠٨ رحمه الله تعالى، مترجم في «تاريخ بغداد» (١٠/ ٤٢٤). والأثر كأنه إسرائيلي.

(٤) أورده قوام السنة في «سير السلف الصالحين» (ص: ٩٥٠) في أطول منه ـ وليس عنده الجملة الأخيرة ـ مما قرأه وهب بن منبه رحمه الله.

(٥) أخرجه الحاكم (١/ ٩٤) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأخرجه غيره: كأبي يعلى (١٨٦٥) =

فهذا يدلُّ على أنَّه على قَدْرِ اهتمامِ العبدِ بحقوقِ اللهِ وبأداءِ حقوقه، ومراعاةِ حدودِه، واعتنائِه بذلكَ، وحفظِه له، يكونُ اعتناءُ ربِّه به وحفظُه له، فمَنْ كانَ غايةَ هَمِّه رضَا اللهِ عنه وطلبُ قُربه ومعرفَتِه ومحبَّته وخدمَته فإنَّ اللهَ يكونُ له على حَسْبِ ذلك، كما قالَ تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، بل هو سبحانَه أكرمُ الأكرمين، فهو يُجازي بالحسنةِ عَشْراً ويزيدُ، ومَنْ تقرَّبَ منه شِبراً تقرَّبَ منه ذِراعاً، ومَنْ تقرَّبَ منه ذِراعاً تقرَّبَ مِنْه بَاعاً، ومَنْ أتاهُ يمشِي أتاهُ هرولةً[1]، فما يُؤتى الإنسانُ إلا مِنْ قِبلَ نفسِه، ولا يُصيبُه المكروهُ إلا مِنْ تَفْريطِهِ في حَقِّ ربِّه عزَّ وجل، كما قالَ عليٌّ رضي اللهُ عنهُ: لا يَرجُونَّ عبدٌ إلا ربَّه، ولا يخافَنَّ إلا ذَنْبَه[2].

وقالَ بعضُهم: مَنْ صَفَّى صُفِيَ له، ومَنْ خَلَّطَ خُلِّطَ عليه[3].

وقالَ ابن مسروقٍ: مَنْ راقبَ اللهَ في خَطَراتِ قَلْبه عَصَمَه اللهُ في حَرَكاتِ جَوارِحه[4].

= (٢١٣٨)، والطبراني في «الأوسط» (٢٥٠١).

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (٧٤٠٥) ومسلم من حديث أبي هريرة (٢٦٧٥) ومن حديث أبي ذر (٢٦٨٧).

(٢) أخرجه في ضمن وصية: العدني في «الإيمان» (١٩)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٧٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٢٦٧)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٥٤٨)، وغيرهم، من وجوه عن علي رضي الله عنه.

(٣) من كلام مطرف بن عبد الله بن الشخير رحمه الله تعالى. أخرجه ابن أبي شيبة (٣٦٧٤٠).

(٤) أخرجه ابن الجوزي في «ذم الهوى» (ص: ١٤٥)، ذكره القشيري في «الرسالة» (١/ ١٠٠).
وابن مسروق هو أبو العباس أحمد بن محمد بن مسروق المتوفى ببغداد سنة ٢٩٩ رحمه الله، لا صلة له بالتابعي الجليل مسروق بن الأجدع رحمه الله تعالى.

وبَسْطُ هذا المعنى يطولُ جِدًّا، وفيما أشرنا إليه كفايةٌ، ولله الحمدُ[1].

***

وقولهُ ﷺ: «احفَظِ اللهَ تجدهُ أمامَك» وفي رِوايةٍ أُخرى: «تُجاهك» معناهُ: أنَّ مَنْ حَفِظَ حدودَ اللهِ وراعى حُقُوقَه وجَدَ اللهَ معَه في جميعِ الأحوالِ يحوطُه وينصُره ويحفظُه ويوفِّقُه ويؤيِّدُه ويسدِّدُه، فإنَّه تعالى قائمٌ على كُلِّ نفسٍ بما كَسَبَتْ، وهو تَعالى معَ الذينَ اتَّقوا والذينَ هُمْ مُحسِنُون.

قالَ قتادةُ: مَنْ يتقِ اللهَ يكنْ معَه، ومَنْ يكُن اللهُ معه فمَعَه الفئةُ التي لا تُغْلَبُ، والحارسُ الذي لا ينامُ، والهادي الذي لا يَضِلّ[2].

كتبَ بعضُ السَّلَفِ إلى أخٍ له: أمَّا بعدُ: فإنْ كانَ اللهُ معَكَ فمَنْ تخاف؟ وإنْ كانَ عليكَ فمَنْ ترجُو؟ والسَّلام[3].

وهذهِ المعيَّةُ الخاصَّةُ بالمتَّقين غيرُ المعيَّةِ العامَّةِ المذكورةِ في قولِهِ تَعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقولِه: ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨] فإنَّ المعيَّة الخاصَّة تقتضي النَّصرَ والتأييدَ والحِفْظَ والإعانةَ، كما قال تَعالى لموسى وهارونَ: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] وكانَ ﷺ قد قالَ لأبي بكرٍ الصديقِ رضي الله عنه في تلكَ الحالِ: «ما ظنُّكَ باثنينِ اللهُ ثالثُهما»[4]، فهذا غيرُ المعنى المذكورِ في قولِهِ تَعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن

---

(١) في حاشية (س) و(ب): «بلغ مقابلة».

(٢) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٣٣٩).

(٣) ذكره المصنف أيضاً في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٧١). وفي (ت) و(ب): «فممن تخاف».

(٤) وذلك في الغار يوم الهجرة. أخرجه البخاري (٤٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨١).

نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧]، فإنَّ ذلكَ عامٌّ لكلِّ جماعةٍ.

ومِنْ هذا المعنى الخاصِّ الحديثُ الإلهيُّ، وقولُه فيه: «ولا يزالُ عبدِي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتَّى أُحِبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يَسمَعُ به، وبصرَه الذي يُبصِرُ به، ويدَه التي يبطِشُ بها، ورجِلَه التي يمشِي بها»[١]، إلى غيرِ ذلكَ من نُصوصِ الكتابِ والسُّنَّةِ، الدَّالَّةِ على قُربِ الرَّبِّ سُبحانه ممَّن أطاعَه واتَّقاه، وحَفِظَ حدُودَه وراعَاه.

دَخلَ بنانٌ الحَمَّالُ البرِّيَّةَ على طريقِ تَبوك، فاستوحشَ فهتَفَ به هاتفٌ: لَمَ تستوحشُ؟ أليسَ حبيبُكَ معكَ[٢]؟ فمن حَفِظَ اللهَ وراعى حُقوقَه، وجَدَه أمامَه وتُجاهَه على كلِّ حالٍ، فاستأنسَ به واستغنى به عَنْ خَلْقِه.

وفي الحديثِ: «أفضَلُ الإيمانِ أنْ يعلَمَ العبدُ أنَّ اللهَ معَهُ حيثُ كانَ» خَرَّجَهُ الطَّبرانيُّ وغيرُه[٣]. وبَسطُ القولِ في هذا يطُولُ جِداً.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ذكره ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (١/ ٥٣٦).

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨٧٩٦) وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٢٤) من حديث عبادة بن الصامت ولفظه: «إن أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت».

وأخرج الطبراني في «الصغير» (٥٥٥) من حديث عبد الله بن معاوية الغاضري مرفوعاً في حديث وسئل ﷺ عن تزكية النفس، فقال: «أن يعلم أن الله عز وجل معه حيث كان»، وأصله في «سنن أبي داود» (١٥٧٧) دون هذا.

كانَ بعضُ العُلماءِ الرَّبانيِّينَ كثيرَ السَّفرِ على التَّجرِيدِ[١] وحدَه، فخَرَجَ الناسُ مرَّةً معَه يودِّعُونه فردَّهُم، وأنشَدَ:

إذا نَحنُ أَدْلَجنا وأنتَ أمَامَنا … كفى لمطايانا بذِكْرِكَ هَاديا[٢]

وكان الشبليُّ ينشِدُ هذا البيتَ، وربَّما قَطَعَ مجلِسَه عَلَيه[٣].

* * *

قولُه ﷺ: «تعرَّفْ إلى اللهِ في الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ في الشِّدَّة»: المعنى: أنَّ العبدَ إذا اتَّقى اللهَ وحَفِظ حُدودَه ورَاعى حُقوقَه في حال رَخائِه وصِحَّته فقدْ تعرَّفَ بذلكَ إلى اللهِ، وكانَ بينَه وبينَه معرفةٌ، فعرَفَه ربُّه في الشِّدَّةِ، وعَرَفَ له عَمَلَه في الرَّخاءِ، فنجَّاهُ مِنَ الشَّدائِدِ بتلكَ المعرفةِ، وهذه أيضاً معرفةٌ خاصَّةٌ تقتَضِي القُربَ مِنَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، ومحبَّته لعبدِه وإجابَتَه لدُعائه، وليسَ المرادُ بها المعرفةَ العامَّة، فإنَّ اللهَ لا يخفَى عليهِ حالُ أحدٍ مِنْ خَلْقِه، كما قالَ تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]، وقالَ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦] وهذا التَّعرُّفُ الخاصّ هو المُشَارُ إليهِ في الحديثِ الإلهيِّ: «ولا

---

(١) قال الكلاباذي في «التعرف لمذهب أهل التصوف» (ص: ١١١): معنى التجريد: أن يتجرد بظاهره عن الأعراض، وبباطنه عن الأعواض.

(٢) هو الإمام الجليل أبو الفضل عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن بن بندار العجلي المقرئ، المتوفى سنة (٤٥٤هـ) رحمه الله تعالى. والقصة ذكرها الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ١٣٧). وبيت الشعر لعمر بن شاس الأسدي، وهو شاعر أسلم ولقي النبي ﷺ.

(٣) أخرجه الحنائي في «فوائده» (٣٤).

يزالُ عبدِي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتى أُحبّه ـ إلى أن قال ـ: وإنْ[١] سألني لأعطِينَّه، ولئن استعاذَنِي لأعُيذَنَّه»[٢].

وفي روايةٍ: «ولئن دَعَاني لأُجِيبَنَّه»[٣].

اجتمعَ الفضيلُ بشَعْوانَةَ العابِدة، فسأَلها الدعاءَ، فقالت: يا فُضيل، وما[٤] بينَك وبينَه ما إنْ دعَوْته أجابَك؟ فشَهَقَ الفضيلُ شهقةً خَرَّ مغْشِيًّا عليه[٥].

وقالَ أبو جَعفر السَّايحُ: أَتَى الحَسَنُ إلى حَبيبٍ أبي محمّد هارِباً مِنَ الحجَّاجِ، فقالَ: يَا أَبا محمدٍ احفَظْنِي مِنَ الشُّرَطِ، هم على إثرِي، فقال: استحييتُ لكَ يا أبا سعيدٍ، ليسَ[٦] بينَكَ وبينَ ربِّكَ منَ الثِّقةِ[٧] ما تدعُوه فيسترُكَ مِنْ هؤلاءِ؟! ادخُلْ البيتَ، فدخَلَ، ودَخَلَ الشُّرَطُ على إثرِهِ فلَمْ يرَوْه، فَذُكِرَ[٨] ذلكَ للحجَّاجِ، فقال: بلْ كانَ في بَيْتِه إلا أَنَّ اللهَ طَمَسَ[٩] أَعينَهم فلَمْ يَرَوه[١٠].

ومتى حَصَلَ هذا التَّعرُّفُ الخاصُّ للعَبْدِ: حَصَلَ للعبدِ معرفةٌ خاصَّةٌ بربِّه،

---

(١) هكذا في البخاري، وقد جاء في (صل) و(ش): «فلئن»، وفي سائر النسخ: «ولئن».

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وفي (ت): «استعاذ بي».

(٣) أخرجه البزار (٨٧٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) في (س): «أوما».

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١١٣) بنحوه.

(٦) في (ت) و(ف) و(س) و(ب): «أليس».

(٧) في حاشية (س): «المعرفة».

(٨) في (س): «فذكروا».

(٩) في (س): «طمس على».

(١٠) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٢/ ٤٨).

تُوجِبُ لـه الأُنسَ بـهِ والحياءَ منه، وهـذه معرفـةٌ خاصَّـةٌ غيـرُ معرفـةِ المؤمنيـنَ العامَّـة، ومـدارُ العارفيـنَ كلِّهـم علـى حُصُـولِ هـذهِ المعرفـةِ وهـذا التَّعـرف، وإشـاراتُهم تومـئُ إلـى هَذا.

سَمِعَ أبو سليمانَ رجُلاً يقولُ: سَهِرتُ البارِحَةَ في ذِكر النِّساءِ، فقالَ: ويحَكَ أَمَا تَسْتَحيي مِنْهُ يراكَ سَاهِراً في ذِكْرِ غيرِه، ولكنْ كيفَ تَستَحْيي ممَّنْ لا تَعْرِفُ[1].

وقالَ أحمدُ بن عاصمٍ الأَنطاكيُّ: أُحِبُّ أَلَّا أموتَ حتَّى أعرفَ مولاي، وليسَ معرفتُه الإقرارَ بهِ، ولكن المعرفةُ الذي إذا عرفتُه استحييتُ مِنْه[2].

وهذه المعرفةُ الخاصَّةُ والتعرُّفُ الخاصُّ يوجبُ طمأنينةَ العبدِ بربِّه، وثقتَه به في إنجائِه من كُلِّ شدَّةٍ وكَرْبٍ، وتوجِبُ استجابةَ الربِّ دعاءَ عبدِه.

لمَّـا اختفَـى الحسـنُ البصـريُّ مـنَ الحَجَّاجِ قيـلَ له: لـو خرجتَ مـن البصرةِ فإنَّـا نخـافُ أن يُـدَلَّ عليـكَ، فبكى، ثم قـال: أَخرجُ مِـنْ مِصرِي وأهلِـي وإخواني؟ إنَّ معرفَتـي بربِّـي وبنِعَمِـه[3] علـيَّ تدلُّني علـى أنَّه[4] سـيُنجِيني، ويخلِّصنـي منهُ إنْ شـاءَ اللهُ تعالـى، فمـا ضَـرَّه الحجـاجُ بشـيءٍ، ولقـد كانَ يكرِمُـه بعـدَ ذلـكَ إكرامـاً شـديداً، ويُحسِـنُ ذِكْرَه[5].

وقالَ رجلٌ لمعروفٍ: ما الذي هيَّجكَ على الانقطاعِ والعبادَةِ وذِكرِ الموتِ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٢٦٥)، ولفظه: «ساهراً في ذكر النساء».

(٢) سـقط الأثـر مـن (صـل)، و(ش). وأخرجه ابن عسـاكر فـي «تاريخ دمشـق» (مختصر ابـن منظور ٣/ ١٢٨).

(٣) في (س): «وبنعمته».

(٤) في (س): «أن».

(٥) لم أجده عند غير المصنف.

والبرزَخِ والجنَّةِ والنَّارِ؟ فقالَ معروفٌ: أيُّ شيءٍ هذا؟ إنَّ مَلِكاً هذا كله[١] بيدِه، إنْ كانتْ بينَكَ وبينَه معرفةٌ كفاكَ جميعَ هذا[٢].

وممّا يُبيِّنُ هذا ويُوضِحُه: الحديثُ الذي خرَّجه التِّرمذيُّ من حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ: «مَنْ سَرَّه أنْ يستجيبَ اللهُ له عِنْد الشدائِدِ فليُكثِر الدعاءَ في الرَّخَاءِ»[٣].

وخَرَّج ابنُ أبي الدنيا وابنُ أبي حاتم وابنُ جَريرٍ[٤] وغيرُهم، من حديثِ يزيدَ الرَّقاشيِّ، عن أنسٍ يرفعُ الحديثَ[٥] أنَّ يُونسَ عليه السَّلام لمَّا دعا، وهو في بطنِ الحوتِ، قالت الملائكةُ: يا رب هذا صوتٌ معروفٌ من[٦] بلادٍ غريبةٍ، فقالَ اللهُ تعالى: أما تعرفونَ ذلك؟ قالوا: ومَنْ هو؟ قالَ: عبْدي يُونس. قالوا: عبدك يونس[٧] الذي لم يزلْ يُرفَعُ له عملٌ متقبَّلٌ ودعوةٌ مستجابةٌ؟ قال: نعمْ. قالوا: يا رب أفلا ترَحَم ما كانَ يصنعُ في الرَّخاءِ فتنجِيَه مِنَ البلاءِ؟ قال: بلى، فأمرَ اللهُ الحوتَ فطرحَهُ بالعَرَاء[٨].

---

(١) في (صل): «كل هذا».

(٢) ذكره أبو طالب المكي في «قوت القلوب» في الفصل ٣٢، المقام التاسع من مقامات اليقين، وعنه الغزالي في «الإحياء». ومعروفٌ هو الكرخي رضي الله عنه.

(٣) في (صل): «عند الرخاء». والحديث أخرجه الترمذي (٣٣٨٢) وقال غريب.

(٤) تصحف في (ش) إلى: «جريج».

(٥) في (س): «يرفعه».

(٦) في (س): «في».

(٧) «قالوا عبدك يونس» سقط من (صل) و(ف).

(٨) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٥٥٨)، وابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» (٣٢)، والطبري (١٩/ ٦٢٨)، وابن أبي حاتم (١٣٧١٠)، والطبراني في «الدعاء» (٤٧).

وقالَ الضَّحَّاكُ بنُ قيسٍ: اذكُروا اللهَ في الرَّخاءِ يذكُرْكُم في الشِّدَّةِ، إنَّ يونسَ عليه السلام كانَ يذكرُ اللهَ، فلمَّا وقعَ في بطنِ الحوتِ قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣ ـ ١٤٤]، وإنَّ فرعونَ كانَ طاغِياً ناسِياً لِذكر اللهِ تعالى، فلما أدركَهُ الغَرَقُ قال: آمنتُ، فقالَ له اللهُ تعالى: ﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١][(١)].

وقالَ رَاشِدُ بنُ سعدٍ: قالَ رجلٌ لأبي الدَّرداءِ: أوصِني. فقال: اذكر اللهَ في السَّراءِ يذكرْكَ في الضَّراءِ[(٢)].

وقالَ سلمانُ الفارسيُّ: إذا كانَ الرَّجُلُ دَعَّاءً في السَّراءِ، فنزلتْ به ضرَّاءُ، فدعا اللهَ عزَّ وجلَّ قالتْ الملائكةُ: صوتٌ معروفٌ، فشَفَعُوا له، وإذا كانَ ليسَ بدَعَّاءٍ في السَّراءِ، فنزلت به ضراء فدعا اللهَ عزَّ وجلَّ، قالت الملائكةُ: صَوتٌ ليسَ بمعروفٍ فلا يشفعونَ له[(٣)].

وحديثُ الثَّلاثةِ الذينَ دَخلوا الغارَ وانطبقت[(٤)] عليهمُ الصَّخْرةُ[(٥)] يشهدُ لهذا

---

(١) أخرجه الطبري (١٢/ ٢٧٧) و(١٩/ ٦٣٠). وسقط هذا الأثر من (صل)، وجاء بدله: «وأما فرعون فلما لم يتعرف إلى الله في الرخاء لم يَعرفه في الشدة، فقيل له لما نادى: ﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾».

(٢) سقط هذا الأثر من (صل). وتحرف راشد إلى رشدين في (ف) و(س) و(ب)، والمطبوعات. وهو راشد بن سعد المقرائي الحمصي التابعي رحمه الله تعالى. والأثر أخرجه أبو داود في «الزهد» (٢١٧)، وابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» (٧٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٠٩) من وجه آخر.

(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على «الزهد» لأبيه (١٨١٩).

(٤) في (ف) و(ب): «وأطبقت».

(٥) أخرجه البخاري في مواضع منها (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

أيضاً فإنَّهم[1] فُرِّجَ عنهم بدُعائِهم للهِ بما كانَ سبقَ منهم منَ الأعمالِ الخالِصةِ له في حالِ الرَّخاءِ، مِنْ برِّ الوالدينِ وتركِ الفُجور وأداءِ الأمانةِ الخفيَّةِ.

فإذا عُلِمَ أنَّ التعرُّفَ إلى اللهِ في الرَّخاءِ يُوجِبُ معرفةَ اللهِ لعبدِه في الشِّدَّةِ، فلا شِدَّةَ يلقَاها المؤمنُ[2] في الدُّنيا أعظَمُ مِنْ شدَّةِ الموتِ، وهي أهونُ ممَّا بعدَها، إنْ لم يكنْ مصيرُ العبدِ إلى خيرٍ، وإنْ كانَ مصيرُه إلى خيرٍ فهي آخرُ شِدَّةٍ يلقاها.

فالواجِبُ على العَبْدِ: الاستعدَادُ للموتِ قبلَ نزُولِه، بالأعمالِ الصَّالحةِ والمبادَرَةِ إلى ذلكَ، فإنَّه لا يَدْري المرءُ متى تنزلُ بِهِ هذه الشِّدَّةُ مِنْ ليلٍ أو نهارٍ. وذِكرُ الأعمالِ الصَّالحةِ عندَ الموتِ مما يُحَسِّنُ ظنَّ المؤمنِ بربِّه ويهوِّنُ عليه شِدَّةَ الموتِ ويُقوِّي رجاءَه.

قالَ بعضُهم: كانوا يستحبُّونَ أنْ يكونَ للمرءِ خَبيئَةٌ مِنْ عَمَلٍ صَالحٍ[3]، ليكونَ أهونَ عليهِ عندَ نزولِ الموتِ، أو كما قال.

وكانوا يستحبُّونَ أنْ يموتَ الرَّجلُ عَقِبَ[4] طاعةٍ عمِلها من حَجٍّ أو جِهادٍ أو صِيامِ رمضانَ[5].

---

(١) في (س): «فإن الله».

(٢) في (س): «العبد» وفي الحاشية ما يوافق المثبت.

(٣) قاله عبد الله بن داود الخريبي رحمه الله تعالى، وتتمة قوله: «لا تعلم به زوجته ولا غيرها». ذكره عنه المزي في «تهذيب الكمال» (١٤/ ٤٦٤). ويُروى عن الزبير بن العوام رضي الله عنه: «من استطاع أن تكون له خبيئة من عمل صالح فليفعل»، أخرجه المروزي في زوائده على «الزهد» لابن المبارك (١١٠٩) وغيره، وأخرجه الضياء في «المختارة» (٨٨٣)، وذكر له رواية مرفوعة (٨٨٤) والصحيح موقوفاً.

(٤) في (ش)، و(ف) و(ب): «عقيب».

(٥) كما في حديث أنس رضي الله عنه عند الترمذي (٢١٤٢) مرفوعاً: «إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله» فقيل كيف يستعمله يا رسول الله؟ قال: «يوفقه لعمل صالح قبل الموت».

وقالَ النَّخعيُّ: كانوا يستحبُّونَ أنْ يُلقِّنوا العبد محاسن عمله عند موته، لكي يُحسِنَ ظنَّه بربِّه[١].

قالَ أبو عبدِ الرحمنِ السُّلَميُّ في مرضِه: كيف لا أرجو، وقدْ صُمْتُ له ثمانين رمضان؟[٢]

ولما احتُضِرَ أبو بكرِ بنُ عيَّاشٍ، وبَكَوا عليه قالَ: لا تَبْكوا فإنِّي ختمتُ القرآنَ في هذه الزَّاويةِ ثلاثةَ عشر ألفِ خَتْمَةٍ[٣].

ورُويَ عنه أنَّه قالَ لابنِه: أتُرى اللهَ يضيِّعُ لأبيكَ أربعينَ سنةً يختمُ القرآنَ كلَّ ليلةٍ؟[٤]

وقالَ بعضُ السَّلَفِ لابنِه عندَ موتِه، ورآه يبكي: لا تبكِ فما أتى أبوكَ فاحشةً قطُّ[٥].

وخَتَمَ آدمُ بنُ أبي إياسٍ القرآنَ وهو مسجًّى للموتِ، ثم قالَ: بحُبِّي لكَ إلا رفقتَ بي في هذا المصرَعِ، كنتُ أُؤملكَ لهذا اليومِ، كنتُ أرجوكَ، لا إله إلا الله، ثم قضَى رَحِمَهُ الله[٦].

وكانَ عبدُ الصَّمَدِ الزَّاهدُ يقولُ: عندَ موتِهِ: سيِّدي لهذه الساعةِ خبأتك، ولهذا اليومِ اقتنيتُكَ حقِّقْ حُسنَ ظنِّي بكَ[٧].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن بالله» (٣٠)، وفي «المحتضرين» (٢٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٧٦).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن بالله» (١٢٧)، وفي «المحتضرين» (٢٩٠) وغيره.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٠٤) وفي المطبوع منه: «ثمانية عشر».

(٤) أخرجه ابن الجوزي في «الثبات عند الممات» (ص: ٧٠). وفي (ف) و(س) و(ب): «أن الله يضيع».

(٥) وهو أبو بكر بن عياش رحمه الله. أخرجه ابن أبي الدنيا في «المحتضرين» (٣٣٦).

(٦) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٧/ ٤٨٩).

(٧) وهو عبد الصمد بن عمر الدينوري الفقيه الواعظ الزاهد، المتوفى سنة (٣٩٧هـ) رحمه الله تعالى. =

وقالَ ابنُ عَقِيلٍ عندَ موتِهِ، وقدْ بكى النِّسوةُ: قَدْ وَقَّعتُ عنهُ خمسينَ سنةً، فدعُوني أتهنَّى بلقائِهِ[١].

لما هجمَ القرامطةُ على الحُجَّاجِ[٢] وقَتلوهُم في الطَّوافِ، كانَ عليُّ بنُ بابويه[٣] الصوفيُّ يطوفُ، فلمْ يقطعِ الطوافَ، والسيوفُ تأخُذُه حتَّى وقعَ، وَأنشَدَ[٤]:

تـرى المحبِّيـنَ صرعـى فـي دِيارِهِمُ كفتيـةِ الكهـفِ لا يـدرونَ كـم لَبِثُـوا
تـاللهِ لو حـلـفَ الأحـبـابُ أنـهُـمُ موتـى مِنَ البَيْنِ[٥] يومَ البَيْنِ ما حَنِثُوا[٦]

فمَنْ أطاعَ اللهَ واتَّقاه، وحَفِظَ حدودَه في حياتِهِ: تولَّاهُ اللهُ عندَ وفاتِه، وتوفَّاه على الإيمانِ، وثبَّته بالقَولِ الثَّابتِ في القَبْرِ عندَ سؤالِ المَلَكَين، ودفعَ عنهُ عذابَ القَبْرِ، وآنسَ وَحْشَتَه في تلكَ الوَحدةِ والظُّلْمَةِ.

قـالَ بعـضُ السَّـلف: إذا كانَ اللهُ معـكَ عنـدَ دخـولِ[٧] القبرِ، فلا بـأسَ عليك ولا وحـشة[٨].

= والخبر ذكره ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (١/ ٥٥٤)، والسبكي في «طبقات الشافعية الكبرى» (٣/ ٣٢٩).

(١) ذكره ابن الجوزي في «الثبات عند الممات» (ص: ١٧٨).

(٢) في (ش) و(ف) و(ب): «الحاج».

(٣) في (ف) و(س) و(ب): «باكويه» تصحيف.

(٤) في (ش) و(ف) و(ب): «فأنشد».

(٥) في (ش): «بين».

(٦) وكان ذلك سنة (٣١٧هـ). والخبر ذكره ابن الجوزي في «الثبات عند الممات» (ص: ١٧٥).

(٧) في (ف) و(ب): «دخولك».

(٨) كتب به محمد بن يوسف الأصبهاني العابد إلى أخيه رحمهما الله. أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٢٣٦).

ورُئِيَ بعضُ العلماءِ الصَّالحينَ في النَّوم بعدَ موتهِ، فسُئِلَ عن حاله فقال: يؤنِسُني ربِّي عزَّ وجلَّ[١].

فمَنْ كانَ اللهَ سبحانَه وتعالى أنيسَه في خلواته في الدُّنيا: فإنَّه يُرجى أنْ يكونَ أنيسَه في ظُلماتِ اللُّحودِ إذا فارقَ الدُّنيا وتخلَّى عنها، وفي هَذا المعنى يقولُ بعضُهم[٢] (شعر):

فيا ربِّ كنْ لي مُؤنساً يومَ وحشَتي ... فإنِّي بما[٣] أنزلتَه لَمُصَدِّقُ

وما ضَرَّني أنِّي إلى اللهِ صائرٌ ... ومَنْ هُو مِنْ أهلِي أبرُّ وأرفَقُ

وكذلكَ أهوالُ يومِ القيامةِ، وأفزاعُها وشدائدُها، إذا تولَّى اللهُ عبدَه المطيعَ له في الدُّنيا أنجاهُ مِنْ ذلكَ كلِّه.

قالَ قتادةُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ [الطلاق: ٢] قالَ: منَ الكربِ عندَ الموتِ، ومِنْ أفزاعِ يومِ القيامةِ[٤].

وقالَ عليُّ بنُ أبي طلحةَ، عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما في هذهِ الآيةِ: يُنَجِّيه مِنْ كلِّ كَربٍ في الدُّنيا والآخرةِ[٥].

---

(١) هو ابن أبي عاصم، أحمد بن عمرو رحمه الله تعالى. أخرجه أبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٢/ ١٠١) وابن عساكر (٥/ ١٠٧).

(٢) هو الإمام الجليل الموفق ابن قدامة المقدسي الحنبلي رحمه الله. من قصيدة ذكرها المصنف ابن رجب في «ذيل طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٩٦).

(٣) في (س) و(ب): «لما».

(٤) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٣٤٠)، وليس في الموجود من تفسير ابن أبي حاتم.

(٥) عزاه إلى ابن أبي حاتم: السيوطي في «الدر المنثور» (١٤/ ٥٣٧)، وليس في الموجود من ابن أبي حاتم.

وقالَ زيدُ بنُ أسلمَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠] قال: يبشَّرُ بذلكَ عندَ موتِهِ، وفي قَبْرِه، ويومَ يُبعَثُ، فإنَّه لفي الجنَّةِ وما ذهبتْ فرحةُ البِشارةِ مِنْ قَلْبِه[١].

وقالَ ثابتٌ البُنَانيُّ في هذهِ الآيةِ: بلغَنَا أنَّ المؤمنَ حينَ[٢] يبعثُه اللهُ مِنْ قبرِهِ يتلقاهُ ملكاهُ[٣] اللذانِ كانا معَه في الدُّنيا، فيقولانِ له: لا تَخفْ ولا تَحزنْ، فيؤمِّنُ اللهُ خوفَه، ويُقِرُّ اللهُ عينَه، فما مِنْ عظيمةٍ تَغشى[٤] الناسَ يومَ القيامةِ إلا وهي للمؤمنِ قُرَّةُ عينٍ لما هَدَاه اللهُ، ولما كانَ يعملُ في الدُّنيا[٥].

خَرَّجَ ذلكَ كلَّه ابنُ أبي حاتمٍ وغيرُه.

وأمَّا مَنْ لم يتعرفْ إلى اللهِ في الرَّخاءِ، فليسَ لهُ مَنْ يعرفُه في الشِّدَّةِ لا في الدُّنيا ولا في الآخرةِ.

وشواهدُ هذا مشاهدةُ حالِهم في الدُّنيا، وحالُهم في الآخرةِ أشدُّ، وما لهمْ مِنْ وليٍّ ولا نصيرٍ.

* * *

وقولُه ﷺ: «إذا سَألتَ فاسْألِ اللهَ» أمرٌ[٦] بإفرادِ اللهِ عزَّ وجلَّ بالسؤالِ، ونهيٌ عن سؤالِ غيرِهِ من الخلقِ، وقد أمرَ اللهُ تعالى بسؤالِهِ فقالَ: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢].

---

(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١٣/ ١٠٧) إلى ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم.

(٢) من (صل): وفي سائر النسخ: «حيث».

(٣) في (س): «الملكان».

(٤) في (صل): «يغشى»، وفي «الدر المنثور»: «يخشى الناسُ».

(٥) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١٣/ ١٠٨) إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٦) في (س): «هذا أمر».

وفي الترمذيِّ عن ابنِ مسعودٍ مرفُوعاً: «سلُوا الله منْ فَضْله، فإنَّ اللهَ يُحِبُّ أنْ يُسأَلَ»[1].

وفيهِ عَنْ أبي هُريرة رضيَ الله عنه مرفُوعاً: «مَنْ لا يسألِ اللهَ يغضبْ عليه»[2].

وفيهِ أيضاً: «إنَّ اللهَ يحِبُّ الملِحِّينَ في الدُّعاء»[3].

وفي حديثٍ آخَر: «ليسألْ أحدُكم ربَّه حاجَتَه كلَّها، حتَّى يسأله[4] شِسْع نَعلِه إذا انقَطَعَ»[5].

وفي[6] المعنى أحاديثُ كثيرةٌ، وفي النَّهي عَنْ سُؤالِ الخَلْقِ أحاديثُ كثيرةٌ صحيحةٌ.

وفي حديثِ مسعودِ بن عمروٍ مرفوعاً[7]: «لا يزالُ العبدُ يسألُ وهو غَنِيٌّ حتَّى يَخْلَقَ وجهُهُ، فما يكونُ له عندَ اللهِ وجهٌ»[8].

وقد بايعَ النبيُّ ﷺ جماعةً مِنْ أصحابِهِ على أنْ لا يَسأَلُوا النَّاسَ شيئاً منهُم

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٧١).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٧٣).

(٣) بل أخرجه الطبراني في «الدعاء» (٢٠) وغيره، من حديث عائشة رضي الله عنها. وليس هو في الترمذي.

(٤) في (ف): «يسأل».

(٥) أخرجه الترمذي (٣٩٧٣) من حديث ثابت عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً، وصوّب إرساله.

(٦) في (س): «في هذا».

(٧) كتب في (ف) و(ب): «حديث ابن مسعود مرفوعاً»، وفي (س): «حديث ابن مسعود وابن عمر مرفوعاً». وهو خطأ.

(٨) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٣٣٣).

أبـو بكـر الصِّديـقُ، وأبـو ذرٍّ، وثوبـان[1]، وكانَ أحدُهُم يسـقطُ[2] سَـوْطُه، أو خِطامُ ناقَتِـه، فلا يسـألُ أَحـداً أنْ يناوِلَه[3] رضـيَ اللهُ عنهُم.

واعلمْ أنَّ سؤالَ اللهِ تعالى دونَ خَلْقِه هو المتعيِّنُ[4] عَقْلاً وشَرْعاً، وذلكَ مِنْ وجوهٍ متعدِّدةٍ:

منهـا: أنَّ السـؤالَ فيـه بذلٌ لمـاءِ الوجهِ، وذِلَّةٌ للسَّـائِلِ، وذلـك لا يَصلح إلا للهِ وحـدَه، فـلا يصلُـح الـذُّلُّ إلَّا لـهُ بالعبـادةِ والمسـألةِ، وذلكَ مـن علامـاتِ المحبَّةِ الصَّادِقة.

سُئِلَ يوسفُ بنُ الحسين: ما بالُ المحبِّين يتلذَّذُونَ بذُلِّهم في المحبَّةِ فأنشدَ:

---

(١) في مسند الإمام أحمد (٦٥) من حديث ابن أبي مليكة: كان ربما سقط الخطام من يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: فيضرب بذراع ناقته فينيخها فيأخذه، قال: فقالوا له: أفلا أمرتنا نناولكه؟ فقال: إن حبي رسول الله ﷺ أمرني أن لا أسأل الناس شيئاً. والحديث منقطع.

أما حديث أبي ذر: فأخرج أحمد (٢١٥٠٩) من حديث أبـي ذر رضي الله عنه قال:... فدعاني رسول الله ﷺ، فقال: «هل لك إلى بيعة، ولك الجنة» قلت: نعم، وبسطت يدي، فقال رسول الله ﷺ، وهو يشترط علي: «أن لا تسأل الناس شيئاً» قلت: نعم. قال «ولا سوطك إن يسقط منك حتى تنزل إليه فتأخذه». وأما حديث ثوبان، فأخرجه أبو داود (١٦٤٠) قال ﷺ: «من تكفَّل لي أن لا يسأل الناس شيئاً وأتكفل له بالجنَّة» فقال ثوبان: أنا، فكان لا يسأل أحداً شيئاً.

وفي ذلك أيضاً حديث عوف بن مالك عند مسلم (١٠٤٣) وكان من البيعة: «ولا تسألوا الناس شيئاً» قال عوف: فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناوله إياه.

(٢) في (ش): إشارة إلى نسخة: «يقع».

(٣) في (س): «يناوله إياه».

(٤) تصحف في (صل) إلى: «المعتبر».

ذلُّ الفَتى في الحُبِّ مَكرُمةٌ ... وخضُوعُه لحبيبِه شَرفُ[1]

وهذا الذُّلُّ[2] وهذهِ المحبَّةُ لا تصلُحُ إلا للهِ وحدَه، وهذا هو حقيقةُ العبادةِ التي يختَصُّ بها الإلهُ الحقُّ.

كانَ الإمامُ أحمدُ يقولُ في دعائِه: اللَّهمَّ كما صُنْتَ وجهِي عن السُّجودِ لغيرِكِ فصُنْه عنِ المسألةِ لغيرِك[3].

وقالَ أبو الخيرِ الأقطعُ: كنتُ بمكَّةَ سنةً، فأصابَتني فاقَةٌ وضُرٌّ، فكنتُ كلَّما أردتُ أنْ أخرجَ إلى المسألةِ هتَفَ بي هاتفٌ يقولُ: الوجهُ الذي يسجدُ لي تبذلُه لغيري[4]. وفي هذا المعنى يقولُ بعضُهم:

ما اعتاضَ باذِلُ وجهِهِ بسؤالِهِ ... بَدلاً وإن نالَ الغِنى بسُؤالِ

وإذا السُّؤالُ مع النَّوالِ وزنتَه ... رجَحَ السُّؤالُ وخَفَّ كلُّ نوالِ

فإذا ابتليتَ ببذلِ وجهِكَ سائِلاً ... فابذلْه للمتكرِّمِ المفضَالِ[5]

---

(١) ذكره ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (مختصر ابن منظور ٢٨/ ٧٦).

(٢) في (صل): «وهذه الذلة».

(٣) في حاشية (ف): «دعاء لطيف»، وقع في نسخة أشار إليها في حاشية (ف): «فصن وجهي». رواه عن الإمام أحمد: أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٢٣٣)، ومن طريقه: ابن الجوزي في «مناقب الإمام أحمد» (ص: ٣٩٢). وذكر الإمام أحمد أنه كان يسمعه من وكيع بن الجراح في سجوده، ووكيع كان يسمعه من سفيان الثوري في سجوده، وسفيان كان يسمعه من منصور بن المعتمر.

(٤) في (س): «به لا تبذله». والأثر في «تاريخ دمشق» (مختصر ابن منظور ٢٨/ ٢٦٥)، وفي «صفة الصفوة» (٢/ ٤٢١).

(٥) تمثل بهذه الأبيات مطرِّف بن عبد الله بن الشخير رحمه الله تعالى، ذكر ذلك أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢١٠)، وابن عساكر (٥٨/ ٣٣٠) والأبيات من قصيدة زهدية رائعة لأبي العتاهية، وهي في «ديوانه» مطلعها:

حيل البلى تأتي على المحتال ... ومساكن الدنيا فهن بوالِ.

ولهـذا المعنى كانَ عقوبةُ مَنْ أكثرَ من المسـألةِ بغيرِ حاجـةٍ أنْ يأتيَ يومَ القيامةِ وليسَ علـى وجهِه مُزعـة لَحمٍ، كما ثبـتَ ذلكَ فـي الصَّحيحينِ[١]، لأنَّـه أذهبَ عِزَّ وجهِـه وصيانَتَه ومائِيَتَهُ[٢] في الدنيا، فأذهـبَ اللهُ مِنْ وجهِه في الآخرةِ جمالَه وبهاءَه الحسِّـيَّ، فيصيرُ عظمـاً بغيـرِ لحمٍ، ويذهـبُ جمالُه وبهـاؤه المعنويُّ، فـلا يبقى لهُ عندَ اللهِ وجاهةٌ.

ومنها أنَّ في سؤالِ اللهِ عبوديةً عظيمةً، لأنَّها إظهارُ الافتقار إلى الله[٣] واعترافٌ بقُدْرته على قضاءِ الحوائجِ، وفي سؤالِ المخلوقِ ظلمٌ، لأنَّ المخلوقَ عاجزٌ عن جَلْبِ النَّفعِ لنفسِه، ودفعِ الضُّرِّ عنها، فكيف يقدرُ على ذلك لغيرِه؟ وسؤالُهُ إقامةٌ له مقامَ مَنْ يقدرُ وليسَ هو بقادرٍ.

ويشهدُ لهذا المعنى الحديثُ الذي في صحيحِ مسلمٍ عن أبي ذَرٍّ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ: «يا عبادِي لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكم قامُوا في صعيدٍ واحدٍ فسألُوني فأعطيتُ كلَّ إنسانٍ مسألَته ما نَقصَ ذلك مما عِنْدِي إلا كما يَنقُصُ المِخْيَطُ إذا غُمِسَ في البحرِ»[٤].

وفي التِّرمذيِّ وغيرِه زيادةٌ في هذا الحديثِ، وهيَ: «ذلكَ بأنِّي جَوادٌ واجِدٌ

---

(١) من حديث عبد الله بن عمر رضي عنهما قال قال رسول الله ﷺ: «ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة لحم» أخرجه البخاري (١٤٧٥) ومسلم (١٠٤٠).

(٢) كذا في (ب). ورسمت في (صل) و(ش) و(ف) (ومايَّته)، وأصلها: مائيته، ثم سهلت الهمزة وأدغمت في الياء. وفي (س): «ومائه»، وفي المطبوعات: «وماءه»!! وجاءت الجملة في (ش): «أذهب عن وجهه ماؤه وصيانته ومايته في الدنيا».

(٣) في (ش): «الافتقار إليه» وفي (ف) و(ش) و(ب): «للافتقار إليه».

(٤) في حاشية (ف): «ادخل البحر». والحديث في «صحيح مسلم» (٢٥٧٧).

ماجدٌ أفعلُ ما أريدُ، عطائي كلامٌ، وعذابي كلامٌ، إذا أردتُ شيئاً فإنَّما أقولُ له كنْ فيكونُ»[١].

فكيفَ يُسألُ الفقيرُ العاجزُ ويتركُ الغنيُّ القادرُ؟ إنَّ هذا لأعجبُ العَجَبِ.

قالَ بعضُ السَّلفِ: إني لأستحيي منَ اللهِ أنْ أسألَه الدُّنيا وهو يملكها، فكيفَ أسألها مَنْ لا يملِكها[٢] ـ يعني المخلوقَ ـ.

وحصلَ لبعضِ السَّلفِ ضيقٌ في معِيشَتِه[٣]، حتَّى همَّ أنْ يطلُبَ مِنْ بعض إخوانِه فرأى في منامِه قائلاً يقولُ له: أَيَحسُنُ بالحُرِّ المُريدِ إذَا وَجدَ عندَ اللهِ[٤] ما يريدُ أن يميلَ بقلبِه إلى العبيدِ؟ فاستيقظَ وهو مِنْ أغنى الناسِ قَلباً[٥].

وقالَ بعضُ السَّلفِ: قرأتُ في بعض الكُتبِ المنزَّلةِ: يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: أيؤمَّلُ غيرِي للشَّدائدِ، والشَّدائدُ بيدي وأنا الحيُّ القيُّومُ؟ ويُرجى غيري ويُطْرقُ بابه بالبكرات[٦]، وبيدِي مفاتيحُ الخزائنِ وبابي مفتوحٌ لمنْ دعاني؟ مَنْ ذا الذي أمَّلَني لنائبةٍ فقطعتُ بهِ، أو مَن الذي رجاني لعظيمٍ فقطعتُ رجاءَه؟ أو مَنْ ذا الذي طَرَقَ

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث أبي ذر (٢٤٩٥) وقال: «حسن». وهو في «مسند» الإمام أحمد (٢١٣٦٩).

(٢) قالته المرأة الصالحة بنت أم حسان الأسدية رحمها الله تعالى للإمام سفيان الثوري. أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٩). وذكره ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (٢/ ٢٤٤) عن السيدة رابعة رحمها الله تعالى.

(٣) في (ب): «نفسه» بدل «معيشته».

(٤) في (س): «عندنا».

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٦) بنحوه من كلام إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى، وأخرجه السهمي في «تاريخ جرجان» (ص: ١٩٦)، وابن عساكر (٢١/ ١٥) من كلام أبي عبد الله سعيد بن بريد النباجي رحمه الله تعالى، وهو مقصد المصنف.

(٦) في (س): «ويطرق بالبكرات باب غيري».

بابي فلمْ أفتَحْه له؟ أنا غايةُ الآمالِ فكيف تنقطُع الآمالُ دُوني؟ أبخيلٌ أنا فيبخِّلني عبدِي؟ أليسَ الدنيا والآخرةُ والكرمُ والفضلُ [١] كلُّه لي؟ فما يمنعُ المؤمِّلينَ أن يؤمِّلُوني؟ لو جمعتُ أهلَ السماواتِ والأرضِ ثم أعطيتُ كلَّ واحدٍ منهم ما أعطيتُ الجميعَ، وبلَّغتُ كلَّ واحدٍ منهمْ أَمَله لم ينقصْ [٢] ذلكَ مِنْ مُلكي عضو ذرةٍ، وكيفَ [٣] ينقصُ ملكٌ أنا قيِّمُه، فيا بُؤساً للقانطينَ مِنْ رحمتي، ويا بُؤساً لمن عصَاني، وتوثَّبَ [٤] على محارِمي [٥].

ومنها: أنَّ اللهَ يحبُّ أنْ يُسألَ، ويغضبُ على مَنْ لا يسأله، فإنَّه يريدُ مِنْ عبادِه أنْ يرغَبُوا إليهِ، ويسألوه ويَدْعُوه ويفتَقِروا إليه، ويحبُّ الملحِّينَ في الدعاءِ، والمخلوقُ غالباً يكرهُ أنْ يُسألَ لفقرِه وعَجْزِه.

قالَ ابنُ السَّمَّاكِ: لا تسألْ مَنْ يفِرُّ منكَ من أنْ تسأَله، وسَلْ [٦] مَنْ أمركَ أن تسأله [٧].

وقالَ أبو العَتَاهِيةِ:

---

(١) في (س): زيادة «والإحسان بيدي».

(٢) في (س): «ما نقص».

(٣) في (ف): «فكيف».

(٤) في (س): «ووثب».

(٥) قاله زاهد من أصحاب الحديث في مجلس يزيد بن هارون لبعض أصحاب الحديث، كما في «حلية الأولياء» (١٠/ ١٨٧) و«المستغيثين بالله» لابن بشكوال (١٠٦). وقد أورده المصنف أيضاً في «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٤٨).

(٦) في (ش) و(س) و(ب): «واسأل».

(٧) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢١٠).

لا تسألنَّ أخاكَ يوماً حاجةً ... وسَلِ الذي أبوابُه لا تحجَبُ[١]

اللهُ يَغضَبُ إِنْ تركتَ سُؤالَه ... وبُنَيُّ آدمَ حين يُسألُ يَغضبُ

فَاجْعَلْ سُؤالَكَ للإلهِ فإنَّما ... في فَضْلِ نِعمةِ ربِّنا نَتَقَلَّبُ[٢]

وكانَ يحيى بنُ معاذٍ يقولُ: يا مَنْ يغضبُ على مَنْ لا يَسأله لا تمنعْ مَنْ قدْ سألكَ[٣].

وأنشدَ بعضُ الأعرابِ:

أبا مالكٍ لا تسألِ الناسَ والْتَمِسْ ... بكفَّيْكَ فضلَ اللهِ فاللهُ أوسَعُ

ولو سُئِلَ[٤] الناسُ الترابَ لأَوشَكُوا ... إذا قيلَ هاتُوا أنْ يملُّوا ويَمنَعُوا[٥]

ومنها: أنَّ اللهَ تعالى يَسْتدعي منْ عِبادهِ سؤالَه، وينادِي كلَّ ليلةٍ: «هلْ مِنْ سائلٍ فأعطيَه سُؤْلَه، هَلْ مِنْ داعٍ فأستجيبَ له»[٦]. وقَدْ قالَ تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] فأيَّ وقتٍ دعاهُ العبدُ وجدَه سَميعاً قَريباً مُجيباً، ليسَ بينَه وبينَه حِجَابٌ ولا بَوَّاب، وأمَّا

---

(١) هذا البيت لحق في حاشية (ف) وحدها.

(٢) لم أجد من نسب هذه الأبيات لأبي العتاهية، والبيت الثاني أنشده الأصمعي عن أعرابي كان متعلقاً بأستار الكعبة، كما في «الدر الفريد وبيت القصيد» للمستعصمي (٢/ ٤٣).

(٣) ذكره ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (٢/ ٢٩٦).

(٤) في (ف) و(س) و(ب): «يُسأل».

(٥) أنشده ثعلب في «مجالسه» (ص: ٣٦٥) عن ابن الأعرابي.

(٦) ورد هذا المعنى في أحاديث كثيرة، ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري (٧٤٩٥) ومسلم (٧٥٨)، وهو من موطأ الإمام مالك (٤٩٨).

المخلوقُ فإنَّه يمتَنِعُ بالحِجَابِ والأبوابِ، ويَعْسُرُ[١] الوصولُ إليهِ في أغلبِ الأوقاتِ.

قالَ طاوسٌ لعطاءٍ: إيَّاكَ أن تطلبَ حوائِجكَ إلى مَنْ أَغْلَقَ دُونَكَ بَابَه، ويَجْعَلُ[٢] دونَها حُجَّابَه[٣]، وعليكَ بمَنْ بابه مفتوحٌ إلى يومِ القيامة، أمرَكَ أن تسأَله، ووعَدَكَ أَنْ يُجيبكَ[٤].

وقالَ وَهب بنُ مُنبِّه لبعضِ العُلماء: أَلَمْ أُخْبَر أَنَّكَ تأتي الملوكَ وأبناءَ الملوكِ، تحملُ إليهم علمَكَ، ويحَكَ! تأتي مَنْ يغلقُ عنكَ[٥] بابَه ويُظهِرُ لكَ فقرَه ويواري عنكَ غِناه، وتَدَعُ مَنْ يفتحُ لكَ بابَه بنصفِ اللَّيلِ وبنصفِ النَّهارِ ويُظهِرُ لكَ غِناه ويقولُ: ادعني استجبْ لك؟![٦]

ورأى ميمونُ بنُ مِهْران النَّاسَ مُجتمعينَ على بعضِ الأمراءِ فقالَ: مَنْ كانتْ له حاجةٌ إلى سلطان فحجبَه[٧] فإنَّ بيوتَ الرحمنِ مُفتَّحةٌ، فليأتِ مسجداً فليُصلِّ ركعتين، ثمَّ ليسألْ حاجَتَه[٨].

---

(١) في (س): «ويعز».

(٢) في (س): «وجعل».

(٣) ضبطت في (صل): «حِجَابه».

(٤) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٦٣)، وهو في «حلية الأولياء» (٤/ ١١) من وجه آخر.

(٥) في (صل) و(ف) و(ب): «عليك».

(٦) قاله وهب لعطاء الخراساني رحمهما الله. أخرجه عبد الله بن أحمد في زياداته على «الزهد» (١٤٢٤)، وابن أبي الدنيا في «القناعة والتعفف» (١٥٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٤٣) وغيرهم. ووقع في (صل): «مَن يأتي من يغلق...» «ويدع من يفتح...».

(٧) في (صل): «السلطان» وفي (ف): «يحجبه».

(٨) في (صل): «يسأل»، وفي (س): «يسأل الله».

وكانَ بكرٌ المُزَنيُّ يقولُ: مَنْ مثلك يا ابنَ آدم؟ متى شئتَ تطهَّرتَ ثم ناجيتَ ربَّك ليسَ بينكَ وبينَه حِجابٌ ولا تَرجمان[١]!

وسألَ رجلٌ بعضَ الصَّالحين أنْ يشفعَ له في حاجةٍ إلى بعضِ المخلوقين، فقالَ: أنا لا أتركُ باباً مفتوحاً وأذهبُ إلى بابٍ مغلقٍ[٢].

وفي هذا المعنى يقولُ بعضُهم:

وأفنيــةُ الملــوكِ محــجَّبـاتٌ ... وبــابُ اللهِ مبــذولُ الفِنَـاءِ[٣]

وقالَ آخرُ:

قـلْ للذيـنَ تحصَّنُـوا عـنْ سائلٍ ... بـمنــازلٍ مِـنْ دونهـا حُجَّـابُ

إنْ حـالَ دونَ لقائِكُـم بَوَّابُكـم ... فـاللهُ ليـسَ لبابِـه بـوَّابُ[٤]

ولبعضِ العلماءِ[٥]:

= أخرجه ابن أبي الدنيا في «القناعة والتعفف» (١٧٧)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦١/ ٣٦٦).

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في زياداته على «الزهد» (١٧٥٢)، وابن أبي الدنيا في «القناعة والتعفف» (١٧٦)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٢٢٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٩٧٠).

(٢) قاله أبو العباس أحمد بن أبي غالب بن الطَّلَّاية الحنبلي، المتوفى سنة (٥٤٨هـ) رحمه الله تعالى. ذكره ابن الجوزي في «مناقب الإمام أحمد بن حنبل» (ص: ٧٠٧)، ونقله منه المصنف رحمه الله تعالى في «الذيل على طبقات الحنابلة» (٢/ ٤٩).

(٣) من قصيدة لعلي بن الجهم كتب بها إلى أخيه من حَبْس المتوكل، كما في «الدر الفريد وبيت القصيد» للمستعصمي (٥/ ٤٥٠) وهي في «ديوانه» (ص: ٨١).

(٤) البيتان لجحظة أحمد بن جعفر البرمكي، كما في «الدر الفريد» (٤/ ٣٤٩).

(٥) في (ش) بدلها: «ابن قدامة». وفي (ف) بعدها: «شعر» وهو مما نُقل من خطه، وليس له.

لا تَجْلِسَنَّ ببابِ مَنْ ... يأبى عليكَ دخولَ دارِهْ

وتقولُ حاجاتي إليـ ... ـهِ يَعُوقُها إنْ لم أُدارِهْ

واتركْهُ واقصِدْ ربَّها ... تُقْضَى وربُّ الدَّارِ كارِهْ[(١)]

وخَرَّجَ ابنُ أبي الدُّنيا مِن حديثِ أبي عُبيدة بن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ أنَّ رجلاً جاءَ إلى النبيِّ ﷺ فقالَ: يا رسولَ اللهِ إنَّ بني فلانٍ أغارُوا عليَّ، فذهبُوا بابني وإبلي، فقال له النبيُّ ﷺ: «إنَّ آلَ محمدٍ كذا وكذا أهل بيتٍ ما لهم مُدٌّ مِنْ طَعامٍ أو صَاعٌ فاسألِ الله عزَّ وجلَّ» فرجعَ إلى امرأته، فقالتْ: ما قالَ لكَ؟ فأخبرَها، فقالتْ: نِعْمَ ما رَدَّ عليكَ. فما لَبِثَ أنْ ردَّ اللهُ عليهِ ابنَه وإبلَه أوفرَ ما كانتْ، فأتى النبيَّ ﷺ فأخبرَه، فصعدَ النبيُّ ﷺ المنبرَ، فحمِدَ اللهَ، وأثنى عليه، وأمرَ النَّاسَ بمسألَةِ اللهِ عزَّ وجلَّ والرَّغبَةِ إليه، وقرأ عليهم: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣][(٢)].

وسألَ رجلٌ ثابتاً البُنَانيَّ أنْ يشفعَ له إلى قاضٍ في قضاءِ حاجةٍ له، فقامَ ثابتٌ معه، وكان[(٣)] كلَّما مَرَّ بمسجدٍ في طريقهِ دخلَ فصلَّى فيه ودعا، فما وصَلَ إلى

---

(١) الأبيات لمَجْبَر بن محمد بن العزيز الأموي الصِّقلي، سمعها منه الحافظ السِّلفي، وذكرها عنه في «معجم السفر» (ص: ٣٨٢)، وضبط اسمه من «توضيح المشتبه» لابن ناصر الدين (٨/ ٥١). وذكرها له العماد الأصبهاني في «خريدة القصر وجريدة العصر» (٢/ ٧٤٧). وفي (ش): «فاتركه». وفي (صل): «يقضي» وهو الموافق للمطبوع من «معجم السفر»، والمثبت من سائر النسخ موافقٌ لمطبوعة «توضيح المشتبه».

(٢) في حاشية (س): «بلغ». والحديث مرسل، أخرجه ابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» (١٠)، و«القناعة والتعفف» (٥٤)، وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٤٣) بالسند نفسه من حديث أبي عبيدة عن عبد الله، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وبمعناه حديث سالم ابن أبي الجعد أخرجه الطبري (٢٣/ ٤٥)، والحاكم (٢/ ٤٩٢) لكنه وصله من رواية جابر بن عبد الله.

(٣) في (ف) و(س) و(ب): «فكان».

مجلسِ القاضي إلا وقدْ قَامَ مِنْه! فعاتَبَهُ طالبُ الحاجةِ في ذلكَ، فقالَ: ما كنتُ إلَّا في حاجَتِكَ، فقضى اللهُ حاجَتَه، ولمْ يحتَجْ إلى القَاضِي[1].

وكانَ إسحاقُ بنُ عبَّادٍ البَصريُّ نائِماً، فرأى في مَنامِه قائلاً يقولُ له: أغثِ الملهوفَ فاستيقظَ، فسألَ: هلْ في جِيرانه محتاجٌ؟ قالوا[2]: ما ندري! ثم نامَ فأتاهُ ثانياً وثالثاً، فقالَ له: أتنامُ ولم تغثِ الملهوفَ؟! فقامَ وأخذَ معه ثلاث مئة دِرهمٍ، وركبَ بَغْلَه[3]، فخرج به مِنَ البصرةِ حتَّى وقفَ به على بابِ[4] مسجدٍ يُصلَّى فيهِ على الجنائزِ، فدخلَ المسجدَ، فإذا رجلٌ يصلِّي، فلمَّا أحسَّ به انصرفَ، فدنا منهُ، فقال له: يا عبدَ اللهِ في[5] هذا الوقتِ، في هذا الموضعِ ما حاجَتُك؟ قالَ: أنا رجلٌ كانَ رأسُ مالي مئةَ درهمٍ، فذهبتْ مِنْ يديْ، ولَزمني دينٌ مئتا درهمٍ، فأخرجَ له الدراهمَ، وقال له: هذه ثلاث مئة درهمٍ، خُذْها. فأَخَذَها، ثم قالَ له: أتعرفُني؟ قال: لا. قال: أنا إسحاقُ بنُ عبَّادٍ، فإنْ نابَتْكَ نائِبةٌ فأتِني، فإنَّ منزلي في موضِع كذا، فقالَ له: رَحِمَكَ اللهُ إنْ نابَتْنا نائبةٌ فَزِعْنا إلى مَنْ أخرَجَكَ في هذا الوقتِ حتى جاءَ بكَ إلينا[6].

وقالَ عبدُ الرحمنِ بنُ زيدِ بنِ أسلَم: أصبَحْنَا ذاتَ يومٍ، فقالتْ أُمِّي لأبي: واللهِ ما في بيتِكَ شيءٌ يأكُلُه ذو كَبِدٍ، فقامَ وتوضَّأ[7] ولَبِسَ ثيابَه، ثم صلَّى في بيتِه. قال:

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٣٢١) بنحوه. وكتب في حاشية (ف): «غريبة».

(٢) في (ش) و(س): «فقالوا».

(٣) في (ش): «بغلةً وخرج من»، وفي (س): «بغلته».

(٤) في (س): «بباب».

(٥) في (س): «أفي» خطأ. وفي (ش): «في هذا الوقت في مثل هذا الموضع».

(٦) أخرجه ابن الجوزي في «البر والصلة» (٤٥٤) من طريق البيهقي عن الحاكم بإسناده...

(٧) في (ف) و(ب): «فتوضأ».

فالتفَتَتْ إليَّ أُمي، فقالتْ: إنَّ أباكَ ليسَ يزيدُ على ما تَرى، فاخرجْ أنتَ، فخرجتُ فخطَرَ ببالي صديقٌ لنا تَمَّارٌ، فجئتُ إلى سوقِهِ[1]، فلَّما رآني صاحَ بي، وذهبَ بي إلى منزِلِه وأطعَمَني، ثمَّ أخرجَ لي صُرَّةً فيها ثلاثونَ دِيناراً مِنْ غيرِ أنْ أذكرَ لهُ شيئاً مِنْ حالِنا، إلّا ابتداءً منهُ، وقال: اقرأْ على أبيكَ السَّلامَ، وقُلْ له: إنَّا جَعلْنا لهُ شِركاً في كُلِّ شيءٍ مِنْ تَجْرِنَا[2]، وهذا نصيبُه منهُ[3].

وعن شقيقٍ البَلْخيِّ قالَ: كنتُ في بيتي قاعداً[4] فقالَ لي أهلي: قَدْ[5] ترى ما بهؤلاءِ الأطفالِ منَ الجُوعِ، ولا يحِلُّ لكَ أنْ تحملَ عليهِم ما لا طَاقَة لهم به[6] قال: فتوضأتُ، وكانَ لي صديقٌ لا يزالُ يقسِمُ عليَّ باللهِ: إنْ تكن[7] لي حاجةٌ أنْ أُعلِمَه بها، ولا أكتمَها عنه، فخطرَ ذكرهُ ببالي، فلما خرجتُ من المنزلِ مررتُ بالمسجدِ، فذكرتُ ما رُوي عن أبي جعفرٍ[8] قالَ: مَنْ عَرَضتْ له حاجةٌ إلى مخلوقٍ، فليبدأ فيها باللهِ عزَّ وجَلّ. فدخلتُ المسجدَ فصليتُ[9] ركعتينِ، فلمَّا كنتُ في التَّشهُّدِ أُفرِغَ

---

(١) في (س): «إليه بسوقه».

(٢) في (ش) وحاشية (س): «متجرنا».

(٣) أخرج القصة ابن عساكر من وجهين في «تاريخ دمشق» (١٩/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥) بسياق أطول من هذا، وهي في كتاب «المستغيثين بالله تعالى عند المهمات والحاجات» لابن بشكوال (٦٣).

(٤) في (س): «جالساً».

(٥) في (صل): «ترون».

(٦) «به» من (س) وسقطت من سائر النسخ.

(٧) في (صل): بالياء والتاء، والمثبت من (ش)، وفي (ف) و(س): بالياء.

(٨) هو محمد الباقر رضي الله عنه.

(٩) في (ف) و(س): «وصليت».

عليَّ النومُ، فرأيتُ في منامِي أنَّه قيلَ لي: يا شقيقُ أتَدُلُّ العبادَ على اللهِ ثمَّ تنساهُ؟! فاستيقظتُ، وعلمتُ أنَّ ذلك تنبيهٌ يُنَبِّهُني[١] به ربِّي، فلمْ أَخْرُجْ[٢] منَ المسجدِ حتَّى صلَّيتُ العِشاءَ الآخرةَ، ثمَّ انصرفتُ إلى المنزلِ، فوجدتُ الذي أردتُ أنْ أقصِدَه قَدْ حَرَّكهُ اللهُ، وأجرى لأهلي على يديهِ ما أغناهُم[٣].

وعنْ إبراهيمَ بنِ أدهمَ أنَّه خرجَ إلى الغزوِ[٤] مع أصحابه، وأنَّهم تناهَدُوا[٥]، فوضعَ كلُّ واحدٍ منهم ديناراً، ففكَّر[٦] فيمنْ يقصِدُ من إخوانه ويستقرضُ منه، ثمَّ استفاقَ وبكى، وقال: واسوءَتاه! أطلبُ من العبيدِ وأتركُ مولاهم، فيقولُ لي: مَنْ كانَ أحقَّ أن تطلبَ منه، أنا أو عَبدي؟ ثمَّ توضَّأ، وصلَّى[٧] وخرَّ ساجِداً، وقالَ: يا ربِّ قد علمتَ ما كانَ مني، وذلكَ بخطَئِي وجَهْلِي، فإنْ عاقبتني عليه فأنا أهلٌ لذلكَ، وإنْ عفوتَ عَنِّي فأنتَ أهلٌ لذلكَ،

---

(١) في (ف) و(س): «نبهني».

(٢) في (صل): «فلم أزل أخرج».

(٣) ذكرها ابن بشكوال في كتاب «المستغيثين بالله تعالى عند المهمات والحاجات» (٦٤)، نقلها من كتاب «التسلّي» ليونس بن عبد الله. وكتب أحدهم رحمه الله تعالى في حاشية (ف) هنا: «الحمد لله تعالى على إلهامه وتبشيره، واللهِ أحجُّ إن شاء الله تعالى». وأقول: «الحمد لله تعالى على فضله وكرمه، اللهم أعطني من خزائن فضلك وجودك».

(٤) في (ش) و(س): «للغزو» بدل من «إلى الغزو».

(٥) النِّهْدُ: ما تخرجه الرفقة عند الغزو، وهو أن يقسموا نفقتهم بينهم بالسوية حتى لا يتغابنوا، ولا يكون لأحدهم على الآخر فضل ومنة.

(٦) في حاشية (س): «فذكر» إشارة إلى نسخة.

(٧) زاد في (ف): «ركعتين» وعليها إشارة نسخة.

وقدْ عرفتَ حاجَتي فاقْضِها برحمَتِكَ، ثمَّ رفعَ رأسَه فإذا هُو بنحو[(١)] أربع مئة دينارٍ، فتناولَ منها دِيناراً واحِداً وذَهَبَ[(٢)].

وعن أصبغَ بن زيدٍ[(٣)] قال: مكثتُ أنا ومَنْ عِندي ثلاثاً لم نَطْعَم شيئاً، فخرجتْ إليَّ ابنتي الصَّغيرةُ، فقالت: يا أبَةَ الجوعُ[(٤)]! فأتيتُ[(٥)] الميضأةَ، فتوضأتُ، وصلَّيتُ ركعتينِ، وأُلهِمْتُ دعاءً دعوتُ به، وفي آخِره: اللهمَّ افتحْ عليَّ منكَ رِزقاً لا تجعل لأحدٍ عليَّ فيه مِنَّةً، ولا لكَ عليَّ في الآخرةِ فيهِ تَبِعةٌ، برحمَتِك يا أرحمَ الرَّاحمين، ثم انصرفتُ إلى البيتِ، فإذا ابنتي الكبيرةُ قد قامتْ إليَّ، وقالتْ: يا أبة[(٦)] جاءَ عمِّي الساعةَ بهذه الصُّرَّةِ من الدراهمِ، وبحمَّال عليه دقيقٌ، وحَمَّالٍ عليه مِنْ كلِّ شيء في السُّوقِ، وقالَ[(٧)]: أقرئوا أَخِي السلامَ وقُولوا له: إذا احتجتَ إلى شيءٍ فادعُ بهذا الدُّعاءِ تأتِكَ حاجَتُك. قالَ أصبغُ: ولا واللهِ ما كانَ لي[(٨)] أخٌ قطُّ، ولا أعرِفُ مَنْ كانَ هذا القائل، ولكنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ[(٩)].

---

(١) في (ش): «بنحو من».

(٢) ذكرها ابن بشكوال في «المستغيثين بالله» (٧٠). وكتب أحدهم رحمه الله على حاشية (ف): «قناعة عظيمة من إبراهيم بن أدهم». وفي حاشية (ش): «بلغ [مقابلة] بأصله».

(٣) هو الورّاق، شيخ يزيد بن هارون. يتصحف إلى: «ابن يزيد».

(٤) «يا أبة» هكذا رسمها في (صل) و(ف) و(س)، والضبط من (صل). وهذا موافق لما يقرأ ابن عامر من مثلها في القرآن الكريم، ويقف عليها هو وابن كثير بالهاء. وفي (ش): «يا أبتِ».

(٥) في (س): «فدخلت».

(٦) في (ش): «أبتي».

(٧) في (ش): «وقالوا».

(٨) في (ش) و(س): «من أخ».

(٩) ذكرها ابن بشكوال في «المستغيثين بالله» (٦١).

وعَنْ الحَكَم بن مُوسى قالَ: أصبحتُ يوماً، فقالتْ ليَ المرأةُ: ليسَ عندَنا دقيقٌ ولا خبزٌ، فخرجتُ ولا أقدرُ[١] على شيءٍ، فقلت في الشَّارع: اللهمَّ إنكَ تعلمُ[٢] أنّي أعلمُ أنَّكَ تعلمُ أنه لا دقيقَ لي ولا خبزٌ ـ أو قالَ: ولا دراهم ـ فَأْتِنا بذلكَ. فلقيني رجلٌ فقالَ: خُبزاً تريدُ؟ أو دقيقاً؟ فقلتُ له: أحدَهما. ثمَّ مشيتُ نهاري أجمع، لا أقدرُ على شيءٍ، فرجعتُ. فقدَّمَ إليَّ أهلي خُبزاً ولحماً واسِعاً، فقلتُ: مِنْ أينَ هذا لكم؟! قالُوا[٣]: مِنَ الذي وجَّهتَ بهِ. فَسَكتُّ[٤].

وعنْ الأوزاعيِّ قالَ: رأيتُ رجُلاً في الطَّوافِ، وهو متعلِّقٌ بأستارِ الكعبةِ، وهُو يقول: يا رب إني فقيرٌ كما تَرى، وصِبيتي قَدْ عَرُوا كما تَرى، وناقتي قَدْ عَجِفَت[٥] كما تَرى، فما تَرى فيمَا تَرى يا مَنْ يَرى ولا يُرى؟ فإذا[٦] بصوتٍ مِنْ خَلْفِه: يا عاصم! يا عاصم! الحقْ عمَّكَ فقدْ هَلَكَ بالطَّائِفِ، وقدْ خلَّفَ ألفَ نعجةٍ، وثلاثَ مئة ناقةٍ، وأربعَ مئة دينارٍ، وأربعةَ أَعْبُدٍ وثلاثةَ أسيافٍ يمانيَةٍ، فامضِ فخُذْها، فليسَ له وارثٌ غيرُك. قال: فقلتُ له: يا عاصم، إنَّ الذي دعوتَه[٧] لقدْ كانَ قريباً منكَ. قال: يا هَذا أما سمعتَ قولَه تعالى[٨]: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ١٨٦][٩].

---

(١) في (صل): «فلا أقدر».

(٢) في (س): «إن كنت تعلم»! وليس بصواب.

(٣) في (ش) و(س): «فقالوا».

(٤) أخرجه ابن بشكوال في «المستغيثين بالله» (١٠٤).

(٥) أي أصابها الهُزَال والضعف. وفي (ب): «اعجزت».

(٦) في (ف): «فإذا هو». وفي (صل): «ثمَ فإذا».

(٧) في (ف) و(س): «دعوت».

(٨) في (س): «الله يقول».

(٩) أخرجه ابن بشكوال في «المستغيثين بالله» (٤٠). وكتب أحدهم رحمه الله في حاشية (ف): «قصة غريبة».

والآثارُ والحِكاياتُ في هذا المعنى كثيرةٌ جِداً، يطولُ الكِتابُ بذِكرِها، وهي موجودةٌ في مثلِ كتابِ «الفَرَجِ بعدَ الشِّدَّةِ»، وكتابِ «مجابي الدَّعوةِ» لابن أبي الدُّنيا، وفي كتاب «المُسْتَصْرِخينَ باللهِ عندَ نُزولِ البَلاءِ» للقاضِي أبي الوَليدِ بنِ الصَّفَّارِ[1]، وكتابِ «المستغيثينَ باللهِ عندَ البلاءِ» للحافظِ أبي القاسم ابن بَشْكُوال[2] الأندلُسِيَّينِ، وفي غَيرِها من كُتبِ الزُّهدِ والرقائقِ والتواريخِ وغيرِها.

وروى الشيخُ أبو الفَرَجِ في «تاريخهِ الكبيرِ» بإسنادِه عَنْ الحسنِ بن سُفيان النَّسَوي[3] الحافظِ أنَّه كانَ مقيماً بمصرَ مع جماعةٍ من أصحابهِ يكتبونَ الحديثَ، فاحتاجُوا فباعُوا ما مَعَهم حتَّى لم يبقَ لهم ما يُباع، وبقُوا ثلاثةَ أيامٍ جِياعاً لا يجدونَ شيئاً يأكلونَ، وأصبحوا في اليومِ الرابعِ وقَدْ عزموا على المسألةِ لشدَّةِ الضَّرورةِ، فاقترعُوا على مَنْ يسألُ لهم، فخرجتْ القرعةُ على الحسنِ بنِ سفيانَ، قال: فتحيَّرتُ ودُهِشْتُ، ولم تسامِحْني نَفْسي بالمسألةِ، فعَدَلتُ إلى زاويةِ المسجدِ أصلِّي ركعتينِ طويلتينِ، وأدعُو اللهَ عزَّ وجَلَّ لكشفِ الضُّرِّ وسياقةِ الفَرَجِ، فلمْ أفرَغْ مِنَ الصَّلاةِ حتَّى دَخَلَ المسجدَ رجلٌ معه خادمٌ في يدهِ مِنْدِيلٌ، فقال: من مِنكم الحسنُ بنُ سفيان؟

---

(١) هو قاضي قرطبة، المحدِّث الإمام، أبو الوليد يونس بن عبد الله بن مُغِيْث، المتوفى سنة (٤٢٩هـ) رحمه الله تعالى، ولا أعلم عن وجود كتابه شيئاً.

(٢) في (ف) و(س) و(ب): «نزول البلاء». وليس ذلك في اسم الكتاب، بل اسمه «كتاب المستغيثين بالله تعالى عند المهمات والحاجات، والمتفرغين إليه سبحانه بالرغبات والدعوات، وما يسَّر الله الكريم لهم والإجابات والكرامات». والحافظ أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بَشْكُوال توفي سنة (٥٧٨هـ) رحمه الله تعالى، وكتابه طبع في مدريد سنة (١٤١١هـ).

(٣) في (صل) و(س) و(ب): «الفسوي»، وفي (ش) غير واضحة، والمثبت من (ف) موافقاً لما في «المنتظم»، وكلاهما صحيح، وهذه النسبة إلى مدينة (نسا) في فارس، وهي بالعربية مثلثة بالباء والنون والفاء. وفي حاشية (ف): «قصة أغرب».

فرفعتُ رأسِي مِنَ السُّجود، وقُلتُ: أَنَا. فقالَ: إنَّ الأميرَ ابنَ طُولون يقرئُكم السَّلامَ والتَّحِيَّة، ويعتذرُ إليكُم في الغَفْلةِ عَنْ تَفَقُّدِ أحوالِكم، والتقصيرِ الواقعِ في رعايةِ حُقُوقِكُم، وقدْ بعثَ إليكُمْ بما يَكْفِي نَفَقَةَ الوَقْتِ، وهو زائرٌ لكمْ غَداً ومعتذرٌ[1] إليكمْ بلفْظِه، ووضع بينَ يدي[2] كلِّ واحدٍ منا صُرَّةً فيها مئةُ دينار. قالَ: فتعجَّبْنا، وسألنَاهُ عن السَّبَبِ، فقال: إنَّه كانَ اليومَ نائِماً، فرأى فارِساً في الهواءِ يقولُ له: قُمْ فأدرِكِ الحسنَ بنَ سُفيان وأصحابَه، فإنَّهم منُذ ثلاثةِ أيَّامٍ جياعٌ في المسجدِ الفُلانيِّ، فقالَ له: مَنْ أنتَ؟ قالَ: أنَا رضْوان صاحبُ الجنَّة. قالَ الحسنُ: فشَكَرْنا اللهَ عزَّ وجَلَّ، وأصلَحْنا أحوالَنا وسافَرنا تلكَ الليلةَ مِنْ مِصَرَ خشيةَ أن يَزُوْرَنا الأميرُ فيطَّلِعَ الناسُ على أسرارِنا، فيكونَ ذلكَ سببَ ارتفاعِ اسمٍ وانبساطِ جاهٍ، ويتصل ذلك بنوعٍ من الرياءِ والسُّمْعَةِ[3].

ورَوى أيضاً بإسنادٍ له عنْ محمدِ بنِ هارونَ الرُّويانيِّ أنَّه اجتمعَ هو، ومحمدُ بن نَصْر المروزيُّ، ومحمدُ بنُ علويه الورَّاق، ومحمدُ بنُ إسحاقَ بنِ خُزيمةَ، فذكرَ معنى هذهِ الحكايةِ وأنَّ المصلِّي والداعي كانَ هو ابنَ خزيمة[4].

وبإسنادٍ آخرَ أنَّ الأربعةَ كانوا: محمدَ بنَ جريرٍ، ومحمدَ بنَ نصرٍ، ومحمدَ بنَ خُزيمةَ، ومحمدَ بنَ هارون[5].

***

---

(١) في (صل) و(ب): «ويعتذر».

(٢) في (ف): «في يد»، وفي (س): «بيد».

(٣) أخرجها ابن الجوزي في تاريخه «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» (١٣/ ١٥٨) في سياق طويل جداً. وكتب أحدهم رحمه الله في حاشية (ف): «حكاية غريبة جداً».

(٤) «المنتظم» لابن الجوزي (١٣/ ٢٣٤).

(٥) في حاشية (س) و(ب): «بلغ مقابلة». وهذه الرواية في «المنتظم» (١٣/ ٢٣٥).

وقولُه ﷺ: «وإذا استعَنْتَ فاسْتَعِنْ بالله»: لمَّا أمرَ عليه السَّلامُ بحفظِ اللهِ والتَّعرفِ إليهِ في الرَّخاءِ، وذلكَ هو العبادةُ حقيقةً، ثم أَرشَدَ إلى سؤالِ اللهِ وحدَه، ودعائِه، والدعاءُ هو العِبادةُ، كما في حديث النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ عن النبيِّ ﷺ ثمَّ قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] الآية[١] خَرَّجه أهلُ السُّنَنِ الأربعةِ[٢]: أَرشدَ بعدَ ذلكَ إلى الاستعَانةِ باللهِ وحدَه، وهذا مُنتَزعٌ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهي كلمةٌ عظيمةٌ جامعةٌ. يُقال إنَّ سِرَّ الكُتُبِ الإلهيَّة كلِّها يَرجع إليها ويَدور عليها[٣].

وفي استعانةِ اللهِ وحدَه فائدتانِ:

إحدَاهُما: أنَّ العبدَ عاجزٌ عن الاستقلالِ بنفْسِه في عَمَلِ الطاعات.

والثانيةُ: أنَّه لا مُعينَ له على مصالحِ دينِه ودنياهُ إلا اللهُ عزَّ وجَلَّ، فمَنْ أعانَه اللهُ فهو المُعَانُ، ومَنْ خَذَله اللهُ فهو المخذُول.

وفي الحديثِ الصَّحيحِ عن النبيِّ ﷺ: «احرصْ[٤] على ما ينفَعُك، واستَعِنْ باللهِ ولا تعجِزْ»[٥].

وكانَ ﷺ يقولُ في خُطبَتِه ويُعلِّمُ أصحابَه أنْ يقولُوا: «الحمدُ لله نَستَعينُه ونَستَهْدِيه»[٦].

---

(١) وتتمة الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ وهنا موضع الاستدلال.

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٧٤)، والترمذي (٢٩٦٩)، (٣٢٤٧) وقال: «حسن صحيح» والنسائي في «الكبرى» (١١٤٠٠)، وابن ماجه (٣٨٢٨).

(٣) في (ش) و(ف) و(س): «ترجع إليها وتدور عليها».

(٤) سبق قلم ناسخ (طل) فكتب: «استعِنْ بالله».

(٥) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) في (س): «إن الحمد». وأخرج لفظ الاستعانة والاستهداء في خطبته ﷺ الشافعي رحمه الله (ترتيب =

وفي دُعاءِ القُنوتِ الذي كانَ يدعُو به[1] عُمَرُ رضي الله عنه وغيرُه: اللهمَّ إنَّا نستَعِينُكَ ونستَهْدِيكَ[2].

وأمرَ معاذَ بنَ جبلٍ أنْ لا يدعَ في دُبُرِ كلِّ صلاةٍ أنْ يقولَ: «اللهمَّ أعنِّي على ذِكركَ وشُكْرِكَ وحُسْنِ عِبَادَتِك»[3].

وكانَ مِنْ دُعائه ﷺ: «ربِّ أعنِّي ولا تُعِنْ عَليَّ»[4].

وفي الأَثرِ المعروفِ، ويقالُ: إنَّ موسى عليه السَّلام قالَه لمَّا ضَرَبَ البحرَ فانفَلَقَ: «اللهمَّ لكَ الحمدُ، وإليكَ المُشْتكى، وأنتَ المستَعَانُ، [وبكَ المُسْتَغاثُ][5]، وعليكَ التُّكلان، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا بالله»[6].

فالعبدُ محتاجٌ إلى الاستعانةِ باللهِ في فعلِ المأموراتِ، وفي تركِ المحظوراتِ، وفي الصَّبرِ على المقدُوراتِ، كما قالَ يعقوبُ عليه السَّلام لبنيهِ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ

= المسند للسندي ٤٢٧)، ومن طريقه: البيهقي في «معرفة السنن والآثار» (٦٤٩٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(١) في (ب): «يقنت به» بدل «يدعو به».

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٤٩٧٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. ووقع في (صل): «وعلم الحسن بن علي أن يقول في دعائه في قنوت الوتر: اللهم...».

(٣) أخرجه من حديث معاذ رضي الله عنه: الإمام أحمد (٢٢١١٩)، (٢٢١٢٦)، وأبو داود (١٥١٧)، والنسائي في «الكبرى» (٩٩٣٧).

(٤) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنه: الإمام أحمد (١٩٩٧)، وأبو داود (١٥٠٥)، والترمذي (٣٥٥١)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٤٤٣)، وابن ماجه (٣٨٣٠).

(٥) لا توجد في (صل) و(س)، ولا عند الطبراني.

(٦) في (صل) و(ش) و(س) و(ب): «بك». أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣٣٩٤)، و«الصغير» (٣٣٩) وليس عنده: «وبك المستغاث»، وعنده: «ولا قوة إلا بالله العلي العظيم». وأخرجه البيهقي في «الدعوات» (٢٦٤) وذكر «وبك المستغاث». ولا يوجد عندهم: «وعليك التكلان».

ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] ولهذا قالتْ عائشةُ هذه الكلمةَ لمَّا قالَ لها أهلُ الإفكِ ما قالُوا، فبرَّأها اللهُ ممَّا قالُوا[١].

وقالَ موسى لقومِهِ: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وقالَ اللهُ لنبيِّه محمدٍ ﷺ: ﴿قُلْ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٢][٢].

ولمَّا بَشَّرَ النبيُّ ﷺ عُثمانَ بالجنَّةِ على بَلْوى تُصِيبُه قال: «اللهُ المستعانُ»[٣].

ولمَّا دَخَلُوا على عثمانَ، وضَرَبوهُ جعلَ يقولُ ـ والدماءُ تسيلُ عليه ـ: لا إلهَ إلا أنتَ سُبحانكَ إنِّي كنتُ مِنَ الظَّالمينَ، اللهمَّ إنِّي أَستَعْدِيك[٤] عليهم، وأستعينُكَ على جميعِ أمُوري، وأسألُكَ الصَّبرَ على ما ابتليتَني[٥].

ورُويَ عنْ أبي طلحةَ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ في بعض غَزواتِهِ حينَ لَقِيَ العدوَّ: «يا مالكَ يومِ الدِّينِ إيَّاكَ نعبدُ وإياكَ نستعين». قالَ أبو طلحة: فلقدْ رأيتُ الرِّجال تُصْرَع. خَرَّجَه أبو الشَّيخِ الأصبهانيُّ[٦].

---

(١) حديث الإفك أخرجه البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها (٢٦٦١).

(٢) انفرد حفص بقراءة: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾، والباقون: ﴿قُلْ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾. وقد جاءت في نسخنا جميعاً على قراءة الجمهور، وهو المناسب للسياق الذي يريده المصنف رحمه الله.

(٣) أخرجه من حديث أبي موسى رضي الله عنه: البخاري (٣٦٩٣) (٦٢١٦) ومسلم (٢٤٠٣).

(٤) تصحف في (س) إلى: «أستعينك» وفي (ف) إلى: «أستعيذُ بك».

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المحتضرين» (٤٩)، ومن طريق ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٩/ ٤٠١). وفي (ب): «أبليتني» بدل «ابتليتني».

(٦) كتب أحدهم في حاشية (ف): «دعاء لطيف». والحديث أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨١٦٣)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٣٤).

فالعبدُ محتاجٌ إلى الاستعانةِ باللهِ في مصالحِ دينهِ وفي مصالحِ دنياه، كما قالَ الزُّبيرُ في وَصيَّتِهِ لابنهِ عبدِ اللهِ بقَضاءِ دَيْنِه: إنْ عَجَزْتَ فاستعنْ بمولاي. فقالَ: يا أبتِ مَنْ مولاكَ؟ قال: الله. قالَ: فمَا وقعتُ في كُرْبَةٍ من دَينهِ إلَّا قُلتُ: يا مولى الزُّبيرِ اقضِ عنهُ دَينَه فيقضِيه[١].

وقالَ عُمر بنُ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنه في أَوَّلِ خُطبةٍ خَطَبَها على المنبَرِ: ألا إنَّ العَرَبَ جَمَل أَنِفٌ[٢] قَدْ أخذتُ بخطامِه، ألا وإنِّي حامِلُه على المحجَّة، ومستعينٌ باللهِ عليهِ[٣].

وكذلكَ يحتاجُ العبدُ إلى الاستعانَةِ باللهِ على أهوالِ ما بينَ يديهِ مِنَ الموتِ وما بَعْدَه.

لما احتُضِرَ خالدُ بنُ الوليدِ قالَ رجلٌ ممَّنْ حَوْله: واللهِ إنَّه ليسوؤُه ـ يعني الموتَ ـ فقال خالدٌ: أَجْل، فأستعينُ اللهَ عزَّ وجَلَّ[٤].

وبَكى عامرُ بنُ عبدِ اللهِ بن الزُّبيرِ عندَ موتهِ، وقالَ: إنَّما أبكي على حَرِّ النَّهارِ، وبَردِ القيامِ ـ يعني صيامَ النَّهارِ وقيامَ الليل ـ قال: وإنِّي أستعينُ اللهَ على مصرعي هذا بينَ يدَيه[٥].

---

(١) «دينه فيقضيه» سقطت من (صل) و(ش) و(س). والحديث أخرجه البخاري من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما (٣١٢٩).

(٢) الجمل الأَنِف هو الذي يشتكي أنفه، لذا إنْ قيدَ انقادَ، للوجع الذي فيه، فهو منقاد ذلول.

(٣) ذكره ابن الجوزي في «مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب» في الباب ٥٤ (ص: ١٦١ ـ ١٦٢). وأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٣١٤٠) بلفظ قريب.

(٤) في (س): «بالله». أخرجه ابن أبي الدنيا في «المحتضرين» (١٣٣)، وقد تصرف ناشره في النص، فقرأ «أجل»: رَجُل، ثمَّ غيَّر «أستعين» ـ وهي ثابتة في المخطوط ـ لتناسب سياق ما قرأه إلى: فاستعن!! فصارت من كلام الرجل! وهي كلام سيف الله المسلول. والله المستعان.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المحتضرين» (١٧٧). ومن طريقه: البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٦٤٩).

ومِنْ كلامِ بعضِ المتقدِّمين: يا ربِّ عَجِبْتُ لمنْ يعرفُكَ كيفَ يرجُو غيرَكَ! عجبتُ لمنْ يعرفُكَ كيفَ يستعينُ بغيرِكَ![1]

وكتبَ الحسنُ إلى عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحِمهما اللهُ تعالى: لا تستعنْ بغيرِ اللهِ فَيكِلَكَ اللهُ إليهِ[2].

وقالَ بعضُهُم:

فاستَغْنِ باللهِ واستَعِنْه ... فإنَّه خيرُ مُستَعانِ[3]

قولُه ﷺ: «جَفَّ القَلَمُ بما هُو كائِنٌ» وفي الرِّوايةِ الأُخرى: «رفعت الأقلامُ وجَفَّت الكُتُبُ»، وفي الرِّوايةِ الأُخرى: «وجفَّت الصُّحُفُ» كلُّهُ كنايةٌ عنْ نفوذِ المقاديرِ وكتابَتِها جميعِها في كتابٍ جامعٍ منْ أمدٍ بعيدٍ، فإنَّ الكِتابَ إذا كُتِبَ وفُرِغَ مِنْ كتابَتِهِ، وبَعُدَ عهدُه فقدْ رُفعت الأقلامُ عنهُ، وجَفَّت الأقلامُ التي كُتِبَ بهِ مِنْ مِدادِها، وجَفَّتْ الصَّحِيفَةُ المكتوبُ فيها بالمِدادِ المكتوبِ به فيها، وهذا مِنْ أَحْسَنِ الكِنَاياتِ وأبْلَغِها.

وقدْ دَلَّ الكتابُ والسنن[4] الصَّحيحةُ على مِثْلِ هذا المعنى، قالَ اللهُ عز وجل: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

---

(١) علق أحدهم على حاشية (ف): «توحيد محض فاعلم». أخرجه ابن أبي الدنيا في «الهواتف» (٢٢) مما سمعه وهيب بن الورد رحمه الله، وقد أورده المصنف أيضاً في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٨٢).

(٢) سقط هذا الأثر من (صل). وذكره المصنف في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٨٢).

(٣) ذكره المستعصمي في «الدر الفريد» (٥/ ١٤٠) منسوباً إلى علي رضي الله عنه.

(٤) في (ف) و(س): «والسنة».

قالَ الضَّحاكُ عن ابنِ عَبَّاسٍ: إنَّ اللهَ خلقَ القَلَم فأمَره ليجري[1] بإذْنِه، وعِظَمُ القَلَمِ كقَدْرِ ما بينَ السَّماءِ والأرضِ، فقالَ القلمُ: بمَ يا ربِّ أجري؟ قالَ: بما أنا خالقٌ وكائنٌ في خَلْقِي مِنْ قَطْرٍ أو نَباتٍ أو نَفْسٍ أو أثرٍ - يعني بهِ العَمَلَ - أو رزقٍ أو أَجَلٍ فجرى[2] القلمُ بما هُو كائِنٌ إلى يوم القِيامةِ، فأثبَتَه اللهُ في الكتابِ المكنُونِ عندَه تحتَ العَرْشِ[3].

ورَوى أبو ظَبْيان عنْ ابنِ عبَّاسٍ: إنَّ أَوَّلَ شيءٍ خلَقَهُ اللهُ القلمُ، فقالَ لهُ: اكتبْ. قالَ: وما أكتبُ؟ قال: القدر. فجَرى بما هُو كائنٌ إلى أنْ تقومَ السَّاعةُ، ثمَّ قَرأ: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١][4].

وروى أَبو الضُّحَى عن ابنِ عباسٍ نحوَه أيضاً[5].

ورُوِيَ حديثُ أبي الضُّحى مَرفوعاً ولا يثبتُ رَفْعُه[6].

وروى ابنُ بطة بإسنادٍ ضعيفٍ عن أبي هُريرة مرفوعاً: «أوَّلُ شيءٍ خلَقَه اللهُ القلمُ، ثمَّ خلقَ النُّونَ، وهي الدَّواةُ، ثم قال: اكتبْ؟ قال: ما أكتبُ؟ قال: اكتبْ ما هُو

---

(١) في (س): «أن يجري».

(٢) في (صل): «وجرى».

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٥٩٥) في حديث طويل.

(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٩٨) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ٣) وغيرهما. وقراءة ابن عباس للآية عند ابن منده في «التوحيد» (١٢).

(٥) أخرجه الآجري في «الشريعة» (١٨٢) (٣٤٩)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (١٣٦٧) (١٣٦٨) (١٣٦٩).

(٦) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢٢٢٧) وقال: «لم يرفعه عن حماد بن زيد إلا مؤمَّل بن إسماعيل». وهو صدوق لكنه سيء الحفظ.

كائنٌ إلى يومِ القِيامةِ، فذلكَ قولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١] ثمَّ ختمَ على القَلَمِ، فلم ينْطِقْ ولا يَنْطِقُ إلى يومِ القيامةِ»(١).

وخرَّجَ الإمامُ أحمدُ وأبو داودَ والترمذيُّ مِنْ حديثِ عُبادةَ بنِ الصَّامتِ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «إنَّ أولَ ما خلقَ اللهُ القلمُ، ثم قالَ: اكتبْ فجَرى في تلكَ الساعةِ بما هُو كائنٌ إلى يومِ القِيامة»(٢).

وفي صحيحِ مسلمٍ عن عبدِ اللهِ بنِ عمروٍ رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ قالَ: «إنَّ اللهَ كتبَ مقاديرَ الخلائقِ قبلَ أنْ يخلقَ السماواتِ والأرضَ بخمسينَ ألفَ سَنةٍ»(٣).

وخَرَّجَ الإمامُ أحمدُ والنَّسائيُّ والترمذيُّ من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عمروٍ قال: «خرَجَ علينا رسولُ الله ﷺ وفي يدِه كتابانِ، فقال: أتدرونَ ما هذانِ الكتابان؟ قُلْنا: لا يا رسولَ اللهِ إلا أنْ تُخبرَنا، فقالَ للذي في يده اليُمنى: هذا كتابٌ من ربِّ العالمين، فيه أسماءُ أهلِ الجنَّةِ وأسماءُ آبائِهم وقبائِلهم، ثم أُجمِلَ على آخرهم، فلا يُزادُ فيهم ولا يُنقَصُ منهم أبداً، ثمَّ قالَ للذي في شِماله: هذا كتابٌ منْ ربِّ العالمين فيه أسماءُ أهلِ النَّارِ وأسماءُ آبائِهم وقبائِلهم، ثمَّ أُجْمِلَ على آخرهم فلا يُزادُ فيهم ولا ينقصُ منهم أبداً، فقال أصحابُه: ففيمَ العملُ يا رسولَ الله إنْ كانَ أمرٌ قدْ فُرِغَ منه؟ فقال: سَدِّدوا وقارِبوا، فإنَّ صاحِبَ الجنَّةِ يُختَمُ له بعملِ أهلِ الجنَّةِ، وإنْ عَمِلَ أيَّ عَمَلٍ، وإنَّ صاحِبَ النَّارِ يُختَمُ له بعَمَلِ أهلِ النَّار وإنْ عَمِلَ أيَّ عَمَلٍ، ثمَّ قالَ رسولُ الله ﷺ

---

(١) أخرجه ابن بطة في «الإبانة الكبرى» (١٣٦٤).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢٢٧٠٥) (٢٢٧٠٧)، وأبو داود (٤٦٦٨)، والترمذي (٢١٥٥) (٣٣١٩) وقال: «حسن غريب».

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٥٣).

بيديه[١] فنبَذَهُما، ثم قال: فَرَغَ رَبُّكَ[٢] مِنَ العِبادِ فريقٌ في الجنَّةِ وفريقٌ في السَّعِير»[٣].

وخَرَّجَ الإمامُ أحمدُ مِنْ حديثِ أبي الدَّرداءِ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «فرغَ اللهُ إلى كلِّ عبدٍ مِنْ خَمْسٍ، من أَجَلِه ورِزْقِهِ وأَثَرِه ومَضْجعه وشَقِيٍّ أو سَعيدٍ»[٤].

وخرَّجَ الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ من حديثِ ابنِ مسعودٍ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «خلقَ اللهُ كلَّ نفسٍ وكَتَبَ حياتَها ورِزْقها ومُصابَها»[٥].

وخَرَّجَ مسلمٌ من حديثِ جابرٍ أنَّ رجُلاً قالَ: يا رسولَ اللهِ فيمَ العملُ اليومَ، أفيما جَفَّتْ به الأقلامُ وجَرتْ به المقاديرُ أم فيما يُسْتَقبلُ؟[٦] قال: «لا بلْ فيما جَفَّتْ به الأقلامُ وجرتْ به المقاديرُ» قال: ففيمَ العملُ؟ قالَ: اعملوا فكلٌّ ميسَّرٌ[٧] [٨].

وفي هذا المعنى أحاديثُ كثيرةٌ جِدًّا، وكذلكَ الآثارُ الموقوفَةُ.

---

(١) في (صل): «بيده».

(٢) في «الترمذي»: «ربكم»، واتفقت جميع نسخنا على ما أثبته.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٦٥٦٣)، والترمذي (٢١٤١) واللفظ له وقال: «حديث حسن غريب صحيح»، والنسائي في «الكبرى» (١١٤٠٩) مختصراً. وآخر الحديث مقتبس من الآية [الشورى: ٧].

(٤) أخرجه الإمام أحمد (٢١٧٢٢) (٢١٧٢٣) من وجهين. وهنا أدرج بين لفظي الوجهين؛ ففي الأول: (عمله)، وفي الثاني: (شقي أو سعيد). فجمع هنا بينهما!

(٥) أخرجه الإمام أحمد (٤١٩٨)، والترمذي (٢١٤٣). وعند الترمذي: «ومصائبها»، وعند أحمد: «ومصيباتها».

(٦) في مطبوعات «صحيح مسلم»: «نَستقبل».

(٧) زاد في (س): «لما خلق له» وهو من تصرف الناسخ.

(٨) الرجل هو سيدنا سراقة بن مالك بن جعشم رضي الله عنه، والحديث أخرجه مسلم (٢٦٤٨).

وقالَ بعضُهم:

سَلِّمِ الأمرَ كلَّه[١] جَفَّ بالكائِنِ القَلَمْ

إنَّ للنَّاسِ خَالِقاً لا مَرَدَّ لما حَكَمْ[٢]

***

فقولُه ﷺ بعدَ هَذا: «فلو أنَّ الخلقَ جميعاً أرادُوا أنْ ينفعُوكَ بشيءٍ لمْ يقضِهِ اللهُ لكَ لم يَقْدِروا عليه، وإنْ أرادُوا أنْ يضُرُّوكَ بشيءٍ لمْ يكتبْه اللهُ عليكَ لم يَقْدِروا عليه»: يريدُ بذلكَ أنَّ ما يصيبُ العبدَ مما يضرُّه أو[٣] ينفعُه في دُنياه فكُلُّه مُقَدَّرٌ[٤] عليه، ولا يمكنُ أنْ يُصيبَه ما لم يكتبْ له[٥] ولم يقدَّرْ عليه، ولو اجتهدَ على ذلكَ الخَلْقُ كلُّهُم جميعاً.

---

(١) في (صل): «سلم لأمرٍ جفت...» وفي (ش): «سلم الأمر واستعن»، والمثبت من (ف).

(٢) هذان البيتان من جملة أبيات من مجزوء الخفيف لأسامة بن منقذ وهي في «ديوانه»:

«فوِّض الأمر راضياً جف بالكائن القَلَمْ

ليس في الرزق حيلةٌ إنما الرزق بالقِسَمْ

ذَلَّ رزقُ الضعيفِ وهـ ـو كلحم على وَضَمْ

وافتقارُ القوي تر هَبه الأسد في الأجمْ

أنَّ للخلقِ خالقاً لا مردَّ لما حكم.»

ومن عبر التاريخ: أن هذه الأبيات كانت مكتوبة في ورقة احترقت أطرافها وألقاها الهواء في الجامع الأموي من حريق هائل وقع بدمشق سنة ٦٨١. انظر خبرها في: «ذيل مرآة الزمان»، لليونيني (٤/ ١٤٦)، و«شذرات الذهب»، لابن العماد (٧/ ٦٤٦).

(٣) في (صل): «إما يضره أو ينفعه».

(٤) في (صل): «مقدور».

(٥) في (صل): «عليه».

وقَدْ دَلَّ القرآنُ أيضاً على مِثْلِ هذا في قولِهِ تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١]، وقولِهِ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢][١]، وقولِه: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وَخَرَّجَ الإمامُ أحمدُ مِنْ حديثِ أبي الدَّرداءِ عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ لكلِّ شيءٍ حقيقةً، وما بلغَ عبدٌ حقيقةَ الإيمانِ حتَّى يعلَمَ أنَّ ما أصابَه لم يكُنْ ليُخْطِئَه، وما أخطأَهُ لم يكنْ لِيُصيبَه»[٢].

وخَرَّجَ أبو داودَ وابنُ ماجَهْ مِنْ حديثِ زيدِ بنِ ثابتٍ عن النبيِّ ﷺ معناهُ أيضاً[٣].

واعلمْ أنَّ مَدارَ[٤] جميعِ هذهِ الوصيةِ منَ النبيِّ ﷺ لابن عبَّاسٍ على هذا الأصلِ وما[٥] بعدَه وما قبلَه متفرِّعٌ عليهِ وراجعٌ إليه، فإنَّه إذا عَلِمَ العبدُ أنَّه لنْ يُصيبَه إلا ما كَتَبَ اللهُ له مِنْ خَيرٍ أو شَرٍّ أو نَفْعٍ أو ضَرٍّ وأنَّ اجتهادَ الخَلْقِ كلِّهم جميعاً على خِلافِ المقدُورِ غيرُ مفيدٍ شيئاً ألبتَّةَ: عَلِمَ حينئذٍ أنَّ الله تَعالى وحدَه هو الضَّارُّ النَّافعُ والمعطي المانعُ، فأوجبَ ذلك للعبدِ توحيدَ ربِّه عزَّ وجَلَّ وإفرادَه بالاستعانَةِ والسُّؤالِ والتَّضرُّعِ والابتهالِ، وإفرادَه أيضاً بالعبادةِ والطَّاعةِ، لأنَّ المعبودَ إنما يُقصَدُ

(١) في (صل) و(ش) إلى قوله: «في كتاب». وفي (ف) إلى قوله: «من قبل». وفي (س) أتم ذكر الآية.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢٧٤٩٠).

(٣) أخرجه أبو داود في ضمن حديث لأبي بن كعب رضي الله عنه موقوفاً (٤٦٦٦) مشيراً إلى حديث زيد مرفوعاً. وأورد ابن ماجه (٧٧) لفظه مرفوعاً.

(٤) من عجائب التصحيف ما ورد في (ش): «هذا و» بدلًا من «مدار»!

(٥) في (س): «وما ذكر».

بعبادَتِه جَلْبُ المنافعِ ودَفْعُ المضَارِّ، ولهذا ذَمَّ اللهُ سبحانَه وتعالى مَنْ يعبدُ ما[1] لا ينفعُ ولا يَضرُّ ولا يُغني عَنْ عابِدِهِ شَيئاً.

وأَيضاً فكثيرٌ ممَّن لا يحقِّقُ الإيمانَ في قلبِهِ يقدِّمُ طاعَةَ مخلوقٍ على طاعَةِ اللهِ رجاءَ نَفْعِه أو دَفْعاً لضرِّه، فإذا تحقَّقَ العبدُ تفرُّدَ اللهِ وحدَهُ بالنَّفْعِ والضرِّ، وبالعَطاءِ والمنْعِ أوجبَ ذلكَ إفرادَه بالطَّاعَةِ والعِبادَةِ وتقديمَ طاعَتِه على طاعةِ الخَلْقِ كلِّهِمْ جميعاً، كما يُوجِبُ ذلكَ أيضاً إفرادَه سُبحانه بالاستِعَانَةِ بِهِ والطَّلَبِ مِنْه.

وقد اشتَمَلتْ هذهِ الوصيَّةُ العظيمةُ الجامعةُ على هذِهِ الأمورِ المهمَّةِ كلِّها، فإنَّ حِفْظَ العبدِ للهِ عزَّ وجَلَّ هو حِفْظُ حُدودِه ومراعاةُ حقوقِهِ، وهُو حقيقةُ عبادَتِه، وهُوَ أَوَّلُ ما صَدَرتْ به هذهِ الوصيَّةُ، ورَتَّبَ على ذلكَ حِفْظَ اللهِ لعبدِه، وهو نهايةُ ما يَطْلُبه[2] العبدُ مِنْ ربِّه ويُريدُه منه، ثمَّ عَقَّبَ ذلكَ بذِكرِ التَّعرُّفِ إلى اللهِ في الرَّخاءِ وأنَّه مُقْتَضٍ لمعرفةِ اللهِ لعَبْدِه في الشِّدَّةِ، وهذا هُو مِنْ تَمامِ حِفْظِ اللهِ لعبدِه وداخلٌ فيه، إلا أنَّ حَالَةَ الشِّدَّةِ لما كانَ العِبادُ مُضطَرِّينَ فيها إلى مَنْ يعرِفُهُم ويُفرِّجُ عنهم خُصَّت بالذِّكرِ لهذا المعنَى.

وفي هذهِ الحالةِ يُخْلِصُ المشركونَ الدعاءَ للهِ [3] وحدَه، ويُفْرِدُونَه بالسُّؤالِ والطَّلبِ لِعلمِهِم أنَّه لا يكشِفُ الضرَّ سِواه سُبحانه، ثمَّ يعودونَ عندَ كَشْفِ الضرِّ عَنْهم إلى الشِّركِ كما ذَكَرَ سُبحانه ذلكَ عنهُم في مواضعَ مِنْ كتابِه[4]، وذَمَّهُمْ عليه، فأمرَ

---

(١) سقط من (صل): «يعبد ما».

(٢) في (صل): «يطلب».

(٣) في (صل): «يخلص المشركون لله الدعاء وحده»، وفي (ف): «الدعاء إلى الله وحده».

(٤) من ذلك قول تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٥٤].

رسولُ[١] اللهِ ﷺ بُمخالَفَتِهم في ذلكَ بالتعرُّفِ إلى اللهِ في حَالِ الرَّخاء، بإخلاصِ[٢] الدِّينِ لهُ وحدَه، وبطاعَتِه والتقرُّب إليه، ليوجِبَ ذلكَ معرفتَه لهم في الشِّدَّةِ وكشفِها عنهُم، ثم عقَّبَ ذلكَ بذكرِ إفرادِ الله بالسُّؤالِ وإفرادِهِ بالاستعانةِ، وذلكَ يشمَلُ حالَ الشِّدةِ وحالَ الرَّخاءِ.

ثــم ذكرَ بعدَ هذا كلِّه الأصلَ الجامعَ الذي تَنْبني[٣] عليهِ هذهِ المطالبُ كلُّها، وهو تفرُّدُ اللهِ سبحانَه وتعالى بالضرِّ والنَّفعِ والعَطاءِ والمنعِ، وأنَّه لا يصيبُ العبدَ من ذلكَ كلِّه إلا ما سبقَ تقديرُه وقضاؤه له، وأنَّ الخلقَ كلَّهم عاجِزونَ عنْ إيصالِ نَفْعٍ أو ضُرٍّ غيرِ مقدَّرٍ في الكِتَابِ السَّابِقِ.

وتحقيقُ هذا يقتَضِي انقطاعَ العَبْدِ عن التَّعَلُّقِ[٤] بالخَلْقِ، وعن سُؤالِهم واستعانَتِهم ورجائِهم لجَلْبِ[٥] نَفْعٍ أو دَفْعِ ضرٍّ أو خَوفِهم منْ إيصالِ ضرٍّ[٦] أو مَنْعِ نَفْعٍ، وذلكَ يستلزمُ إفرادَ اللهِ سبحانَه بالطَّاعَةِ والعِبادَةِ أيضاً، وأَنْ تُقَدَّمَ[٧] طاعَتُه على طاعةِ الخَلْقِ كلِّهم جَميعاً، وأَنْ يُتَّقَى سَخَطُه وَلَو[٨] كانَ فيه سَخَطُ الخَلْقِ جميعاً.

وقَـدْ جَـاءَ مِـنْ حديـثِ أبي سـعيدٍ مرفُوعـاً: «إنَّ مِـنْ ضَعـفِ اليَقيـنِ أنْ تُرضِيَ

(١) في (صل): «فأمر ﷺ»، وفي (س): «فأمره ﷺ».

(٢) في (صل): «وبإخلاص».

(٣) في (ش): «تُبْتَنى».

(٤) في (س): «بالتعلق» وهو خطأ.

(٥) في (ش) و(س): «بجلب».

(٦) تصحفت في (صل) إلى «خير».

(٧) ضبطها في (ش): «يُقَدَّم».

(٨) في (ف): «وإن كان».

النـاسَ بسَـخَطِ اللهِ، وأنْ تحمَدَهُـم علـى رِزْقِ اللهِ، وأنْ تَذُمَّهـم علـى ما لـمْ يُؤتِكَ اللهُ. إنَّ رِزْقَ اللهِ لا يَجُـرُّهُ حِـرصُ حَريـصٍ ولا يَـرُدُّه كَراهَـةُ[1] كاره».

[رُوِيَ عن ابنِ مسعودٍ منْ قَولِهِ نحوُه[2]].

ومَا أحسنَ قولَ بعضِهم:

فليتَـكَ تحلُـو والحيـاةُ مـريرةٌ ... وليتَكَ تـرضَى والأنـامُ غِضَـابُ

وليـتَ الـذي بيني وبينَـكَ عامـرٌ ... وبينـي وبيـنَ العالَميـن خـرابُ

إذا صـحَّ مِنْـكَ الـودُّ فالـكلُّ هيِّـنٌ ... وكلُّ الـذي فـوقَ التُّـرابِ تُـرابُ[3]

فمَنْ تحقَّقَ أنَّ كلَّ مخلوقٍ فوقَ التُّرابِ فهو ترابٌ فكيفَ يُقَدِّمُ[4] طاعةَ شيءٍ منَ التُّرابِ على طاعَةِ ربِّ الأرباب؟ أم كيفَ يُرضِي التُّرابَ بسَخَطِ الملكِ الوهَّاب؟ إنَّ هذا لشيءٌ عُجَاب!

وقدْ دلَّ القرآنُ على هذا الأصلِ، وهو تفرُّدُ اللهِ سبحانَه بالعَطاءِ والمنعِ في مواضعَ كثيرةٍ جِداً، كقولِهِ تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ

---

(١) في (س): «كراهية». أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ١٠٦) (١٠/ ٤١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٠٣)، وفيه محمد بن مروان السدي، ضعيف.

(٢) ما بين معقوفين سقط من جميع النسخ. ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» من حديث ابن مسعود مرفوعاً (٢٠٤). ورواه موقوفاً (٢٠٥) من طريق ابن أبي الدنيا في «اليقين» (٣١). وأخرجه هناد بن السري (٥٣٥) موقوفاً كذلك، وسيذكره المصنف (٢/ ١٨٢).

(٣) الأبيات مشهورة من قصيدة لأبي فراس الحمداني، وهي في «يتيمة الدهر» للثعالبي (١/ ٩٥). قال ابن القيم رحمه الله في «مدارج السالكين» في منزلة الإيثار (٢/ ٢٨٦): ولقد أحسن أبو فراس في هذا المعنى إلا أنه أساء في قوله إذ يقوله لمخلوق لا يملك له ولا لنفسه نفعاً ولا ضراً». وذكر الأبيات...

(٤) في (ف): «يُقْدِم على».

فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢] وقولِه تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]. وقولِه تعالى حاكياً عنْ نبيِّه نوحٍ عليه السَّلام أنَّه قالَ لقومِه: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]، وقولِهِ تعالى حَاكياً عنْ نبيِّه هُودٍ عليه السَّلام: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦].

وقالَ بعضُهُم:

مَـا قَـدَّرَ اللهُ لـي لا بُـدَّ يـدرِكُنـي ... مَنْ ذَا الـذي يدْفَـعُ المقـدُورَ بالحَـذَرِ

اللهُ أولـى بِـنَا مِنَّـا بـأنـفُـسِنـا ... إنْ نَحْـنُ إلا مماليـكٌ لمقتَـدِرِ[(١)]

وشَكا رَجُلٌ إلى فُضَيْلٍ الفَاقَةَ، فقالَ له فضيلٌ: أُمدبِّراً غيرَ الله تريد؟[(٢)].

وقالَ بعضُهُم:

دَبِّـرْ فليـسَ بمغـنٍ عنـكَ تدبيـرُ ... وليـسَ يعـدُوكَ[(٣)] بالتَّدبيـرِ تَقْدِيـرُ

---

(١) لم أجد البيتين عند غير المصنف رحمه الله. وفي حاشية (ش): «بلغ ثانياً».

(٢) في (صل): «أمدبرٌ»، وفي حاشية (س): «مفعول تريد مقدَّم». والخبر في «حلية الأولياء» (٨/ ٩٣).
وجاء في حاشية (صل): «وقال ابن عطاء الله رضي الله عنه: إنْ أردتَ أن يدبر، فدبر أن لا تدبر». والكلام لأبي الحسن الشاذلي رحمه الله ذكره ابن عجيبة في شرح الحكمة الرابعة من «الحكم العطائية».

(٣) في (س): «يدعوك»، وفي حاشيتها «يعروك».

إنَّ الأمورَ لها ربٌّ يدبِّرُها فما[١] قضى الربُّ[٢] ساقَتْه المقاديرُ[٣]

***

قوله ﷺ: «واعلمْ أنَّ في الصَّبْرِ على ما تكره[٤] خَيْراً كثيراً»:

وفي رواية عُمرَ مولى غُفْرَةَ وغيرِه عن ابنِ عبَّاس زيادةٌ قبلَ هذا الكَلامِ وهي: «**فإن استطعتَ أنْ تعملَ للهِ بالرِّضا في اليَقِينِ فافعلْ، وإنْ لَمْ تستَطِعْ فإنَّ في الصَّبْرِ على ما تَكْرَهُ خيراً كثيراً**»[٥].

ومرادُه باليَقينِ هاهُنا: تحقيقُ الإيمانِ بما سبقَ ذِكره من التَّقديرِ السَّابقِ، كما وَردَ ذلكَ صَريحاً في روايةِ عليِّ بنِ عبدِ اللهِ بنِ عباسٍ عن أبيه ـ لكنْ بإسنادٍ ضَعيفٍ ـ، وفي رِوايَته زيادةٌ، وهي: قلتُ: يا رسولَ اللهِ كيفَ أصنعُ باليقينِ؟ قالَ: «أنْ تعلمَ أنَّ ما أصابَكَ لم يكنْ ليُخْطِئَكَ، وأنَّ مَا أَخطأَكَ لَمْ يكُنْ لِيُصيبَكَ، فإذا أنتَ أحكمتَ بابَ اليَقينِ»[٦].

فحصُولُ اليقينِ للقلبِ بالقَضَاءِ السَّابقِ والتَّقديرِ الماضِي يُوجِبُ رضا النَّفْسِ بالقَضَاءِ والقَدَرِ وطُمأنِينتَها به.

وقَدْ دَلَّ القرآنُ على هَذا[٧] المعنى بعَينِهِ في قَولِهِ تعالى: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا

---

(١) في (ف): «فمهما».

(٢) في (س): «الرحمن» وفي حاشيتها «الله».

(٣) لم أجد البيتين عند غير المصنف رحمه الله. وفي حاشية (ش): «بلغ ثانياً».

(٤) فسرها في حاشية (س): «النفس».

(٥) سبق في أول الكتاب تخريج هذه الرواية.

(٦) سبق تخريج هذه الرواية في أول الكتاب.

(٧) في (س): «مثل هذا».

فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]. قالَ الضَّحَّاكُ في هَذهِ الآيةِ: عَزَّاهُم (لكَيْلا تأسَوا على مَا فاتكم)[١]: لا تَأسَوا على شَيءٍ منْ أَمْرِ الدُّنيا، فإنَّا لمْ نقدِّرْه لَكُم، (ولا تفْرَحُوا بمَا آتاكُم): لا تَفْرَحُوا بشيءٍ مِنْ أَمْرِ الدُّنيا أعطَيناكُمُوه، فإنَّه لمْ يَكُنْ يُزوى عَنْكم. خَرَّجهُ ابنُ أبي الدُّنيا[٢].

وقالَ سعيدُ بنُ جُبيرٍ في هَذهِ الآيةِ: لكَيْلا تَأسَوا على مَا فَاتَكم مِن العَافِيَةِ والخِصْبِ، إذا عَلِمْتُم أنَّه كانَ مَكتُوباً عَليكُم قَبْلَ أنْ يخلُقَكُم. خَرَّجه ابنُ أبي حاتم[٣].

ومِنْ هَذا المعنى قولُ بعضِ السَّلَفِ: الإيمانُ بالقَدَرِ يُذْهِبُ الهمَّ والحُزنَ[٤].

وقَدْ أشارَ النبيُّ ﷺ إلى ذلكَ بقولهِ في الحديثِ الصَّحيحِ عنه: «احرِصْ على ما يَنْفَعُكَ، واستعنْ باللهِ ولا تعجِزْ[٥]، فإنْ أصابكَ شيءٌ فلا تقلْ: لو أنِّي فعلتُ كذا، ولكنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وما شَاءَ فَعَلَ، فإنَّ اللَّو تفتحُ عملَ الشَّيطانِ»[٦]، فأشارَ في هذا الحديثِ إلى أنَّ تذكيرَ النَّفسِ بالقَدَرِ السَّابِقِ عندَ المصائِبِ يُذْهِبُ وساوسَ الشيطانِ الموجبَةَ للهَمِّ والحُزْنِ والنَّدمِ على تعاطِي الأسبابِ الدَّافِعَةِ لوُقُوعِها.

---

(١) في (ب) و(ش) و(ف): «يأسوا على ما فاتهم».

(٢) في «القناعة والتعفف» (١٦٩).

(٣) لم أجده في تفسير ابن أبي حاتم، ونقله مختصراً: الماوردي في تفسيره «النكت والعيون» (٥/ ٤٨٢). والقرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ٢٥٨).

(٤) رواه القضاعي في «مسند الشهاب» (٢٧٧) والخطيب في «المتفق والمفترق» (٣٦٧) مرفوعاً من حديث أبي هريرة. والحديث لا يثبت مرفوعاً، لذا اقتصر المصنف رحمه الله على نسبته لبعض السلف.

(٥) في (س): «تعجزن». وفي (ب): «ولا تحزن»، وفي الهامش: «تعجز» وفوقها (خ).

(٦) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وفي (س) و(ف): «فإن لو».

وقالَ أنسٌ: خدمتُ النبيَّ ﷺ عشْرَ سِنين، فما قالَ لي لشيءٍ فعلتُه: لِمَ فعلَت كَذا وكَذا، ولا لشيءٍ لَمْ أفعَلْه: ألا فعلتَ كَذا. قالَ: وكانَ إذَا لامَني بعضُ أهلِه قال[1]: «دَعُوه، فلو[2] قُدِّرَ شيءٌ كانَ»[3]، خَرَّجَه الإمامُ أحمدُ بهذهِ الزيادة.

وَخَرَّجَ ابنُ أبي الدُّنيا بإسنادٍ فيه نَظَرٌ عَنْ عائِشَةَ رضِيَ اللهُ عنها قالتْ: كانَ أكثرُ كلامِ النبيِّ ﷺ في بَيْتِهِ إذا خَلا: «مَا قُضِيَ[4] مِنْ أَمْرٍ يَكُنْ»[5].

وخَرَّجَ أيضاً حديثاً مُرْسلاً: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ لابنِ مَسْعُودٍ: «لا تُكْثِرْ هَمَّكَ، ما يُقَدَّرْ[6] يَكُنْ، وما تُرزَقْ يأتِكَ»[7].

وفي حَديثِ أبي هُريرة عن النَّبيِّ ﷺ: «لا حَوْلَ ولا قوَّةَ إلّا باللهِ دَواءٌ مِنْ تِسعَةٍ وتسعينَ داءً أيسَرُهَا الهَمُّ». خَرَّجَهُ الطَّبرانيُّ والحاكمُ[8].

فإنَّ تحقيقَ هذهِ الكَلِمَةِ يقتَضِي تفويضَ الأمورِ إلى اللهِ، وأنَّه لا يكونُ إلا ما شاءَه[9]، والإيمانُ بذلكَ يُذهِبُ الهَمَّ والغَمَّ.

---

(١) في (صل) و(ف) و(ب): «يقول».

(٢) في (ش) و(س): «لو».

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٦٨) (٦٠٣٨) (٦٩١١)، ومسلم (٢٣٠٩)، والإمام أحمد في مواضع كثيرة، وهذه الزيادة في (١٣٤١٨).

(٤) في (س): «قضى الله».

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله بقضائه» (٢) ولفظه: «ما يُقضى من أمر يكون».

(٦) في (س): «قدر».

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» (٢٠) (٢٨).

(٨) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٠٢٨)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٤١)، وقال: «حديث صحيح ولم يخرجاه».

(٩) في (ب): «شاء».

وقدْ وَصَّى النبيُّ ﷺ رُجلاً، فقالَ له[1]: «لا تَتَّهِم اللهَ في شَيءٍ قَضَاهُ لكَ»[2].

فإذَا نَظَرَ المؤمنُ بالقَضاءِ والقَدَرِ في حِكْمَةِ[3] اللهِ ورَحمتِه، وأنَّه غيرُ متَّهَمٍ في قَضَائهِ: دعَاهُ ذلكَ إلى الرِّضَا بالقَضَاء.

وقالَ اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن: ١١].

قالَ[4] عَلْقَمَةُ في هَذهِ الآيةِ: هيَ المُصيبَةُ تُصِيبُ الرَّجُلَ فيعلم أنَّها مِنْ عندِ اللهِ، فيسلِّمُ لها ويرضَى[5].

وفي الحَديْثِ الصَّحِيحِ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «لا يقضي اللهُ للمؤمِنِ قضاءً إلا كانَ خَيْراً له، إنْ أصابَتْه سَرَّاءُ شكرَ فكانَ خيراً له، وإنْ أصابَتْه ضَرَّاءُ صَبَر فكانَ[6] خيراً له، وليسَ ذلكَ إلا للمُؤمِنِ»[7].

وقَدْ دَلَّ القرآنُ على مِثْلِ هذا المعنى في قولِهِ تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ [التوبة: ٥١ ـ ٥٢] الآية. فأخبرَ أنه لن يُصيبَهُم إلَّا ما كَتَبَ لهم،

---

(١) «له» سقطت من (صل) و(س).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢٢٧١٧) من حديث عبادة بن الصامت، و(١٧٨١٤) من حديث عمرو بن العاص. وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله بقضائه» (٥) مرسلاً.

(٣) في (ف): «حكم».

(٤) في جميع النسخ عدا (ب): «وقال».

(٥) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٥٠٣).

(٦) في النسخ: «كان» في الموضعين، والمثبت موافق للرواية.

(٧) لعل في السياق إدراجاً، فأول الحديث أخرج نحوه الإمام أحمد (٢٠٢٨٣) من حديث أنس رضي الله عنه، وباقيه عند مسلم (٢٩٩٩) وهو من حديث صهيب رضي الله عنه.

فدَلَّ على أنَّه لهم بكُلِّ حَالٍ، سواءٌ كانَ مما يُلائِمُ أو لا يُلائِم، ثم[1] أخبرَ أنَّه تَعالى مولاهُم، ومَنْ تولاهُ[2] اللهُ لمْ يَخْذله، بلْ هُو يتولَّى مصالِحَه، قالَ تعالى: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٤٠]، ثمَّ عَقَّبَ ذلكَ بقولِهِ: ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ﴾ يعني إمَّا النَّصْرَ والظَّفَرَ، وإمَّا الشهادةَ، وأيُّهما كانَ فهُو حُسْنى[3].

وخَرَّجَ الترمذيُّ مِنْ حديثِ أنسٍ عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ اللهَ إذا أحبَّ قوماً ابتَلاهُم، فمَنْ رَضِيَ فلَهُ الرِّضا، ومَنْ سَخِطَ فلَه السَّخَطُ»[4].

قالَ أبو الدَّرداءِ: إنَّ اللهَ إذا قَضَى قضاءً أحبَّ أنْ يُرضَى به[5].

وقالتْ أمُّ الدرداءِ: إنَّ الراضينَ بقضاءِ اللهِ الذينَ مَا قُضِيَ[6] لَهم رَضُوا به[7]، لهمْ في الجَنَّةِ منازِلُ يَغْبِطُهم بها الشُّهداءُ يومَ القِيامَةِ[8].

وقالَ ابنُ مسعودٍ: إنَّ اللهَ بِقِسْطِه وعِلْمِه جَعلَ الرَّوْحَ والفَرَجَ في اليقينِ والرِّضا، وجَعَلَ الهَمَّ والحُزْنَ في الشَّكِّ والسَخَطِ. وقد رُوِيَ هذا مَرفُوعاً مِنْ وَجْهٍ ضَعِيفٍ[9].

---

(١) في (ب) و(ش) و(ف) و(س): «و».

(٢) في (س): «يتولى».

(٣) تصحفت في (صل) إلى: «خير»، وفي (ف) و(س) ونسخة في هامش (ب) إلى: «حَسَن».

(٤) أخرج الترمذي (٢٣٩٦) وقال: «حسن غريب من هذا الوجه».

(٥) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٢٤) وهو من آخر ما قاله أبو الدرداء رضي الله عنه كما في «نسخة أبي مسهر» (٢٠) وغيره.

(٦) في (س): «قضاه».

(٧) في (س): «رضوه».

(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله بقضائه» (٨).

(٩) سبقت الإشارة إليه عند تخريج طرف منه (٢/ ١٧٦)، روي نحوه من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، =

وكانَ عُمرُ بنُ عبدِ العزيزِ يقولُ: لقدْ تَركَتْني هؤلاءِ الدعوات ومَا لي في شيءٍ من الأمورِ أَرَبٌ إلا في مَواقِعِ قَدَرِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وكانَ يدعُو بها كثِيراً: اللهمَّ رضِّني بقضائِكَ، وبارِكْ لي في قَدَرِكَ، حتَّى لا أحِبَّ تعجيلَ شيءٍ أخَّرتَه ولا تأخيرَ شيءٍ قدَّمْتَه[1].

وقالَ ابنُ عَون: ارضَ بقضاءِ اللهِ على ما كانَ مِنْ عُسْرٍ ويُسْرٍ فإنَّ ذلكَ أقلُّ لهمِّكَ وأبلغُ فيما تَطْلُبُ مِنْ أمرِ آخرتِكَ، واعلمْ أنَّ العبدَ لنْ يُصيبَ حقيقةَ الرِّضا حتَّى يكونَ رِضاهُ عِنْدَ الفَقْرِ والبَلاءِ كرِضَاهُ عندَ الغِنى والرَّخاءِ، كيفَ تستَقْضِي اللهَ في أَمْرِكَ ثمَّ تسخَطُ إنْ رأيتَ قضاءَه مُخالفاً لهواكَ؟ ولعَلَّ[2] مَا هَوِيتَ مِنْ ذلكَ لو وُفِّقَ لكَ لكانَ فيهِ هَلَكَتُكَ[3]! وترضَى قضاءَه إذا وافقَ هَواكَ، وذلكَ لِقلَّةِ علمِكَ بالغَيبِ، وكيفَ تستَقْضِيه إنْ كنتَ كذلكَ! ما أنصفتَ مِنْ نفسِكَ، ولا أصبتَ بابَ الرِّضا[4].

وهذا كلامٌ حَسَنٌ ومعناه: أنَّ العبدَ إذا استخارَ اللهَ عزَّ وجَلَّ فينبَغِي له أنْ يرضَى بما اختَارَهُ لهُ مِنْ مُوافِقٍ لهواهُ أو مخالفٍ له، لأنَّه لا يدرِي في أيِّهما الخيرةُ له، واللهُ تعالى [أعلمُ، وهو][5] غيرُ متَّهمٍ في قضائِه لمن استخَارَه[6].

= رواه موقوفاً: هناد بن السري في «الزهد» (٥٣٥)، وابن أبي الدنيا في «اليقين» ومن طريقه: البيهقي في «الشعب» (٢٠٥)، وأخرجه مرفوعاً البيهقي في «الشعب» (٢٠٤).

(١) أخرجه ابن عبد الحكم في «سيرة عمر بن عبد العزيز» (ص: ٩٧)، وابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله بقضائه» (٤٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٢٤) وغيرهما.

(٢) في (ف): «ولعلَّك».

(٣) في (ف) و(س): «هلاكك». وفي (ب): «هلتك»!.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله بقضائه» (٦٩).

(٥) ما بين معقوفين من (ش) وحدها. وفي (صل) و(ب): «والله سبحانه غير متهم».

(٦) في حاشية (س): «بلغ».

ومِنْ هاهُنا كانَ طائفةٌ من السَّلَفِ كابنِ مسعودٍ وغيرِهِ يأمرونَ مَنْ يخافُ أنْ لا يَصْبِرَ على ما يُخالِفُ هواهُ مما يختارُ لهُ أنْ يقولَ في استخارَتِه[١]: في عافيةٍ[٢]، فإنَّه قَدْ يختارُ له البلاءَ ولا يصبرُ عليهِ.

وقد رُوِيَ مرفُوعاً مِنْ وَجْهٍ ضعيفٍ[٣].

وعَنْ بكرٍ المزنيِّ أنَّ رجُلاً كانَ يُكْثِرُ الاستخارةَ فابتُلِي، فجَزِعَ[٤] ولَمْ يصبرْ، فأَوحى اللهُ إلى نبيٍّ مِنْ أنبيائِهم[٥] أنْ قُلْ لعبدِي فلانٍ: إذا لَمْ تكنْ[٦] مِنْ أهلِ العزائِم فهلَّا استخرتَني في عافيةٍ؟[٧]

وفي حديثِ سَعْدٍ المرفوعِ: «إنَّ مِنْ سعادةِ المَرءِ[٨] استخارَتَه ربَّه عزَّ وجَلَّ ورِضَاه بما قَضَى، وإنَّ مِنْ شَقَاوَتِه تركَه[٩] الاستخارةَ، وسخَطَه بما قَضى». خرجه الترمذيُّ وغيره[١٠].

---

(١) في (س): «دعاء استخارته».

(٢) لم أظفر بذلك عن ابن مسعود أو عن غيره، وقد روى دعاءَ الاستخارة عن ابن مسعود موقوفاً وليس فيه هذا اللفظ «في عافية»: عبدُ الرزاق في «مصنفه» (٢٠٢١٠)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٠٠٣٥)، والله أعلم.

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٠٥٢) (١٠٤٢١)، وفي «الدعاء» (١٣٠١).

(٤) في (س): «فعجز». تصحيف.

(٥) في (صل): «أنبيائه».

(٦) في (صل) مهملة، والنقط من (ش)، وفي (ف) و(س): «يكن».

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصبر والثواب عليه» (٧٧).

(٨) من (صل) وفي غيرها: «العبد».

(٩) في (ف): «ترك»، وفي (س): «شقاوة العبد ترك».

(١٠) أخرجه الترمذي (٢١٥١) وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن أبي حميد، =

وللرِّضا بالقَضَاءِ أسبابٌ:

* **مِنْها**: يقينُ العبدِ باللهِ وثقتُه بِه بأنَّه[١] لا يَقْضِي للمؤمِنِ قضاءً إلا وهُو خيرٌ له، فيصيُر كالمريضِ المستَسْلِمِ للطَّبيبِ الحاذِقِ النَّاصِحِ، فإنَّه يَرْضَى بما يَفْعَلُه به مِنْ مُؤلِمٍ وغيرِه، لثقته بِهِ، ويقينِه أنه لا يريدُ لهُ[٢] إلَّا الأصلَحَ، وهذا هُو الذي أشارَ إليه ابنُ عَوْنٍ في كلامِهِ المتقدِّمِ ذِكْرُه.

* **ومِنها**: النَّظَرُ إلى ما وَعَدَ اللهُ مِنْ ثوابِ الرِّضا، وقدْ يَسْتَغْرِقُ العبدُ في ذلكَ حتَّى ينسَى أَلَمَ المَقْضِيِّ به، كما رُوِيَ عن بعضِ الصَّالحاتِ مِن السَّلَفِ أنَّها عَثَرتْ فانكَسَرَ ظُفُرُها فضَحِكَتْ، وقالتْ: أَنساني لذَّةُ ثوابِهِ مرارةَ أَلَمِهِ[٣].

* **ومِنْها: وهُو أعلى مِنْ ذلكَ كلِّه**: الاستِغْراقُ في محبَّةِ المُبْتَلِي، ودوامُ ملاحَظَةِ جلالِهِ وجمالِه وعظَمَتِه وكمالِه، الذي لا نِهايةَ له، فإنَّ قوَّةَ ملاحظةِ ذلكَ تُوجِبُ الاستغراقَ فيه، حتى لا يَشعُرَ بالأَلَمِ، كمَا غابَ النِّسوةُ اللَّاتي [قطَّعن أيديهنَّ حين][٤] شَاهَدْنَ يوسُفَ عَنْ ألمِ تَقْطِيعِ أيديْهِنَّ بمُشاهَدَتِه.

قالَ الجُنيدُ: سألتُ سَرِيّاً: هَلْ يجِدُ المحبُّ ألمَ البلاءِ؟ فقالَ: لا[٥]. وهذا إشارة مِنهُ إلى هذا المقامِ.

= وليس هو بالقوي عند أهل الحديث، وأخرجه الإمام أحمد (١٤٤٤) والبزار (١٠٩٧) (١١٧٨) وهو أقربها إلى اللفظ الذي أورده المصنف.

(١) في (س): «به لأنه». وسقطت (به): من (صل) و(ف).

(٢) في (س): «به».

(٣) أخرجه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (٣٠٦١) قال زيد بن أبي الزرقاء: عثرت امرأة فتح الموصلي، فانقطع ظفرها... بنحوه.

(٤) زيادة من (س) وحدها.

(٥) نقله الإمام الغزالي في «الإحياء» (٤/ ٣٤٨) في بيان حقيقة الرضا.

ومنهُ قولُ جماعةٍ مِنْ أهلِ البَلاءِ: دَعْهُ يفعَلُ بِنا ما يَشاءُ، فلَو قَطَّعَنا إرْباً إرْباً ما ازدَدنا لهُ إلا حُبًّا[١].

وفي هذا المعنى يقولُ بعضُهم:

لـو قَطَّعَنـي الغـرامُ إرْبـاً إرْبـا ... ما ازدَدْتُ علـى المَـلامِ إلا حُبَّـا
لا زلـتُ بكُـم أَسيرَ وَجْـدٍ صَبًّـا[٢] ... حتَّـى أقضِـي علـى هَواكـم نَحْبَـا[٣]

وكانَ إبراهيمُ بنُ أَدْهَمَ قد خَرَجَ عَنْ[٤] مِلْكِهِ ومالِه وولدِه وحَشَمِه، فرأى وَلَدَه في الطَّوافِ فلَمْ يُكلِّمْه، وقالَ:

هَجَـرتُ الخَلـقَ طُـرّاً فـي رضاكا[٥] ... وأَيتَـمْـتُ العِيـالَ لِكَـيْ أَراكا
فلَـو قَطَّعْتَنـي فـي الحُـبِّ إرْبـاً ... لمـا حَـنَّ الفـؤادُ إلـى سِـواكا[٦]

كانَ جماعةٌ من المحبِّين كالفُضَيلِ وفَتْحِ الموصليِّ إذا باتُوا ليلةً بغيرِ عَشَاءٍ ولا سِراجٍ اشتَدَّ فَرحُهم وبَكَوا مِن الفَرحِ وقالُوا: مِثلُنا يُتركُ بغيرِ عَشَاءٍ ولا سِراجٍ! بأيِّ يدٍ كانتْ مِنَّا؟ وبأيِّ وَسيلةٍ توسَّلْنا بِها؟[٧]

---

(١) من ذلك ما نقله الغزالي أيضاً (٣٤٨/٤) عن بشر أنه وجد رجلًا أعمى مجذوماً مجنوناً قد صرع والنمل يأكل لحمه... فقال له الرجل ذلك...

(٢) في (ش): «وَضَنا»، وفي (س): «وصبا».

(٣) ذكرهما ابن الجوزي في «المدهش» (ص: ١٨٢).

(٤) في (ف) و(س): «من».

(٥) في (ب) و(ش) وحاشية (ف)، و(س): «هواكا».

(٦) أخرج القصة بأطول من هذا: ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦/ ٣٠٦)، وابن الجوزي في «مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن» (٢٨٠).

(٧) خبر فتح الموصلي أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٦٤٦). وخبر الفضيل في «المجالسة وجواهر العلم» للدينوري (٢٢٩٨)، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (٤٨/ ٤٩٥).

وكانَ فَتْحٌ يجمَعُ ولدَه في ليالي الشِّتاءِ ويُغَطِّيهم بكِسَائِه، ويقولُ: أَجَعْتَني وأجعت عِيالي وأعرَيتَنِي وأعريت عِيالي، وإنَّما تفعلُ ذلكَ بأوليائِكَ وأحبابِكَ، فهلْ أنا مِنْهُم حتَّى أَفْرَحَ[1]؟.

دَخَلُوا على بعضِ السَّلفِ وهُو مريضٌ[2]، فقالَ: أَحَبُّه إليَّ أَحَبُّه إليهِ[3].

وفي هَذا يقولُ بعضُهم:

عَذابُـه فيـكَ عَـذْبُ ... وبُـعدُه فيـكَ قُـرْبُ

وأنـتَ عنـدِي كرُوحـي ... بـل أنـتَ منهـا أحـبُّ

حَسْبِي مِن الحُبِّ أنِّـي ... لِمـا تُحِـبُّ أُحِبُّ[4]

وأنشدَ أبو تُرابٍ النَّخْشَبيُّ رَحمَه اللهُ:

لا تُخْدَعَـنَّ فلِلمُحِـبِّ دلائـلُ ... ولَدَيْهِ مِـنْ تُحَفِ الحبيـبِ وَسَـائِلُ

منهـا تَنَعُّمُهُ بمُـرِّ بلائِـهِ ... وسُرُورُه فـي كلِّ مـا هُـو فَاعِـلُ

فالمنْـعُ مِنْـهُ عَطِيَّـةٌ مقبُولَـةٌ ... والفَقْـرُ إكـرامٌ وبِـرٌّ عَاجِـلُ

[ومِـنَ الدلائـلِ أنْ تُـرى عَـزَمَاتُه ... طَـوْعَ الحبيـبِ وإن ألـحَّ العـاذِلُ

ومِـن الدلائـلِ أن يُـرى مُتفهِّمـاً ... لـكلامِ مَـنْ يَحظـى لديـهِ السـائلُ

ومِـن الدلائـلِ أن يُـرى متبسِّـماً ... والقلـبُ فيـه مـن الحبيـبِ بلابـلُ

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (١٤/ ٣٥٩). وفي حاشية (ش): «إلى هنا...».

(٢) زاد ناسخ (س): «فقالوا له: ما تحب».

(٣) هو التابعي الجليل أبو العالية رحمه الله تعالى. وأخرج هذا الأثر عنه: ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله بقضائه» (٣٩).

(٤) ذكر ابن الجوزي الأبيات في «صيد الخاطر» (٢٩٧).

ومن الدلائلِ أن يُرى متخفِّياً ... في كل ما هو قائلٌ أو فاعلُ][1]

دَخلُوا على رَجُلٍ قدْ قُتِل ابنه[2] في الجِهاد يعزُّونه [فيه][3] فبكى، وقالَ: ما أَبكِي على قَتْلِه، إنَّما أَبكِي كيفَ كانَ رِضاه عن اللهِ حينَ أخذتْهُ السُّيوفُ[4].

وقالَ بعضُهم:

إنْ كانَ سُكَّانُ الغَضَا ... رَضُوا بقَتْلِي فرِضَا

واللهِ لا[5] كنتُ لما ... يَهوى الحبيبُ مُبغِضَا

صِرْتُ لهمْ عَبداً ومَا ... للعبدِ أنْ يَعْتَرِضا

هُمْ قلَّبوا قلبي مِن الشَّـ ... ـوقِ على جَمْرِ الغَضَا

يا ليتَ أيَّامَ الحِمى ... يعودُ مِنْها ما مَضَى

مَنْ لمريضٍ لا يَرى ... إلا الطَّبيبَ المُمْرِضَا[6]

---

(١) نقل الأبيات أبو طالب المكي في «قوت القلوب» في الفصل (٣٢) (٢/ ١٠٣)، والغزالي في «الإحياء» (٤/ ٣٣٩). وما بين معقوفين من (ش) وحدها.

(٢) في (ف): «ولده».

(٣) في (س): «فجعلوا يعزونه»، وما بين معقوفين من (ش) وحدها.

(٤) ذكره المصنف في «اختيار الأولى»، وفي شرح حديث «لبيك». وذكر ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله بقضائه» (٧٣)، والبيهقي في «الشعب» (٩٦٤٥) نحو هذه القصة من رواية أبي عبد الرحمن الجرجاني أنه ذهب ليعزي رجلاً وقد قتلت الترك ابنه، فبكى... القصة.

(٥) في (ف): «ما».

(٦) هي من شعر أبي عبد الله الحسين بن محمد بن عبد الوهاب، البارع النحوي الشاعر، المتوفى سنة (٥٢٤هـ) رحمه الله تعالى، وهذه الأبيات أوردها ابن الجوزي في «المدهش» (ص: ٢٧٧)، وهي من قصيدة له أوردها بتمامها العماد الأصبهاني في «خريدة القصر» (٣/ ٦٦ ـ ٦٩)، وسبط ابن =

والمقصودُ: أنَّ النبيَّ ﷺ أمرَ ابنَ عباسٍ بالعملِ[1] بالرِّضا إن استطاعَه، ثمَّ قالَ لَه: «فإنْ لَمْ تَستَطِعْ فإنَّ في الصَّبْرِ على ما تَكْرَه خَيراً كثيراً»، وهذا يدل على أنَّ الرِّضَا بالأقدارِ المُؤْلِمَةِ ليسَ بحتمٍ واجبٍ، وإنَّما هـو فَضْلٌ مندوبٌ إليه، فمَنْ لمْ يستَطع الرِّضا فليَلْزَم الصَّبْر، فإنَّ الصَّبْرَ واجبٌ لابدَّ مِنْه، وفيه خيرٌ كثيرٌ، فإنَّ اللهَ تعالى أمرَ بالصَّبْرِ ووَعَدَ عليه جزيلَ الأَجْرِ، قالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وقالَ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧]، وقالَ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ [الحج: ٣٤ ـ ٣٥].

قالَ الحَسَنُ: الرِّضا عزيزٌ، ولكنَّ الصَّبرَ مُعَوَّلُ المؤمِن[2].

قالَ سُليمانُ الخوَّاصُ: الصَّبرُ دونَ الرِّضا. الرضا[3] أنْ يكونَ الرجلُ قَبْلَ

= الجوزي في «مرآة الزمان» (٢٠/ ٢٢٧). «سكان الغضا» أو «جيران الغضا» في شعر العرب هم أهل نجد، لكثرة شجر الغضا فيها، لكنها في البيت كناية عن المحبوب.

(١) في (ف): «بالعمل لله».

(٢) أخرجه هناد بن السري في «الزهد» (٣٩٣)، ـ ومن طريقه: أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٤٢) ـ وعبد الله بن أحمد في زوائده على «الزهد» (ص: ٢٣٨)، وابن أبي الدنيا في «الاعتبار» (١٩) كلهم من كلام عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى لا من كلام الحسن رحمه الله، ولفظهم: «الرضا قليل...».
تنبيه: إنما أورده من كلام الحسن ابنُ تيمية رحمه الله في كلامه عن الرضا، ضمن «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٨٢)، ووقع عنده كذلك تصحيف في النقل: «الرضا غريزة...»!
ونسبه ابن تيمية إلى عمر بن عبد العزيز في موضع آخر (١٠/ ٤٠) باللفظ الذي هنا، ونسبه إلى الحسن: ابن كثير في ترجمته في «البداية والنهاية» (٩/ ٢٧٢) بلفظ: الرضا صعب شديد.

(٣) في (ش): «والرضا»، وفي (ف) و(س): «فالرضا».

نزولِ المصيبةِ راضٍ[١] بأي ذلك[٢] كانَ، والصَّبرُ أنْ يكونَ بعدَ نُزُولِ المصيبةِ يَصْبِرُ[٣].

وحقيقةُ الفَرْقِ بينَ الصَّبْرِ والرِّضَا: أنَّ الصَّبْرَ: كَفُّ النَّفْسِ وحَبْسُها عن التَّسَخُّطِ معَ وُجودِ الألمِ، والرِّضا: يوجِبُ انشراحَ الصَّدرِ وسَعَتَه، وإنْ وُجِدَ الإحساسُ بأَصْلِ الأَلمِ، لكنَّ الرِّضا يخفِّفُ الإحساسَ بالألمِ لما يباشِرُ القلبَ مِنْ روحِ اليقينِ والمعرفةِ، وقد يُزيلُ الإحساسَ به بالكلِّيَةِ على ما سَبَقَ تَقْرِيرُه[٤].

ولهذا قالَ طائفةٌ كثيرة من السَّلفِ، منهُم: عُمرُ بنُ عبدِ العزيزِ[٥]، والفُضَيلُ[٦]، وأبو سليمانَ[٧]، وابنُ المبَارَكِ[٨] وغيرُهم: إنَّ الراضيَ لا يتمنَّى غيرَ حالِهِ[٩] التي هُو عليها بخلافِ الصَّابِرِ.

---

(١) كذا في نسخنا جميعاً مع الضبط في (ب) و(ش). والصواب: راضياً.

(٢) في (س): «شيء».

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الرضا عن الله بقضائه» (٤٨)، وأبو نُعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٢٧٧).

(٤) تصحفت في (ش) و(ف) إلى: «تقديره».

(٥) قال رحمه الله: «ما كنت على حالة من حالات الدنيا فسرني أني على غيرها». أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله بقضائه» (١٠٠).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله بقضائه» (٢٣).

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله بقضائه» (١٤).

(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله بقضائه» (٢٢).

(٩) في (ف): «الرضي»، وفي (ش) و(ف): «الحالة».

وقد رُوِيَ عن طائفةٍ من الصَّحابةِ هذا المعنى أيضاً، وأنَّهم كانُوا لا يتمنَّونَ غيرَ ما هُمْ عليهِ من الحالِ، منهُم: عُمرُ[١] وابنُ مسعودٍ[٢] رضي الله عنهما.

قالَ عبدُ العزيزِ بنُ أبي رَوَّادٍ: كانَ عابدٌ يتعبَّدُ في بني إسرائيلَ، فرأى في مَنامِه أنَّ فلانةَ زوجتُكَ[٣] في الجنَّةِ، فاستَضَافَ بها[٤] ثلاثَ ليالٍ لينظُرَ عَمَلَها، فكانتْ تنامُ وهو يَقُومُ، وتفطِرُ وهو يَصُومُ، فلمَّا فارقَها سألها عَنْ أوثَقِ عَمَلِها عِنْدَها؟ قالتْ: هُو ما رأيتَ إلا خُصَيلةً[٥] واحِدةً: إنْ كُنْتُ في شِدَّةٍ لم أتمنَّ أني[٦] في رَخَاءٍ، وإنْ كنتُ في مَرَضٍ لم أتمنَّ أني[٧] في صِحَّةٍ، وإنْ كُنْتُ جائعةً لم أتمنَّ أني شَبْعانَة، وإنْ كنتُ في شَمْسٍ لم أتمنَّ أني في فيءٍ[٨]. فقالَ العابدُ: هذهِ واللهِ خِصْلَةٌ يعجِزُ عنها العُبَّادُ[٩].

وكما أنَّ الصبرَ إنَّما يكونُ عندَ الصَّدمَةِ الأُولى، كمَا صَحَّ ذلكَ عن النبيِّ ﷺ[١٠]، فالرِّضا إنَّما يكونُ بعدَ نُزولِ البَلاءِ كما كانَ ﷺ يقولُ في دُعائِه: «وأسألكَ الرِّضا بعدَ

---

(١) قال رضي الله عنه: «ما أبالي على أي حال أصبحت. على ما أحب، أو على ما أكره، لأني لا أدري!، الخيرُ فيما أحبُّ أو فيما أكره؟». أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله بقضائه» (٣٠).

(٢) قال رضي الله عنه: «... وما أصبحت على حال فتمنيت أني على سواها».
أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله بقضائه» (٥٩).

(٣) في (س): «زوجته» وفي حاشيتها كالمثبت.

(٤) في (س): «فاستضافها».

(٥) في (ب): «خصلة».

(٦) في (صل): «أن أكن».

(٧) في (صل): «أن أكن».

(٨) في (ف): «ظل».

(٩) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ١٩٣) وهو خبر إسرائيلي أورده لبيان حال الرضا الذي كانت عليه المرأة، ولا يستدل به فيما سوى ذلك.

(١٠) أخرجه البخاري (١٢٨٣) (١٣٠٢) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

القَضَا»[1] لأنَّ العبدَ قدْ يعزِمُ على الرِّضا بالقَضَاءِ قَبْلَ وُقُوعِه، فإذا وَقَعَ انفسَخَتْ تلكَ العزيمةُ! فمَنْ رَضِيَ بعدَ وقُوعِ القضاء[2] فهُو الرَّاضِي حقيقةً.

وفي الجُملَةِ: فالصَّبرُ واجبٌ لابُدَّ مِنْهُ، وما بعدَهُ إلا السَّخَطُ[3]، ومَنْ سَخِطَ أقدارَ اللهِ فلَهُ السَّخَطُ مَع ما يتعجَّلُ لهُ مِن الألمِ، وشَماتةُ الأعداءِ بِهِ أعظمُ مِنْ جَزَعِه، كما قالَ بعضُهُم:

لا تَجْزَعنْ مِنْ كُلِّ خَطْبٍ عَرا ... ولا تُرِي الأعداءَ ما يَشْمَتُوا[4]

يا قومُ بالصَّبْرِ يُنَالُ المُنى ... إذا لَقِيتُم فئةً فاثْبتُوا[5][6].

وقالَ النبيُّ ﷺ: «مَنْ يتصبَّرْ يُصبِّرْهُ الله، وما أُعطِيَ أحدٌ عطاءً خَيراً ولا أَوسَعَ مِن الصَّبْرِ»[7].

وقالَ عُمَرُ: وَجَدْنا خيرَ عَيْشِنَا الصَّبرَ[8].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢١٦٦٦) من حديث زيد بن ثابت الذي شرحه المصنف رحمه الله في جزء مفرد.

(٢) في (صل) و(ب): تصحفت إلى: «الرضا»، وفي (ف) كذلك وكتب في الحاشية: «لعله البلاء».

(٣) في (س): «التسخط».

(٤) في «المدهش» لابن الجوزي: «يُشْمِتُ».

(٥) في (ف): «فاصبروا» وكتب إشارة إلى نسخة كالمثبت، وفي حاشية (س): «بلغ مقابلة».

(٦) البيتان ذكرهما ابن الجوزي في «المدهش» (ص: ٤٧٦). وهما لأبي نصر سهل بن المرزبان، ذكرهما له الثعالبي في «يتيمة الدهر» (٤/ ٤٥٤).

(٧) أخرجه البخاري (١٤٦٩) (٦٤٧٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وفي (صل) و(ش): «تصبَّر».

(٨) سقط الأثر من (صل)، وفي (ف): «بالصبر»، وهو من معلقات البخاري في باب الصبر عن محارم الله، قبل حديث (٦٤٧٠). وأخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (٦١٢)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٥٠) وغيرهما.

وقالَ عليٌّ: إنَّ الصَّبْرَ مِن الإيمانِ بمنزلةِ الرأسِ مِن الجَسَدِ، ولا إيمانَ لمنْ لا صَبْرَ له[1].

وقالَ الحَسَنُ[2]: الصَّبْرُ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الجنَّةِ لا يُعطيه اللهُ إلا لمنْ كَرُمَ عليهِ[3].

وقالَ ميمونُ بنُ مِهران: ما نَالَ أحدٌ شيئاً مِنْ جَسِيمِ الخيرِ نبيٌّ فمَنْ دُونَه إلا بالصَّبْرِ[4].

وقالَ إبراهيمُ التَّيْميُّ: ما مِنْ عَبْدٍ وهَبَ اللهُ لـه[5] صَبراً على الأذى، وصَبراً على البَلاءِ، وصَبراً على المَصائب إلا وَقد أُوتِيَ أَفضَلَ ما أوتِيَهُ أَحَدٌ بعدَ الإيمانِ باللهِ عزَّ وَجلَّ[6].

وهذا منتَزَعٌ مِنْ قولهِ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ إلى قولهِ ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

---

(١) أخرجه معمر في جامعه بآخر «مصنف عبد الرزاق» (١١/ ٤٦٩) ومن طريقه: البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٢٦٧)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٥٤٧).
وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الصبر والثواب عليه» (٨) من وجه آخر، ومن طريقه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٧٥).

(٢) في (س): «الحسن البصري».

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصبر والثواب عليه» (١٦)، ولفظه: «الصبر كنز من كنوز الخير». وفي حاشية (ش): «بلغ».

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصبر والثواب عليه» (١٩).

(٥) في (ف) و(س): «وهبه الله».

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصبر والثواب عليه» (١٧).

والمرادُ بالبأسَاءِ: الفَقْرُ ونحوُه، وبالضَّرَّاءِ: المَرضُ ونحوُه، وحينَ البأس: حالُ الجِهَادِ.

وقالَ عُمرُ بنُ عبدِ العَزيز: ما أنعَمَ اللهُ على عبدٍ نِعمَةً فانَتَزعها مِنْه، فعاضَه مكانَ ما انتزعَ منْه الصبرَ إلا كانَ ما عوَّضَهُ خَيراً ممّا انتزعَ منه[1]، ثم تلا: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

كانَ[2] بعضُ الصَّالحينَ في جَيْبِه ورَقَةٌ يفتَحُها كلَّ ساعَةٍ، فينظرُ فيها، وفيها مكتوبٌ ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨][3].

والصَّبرُ الجميلُ هو أَنْ يكتُمَ العبدُ المصيبةَ، ولا يخبرَ بها. قال طائفةٌ من السَّلَفِ في قوله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨] قالُوا: لا شَكوى معه[4].

وكانَ الأحنفُ بن قيسٍ قدْ ذهبتْ عينهُ مِنْ أربعينَ سنةً ولمْ يذكُرْها لأحَدٍ[5].

وذهبتْ عينُ عبدِ العزيزِ بنِ أبي رَوَّاد مِنْ عشرينَ سنةٍ فتأمَّلَهُ ابنُه يوماً، فقالَ له: يا أبَتِ، قَدْ ذهبتْ عينُك؟ فقالَ: نَعَمْ يا بُنَيّ. الرِّضا عن اللهِ أذهبَ عينَ أبيكَ مِنْ عشرينَ سنةً[6].

---

(١) في (صل): «مما انتزعه».

(٢) في (ف) و(س): «وكان».

(٣) ذكر القشيري ذلك في «الرسالة» (١/ ٣٢٦) في فقير كان يطوف بالبيت العتيق كل يوم وينظر في الرقعة، ثم نظر فيها يوماً بعد طوافه ثم سقط ميتاً، فإذا في الرقعة هذه الآية الكريمة.

(٤) في (صل) و(ف): «قال: لا شكوى...»، ذكر هذا المعنى مرفوعاً، وذكر عن مجاهد والحسن رحمهما الله. انظر: «الدر المنثور» للسيوطي عند تفسير هذه الآية.

(٥) أخرجه عبد الله بن أحمد بن حنبل في زياداته على «الزهد» (١٣٠٦).

(٦) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ١٩١).

وكانَ الإمامُ أحمدُ لا يشتكي ما بِه مِن المرضِ إلى أحدٍ[1]، وذُكِرَ له أنَّ مُجاهِداً كانَ يَكْرَهُ الأنينَ في المَرضِ[2]، فلم يَئِنَّ حتَّى مَاتَ[3]، وكانَ يقولُ لنفسِه: يا نَفْسِي اصبِري وإلَّا تَنْدَمِي[4].

دخَلَ[5] بعضُ العَارِفينَ على مريضٍ يقولُ: آه. فقالَ له[6] العارفُ: مِمَّنْ؟![7]

وفي هذا المعنى يقولُ بعضُهم.

تَفيضُ[8] النُّفوسُ بأوصَابِها ... وتكتُمُ عُوَّادَها ما بِها

وما أنصفتْ مُهْجةٌ تَشْتكي ... هَواهَا إلى غيرِ أحبَابِها[9]

قالَ يحيى بنُ معاذٍ: لو أحبَبْتَ ربَّك ثمَّ جَوَّعَكَ وأعراكَ، لكانَ يجبُ أنْ تَحتمِلَهُ

---

(١) في (س): «لأحد».

(٢) زاد ناسخ (س) بعدها: «فتركه».

(٣) إنما يُعرف هذا عن طاوس لا عن مجاهد رحمهما الله. وقصة الإمام أحمد ذكرها ابنه صالح في «سيرة الإمام أحمد» (ص: ١٢٧)، وابن الجوزي في «مناقب الإمام أحمد» (ص: ٥٤٦). وأثر طاوس في «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٦٥٦١).

(٤) في (ف) و(س): «ولا». ولم أجد هذا عن الإمام أحمد عند غير المصنف رحمه الله.

(٥) في (ف) و(س): «ودخل».

(٦) زاد ناسخ (س) بعدها: «ذلك».

(٧) العارف هو أبو حفص النيسابوري، والقصة في «صفة الصفوة» لابن الجوزي (٢/ ٣١٢).

(٨) في (صل): «تموت».

(٩) البيتان لصردر علي بن الحسن بن علي. أبو منصور الكاتب، المتوفى ٤٦٥هـ. ذكرهما له ابن الجوزي في «المدهش» (ص: ٤٠١). وكان الإمام ابن تيمية رحمه الله كثير الإنشاد لهما، كما في «أعيان العصر وأعوان النصر» للصفدي (١/ ٢٣٩).

وتكتُمَه عن الخَلْقِ، فقَدْ يحتمل الحبيبُ لحبيبِهِ الأذى، فكيفَ وأنتَ تَشكُوهُ فيمَا لم يَصْنَعْه بِك[1].

ويَقبُحُ مِنْ سِواكَ الفعلُ عندي وتفعلُه فيحسنُ منك ذاكا[2]

كانَ الرَّسُولُ ﷺ وأصحابُه يشدُّونَ على بطونهم الحجارةَ من الجُوعِ[3].

كانَ أويسٌ [القَرَني] رحمه الله يلتَقِطُ الكِسَرَ مِن المزابلِ، والكلابُ تُزاحِمُه، فنَبَحَ عليه كلبٌ يوماً، فقالَ: يا كلبُ لا تؤذِ مَنْ لا يُؤذِيك، كُلْ ممَّا يليكَ وآكلُ مما يليني، فإنْ دخلتُ الجنَّةَ فأنا خيرٌ مِنْكَ، وإنْ دَخَلتُ النارَ فأنتَ خيرٌ منِّي[4].

كانَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ يلتَقِطُ السُّنْبُلَ مع المساكين، فرأى مِنهم كراهةً[5] لمزاحمَتِه، فقالَ: أنا تركتُ ملكَ بَلْخ، أَفأُزاحِمُ المساكينَ على لقاطِ السُّنْبُلِ؟ فكانَ بعدَ ذلكَ لا يلتَقِطُ إلَّا مَع الدَّوابِّ التي ترعَى فيه[6].

---

(١) لم أجده عند غير المصنف رحمه الله تعالى، وقد أورده أيضاً في «استنشاق نسيم الأنس».

(٢) نسبه الراغب الأصفهاني في «محاضرات الأدباء» (٢/ ٥٤)، والمستعصمي في «الدر الفريد وبيت القصيد» (١٠/ ٤٧٧) للمتنبي. وفي «محاضرات الأدباء» (١/ ٥٣١)، و«اللمع في التصوف» للطوسي، أنشده الشِّبليُّ من قول فلانة الطبرانية تغني به. وهو من شعر أبي نواس يقول:

ويسمج من سواك الشيء عندي فتفعله فيحسن منك ذاكا

(٣) أخرج مسلم من حديث أنس رضي الله عنه (٢٠٤٠) أنه ﷺ عصب بطنه بعصابة، وأخرج الترمذي (٢٣٧١) من حديثه عن أبي طلحة قال شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين. قال الترمذي: غريب، وكان أبو هريرة رضي الله عنه يشد الحجر على بطنه من الجوع، كما في «البخاري» (٦٤٥٢).

(٤) ذكر القصة عن سيدنا أويس: ابن الجوزي في «المدهش» (ص: ٤٢٧).

(٥) في (صل): «كراهية».

(٦) لم أجد القصة عند غير المصنف رحمه الله تعالى.

وكانَ الإمامُ أحمدُ يلتَقِطُ السُّنْبُلَ معَ المساكينِ أيضاً[١].

وآجَرَ سفيانُ الثوريُّ نفسَه مِن جَمَّالينَ في طريقِ مكةَ، فطبخَ لهم طَعاماً فأفسَدَه فضَرَبُوه[٢].

كانَ فتحٌ الموصليُّ يوقِدُ النَّارَ للناس بالأُجرَةِ[٣]:

مِـنْ أجلِـكَ قـدْ تركـتُ خَـدِّي أَرْضَا ... للشَّـامِتِ والحسـودِ[٤] حتَّـى تَرْضـى

مَـولايَ إلـى متـى بهـذا أَحظـى ... عُمُـري يَفْنـى وحَاجتـي مـا تُقْضـى[٥]

غيرُه:

كَـمْ أحْمِـلُ فـي هَـواكَ ذُلًّا وعَـنـا ... كَمْ أصبـرُ فيـكَ تحـتَ سُـقْمٍ وضَنـا

لا تَطْرُدْنِـي فلَيْـسَ لـي عَنْـكَ غِنـى ... خُـذْ رُوحِـيَ إنْ أردتَ منِّـي الثمَنَـا[٦]

غيرُه:

مِـنْ أَجلِ هواكُـمُ هَويتُ العِشْقا ... قَـلْبـي كَـلِفٌ ودمعتـي ما ترقا

---

(١) وذلك في طرسوس كما في «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (ص ٣٠٨).

(٢) في (صل): «فأفسدوه». وذكر الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٥٩) أن سفيان ذهب إلى خراسان في حق له، فآجر نفسه من جمّالين.

(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على «الزهد» (١١٤٤)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٩٤).

(٤) في (صل): «والحاسد».

(٥) ذكرهما ابن الجوزي في «المدهش» (ص: ١٨١).

(٦) في حاشية (س): «بلغ». وفي (ش): «خذ روحي إذا أردت...»، وفي (ف): «خذوا روحي إذا رددت»، وجاءت «مني» في (صل) لحقاً. والبيتان في «المدهش» (ص: ١٥٧).

فـي حُبِّكُـمُ يَهُـونُ مـا قَـدْ أَلـقَـى ما يَسْـعَدُ بالنَّعيـمِ مَـنْ لا يَشْـقى[١]

كانتْ مصائبُ الدُّنيا عندَهُم نِعَماً، حتَّى قالَ بعضُهم: ليسَ بفقيهٍ مَنْ لم يعدَّ البلاءَ نعمةً والرَّخاءَ مُصِيبةً[٢].

ومـن الإسرائيليات: إذا رأيتَ الغِنى مُقبلاً، فقُلْ: ذَنْبٌ عُجِّلتْ عُقُوبتُه، وإذا رأيتَ الفقرَ مُقْبِلاً، فقُلْ: مَرحَباً بشِعَارِ الصَّالحينَ[٣].

وقالَ بعضُ السَّلَفِ: إني لأُصابُ بالمصيبةِ فأحمدُ اللهَ عليها أربعَ مرَّاتٍ، أحمدُ اللهَ إذ لم تكنْ أعظمَ ممَّا هي، وأحمدُ اللهَ إذْ رَزَقني الصَّبْرَ عليها، وأحمَدُه إذ وفَّقَني للاسترجَاعِ، وأحمَدُه إذ لم يَجْعلها في دِيني[٤].

انتِظارُ الفَرَجِ بالصَّبْرِ عِبادةٌ[٥]، فإنَّ البلاءَ لا يَدُومُ [كما قيلَ][٦]:

اصبِـرْ لـكلِّ مصيبـةٍ وتـجلَّـدِ واعلمْ بـأنَّ الضُّـرَّ غيـرُ مؤبَّدِ[٧]

---

(١) البيتان في «المدهش» لابن الجوزي (ص:١٥٨). وفي (صل): «وأدمعي ما ترقا» «ما يحصل بالنعيم».
وفي (ب): «يحصل» بدل «يسعد»، وفي هامشها نسخة: «يسعد».

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» عن سفيان قال: كان يقال... (٢/ ٢٥)، ومن طريقه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٨١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٥٥).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٥) من حديث مجاهد عن كعب: إن الرب تعالى قال لموسى عليه السلام...

(٤) في حاشية (ش): «وهو ابن عمر رضي الله عنه». لكن الأثر أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٥٠٧) من كلام شريح رحمه الله تعالى.

(٥) أخرجه بهذا اللفظ مرفوعاً القضاعي في «مسند الشهاب» (٤٦) من حديث ابن عمر، و(٤٧) من حديث ابن عباس.

(٦) زيادة من (س).

(٧) في حاشية (ش) من نسخة: «واعلم بأن المرء غير مخلّدِ». وهي موافقة لما في المصادر.

واصبرْ كمَا صبرَ الكِرامُ فإنَّها نُوَبٌ تنُوبُ اليومَ تُكْشَفُ في غَدِ[١]

إذا غُمِسَ أعظمُ النَّاسِ بلاءً كانَ في الدُّنيا في نعيمِ الجَنَّةِ غَمْسَةً، قيلَ لَهُ: هَلْ رأيتَ بؤساً قَطّ؟ هَلْ مَرَّ بكَ بؤسٌ قَطُّ؟ قال: لا يا ربِّ[٢].

يا نفسُ ما هيَ إلا صَبْرُ أيامِ كأنَّ مُدَّتها أَضْغاثُ أحلامِ

يا نفسُ جُوزي عَنِ الدُّنيا مُبادِرَةً وخَلِّ عنها فإنَّ العيشَ قدامي[٣]

غيرُه:

وما هِيَ إلا ساعةٌ ثمَّ تنقضي ويذهبُ هذا كلُّه ويزُولُ[٤]

* * *

قولُه ﷺ: «واعلَم أنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ»:

هذا موافقٌ لقولهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ

---

(١) نسب المستعصي الشطر الأول منه لأبي العتاهية في «الدر الفريد» (٣/ ٤٠٢). وذكر البيتين باختلاف في الشطر الثاني الدينوري في «المجالسة» (٨/ ١١٥).

(٢) أخرج معناه الإمام مسلم (٢٨٠٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) البيتان لأبي العتاهية، وهما في «ديوانه» (ص: ٣٩١) من قصيدة طويلة مع تغيير يسير. وروى ابن الشجري في «ترتيب الأمالي الخميسية» (٢/ ٢٦٧)، والسِّلَفي في «المشيخة البغدادية» (الحادي عشر منها) بسندهما إلى من رأى البيتين في كتاب الشافعي.
لذلك ذكرهما ابن الجوزي وابن مفلح وابن رجب في «فضل علم السلف» منسوبين إلى الشافعي، لكنهما ليسا له.

(٤) في (صل): «وتنقضي». والبيت ذكره الإمام ابن القيم في عدد من كتبه، ومنها «مدارج السالكين» (٣/ ٢٢٩). ولبهاء الدين زهير بيت يشبهه في قصيدة طويلة في ديوانه (ص ٢١٠)، وصدره:
وما هي إلا غيبة ثم نلتقي... وفي حاشية (ش): «بلغ».

اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]، وقوله تعالى: ﴿فإن تكُنْ[1] مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦]، وقولِه تعالى في قصة طالوت: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقولِه تعالى: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]، إلى غيرِ ذلكَ مِن الآياتِ.

والأحاديثُ في الأَمرِ بالصَّبْرِ عندَ لقاءِ العَدُوِّ كثيرةٌ جِدًّا.

وقالَ عُمَر لأشياخٍ من بني عَبْسٍ: بِمَ قاتَلْتم النَّاسَ؟ قالُوا: بالصَّبْرِ، لم نَلْقَ قَوماً إلا صَبَرنا لَهُم كما صَبَروا لنا[2].

وقالَ بعضُ السَّلَفِ: كلُّنا نكْرهُ الموتَ وألَمَ الجِراحِ، ولكنْ نتفَاضَلُ بالصَّبْرِ[3].

وسُئِلَ البَطَّالُ عن الشَّجاعَةِ فقالَ: صَبْرُ ساعةٍ[4].

وهذا كُلُّه في جِهادِ العَدُوِّ الظَّاهِرِ، وهُو جِهادُ الكُفَّارِ، وكذلكَ في جِهادِ العَدُوِّ البَاطِنِ وهُو جِهَادُ النَّفْسِ والهوى، فإنَّ جِهادَهُما مِن أَعظَمِ الجهادِ، كما قَالَ النبيُّ ﷺ: «المجاهدُ مَنْ جَاهَدَ نفسَه في اللهِ»[5].

---

(١) هذه قراءة أبي عمرو، وهي الشائعة في بلاد الشام زمن المصنف رحمه الله، وفي قراءة عاصم ﴿فَإِن يَكُن﴾.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصبر والثواب عليه» (٤٨) وبمعناه (٩٣). ووقع في المطبوع: «بم قابلتم الناس»!! وهو تحريف

(٣) من كلام زياد بن عمرو، أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصبر والثواب عليه» (٤٩).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصبر والثواب عليه» (٥٠)، والبطال مجاهد كان يغزو الروم.

(٥) أخرجه الإمام أحمد (٢٣٩٥١)، والترمذي (١٦٢١) وقال: حسن صحيح، من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه.

وقالَ عبدُ الله بنُ عمروٍ لرجلٍ سألَه عن الجِهاد: ابدأْ بنَفْسِكَ فجاهِدْها، وابدأ بنَفْسِكَ فاغزُها[١].

ورُوِي[٢] بإسنادٍ ضعيفٍ مِن حديثِ جابرٍ: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ لقومٍ رَجَعُوا مِن الغَزو: «قَدِمْتُم مِن الجِهادِ الأَصْغَرِ إلى الجِهَادِ الأكبرِ» قيلَ: وما الجهادُ الأكبرُ؟ قالَ: «مُجاهَدَةُ العبدِ لهواه»[٣].

وقالَ أبو بكرٍ الصديقُ في وصيَّتِه لعُمَرَ رضي اللهُ عنهما حينَ استخلَفَه: إنَّ أوَّلَ ما أُحَذِّرُكَ: نفسَكَ التي بينَ جَنْبَيكَ[٤].

ويُروى مِنْ حديثِ سَعد بن سِنان، عنْ أنسٍ [رضي الله عنه] عن النبيِّ ﷺ[٥]، ومن حديثِ أبي مالكٍ الأَشْجَعيِّ عَن النبيِّ ﷺ مُرْسلاً قال: «ليسَ عدوُّك الذي إذا قَتَلكَ أدخلكَ الجنَّةَ، وإذا قتلتَه كانَ لكَ نُوراً، أعدى عَدُوِّكَ نفسُكَ التي بينَ جَنْبَيكَ»[٦]، وأخذَ هذا المعنى العباسُ بنُ الأحنفِ[٧] الشَّاعِرُ، فَقَالَ:

قَلبِي إلى ما ضَرَّني دَاعي ... يُكثِرُ أَحزاني وأَوجاعِي

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» (٦٢)، ومن طريقه: البيهقي في «الزهد الكبير» (٣٦٨).

(٢) في (ب) و(ف) و(س): «ويروى».

(٣) أخرجه البيهقي في «الزهد الكبير» (٣٧٣).

وقد أفردتُ لهذا الحديث جزءًا سمّيتُه: «نصر الجهادين بقهر العدوَّين» لبسط الكلام فيه.

(٤) أخرجه ابن شبَّة في «تاريخ المدينة» (٢/ ٦٧٢)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٠/ ٤١٦).

وليس فيه: «التي بين جنبيك» هي مدرجة!

(٥) لم أظفر بهذا الطريق!

(٦) أخرجه الخرائطي في «اعتلال القلوب» (٣٢).

(٧) زاد ناسخ (س): «بن قيس». وهو غلط.

لقلَّ ما أبقى على ما أرى يُوشِكُ أنْ يَنْعَاني النَّاعِي

كيفَ احترازِي مِنْ عَدُوّي إذا كانَ عَدُوِّي بينَ أضلاعِي[1]

فهذا الجِهادُ أيضاً يحتاجُ إلى صبرٍ، فمَنْ صَبَرَ على مُجاهدةِ نفسِه وهواه وشيطانِه غَلَبَ، وحَصَلَ له النَّصرُ، ومَنْ جَزِعَ ولم يَصْبِر على مُجاهدةِ ذلكَ غُلِبَ وقُهِرَ وأُسِرَ، وصارَ ذليلاً أسيراً في يدي شَيطانه وهَواه [كما قِيل][2]:

إذا المرءُ لَمْ يغلبْ هَواه أقامَه بمنزلةٍ فيها العزيزُ ذَليلُ[3]

[غيره][4]:

رُبَّ مَستُورٍ سَبَتْهُ صَبْوةٌ فتعرَّى صبرُه فانهَتَكا

صَاحِبُ الشَّهوةِ عبدٌ فإذا غَلَبَ الشَّهوةَ صَار المِلكا[5]

قالَ ابنُ المباركِ رحمه الله: مَنْ صَبَرَ فما أقلَّ ما يَصْبِرُ، ومَنْ جَزِعَ فما أقلَّ ما يتمتَّعُ[6].

وفي «الصَّحيحين» عن النبيِّ ﷺ: «ليسَ الشديدُ بالصُّرَعَةِ، إنَّما الشديدُ الذي يَملِكُ نفسَه عندَ الغَضَبِ»[7].

---

(١) ذكرها الخرائطي في «اعتلال القلوب» (ص: ٢٦).

(٢) من (س).

(٣) لم أجده عند غير المصنف رحمه الله.

(٤) من (س).

(٥) مما أنشده علي بن عبد العزيز بن حاجب النعمان، وهو في «ذم الهوى» لابن الجوزي (ص: ٣٤).

(٦) في (ف): «يجزع» خطأ. أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصبر والثواب عليه» (١٤٠).

(٧) أخرجه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ووصفَ بعضُهم الأحنفَ بنَ قيسٍ فقالَ: كانَ أشدَّ النَّاسِ سُلطاناً على نَفْسِه[١].

قيل لبعضِهِم: إنَّ فُلاناً يمشِي على الماءِ، فقالَ: مَنْ مَكَّنَه اللهُ مِنْ مُخالَفَةِ هواه، فهُو أقوى ممَّن يمشِي على الماءِ[٢].

واعلمْ أنَّ نفسَكَ بمنزلةِ دابَّتِك، إنْ عرفَتْ مِنْكَ الجِدَّ جَدَّتْ، وإنْ عرفَتْ منكَ الكَسَلَ طَمِعَتْ فيكَ، وطلبَتْ مِنْكَ حُظوظَها وشَهواتِها.

كانَ أبو سليمان الدَّارَانيُّ يقولُ: كنتُ بالعراقِ أمُرُّ على تلكَ القصورِ والمراكبِ والملابِسِ والمطاعِمِ التي للمُلوكِ، فلا تلتفتُ نفسِي إلى شيءٍ مِنْ ذلكَ، وأَمُرُّ على التَّمْرِ فتكادُ نفسِي تقعُ عليه، فذكَرَ ذلكَ لبعضِ العارفينَ، فقالَ: تلكَ الشهواتُ آيَسَ نفسَهُ مِنْها فيئِسَتْ[٣]، والتَّمْرُ أطمَعَها فيه فطَمِعتْ[٤]. كما قِيلَ:

صَبرتُ علـى اللَّـذَّات حتـى تولَّتِ ... وألزمـتُ نفسِـي هَجْرَهـا فاسـتَمَرَّتِ

ومـا النَّفْـسُ إلا حيـثُ يجعَلُهـا الفَتى ... فـإنْ أُطْمِعَـتْ[٥] تاقَـتْ وإلا تَسـلَّتِ

وكانـتْ علـى الأيَّـامِ نفسـي عزيـزةً ... فلمَّـا رأتْ عَزْمـي علـى الـذُّلِّ ذَلَّتِ[٦]

فقولُه ﷺ: «إنَّ النَّصرَ مَع الصَّبرِ»: يشمَلُ[٧] الصَّبْرَ على جِهادِ العَبْدِ لعدوِّهِ الظَّاهِرِ وجهادِهِ لعدُوِّه البَاطِنِ، وهو نَفسُه وهَواه.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» (١١٧)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٤/ ٣١٧، ٣٢٢).

(٢) القائل هو أبو محمد المرتعش النيسابوري. أخرجه عنه: السلمي في «طبقات الصوفية» (ص: ٢٦٧).

(٣) في (س): «فأيست»، وفيها: «أمر على التمرة»، «والتمرة أطمعها فيها».

(٤) لم أجده عند غير المصنف رحمه الله.

(٥) في (ب): «طمعت».

(٦) أنشده أبو العباس القاسم السياري، كما في «طبقات الصوفية» للسلمي (ص: ٣٣٢).

(٧) في (ش) و(ف): «يشتمل».

وكانَ السَّلَفُ يفضِّلونَ هذا الصَّبْرَ على الصَّبْرِ على البَلاء.

قالَ ميمونُ بن مِهْرانَ: الصَّبْرُ صبرانِ: الصبرُ على المصيبةِ حَسَنٌ، وأفضلُ مِنْ ذلكَ الصَّبرُ عن المعاصِي[1].

وقالَ سعيدُ بن جُبيرٍ: الصَّبرُ على نَحْوين[2]:

أحدُهما: الصَّبْرُ عمَّا حَرَّمَ اللهُ، والصَّبرُ لما افترضَ اللهُ مِنْ عِبادته، وذلكَ أفضَلُ الصَّبْرِ.

والصَّبرُ الآخَر: في المصائِب[3].

وقدْ وَرَدَ في هذا حديثٌ مرفوعٌ منْ حديثِ عليٍّ، لكنَّه لا يثبتُ[4].

***

قولُه ﷺ: «وأنَّ الفرَجَ مَعَ الكَرْب». هذا يشْهَدُ له قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨]، وقولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ إلى قولِهِ: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾ [الروم: ٤٨ ـ ٤٩].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصبر والثواب عليه» (١٨).

(٢) في (س): «نوعين».

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصبر والثواب عليه» (١٨٨).

(٤) أخرج ابن أبي الدنيا في «الصبر والثواب عليه» (٢٤) من حديث علي رضي الله عنه مرفوعاً: «الصبر ثلاث...». وفيه رجل لم يسمَّ.

وقولُ النبيِّ ﷺ في حديثِ أبي رَزِينٍ[١] العُقيليِّ: «ضَحِكَ ربُّنا مِنْ قُنُوطِ عبادِه، وقُرْبِ غِيَرِهِ»[٢]. خَرَّجَهُ الإمامُ أحمدُ[٣].

وخرَّجَ ابنُه عبدُ الله مِنْ حديثِ أبي رَزِينٍ أيضاً في حديثٍ طَويلٍ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «عَلِمَ اللهُ يومَ الغَيْثِ إنَّه لَيُشْرِفُ[٤] عليكم أَزِلينَ[٥] قَنِطِينَ، فيظلُّ يَضْحَكُ قَدْ علم أنَّ غِيَرَكُمْ إلى قُرْبٍ»[٦].

والمعنى: أنَّـه سُبـحانَه يَعْـجَبُ مِنْ قُنُوطِ[٧] عِبادِه عندَ احتباسِ المَطَرِ عنهُم، وخوفِهم وإشفاقِهم ويَأْسِهم مِن الرَّحمة، وقَدْ قَدَّرَ اللهُ تغييرَ هذهِ الحالِ عَنْهُم عَنْ قُرْبٍ بإنزالِ المَطَرِ، ولكنَّهم لا يَشْعُرون.

وهَذا كمَا اشتكى ذلكَ الرجلُ إلى النبيِّ ﷺ وهُو قائِمٌ يخطُبُ يومَ الجُمُعةِ احتباسَ المطَرِ، وجَهْدَ النَّاسِ[٨]، فرفعَ النبيُّ ﷺ يدَيْهِ فاستَسْقى لَهُم فنَشَأَ[٩] السَّحابُ

---

(١) تحرف في (ف) إلى: «إدريس».

(٢) في حاشية (س): «غيثه». خطأ.

(٣) في «المسند» (١٦١٨٧)، وأخرجه ابن ماجه (١٨١). والقنوط هو اليأس، وقوله «غِيَرَه» بمعنى: قضائه سبحانه بتغيير الحال لعبده.

(٤) في (ش): «أشرف».

(٥) أي صائرين إلى الضيق والشِّدة.

(٦) في (س): «غيثكم إلى قريب»! خطأ. والحديث أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على «المسند» (١٦٢٠٦) بطوله.

(٧) في (ب): «قنط».

(٨) في (س): «وجهد الناس فسألوه»

(٩) في (صل) و(ب): «حتى نشأ».

ومُطِروا إلى الجُمُعة الأخرى، حتى قامُوا إليه ﷺ فطلبوا[١] منه أن يَسْتصحيَ لهم فَفَعَلَ، فأقلَعَت السَّماءُ[٢].

وقَدْ قَصَّ اللهُ تعالى في كِتابِهِ قِصَصاً كثيرةً تتضمَّنُ وقُوعَ الفَرَجِ بعدَ الكَرْبِ والشِّدَّةِ، كما قَصَّ نجاةَ نُوحٍ ومَنْ مَعَه في الفُلْكِ مِنْ الكَرْبِ العَظِيمِ معَ إغراقِ سائرِ أهلِ الأرضِ[٣].

وكمَا قَصَّ نَجاةَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ من النَّارِ التي ألقاهُ المشركونَ فيها، وأنَّه جَعلها عليهِ بَرداً وسلاماً[٤].

وكمَا قَصَّ قصةَ إبراهيمَ عليه السلام مَع وَلَدِه الذي أُمِرَ بذَبْحِه ثم فَدَاهُ اللهُ بِذبْحٍ عظيم[٥].

وكما قَصَّ قِصَّةَ مُوسى عليه السَّلام مع أُمِّه لمَّا ألقَتْهُ في اليَمِّ حتى التَقَطَه آلُ فِرعونَ[٦]، وقصَّتَه مَع فِرعونَ لمَّا نَجَّى اللهُ موسى في البَحْرِ وأغرقَ عَدُوَّه[٧].

وكما قَصَّ قِصَّةَ أيوبَ[٨] ويونسَ[٩]..

---

(١) في (س): «فسألوه».

(٢) أخرجه البخاري من حديث أنس رضي الله عنه (٩٣٢) (٩٣٣) (١٠١٣) (١٠١٤) (١٠٢٩) (١٠٣٣) وأخرجه غيره...

(٣) سورة الأنبياء، الآية (٧٦ ـ ٧٧).

(٤) سورة الأنبياء، الآية (٦٨ ـ ٧٠).

(٥) سورة الصافات، الآية (١٠٢ ـ ١٠٧).

(٦) سورة القصص، الآية (٧ ـ ١٣).

(٧) في مواضع متعددة منها في سورة الشعراء، الآية (٦١ ـ ٦٦).

(٨) سورة الأنبياء، الآية (٨٣ ـ ٨٤).

(٩) سورة الأنبياء، الآية (٨٧ ـ ٨٨).

ويعقوبَ[١] ويوسفَ[٢] عليهم السلام، وقِصَّةَ قوم يُونُسَ لمَّا آمنوا[٣].

وكما قَصَّ[٤] قِصَصَ محمَّدٍ ﷺ ونَصْرِه على أعدائِه وإنجائِه منهم في عِدَّةِ مواطِنَ، مثل قِصَّتهِ في الغَار[٥]، وقِصَّتِهِ يومَ بدرٍ[٦] ويومَ أُحُدٍ[٧] ويومَ حُنَيْن[٨].

وكما قَصَّ سُبحانه قِصَّة عائِشَةَ رضيَ اللهُ عنها في حَدِيثِ الإِفكِ وبرَّأها [الله] مما رُمِيتْ بِهِ[٩]. وقصةَ ﴿ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة: ١١٨].

وفي السُّنَّةِ من هذا المعنى شَيءٌ كثيرٌ أيضاً، مثلُ قِصَّةِ الثَّلاثةِ الذينَ دَخَلوا الغَارَ، فانطبقتْ عليهم صَخْرَةٌ، فدعَوا اللهَ بأعمالِهِمُ الصَّالحةِ ففرَّجَ عَنْهُم[١٠].

ومثلُ قِصَّةِ إبراهيمَ وسَارة مَع الجبَّارِ الذي طَلَبها مِنْ إبراهيمَ، وردَّ اللهُ كَيْدَ الفَاجِرِ[١١].

---

(١) سورة يوسف، الآية (٨٤ ـ ٩٦).

(٢) سورة يوسف، الآية (٣٣ ـ ٣٤).

(٣) سورة يونس، الآية (٩٨).

(٤) في (ب): «وكما قصَّ الله».

(٥) سورة التوبة، الآية (٤٠).

(٦) سورة آل عمران، الآية (١٢٣ ـ ١٢٧).

(٧) سورة آل عمران، الآية (١٤٠) وما بعدها.

(٨) سورة التوبة، الآية (٢٥ ـ ٢٦).

(٩) سورة النور، الآية (١١ ـ ٢٥).

(١٠) أخرجها البخاري في مواضع منها: (٢٢٧٢)، ومسلم (٢٧٤٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(١١) أخرجها البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والحكاياتُ الواقعةُ في هذا المعنى في الإسلامِ وقبلهِ كثيرةٌ جِدّاً، لا يُمكن [حصرُها و][١] استِقْصاؤها، وكثيرٌ منها مذكور في الكُتُبِ المصنَّفَةِ: في «الفَرَجِ بعدَ الشِّدَّةِ» لابن أبي الدُّنيا، وغيرِه، وكتابِ «مُجابي الدَّعوةِ» لابن أبي الدُّنيا، وكتاب «المستغِيثينَ باللهِ»[٢] و«المستَصْرِخينَ بـه»[٣]، وكُتُبِ كراماتِ الأولياءِ وأخبارِ الصَّالحينَ، وفي كُتُبِ التَّواريخِ وغيرِها.

ونحنُ نذكُرُ هاهنا طَرَفاً يَسيراً من أظرف[٤] ما حكي في هذا الباب ليُعتبر به.

[حكاياتٌ في الفَرَجِ بعد الشِّدَّة][٥]

[الأولى]:

ذَكَرَ بعضُ العُلماءِ في مُصَنَّفٍ له ـ وأظنُّه مِن المغارِبَة ـ أَنَّه سَمِعَ مِنْ أبي ذَرٍّ الهَرَوِيِّ الحافظِ يَحكِي أَنَّه كانَ ببغدادَ يقرأُ على أبي حَفْصِ بنِ شاهين، في دُكَّانِ عَطَّارٍ، وأنَّه شَاهَدَ رُجلاً جاءَ إلى العطَّارِ فدَفَعَ إليه عَشَرَةَ دراهمَ، وأخذَ منه بِها حوائجَ، وجَعَلَها في طَبَقٍ، ووَضَعَهُ على رَأْسِه، فزَلِقَ، ووَقَع طبقُه، وتفرَّقتْ حوائِجُه، فبكى واشتدَّ بُكاؤه، وقالَ: لقَدْ ضَاعَ مِنِّي في قافلةِ كَذا وكَذا هِمْيانٌ فيهِ أربعُ مئةِ دِينارٍ، أو قَالَ: أربعةُ آلافِ دِينارٍ، ومَعَها فُصوصٌ قيمَتُها أكثرُ مِنْ[٦] ذلكَ، فما جَزِعْتُ لضَياعِها، ولكنْ وُلِدَ ليَ الليلةَ ولدٌ، فاحتَجْنا في البيتِ إلى ما تَحتَاجُ إليهِ النُّفَساءُ،

---

(١) من (س).

(٢) للحافظ ابن بشكوال رحمه الله.

(٣) للقاضي أبي الوليد بن الصفار رحمه الله.

(٤) في (صل): «أطراف».

(٥) من حاشية (صل) وكذلك تعداد القصص فيما يأتي. وفي حاشية (ف): «حكاية لطيفة».

(٦) في (صل) و(ب): «مثل».

ولَمْ يَكُنْ عِنْدِي غيرُ هذهِ العَشَرةِ دراهم، فلمَّا قَدَّرَ اللهُ بما قَدَّرَ جَزِعْتُ، وقلتُ: لا أَنا عِنْدِي ما أَرْجِعُ به اليومَ إلى أهلِي، ولا ما أكتَسِبُ لهم[1] غَداً، ولَمْ يبقَ لي حيلةٌ إلا الفِرارُ عَنْهُم، وتركُهم على هذهِ الحالِ، فيهلِكُون بَعْدِي، فلَمْ أملِكْ نفسِي أَنْ جَزِعْتُ هذا الجَزَع. قالَ أبو ذرٍّ: ورجلٌ[2] من شيوخِ الجُنْدِ جالسٌ على بابِ دارِه فسمعَ[3] هذا كُلَّه، فسأَلَ الجنديُّ أبا حَفْصٍ أَنْ يدخُلَ هو وأصحابُه والرَّجُلُ المصابُ معه إلى بيتِهِ، ففعَلَ، وطَلَبَ من الرَّجُلِ المَصَابِ إعادةَ حِكايتِهِ في الهِمْيانِ، فأعادَ ذلكَ عليه وسَأَلَهُ عَنْ مَنْ كانَ في تلكَ القافلةِ وعن المكانِ الذي ضَاعَ فيهِ الهِمْيان، فأخبرَه، ثم سَأَله عِنْ صِفَةِ الهِميانِ وعلامَتِه، فأخبرَه بذلِكَ، فقالَ: لو رأيتَه كنتَ تعرِفُه؟ قالَ: نَعَمْ. قالَ: فأخْرَجَه إليهِ، فلمَّا رآهُ قالَ: هذا الهِميانُ الذي سَقَطَ منِّي، وفيه مِن الأحجارِ ما صِفَتُه كذا وكذا، ففَتَحَ الهِميان، فوجدَ الأحجارَ على ما وَصَفَ، فدَفَعَه إليه، وخَرَجَ مِنْ عِنْدِه، وقَدْ صارَ مِن الأغنياءِ، فلمَّا خَرَجَ بكى الشَّيخُ الجُنْدِيُّ بكاءً شديداً، فسُئِلَ عَنْ سَبَبِ بُكائه، فقالَ: إنَّه لمْ يَكُنْ بَقِيَ لي في الدُّنيا أملٌ ولا أُمنيةٌ أتمنَّاها إلا أَنْ يأتِيَ اللهُ بصَاحِبِ هذا المالِ فيأخُذَه، فلمَّا قَضَى اللهُ ذلكَ[4] بفَضْلِه، ولم يبقَ لي أملٌ علمتُ أَنَّه قَدْ حانَ أَجَلِي. قالَ أبو ذَرٍ: فما انقَضَى شَهْرٌ حتى تُوفِّي وصَلَّينَا عليهِ رَحِمَهُ اللهُ[5].

---

(١) في (صل): «أتكسب لهم».

(٢) بين أسطر (ف): «حال» أي هذه الجملة.

(٣) في (ب) و(صل): «يسمع». وفي (ب): «سمع».

(٤) في (ب) و(ف): «بذلك».

(٥) روى القصة أبو بكر الطرطوشي في «سراج الملوك» (ص: ١٦٨) عن أبي الوليد الباجي، عن الحافظ أبي ذر الهروي صاحب الرواية المشهورة من صحيح الإمام البخاري.
ومن هذا الكتاب نقل المصنف القصة، والله أعلم. وقد عقد فيه باباً في (الفرج بعد الشدة).

[الثانية]:

وحكى[(١)] هذا المصنِّفُ أيضاً في كِتابِه عَنْ رَجُلٍ حكى له بالمَوْصِل: أنَّ رجُلاً كانَ عندَهُم تاجِراً يُسافِرُ بتِجارَتِهِ إلى البُلْدَانِ، فسافَرَ[(٢)] مَرَّةً بجميعِ مالِه و[(٣)]ما يَمْلِكُه إلى الكُوفةِ، فرافَقَهُ في تلكَ السَّفْرةِ[(٤)] رجلٌ فخَدَمَهُ فأحسنَ خِدْمَتَه وَأَنِسَ به، حتَّى وَثِقَ به، ثمَّ استغْفَلَه في بَعْضِ المنازِلِ، وأخذَ دابَّته وما عَليها مِن المالِ والمتاعِ، ولم يبقَ لهُ شيءٌ ألبتة، واجتهدَ في طَلَبِه فلمْ يَقعْ له على خَبَرٍ [ولا أَثَرٍ][(٥)]، فرجَعَ إلى بَلَدِه راجِلاً جائِعاً، فدَخَل إلى المدينةَ لَيْلاً، وهُو على تِلكَ الحالِ، فطَرَقَ بابَه، فلمَّا عَلِمَ[(٦)] بِهِ أهلُه سُرُّوا[(٧)]، وقالُوا: الحمدُ للهِ الذي جَاءَ بكَ في هذا الوقتِ، فإنَّ أهلَكَ قَدْ وَلَدَت اليومَ وَلداً، وما وَجَدْنا ما نَشْتَرِي به ما تَحتَاج إليهِ النُّفَسَاءُ، ولقدْ كانتْ هذه الليلةَ طاويةً، فاشترِ لنا دَقِيقاً ودُهْناً نُسْرِجُ به، فلمَّا سَمِعَ ذلك زادَ في غَمِّه وكَرْبِه، وكَرِهَ أنْ يُخبِرَهُم بما جَرى له[(٨)]، فيحزِنَهم، فخَرَجَ إلى حانُوتِ رجلٍ كانَ بالقُربِ مِنْ دَارِه فسَلَّم عليهِ، وأخذَ منهُ دُهناً وغيرَه مما يُحتاج إليه[(٩)]، فبينا هُو يخاطِبُه إذ التفتَ فرأى خُرْجَه الذي هَرَبَ بِهِ خادِمُه مَطْروحاً في داخِلِ الحانوتِ، فسألَه عنهُ؟ فقالَ:

---

(١) في (س): «وخَرَّجَ».

(٢) في (س): «فسار».

(٣) في (س): «أو».

(٤) في (س): «ذلك السفر».

(٥) من (س).

(٦) في (س): «أحس».

(٧) في (ف): «سروا به».

(٨) «له» من (ب) ومن (ف) و(س).

(٩) في (صل): «به إليه».

إنَّ رَجُلاً وَرَدَ عليَّ بعدَ العِشاءِ، واشترى مِنِّي عشاءه، واستَضَافَني فأَضَفْتُه، فجعلتُ خُرْجَه في حانُوتي، ودابَّتَه في دارِ جارِنا، والرَّجُلُ بائِتٌ في المسْجِدِ، فنَهَضَ إلى المسْجِدِ، ومعَه الخُرْجُ، فوجَدَ الرَّجُلَ نائِماً فَرفَسَهُ فاستيقَظَ مذعُوراً، فقالَ لهُ: أينَ مالي يا خائِنُ؟ فقالَ: هو ذَا على عُنُقِكَ، واللهِ ما فُقِدَ[1] منه ذَرَّةٌ، واستخرجَ الدابَّةَ مِن مَوضِعِه[2]، ووسَّعَ على أهلِه وأخبَرهم حينئذٍ بخبَرِه[3].

[الثالثة]:

ويشبِهُ هاتَينِ الحكايتينِ ما حَكاه التَّنُوخِيُّ في كتابِه [الفَرَجُ بعدُ الشِّدَّةِ][4]، والحكايةُ طويلةٌ، وملخَّصُها: أنَّ رَجُلاً كانَ ببغدادَ في زَمَنِ الرَّشِيدِ، وكانَ صَيْرفياً، فابتاعَ جاريةً بخمسِ مئةِ دِينارٍ، وشُغِفَ بها حتى تعطَّلَ عَنْ معاشِه بسَبَبِ مُلازَمتِها، وأنفقَ رأسَ مالِه، حتَّى لمْ يبقَ مَعَه مِنْهُ شيءٌ، وحَمَلتْ جاريتُه، فصَار ينقُضُ دارَه، ويبيعُ أنقاضَهَا حتَّى فَرَغَتْ، ولم يبقَ له حيلةٌ، فضربَها الطَّلْقُ وهُو على تلكَ الحالِ، وطلبتْ مِنْه ما يَصْلُحُ للنُّفَساءِ[5]، وشَكَتْ إليهِ أنَّها تموتُ إنْ لم يُعَجِّلْ عليهَا بذَلكَ، فبَكى وخَرَجَ على وَجْهِه، وهَمَّ أنْ يُغرِقَ نفسَه في دِجْلَة، ثمَّ خَافَ عِقابَ اللهِ فامتَنَعَ، وخَرجَ ماشِياً على قَدَميهِ من قَريةٍ إلى قريةٍ[6]، حتَّى بلغَ خُراسانَ، فأقامَ بها واكتَسَبَ بها مَالاً، وكتَبَ إلى بَلَدِه سِتَّةً وستينَ كِتاباً ليتعرَّفَ[7] خَبرَ الجاريةِ، فلمْ يَعُدْ إليه

---

(١) في (صل): «تفقد» وفي (ش): «نفقتُ».

(٢) في (ب): «على موضعها».

(٣) لخصها المصنف رحمه الله، وهي أطول في «سراج الملوك» للطرطوشي (ص: ١٦٨ - ١٦٩).

(٤) من (ف) و(س).

(٥) في (ف): «يصلح النفساء».

(٦) في (صل) و(ش): سقطت «قرية» الأولى، وفي (ف): «من قريته حتى بلغ»!

(٧) في (ش): «ليعرف أخبار الجارية».

جوابٌ، فلَمْ يشكَّ أنَّها ماتَتْ، ثم رَجَعَ إلى بغداَد بعدَ مُدَّةٍ طويلةٍ، ومعَه ما قِيمتُه عشرونَ ألفَ دينارٍ، فخَرجَ على قافِلَتِه اللُّصوصُ، فأخَذُوا ما مَعَه كلَّه[١]، وعادَ بثيابِه فَقِيراً، ولم يَزَلْ يتوصَّلُ حتَّى دَخَلَ بغدادَ فَقِيراً كمَا خَرجَ مِنْها بعدَ أنْ غابَ عَنْها قريباً مِنْ ثلاثينَ سنةً.

فقَصَدَ دارَهُ فوجَدَها عَامِرَةً، وبابُها حَسَنٌ، وعليهِ بَوَّابٌ وغِلمانٌ وبِغالٌ، فسألَ عن الدَّارِ لمنْ هي؟ فقيلَ: هي لابنِ فلانٍ الصَّيْرفيِّ، وسمَّوا الرجلَ باسمِه، قالُوا: وهُو ابنُ دايَةِ أميرِ المؤمنين، وهُو جِهْبِذُه وصاحبُ بيتِ مالِه، وأخبرَه الذي سَألَه: أنَّ أباه أخبره أن أبا هذا الرُّجلِ صاحَبِ الدَّارِ كانَ صَيْرفياً جليلاً، فافتَقَرَ، وأنَّ أمَّ هَذا الصَّبِيِّ ضَربَها الطَّلْقُ، فخَرَجَ أبوهُ يطلُبُ لها شَيئاً، ففُقِدَ وهَلَكَ، وأنَّ أُمَّهُ أَرسلَتْ إلى بعضِ الجِيرانِ تَستغيثُ بهم، فقاموا لها[٢] بحوائِجِ الولِادَةِ، ثمّ أنَّه وُلِدَ لأميرِ المؤمنينَ ولدٌ ذَكَرٌ، وذلكَ الولدُ هُو المأمونُ، وأنَّه عُرِضَ عليه جميعُ الدَّاياتِ فلم يَقْبَلْ أثداءهن فأرشَدُوا إلى أمِّ هذا الصَّبِيِّ فحُمِلتْ إلى دارِ الرَّشِيد فحينَ[٣] وُضِعَ فَمُ المولودِ على ثَدْيها قَبِلَه، وأرضَعَتْه وصَارتْ عندَهُم في حَالٍ جَليلةٍ، ثمَّ لما وُلِّي المأمونُ الخلافةَ كانت المرأةُ وابنُها مَعَه، وبنى ابنُها هذهِ الدَّارَ، وسأَله عَنْ أُمِّه أَحيَّةٌ هي؟ قال[٤]: نَعَمْ، وهيَ تمضِي إلى دَارِ الخَليفةِ أيَّاماً، وتكونُ عندَ ابنِها أيَّاماً.

فجَاءَ الرَّجُلُ الصَّيرَفيُّ حتَّى دَخَل الدَّارَ معَ النَّاسِ، فرآها في غَايَةِ الحُسْنِ، ورأى في صَدرِهَا شَاباً يُشبِهُه وبينَ يدَيْهِ الكُتَّابُ والأموالُ والموازينُ يَقْبِضُون ويُقَبِّضُونَ،

---

(١) في (س): «كان معه كله».

(٢) في (ف) و(س): «إليها».

(٣) في (صل): «فحال».

(٤) في (صل) و(ب): «قالوا».

فجلَسَ الرَّجُلُ في غِمَارِ النَّاسِ حتَّى تَفَرَّقُوا ولَمْ يَبْقَ غيرُه، فقالَ له الشَّابُّ: يا شيخُ هَلْ مِنْ حَاجَةٍ؟ قالَ: نَعَمْ أنا أَبُوكَ، قال: فتغيَّرَ وجهُهُ، ووَثَبَ مُسْرِعاً، ثم استَدْعَاه إلى دارٍ، وأَجْلَسَه على كُرْسِيٍّ، وهناكَ سِتَارةٌ، فقالَ له الشيخُ: لعلَّك تريدُ أنْ تَخْتَبِرَ صِدْقَ قَولي مِنْ جِهَةِ فُلانَةٍ ـ وذكرَ اسمَ جارِيَتِه أمِّ الصَّبيِّ ـ فسمعت الجاريةُ صوتَهُ فرَفَعَتْ الستارة، وخَرَجَتْ إلى مَولاها[1]، وجعلَتْ تقبِّلُه وتَبكِي، وأخبَرَها بخَبَرِه مِنْ حين خُروجِه مِنْ عندِها إلى أنْ رَجَعَ.

فقامَ وَلَدُه حينَئِذٍ، واعتَذَرَ إليهِ مِنْ تقصِيْرِه، وأَصْلَحَ حالَه، ثم أَدْخَلَهُ[2] على المأمونِ فحدَّثَه بحديثِه، فخَلَعَ عليه، وصَيَّرَهُ جِهْبِذاً له على ما كانَ عليه ابنُه، وأجرى لـه[3] الرِّزقَ، وقلَّدَ ابنَه عَملاً أَجَلَّ مِنْ عَمَلِه[4].

[الرابعة]:

وروى المُعافَى بنُ زكريّا النَّهروانيُّ بإسنادِه عَن سَوّارِ القَاضي: أنَّه خَرَجَ يَوماً مِنْ دَارِ المَهدِيِّ، فدَخَلَ دارَهُ فدعا بغَدَائِه، فجَاشَتْ نفسُه، فردَّهُ ثم دَعا بجاريةٍ لـه فلَمْ تَطِبْ نفسُه، فدَخَلَ للقَائِلةِ فلم يأْخُذهُ النَّومُ، فنَهَضَ وركبَ بغلَتَه، فلقِيَه[5] وكيلٌ لـه مَعَه ألفا دِرهمٍ، فقالَ له: أمسِكْها مَعَك واتْبَعْني، وخَلَّى بغلَتَه، فذهبتْ بـه[6]، فحَضَرت الصلاةُ وهُو في بعضِ الشَّوارعِ فدخَلَ فصلَّى في مَسْجِدٍ هناك، فلمَّا قَضَى صلاتَه إذا هُو بأعمى يَتَلمَّسُ، فقالَ له: ما تُريد؟ قال لَهُ: أريدُكَ، قالَ: وما حَاجَتُكَ؟

---

(١) في (ف): «سيدها» نسخة.

(٢) في (صل): «أدخل».

(٣) في (ف): «عليه».

(٤) في حاشية (ش): «بلغ ثانياً». والقصة في «الفرج بعد الشدة» للتنوخي (٣/ ٣١٤ ـ ٣٢٠).

(٥) في (س): «فلقي».

(٦) يعني ذهبت به حيث تريد لا يقودها إلى مكان معين.

قال: شَممتُ مِنكَ رِيحَ الطِّيبِ فظَنَنْتُ أنَّكَ مِنْ أهل النَّعيم، فأردتُ أنْ أُلقِيَ إليك شَيئاً. قالَ: قُلْ. قالَ: أترى[1] هذا القَصْرَ ـ لقصرٍ هُناك ـ؟ قالَ: نَعَمْ. قالَ: فإنَّه كانَ لأبي فبَاعَهُ، ثمَّ خَرَجَ إلى خُراسانَ، وخرجتُ مَعَه فزالتْ عنَّا النِّعَم التي كُنَّا فيها، فقدمتُ[2] فأتيتُ صاحِبَ الدَّارِ لأسأله شيئاً يَصِلُني بهِ وأصيرُ[3] إلى سَوَّارٍ [القاضي][4] فإنَّه كانَ صَدِيقاً لأبي. قالَ: سَوَّارٌ! فقلتُ[5]: فمَنْ أبوكَ؟ قالَ: فلانُ بنُ فلانٍ، فإذا هُو أَصدَقُ النَّاسِ إليَّ، فقلتُ له: فإنَّ اللهَ قَدْ أتاكَ بسَوَّارٍ، منعَهُ الطَّعامَ والشَّرابَ والنَّومَ، وجاءَ به بينَ يَدَيكَ، ثم دعا سَوَّارٌ وكيلَهُ فأخَذَ منه الدَّراهِمَ، فدَفَعَها إليهِ، وقالَ له: إذا كانَ غَدٌ فصِرْ إليَّ. قالَ سَوَّار: ثمَّ دَخَلْتُ[6] على المَهدِيِّ، فحدَّثتُه بهذا الحديثِ فأعجَبَهُ، وأَمَرَ للأعمى بألفَي دِينارٍ، وأمرَ لسَوَّار بمئةِ ألفِ دينارٍ.

قالَ سَوَّارٌ: فجَاءَني الأعمى فدفعتُ إليهِ الألفي[7] دِينَارٍ: وقلتُ له: قَدْ رَزَقَ اللهُ بكَرَمِهِ بكَ[8] خيراً كثيراً، وأعطيتُه مِنْ مالي ألفَي دينارٍ أيضاً[9].

[الخامسة][10]:

وخَرَّجَ ابنُ أبي الدُّنيا في كِتابه «الفَرَج بعدَ الشِّدَّة» بإسنادِه عَنْ وَضَّاحِ بن خَيْثَمةَ

---

(١) في (س): «هل ترى».

(٢) في (س): «فتقدمت».

(٣) في (صل): «وأصل».

(٤) من (ف) و(س).

(٥) في (صل): «قلت».

(٦) في (صل): «فدخلت».

(٧) في (س): «ألفي».

(٨) التبس على ناسخ (س) فكتب: «بكربة أبيك» وكتب في الحاشية «لعله: ببركة».

(٩) ذكر القصة المعافى بن زكريا في «الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي» (ص: ٦٣).

(١٠) في حاشية (ف): «حكاية أخرى».

قال: أَمرني عُمَرُ بنُ عبدِ العزيز رحمهُ اللهُ بإخراجِ مَنْ في السِّجنِ، فأخرجتُهم إلا يزيدَ بنَ أبي مُسلمٍ، فنذر هدرَ دَمِي، فإني لبإفرِيقِيَّة، إذْ قيلَ لي: قَدِمَ يزيدُ بنُ أبي مُسْلِم ـ يعني أَميراً على إفريقيَّة ـ فهربتُ مِنْه، وأرسلَ في طَلَبي، فأُخِذْتُ، فأُتيَ بي إليه، فقالَ لي: واللهِ لطالما سألتُ اللهَ أن يُمكِنَني منكَ، فقلتُ: وأنا واللهِ طالما استعذتُ باللهِ مِنْ شَرِّك، قالَ[١]: واللهِ ما أَعاذَكَ اللهُ، واللهِ لأقتلنَّكَ، ثم واللهِ لأقتُلنَّكَ، ثمَّ واللهِ لأقتلنَّكَ، لو سابَقني مَلَكُ الموتِ إلى قَبْضِ رُوحِكَ لسبقتُهُ. عليَّ بالسَّيْفِ والنِّطَع. قال: فجِيءَ بالنِّطَع، فأُقعِدْتُ فيه[٢]، وكُتِّفْتُ، وقامَ قائمٌ على رأسِي بسيفٍ مَشْهُورٍ، وأقيمَت الصَّلاةُ، فخَرَجَ إلى الصَّلاةِ، فلمَّا سَجَدَ أخذتْهُ سُيوفُ الجُنْدِ، فقُتِلَ، فجاءَني رَجُلٌ فقَطَعَ كِتافي بسَيْفِه، وقالَ لي: انطَلِقْ[٣].

[السادسة][٤]:

وبإسناده عن عَمرِو السَّرايا، وكان يُغيرُ[٥] في بلادِ الرُّومِ وحدَه، فبينَما هو نائمٌ ذاتَ يومٍ إذ وردَ عليه عِلْجٌ مِنْهُم، فحرَّكَهُ برِجْلِهِ فانتبَه، فقال: يا عَرَبي[٦] اخترْ إنْ شئتَ مُطاعَنَةً، وإنْ شِئْتَ مُسايَفَةً، وإنْ شِئْتَ مُصارَعَةً، فقلتُ: أما المطاعَنَةُ والمسايَفَةُ فلا بُقيا[٧] لهما، ولكن المُصارَعة. فنزَلَ فصرَعَني، وجَلَسَ على صَدْرِي، وقال: أيَّ

---

(١) في (صل) و(ب): «فقال».

(٢) في (س): «عليه».

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» (٧١).

(٤) في حاشية (ف): «حكاية أخرى».

(٥) في (ش): «يغزو».

(٦) في (س): «أعرابي».

(٧) في (ب): «فلا بقاء».

قِتْلَةٍ أقتُلُكَ؟ فرفعتُ رَأْسي، وقلتُ: أشهدُ أنَّ كُلَّ مَعبُودٍ ما دُونَ عَرْشِكَ إلى قرارِ الأَرَضين باطلٌ غيرَ وجهِك الكَريم، قَدْ ترى ما أنا فيهِ فَفَرِّجْ عَنِّي. قال: فأُغميَ عليَّ، فأفقتُ، فإذا الرُّومِيُّ قتيلٌ إلى جَنْبِي[1].

[السابعة]:

ورَوى أبو الحَسنِ بنُ جهضم بإسنادِه، عـن حـاتـمٍ الأصَمِّ قالَ: لَقِينا التُّركَ، فكانَ[2] بينَنَا جولةٌ، فرماني تُركيٌّ فقَلَبني عَنْ فَرَسي، ونَزلَ فقعدَ على صَدرِي، وأخذَ بلِحْيَتي، وأخرجَ من خُفِّه سكِّيناً ليذبَحني، فما كانَ قلبي عندَه، ولا عندَ سِكِّينه، وإنَّما كانَ عندَ سيِّدي، فقلتُ: سيِّدي، إنْ[3] قضَيتَ عليَّ أنْ يَذْبَحني هذا فعلَى الرَّأسِ والعَين، إنَّما أنا لكَ ومُلْكُكَ، فبينَما أنا على هذهِ الحالِ إذْ رَماهُ بعضُ المسلمينَ بسَهْمٍ فما أَخْطأ حَلْقَه، فسَقَط عَنّي، فقمت أنا إليهِ، وأخذتُ السِّكِّينَ مِنْ يدِه فذَبَحْتُه بها، فما هُو إلّا أنْ تكونَ قُلُوبكم عِنْدَ السَّيِّدِ حتى تَروا مِنْ عَجَائِب لُطْفِه ما لم تَروا مِن الآباءِ والأُمَّهاتِ[4].

وهذا بابٌ يطُولُ ذِكرُه جِدًّا، فلنَقْتَصِرْ على ما ذَكرناهُ، ففيهِ كِفايةٌ[5].

***

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» (٦٠).

(٢) في (صل): «فكانت»، وفي (ش): «وكان».

(٣) سقطت «إنْ» من (صل).

(٤) أخرجه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٩/ ١٥٢).

(٥) في حاشية (ش): «بلغ ثانياً».

قولُه ﷺ: «وإنَّ مَعَ العُسْرِ يُسراً»: هذا مُنْتَزَعٌ مِنْ قَولِهِ سُبحانَه وتعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]، وقولِهِ تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ـ٦].

ورَوى حميدُ بنُ حَمّاد بنِ أبي الخوَّار[1] ثنا عائذُ بنُ شُريحٍ، سمعتُ أنسَ بنَ مالكٍ يقولُ: كانَ النبيُّ ﷺ جالِساً وحِيالَه جُحْرٌ فقالَ: «لو جاءَ العُسْرُ فدخَلَ هذا الجُحْرَ لجاءَ اليُسرُ حتى يَدْخُلَ عليه فيخْرِجَه»، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجَلّ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ـ٦]. خَرَّجُه ابنُ أبي حَاتم في «تَفْسِيره»[2].

وخَرَّجه البزَّارُ في «مُسْنَدِه»، ولفظهُ: «لو جَاءَ العسْرُ حتى يَدخُلَ هذا الجُحْرَ لجاءَ[3] اليسرُ حتى يُخرِجَه»، ثمَّ قالَ: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[4].

وحميدُ بنُ حمّاد هذا: ضَعَّفُوه[5].

وخَرَّجَ ابنُ أبي حَاتمٍ من روايةِ مباركِ بنِ فَضالةَ عن الحَسَنِ قالَ: كانوا يقولونَ: لا يَغْلِبُ عُسْرٌ واحدٌ يُسْرَينِ اثنينِ[6].

وَخرَّجَ ابنُ جَرير مِنْ روايةِ مَعْمَرٍ عن الحَسن قالَ: خَرجَ النبيُّ ﷺ يوماً مَسرُوراً

---

(١) هذا صوابه، وفي (صل): «ابن أبي...» بياض، وفي (ش): «حميد بن أبي حماد بن أبي الجوزا». وفي (ف): «أحمد بن حماد بن الحواري». وفي (س): «حميد بن حماد بن أبي الحواري».

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (١٩٣٩٥).

(٣) في (س): «لجاء إليه».

(٤) أخرجه البزار (٧٥٣٠).

(٥) في (س): «ضعيف». قال الآجري عن أبي داود: ضعيف. كما في ترجمته من «تهذيب التهذيب» (٣/ ٣٧).

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٩٣٩٦).

فَرِحاً، وهُو يقولُ: «لنْ يَغْلِبَ عسرٌ يُسرين، لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسرَين ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ ـ ٦]»[١].

وخَرَّجَه أيضاً مِنْ روايةِ عوفٍ ويونسَ عن الحسنِ مُرسلاً أيضاً[٢].

ومِنْ حَديثِ قتادةَ قال: ذُكِرَ لنا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ بَشَّرَ أصحابَه بهذهِ الآيةِ فقالَ: «لنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَين»[٣].

وروى ابنُ أبي الدُّنيا مِنْ حديث معاويةَ بن قُرَّة عمَّن حدَّثه[٤] عن ابنِ مسعودٍ قالَ: لو أنَّ العُسرَ دَخَلَ في جُحرٍ لجاءَ اليسرُ حتى يدخُلَ معَه، ثم قالَ: قالَ الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ ـ ٦][٥]

ومِنْ حديثِ عبدِ اللهِ[٦] بنِ زيدِ بنِ أسلَمَ، عن أبيهِ، عن جَدِّهِ: أنَّ أبا عُبيدةَ حُصِرَ، فكتبَ إليه عُمر يقولُ: مهما ينزلُ بامرئٍ شدةٌ يجعلِ اللهُ له بعدَها فَرَجاً[٧]، وإنَّه لنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَينِ، وإنّه[٨] يقولُ: ﴿ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠][٩].

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٤٩٦).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٤٩٥).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٤٩٦).

(٤) من عجائب التصحيف ما وقع في (ش): «عَن جَدَّته».

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» (٣٠). وهو في «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٩٦)، وغيره.

(٦) في (ب): «عبد الرحمن» وهو خطأ.

(٧) في (صل): «مَخرجاً».

(٨) في (س): «وإن الله تعالى».

(٩) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» (٣١)، وغيره.

وكذا قالَ ابنُ عبَّاسٍ وغيرُه من المفسِّرين في هذهِ الآيةِ: لن يغلِبَ عُسْرٌ يُسرَين[١].

كانَ بعضُ المتقدِّمين ليلةً في الباديةِ في غَمٍّ شديدٍ، فأُلقيَ في رُوْعِه بيتٌ مِنَ الشِّعرِ فَقالَ:

أرى الـــموتَ لـمـــنْ أصبَـ ـحَ مَـغـمُـــوماً لـه أَصْلَـحْ

فلما جَنَّ عليه الليلُ سمع هاتِفاً يهتِفُ:

ألا أيـــهـــا الـمـــرءُ الـ ـــذي الهـمُّ بـــهِ بَـــرَّحْ[٢]

وقـــد أنـشـــدَ بيتـــاً لـــم يَـــزَلْ فـــي فِكْـــرِه يَسْـــنَحْ[٣]

إذا اشـتـــدَّ بـــكَ العســـرُ[٤] ففكِّـــرْ فـــي (أَلَـــمْ نَشْـــرَحْ)

فـعُـسْـــرٌ بـــين يُســـرَيْنِ إذا أبـصَـــرْتَـــه فـافْـــرَحْ

قالَ: فحفظتُ الأبياتَ وفرَّجَ الله غَمِّي[٥].

وقد أكثرَ الشعراءُ مِنَ القَولِ في هذا المعنى، ونحنُ نذكرُ قطعةً مُنتَخبةً مِنْ محاسِنِ ما قيلَ في ذلكَ:

---

(١) أخرجه عن ابن عباس: الفراء في «معاني القرآن» (٥/ ٢٢١). وذلك لأن «العسر» مذكور في الآيتين بلفظ التعريف، و«اليسر» مذكور بلفظ التنكير، فدل على أن العسر واحد واليسر اثنان، والعرب إذا ذكرت نكرة ثم أعادتها بنكرة صارت اثنتين.

(٢) في (س): «به الهم لم يبرح».

(٣) في (ف) و(س): «ذكره». وفي (صل) و(ف): «يَسْبَح».

(٤) في (ش): «إذا ضاق بك الأمر».

(٥) أخرجه من كلام العتبي رحمه الله: الواحدي في «الوسيط» (٤/ ٥١٩)، والسمعاني في «تفسيره» (٦/ ٢٥١).

[أبيات في الفَرَجِ بعد الشِّدَّة][١]

فممَّا قيل في هذا المعنى:

تَصَبَّـرْ إنَّ[٢] عُقبـى الصَّبْـرِ خَيْـرٌ ... ولا تَـجْـزَعْ لِـنائِبَـةٍ تَنُـوبُ

فـإنَّ اليُسْـرَ بعـدَ العُسْـرِ يَأتـي ... وعِنْـدَ الضِّيـقِ تَنْكَشِـفُ[٣] الكُـرُوبُ

وكَـمْ جَزِعَـتْ نُفُـوسٌ مِـنْ أُمُـورٍ ... أتـى مِـنْ دُونِها فَـرَجٌ قَرِيـبُ[٤]

ولبَعْضِهِم:

عَسـى فَـرَجٌ يكـونُ عَسَى ... نُـعَلِّـلُ أَنْفُـساً بِعَسَـى

وأقـربُ مـا يَكـونُ المَـرْ ... ءُ مِـنْ فَـرَجٍ إذا يَئِسَـا[٥]

ولآخر[٦]:

إذا تضايـقَ[٧] أمـرٌ فانتظِـرْ فَـرَجَـا ... فأضيـقُ الأمـرِ أدنَـاهُ مِـنَ الفَـرَجِ[٨]

ولِبعَضِهم:

فـلا تَجْـزَعْ وإنْ أَعْسَـرْتَ يوماً ... فقدْ أيسَـرْتَ في الزَّمَـنِ الطَّويلِ

---

(١) من حاشية (صل).

(٢) في (س): «فإن».

(٣) في (صل): «تنفرج».

(٤) لم أجد الأبيات عند غير المصنف.

(٥) أنشده الحسين بن عبد الرحمن لابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» (ص: ٧٧).

(٦) في (ش): «ولبعضهم»، وفي (ب) و(ف) و(س): «ولغيره».

(٧) في (صل): «ضاق».

(٨) من قول مجنون سمعه محمد بن الحسين كما في «الفرج بعد الشدة» لابن أبي الدنيا (٨٣).

وَلا تَظْنُنْ بربِّكَ ظَنَّ سُوءٍ ... فإنَّ اللهَ أولى بالجَمِيلِ
ولا تيأسْ فإنَّ اليأسَ كُفْرٌ ... لعلَّ اللهَ يُغنِي عَنْ قَلِيلِ
فإنَّ العُسْرَ يَتْبَعُهُ يَسارٌ ... وقِيْلُ اللهِ أصدَقُ كُلِّ قِيْلِ[١]

ولِبَعْضِهم:

مفتاحُ بابِ الفَرَجِ الصَّبْرُ ... وكُلُّ عُسْرٍ بعدَهُ يُسْرُ
والدَّهْرُ[٢] لا يَبقى على حَالةٍ ... والأمرُ يأتي بعدَه الأمرُ[٣]

ولغيره[٤]:

إذا اشْتَملتْ على اليأسِ القُلوبُ ... وضاقَ لما به الصَّدْرُ الرَّحيبُ
وأوطنتِ المكارِهُ واطمأنَّتْ ... وأرسَتْ في أماكِنِها الخُطُوبُ
ولم تَرَ لانكشافِ الضُّرِّ وَجْهاً ... ولا أَغْنَى بحِيْلَتِه الأريبُ
أتاكَ على قُنُوطٍ منكَ غَوْثٌ ... يمُنُّ بهِ اللَّطِيفُ المُسْتَجِيبُ
وكُلُّ الحادثاتِ وإنْ تناهَتْ ... فمَوْصُولٌ بها الفَرَجُ القَرِيبُ[٥]

---

(١) ذكر ابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» (٩٧) الأبيات الثلاثة الأولى لجعفر بن محمد رحمه الله في قصة. وانظر: «الفرج بعد الشدة» للتنوخي (١/ ٢٩٦). وذكرت الأبيات كلها مما أنشده ابن أبي الدنيا لمحمود الوراق كما في «ذكر ابن أبي الدنيا وما وقع عالياً من حديثه» لأبي موسى المديني (٣٣).

(٢) في (س): «فالدهر».

(٣) لأحمد بن يحيى، كما في «الفرج بعد الشدة» لابن أبي الدنيا (٧٣).

(٤) في (ش) و(س): «ولبعضهم».

(٥) أنشده محمد بن إبراهيم، كما في «الفرج بعد الشدة» لابن أبي الدنيا (ص: ٨١). ونسبه في «الحماسة البصرية» (٢/ ١) لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «وتروى لحسان بن ثابت رضي الله عنه».

ولبَعْضِهم:

عَسى ما تَرَى أنْ لا يَدُومَ وأنْ تَرى ... له فَرَجاً مِمَّا ألَحَّ بِهِ الدَّهْرُ

عسى فَرَجٌ يأتي بهِ اللهُ إنَّهُ ... لهُ كُلَّ يومٍ في خَلِيقَتِهِ أمرُ

إذا لاحَ عُسْرٌ فارْجُ يُسراً فإنَّه ... قَضَى اللهُ أنْ العُسْرَ يَتْبَعُهُ اليُسْرُ(١)(٢)

* * *

[نبذةٌ في ذكرِ لطائفِ البلايا وحكمها وفوائدها]

ولنختم الكتابَ بذِكرِ نُبْذَةٍ يسيرةٍ منْ لطائفِ البَلايا وفوائِدِها وحِكَمِها:

* **فمِنْها: تكفيرُ الخَطايا بها، والثوابُ على الصَّبْرِ عليها**، وهَلْ يُثابُ على البَلاءِ بنفسِه؟ فيه اختلافٌ بينَ العُلَماءِ.

* **ومِنْها: تذكيرُ العبدِ بذنوبه**(٣)، فربَّما تابَ ورجعَ مِنْها إلى اللهِ عَزَّ وجَلّ.

* **ومِنْها: زَوالُ قَسْوةِ القُلُوبِ وحدوثُ رقَّتِها.** قالَ بعضُ السَّلَفِ: إنَّ العبدَ ليمرَضُ فيذكرُ ذنوبَه، فيخرجُ منه مثلُ رأسِ الذُّبابِ مِنْ خَشيةِ اللهِ، فيغفرُ له(٤).

* **ومِنْها: انكسارُه للهِ عَزَّ وجَلّ وذُلُّه لهُ**، وذلكَ أحبُّ إلى اللهِ منْ كثيرٍ من طَاعاتِ الطَّائعين.

---

(١) في حاشية (س): «بلغ مقابلة».

(٢) كان يتمثل به القاسم بن محمد بن جعفر، كما في «الفرج بعد الشدة» (ص: ٩١).

(٣) في (ش): «تذكر العبد بذنوبه»، وفي (س): «ذنوبه».

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (١٧) من كلام يزيد بن ميسرة رحمه الله، بنحوه. وفي حاشية (صل): «قال ابن عطاء: ليخف عليك ألم البلاء لعلمك سبحانه هو المبلي» وهي من حكمه.

ومِنْها: أنَّها تُوجِبُ للعبدِ الرجوعَ بقلبِه إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ، والوقوفَ ببابِه، والتضرُّعَ له والاستكانةَ، وذلكَ مِنْ أعظَمِ فوائِدِ البَلاءِ.

وقَدْ ذَمَّ اللهُ مَنْ لا يَسْتكينُ[١] لهُ عندَ الشَّدائِدِ. قالَ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦]، وقالَ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢].

وفـي بعضِ الكُتُبِ السَّابِقةِ[٢]: إنَّ اللهَ تعالى لَيبتَلي العبدَ وهُـو يحبُّه ليسمعَ تَضَرُّعَه[٣].

وقالَ سعيدُ بنُ عبدِ العزيز[٤]: قال داودُ عليه السَّلام[٥]: سبحانَ مُستخرجِ الدُّعاءِ بالبلاءِ[٦]، وسبحانَ مستَخرِجِ الشُّكْرِ بالرَّخاءِ[٧].

ومَرّ أبو جَعْفرٍ محمَّدُ بنُ عليٍّ بمحمَّدِ بنِ[٨] المنكَدِرِ وهو مَغْمُومٌ فسألَ عَنْ سَبَبِ غَمِّه؟ فقيلَ له: الدَّينُ قَدْ فَدَحه[٩]، فقالَ أبو جَعفرٍ: أُفتِحَ له في الدُّعاءِ؟ قيلَ:

---

(١) في (ش): «يَسْتكِنُّ».

(٢) في (ش): «السَّالفة».

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الأولياء» (٣٩) من كلام كردوس بن عمرو، وكان ممن قرأ الكتب... ويروى مرفوعاً، ولا يثبت.

(٤) في حاشية (س): «بن عبيد». ولا وجه له.

(٥) من هنا خرم بمقدار ثلاث ورقات من (ش) إلى آخر الكتاب.

(٦) انقلب في (ف) و(س) إلى: «البلاء بالدعاء».

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا فـي «الفرج بعد الشدة» (٢٢)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧/ ٩٨) وفيه طريق آخر.

(٨) في (صل): «بابن».

(٩) أي: أثقله، وتصحف في (ب) و(ف) إلى: «قرحه» وفي (س) إلى: «قدحه».

نَعَمْ. قالَ: لقدْ بُورِكَ لعبدٍ في حَاجَةٍ أكثرَ مِنها[1] مِنْ دُعاءِ رَبِّهِ[2] كائنةً ما كَانَتْ[3].

وكانَ بعضُهم إذا فُتِحَ لهُ في الدُّعاءِ عندَ الشَّدائدِ لم يحبَّ تعجيلَ إجابَتِهِ خشيةَ أنْ ينقطعَ[4] عمَّا فُتِحَ له[5].

وقالَ ثابتٌ: إذا دعَا اللهَ المؤمنُ بدعوةٍ، وكَّل [اللهُ] جبريلَ بحاجَتِه، فيقولُ اللهُ: لا تَعْجَلْ بإجابَتِه، فإنِّي أحبُّ أنْ أسمعَ صوتَ عَبْدِي المؤمنِ[6].

ورُوِيَ مرفوعاً مِنْ وجوهٍ ضَعيفةٍ[7].

رأى بعضُ السَّلَفِ[8] ربَّ العِزَّةِ في نَوْمِه، فقال: يا ربِّ! كم أدعوكَ ولا تُجِيبُني؟ قال: إنِّي أحبُّ أنْ أسمعَ صَوتك[9].

* **ومِنْهَا: أنَّ البَلاءَ يُوصِلُ إلى قَلْبِه لذَّةَ الصَّبرِ عليه أو الرِّضا به**، وذلكَ مقامٌ عظيمٌ جِداً، وقدْ تقدَّمت الإشارةُ إلى فَضْلِ ذلكَ وشَرَفِه.

---

(١) لعل الصواب: «فيها».

(٢) في (صل): «من دعائه»

(٣) أخرج البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٩٥)، والخطيب البغدادي نحو هذه القصة في «تاريخ بغداد» (٤/ ٤٨٠) لكنها لعمر بن عبد العزيز ومحمد بن المنكدر!

(٤) في (س): «يقطع».

(٥) في (صل): «يفتح له». ذكر نحوه الإمام ابن تيمية، وهو في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٣٣).

(٦) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٣٢٧).

(٧) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨٤٤٢)، وفي «الدعاء» (٨٧) من حديث جابر رضي الله عنه، وفيه رجل متروك.

(٨) في حاشية (س): «الصالحين».

(٩) ذكره ابن الجوزي في «صيد الخاطر» (ص: ٨٤) لما حكي عن يحيى البكَّاء. وانظر ما علقته على «المحجة في سير الدلجة» في ذكر خبر رؤيا أبي يزيد. وأنه لا إشكال في ذلك.

* ومِنْها: أنَّ البَلاءَ يَقْطَعُ قَلْبَ المؤمنِ عن الالتفاتِ إلى مَخْلُوقٍ[1]، ويوجِبُ له الإقبالَ على الخالقِ وحدَهُ.

وقَدْ حكى اللهُ عن المشركينَ إخلاصَ الدُّعاءِ لهُ عندَ الشدائدِ، فكيفَ بالمؤمنِ؟ فالبلاءُ[2] يوجِبُ للعبْدِ تحقيقَ التَّوحيدِ بقَلْبِه، وذلكَ أعلى المقاماتِ وأشرفُ الدَّرجَاتِ.

وفي الإسرائِيليَّات: يقولُ اللهُ عزَّ وجَلَّ: البلاءُ يجمعُ بيني وبينَك، والعافيةُ تَجْمَعُ بينَكَ وبينَ نَفْسِك[3].

* * *

فصل[4]

وإذَا اشتَدَّ الكَرْبُ وعَظُمَ الخَطْبُ كانَ الفَرَجُ حينئذٍ قَريباً في الغَالِبِ[5] قالَ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠]، وقالَ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وأخبرَ عَنْ يعقوبَ عليه السَّلامُ أنَّه لم يَيأسْ مِنْ لقاءِ يُوسفَ، وقالَ لإخْوَته: ﴿ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧]، وقال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣].

* ومِنْ لطائِفِ أسرارِ اقترانِ الفَرَجِ باشتِدادِ الكَرْبِ: أنَّ الكَربَ إذا اشتَدَّ وعَظُمَ

---

(١) في (س): «المخلوق».

(٢) في (صل): «والبلاء».

(٣) ذكر هذا الأثر الإمام ابن تيمية في مواضع من كلامه، ومنها ما في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٣٤).

(٤) في (صل): «قال بعضهم».

(٥) زاد بعدها في (س): «كما».

وتَناهى وُجِدَ الإياسُ مِنْ كَشْفِه مِن جِهةِ المخلوق[١]، ووقعَ التعلُّقُ بالخالقِ وحدَه، ومَن انقطَعَ عن التعلقِ بالخَلائِقِ[٢]، وتعلَّقَ بالخالقِ[٣]: استجابَ اللهُ لهُ، وكَشَفَ عنهُ، فإنَّ التَّوكُّلَ هو قَطْعُ الاستشرافِ باليأسِ من المخلُوقين، كما قالَ الإمامُ أحمدُ، واستدلَّ عليهِ بقولِ إبراهيمَ عليه السلامُ لمَّا عَرَضَ له جبريلُ في الهواءِ، وقال[٤] لَهُ: ألكَ حاجَةٌ؟ فقال: أمَّا إليكَ فلا[٥].

والتوكُّلُ مِنْ أعظمِ الأسبابِ التي تُطلَبُ بها[٦] الحوائِجُ، فإنَّ اللهَ يكفِي مَنْ توكَّلَ عليهِ، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

قالَ الفُضيلُ: واللهِ لو يَئِسْتَ مِن الخَلقِ حتَّى لا تريدَ منهُم شيئاً، لأعطاكَ مولاكَ كلَّ ما تريد[٧].

* **ومِنْها: أنَّ العبدَ إذا اشتدَّ عليه الكَربُ، فإنه يحتاج حينئذ إلى مجاهدة الشيطان**، لأنَّه يأتيه فيُقَنِّطُه ويُسخِّطُه، فيحتاجُ العبدُ إلى مُجاهَدَتِه، ودَفْعِهِ، فيكونُ ثوابُ مجاهَدةِ عَدُوِّه ودفعِه دفعَ البلاءِ عنه ورَفْعَه، ولهذا: في الحديثِ الصَّحيحِ:

---

(١) في (س): «المخلوقين».

(٢) في (س): «بالخلق».

(٣) في (س): «بالخالق وحده».

(٤) في (س): «فقال».

(٥) أخرجه أبو يعلى ابن الفراء في «التوكل» (ص: ٨٣) وفي «طبقات الحنابلة» (١/ ٤١٦) مما سأل أبو يوسف يعقوب بن إسحاق ابن بختان الإمامَ أحمد. وقصة إبراهيم عليه السلام ذكرها البيهقي في «شعب الإيمان» من كلام بشر الحافي (١٠٤٥).

(٦) في (صل: «به».

(٧) في (صل): «كما تريد». وذكره المصنف أيضاً في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٩٤)، ولم أظفر به عند غيره.

«يُستَجابُ لأحَدِكُم ما لم يَعْجَل يقول[1]: قَدْ دَعَوتُ فَلَمْ يُستَجَبْ لي، فيَدَعُ الدُّعَاءَ»[2].

* ومِنْها: أنَّ المؤمنَ إذا استَبْطأ الفَرَجَ ويَئِسَ مِنْه، ولا سيَّما بعدَ كثرةِ دعائِه وتَضَرُّعِه، ولم يَظْهَرْ لهُ أثرُ الإجابَة رَجَعَ[3] إلى نَفْسِه باللَّائِمَةِ، ويقولُ لها: إنَّما أُتِيتُ مِنْ قِبَلِكِ، ولو كانَ فيكِ خيرٌ لأُجِبْتِ.

وهذا اللَّومُ أَحَبُّ إلى اللهِ مِنْ كَثِيرٍ من الطَّاعاتِ[4] فإنَّه يُوجِبُ انكسارَ العبدِ لمولاهُ، واعترافَه له بأنَّه ليسَ بأهلٍ لإجابةِ دُعائِه، فلذلكَ يُسرِعُ إليهِ حينئذٍ إجابَةُ[5] الدُّعاءِ، وتفريجُ الكَربِ فإنَّه تعالى عِنْدَ المنكسِرةِ قلُوبُهمْ مِنْ أجلِه[6]، وعلى قَدْرِ الكَسْرِ يكونُ الجَبْرُ.

قَالَ وَهْبٌ: تعبَّدَ رجلٌ زماناً، ثم بَدَتْ له إلى اللهِ حاجةٌ، فصامَ سبعينَ سَبْتاً، يأكلُ في كُلِّ سَبْتٍ إحدى عَشْرة تمرةً، ثم سألَ الله حاجَتَه، فلم يُعطَها، فرجَعَ إلى نَفْسِه، فقالَ: مِنْكِ أُتِيتُ، لو كانَ فيكِ خيرٌ أُعطِيْتِ حَاجَتَكِ، فنزلَ إليه عِنْدَ ذلكَ مَلَكٌ، فقالَ: يا ابنَ آدم! ساعَتُكَ هذهِ خيرٌ مِنْ عِبادَتِكَ التي مَضَتْ، وقَدْ قَضَى اللهُ حَاجَتَك[7].

---

(١) في (صل) و(ب): «فيقول».

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٤٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في (صل): «يرجع».

(٤) في حاشية (ف): «من أعظم المهمَّات».

(٥) في (س): «بإجابة».

(٦) كما جاء في آثار إسرائيلية عند أبي نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٦٤) و(٤/ ٣١) و(٦/ ١٧٧). وغيره.

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» (٦٠). ووهب هو ابن منبه رحمه الله. وفي حاشية (ف): «من أعظم المبشرات. الحمد لله تعالى».

قالَ بعضُهم:

أُهِينُ لهمْ نفسِي لِكَيْ يُكرِمُونَها ... ولَنْ[1] تُكْرَمَ النَّفسُ التي لا تُهِينُها[2]

فمَنْ تحقَّقَ هذا وعَرَفه وشَاهَدَه بقَلْبِه: عَلِمَ أنَّ نِعَمَ اللهِ على عَبْدِه المؤمنِ بالبَلاءِ أعظمُ مِنْ نِعَمِه في الرَّخاء[3]، وهَذا تحقيقُ مَعنى الحديثِ الصَّحِيْحِ عن النبيِّ ﷺ: «لا يَقْضِي اللهُ للمؤمِن قضاءً إلا كانَ خَيْراً له»[4].

«إنْ أصابَتْه سَرَّاءُ فشَكَرَ كانَ خَيراً له، وإنْ أصابَتْه ضَرَّاءُ صبرَ[5] كانَ خيراً له، وليسَ ذلكَ إلا للمُؤمِن»[6]، ومِنْ هَاهُنا كانَ العارفونَ باللهِ لا يختَارُونَ إحدَى الحالَتينِ على الأُخرى، بلْ أيَّهما قَدَّرَهُ اللهُ رَضُوا به، وقامُوا بعُبُودِيَّتِهِ اللائِقَةِ به.

وفي «المُسنَدِ» و«التِّرمذِيِّ» عن أبي أُمامةَ، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «عَرَضَ عليَّ ربي لِيجْعَلَ لي بَطْحَاءَ مكَّةَ ذَهباً، فقلتُ: لا يا ربِّ، ولكنْ أَشْبَعُ يوماً، وأَجوعُ يوماً، فإذا جُعتُ تَضَرَّعتُ إليكَ وذَكَرْتُكَ، وإذا شَبِعْتُ شَكَرْتُكَ وحَمِدْتُك»[7].

---

(١) في حاشية (س): «ولم».

(٢) كان الشافعي رحمه الله تعالى يتمثل بهذا البيت كثيراً كما قال البويطي، وأخرجه عنه: البيهقي في «المدخل إلى علم السنن» (١٧٤٦).

(٣) في حاشية (صل): «يخفف عني ما ألقى من البلاء لعلمي بأنت [بأنك أنت] المبتلي والمقدر».

(٤) هذا من حديث أنس رضي الله عنه، أخرجه الإمام أحمد (١٢١٦٠) (٢٠٢٨٣)، وهذا اللفظ للقضاعي في «مسند الشهاب» (٥٩٦)، وأدرج عليه المصنف الحديث التالي!

(٥) في (س): «فصبر».

(٦) وهذا من حديث صهيب رضي الله عنه عند مسلم (٢٩٩٩).

(٧) أخرجه الإمام أحمد (٢٢١٩٠)، والترمذي (٢٣٤٧) وقال: حديث حسن.

وقالَ عُمَرُ: ما أُبالي أصبَحْتُ على ما أُحِبُّ، أو عَلى ما أَكرَهُ، لأَنِّي لا أَدرِي الخيرَ فيما أُحِبُّ أو فيما أَكْرَهُ[١].

وقالَ عُمَر بنُ عبدِ العَزيزِ: أصبحتُ وما لي سُرُورٌ إلا في مَوَاقِعِ القَضاءِ والقَدَرِ[٢].

* * *

يا هَذَا! كَمْ نَستَدْعيكَ إلينَا وأنتَ تَفِرُّ مِنَّا؟ نُسبِغُ عليكَ النِّعَمَ فتَشْتَغِلُ بها عنَّا وتَنْسانا؟ فنفرِغُ عليكَ البلاءَ لِتُرَدَّ إلينَا وتَقِفَ على بَابِنَا ونَسْمَعَ تَضَرُّعَكَ، البلاءُ يجمَعُ بينَنَا وبينَك، والعافيةُ تجمعُ بينَكَ وبينَ نَفْسِكَ.

إنْ جَرى بينَنَا وبينَك عَتْبٌ ... أو تَناءَتْ مِنَّا ومِنْكَ الديرُ

فالوِدَادُ الذي عَهِدْتَ مُقيمٌ ... والأيادي التي عَهِدْتَ غِزارُ[٣]

كَمْ لنا في طَيِّ البلايَا مِنْ مِنَحٍ وعَطايا، وفي الزَّوايا خَبَايا.

يا هَذا! إنْ شَكَرتَ نِعَمَنا[٤] عليكَ، فتوفيقُكَ للشُّكرِ مِنْ جُملَةِ نِعَمِنا، فاشكره.

وإنْ صَبَرتَ على بلائِنا فالصَّبْرُ مِنْ جُملةِ فَضْلِنا، فاذكُرْه.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٤٢٥)، وابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» (١٣).

(٢) أخرجه بنحوه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٧/ ٣٦٣)، وابن عبد الحكم في «سيرة عمر بن عبد العزيز» (ص: ٩٧)، وابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله بقضائه» (١٠) (٤٦).

(٣) البيتان للبحتري، من قصيدة طويلة يمدح بها المهتدي بالله، وهي في ديوانه (ص: ٨٥٢)، وفيه: «والدموع التي عهدت غزار». وكتب ناسخ (س) بعدهما: «غيره... » وليس بشعر.

(٤) في (صل): «نعمتنا».

فكُلُّ ما تَتَقَلَّبُ فيه فهو مِنْ نِعَمِنا، فلا تَكْفُرْه، ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: ٣٤]:

إذا كَانَ شُكْري نعمةَ اللهِ نِعْمَةً ... عَلَيَّ لَه في مِثْلِها يَجِبُ الشُّكْرُ

فكيفَ وقوعُ الشُّكْرِ إلا بِفَضْلِهِ ... وإنْ طَالتِ الأيَّامُ واتَّصَلَ العُمْرُ

إذا مَسَّ بالسَّرَّاءِ عَمَّ سُرُورُها ... وإنْ مَسَّ بالضَّرَّاءِ أعقبَها الأَجْرُ

وما مِنْهُما إلا لَهُ فيهِ مِنَّةٌ ... تَضِيقُ بها الأوْهامُ والبَرُّ والبَحْرُ[1][2]

تمَّت، والحمدُ للهِ وحدَه، وحسبُنا الله ونعْمَ الوكيل

---

(١) الأبيات لمحمود الوراق رحمه الله، وهي في «الشكر» لابن أبي الدنيا (٨٣)، و«فضيلة الشكر لله على نعمته» للخرائطي (٤٥)، و«شعب الإيمان» للبيهقي (٤٠٩٩).

(٢) في آخر النسخة «الأصل»: «وكان الفراغ من نسخها يوم الجمعة بعد العصر سادس جمادى الأولى سنة سبع وثمانين وسبع مائة في منزلي بالقرب من جامع الخطيري، أحسن الله تقضيها وبقية العمر في خير وعافية بلا محنة، على يد الفقير إلى الله تعالى محمد بن محمد بن محمد بن عبد الدائم الباهي الحنبلي عامله الله بلطفه الخفي والجلي، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً».

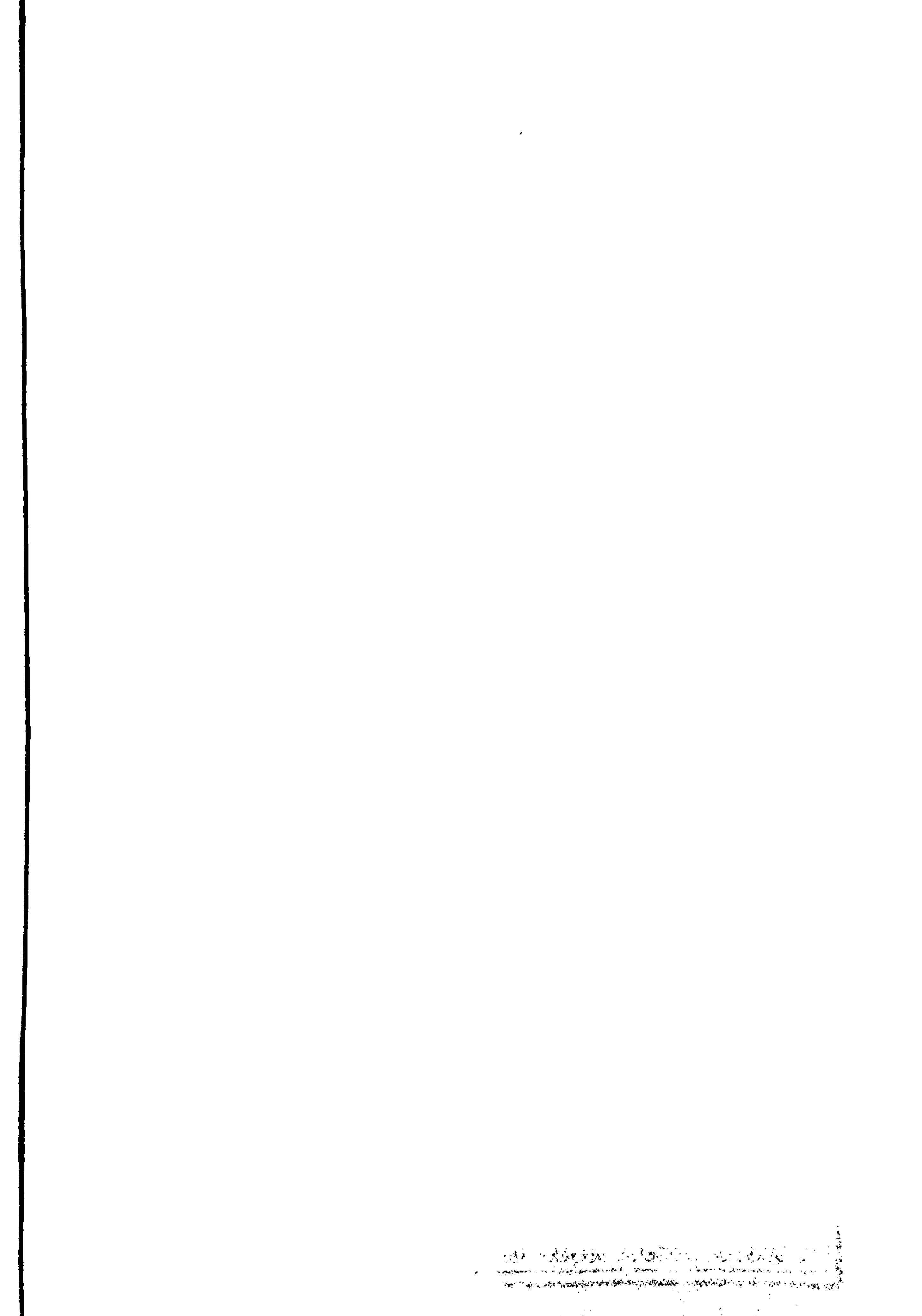
وفي آخر النسخة (ب): «تم الكتاب بحمد الله ومنه وكرمه وحسن توفيقه، والحمد لله وحدهُ وصلى الله على سيدنا محمد أكرم الخلق وحبيب الحق ورسول الرحمة والهادي إلى الجنة وإلى صراط مستقيم، وعلى آله وصحبه المكرمين، ورضي الله عن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. ووافق الفراغ منه في خامس ذي القعدة الحرام سنة ست عشر وثمانمئة، والحمد لله رب العالمين وحسبنا الله ونعم الوكيل».

ثم جاء على هامش النسخة ما نصه: «الحمد لله، بلغ قراءة ومقابلة على الشيخ الإمام العالم علاء الدين أبي الحسن علي بن زيد نفع الله به، فصحَّ [...] على الشيخ الإمام داود الحنبلي [على] مؤلفه الإمام زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن رجب تغمده الله تعالى برحمته، وأجاز لنا ما يجوز له وعنه روايته بشرطه. واتفق ذلك في [...] من شهر ذي الحجة الحرام سنة ست وأربعين =

= وثمانمئة. قاله وكتبه: محمد بن محمد [...] غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين».
ثم جاء في آخر قيد السماع هذا «صحيح ذلك. وكتبه علي بن زيد عفا الله عنه».
وفي آخر النسخة (ش) بعد انتهاء الخرم: «... بكرة نهار الأحد تاسع وعشرين من شهر المحرم سنة ستة عشر وثمانمائة، على يد العبد الفقير الذليل المذنب، الراجي عفو ربه الكريم علي بن عمر بن أحمد بن محمود المقري الدمشقي، كان الله له عوناً ومعيناً على كل خير، وحافظاً له من كل سوء ولجميع المسلمين، ولمن دعا له بالمغفرة والرحمة، ونفعه الله بما قرأ وكتب وسمع، في الدنيا والآخرة، وغفر الله لمن قرأ في هذا الكتاب أو سمعه، ودعا لكاتبه بالمغفرة والرحمة ولجميع المسلمين. آمين.
والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبي الأمي، وعلى آله وأزواجه وذريته صلاة دائمة باقية منجية من آفات الدنيا وأهوال الآخرة، ورضي الله عن أصحاب رسول الله أجمعين. سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين».
وفي آخر النسخة (ف) وهو آخر المجموع: «آخره والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، يا رب العالمين، ووافق الفراغ منه في ليلة يسفر صباحها عن ليلة الثلاثاء، خامس شهر ربيع الأول من شهور سنة ثلاث وتسعين وثمان مائة، على يدِ فقيرِ عفوِ ربِّه الممجَّد عيسى بن علي بن محمد الحوراني الشافعي، عامله الله بلطفه الخفي، بمحمَّد وآله، وغفر له ولوالديه، ولمنْ نظر فيه ودعا لي بالمغفرة، وحسن الخاتمة، إنه بر رحيم جواد، لا يخيب من دعاه».
وفي آخر النسخة (س): «آخره والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين، تم الكتاب، ولله الحمد والمنة، على يد كاتبه لنفسه عبده عبد الله ابن إبراهيم بن محمد بن ربيعة، المعروف بالربيعي، وذلك في عشية الأربعاء يوم ستة وعشرين رجب سنة ١٣٣٣، ولله الحمد والمنة، على بدئه وختامه، جعله الله معونة على طاعته، ومقرباً إلى رضاه وكرامته، آمين». وفي حاشية النسخة «بلغ مقابلة وتصحيحاً على حسب الطاقة، على يد كاتبه غفر الله له ولوالديه وللمسلمين، إنه أرحم الراحمين، وذلك في ٣٠ شوال سنة ١٣٣٣».
*** تمَّ تحقيق هذا الكتاب النافع المبارك أذان المغرب من ليلة الأربعاء ٢٤ المحرم (١٤٤٣هـ) أحسن الله تقضّيها، والحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وسلّم.**



مجموع رسائل العلامة ابن رجب الحنبلي
الرسالة رقم: (١٢)
بيان المحجة في سير الدلجة
دار اللباب



مكتبة المسجد الأقصى (ص)

مكتبة الرياض العامة ـ نسخة إبراهيم بن سليمان بن حجي (ح)

مكتبة الشيخ محمد بن عبد الله آل عبد القادر بالإحساء (ق)

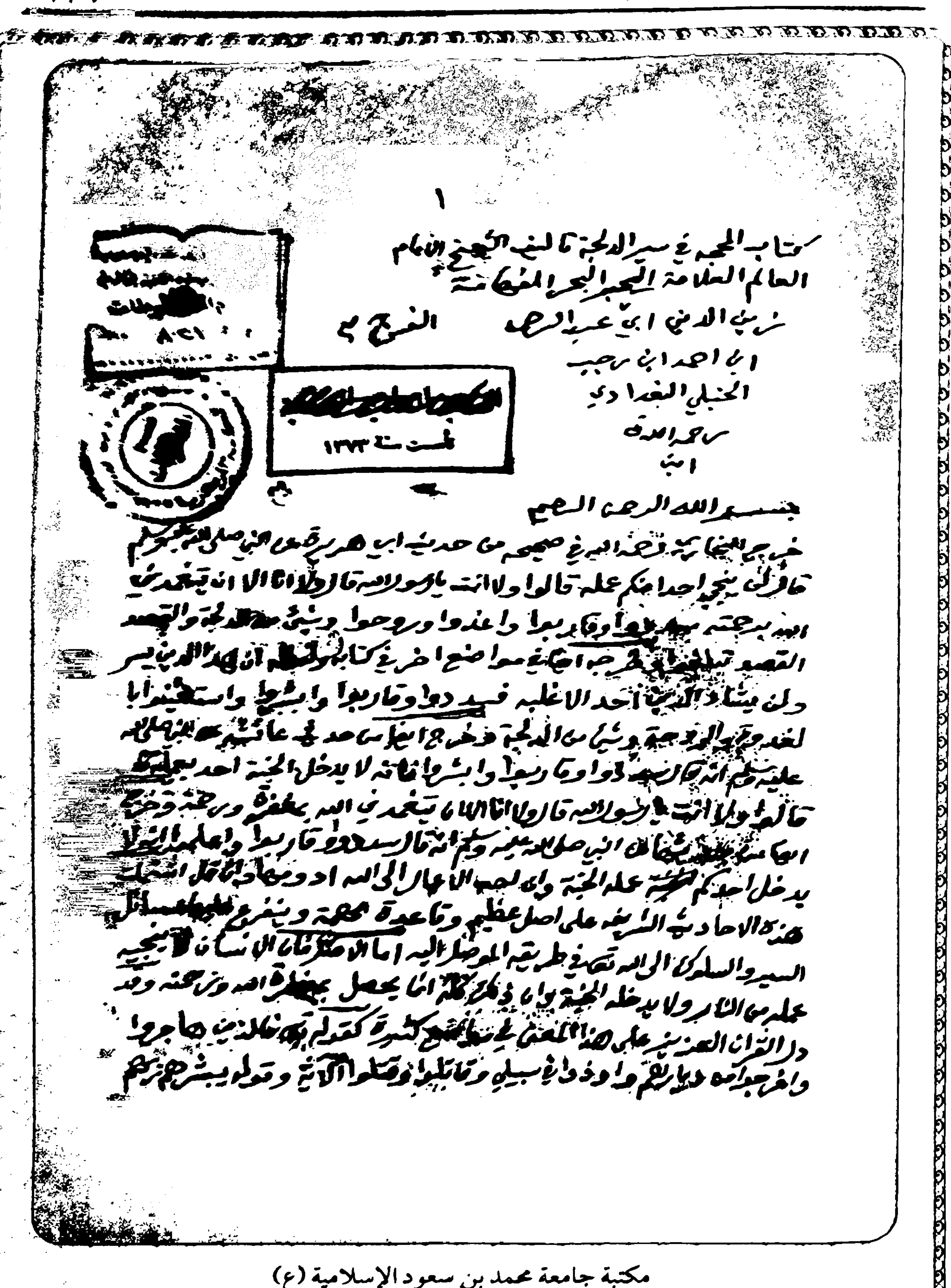
٥٣

كتاب المحجة في سير الدلجة تاليف الشيخ الامام العالم العلامه الحبر البحر الفهامه زين الدين ابي الفرج عبد الرحمن بن احمد بن رجب الحنبلي البغدادي رحمه الله تعالى ورضي عنه

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

خرج البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه من حديث ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لن ينجي احدا منكم عمله قالوا ولا انت يا رسول الله قال ولا انا الا ان يتغمدني الله برحمته سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيء من الدلجة والقصد القصد تبلغوا وخرجه ايضا في مواضع اخر في كتابه ولفظه ان هذا الدين يسر ولن يشاد الدين احد الا غلبه فسددوا وقاربوا وابشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة وخرج ايضا من حديث عايشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال سددوا وقاربوا وابشروا فانه لا يدخل الجنة احد بعمله قالوا ولا انت يا رسول الله قال ولا انا الا ان يتغمدني الله بمغفرة ورحمة وخرج ايضا من حديثها عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال سددوا وقاربوا واعلموا انه لا يدخل احدكم عمله الجنة وان احب الاعمال الى الله ادومها وان قل اشتملت هذه الاحاديث الشريفة على اصل عظيم وقاعدة مهمة ويتفرع عليها مسايل كثيرة من مسايل السير والسلوك الى الله تعالى في طريقه الموصل

مكتبة جامعة الرياض ثم جامعة الملك سعود (س)

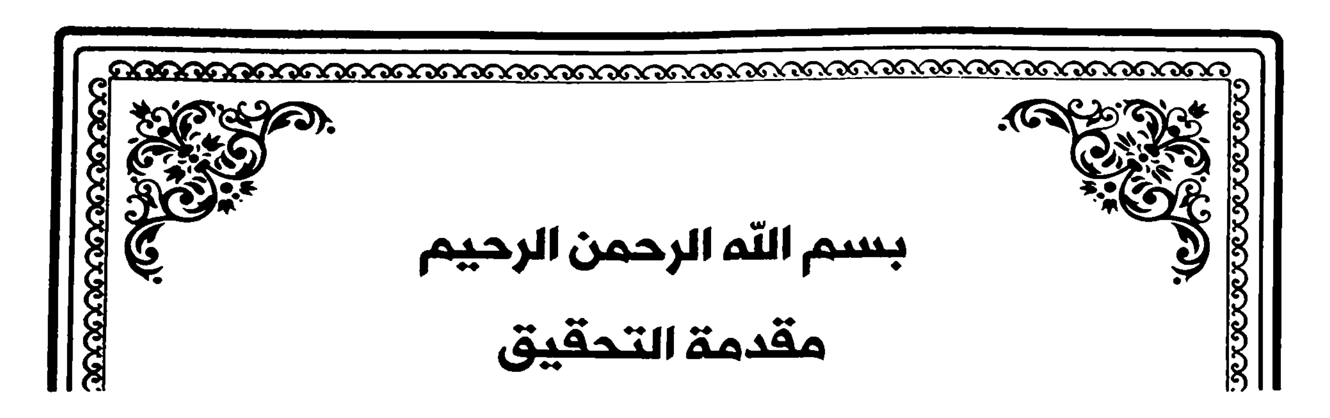


١

كتاب المحجة في سير الدلجة تأليف الشيخ الإمام
العالم العلامة الحبر البحر الفهامة
زين الدين أبي عبد الرحمن الفرج بن
أبي أحمد ابن رجب
الحنبلي البغدادي
رحمه الله
آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

خرج البخاري رحمه الله في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم
قال لن ينجي أحدا منكم عمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني
الله برحمته سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيء من الدلجة والقصد
القصد تبلغوا وخرجه في موضع آخر في كتابه ولفظه إن هذا الدين يسر
ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا با
لغدوة والروحة وشيء من الدلجة وخرج أيضا من حديث عائشة عن النبي صلى الله
عليه وسلم أنه قال سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لا يدخل الجنة أحد عمله
قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة وخرج
... عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال سددوا وقاربوا واعلموا أنه لن
يدخل أحدكم عمله الجنة وأن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل اشتملت
هذه الأحاديث الشريفة على أصل عظيم وقاعدة مهمة ويتفرع عليها مسائل
السير والسلوك إلى الله تعالى في طريقه الموصلة إليه أما الأصل فإن الإنسان لا ينجيه
عمله من النار ولا يدخله الجنة وإن ذلك كله إنما يحصل بمغفرة الله ورحمته وقد
دل القرآن العزيز على هذا المعنى في مواضع كثيرة كقوله فالذين هاجروا
وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا الآية وقوله يبشرهم ربهم



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله الذي أوضح سبيل المحجَّة، وأنزل الكتاب فأقام به الحجة، والصلاة والسلام على النور المبين بعدَ ظلام الدلجة، سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه وأتباعه ومن تبعهم على الهدى واجتنب الردى في اللجة.

أما بعد:

فإن السير إلى الله تعالى إنما هو بتوفيق الله سبحانه، والموفقون في سلوك ذاك الطريق قد أسلموا أنفسهم لرِقِّ العبودية لله جل جلاله، حباً وخوفاً ورجاءً، فوجهتهم رضى مولاهم، لا يلتفتون عنها إلى رؤية أعمالهم، فلا هم يراؤون بها الخلقَ في الدنيا، ولا هم يرونها ثمناً للجنة في الآخرة، وإنما يرجون مغفرة الله وعفوه ورحمته، ودخول جنته والنظر إلى وجهه جل جلاله.

فدَلَّهم هاديهم ﷺ على قصد السداد في العمل بالإخلاص والصواب، فيكون ذلك سبباً للرحمة لا ثمناً للجنة.

ودلَّهم هاديهم ﷺ على المقاربة في العمل دون إفراط يفضي إلى الملال المؤدي لترك العمل، وبيَّن لهم سبيل المقاربة فيه بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة، فشبههم بالمسافرين ـ فهم سائرون إلى الجنة ـ فكأنه قال: لا تستوعبوا الأوقات كلها بالسير بل اغتنموا أوقات نشاطكم في الغدوة بالسَّير أولَ النهار، وفي الرَّوحة بالسير آخره، وفي الدلجة بالسير في الليل.

وبهذا يبلغ الإنسان قصده، فإنَّ المُنبَتَّ ـ وهو الذي ينقطع عن أصحابه في السفر ـ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى، بالَغ في سيره وأتعب دابته وأسرع بها، حتى قعدت به، وجعلت من كانوا وراءَه أمامه، فينقطع عنهم، حتى يسبقوه بمراحل، فلا هو قطع مسافةَ سفره، ولا هو أبقى دابته تحمله على ظهرها.

وكذلك من أفرط في العبادة حتى أضر ذلك ببدنه، مما يُعْجِزُه عن القيام بما افترض عليه فيما بقي من عمره، فالإفراط ألجأه بعد ذلك إلى التفريط.

اللهم إنا نسألك هدياً قاصداً، وعملاً صالحاً متقبلاً، وأن ترضى عنا يا أرحم الراحمين.

* * *

ذكر هذه الرسالة للمصنف رحمه الله: ابن عبد الهادي في «الجوهر المنضد» (ص: ٥٠)، وسمّاها ـ كما في المطبوع منه ـ: «بيان الحجة في سير الدلجة».

وقد اعتمدت في إخراج هذه الرسالة على خمس نسخ خطية:

١ ـ نسخة المسجد الأقصى ـ فرج الله عنه وعن أهله ـ، ورمزها (ص).

وهي الرسالة السابعة في ضمن المجموع (١٤٦)، وقد تقدم التعريف به في المقدمات.

وقد جاء العنوان في الورقة الأولى من المجموع، وفي الورقة الأولى من الرسالة: «شرح حديث لن ينجّي أحداً عمله».

وتقع هذه الرسالة في (١٠) لوحات (من ٦٦/ أ إلى ٧٥/ أ)، وقد أكلت الأرضة أسفل أوراقها مما ذهب ببعض الكلمات وبعض الأسطر الأخيرة.

ولا يوجد في هذه النسخة الفصل الذي في آخر الرسالة في قوله تعالى ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾.

لم يذكر اسم ناسخها، ولا تاريخ نسخها، لكنها من خطوط القرن التاسع الهجري.

٢ ـ نسخة إبراهيم بن سليمان بن حجي، ورمزها (ج).

وهي من وقف الشيخ محمد بن عبد اللطيف، في مكتبة الرياض العامة السعودية، وهي الرسالة الثالثة عشرة في ضمن المجموع (٦٨٦/ ٨٦)، وقد تقدم التعريف به في المقدمات، وقد جاء العنوان فيها بخط متأخر: «بيان المحجة في سير الدلجة».

وتقع هذه الرسالة في (٨) لوحات (من ١٣٠/ ب إلى ١٣٧/ ب).

أما الورقتان الأوليان فكتبتا بخط متأخر، مسطرتهما ١٧ ـ ٢٠ سطراً.

وباقي الأوراق بخط أقدم، مسطرتها ٣٠ ـ ٣٢ سطراً.

ناسخها: إبراهيم بن سليمان بن حجي بن محمد بن عبد ـ أو عيد ـ رحمه الله تعالى.

تاريخ نسخها: ٢٧ ربيع الأول ١١٩٤هـ، وهي مقابلة، وعلى حاشيتها تصحيحات كثيرة، وكتب الناسخ في آخرها: «كتبتها من نسخة غير صحيحة».

وكتب أيضاً:

«وما من كاتب إلا سيفنى ... ويبقى الدهر ما كتبت يداه

رحم الله قائله، رحم الله كاتبه.

ستبقى خطوطي برهة بعد مواتي إلا أنها ستفنى وتبقى أناملي
فيا قاري الخط سل الله رحمة لكاتبه تحت الجنادل»

٣ـ نسخة مكتبة الشيخ محمد بن عبد الله آل عبد القادر بالإحساء، ورمزها (ق).

وهي برقم (٤٠)، جاء العنوان فيها: «بيان الحجة في سير الدلجة». وهي ناقصة، ولدينا مصورة ١٣ صفحة من أولها، مسطرتها ٢٥ سطراً، ويبدو أنها في ضمن مجموع، فقد ألحقت معها ورقة، يظهر أنها سابقة لأول هذه الرسالة، وفيها خاتمة كتاب آخر بالخط نفسه.

اسم ناسخه: عبد الله بن درويش بن مبارك العدساني.

وتاريخ نسخ تلك الورقة ٤ ربيع الأول ١٢١٨.

٤ ـ نسخة جامعة الرياض، ثم جامعة الملك سعود، ورمزها (س).

وهي الرسالة الثانية من المجموع (١٦٣٧) وقد سبق التعريف به في المقدمات، وجاء العنوان فيها: «المحجة في سير الدلجة»، وتقع الرسالة في (١٣) ورقة (من ص: ٥٣ إلى أول ص: ٧٩) بخط عبد الله بن إبراهيم الربيعي. ولم يذكر تاريخ النسخ، لكن بعد رسائل تليها كُتب قيد الفراغ في ١٧ رجب ١٤٣٣.

٥ ـ نسخة جامعة محمد بن سعود الإسلامية، ورمزها (ع).

وهي برقم (٨٢١)، جاء العنوان فيها: «المحجة في سير الدلجة»، وهي في (١١) لوحة، بخط سليمان بن عبد الرحمن العمري، وتاريخ نسخها ٢٨ شوال ١٣٣٣.

وتكاد (س) و(ع) أن تتطابقا، وفيهما اختلاف كثير عن نسخة المسجد الأقصى (ص)، ونسخة (ج)، وقد أهملتُ التنبيه علـى الأسقاط والتصحيفات في النسخ الأربع المتأخرة فهي كثيرة جداً، واعتمدت على (ص) في الغالب.

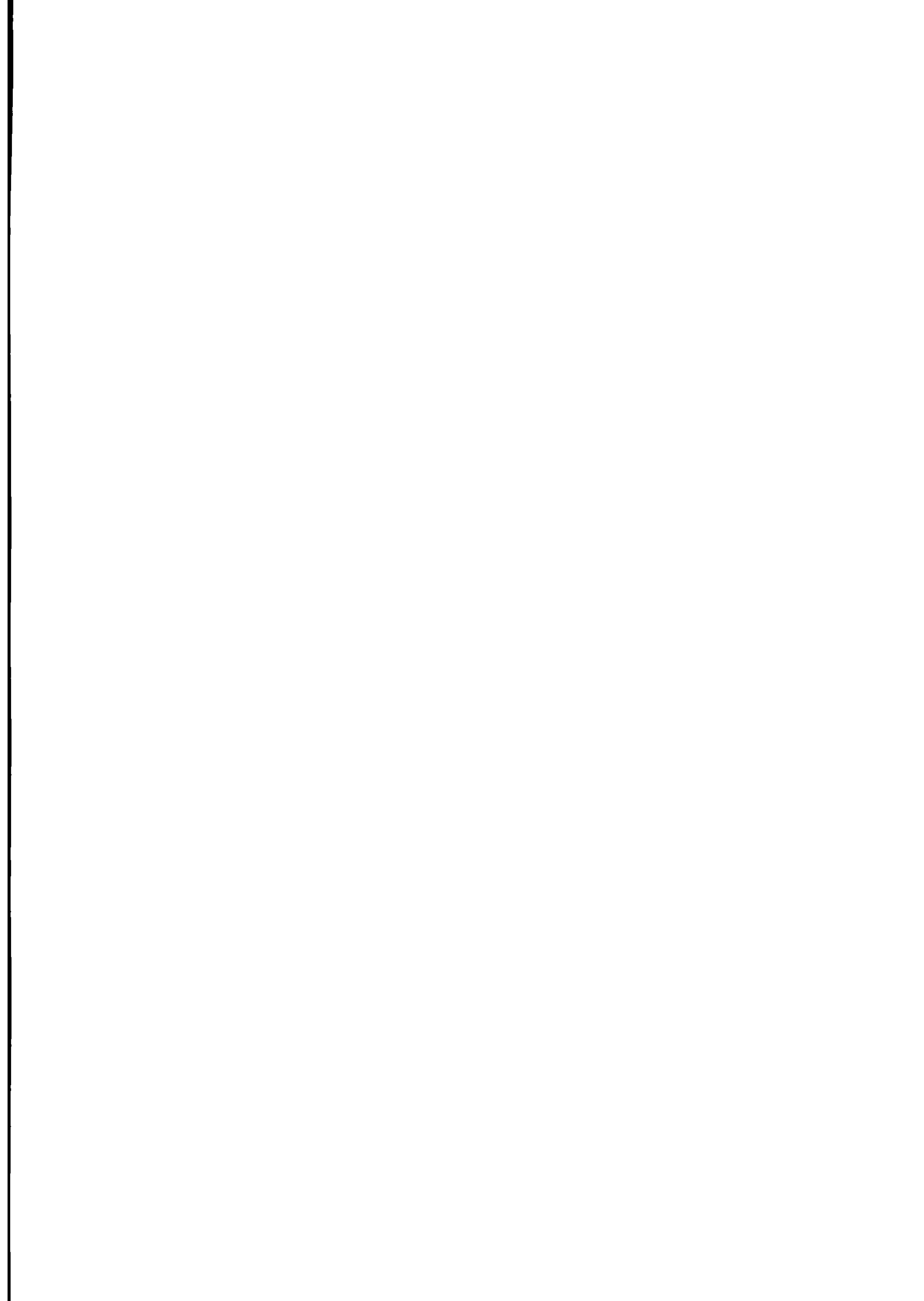
٦ ـ وثمة نسخة سادسة لم نقابل بها، في جامعة الرياض وهي في مجموع (٤٤٣٣) وقبلها تفسير سورة النصر، وتفسير سورة الإخلاص، وهي من مخطوطات القرن الثالث عشر، وجاء العنوان فيها: «بيان المحجة في سير الدلجة».

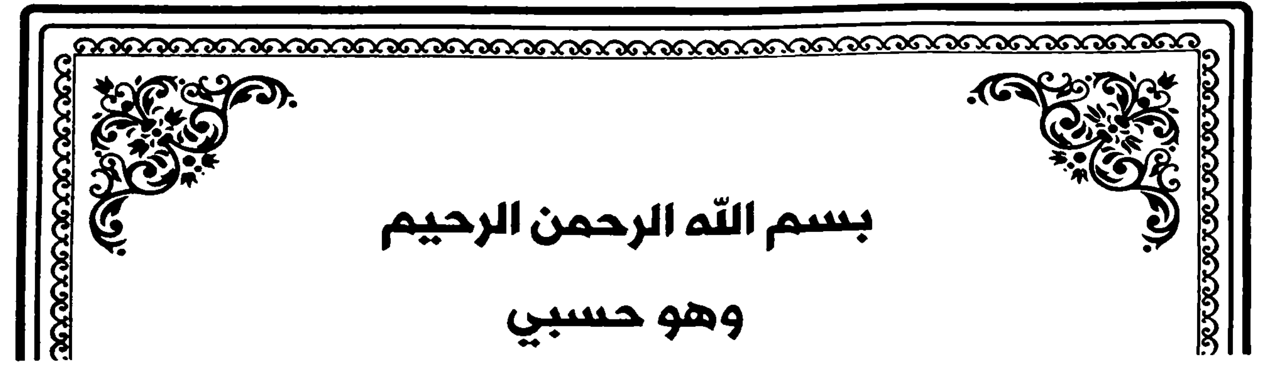
والله ولـي التوفيـق، والحمـد لله رب العالميـن، وصلى الله على سـيدنا محمد وعلـى آله وصحبه وسـلم.

كتبه

محمد مجير الخطيب الحسني

* * *





بسم الله الرحمن الرحيم

وهو حسبي

خـرَّجَ البخاريُّ ـ رحِمَهُ اللهُ تعالى ـ فـي «صحيحِه» مِـنْ حديثِ أبـي هريرةَ رضي الله عنه، عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «لنْ يُنَجِّيَ أحداً منكمْ عملُه»، قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «ولا أنا، إلَّا أنْ يتغمَّدَني اللهُ برحمتِه[1]، سدِّدوا وقاربوا، واغدُوا ورُوحُوا، وشيءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ، والقَصْدَ القَصْدَ تبلُغُوا»[2].

وخرَّجَه أيضاً في مواضعَ أُخَرَ في «كتابِه»، ولفظُه: «إنَّ هذا الدِّينَ يُسْرٌ، ولنْ يُشادَّ الدِّينَ أحدٌ إلَّا غلَبَه، فسدِّدوا وقارِبوا وأبشروا، واستعينوا بالغَدْوةِ والرَّوْحةِ، وشيءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ»[3].

وخـرَّجَ أيضـاً مِـنْ حديـثِ عائشـةَ رضـي الله عنهـا، عـنِ النَّبـيِّ ﷺ أنَّـه قـالَ: «سـدِّدوا وقاربـوا وأبشـروا، فإنَّـه لا يُدخِلُ الجنَّـةَ أحداً عملُـه»[4]، قالـوا: ولا أنتَ

---

(١) في «صحيح البخاري»: «برحمة».

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٦٣).

والمراد بالغدو: السير من أول النهار.

وبالرواح: السير من أول النصف الثاني من النهار.

والدُّلْجَةُ: سيرُ الليل، قال ابن حجر: «وعبَّر بما يدل على السير لأن العابد كالسائر إلى محل إقامته وهو الجنة». انظر: «فتح الباري» لابن حجر (١١/ ٢٩٨).

فيعمل العبد طرفي النهار ويستريح وسطه لئلا يملّ. وأراد بالدلجة: زيادة صلاة الليل.

(٣) أخرجه البخاري (٣٩) و(٥٦٧٣) (٧٢٣٥).

(٤) في (ج): «فإنه لن يدخل الجنة أحد بعمله» وفي (ع) و(س): «لا يدخل الجنة أحد بعمله».

يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «ولا أنا إلَّا أنْ يتغمَّدَني اللهُ بمغفرةٍ ورحمةٍ»[(١)].

وخرَّجَ أيضاً مِنْ حديثِها، عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «سدِّدوا وقاربوا، واعلموا أنْ لن[(٢)] يُدْخِلَ أحدَكمْ عملُه الجنَّةَ، وأنَّ أحبَّ الأعمالِ أدومُها إلى اللهِ تعالى وإنْ قلَّ»[(٣)].

اشتمَلَتْ هذه الأحاديثُ الشَّريفةُ على أصلٍ عظيمٍ وقاعدةٍ مُهمَّةٍ، ويتفرَّعُ عليها مسائلُ شتى من مسائل السَّيْرِ والسُّلوكِ إلى اللهِ تعالى في طريقِه الموصِلِ إليهِ.

أمَّا الأصلُ: فهو أنَّ عملَ الإنسانِ لا يُنَجِّيهِ[(٤)] مِنَ النَّارِ، ولا يُدخِلُه الجنَّةَ، وأنَّ ذلكَ كلَّه إنَّما يحصُلُ بمغفرةِ اللهِ تعالى ورحمتِه.

وقدْ دلَّ القرآنُ العزيزُ على هذا المعنى في مواضِعَ كثيرةٍ؛ كقولِه تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقولِه تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾ الآية [التوبة: ٢١]، وقولِه تعالى: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [الصف: ١١ ـ ١٢]، فقرَنَ بينَ دخولِ الجنَّةِ والنَّجاةِ مِنَ النَّارِ، وبينَ المغفرةِ والرَّحمةِ، فدلَّ على أنَّه لا يُنالُ شيءٌ مِنْ ذلكَ بدونِ مغفرةِ اللهِ ورحمتِه.

---

(١) أخرجه البخاري في «الرقاق» (٦٤٦٧). وفي (ج) و(ق): «بمغفرته ورحمته».

(٢) في (ع) و(س): «أنه لا». والمثبت موافق للمصدر.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٦٤). والمثبت من (ص)، وفي غيرها: «أحب الأعمال إلى الله أدومها».

(٤) في (ع): «فإن الإنسان لا ينجيه عمله».

قالَ بعضُ السَّلَفِ: الآخرةُ إمَّا عفوُ اللهِ أوِ النَّارُ، والدُّنيا إمَّا عِصْمَةُ اللهِ أوِ الهلَكَةُ(١).

وكانَ محمَّدُ بنُ واسعٍ يودِّعُ أصحابَه عندَ موتِه، ويقولُ لهم: عليكمُ السَّلامُ إلى النَّارِ أوْ يعفو اللهُ تعالى(٢).

فأمَّا قولُه تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]، وقولُه تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، فقدِ اختلَفَ العلماءُ في معنى ذلكَ على قولينِ:

أحدُهما: أنَّ دخولَ الجنَّةِ برحمةِ الله، ولكنَّ انقِسامَ المنازلِ بحسَبِ الأعمالِ.

قالَ ابنُ عُيَيْنَةَ: كانوا يرَونَ النَّجاةَ مِنَ النَّارِ بعفوِ اللهِ، ودخولَ الجنَّةِ بفضلِه، واقتسامَ المنازلِ بالأعمالِ(٣).

والثَّاني: أنَّ الباءَ المُثْبَتَةَ في قولِه تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]، وقولِه: ﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤] باءُ السَّبَبِيَّةِ، وقدْ جعَلَ اللهُ العمَلَ سبباً لدخولِ الجنَّةِ، والباءَ المنفية في قولِه ﷺ: «لنْ يدخُلَ أحدُكم الجنَّةَ بعمَلِه»(٤) باءُ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (٧٤)، ومن طريقه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٩٣٣) من كلام محمد بن يوسف الأصبهاني. وأخرجه من وجه آخر عنه: أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٢٣١).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المحتضرين» (١٧٩) (١٨٠) بهذا اللفظ (١٩٧)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٣٤٨).

(٣) أورده ابن القيم في «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح» (ص: ١٧٦) وذكر هذين الجوابين، وكأن المصنف رحمه الله تعالى اقتبس ذلك منه، وكذلك ذكر كلام سفيان مقتبساً مما ذكره ابن القيم: الزركشي في «البرهان في علوم القرآن» (٢/ ٦٧).

(٤) هذا اللفظ «بعمله» أخرجه الإمام أحمد (٧٤٧٩) (١٠١٢٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

المقابلةِ والمـُعاوضةِ، والتَّقديرُ: لنْ يستحِقَّ أحدٌ دخولَ الجنَّةِ بعمَلٍ يعمَلُه، فأزالَ بذلك توهُّمَ مَنْ يتوهَّمُ أن الجنة ثمَنُ الأعمالِ، وأنَّ صاحبَ العملِ يستحِقُّ على اللهِ تعالى دخولَ الجنَّةِ؛ كما يستحِقُّ مَنْ دفعَ ثمَنَ سِلْعةٍ إلى صاحبِها تسليمَ[1] سِلْعَتِه إليه، فنفى بذلكَ هذا التَّوهُّمَ، وبيَّنَ أنَّ العمَلَ وإنْ كانَ سبباً لدخولِ الجنَّةِ، فإنَّما هوَ مِنْ فضلِ اللهِ ورحمتِه، فصارَ الدُّخولُ مُضافاً إلى فضلِ اللهِ ورحمَتِه ومغفرتِه؛ لأنَّه هوَ المُتفضِّلُ بالسَّبَبِ والمُسبَّبِ المُرَتَّبِ عليه، ولمْ يبقَ الدُّخولُ[2] مُرَتَّباً على العملِ نفْسِه.

وفي «الصَّحيحِ» عنِ النَّبيِّ ﷺ: «أنَّ اللهَ عز وجل يقولُ للجنَّةِ: أنتِ رَحْمَتِي، أرحَمُ بكِ مَنْ أشاءُ مِنْ عبادي»[3].

وفي هذا قيلَ:

ما لِلعبادِ عليه حقٌّ واجبٌ	كلَّا ولا فَضْلَ[4] لديه ضائعُ
إنْ عُذِّبوا فبعَدْلِه أوْ نُعِّموا	فبفضلِه وهوَ الكريمُ الواسِعُ[5]

فإنْ قيلَ: فقد روى حبيبُ بنُ الشَّهيدِ، عنِ الحسَنِ أنَّه قالَ: «الحمدُ للهِ» ثمَنُ كلِّ نِعْمَةٍ، و«لا إلهَ إلَّا اللهُ» ثمَنُ الجنَّةِ[6].

---

(١) مفعول «يستحق».

(٢) في (ج): «إلا الدخول» وهو مخل بالمعنى.

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) من (ص) و(ع)، وأشير إليه نسخة في حاشية (س)، وفي سائر النسخ: «سعي».

(٥) تمثّل بالبيتين ابن قيم الجوزية في كثير من كتبه، كـ«التبيان» (ص: ٥١)، و«مدارج السالكين» (٢/ ٣٢٣)، و«طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص: ٣١٨)، و«بدائع الفوائد» (٢/ ١٦٢)، و«الوابل الصيب» (ص: ٦٣) ولعلهما له.

(٦) حديث مقطوع: أخرج ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٤٦١) وابن قتيبة في «تأويل مختلف =

ورُوِيَ هذا المعنى مرفوعاً مِنْ حديثِ أبي ذرٍّ[1] وأنسٍ[2] وغيرِهما[3]، وإنْ كانَ في أسانيدها ضَعْفٌ.

ويشهَدُ لذلكَ قولُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى

= الحديث» (ص: ٢٥٤)، والمحاملي في أماليه (٣٦٣)، والأبهري في فوائده (١٠)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (٥٠)، والسِّلفي في «الطيوريات» (٥٣٣)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٢/ ٩٠) (٥/ ٥٢١) (٧/ ٥٧٠) شطره الثاني.

وعزا ذلك الشطر السيوطي في «الدر المنثور» (١١/ ٤١٩) إلى عبد بن حميد عن الحسن مرفوعاً مرسلاً!!

ورواه الديلمي في «مسند الفردوس» كما في «المداوي» للغماري (١٤٩٨)، وهو في «الفردوس» (٢٥٤٨) عن الحسن عن أنس، وفيه: «وثمن النعمة الحمد لله». والصواب من رواياته: المقطوع.

(١) لم أجد بعد البحث الشديد رواية عن أبي ذر رضي الله عنه في هذا، وقال البوصيري في «إتحاف الخيرة بزوائد المسانيد العشرة» (٧٨٥٠) وقد ذكر مقطوع الحسن: «رواه إسحاق بسند صحيح».

وله شاهد من حديث جابر بن عبد الله مرفوعاً رواه الدارمي في «مسنده»، وفي سنده أبو يحيى القتَّات، وهو مختلف فيه. ولم أجده في الدارمي.

(٢) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٦٠) إلى ابن شاهين في «السنة»، والديلمي من طريق أبان عن أنس مرفوعاً. وأخرجه أبو نعيم في «صفة الجنة» (٥١)، وابن الفاخر في «موجبات الجنة» (٢) (٣) (٤).

وعزاه السيوطي أيضاً (١/ ٦٠) إلى الخطيب في «تالي التلخيص» من طريق ثابت البناني، عن أنس مرفوعاً. وهو في «موجبات الجنة» لابن الفاخر (١)، وفي «مسند الفردوس» للديلمي كما في «المداوي» للغماري (١٤٩٨)، وهو في «الفردوس» (٢٤١٥).

وأخرجه ابن عدي في «الكامل» (٧/ ٣٨١) من طريق حميد عن أنس مرفوعاً بشطره الثاني.

(٣) أخرج ابن الشجري في «أماليه» «ترتيب الأمالي الخميسية» (١٨٦) عن علي بن أبي طالب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «التوحيد ثمن الجنة، والحمد لله وفاء شكر كل نعمة».

﴿التَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١]، فجعَلَ الجنَّةَ ثمناً للنُّفوسِ والأموالِ.

فالجوابُ: أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى بفضلِه ورحمته وكرَمِه ومَنِّه وطَوْلِه خاطبَ عبادَه بما ندَبَهمْ إليه مِنْ طاعتِه على حسبِ ما يتعارَفونه بينهمْ في[1] تصرُّفاتِهمُ المعهودةِ المألوفةِ لهمْ، وجعَلَ نفْسَه مُشْتَرِياً منهمْ ومُسْتَقْرِضاً، وجعلَهمْ بائعينَ له ومُقْرِضينَ له؛ ليكونَ ذلكَ أدْعى إلى استجابتهم[2] لدعوتِه ومُبادرتِهمْ إلى طاعتِه، وإلَّا ففي الحقيقةِ الكُلُّ له ومُلْكه[3]، ومِنْ فضلِه وإحسانِه ورحمتِه، فالنُّفوسُ والأموالُ كلُّها مِلْكٌ له؛ كما أُمِرْنا عند المصائب أنْ نقولَ: «إنَّا للهِ وإنَّا إليه راجعونَ».

ومعَ هذا، فقدْ مدَحَ مَنْ بذَلَ له نفْسَه ومالَه، وجعلَه بائِعاً له ومُقْرِضاً؛ كالَّذي له مِلْكٌ يبيعُه ويُقْرِضُه لغيرِه مِمَّنْ لا يملِكُه عليه، وكذلكَ الأعمالُ كلُّها مِنْ فضلِه ورحمتِه، وقدْ مدَحَ عليها ونسَبَها إلى عامليها، وجعلَها شُكْراً منهمْ لِنعمِه، ومُكافأةً لها.

وقد روى ابنُ ماجهْ مِنْ حديثِ أنسٍ مرفوعاً: «ما أنعَمَ اللهُ على عبدٍ نعمةً فقالَ: الحمدُ للهِ، إلَّا كانَ ما أعطى أفضلَ مِمَّا أَخذَ»[4].

وكذلك قالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ[5] والحسَنُ[6]..........................

---

(١) في (ج) و(ق): «من».

(٢) في (س) و(ع): «استجلابهم».

(٣) في (س) و(ع): «ملك».

(٤) أخرجه ابن ماجه (٣٨٠٥).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٩٤٢)، وذكره المصنف في «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٨٢).

(٦) أخرجه معمر في «جامعه» (١٩٥٧٥)، وابن أبي الدنيا في «الشكر» (١١١)، ومن طريقه: في «شعب الإيمان» (٤٠٩٤) من قول الحسن. =

وغيرُهما مِنَ السَّلَفِ، وأشكلَ ذلكَ على كثيرٍ مِنَ العلماءِ قديماً وحديثاً[1].

وعلى ما قرَّرْناه معناهُ ظاهرٌ، فإنَّ المُرادَ بالنِّعَمِ النِّعَمُ الدُّنيويَّةُ، والحمدُ

= قال البيهقي: «والمحفوظ عن الحسن من قوله مرة، وعن النبي ﷺ مرسلاً أخرى».

والرواية المرسلة: أخرجها هناد بن السري في «الزهد» (٧٧٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٠٩٣).

(١) أشكل قديماً على الإمام الجليل سفيان بن عيينة، كما ذكر ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١١١) وقد سُئل عن أنَّ من قال: الحمد لله كان ما أعطى خير مما أخذ؟ فقال: هذا خطأ، لا يكون فعل العبد أفضل من فعل الله عز وجل.

قال ابن أبي الدنيا: «وقال بعض أهل العلم إنما تفسيرها: أن الرجل إذا أنعم الله عليه نعمة، وهو ممن يجب أن يحمده، عرَّفه الله عز وجل ما صنع به فيشكر الله عز وجل كما ينبغي له أن يشكره، فذهب لله عز وجل شكر العبادة التي في النعمة، وكان الحمد له فضلاً».

وقال الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٩٣٠) في بيان معنى حديث أنس بن مالك مرفوعاً: «لو أن الدنيا كلها بحذافيرها في يدي رجل من أمتي، ثم قال: الحمد لله، لكان الحمد لله أفضل من ذلك»: «لأن الدنيا فانية والكلمة باقية، وهي من الباقيات الصالحات». وقال في شرح حديث أنس عند ابن ماجه: «فصيّر الكلمة إعطاء من العبد، والدنيا أخذاً من الله، وهذا في التدبير...، وكلاهما من الله في الأصل، الدنيا منه والكلمة منه أعطاه الدنيا فأغناه بها، وأعطاه الكلمة فشرَّفه بها في الآخرة وخفف عنه أثقالها لينعم بها في الدنيا».

وقال البيهقي في «الشعب» (٤٠٩٤) متعقباً ابن عيينة: «هذه غفلة من عالم، وذاك لأن العبد لا يصل إلى حمد الله وشكره إلا بتوفيقه، وإنما فضلُه لما فيه من حسن الثناء على الله عز وجل ومدحه إياه، وليس ذلك في النعمة الأولى».

قلت: وهذا معنى القول المشهور للإمام الشافعي في فاتحة رسالته: «والحمد لله الذي لا يُؤدى شكر نعمةٍ من نعمه إلا بنعمة منه توجب على مؤدي ماضي نعمه بأدائها: نعمة حادثة يجب عليه شكره بها».

مِنَ النِّعَمِ الدِّينيَّةِ، والنِّعَمُ الدِّينيَّةُ أفضلُ مِنَ النِّعَمِ الدُّنيويَّةِ، ولكنْ لَمَّا كانَ الحمدُ منسوباً إلى العبدِ لِفِعْلِه له وقيامِه به، جعلَه اللهُ مُعْطياً لأعظمِ النِّعمتينِ، مُكافِئاً بها للنِّعمةِ الأُخرى.

ولهذا جاءَ في الأثرِ: الحمدُ للهِ حَمْداً يُوافي نِعَمَه، ويُدافِعُ نِقَمَه، ويُكافئُ مزيدَه[1].

---

(١) أخرج أبو الشيخ الأصبهاني في «العظمة» (٥/ ١٥٧٦) عن أبي صالح قال: لما أُهبط آدم إلى الأرض فابتُلي بالحرث والنسج عما كان يسبح مع الملائكة المقربين، قال: يا رب! لو شئت لفرغتني للتسبيح والمحامد، فأوحى الله عز وجل إليه أن قل: الحمد لله رب العالمين حمدًا يوافي نعمه ويكافئ مزيده، فإنك إذا فعلت ذلك غلبت جميع من خلقت بالتسبيح والمحامد.

وذكر ابن الصلاح في «أماليه» فيما نقله عنه ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٤/ ٣١٧) عن أبي نصر بن التمار عن محمد بن النضر قال: قال آدم: يا رب شغلتني بكسب يدي، فعلمني شيئاً فيه مجامع الحمد والتسبيح، فأوحى الله إليه: يا آدم! إذا أصبحت فقل ثلاثاً، وإذا أمسيت فقل ثلاثاً: الحمد لله رب العالمين حمدًا يوافي نعمه، ويكافئ مزيده، فذلك مجامع الحمد والتسبيح. وهذا معضل.

وقال ابن الصلاح في كلامه على «الوسيط»: «ضعيف الإسناد منقطع غير متصل».

أما ما أورده المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢٣٣٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً من ذكر هذه الصيغة من الحمد وأن الحفظة تقول: ما ندري كيف نكتبه، وعزاه إلى «الضعفاء» للبخاري، فلم أقف عليه، وأخشى أن يكون رواية معلة من الحديث الذي أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٩٢٤٩) بصيغة أخرى من صيغ الحمد.

وقد صَوَّب المصنفُ ابنُ رجب رحمه الله تعالى قولَ من أجاز هذه الصيغة من الحمد في شرح الحديث السادس والعشرين من «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٨٢ ـ ٨٣).

وشيخه ابن القيم رحمه الله تعالى في «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» (ص: ٣٩) أشار إلى أن هذه الصيغة من الحمد ليست بحديث عن رسول الله ﷺ ولا عن أحد من الصحابة، وإنما هو أثر إسرائيلي، لكنه فسره بما يصح حمله عليه.

فبهذا الاعتبارِ يكونُ الحمدُ ثمَناً للجنَّةِ.

وعندَ تحقيقِ النَّظَرِ، فالجنَّةُ والعمَلُ كلاهما مِنْ فضلِ اللهِ ورحمتِه على عبادِه المؤمنين، ولهذا يقولُ أهلُ الجنَّةِ عندَ دخولِها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾، فلمَّا اعترفوا لله بنعمتِه عليهِمْ بالجنَّةِ وبأسبابِها مِنَ الهدايةِ، وحمِدوا اللهَ على ذلك كلِّه جُوزُوا بأنْ نودوا أنْ ﴿تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، فأُضيفَ العمَلُ إليهِمْ، وشُكِروا عليه.

ونظيرُ هذا ما قالَه بعضُ السَّلَفِ: إنَّ العبدَ إذا أذنبَ، ثمَّ قالَ: يا ربِّ! أنتَ قضيتَ عليَّ، قالَ له ربُّه: أنتَ أذنبْتَ، وأنتَ عصيْتَ، فإنْ قالَ العبدُ: يا ربِّ! أنا أخطأْتُ، وأنا أذنبْتُ، وأنا أسأْتُ، قالَ اللهُ تعالى: أنا قضيتُ عليكَ وقدَّرْتُ، وأنا أغفِرُ لكَ[1].

وممَّا يتحقَّقُ به معنى قولِ النَّبيِّ ﷺ: «لنْ يدخُلَ أحدٌ الجنَّةَ بعمَلِه»، أوْ: «لنْ يُنجِّيَ أحداً عملُه»: أنَّ مُضاعفَةَ الحسناتِ إنَّما هيَ مِنْ فضلِ اللهِ عزَّ وجلَّ وإحسانِه، حيثُ جازى بالحسنة عشراً، ثمَّ ضاعفَها إلى سبعمائةِ ضِعْفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، فهذا كلُّه فضلٌ منه عزَّ وجلَّ، ولوْ جازى بالحسنةِ مِثْلَها كالسَّيِّئاتِ لمْ تقْوَ الحسناتُ على إحباطِ السَّيِّئاتِ، فكانَ يهلِكُ صاحبُ العملِ لا مَحالةَ.

كما قالَ ابنُ مسعودٍ في صفةِ الحسناتِ: إنْ كانَ وليًّا للهِ ففضَلَ له مثقالُ ذرَّةٍ ضاعفَها اللهُ له حتَّى يُدْخِلَه بها الجنَّةَ، وإنْ كانَ شقيًّا قالَ الملَكُ: يا ربِّ! فنِيَتْ

---

(١) أورد نحوه أبو طالب المكي في «قوت القلوب» (٢/ ٨٠) من كلام سهل التستري رحمه الله تعالى.

حسناتُه، وبقِيَ له طالبون كثيرٌ، قالَ: خذوا مِنْ سيِّئاتهمْ، فأضيفوها إلى سيِّئاتِه، ثمَّ صُكُّوا له صَكًّا إلى النَّارِ[1].

فتبيَّنَ بهذا أنَّ مَنْ أرادَ اللهُ سعادتَه أَضْعَفَ[2] اللهُ له حسناته حتَّى يستوفيَ منه الغُرَماءُ، ويَبْقَى له منها مثقالُ ذرَّةٍ، فتُضاعَفُ له، ويدخُلُ بها الجنَّةَ، وذلكَ مِنْ فضلِ اللهِ ورحمتِه، ومَنْ أرادَ اللهُ شقاوتَه وله غُرماءُ، لمْ تُضاعَفْ حسناتُه كما تُضاعَفُ لِمَنْ أرادَ اللهُ سعادتَه، بلْ يُضاعِفُها عشراً، فتُقْسَمُ على الغُرماءِ، فيستوفونها كلَّها، وتبقى لهمْ عليه مظالمُ، فيُطْرَحُ عليه مِنْ سيِّئاتهمْ، فيدخُلُ بها النَّارَ، فهذا عَدْلُه، وذاكَ فَضْلُه.

ومِنْ هنا قالَ يحيى بنُ معاذٍ: إذا بسَطَ فضلَه لمْ يُبْقِ لأحدٍ سيِّئةً، وإذا جاءَ عدْلُه لمْ يُبْقِ لأحدٍ حسنةً[3].

وأيضاً فقدْ ثبَتَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «مَنْ نوقشَ الحسابَ هلَكَ»[4].

وفي روايةٍ: «عُذِّبَ»[5]، وفي روايةٍ: «خُصِمَ»[6].

وخرَّجَ أبو نُعيمٍ مِنْ حديثِ عليٍّ مرفوعاً: «أوحى اللهُ تعالى إلى نبيٍّ مِنَ الأنبياءِ

---

(١) أخرجه مطولًا ابن أبي الدنيا في «الأهوال» (٢٥٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٥٤). وفي إشارة إلى نسخة بحاشية (ق): «كثيرون».

(٢) في (س): «ضاعف».

(٣) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ٥١) بلفظ مقارب.

(٤) أخرجه البخاري (٤٩٣٩)، ومسلم (٢٨٧٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) أخرجه البخاري (٦٥٣٦)، ومسلم (٢٨٧٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٦) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥٨٠)، والدارقطني في «المؤتلف والمختلف» (٢/ ٦٠٧)، ولفظه: «من حوسب خصم».

أنبياءِ بني إسرائيلَ: قلْ لأهلِ طاعَتي مِنْ أُمَّتِكَ: لا يتَّكِلوا على أعمالِهِمْ، فإنِّي لا أُناصُّ[١] عبداً الحسابَ يومَ القيامةِ أشاءُ أنْ أعذِّبَه إلَّا عذَّبْتُه، وقلْ لأهلِ معصيتي مِنْ أمَّتِكَ: لا يُلقوا بأيديهِمْ، فإنِّي أغفِرُ الذَّنبَ العظيمَ ولا أُبالي[٢].

وقالَ عبدُ العزيزِ بنُ أبي رَوَّادٍ: أوحى اللهُ تعالى إلى داودَ عليه السَّلامُ: يا داودُ! بشِّرِ المُذنبين، وأنذرِ الصِّدِّيقين، فكأنَّه عجِبَ، فقالَ: يا ربِّ! أبشِّرُ المُذنبين، وأنذرُ الصِّدِّيقين؟ قالَ: نعمْ، بشِّرِ المُذنبين أنَّه لا يتعاظَمُني ذنبٌ أغفِرُه، وأنذرِ الصِّدِّيقين أنِّي لا أضَعُ عَدْلي وحسابي على عبدٍ[٣] إلَّا هلَكَ[٤].

وقالَ ابنُ عُيَيْنَةَ: المُناقشةُ سوءُ الاستقصاءِ حتَّى لا يُتْرَكَ منه شيءٌ[٥].

وقالَ ابنُ زيدٍ: الحسابُ الشَّديدُ الَّذي ليسَ فيه شيءٌ مِنَ العفوِ، والحسابُ اليسيرُ الَّذي تُغْفَرُ ذنوبُه، وتُتَقبَّلُ[٦] حسناتُه[٧].

فتبيَّنَ بهذا أنَّه لا نجاةَ للعبدِ بدونِ المغفرةِ والعفوِ والرَّحمةِ والتَّجاوزِ، وأنَّه متى أُقيمَ العدْلُ المحْضُ على عبْدٍ هلَكَ.

---

(١) في (س) و(ع): «أناض»، وفي حاشية (ع): «لعل الصواب: أقاضي»، وفي (ج): «أناضل» وفي حاشيتها: «أناقش» وفي (ق): «أناصي»، والصواب المثبت من (ص). وذكره ابن الأثير في «النهاية» (نصص)، وفسره فقال: أي لا أستقصي عليه في السؤال والحساب.

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٨٤٤) مطولًا، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ١٩٥). ووقع في مطبوعيهما: «أقاص» وهو تصحيف فليصحح.

(٣) في (ع): «أحد».

(٤) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ١٩٥).

(٥) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٣). ثم قال سفيان: «أبشروا، فإنه ما استقصى كريمٌ حقَّه قط..».

(٦) في (ع) و(ج): «وتقبل»، وفي (ص): «تثقل».

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٢٣٨).

وممَّا يُبيِّنُ ذلكَ أيضاً: قولُه تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ٨]، فهذا يدلُّ على أنَّ النَّاسَ يُسألون عنِ النَّعيمِ في الدُّنيا: وهلْ قاموا بشُكْرِه أمْ لا؟ فمَنْ طولبَ بالشُّكرِ على كلِّ نعمةٍ نعمةٍ من نِعمَ اللهِ مِنْ عافيةٍ، وسترٍ، وصِحَّةِ جسمٍ، وسلامةِ حواسَّ، وطيبِ عَيْشٍ، واستُقْصيَ ذلك عليه[1] لمْ تَفِ أعمالُه كلُّها بشُكْرِ بعضِ هذه النِّعَمِ، وتبقى[2] سائرُ النِّعَمِ غيرَ مقابَلَةٍ بشُكْرٍ، فيستحقُّ صاحبُها العذابَ بذلكَ.

وخرَّجَ الخرائِطِيُّ في كتابِ «الشُّكرِ» مِنْ حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عمروٍ مرفوعاً: «يُؤتى بعبدٍ يومَ القيامةِ، فيوقفُ بينَ يديِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فيقولُ لملائكته: انظروا في عملِ عبدي ونِعْمتي[3] عليه، فينظرون فيقولون: ولا بقَدْرِ نعمةٍ واحدةٍ مِنْ نِعَمِكَ عليه، فيقولُ: انظروا في عملِه سيِّئه وصالِحه، فينظرون فيجدونه كَفافاً، فيقولُ: عَبْدي! قدْ قبِلْتُ حسناتِكَ، وغفرْتُ لكَ سيِّئاتكَ، وقدْ وهبْتُ لكَ نعمتي[4] فيما بينَ ذلكَ»[5].

وخرَّجَ الطَّبرانيُّ مِنْ حديثِ ابنِ عمرَ مرفوعاً: «إنَّ الرَّجلَ يأتي يومَ القيامةِ بالعملِ لوْ وُضِعَ على جبلٍ لأثقلَه، فتقوم[6] النِّعمَةُ مِنْ نِعَمِ اللهِ، فتكادُ أنْ تستنفِدَ ذلكَ إلَّا أنْ يتطاولَ اللهُ برحمتِه»[7].

---

(١) في (س) و(ع): «على ذلك».

(٢) هنا ينتهي القسم المتأخر من نسخة (ج) ويبدأ أصل النسخة.

(٣) في (س) و(ع): «ونعمي».

(٤) في (س) (ع): «نعمي».

(٥) أخرجه الخرائطي في «فضيلة الشكر لله على نعمته» (٥٧). وذكره المصنف في «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٧٩) وقال: «بإسناد فيه نظر».

(٦) المثبت من (ص)، وفي سائر النسخ: «فتقدم»، تصحيف.

(٧) أخرجه مطولًا الطبراني في «الكبير» (١٣٥٩٥)، وفي «الأوسط» (١٥٨١)، وذكره المصنف في «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٧٧) وأشار إلى ضعف أحد رواته.

وخرَّجَ ابنُ أبي الدُّنيا مِنْ حديثِ أنسٍ رضي الله عنه مرفوعاً: «يُؤتى بالنِّعَمِ يومَ القيامةِ، ويُؤتى بالحسناتِ والسَّيِّئاتِ، فيقولُ اللهُ لِنعمةٍ مِنْ نِعَمِه: خُذِي حقَّكِ مِنْ حسناتِه، فما تَتْرُكُ له حسنةً إلَّا ذهبَتْ بها»[١].

وبإسنادِه عنْ وهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ قالَ: عبَدَ عابدٌ خمسين عاماً[٢]، فأوحى اللهُ تعالى إليه: إنِّي قد غفرْتُ لكَ، قالَ: يا ربِّ! وما[٣] تغفِرُ لي ولمْ أُذْنِبْ؟! فأذِنَ اللهُ لعِرْقٍ في عنُقِه، فضَرَبَ عليه، فلمْ ينَمْ ولمْ يُصَلِّ ثم سكَنَ وقامَ، فأتاهُ ملَكٌ، فشكى إليه ما لقِيَ مِنْ ضرَبانِ العِرْقِ، فقالَ الملَكُ: إنَّ ربَّكَ عزَّ وجلَّ يقولُ: عبادتُكَ خمسينَ سنةً تعدِلُ سكونَ ذلكَ العِرْقِ[٤].

وفي «صحيحِ الحاكمِ» عنْ جابرٍ مرفوعاً، عنْ جبريلَ عليه السَّلامُ: «إنَّ عابداً عبَدَ اللهَ تعالى على رأسِ جبلٍ في البحرِ خمسمائةِ سنةٍ، ثمَّ سأَلَ ربَّه أنْ يقبِضَه ساجداً، قالَ جبريلُ: فنحنُ نمرُّ عليه إذا هبَطْنا وإذا عرَجْنا، ونجدُ في العلمِ أنَّه يُبْعَثُ[٥] يومَ القيامةِ، فيوقَفُ بينَ يدَيِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فيقولُ الربُّ[٦] عزَّ وجلَّ: أدخِلوا عبدي الجنَّةَ برحمتي، فيقولُ العبدُ: يا ربِّ بعمَلي، يفعَلُ ذلكَ ثلاثَ مرَّاتٍ، ثمَّ يقولُ اللهُ تعالى للملائكةِ: قايِسوا عبدي بنِعَمتي عليه وبعمَلِه، فيجدون نِعْمَةَ البصرِ قدْ أحاطَتْ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٢٤). وذكره المصنف في «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٧٨) وقال: «بإسناد فيه ضعف».

(٢) في (س) و(ع): «سنة».

(٣) في (س) و(ع): «ولم لا».

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٤٨)، ومن طريقه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٦٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٣٠٢)، وفي (س): «سكن ونام» وهو كذلك في مطبوعات المصادر.

(٥) في (ع): «إذا بعث».

(٦) في (س) و(ع): «الله».

بعبادة[١] خمس مئة سنةٍ، وبقِيَتْ نِعَمُ الجسدِ له، فيقولُ: أدخِلوا عبدي النَّارَ، فيُجرُّ إلى النَّارِ، فيُنادي: برحمتكَ يا ربِّ أدخِلني الجنَّةَ برحمتك أدخلني الجنة، فيُدخِلُه الجنَّةَ. قالَ جبريلُ: إنَّما الأشياءُ برحمةِ اللهِ يا محمَّدُ!»[٢].

فمَنْ حقَّقَ معرفةَ هذه الأمورِ، عرَفَ أنَّ العمَلَ وإنْ عظُمَ فإنَّه لا يستقِلُّ بنجاةِ العبدِ، ولا يستحِقُّ به على اللهِ عز وجل دخولَ الجنَّةِ، ولا النَّجاةَ مِنَ النَّارِ، وحينئذٍ فيُفْلِسُ العبدُ مِنْ عمَلِه، وييأسُ مِنَ الاتِّكالِ عليه ومِنَ النَّظَرِ إليه وإنْ كثُرَ العمَلُ وحسُنَ، فكيفَ بِمَنْ ليسَ له كثيرُ عملٍ[٣]، أو ليسَ له عملٌ حسَنٌ، فإنَّ هذا ينبغي أنْ يشغَلَه الفِكْرُ في التَّقصيرِ في عمَلِه، ويشتَغِلَ بالتَّوبةِ مِنْ تقصيرِه والاستغفارِ منه.

فأمَّا مَنْ حسُنَ عملُه وكثُرَ، فإنَّه ينبغي له أنْ يشتَغِلَ بالشُّكرِ عليه، فإنَّ ذلكَ مِنْ أعظمِ نِعَمِ اللهِ على عبْدِه، فتجبُ مقابلتُه بالشُّكرِ عليه، وبرؤيةِ التَّقصيرِ في القيامِ بشُكرِه؛ كما كان وُهَيْبُ بنُ الوردِ إذا سُئِلَ عنْ أجرِ عمَلٍ مِنَ الأعمالِ يقولُ: لا تسألوا عنْ أجرِه، ولكنْ سَلُوا عمَّا يجبُ على منْ هُدِيَ له مِنَ الشُّكرِ عليه[٤].

وكانَ أبو سليمانَ يقولُ: كيفَ يُعْجَبُ عاقلٌ بعمَلِه، وإنما يُعَدُّ[٥] العملُ نِعْمَةً

---

(١) في (ج) و(ق): «بعبادته».

(٢) أخرجه مطولًا الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٥٠)، وذكره المصنف في «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٧٨) وأشار إلى أن أحد رواته مجهول.

(٣) في (ص): «كبير عمل»، وفي (س) و(ع): «عمل كثير».

(٤) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ١٥٥)، وفيه أنه قال: لا يزال الرجل يأتيني، فيقول: يا أبا أمية! ما ترى فيمن يطوف بهذا البيت ماذا فيه من الأجر؟ فأقول: اللهم غفراً، قد سألني عن هذا غيرك فقلت: بل سلوني عن من طاف بهذا البيت سبعاً ما قد أوجب الله تعالى عليه فيه من الشكر، حيث رزقه الله طواف ذلك السبع.

(٥) تصحف في (س) و(ع) إلى: «يعدل».

مِنْ نِعَمِ اللهِ عزَّ وجلَّ؟ إنَّما ينبغي له أنْ يشكُرَ ويتواضَعَ، إنما يعجَبُ بعملِه القدَريَّةُ ـ يعني ـ الَّذينَ لا يرونَ أن أعمالَ العبادِ مخلوقةٌ للهِ عزَّ وجلَّ[١].

وما أحسنَ ما قالَ أبو بكرٍ النَّهْشَلِيُّ يومَ ماتَ داودُ الطَّائيُّ، وقامَ ابنُ السَّمَّاكِ بعدَ دفنِه يُثني عليه بصالحِ عملِه ويبكي، والنَّاسُ يبكون، ويُصدِّقونه على مقالتِه[٢]، ويشهدون بما يُثْنِي به عليه، فقامَ أبو بكرٍ النَّهْشَلِيُّ فقالَ: اللَّهُمَّ اغفِرْ له، وارْحَمْه، ولا تكِلْهُ إلى عمَلِه[٣].

وفي «سننِ أبي داودَ» عنْ زيدِ بنِ ثابتٍ مرفوعاً: «لوْ عذَّبَ اللهُ أهلَ سماواتِه وأهلَ أرضِه لعذَّبَهمْ وهوَ غيرُ ظالمٍ لهمْ، ولوْ رحِمَهمْ لكانتْ رحمَتُه خيراً لهمْ مِنْ أعمالِهِمْ»[٤].

وفي «صحيحِ الحاكمِ» عنْ جابرٍ أنَّ رجلاً جاءَ إلى النَّبيِّ ﷺ فقالَ: وا ذُنوباهُ، وا ذُنوباهُ، قالَها مرَّتينِ أوْ ثلاثاً، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «قلِ: اللَّهُمَّ مغفِرَتُكَ أوسعُ[٥] مِنْ ذنوبي، ورحمَتُكَ أرجى عندي مِنْ عمَلِي»، فقالَها، ثمَّ قالَ: «عُدْ»، فعادَ ثم قال: «عد» فعاد، [ثم قال له «عد»، فعاد][٦]، فقالَ: «قُمْ، فقدْ غفرَ اللهُ لكَ»[٧].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٢٦٣). وأبو سليمان هو الداراني رحمه الله تعالى. ولفظه: «.. القدرية الذين يزعمون أنهم يعملون، فأما من زعم أنه مستعمل، فبأي شيء يعجب؟».

(٢) في (س) و(ع): «ويصدقون مقالته».

(٣) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٣٣٩).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٦٦٦).

(٥) في (ج) و(ع) و(ق): «أوسع لي». ولا يوجد «لي» في مصادر التخريج.

(٦) ما بين معقوفين من (ج) وحدها ولا يوجد في مطبوعة «المستدرك».

(٧) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٤٣)، ومن طريقه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٧٢٤).

وقيلَ في هذا المعنى:

ذنوبـيَ إن فكَّـرْتُ فيهـا كـثيـرةٌ ... ورحمةُ ربِّـي مِـنْ ذنوبـيَ أوسـعُ

ومـا طمَعـي فـي صالـحٍ قـدْ عمِلْتُه ... ولكـنَّـني فـي رحمـةِ اللهِ أطمَـعُ[1]

فإذا تقرَّرَ ذلكَ ـ أيْ: هذا الأصلُ الشريف العظيمُ ـ وعُلِمَ أنَّ العمَلَ بنفْسِه لا يُوجِبُ النَّجاةَ مِنَ النَّارِ، ولا دخولَ الجنَّةِ، فضْلاً عنْ أنْ يُوجِبَ بنفْسِه الوصولَ إلى أعلى ما في الجنَّةِ مِنْ منازلِ الـمُقرَّبينَ، والنَّظَرَ إلى وجْهِ ربِّ العالمينَ، وإنَّما ذلكَ كلُّه برحمةِ اللهِ وفضْلِه ومغفرتِه، فذلكَ يُوجِبُ على المؤمنِ أنْ يقطَعَ نظَرَه عنْ عملِه بالكُلِّيَّةِ، وأنْ لا ينظُرَ إلَّا إلى فضْلِ اللهِ ومِنَّتِه عليه.

كما سُئِلَ بعضُ العارفين: أيُّ الأعمالِ أفضلُ؟ قالَ: رؤيةُ فضلِ اللهِ عزَّ وجلَّ. وأنشَدَ:

إنَّ المقاديـرَ إذا سـاعـدَتْ ... ألحقَتِ العاجِـزَ بالحـازمِ[2]

فيتعيَّنُ حينئذٍ على العبدِ المؤمنِ الطَّالِبِ للنَّجاةِ مِنَ النَّارِ، ولِدخولِ الجنَّةِ، وللقُرْبِ مِنْ مولاه، والنظرِ إليه في دارِ كرامتِه: أنْ يطلُبَ ذلكَ بالأسبابِ الموصِلَةِ إلى رحمةِ اللهِ وعفوِه ومغفرتِه ورضاهُ ومحبَّتِه، فبِها يُنالُ ما عندَ اللهِ مِنَ الكرامةِ؛ إذِ اللهُ

---

(١) أوردهما ابن الجزري في «الزهر الفائح في ذكر من تنزه عن الذنوب والقبائح» (ص: ٣٨) ولم ينسبهما، وذكر البيت الثاني محمد بن أيدمر المستعصمي في «الدر الفريد وبيت القصيد» (١٠/ ٣٩٨) من غير نسبة، ونُسِبَ البيتان مع غيرهما إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كما في الديوان المجموع مما نُسب إليه. والله أعلم.

(٢) أخرجه السلمي في «طبقات الصوفية» (ص: ٢٦٨)، ومن طريقه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ٣٥٥) من كلام الزاهد أبي محمد المرتعش رحمه الله تعالى. وفي حاشية (ق) إشارة إلى نسخة: «بالقادر».

سبحانه وتعالى قدْ جعلَ للوصولِ إلى ذلكَ أسباباً مِنَ الأعمالِ الصَّالحةِ الَّتي جعلَها مُوصِلَةً إليها، وليسَ ذلكَ موجوداً إلَّا فيما شرَعَه اللهُ لعبادِه على لسانِ رسولِه، وأخبرَ عنه رسولُه ﷺ أنَّه يقرِّبُ إلى اللهِ، ويُوجِبُ رِضْوانَه ومغفرتَه، وأنَّه مِمَّا يُحبُّه اللهُ، أوْ[1] أنَّه أحبُّ الأعمالِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، فقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقالَ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

فالواجبُ على العبدِ البحثُ عنْ خِصالِ التَّقوى، وخِصالِ الإحسانِ الَّتي شرَعَها اللهُ في كتابِه، أوْ على لسانِ رسولِه ﷺ، والتَّقرُّبُ بذلكَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، فإنَّه لا طريقَ للعبدِ يوصِلُه إلى رضى مولاه وقُرْبِه ورحمتِه وعفوِه ومغفرتِه سوى ذلكَ.

وقدْ أشارَ النَّبيُّ ﷺ في هذه الأحاديثِ المُشارِ إليها في أوَّلِ الجزءِ مِنْ روايةِ عائشةَ رضي الله عنها وأبي هريرةَ رضي الله عنه إلى أنَّ أحبَّ الأعمالِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ شيئانِ:

أحدُهما: ما داومَ عليه صاحبُه وإنْ كانَ قليلاً.

وهكذا كانَ عمَلُ النَّبيِّ ﷺ وعمَلُ آلِه وأزواجِه مِنْ بعدِه، وكانَ ينهى عنْ قطعِ العمَلِ.

وقالَ لعبدِ اللهِ بنِ عمرو بنِ العاصِ: «لا تكنْ مِثْلَ فلانٍ كانَ يقومُ اللَّيلَ؛ فتركَ قيامَ الليل»[2].

---

(١) في (س): «وأنه». وفي (ج): «وأحب».

(٢) أخرجه البخاري (١١٥٢)، ومسلم (١١٥٩).

وقالَ: «يُستجابُ لأحدكمْ ما لمْ يعجلْ، فيقولُ: قدْ دعوتُ فلمْ أر[1] يُسْتَجَبْ لي، فيستحسِرُ عندَ ذلكَ، ويدعُ الدُّعاءَ»[2].

قالَ الحسنُ: إذا نظرَ إليكَ الشَّيطانُ فرآكَ مُداوماً على طاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فبغاكَ وبغاكَ، فرآكَ مُداوماً ملَّكَ ورفضَكَ، وإذا رآكَ مرَّةً هكذا ومرَّةً هكذا طمِعَ فيكَ[3].

والثَّاني: أنَّ أحبَّ الأعمالِ إلى اللهِ ما كانَ على وجْهِ السَّدادِ والاقتصادِ والتَّيسيرِ دونَ ما كانَ على وجْهِ التَّكلُّفِ والاجتهادِ والتَّعْسيرِ؛ كما قالَ تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦]، وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وكانَ النَّبيُّ ﷺ يقولُ: «يسِّروا ولا تُعسِّروا»[4].

وقالَ: «إنَّما بُعِثْتُمْ مُيَسِّرين، ولمْ تُبْعثوا مُعَسِّرين»[5].

وفي «المسندِ» عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما: قيلَ لرسولِ اللهِ ﷺ: أيُّ الأديانِ أحبُّ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؟ قالَ: «الحنيفيَّةُ السَّمْحَةُ»[6].

وفيه أيضاً عنْ مِحْجَنِ بنِ الأَدْرَعِ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ دخَلَ إلى المسجدِ، فرأى رجلاً قائماً يُصلِّي، فقالَ: «أتقوله صادقاً؟»، فقيلَ: يا نبيَّ اللهِ! هذا فلانٌ، وهذا مِنْ أحسنِ

---

(١) في (ص) و(ج) و(ع) و(ق): «فلم يستجب».

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥) واللفظ له من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٢٠)، وفي (ص): «وإذا كنت مرة هكذا...».

(٤) أخرجه البخاري (٦٩) (٦١٢٥)، ومسلم (١٧٣٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري (٢٢٠)، (٦١٢٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) أخرجه الإمام أحمد (٢١٠٧).

أهلِ المدينةِ، أوْ مِنْ أكثرِ أهلِ المدينةِ صلاةً، فقالَ: «لا تُسْمِعْهُ فتُهْلِكَهُ[1] -مرَّتينِ أوْ ثلاثاً- إنَّكمْ أمَّةٌ أُريدَ بكمُ اليُسْرُ»[2].

وفي روايةٍ أخرى له قالَ: «إنَّ خيرَ دينِكمْ أيسَرُه»[3].

وفي روايةٍ أخرى له قال: «إنَّكمْ لنْ تنالوا[4] هذا الأمرَ بالمُغالَبةِ»[5].

وخرَّجَه حُمَيدُ بنُ زَنْجُوْيَه، وزادَ فيه فقالَ: «واكْلَفوا مِنَ العملِ ما تُطيقونَ، فإنَّ اللهَ لا يمَلُّ حتَّى تملُّوا، الغُدْوَةُ والرَّوْحَةُ وشيءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ»[6].

وفي «المسندِ» عنْ بُريدةَ قالَ: خرجْتُ فإذا رسولُ اللهِ ﷺ يمشي فلحِقْتُه، فإذا نحنُ بينَ أيدينا برجلٍ يُصلِّي يُكْثِرُ الرُّكوعَ والسُّجودَ، قالَ: «أتُراه يُرائي؟»، قلتُ: اللهُ ورسولُه أعلَمُ، قالَ: فترَكَ يَده من يدي، ثم جمعَ بين يديه، فجعَلَ يُصوِّبُهما ويرفعُهُما، ويقولُ: «عليكمْ هَدْياً قاصِداً، عليكمْ هَدْياً قاصِداً، عليكمْ هَدْياً قاصِداً، فإنَّه مَنْ يُشادَّ هذا الدِّينَ يغلِبْه»[7].

وقدْ رُوِيَ مِنْ وجهٍ آخرَ مُرْسَلٍ، وفيه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «إنَّ هذا آخِذٌ

---

(١) في (ج) و(ق): «لا تسمعوه فتهلكوه».

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢٠٣٤٧).

(٣) أخرجه الإمام أحمد (١٨٩٧٦) (٢٠٣٤٩)، وهو من حديث بريدة عن محجن (١٨٩٧٦).

(٤) في (ج): «تبلغوا».

(٥) أخرجه الإمام أحمد (١٨٩٧١).

(٦) ذكره المصنف رحمه الله في «فتح الباري» (١/ ١٣٧) كما هنا. وكتاب ابن زنجويه ليس مطبوعاً.
وفي (ج): ألحقت: «وعليكم» بالغدوة.

(٧) أخرجه الإمام أحمد (٢٢٩٦٣) وعنده: «يدي من يده».

بالعُسْرِ، ولمْ يأخُذْ باليُسْرِ». ثمَّ دفعَ في صدرِه[١]، فخرَجَ مِنَ المسجدِ ولمْ يُرَ فيه بعدَ ذلكَ[٢].

وقدْ أنكَرَ النَّبيُّ ﷺ على مَنْ عزَمَ على التَّبَتُّلِ والاختصاءِ وقيامِ اللَّيلِ وصيامِ النَّهارِ وقراءةِ القرآنِ كلَّ ليلةٍ؛ كعبدِ اللهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ، وعثمانَ بنِ مَظْعونٍ، والمقدادِ وغيرِهم[٣]، وقالَ: «ولكنِّي أصومُ وأفطِرُ، وأقومُ وأنامُ، وأتزوَّجُ النِّساءَ، فمَنْ رغِبَ عنْ سُنَّتي فليسَ منِّي»[٤].

وانتهى بعبدِ اللهِ بنِ عمرٍو أنْ يقرَأَ القرآنَ في كلِّ سبعٍ[٥].

وفي روايةٍ: أنَّه انتهى به إلى قراءتِه في كل ثلاثٍ، وقالَ: «لا يفقَهُ مَنْ قرأَه في أقلَّ مِنْ ثلاثٍ»[٦].

وانتهى به في الصِّيامِ إلى صيامِ داودَ عليه السلام، وقالَ: «لا أفضَلَ مِنْ ذلكَ»، وفي القِيامِ إلى قيامِ داودَ عليه السَّلامُ[٧].

---

(١) في (ج) و(ق): «ثم وقع في صدره كَلْم»!

(٢) أخرجه الخلال في «الورع» من حديث عبد الله بن شقيق مرسلًا فيما نقله أبو يعلى الفراء في «التوكل» (ص: ٧٦). وقد ذكره الخطابي في «غريب الحديث» (١/ ٥٧٥) موصولاً عن عبد الله بن شقيق عن محجن رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٦١٢) عن عكرمة في سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧].

(٤) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري (٥٠٥٢)، (٥٠٥٤).

(٦) أخرجه أبو داود (١٣٨٥)، والنسائي في «الكبرى» (٨٠١٣)، وابن ماجه (١٣٤٧). من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٧) أخرجه البخاري (١٩٧٦) (٣٤١٨)، ومسلم (١١٥٩).

فقولُه ﷺ في حديثِ أبي هريرةَ وعائشةَ رضي الله عنهما: «سدِّدوا وقاربوا»، المرادُ بـ«التَّسديدِ»: العمَلُ بالسَّدادِ، وهوَ القَصْدُ والتَّوسُّطُ بالعبادةِ، فلا يقصِّرُ فيما أُمِرَ به، ولا يتحمَّلُ منها ما لا يُطيقُه.

قالَ النَّضرُ بنُ شُمَيلٍ: السَّدادُ القَصْدُ في الدِّينِ والسَّبيلِ[1].

وكذلكَ المُقارَبةُ المُرادُ بها التَّوسُّطُ بينَ التَّفريطِ والإفراطِ، فهما كلِمتان بمعنىً واحدٍ أوْ متقاربٍ، وهوَ المُرادُ بقولِه في الرِّوايةِ الأخرى: «وعليكُمْ هَدْياً قاصِداً».

وقولُه: «وأبشِروا»؛ يعني: أنَّ مَنْ مشى في طاعةِ اللهِ تعالى على التَّسديدِ والمقارَبةِ فليَبْشُرْ، فإنَّه يصِلُ ويسبِقُ الدَّائِبَ المجتهدَ في الأعمالِ، فإنَّ طريقةَ الاقتصادِ والمُقاربةِ أفضلُ مِنْ غيرِها، فمَنْ سلَكَها فليَبْشُرْ بالوصولِ، فإنَّ الاقتصادَ في سُنَّةٍ خيرٌ مِنَ الاجتهادِ في غيرها[2]، و«خيرَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ ﷺ»[3]، فمَنْ سلَكَ طريقَه كانَ أقربَ إلى اللهِ تعالى مِنْ غيرِه.

وليسَتِ الفضائِلُ بكثرةِ الأعمالِ البدَنيَّةِ، لكنْ بكونِها خالصةً للهِ، صواباً على

---

(١) جاء في ضمن قصة من كلام النضر للمأمون، انظر: «مجالس العلماء» للزجاجي (ص: ١٥٢)، و«الجليس الصالح الكافي» للمعافى بن زكريا (ص: ٣٨٦).

(٢) في حاشية (س): «تمام الكلام لعله: في بدعة». وفي حاشية (ع): «العل الصواب: في بدعة». والأثر أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (٨٧١)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ١٠٣)، ومن طريقه البيهقي في «الكبرى» (٣/ ٣٨٠) موقوفاً على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ولفظ الإمام أحمد: الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة. وروي عن غيره أيضاً.

(٣) أخرجه مسلم في «الجمعة» (٨٦٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما مرفوعاً.

مُتابعةِ السُّنَّةِ، وبكثرةِ معارفِ القلوبِ وأعمالِها، فمَنْ كانَ باللهِ أعلم[١]، وبدينِه وأحكامِه وشرائعِه، وله أخوفَ وأحبَّ وأرجى، فهوَ أفضلُ مِمَّنْ ليسَ كذلكَ، وإنْ كانَ أكثرَ منه عملاً بالجوارحِ.

وإلى هذا المعنى الإشارةُ في حديثِ عائشةَ رضي الله عنها بقول النبي ﷺ: «سدِّدوا وقارِبوا، واعلَموا أنَّه لنْ يُدْخِلَ أحداً منكمْ عملُه الجنَّةَ[٢]، وإنَّ أحبَّ الأعمالِ إلى اللهِ أدومُها وإنْ قلَّ»[٣].

فأمرَ بالاقتصادِ في العملِ، وأنْ يُضمَّ إلى ذلكَ العلمُ بأحَبِّ الأعمالِ إلى اللهِ تعالى، وبأنَّ العمَلَ وحدَه لا يُدخِلُ[٤] الجنَّةَ.

ولهذا قالَ بعضُ السَّلَفِ: ما سبَقَهُمْ أبو بكرٍ بكثرةِ صومٍ ولا صلاةٍ، ولكنْ بشيءٍ وقَرَ في صدرِه[٥].

---

(١) في (س) و(ع): «أعرف».

(٢) في (س) و(ع): «الجنة أحداً منكم عمله».

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) في (س): «يدخله».

(٥) أخرجه الختلي في «المحبة لله» (١٤٢)، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (١٢٧) من الأصل الحادي والعشرين مقطوعاً من كلام بكر بن عبد الله المزني، ونسبه ابن تيمية في «منهاج السنة» (٦/ ٢٢٣) (٨/ ٤٩٣)، وابن القيم في «المنار المنيف» (ص: ١١٠)، وابن الجزري في «غاية النهاية» (١/ ٣٢٧) إلى أبي بكر بن عياش وهو شعبة القارئ، قال ابن الجزري: «ينقله من لا معرفة له مرفوعاً عن النبي ﷺ».

وأقدم من ذكره حديثاً مرفوعاً فيما وقفت عليه: أبو بكر الكلاباذي في كتابيه: «التعرف لمذهب أهل التصوف» (ص: ٧٩)، و«بحر الفوائد» (ص: ٤٠، ٢٧٦، ٢٧٩).

وقالَ بعضُهمْ: الَّذي كان في صدْرِ أبي بكرٍ رضي الله عنه المحبَّةُ للهِ[١]، والنَّصيحةُ لعبادِه[٢].

وقالَ طائفةٌ مِنَ العارفينَ: ما بلَغَ من بلَغَ بكثرةِ صيامٍ ولا صلاةٍ، ولكنْ بسَخاوةِ الأنفُسِ، وسلامةِ الصُّدُورِ[٣]، والنَّصيحةِ للأُمَّةِ[٤].

زادَ بعضُهمْ: وبذَمِّ نفوسِهِمْ[٥].

وقالَ آخرُ منهمْ: إنَّما تفاوتوا بالإراداتِ، ولمْ يتفاوتوا بكثرةِ الصِّيامِ والصَّلاةِ[٦].

وذُكِرَ لأبي سليمانَ طولُ أعمارِ بني إسرائيلَ، وشدَّةُ اجتهادِهِمْ في الأعمالِ، وأنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ غبَطهمْ بذلكَ، فقالَ: إنَّما يُريدُ اللهُ منكمْ صِدْقَ النِّيَّةِ فيما عندَه. أوْ كما قالَ[٧].

---

(١) زاد ناسخ (س) و(ع): «ولرسوله» وليست في سائر النسخ، وليست في مصدر التخريج.

(٢) أخرجه أبو إسحاق الختلي في «المحبة لله» (١٤٤) من كلام ابن علية رحمه الله.

(٣) في (ص) و(ق): «الصدر».

(٤) أخرج أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ١٠٣) من قول الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى: لم يدرك عندنا من أدرك بكثرة صيام ولا صلاة، وإنما أدرك عندنا بسخاء الأنفس، وسلامة الصدور، والنصح للأمة.

(٥) أخرج أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٢٧٤) من كلام أبي سليمان الداراني رحمه الله تعالى: «لم يبلغ الأبدال ما بلغوا بصوم ولا صلاة ولكن بالسخاء وشجاعة القلوب وسلامة الصدور، وذمهم أنفسَهم عند أنفسِهم».

(٦) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٨/ ٢٨٥) من كلام المضاء بن عيسى الكلاعي الزاهد رحمه الله تعالى.

(٧) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٢٦٣).

وجاء في (س) و(ع) بعد هذا مقدَّماً كلام أبي يزيد وما بعده إلى: «وقال بعضهم: ليس الشأن فيمن يقوم الليل...».

وقالَ ابنُ مسعودٍ لأصحابِه: أنتمْ أكثرُ صَوْماً وصلاةً مِنْ أصحابِ محمد ﷺ، وهمْ كانوا خيراً منكمْ[1]، قالوا: وبمَ ذاكَ؟ قالَ: كانوا أزهدَ منكمْ في الدُّنيا، وأرغَبَ في الآخرةِ[2].

يُشيرُ إلى أنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ فاقوا على مَنْ بعدَهُمْ بشدَّةِ تعلُّقِ قلوبِهِمْ بالآخرة، ورغبَتِهِمْ فيها، وإعراضِهِمْ عنِ الدُّنيا، وتحقيرِها، وتصغيرِها وإنْ كانتْ في أيديهِمْ، فكانتْ قلوبُهُمْ منها فارغةً، وبالآخرةِ مُمْتلئةً، وهذه الحالُ ورِثوها مِنْ نبيِّهِمْ ﷺ، فإنَّه كانَ أشدَّ الخَلْقِ فراغاً بقلبِه مِنَ الدُّنيا، وتعلُّقاً باللهِ وبالدَّارِ الآخرةِ، معَ مُلابستِه للخَلْقِ بظاهرِه، وقيامِه بأعباءِ النُّبوَّةِ وسياسةِ الدِّينِ والدنيا، وكذلكَ خلفاؤُه الرَّاشدون مِنْ بعدِه، وكذلكَ أعيانُ التَّابعينَ لهمْ بإحسانٍ؛ كالحسَنِ وعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، وقدْ كانَ في زمانِهِمْ مَنْ هوَ أكثرُ منهمْ صَوْماً وصلاةً، ولكنْ لمْ يصِلْ قلبُه إلى ما وصلَتْ قلوبُ هؤلاءِ إليه مِنِ ارتحالِها عنِ الدُّنيا وتوطُّنِها للآخرةِ.

فأفضَلُ النَّاسِ مَنْ سلَكَ طريقَ النَّبيِّ ﷺ وخواصِّ أصحابِه في الاقتصادِ في العِبادةِ البدنيَّةِ، والاجتهادِ في الأحوالِ القلبيَّةِ، فإنَّ سفَرَ الآخرةِ يُقْطَعُ بسَيْرِ القلوبِ لا بسَيْرِ الأبدانِ.

جاءَ رجلٌ إلى بعضِ العارفينَ فقالَ له: قطعتُ إليكَ مسافةً، فقالَ له: ليس هذا الأمرُ بقَطْعِ المسافات، فارِقْ نفْسَكَ بخَطْوةٍ، وقدْ حصَلَ لكَ مقصودك[3].

---

(١) في (س) و(ع): «أصحاب رسول الله ﷺ وهم خيرٌ منكم».

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٥٠١)، وابن أبي الدنيا في «الزهد» (١٥٨)، وفي «ذم الدنيا» (٦٨) (١٧٦)، ومن طريقه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠١٥٢).

(٣) في (س) و(ع): «فإذَّاك قد حصل لك مطلوبك». والأثر أورده القشيري في «رسالته» (١/ ٢٢٣) عن شيخه أبي علي الدقاق رحمه الله تعالى، وابن الجوزي في «المدهش» (ص: ١٧٩).

وقالَ أبو يزيدَ: رأيتُ ربَّ العزَّةِ في المنامِ[(١)]، فقلتُ له: يا ربِّ! كيفَ الطَّريقُ إليكَ؟ قالَ: اترُكْ نفْسَكَ وتعالَ[(٢)].

ما أُعطِيَتْ أمَّةٌ مِنَ الأُممِ ما أُعطِيَتْ هذه الأُمَّةُ ببركةِ مُتابعةِ نبيِّها ﷺ، حيثُ كانَ أفضلَ الخَلْقِ، وهَدْيُه أكمل الهَدْيِ، معَ ما يسَّرَ اللهُ على يديه[(٣)] مِنْ دينِه، ووضَعَ به مِنَ الآصارِ والأغلالِ عنْ أُمَّتِه، فمَنْ أطاعَه فقدْ أطاعَ اللهَ، وأحبَّ اللهَ، واهتدى بهُدى اللهِ.

فمِنْ جملةِ ما حَصَلَ لأُمَّتِه ببركتِه بتيسيرِ شريعتِه:

أنَّ مَنْ صلَّى منهمُ العِشاءَ في جماعةٍ فكأنَّما قامَ نصفَ اللَّيلِ، ومَنْ صلَّى الصبحَ[(٤)] في جماعةٍ فكأنَّما قامَ اللَّيلَ كلَّه[(٥)]، فيُكتَبُ له قيامُ ليلةٍ وهوَ نائِمٌ على فِراشِه، لا سيَّما إنْ نامَ على طُهرٍ وذِكْرٍ حتَّى تغلِبَه عيناهُ.

---

(١) قال النووي رحمه الله في «شرح مسلم» (١٥/ ٢٥): «قال القاضي - في «إكمال المعلم» (٧/ ٢٢٠) -: واتفق العلماء على جواز رؤية الله تعالى في المنام وصحتها، وإن رآه الإنسان على صفة لا تليق بحاله من صفات الأجسام، لأن ذلك المرئي غير ذات الله تعالى، إذ لا يجوز عليه سبحانه وتعالى التجسم ولا اختلاف الأحوال». وينظر كلام ابن تيمية رحمه الله في جواز ذلك في عدد من كتبه، ومنها كلامه في «مجموع الفتاوى» (٢/ ٣٣٦). والمصنف رحمه الله في «اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى» تجنب الكلام في هذه المسألة.

(٢) ذكره القشيري في «رسالته» (١/ ٢٢٣) (١/ ٥٦٢)، والغزالي في «إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٧٥)، والشيخ عبد القادر الجيلاني في «فتوح الغيب» (٢/ ١٤٧) ضمن جامع الرسائل لابن تيمية. وعلقه ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (٢/ ٣٠٦).
قال ابن تيمية: «أي اترك اتباع هواك والاعتماد على نفسك، فيكون عملك لله واستعانتك بالله كما قال تعالى ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ [هود: ١٢٣]. انظر: «مجموع الفتاوى» (٢/ ٣١٥).

(٣) في (س) و(ع): «هديه». والمثبت من (ج) و(ق) وحاشية (س).

(٤) من (ص)، وفي سائر النسخ: «الفجر».

(٥) أخرج مسلم (٦٥٦): أن النبي ﷺ قال: «من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلى الليل كله» من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه.

ومَنْ صامَ منهمْ ثلاثةَ أيَّامٍ مِنْ كلِّ شهرٍ فكأنما صامَ الشَّهرَ كلَّه(١)، فهوَ صائمٌ لبقيَّةِ الشَّهرِ في مُضاعفةِ اللهِ، ومُفْطِرٌ له في رُخصةِ اللهِ، و«الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ له أجرُ الصَّائمِ الصَّابرِ»(٢).

ومَنْ نوى أنْ يقومَ مِنَ اللَّيلِ ثم غلَبَتْه عيناه فنامَ، كُتِبَ له ما نوى، وكانَ نومُه عليه صدقةً(٣).

وقالَ أبو الدَّرداءِ: يا حبَّذا نومُ الأكياسِ وفِطْرُهمْ كيف يسبقُ سهَرَ الجاهلينَ وصيامَهم(٤).

ولهذا جاءَ في الحديثِ الصَّحيحِ: «رُبَّ قائمٍ حَظُّه مِنْ قيامِه السَّهَرُ، وصائمٍ حظُّه مِنْ صيامِه الجوعُ والعَطَشُ»(٥).

---

(١) أخرج البخاري (٣٤١٩)، ومسلم (١١٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو: أن النبي ﷺ قال له: «صم من كل شهر ثلاثة أيام، فذلك صوم الدهر». وفي (ص): «فقد صام الشهر كله».

(٢) أخرجه البخاري معلقاً في «الأطعمة» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بعد حديث (٥٤٦٠)، وأخرجه الترمذي (٢٤٨٦) وقال: حسن غريب، وابن ماجه في الصيام (١٧٦٤). وفي (ص): «الشاكر فيهم له».

(٣) أخرج الإمام أحمد (٢٤٣٤١) (٢٥٤٦٤) وغيره من حديث عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: «ما من رجل تكون له ساعة من الليل يقومها فينام عنها، إلا كتب له أجر صلاته، وكان نومه عليه صدقة تصدق به عليه».

(٤) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (٧٣٨)، وابن أبي الدنيا في «اليقين» (٨)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢١١)، وأورده المصنف في «لطائف المعارف» في وظيفة شهر ذي القعدة.
وفي (ص): «وصومهم»، وسقطت الجملة الأخيرة من (س) و(ع).

(٥) أخرجه الإمام أحمد (٨٨٥٦)، وابن ماجه في الصيام (١٦٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقالَ بعضُهمْ: كمْ مِنْ مُسْتَغفِرٍ ممقوتٍ، وساكِتٍ مرحومٍ! هذا استغفَرَ وقلبُهُ فاجِرٌ، وهذا سكت وقلبُه ذاكِرٌ[١].

وقالَ بعضُهمْ: ليسَ الشَّأنُ فيمَنْ يقومُ اللَّيلَ، إنَّما الشَّأنُ فيمَنْ ينامُ اللَّيلَ وهو على فراشِه، ثمَّ يُصبِحُ وقدْ سبَقَ الرَّكْبَ[٢].

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في «الزهد والرقائق» (٢٣) من كلام يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله تعالى.

(٢) ذكره المصنف أيضاً في «لطائف المعارف» في وظيفة شهر ذي القعدة، وأورد ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى نحوه في «الوابل الصيب» (ص: ٤٩) فقال: حكي عن رجل من العباد أنه نزل برجل ضيفاً، فقام العابد ليله يصلي، وذلك الرجل مستلق على فراشه، فلما أصبحا قال له العابد: سبقك الركب، أو كما قال، فقال: ليس الشأن فيمن بات مسافراً وأصبح مع الركب، الشأن فيمن بات على فراشه وأصبح قد قطع الركب.

وذكر ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٤٣٠) هذا المعنى، وقال: «وهي تسمى (طريق الطير) يسبق النائم فيها على فراشه السعاة، فيصبح وقد قطع الطريق وسبق الركب، بينا هو يحدثك إذا به قد سبق الطرف وفات السعاة.

ثم قال ابن القيم: «وهذا ونحوه له محمل صحيح ومحمل فاسد، فمن حكم على أن الراقد المضطجع على فراشه يسبق القائم القانت فهو باطل، وإنما محمله أن هذا المستلقي على فراشه علق بربه عز وجل، وألصق حبة قلبه بالعرش، وبات قلبه يطوف حول العرش مع الملائكة، قد غاب عن الدنيا ومن فيها، وقد عاقه عن قيام الليل عائق من وجعٍ أو بردٍ يمنعه القيام، أو خوفٍ على نفسه من رؤية عدو يطلبه أو غير ذلك من الأعذار، فهو مستلق على فراشه، وفي قلبه ما الله به عليم، وآخر قائم يصلي ويتلو وفي قلبه من الرياء والعجب وطلب الجاه والمحمدة عند الناس ما الله به عليم، أو قلبه في واد وجسمه في واد.

فلا ريب أن ذلك الراقد يصبح وقد سبق هذا القائم بمراحل كثيرة، فالعمل على القلوب لا على الأبدان، والمعول على الساكن، ويهيج الحب المتواري، ويبعث الطلب الميت».

وفي ذلكَ قِيلَ:

مَنْ لي بمِثْلِ سيرِكَ المُدَلَّلِ تمشي رويداً وتجي في الأوَّلِ(١)

وقولُه ﷺ: «اغْدُوا وروحوا وشيءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ»، كقوله في الرواية الأخرى: «استعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة» يعني: أنَّ هذه الأوقاتَ الثَّلاثةَ تكونُ أوقاتَ السَّيْرِ إلى اللهِ بالطَّاعاتِ، وهيَ آخرُ اللَّيلِ، وأوَّلُ النَّهارِ وآخرُه.

وقدْ ذكَرَ اللهُ سبحانه وتعالى هذه الأوقات في قولِه تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥ ـ ٢٦].

وقالَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ٣٠].

وقالَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩ ـ ٤٠].

وذكَرَ اللهُ سبحانَه وتعالى طرَفِي النَّهارِ في مواضعَ كثيرةٍ من كتابِه؛ كقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١ ـ ٤٢].

وقالَ تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥].

وقالَ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢].

---

(١) أنشده ابن تيمية وسمعه منه مجد الدين إبراهيم القلانسي رحمهما الله تعالى كما في «الرد الوافر» لابن ناصر الدين الدمشقي (ص: ٨٥)، و«المنهل الصافي» لابن تغري بردي (١/ ٥٣). وذكره ابن القيم في «مدارج السالكين» (٣/ ٩) (٣/ ١٣٨) و«مفتاح دار السعادة» (١/ ٨٢).

والبيت مقتبس من المثل الشائع: «يمشي رويداً ويكون أولا»، يضرب للرجل يدرك حاجته في تؤدة ودعة. انظر: «مجمع الأمثال» للميداني (٢/ ٤٢١).

وقـالَ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨].

وقالَ في ذكر زكريا عليه السلام: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١].

وقالَ: ﴿وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١].

فهذه الأوقاتُ الثَّلاثةُ منها وقتانِ: وهما أوَّلُ النَّهارِ وآخِرُه، يجتمِعُ في كلٍّ من هذينِ الوقتينِ عمَلانِ: عمَلٌ واجبٌ، وعمَلٌ هو تطوُّعٌ.

فأمَّا العمل الواجبُ، فهوَ صلاةُ الصُّبحِ وصلاةُ العصرِ، وهما أفضلُ الصَّلواتِ الخمسِ، وهما البردانِ اللَّذانِ مَنْ حافظَ عليهما دخَلَ الجنَّةَ(١).

وقدْ قيلَ في كلٍّ منهما: إنَّها هي الصَّلاةُ الوُسْطى(٢).

وأمَّا عمل التطوُّعِ، فهوَ ذِكْرُ اللهِ تعالى بعدَ صلاةِ الصُّبحِ حتَّى تطلُعَ الشَّمسُ، وبعدَ صلاةِ العصرِ حتَّى تغرُبَ الشَّمسُ.

وقدْ ورَدَ في فضلِه نصوصٌ كثيرةٌ، وكذلكَ وردتِ النُّصوصُ الكثيرةُ في أذكارِ الصَّباحِ والمساءِ، وفي فضلِ مَنْ ذكَرَ اللهَ تعالى حينَ يُصبِحُ وحينَ يُمسي.

وقـدْ رُوِيَ مِـنْ حديـثِ ابـنِ عمرَ مَرْفوعـاً: «ابـنَ آدمَ! اذكُرْني سـاعةً مِـنْ أوَّلِ

---

(١) أخرج البخاري (٥٧٤)، ومسلم (٦٣٥) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «من صلى البَرْدَين دخل الجنة».

(٢) وقد صنف الحافظ الدمياطي المتوفى سنة (٧٠٥هـ) رحمه الله تعالى: «كشف المغطى في تبيين الصلاة الوسطى» أسند فيه كثيراً من الأحاديث، وأورد الأقوال وبلغ بها سبعة عشر، وانتصر لكونها صلاة العصر، وكذلك قال المصنف ابن رجب رحمه الله تعالى في «فتح الباري» (٤/ ٣٤٠): «ولهذا كانت الصلاة الوسطى هي العصر على الصحيح». وسيأتي هذا بعد قليل.

النَّهارِ، وساعةً مِنْ آخرِه، أغفِر لكَ ما بينَ ذلكَ إلَّا الكبائرَ، أوْ تتوبَ منها»[١].

وكانَ السَّلَفُ الصَّالحُ لآخرِ النَّهارِ أشدَّ تعظيماً مِنْ أوَّلِه.

قالَ ابنُ المباركِ: بلغَنا أنَّه مَنْ ختَمَ نهارَه بذِكْرِ اللهِ كُتِبَ نهارُه كلُّه ذِكْراً[٢].

وقالَ أبو الجَلْدِ: بلغَنا أنَّ اللهَ يَجْنَحُ كل[٣] مساءِ يومٍ إلى السَّماءِ الدُّنيا ينظُرُ إلى أعمالِ بني آدمَ[٤].

ورأى بعضُ السَّلَفِ أبا جعفرٍ القاريَّ في المنامِ، فقالَ له: قُلْ لأبي حازمٍ - يعني: الأعرجَ الزَّاهِدَ - الكَيْس، الكَيْس، فإنَّ اللهَ وملائكتَه يتراءونَ مجلسَكَ بالعَشيَّاتِ[٥].

---

(١) أخرجه ابن شاذان في «مشيخته الصغرى» (١٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهم مرفوعاً.
وله شاهد أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (٢٠٣)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٢١٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً، ولفظه: «ابن آدم! اذكرني بعد الفجر وبعد العصر ساعة أكفك ما بينهما».

(٢) وأورده المصنف رحمه الله في «لطائف المعارف» في المجلس الأول، ولم أجد مصدره.

(٣) المثبت من (ص)، وفي (ق) و(ج) بياض. وكتب ناسخ (س) و(ع): «ينزل مساءَ كل يوم»! اجتهادًا منه.

(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» (٥١٩) عن أبي الجَلْد قال: إن الله عز وجل يجنح كل عشية إلى السماء الدنيا العصر ينظر إلى أعمال بني آدم. وتصحف في المطبوع من «السنة» إلى: «عن أبي الخلد» بالخاء، فجهله ناشر الكتاب!.
وأبو الجَلْد هو جيلان بن فروة البصري الجَوْني - من الأسماء المفردة - روى عنه قتادة وأبو عمران الجوني، وثقه الإمام أحمد بن حنبل.
وذكر ابن أبي حاتم أنه صاحب كتب التوراة ونحوها، وكذلك ذكر ابن حبان أنه ممن كان يقرأ كتب الأوائل. انظر: «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم (٢/ ٥٤٧)، و«مشاهير علماء الأمصار» لابن حبان (ص: ١٥٠). فهذا أثر إسرائيلي، يجري فيه ما يذكره علماء أهل السنة في حديث النزول.

(٥) أخرجه يعقوب بن سفيان في «المعرفة والتاريخ» (١/ ٦٧٦)، وابن أبي الدنيا في «المنامات» =

والظَّاهرُ أنَّ أبا حازمٍ كانَ يقُصُّ على النَّاسِ آخرَ النَّهارِ.

وقدْ جاءَ في حديثٍ: أنَّ الذِّكْرَ بعدَ الصُّبحِ أحبُّ مِنْ أربعِ رقابٍ، وبعدَ العصرِ أحبُّ مِنْ ثماني رقابٍ»[1].

وأيضاً فيومُ الجمعةِ آخرُه أفضلُ مِنْ أوَّلِه؛ لِمَا يُرجى في آخرِه مِنْ ساعةِ الإجابةِ.

ويومُ عرفةَ آخرُه أفضلُ مِنْ أوَّلِه؛ لأنَّه وقتُ الوقوفِ.

وكذلكَ آخرُ اللَّيلِ أفضَلُ مِنْ أوَّلِه، كذلك قالَه السَّلَفُ، واستدلُّوا بحديثِ النُّزولِ الإلهيِّ، وهذا كلُّه يُرجِّحُ[2] به قولُ مَنْ قالَ: إنَّ صلاةَ العصرِ هيَ الوُسْطى.

وأمَّا الوقتُ الثَّالثُ، فهوَ الدُّلْجَةُ.

والإِدْلاجُ: سَيْرُ آخرِ اللَّيلِ، والمـرادُ به هاهنا: العملُ في آخرِ اللَّيلِ، وهوَ وقتُ الاستغفارِ؛ كما قالَ تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، وقالَ: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨]، وهوَ آخرُ أوقاتِ النُّزولِ الإلهيِّ المـتُضمِّنِ لاستعراضِ الحوائجِ، أيْ: حوائجِ السَّائلينَ، واستغفارِ المـذْنبينَ، وتوبةِ التَّائبينَ.

وسطُ اللَّيلِ للمُحبِّينَ للخَلْوةِ بحبيبِهِمْ، وآخِرُ اللَّيلِ للمُذْنبينَ يستغفرون مِنْ ذنوبهم.

مَنْ عَجزَ عنْ مُشاركةِ المُحبِّينَ في الجَرْيِ معهمْ في ذلكَ المِضمارِ، فلا أقلَّ مِنْ مُشاركةِ المُذنبينَ في الاعتذارِ.

= (٣٢١)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٥/ ٣٦١).

(١) هذا المعنى مدرج من عدد من الروايات من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً، فشطره الأول يوجد عند أبي داود (٣٦٥٩)، وشطره الثاني في «مسند أحمد» (١٣٧٦٠). وفيه كلام.

(٢) في (س): «مما يرجح».

وردَ في بعضِ الآثارِ أنَّ العرشَ يهتزُّ مِنَ السَّحَرِ(١).

قالَ طاوسٌ: ما كنتُ أظنُّ أنَّ أحداً ينامُ في السَّحَرِ(٢).

وفي الحديثِ الَّذي خرَّجه التِّرمِذِيُّ: «مَنْ خافَ أدْلَجَ، ومَنْ أدْلَجَ بلَغَ المنزِلَ»(٣).

سيرُ الدُّلْجةِ آخِرَ اللَّيلِ يُقْطَعُ به سفرُ الدُّنيا والآخرةِ.

ولِهذا في الحديثِ الَّذي خرَّجَهُ مسلمٌ: «إذا سافرْتُمْ فعليكمْ بالدُّلْجَةِ، فإنَّ الأرضَ تُطْوى باللَّيلِ»(٤).

قالَ بعضُ الفُضلاءِ:

اصبِرْ على مضَضِ الإدْلاجِ في السَّحَرِ(٥) ... وفي الرَّواحِ على الطَّاعاتِ والبُكَرِ

لا تضجَرَنَّ ولا يعْجِزْكَ مَطْلَبُها ... فالهمُّ يتلَفُ بينَ اليأسِ والضَّجَرِ

إنِّي رأيتُ وفي الأيَّامِ تجرِبةٌ ... للصَّبرِ عاقبةٌ محمودةَ الأثَرِ

---

(١) أخرج ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٥٣٩٢)، والإمام أحمد في «الزهد» (٣٦٥)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٢٠٣) من كلام سعيد الجريري: أن داود عليه السلام سأل جبريل، فقال: يا جبريل! أي الليل أفضل؟ قال: يا داود! ما أدري، إلا أن العرش يهتز من السحر.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (٢٢٠٠)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٥): أن طاوساً أتى رجلاً في السحر، فقالوا: هو نائم، قال: ما كنت أرى أحدا ينام في السحر.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وتتمته: «ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة».

(٤) لم يخرجه مسلم في «صحيحه»، وإنما أخرجه أبو داود (٢٥٦٤) من حديث أنس رضي الله عنه، وقد عزاه المصنف إلى أبي داود في «فتح الباري» (١/ ١٥٢)، ولكن ذكر ابن أبي حاتم مسلماً في قصة ذكرها في «العلل» (٥/ ٦٨٥).

(٥) في (س) و(ع): «بالسحر».

وقَلَّ مَنْ جدَّ في أمرٍ تَطَلَّبَه[١] واستصحَبَ الصَّبْرَ إلَّا فازَ بالظَّفَرِ[٢]

وقدْ رُوِيَ: أنَّ الأشترَ دخَلَ على عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه بعدَ هَدْأَةٍ مِنَ اللَّيلِ وهوَ قائمٌ يُصلِّي، فقالَ: يا أميرَ المؤمنينَ! صومٌ بالنَّهارِ، وسهَرٌ باللَّيلِ، وتعَبٌ فيما بينَ ذلكَ، فلمَّا فرَغَ مِنْ صلاتِه أنشد هذه الأبيات[٣].

سفَرُ الآخرةِ طويلٌ يُحتاجُ[٤] إلى قَطْعِه بسَيْرِ اللَّيلِ، وهوَ الإدْلاجُ.

كانتِ امرأةُ حبيبٍ أبي محمَّدٍ الفارسيِّ[٥] توقِظُه باللَّيلِ، وتقولُ: قُمْ يا حبيبُ! فإنَّ الطَّريقَ بعيدٌ، وزادَنا قليلٌ، وقوافِلُ الصَّالحينَ قدْ سارَتْ مِنْ بينِ أيدينا ونحنُ قدْ بقِينا[٦].

---

(١) في (س) و(ع): «يؤمله».

(٢) الأبيات تنسب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه من وجوه متعددة كما في «شعب الإيمان» للبيهقي (٩٦٢٠)، و«الفرج بعد الشدة» للتنوخي (٥/ ٦١)، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (٤٢/ ٥٢٩)، وهي في المطبوع من «ديوانه»، وأنشده محمد بن بَشِير مولى الأزد لنفسه في «الفرج بعد الشدة» للتنوخي (٥/ ٦٠)، وجاء في «الشعر والشعراء» لابن قتيبة (٢/ ٨٦٨) منسوباً إلى محمد بن يسير من أسد مولى لهم وكان في عصر أبي نواس، وعمِّر بعده حيناً، وقد يتمثل بكثير من شعره.

ومحمد بن بشير ومحمد بن يسير بينهما فرق في الزمان! فليتتبع المسألة من يهمه تحرير المشتبه من المتفق والمفترق في أسمائهم، والله الموفق.

(٣) «أنشد هذه الأبيات»: سقطت الجملة من (س) و(ع). وجاء بدلها: «قال»، فجعل المقول بعدها من كلام علي رضي الله عنه! وإنما أنشد الأبيات، والقصة أخرجها التنوخي في «الفرج والشدة» (٥/ ٦١).

وهنا ينتهي ما لدينا عن مصورة النسخة (ق).

(٤) في (س): «فيحتاج».

(٥) «الفارسي»: من (س).

(٦) ذكر القصة ابن الجوزي في «المنتظم» (٧/ ١٩٧).

يـا نائِـمَ اللَّيـلِ كـمْ تَـرْقُـدُ ... قُمْ يـا حبيبـي قـدْ دنـا الموعِـدُ

وخُـذْ مِـنَ اللَّيـلِ وأوقاتِـه ... وِرْداً إذا مـا هجَـعَ الرُّقَّـدُ

مَنْ نامَ حتَّى ينقضـي ليلُـه ... لـمْ يبلُغِ المنزلَ أوْ[1] يجهَدُ[2]

وقولُه ﷺ: «والقَصْدَ القَصْدَ تبلُغوا» حثٌّ على الاقتصادِ في العبادةِ، والتَّوسُّطِ فيها بينَ الغُلُوِّ والتَّقصيرِ، ولذا قد كرَّرَه مرَّةً بعدَ مرَّةٍ.

وفي «مسندِ البَزَّارِ» مِنْ حديثِ حذيفةَ رضي الله عنه مرفوعاً: «ما أحسَنَ القَصْدَ في الفَقْرِ! وما أحسَنَ القَصْدَ في الغِنى! وما أحسَنَ القَصْدَ في العبادةِ!»[3].

وكانَ لمُطَرِّفِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ الشِّخِّيرِ ابنٌ قدِ اجتهَدَ في العبادةِ، فقالَ له أبوه: خيرُ الأمورِ أوسَطُها، الحسَنةُ بينَ السَّيِّئتَين، وشرُّ السَّيْرِ الحَقْحَقَةُ[4].

قالَ أبو عبيدٍ: يعني: أنَّ الغُلُوَّ في العبادةِ سيِّئةٌ، والتَّقصيرَ سيِّئةٌ، والاقتصادُ بينهما حسَنةٌ.

---

(١) في (ع): «لو».

(٢) ذكر الأبيات ابن الجوزي في «المدهش» (ص: ٥٣٢) من غير نسبة، وذكرها المصنف في المجلس الأول من «لطائف المعارف».

وأورد ابن حبيب النيسابوري في «عقلاء المجانين» (ص: ٦١) قصة لمالك بن دينار عند الكعبة نام فأيقظه سعدون بذكر البيتين الأولين، إلا أن شطر البيت الثاني: فازدد إذا ما سجد السجد.

(٣) أخرجه البزار في «المسند» (٢٩٤٦).

(٤) أخرجه أبو عبيد في «غريب الحديث» (٢/ ٢٨) (٤/ ٣٨٨)، ومن طريقه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٦٠٥).

قالَ: والحَقْحَقَةُ: أنْ يُلِحَّ في شدَّةِ السَّيرِ حتَّى تقومَ عليه راحلتُه وتَعْطِبَ، فيبقى مُنْقَطعاً به. انتهى[١].

ويشهَدُ لهذا المعنى الحديثُ المرويُّ عنْ عبدِ اللهِ بنِ عمرو مرفوعاً: «إنَّ هذا الدِّينَ مَتينٌ، فأوغِلْ فيه برِفْقٍ، ولا تُبَغِّضْ إلى نفْسِكَ عبادةَ اللهِ تعالى، فإنَّ المُنْبَتَّ لا سَفَراً قطَعَ، ولا ظَهْراً أبقى، فاعمَلْ عمَلَ امرِئٍ يظنُّ أنَّه لنْ يموتَ إلَّا هرِماً، واحذَرْ حذَرَ امرِئٍ يخشى[٢] أنْ يموتَ غداً». خرَّجه حميدُ بنُ زَنْجُوْيَه وغيرُه[٣].

وفي تكريرِ أمرِه بالقَصْدِ إشارةٌ إلى[٤] المُداومةِ عليه، فإنَّ شدَّةَ السَّيْرِ والاجتهادِ مظنَّةُ السَّآمةِ والانقطاعِ، والقَصْدُ أقربُ إلى الدَّوامِ، ولهذا جَعَلَ عاقِبَةَ القَصْدِ البُلوغَ؛ كما قالَ: «مَنْ أدْلَجَ بلَغَ المنزلَ».

فالمؤمنُ في الدُّنيا يسيرُ إلى الله حتَّى يبلُغَ إليه؛ كما قالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، وقالَ تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

قالَ الحسنُ: يا قومُ! المُداومةَ المُداومةَ، فإنَّ اللهَ لمْ يجعَلْ لعملِ المؤمنِ أجَلاً دونَ الموتِ، ثمَّ تلا هذه الآيةَ[٥].

---

(١) هذا كلام الأصمعي، نقله عنه أبو عبيد القاسم بن سلام في «غريب الحديث» (٤/ ٣٨٨). وزاد ناسخ (س) و(ع) في آخره: «سفره».

(٢) في (س) و(ع): «يحذر».

(٣) أخرجه بهذا اللفظ، لكن موقوفاً: ابن المبارك في «الزهد» (١٣٣٤)، وأخرجه مرفوعاً بنحوه: البيهقي في «الكبرى» (٤٨٠٧)، وفي «شعب الإيمان» (٣٦٠٣)، وكتاب ابن زنجويه مفقود.

(٤) في (س) و(ع): «على».

(٥) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٨) ومن طريقه ابن المقرئ في «معجمه» (٧٢٠)، وبنحوه الإمام أحمد في «الزهد» (١٥٤٨).

وقالَ أيضاً: نفوسُكمْ مطاياكمْ، فأصلِحوا مطاياكمْ تُبَلِّغكُمْ إلى ربِّكمْ عزَّ وجلَّ[١].

والمُرادُ بإصلاحِ المَطايا: الرِّفقُ بها، وتعاهُدُها بما يُصْلِحُها مِنْ قُوْتِها، والرِّفْقِ بها في سَيْرِها، فإذا أحسَّ منها بتوقُّفٍ في السَّيْرِ تعاهدَها تارةً بالتَّشْويقِ، وتارةً بالتَّخويفِ حتَّى تسيرَ.

قالَ بعضُ السَّلفِ: الرَّجاءُ قائدٌ، والخوفُ سائقٌ، والنَّفْسُ بينهما كالدَّابَّةِ الحَرونِ، فإذا[٢] فترَ قائدُها وقصَّرَ سائقُها وقَفَتْ[٣].

فتحتاجُ إلى الرِّفْقِ بها والحَدْوِ لها؛ حتَّى يطيبَ لها السَّيْرُ؛ كما قالَ حادي الإبلِ بالبَوادي:

بشَّرَها دليلُها وقالَا: غداً ترينَ الطَّلْحَ والجِبالا[٤]

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٢٢٠)، ولفظه: الدنيا مطية المؤمن إلى ربه، عليها يرتحل المؤمن إلى ربه، فأصلحوا مطاياكم تبلغكم إلى ربكم.

(٢) في (ج): «فمتى».

(٣) أخرجه ابن بطة في «الإبانة» (١٠٤٨) من كلام وهب بن منبه، وتتمته: إن فتر قائدها صدت عن الطريق فلم تستقم لسائقها، وإن فتر سائقها لم تتبع قائدها، فإذا اجتمعا استقامت طوعاً وكرهاً.
وله ألفاظ أخرى عن وهب، وروي أيضاً عن غير وهب. انظر: «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٤/ ٣١) (٣/ ٣٥٤).

(٤) أورده أبو عبيدة معمر بن المثنى في «مجاز القرآن» (٢/ ٢٥٠)، وعنه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٣٠٩) من غير نسبة، ونسبه القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ٢٠٨) إلى الجعدي، ولم أعثر عليه في ديوانه المطبوع.
والجبال: بالجيم جمع جبل كما في نسخنا وفي مخطوطة «مجاز القرآن». وفي الطبري: الحبال: جمع حبل وهو الرمل المرتفع.
وقد يكون صواب الرجز: «غداً ترين الطلح والأحبالا» كما أورده القرطبي، والأحبال جمع حُبلة: ثمر السلم والعضاه. وفي حاشية (س): «من الرجز، محذوف منه سبب خفيف».

ولمَّا كانَ الخوفُ كالسَّوْطِ، فمتى ألحَّ بالضَّرْبِ بالسَّوْطِ على الدَّابَّةِ تلِفَتْ، فلا بُدَّ لها معَ الضَّرْبِ مِنْ حادي الرَّجاءِ، يَطيبُ لها السَّيرُ بحُدائِه حتَّى تَقْطَعَ.

قالَ أبو يزيدَ: ما زلتُ أسوق[1] نفْسي إلى اللهِ وهيَ تبكي، حتَّى سُقْتُها إلى الله وهيَ تضحَكُ[2].

كما قيلَ:

إذا شكَتْ مِنْ كَلالِ السَّيْرِ أُوعِدُها ... رَوْحَ القُدومِ فتَحْيا عندَ ميعادِ[3]

قالَ خليد العصريُّ: إنَّ كُلَّ حبيبٍ يجب أن يلقى حبيبَه، فأحبُّوا ربَّكمْ، وسيروا إليه سَيْراً جميلًا، لا مصعداً ولا مميلاً[4].

فغايةُ السَّيْرِ تَوَصُّلُ المؤمنِ إلى ربِّه، ومَنْ لا يعرِفُ الطَّريقَ إلى ربه ثم[5] يسلُكُ إليه فيه، فهوَ والبَهيمةُ سواءٌ.

قالَ ذو النُّونِ: السَّفِلَةُ مَنْ لا يعرِفُ الطَّريقَ إلى اللهِ ولا يتعرَّفُه[6].

---

(١) في (س) و(ع): «أقود».

(٢) ذكره ابن الجوزي في «صيد الخاطر» (ص: ١١٤).

(٣) ذكره في أبيات ابن قيم الجوزية في عدد من كتبه: «الجواب الكافي» (ص: ٤٦٠)، و«زاد المعاد» (٢/ ٣٣) و«مفتاح دار السعادة» (١/ ١٨٥)، و«روضة المحبين» (ص: ١٦٥) من دون نسبة.
وهي لإدريس بن أبي حفصة من قصيدة له في إسحاق بن إبراهيم المصعبي، كما أفاده د. أجمل أيوب الإصلاحي في تعليقه على «الداء والدواء».

(٤) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (١٣١٤)، ومن طريقه: الختلي في «المحبة لله» (١٨٨) وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٢٣٢)، والختلي في «المحبة لله» (١٣٠) من وجه آخر وليس عندهم قوله: «لا مصعداً ولا مميلاً».

(٥) في (س) و(ع): «الطريق إلى الله، ولا يسلك».

(٦) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٣٧٢).

والطَّريقُ إلى اللهِ هوَ سلوكُ صراطِه المستقيمِ الَّذي بَعَثَ الله به رسولَه ﷺ، وأنزَلَ به كتابَه[١]، وأمَرَ الخَلْقَ كلَّهمْ بسلوكِه والسَّيْرِ فيه.

قالَ ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: الصِّراطُ المستقيمُ: تركَنا محمَّدٌ ﷺ في أدناهُ، وطرَفُه الجنَّةُ، وعنْ يمينِه جوادٌّ، وعنْ يسارِه جوادُّ، وثَمَّ رجالٌ يَدْعون مَنْ مرَّ بهمْ، فمَنْ أخَذَ في تلكَ الجوادِّ انتهَتْ به إلى النَّارِ، ومَنْ أخَذَ على الصِّراطِ المستقيم انتهى بـه إلى الجنَّةِ. ثمَّ قرأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. خرَّجَه ابنُ جريرٍ وغيرُه[٢].

فالطَّريقُ الموصِلُ إلى اللهِ واحدٌ، وهوَ صراطُه المستقيمُ، وبقيَّةُ السُّبُلِ كلِّها سبُلُ الشَّيطانِ، مَنْ سلَكَها قطَعَتْ به عنِ اللهِ عز وجل، وأوصَلَتْه إلى دارِ سُخْطِه وغضَبِه وعقابِه، فربَّما سلَكَ الإنسانُ في أوَّلِ أمرِه على الصِّراطِ المستقيمِ، ثمَّ ينحرِفُ في آخرِ عمُرِه، فيسلُكُ بعضَ سبُلِ الشَّيطانِ، فينقطِعُ عنِ اللهِ ويهلكُ، «إنَّ أحدَكمْ ليعمَلُ بعمَلِ أهلِ الجنَّةِ حتَّى ما[٣] يكونَ بينه وبينها إلَّا ذِراعٌ أوْ باعٌ، فيعمَلُ بعمَلِ[٤] أهلِ النَّارِ فيدخل النار[٥]»[٦].

---

(١) في (ج): «بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه».

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٨٨٢)، والطبري في «تفسيره» (٩/ ٦٧١)، وابن وضاح في «البدع» (ص: ٣٩) من طبعة شيخنا محمد أحمد دهمان رحمه الله تعالى.

(٣) في (ج): «لا». وكلاهما في الصحيح.

(٤) في (ع): «عمل».

(٥) في (ع): «فيدخلها»، وكلاهما في الصحيح.

(٦) أخرجه البخاري (٧٤٥٤)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وليس في «الصحيحين»: «أو باع».

وربَّما سلَكَ الرَّجلُ أوَّلاً بعضَ سبُلِ الشَّيطانِ، ثـم تُـدْرِكُه السَّعادةُ، فيسلُكُ الصِّراطَ المستقيمَ في آخرِ عمُرِه، فيصِلُ به إلى اللهِ.

والشَّأنُ كلُّ الشَّأنِ في الاستقامةِ على الصِّراطِ المستقيمِ مِنْ أوَّلِ السَّيْرِ إلى آخرِه، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٥٤]، ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥].

مـا أكثـرَ مَنْ يرجِعُ مِنْ أثنـاءِ الطَّريقِ أوْ ينقطِـعُ، فـ«إنَّ القلوبَ بيـنَ إصبعينِ [مِنْ أصابـعِ الرَّحمـنِ]»[1]، ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

خليلَـيَّ قُطَّـاعُ الفَيافـي إلـى الحِمَى كـثيـرٌ وأمَّـا الواصلـونَ قليـلُ[2]

في الحديثِ الصَّحيحِ الإلهيِّ: «يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: مَنْ تقرَّبَ منِّي شِبْراً تقرَّبْتُ منه ذِراعاً، ومَنْ تقرَّبَ منِّي ذِراعاً تقرَّبْتُ منه باعاً، ومَنْ أتاني يمشي أتيتُه هَرْولةً»[3].

وفـي «المسـندِ» زيـادةٌ: «واللهُ أعلـى وأجـلُّ، واللهُ أعلى وأجـلُّ، واللهُ أعلـى وأجـلُّ»[4].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه. وما بين معقوفين ليس في (ص) و(ج).

(٢) ذكر البيت المستعصمي في «الدر الفريد» (٦/ ١٧٧) من غير نسبة. وفي (ص): «ولكن الواصلون» وجاء في (س) و(ع): «خليلي قطاع الطريق إليكما»!!

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).
والبخاري (٧٥٣٦) من حديث أنس رضي الله عنه.
ومسلم (٢٦٨٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الإمام أحمد (٢١٣٧٤) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

وفيهِ أيضاً: «يقولُ اللهُ تعالى: يا ابنَ آدمَ! قُمْ إليَّ أمشِ إليكَ، وامشِ إليَّ أُهَروِلْ إليكَ»[1].

مَنْ أقبَلَ إلينا تلقَّيْناهُ مِنْ بعيدٍ، ومَنْ أرادَ مُرادَنا أردْنا ما يريدُ، ومَنْ سألَنا أعطيناهُ فوقَ المزيدِ، ومَنْ عمِلَ بقُوَّتِنا ألَنَّا له الحديدَ[2].

يا هذا! لوْ أنك قصدتَ بابَ والي الشُّرطَةِ لَمَا أقبَلَ إليكَ ولا تلَقَّاكَ، وربَّما حجبَكَ عنِ الوصولِ إليه وأقصاكَ، وملِكُ الملوكِ يقولُ: «مَنْ أتاني يمشي أتيتُه أهرول»[3]، وأنتَ عنه مُعْرِضٌ، وعلى غيرِه مُقْبِلٌ، لقدْ غبنت أفحش الغبن وخسِرْتَ أكبرَ الخُسْرانِ!

واللهِ مـــا جئتُكـمْ زائـــراً ... إلَّا وجدتُّ الأرضَ تُطوى لي

ولا ثنيتُ العَزْمَ عـنْ بابِكـمْ ... إلَّا تعثَّرْتُ بأذيـالي[4]

يا معشرَ المُريدين! قدْ وضحَ الطَّريقُ، فما هذا التأخُّرُ عنِ السُّلوكِ والتَّعويقُ؟!

لقدْ وضَحَ الطَّريقُ إليكَ قصداً[5] ... فمـا خَلْـقٌ أرادكَ يستدِلُّ[6]

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٥٩٢٥) عن رجل من أصحاب النبي ﷺ.

(٢) روى ابن تيمية رحمه الله أن محيي الدين بن النحاس رأى الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله في منامه وهو يقول إخباراً عن الحق تعالى:.. فذكر نحوه. انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٥٤٩). واقتبسه ابن القيم رحمه الله تعالى في عدد من كتبه.

(٣) في (س) و(ع): «هرولة».

(٤) البيتان للمرتضى عبد الله ابن الشهرزوري الموصلي، كما في «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٣/ ٥٢)، و«بغية الطلب» لابن العديم (١٠/ ٤٤٩١)، و«سير أعلام النبلاء» للذهبي (٢١/ ٥٨). وأوردهما ابن القيم في عدد من كتبه دون ذكر قائلهما.
ونسبهما المستعصمي في «الدر الفريد» (١١/ ٢٨٨) إلى كثير عزة!

(٥) في (ج) و(س) و(ع): «حقاً».

(٦) البيت لإبراهيم الخواص رحمه الله تعالى، كما في «التعرف لمذهب أهل التصوف» للكلاباذي (ص: ١٥٧)، والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٦/ ٤٩٣)، و«التدوين في أخبار قزوين» للرافعي (٢/ ٩٩)، و«مشيخة قاضي المارستان» (٢٧١).

﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [إبراهيم: ١٠].

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ٣١].

يـا نفْسُ ويحَـكِ قدْ أتـاكِ هُداكِ ... أجـيبي فداعـي اللهِ قدْ نـاداكِ[١]

كـمْ قـدْ دُعِيتِ إلـى الرَّشـادِ فتُعْرِضي ... وأجبْـتِ داعـي الغيِّ حيـنَ دعاكِ[٢]

***

الوصولُ إلى اللهِ نوعانِ:

أحدُهما: في الدُّنيا.

والثَّاني: في الآخرةِ.

فأمَّا الوصولُ الدُّنيويُّ، فالمـرادُ به: أنَّ القلوبَ تصِلُ إلى معرفة علَّام الغيوب، فإذا عرَفَتْه أحبَّتْه، وأنِسَتْ به، فوجدَتْه منها قريباً، ولِدُعائِها مُجيباً؛ كما في بعضِ الآثارِ: «ابنَ آدمَ! اطلُبْني تجِدْني، فإنْ وجدتني وجدتَ كلَّ شيءٍ، وإنْ فُتُّكَ فاتَكَ كلُّ شيءٍ»[٣].

قـد بـرَزَ المرسـومُ منَّـا ... إنَّـا لا نـخـيِّـبُ ظنَّـا

فـاطلـبونا تـجـدونـا ... فـي قلـوبٍ تـسـعـنا

صـابـراتٍ شـاكرات ... راضيـات بمـا نقضيـه عنَّا[٤]

---

(١) في (ج): «فهذا داعي الله ناداك».

(٢) ذكر المصنف رحمه الله هذين البيتين في «لطائف المعارف» ـ المجلس الثالث من وظائف ذي الحجة ـ، وفي «شرح حديث لبيك اللهم لبيك». فكأنهما له.

(٣) هذا أثر إسرائيلي، ذكره ابن تيمية في «الفتاوى» (٨/ ٥٢)، وابن قيم الجوزية في مواضع كثيرة من كتبه، وذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٢) (٧/ ٤٢٦) وعزاه إلى بعض الكتب الإلهية.

(٤) سقطت هذه الأبيات الثلاثة من (س) و(ع). ولم أجدها عند غير المصنف. وفي (ج): «قد برز»، «لا نخيب قط ظنا»، «قلوب قد تسعنا»، «صابرات راضيات»، «بالذي يصدر عنا».

كانَ ذو النُّونِ يخرُجُ باللَّيلِ، فيُرَدِّدُ نظَرَه في السَّماءِ، ويُرَدِّدُ هذه الأبيات حتَّى يُصبِحَ، وهي هذِهِ:

اطلُبـــوا لأنـفُـسِـكـــمْ مثلَ مـــا وجـــدتُ أنـــا

قــدْ وجـدتُ لــي سـكَناً ليـسَ فــي هـــواهُ عنَـــا

إنْ بعُـــدتُ قـــرَّبَـنـــي أوْ قَرُبْـــتُ منـــه دنـــا[1]

وأمَّا الوصولُ الأُخرويُّ، فالدُّخولُ إلى الجنَّةِ الَّتي هيَ دارُ كرامة الله[2] تعالى لأوليائِه، ولكنَّهمْ في درجاتِها مُتفاوتونَ في القُرْبِ بحسَبِ تفاوُتِ قلوبِهمْ في الدُّنيا في القُرْبِ والمشاهدةِ.

قـالَ تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧ ـ ١١].

كانَ الشِّبْلِيُّ يهيجُ في دارِه ويُنشِدُ يقولُ:

علـــى بُعْــدِكَ لا يصبـــ ـــر مَــنْ عادَتُــه القُــرْبُ

ولا يقــوى علــى حَجْــبِـ ـــكَ مَــنْ تيَّمَــه الحُــبُّ

فـــإنْ لـــمْ تــرَكَ العيـــنُ فقـــد يبصـــرُك القلـــبُ[3]

(١) الأبيات رواها ضمن قصة: أبو نُعيم في «الحلية» (٩/ ٣٤٤)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧/ ٤٣٦).

(٢) في (س) و(ع): «كرامته».

(٣) أخرجه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (١٦/ ٥٦٣)، ومن طريقه ابن الجوزي في «المنتظم» (١٤/ ٥١) وأخرجه السراج القارئ في «مصارع العشاق» (١/ ١٧٢).

وفي (س) و(ع): «على بعدكم لا صبر على من»، «أبصرك القلب».

الصِّراطُ المستقيمُ في الدُّنيا يشتمِلُ على ثلاثِ درجاتٍ:

درَجةِ الإسلامِ، ودرَجةِ الإيمانِ، ودرَجةِ الإحسانِ.

فمَنْ سلَكَ على درَجةِ الإسلامِ إلى أنْ يموتَ عليها منَعَتْه مِنَ الخُلودِ في النَّارِ، ولَمْ يكنْ له بُدٌّ مِنْ دخولِ الجنَّةِ، وإنْ أصابَه قَبْلَ ذلكَ ما أصابَه.

ومَـنْ سلَكَ على درَجةِ الإيمانِ إلى أنْ يموتَ عليها منَعَه الإيمان مِنْ دخولِ النَّارِ بالكُلِّيَّةِ، فإنَّ نورَ الإيمانِ يُطفِئُ لهَبَ نار جهنَّمَ، حتَّى تقولَ: «يا مؤمنُ جُزْ، فقدْ أطفَأَ نورُكَ لَهَبي»(١).

وفي «المسندِ» عن جابرٍ مرفوعاً: «لا يبقى بَرٌّ ولا فاجرٌ إلَّا دخَلَها، فتكونُ على المؤمنِ بَرْداً وسلاماً، كما كانتْ على إبراهيمَ بَرْداً وسلاماً، حتَّى أنَّ للنَّارِ ضَجيجاً مِنْ بَرْدِهم»(٢).

هذا ميراثٌ ورِثَه المحبُّونَ مِنْ حالِ أبيهِمْ إبراهيمَ عليه السلام:

ففـي فـؤادِ المُحـبِّ نـارُ هوىً ... أحَـرُّ نـارِ الجحيـمِ أبرَدُهـا(٣)

ومَـنْ سـلَكَ على درجـةِ الإحسـانِ إلى أنْ يمـوتَ عليهـا، وصَلَ بعـدَ الموتِ إلى اللهِ.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

---

(١) أخرجه من حديث يعلى بن مُنية رضي الله عنه: الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٢) (٦٦٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٦٩) وقال: منكر.
قال المصنف رحمه الله في الباب السابع والعشرين من «التخويف من النار»: «غريب وفيه نكارة».

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١٤٥٢٠).

(٣) البيت للمتنبي، وهو في «ديوانه» (ص: ٨). وفي (س) (ع): «جوى».

في الحديثِ الصَّحيحِ: «إذا دخَلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ نادى مُنادٍ: يا أهلَ الجنَّةِ! إنَّ لكمْ عندَ اللهِ مَوْعِداً يُريدُ أنْ يُنْجِزَكمُوه، فيقولون: ما هوَ؟ ألَمْ يُبَيِّضْ وجوهَنا؟ ألمْ يُثَقِّلْ موازينَنا؟ ألمْ يُدْخِلْنا الجنَّةَ ويُجِرْنا مِنَ النَّارِ؟ فيَكْشِفُ الحجاب[1]، فينظرونَ إليه، فواللهِ ما أعطاهمُ اللهُ شيئاً هوَ أحبَّ إليهمْ، ولا أقرَّ لأعينِهمْ مِنَ النَّظَرِ إليه، وهيَ الزِّيادةُ». ثمَّ تلا: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦][2].

كلُّ أهلِ الجنَّةِ يشترِكونَ في الرُّؤيةِ، ولكن يتفاوتونَ في القُرْبِ في حالِ الرؤيةِ، وفي أوقاتِ الرؤيةِ.

عُمومُ أهلِ الجنَّةِ يرونه يومَ المَزيدِ، وهوَ يومُ الجمعةِ[3]، وخواصُّهمْ ينظرون في وجه الله تعالى كلَّ يومٍ مرَّتين بُكْرَةً وعشيًّا[4]، عموم أهل الجنة لهم رزقهم فيها بكرة وعشياً، وخواصهم يرون الله بكرة وعشياً، العارفون لا يُسلِّيهمْ[5] عنْ محبوبِهمْ قَصْرٌ، ولا يَرويهمْ دونَه نهرٌ.

كانَ بعضُهمْ يقولُ: إذا جُعْتُ فذِكْرُه زادي، وإذا عطِشْتُ فمُشاهدتُه سُؤْلي ومُرادي[6].

رُؤِيَ بعضُ الصَّالحينَ في المنامِ بعدَ موتِه، فسُئِلَ عنْ حالِ رجلينِ مِنَ العُلماءِ،

---

(١) سقطت الكلمة من (س) و(ع)، وفي حاشية (س): «لعله الحجاب عن وجهه».

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٨١)، والإمام أحمد (١٨٩٣٧) (١٨٩٤١) وهو أقرب الألفاظ لما هنا من حديث صهيب رضي الله عنه. وفي (ص): جاء: «تبيض» «تثقل» «تدخلنا» «تجرنا» بتاء الخطاب.

(٣) انظر في ذلك حديث أنس رضي الله عنه في «الرؤية» للدارقطني (٥٩ ـ ٦٦).

(٤) انظر في ذلك حديث ابن عمر رضي الله عنهما الذي سيذكره المصنف، وفي (س) و(ع): «وخواصهم يرون وجهه في كل يوم».

(٥) في (ج): «يلهيهم».

(٦) ذكره ابن الجوزي في «بحر الدموع» (ص: ٥١)، وفي «مثير العزم الساكن» (٢/ ١٩٠).

فقالَ: تركْتُهما الآنَ بينَ يدي اللهِ عزَّ وجلَّ يأكُلانِ ويشرَبانِ ويتنعَّمانِ، قيلَ له: فأنتَ؟ قال: علِمَ قِلَّةَ رَغْبَتي في الطَّعامِ والشَّرابِ فأباحَني النَّظَرَ إليه[1].

أنتَ رِبِّي إذا ظمِئْتُ إلى الما ءِ وقُوتي إذا أردتُ الطَّعاما[2]

وفي «المسندِ» عنِ ابنِ عمرَ مرفوعاً: «إنَّ أدنى أهلِ الجنَّةِ منزلةً لَمَنْ ينظُرُ في مُلْكِه ألفَيْ سنةٍ يُرى أقصاهُ كما يُرى أدناهُ، ينظُرُ إلى أزواجِه مِنَ الحُورِ العِينِ وخدَمِه، وإنَّ أفضلَهمْ منزِلةً لَمَنْ ينظُرُ إلى وجهِ اللهِ تعالى كلَّ يومٍ مرَّتينِ»[3].

وخرَّجَه التِّرمِذِيُّ، ولفظُه: «إنَّ أدنى أهلِ الجنَّةِ منزِلةً لَمَنْ ينظُرُ إلى جنانه وأزواجِه ونعيمِه وخدَمِه وسرره مسيرةَ ألفِ سنةٍ، وأكرَمَهمْ على اللهِ تعالى مَنْ ينظُرُ إلى وجهِه غَدْوةً وعَشِيًّا». ثمَّ قرأَ رسولُ اللهِ ﷺ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣][4].

---

(١) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٣/ ٥٦٤)، والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (١٢/ ٢٨٣)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٠/ ٢٢٣) عن عاصم الحربي قال: رأيت في المنام كأني قد دخلت درب هشام، فلقيني بشر بن الحارث، فقلت: من أين يا أبا نصر؟ فقال: من عليين، قلت: ما فعل أحمد بن حنبل؟ قال: تركت الساعة أحمد بن حنبل وعبد الوهاب الوراق بين يدي الله تعالى يأكلان ويشربان ويتنعمان، قلت: فأنت؟ قال: علم الله قلة رغبتي في الطعام فأباحني النظر إليه.

(٢) جاء البيت في قصة جرت لشقيق البلخي مع السيد الجليل الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق رضي الله عنهما أسندها ابن الجوزي في «مثير العزم الساكن» (٢/ ١٦٦)، و«صفة الصفوة» (١/ ٤٠٠). وفي (ج): «أنت ربي»، وكذلك وقع في عدة مصادر.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٤٦٢٣).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٥٥٣) (٣٣٣٠) وفي رفعه اختلاف. ووقع في (س) و(ع) و(ج) تصحيفات أثبتنا صوابها.

ولهذا المعنى قالَ ﷺ في الحديثِ الصَّحيحِ حديثِ جريرِ بنِ عبدِ اللهِ البَجَلِيِّ: «إنَّكمْ لَترونَ ربَّكمْ يومَ القيامةِ كما ترونَ هذا القمرَ ليلةَ البَدْرِ لا تُضامُّونَ في رُؤيتِه». قالَ: «فإنِ استطعتُمْ أنْ لا تُغْلَبوا عنْ صلاةٍ قبْلَ طلوعِ الشَّمسِ وقبْلَ غروبِها فافعلوا». ثمَّ قرأَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾[1].

لَمَّا كانَ هذانِ الوقتانِ في الجنَّةِ وقتاً للرُّؤيةِ في حقِّ خواصِّ أهلِ الجنَّةِ، حضَّ ﷺ على المحافظةِ على الصَّلاةِ في هذَينِ الوقتَينِ في الدُّنيا، فمَنْ حافَظَ على هاتَينِ الصَّلاتَينِ في الدُّنيا في هذين الوقتين، وصلَّاهما على أكمَلِ وجوهِهما وخُشوعِهما وحُضورِهما وأدائهما، فإنَّه يُرجى له أنْ يكونَ مِمَّنْ يرى اللهَ في هذَينِ الوقتَينِ في الجنة، لا سِيَّما إنْ حافظَ بعدَهما على الذِّكْرِ وأنواعِ العباداتِ حتَّى تطلُعَ الشَّمسُ أوْ تغرُبَ، فإنْ وصَلَ العبدُ ذلكَ بدُلْجَةِ آخِرَ اللَّيلِ فقدِ اجتمَعَ له السَّيْرُ في الأوقاتِ الثَّلاثةِ، وهيَ الدُّلْجَةُ والغَدْوَةُ والرَّوْحَةُ، فيُوشِكُ أنْ يُعْقِبَه الصِّدْقُ في هذا السَّيْرِ الوُصولَ الأعظمَ إلى ما يطلُبُه في مَقْعَدِ صِدْقٍ عند مليكٍ مُقتدِرٍ.

مَنْ لزِمَ الصِّدْقَ في طلَبِه أدَّاه الصِّدْقُ إلى مَقْعَدِ الصِّدْقِ، ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢].

المحبُّ لا يقطَعُ السُّؤالَ عمَّنْ يُحِبُّ، ويتجسَّسُ الأخبارَ، ويتنسَّم[2] الرِّياحَ، ويستدِلُّ بالآثارِ لسُلوكِ الطَّريقِ إلى محبوبِه.

أُسائِلُكُمْ عنها فهلْ مِنْ مُخَبِّرٍ ... فما لي بنُعْمٍ[3] بعدَ مَكَّتِنا عِلْمُ

(١) أخرجه البخاري (٥٥٤) (٥٧٣) (٤٨٥١) (٧٤٣٤) (٧٤٣٦)، ومسلم (٦٣٣).

(٢) في (س) و(ع): «يشتم» «يشم».

(٣) في (س): «بنعمى».

فلَوْ كنتُ أدري أينَ خيَّمَ أهلُها ... وأيَّ بلادِ اللهِ إذ ظَعَنوا أمُّوا

إذاً لسَلَكْنا مَسْلَكَ الرِّيحِ خلْفَها ... ولوْ أصبحَتْ نُعْمٌ[1] ومِنْ دونِها النَّجْمُ[2]

لقدْ كبُرَتْ هِمَّةٌ اللهُ مطلوبُها[3]، وشرُفَتْ نفسٌ[4] اللهُ محبوبُها.

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢].

ما للمُحِبِّ سِوى إرادةِ حُبِّه ... إنَّ المُحِبَّ بكلِّ بِرٍّ يضرَعُ[5]

قيمةُ كلِّ امرئٍ ما يطلُبُ، فمَنْ كانَ يطلُبُ اللهَ فلا قيمةَ له[6] مِنْ طلَبِ اللهِ، فهوَ أجلُّ مِنْ أنْ يقوَّمَ، ومَنْ طَلَبَ غيرَه فهوَ أخسُّ مِنْ أنْ يكونَ له قيمةٌ.

قالَ الشِّبْلِيُّ: مَنْ ركَنَ إلى الدُّنيا أحرَقَتْهُ بنارِها، فصارَ رَماداً تذْروهُ الرِّياحُ، ومَنْ ركَنَ إلى الآخرةِ أحرَقَتْه بنورِها، فصارَ سَبيكةَ ذهَبٍ يُنتَفَعُ به، ومَنْ ركَنَ إلى اللهِ أحرَقَه نورُ التَّوحيدِ، فصارَ جَوْهراً لا قِيمةَ له[7].

---

(١) في (س): «نعمى».

(٢) الأبيات لأبي سعيد الخراز رحمه الله تعالى، كما أخرجه السلمي في «طبقات الصوفية» (ص: ١٨٦)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ٢٤٨)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥/ ١٤٢). وعنده: «نعمى».

(٣) في (ع): «مع الله مطلبها».

(٤) في (ع): «نفوس مع»، وفي (س): «نفوس».

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (١٢١) من شعر رجل من الأزد.

(٦) يعني لا قيمة له من عظمته فهو أعلى من أن يقوَّم.

(٧) ذكره المصنف أيضاً في «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٤١٨)، وذكره الغزالي في «إحياء علوم الدين» (٤/ ٢٦٩) في كتاب ذم الدنيا من كلام أبي الحسين بندار بن الحسين الشيرازي صاحب الشبلي، وعزاه الزبيدي في «إتحاف السادة المتقين» (٩/ ٥٧٥) إلى أبي نعيم في «الحلية»، ولم أجده فيه.

له هِمَمٌ لا مُنتَهى لكِبارِها وهِمَّتُه[١] الصُّغرى أجلُّ مِن الدَّهر[٢]

سُئِلَ الشِّبْلِيُّ: هلْ يقنَعُ المُحِبُّ بشيءٍ مِنْ حَبيبِه قبْلَ مُشاهدتِه؟ فأنشَدَ:

واللهِ لوْ أنَّكَ توَّجْتَنِي بتاجِ كِسْرى مَلِكِ المَشْرِقِ

ولوْ بأموالِ الورى جُدْتَ لي أموالِ مَنْ بادَ ومَنْ قدْ بقِي

وقلتَ لي: لا نلتقي ساعةً اخترْتُ يا مولايَ أنْ نلتقِي[٣]

مَنْ كبُرَتْ هِمَّتُه لمْ يرْضَ بطلب شيءٍ سِوى اللهِ سبحانَه وتعالى.

كلُّ غَدْوي ورَواحي في مسائي وصباحي

وكذا ذِكْرُكَ رُوحي ثمَّ[٤] رَيْحاني وراحي

وحبك في قلبي نعيمي وأفراحي

أنتَ سُؤْلي ونَصيبي ومُرادي لنَجاحي

يا غِياثي ومَلاذي لِرَشادي وصَلاحي[٥]

---

(١) في (س) و(ع): «لهم همم.... وهمتهم الصغرى».

(٢) البيت لبكر بن النطاح قاله للأمير أبي دُلَف، كما في «الكامل» للمبرد (٢/ ٦٠٠)، وقيل: لعلي بن جبلة، كما في «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٤٩/ ١٣٢)، والظاهر أن البيت أقدم منهما ذكره دُغفل بحضرة معاوية رضي الله عنه كما في «تاريخ دمشق» (١٧/ ٣٠٢). والله أعلم.

(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٦/ ٦٥). وهو قسم مفقود استدرك من المختصر. وذكره المصنف في «لطائف المعارف» (ص: ١٠٣) من طبعة دار ابن حزم.

(٤) في (س) و(ع): «في ثم».

(٥) لم أجد الأبيات عند غير المصنف رحمه الله والمثبت من (ج) وفي (ص): «إليك غُدُوي ورواحي»، «وأنت قصدي وسؤلي».

وهنا تنتهي النسخة (ص)، وكتب في آخرها: «آخره والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً».

فصلٌ

في قولِه تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]

هذه الآيةُ كانَتْ تشتَدُّ على الخائفِينَ مِنَ العارفينَ، فإنَّها تقتَضي أنَّ مِنَ العِبادِ مَنْ يَبْدو له عندَ لقاءِ اللهِ ما لَمْ يكنْ يحتسِبُ؛ مِثْلَ أنْ يكونَ غافِلاً عمَّا بينَ يديه، مُعْرِضاً عنه، غيرَ مُلْتَزِمِه[١]، ولا يحتسِبُ له، فإذا كُشِفَ الغِطاءُ عاينَ تلكَ الأهوالَ الفَظيعةَ، فبدا له ما لَمْ يكنْ في حِسابه.

ولهذا قالَ عمرُ رضي الله عنه: لوْ أنَّ لي مِلْءَ الأرضِ ذهَباً لافتديْتُ به مِنْ هَوْلِ المَطْلَعِ[٢].

وفي الحديثِ: «لا تمَنَّوا الموتَ، فإنَّ هَوْلَ المـطْلَعِ شديدٌ، وإنَّ مِنْ سعادةِ العبد[٣] أنْ يطولَ عمرُه، ويرزُقَه اللهُ الإنابةَ»[٤].

قـالَ بعـضُ حُكَماءِ السَّـلَفِ: كمْ مِـنْ مَوْقِفِ خِزْيٍ يـومَ القيامةِ لـمْ يخطُرْ على بالكَ قطُّ[٥].

ونظيـرُ هـذا قولُـه تعالـى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

---

(١) رسمت في (ع): «عامل به». وفي (ج): «منكوبة» وكتب في الحاشية: «العلها: مكترث».

(٢) هو في قصة استشهاده رضي الله عنه: أخرجه مطولًا ابن حبان في «صحيحه» (٦٩٠٥)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٩١). وهو في «المسند» (٣٢٢) بلفظ آخر.

(٣) في (س) و(ع): «المرء» وهو موافق لما في «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٥٥٦٢).

(٤) أخرجه الإمام أحمد (١٤٥٦٤)، وفي «الزهد» (١١٧) واللفظ له، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠١٠٥) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٥) لم أجده عند غير المصنف رحمه الله.

ويشتمِلُ على ما هوَ أعَمُّ مِنْ ذلكَ، وهوَ أنْ يكونَ له أعمالٌ يرجو بها الخَيْرَ، فتَصيرُ هَباءً مَنْثوراً، وتُبدَّلُ سيِّئاتٍ.

وقدْ قالَ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ الآيةَ [النور: ٣٩].

وقالَ تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

قالَ الفُضَيلُ في هذه الآيةِ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]، قالَ: عمِلوا أعمالاً فحسِبوا أنَّها حسناتٌ، فإذا هيَ سيِّئاتٌ[١].

وقريبٌ مِنْ هذا أنْ يعمَلَ الإنسانُ ذَنْباً يحتَقِرُه ويستهْوِنُ به فيكون هو سبب هلاكه، كما قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

وقالَ بعضُ الصَّحابةِ: إنَّكمْ لتعمَلونَ أعمالاً هيَ أدقُّ في أعيِنِكمْ مِنَ الشَّعَرِ، كُنَّا نعُدُّها على عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ مِنَ الموبقاتِ[٢].

وأصعَبُ مِنْ هذا مَنْ زُيِّنَ له سُوءُ عمَلِه فرآه حسَناً، قالَ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤].

قالَ ابنُ عُيَيْنَةَ: لمَّا حضرَتْ محمَّدَ بنَ المُنْكَدِرِ الوفاةُ جزِعَ، فدعَوا له أبا حازمٍ، فجاءَه[٣] فقالَ له ابنُ المُنْكَدِرِ: إنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾

---

(١) أخرجه ابن معين في «معرفة الرجال» (٢/ ٦٩)، ومن طريقه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (١٥/ ٣٥٣). وبكى ابن معين عند ذكره.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٩٢) من كلام أنس رضي الله عنه.

(٣) في (س) و(ج): «فجاء».

[الزمر: ٤٧]، فأخافُ أنْ يبدوَ لي مِنَ اللهِ ما لمْ أكنْ أحتسِبُ، فجعَلا يبكيانِ جَميعاً. خرَّجَه ابنُ أبي الدُّنيا وابنُ أبي حاتمٍ.

وزادَ ابنُ أبي الدُّنيا: فقالَ له أهلُه[1]: دعوْناكَ لتُخَفِّفَ عليه فزِدتَّه[2].

وقالَ الفُضَيلُ بنُ عِياضٍ: أُخبِرْتُ عنْ سليمانَ التَّيْمِيِّ أنَّه قيلَ له: أنتَ أنتَ ومَنْ مِثْلُكَ؟! فقالَ: مَهْ، لا تقولوا هذا، لا أدري ما يبدو لي مِنَ اللهِ، سمعتُ اللهَ يقولُ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧][3].

وكانَ سفيانُ الثَّورِيُّ عندَ هذه الآيةِ يقولُ: ويلٌ لأهلِ الرِّياءِ مِنْ هذه الآيةِ[4].

وهذا كما في حديثِ الثَّلاثةِ الَّذينَ هُمْ أوَّلُ مَنْ تُسعَّرُ بهمُ النَّارُ: العالِمُ، والمـُتصدِّقُ، والمـُجاهِدُ[5].

وكذلكَ مَنْ عمِلَ أعمالاً صالحةً وكانتْ عليه مظالِمُ، فهوَ يظُنُّ أنَّ أعمالَه تُنْجيه، فيبدو له مِنَ اللهِ ما لمْ يكنْ يحتسِبُ، فيقتسِمُ الغُرماءُ أعمالَه كلَّها، ثمَّ يفضُلُ لهمْ فَضْلٌ، فيُطْرَحُ مِنْ سيِّئاتِهمْ عليه، ثمَّ يُطْرَحُ في النَّارِ.

وقدْ يُناقَشُ الحسابَ، فيُطْلَبُ منه شُكْرُ النِّعَمِ، فأصْغَرُها تستوعِبُ أعمالَه كلَّها، وتبقى بقيَّةُ النِّعَمِ، فيُطالَبُ بشُكْرِها فيعذَّبُ.

---

(١) في (س) و(ع): «فقالوا له».

(٢) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ١٤٦). من وجهين. ولم أجده عند ابن أبي حاتم. وعند ابن أبي الدنيا في «المحتضرين» (ص: ١٧٠) قصة مشابهة عن عمر وأبي بكر ابني المنكدر.
وفي (ج) بعده: «فأخبرهم بما قال الفضيل... ».

(٣) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٣٠).

(٤) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٤/ ٥٣٥)، والزمخشري في «الكشاف» (٤/ ١٣٣). وأورده كثير من المفسرين.

(٥) أخرجه مطولًا: مسلم (١٩٠٥)، والترمذي (٢٣٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولهذا قالَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «مَنْ نوقِشَ الحسابَ عُذِّبَ»، أو «هلَكَ»[١].

وقدْ يكونُ له سيِّئاتٌ تُحبِطُ بعضَ أعمالِه وأعمالِ جوارِحِه سوى التَّوحيدِ، فيدخُلُ النَّارَ.

وفي «سننِ ابنِ ماجهْ» مِنْ روايةِ ثَوْبانَ مرفوعاً: «إنَّ مِنْ أمَّتي مَنْ يجيءُ بأعمالٍ أمثالِ الجبالِ، فيجعلُها اللهُ هباءً منثوراً».

وفيهِ: «هُمْ قومٌ مِنْ جِلْدَتِكُمْ، ويتكلَّمونَ بألسِنتِكُمْ، ويأخذونَ مِنَ اللَّيلِ كما تأخذونَ، ولكنَّهمْ قوم إذا خلَوا بمحارمِ اللهِ انتهَكوها»[٢].

وخرَّجَ يعقوبُ بنُ شيبةَ وابنُ أبي الدُّنيا مِنْ حديثِ سالمٍ مولى أبي حذيفةَ مرفوعاً: «لَيَجيئنَّ يومَ القيامةِ أقوامٌ معهمْ مِنَ الحسناتِ مِثْلُ جبالِ تِهامةَ، حتَّى إذا جيءَ بهمْ جعَلَ اللهُ أعمالَهمْ هباءً، ثمَّ أكَبَّهمْ في النَّارِ». قالَ سالِمٌ: خشيتُ أنْ أكونَ منهم. قالَ: «أما إنَّهمْ كانوا يصومونَ ويُصلُّونَ ويأخذونَ هُنَيْهَةً[٣] مِنَ اللَّيلِ، لعلَّهمْ كانوا إذا عَرَضَ لهمْ شيءٌ مِنَ الحرامِ أخذوه، فأدحَضَ اللهُ أعمالَهمْ»[٤].

وقدْ يُحْبِطُ اللهُ العمَلَ بآفَةٍ مِنْ رياءٍ خفيٍّ وعُجْبٍ به ونحوِ ذلكَ، ولا يشعُرُ بـه صاحِبُه.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٣٦) (٦٥٣٧)، ومسلم (٢٨٧٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد (٤٢٤٥)، وليس فيه قوله: «ويتكلمون بألسنتكم».

(٣) في (س) و(ع): «هنيئة». وهي تحريف من «هُنَيّة» أي قليلًا من الزمان، وهو تصغير هَنَه، ويقال: هنيهة أيضاً، ولم ترد في مصادر التخريج سوى «معرفة الصحابة» بلفظ: «هنة».

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الأهوال» (٢٧١)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٧٧)، وفي «معرفة الصحابة» (٣٤٤١).

قالَ ضَيْغَمٌ العابِدُ: إنْ لمْ تأتِ الآخرةُ المؤمنَ بالسُّرورِ، لقدِ اجتمَعَ عليه همَّانِ: همُّ الدُّنيا، وشقاءُ الآخرةِ، فقيلَ له: كيفَ لا تأتيه الآخرةُ بالسُّرورِ وهوَ يتعَبُ في دارِ الدُّنيا ويدأبُ، قالَ: كيفَ بالقَبولِ؟! كيفَ بالسَّلامةِ؟! كمْ رجلٍ يرى أنَّه قدْ أصلَحَ هِمَّتَه، يُجْمَعُ ذلكَ كلُّه يومَ القيامةِ، ثمَّ يُضْرَبُ به وجهُه[١].

ومِنْ هنا كانَ عامرُ بنُ عبدِ قيسٍ وغيرُه يقْلقون مِنْ هذه الآيةِ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧][٢].

وقالَ ابنُ عَوْنٍ: لا تثِقْ بكثرةِ العمَلِ، فإنَّكَ لا تدري أيُقْبَلُ منكَ أمْ لا؟! ولا تأمَنْ من ذنوبِكَ، فإنَّكَ لا تدري هلْ كُفِّرت عنكَ أمْ لا؟! إنَّ عمَلَكَ مُغيَّبٌ عنكَ كلُّه، لا تدري ما اللهُ صانعٌ به[٣].

وبكى النَّخعِيُّ عندَ الموتِ وقالَ: أنتظِرُ رسولَ ربِّي، ما أدري أيُبَشِّرُني بالجنَّةِ أمْ بالنَّارِ[٤].

وجزِعَ غيرُه عندَ الموتِ، فقيلَ له: لِمَ تجزَعُ؟ قالَ: إنَّما هيَ ساعةٌ، ولا أدري أينَ يُسْلَكُ بي؟![٥]

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» (٨١).

(٢) أخرج ابن أبي الدنيا في «المحتضرين» (١٨٠): أن عامر بن عبد الله وهو ابن عبد قيس رحمه الله بكى في مرضه الذي مات فيه بكاء شديداً، فقيل له: ما يبكيك يا أبا عبد الله؟ قال: آية في كتاب الله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (٦٣)، ومن طريقه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٩٣٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣١/ ٣٦٤).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المحتضرين» (١٤٨) (٢٠٢)، ومن وجه آخر: ابن زبر في «وصايا العلماء» (ص: ١٠٨)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (ص: ٢٢٤).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المحتضرين» (٣٣٤) من كلام أبي عطية المذبوح رحمه الله تعالى.

وجزعَ بعضُ الصَّحابةِ عندَ موتِه، فسُئِلَ عنْ حالِه، فقالَ: إنَّ اللهَ قبَضَ خلْقَه قبْضتَينِ: قَبْضةً للجنَّةِ، وقَبْضَةً للنَّارِ، ولستُ أدري في أيِّ القَبْضتَينِ أنا[1].

ومَنْ تأمَّلَ هذا حقَّ التَّأمُّلِ أوجبَ لـه القلَقَ، فإنَّ ابـنَ آدمَ مُتعـرِّضٌ لأهوالٍ عظيمـةٍ مِـنَ المـوتِ وأهـوالِ القبـرِ وأهـوال البـرْزخِ وأهـوالِ الموقـفِ والصِّراطِ والميزانِ، وأعظَـمُ مِـنْ ذلـكَ الوقـوفُ بيـنَ يـديِ اللهِ عـزَّ وجـلَّ ودخـولُ النَّـارِ، ويخشـى على نفْسِـه الخلودَ فيها بأنْ يُسْـلَبَ إيمانَه عندَ الموتِ، ولـمْ يأمنِ المؤمنُ شـيئاً مـنْ هـذه الأمـورِ، و﴿لَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [الأعـراف: ٩٩]، فتحقيقُ هذا يمنَعُ ابنَ آدمَ القَرارَ.

رأى بعضُهمْ قائلاً يقولُ له:

وكيـفَ تنـامُ العيـنُ وهـيَ قريـرةٌ ... ولمْ تـدْرِ فـي أيِّ المحلَّيـنِ تنـزِلُ[2]

وسُئِلَ بعضُ الموتى ـ وكانَ عابداً مجتهِداً ـ عنْ حالِه، فأنشدَ يقولُ:

وليـسَ يَعْلَـمُ مـا فـي القبـرِ داخلَـه ... إلَّا الإلـهُ وسـاكـنُ الأجْـداثِ[3]

وقالَ غيرُه[4]:

أمَـا واللهِ لـوْ علِـمَ الأنـامُ ... لِمَا خُلِقـوا لَمَـا غفَلـوا ونامـوا

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المحتضرين» (٢٧٦) من كلام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المنامات» (١٤٥) عن رجل أتاه آت في منامه ثلاث ليال يقول له ذلك، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٥٨) من وجه آخر.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المنامات» (١٥٥) من كلام بزيع بن مسور العابد رحمه الله في رؤيا بعد وفاته.

(٤) في (ج): «وفي هذا يقول بعضهم».

لقدْ خُلِقوا لِمَا لوْ أبصَرَتْهُ عيونُ قلوبِهمْ تاهوا وهاموا

مَماتٌ ثمَّ قبرٌ ثمَّ حشْرٌ وتوبيخٌ وأهوالٌ عظامُ

ليومِ الحشرِ قدْ عمِلَتْ رجالٌ فصلَّوا مِنْ مخافَتِه وصاموا

ونحنُ إذا أُمِرْنا أوْ نُهينا[1] كأهلِ الكهفِ أيقاظٌ نِيامُ[2][3]

* * *

(١) في (ج): «نهينا أو أمرنا».

(٢) الأبيات ذكرها ابن الجوزي في «المدهش» (ص: ١٢٢).

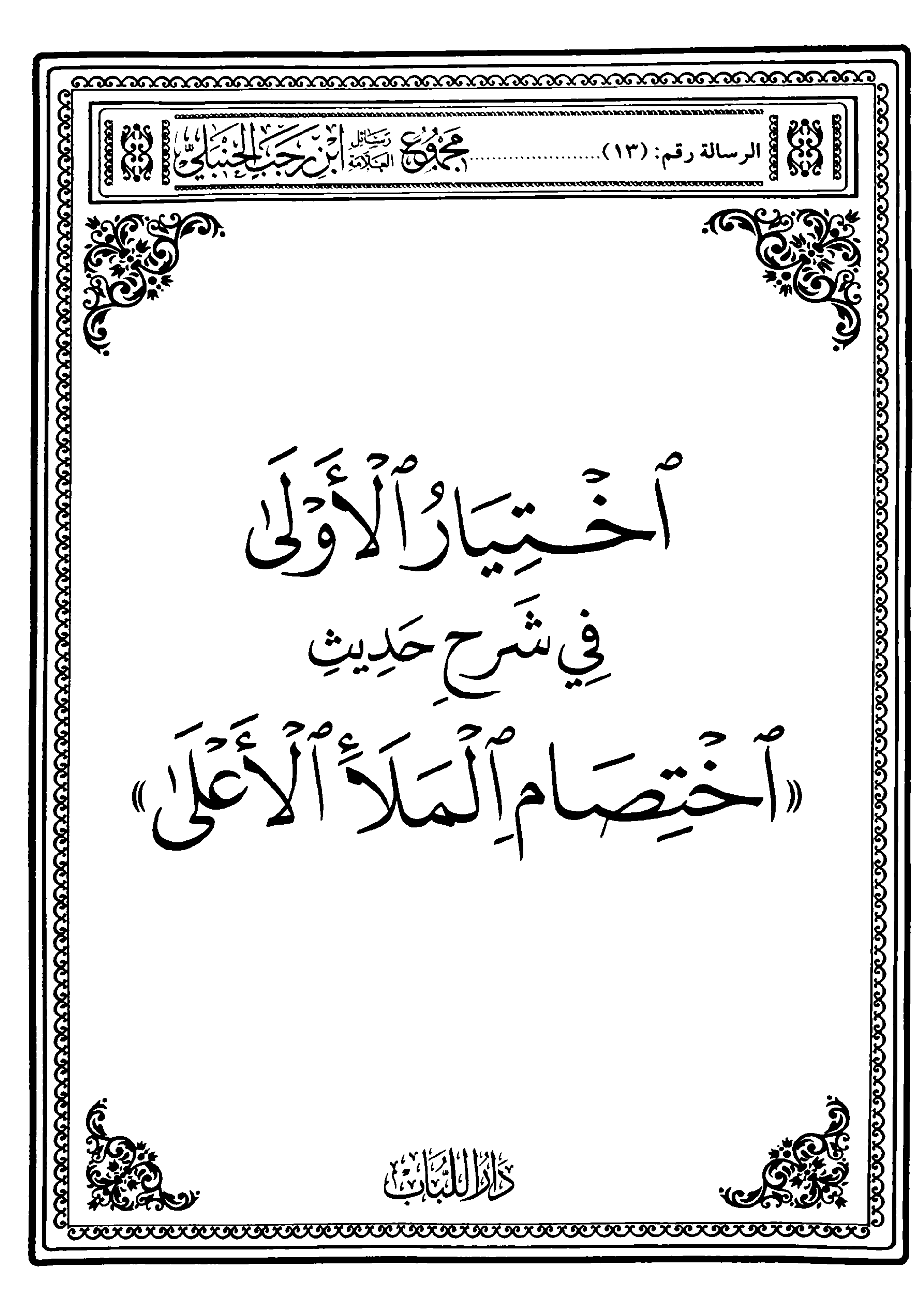
(٣) جاء في خاتمة (ج): «تمت هذه النسخة بقلم الفقير الحقير المعترف إلى ربه بالعجز والتقصير راجي عفو ربه وتوفيقه بعدما عَلَّقها لنفسه ولمن شاء الله من بعده راجي عفو ربه المنان إبراهيم بن سليمان بن حجي بن محمد بن عبد لثلاث بقين من شهر ربيع أول سنة ١١٩٤ على مهاجرها أفضل الصلاة والتسليم رحم الله من نظر إليه ودعا لكاتبه ولوالديه بالأمن يوم الفزع آمين».

وفي حاشية هذه الخاتمة: «بلغ مقابلة حسب الطاقة والحمد لله رب العالمين».

وفي خاتمة (س): «آخره والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

ويتلوه إن شاء الله: «الكلام على كلمة الإخلاص» للمؤلف المذكور». وفي الحاشية: «بلغ».

وفي (ع): «آخره: والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين. تم بقلم العبد الفقير المقر بالذنب والتقصير، راجي عفو ربه المنان سليمان بن عبد الرحمن العمري، غفر الله ولوالديه ولمشايخه وإخوانه وذريته، ولجميع المسلمين الأحياء منهم والميتين، آمين. وذلك في ٢٨ شوال سنة ١٣٣٣هـ».



اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى

دار اللباب

مكتبة شستربتي (ش)

دار الكتب الوطنية بتونس (تـ)

النبي الشاعر شعر

أشرّان مفترقان لست تراهما بتنشوان الخلطة وتلاف

طلب المعاد مع الرياسة والعلا فدع الذي يفنى لما هو باقي

تم والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين سبحان ربك

رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين

الرسالة في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى

عمل ابن رجب رحمه الله تعالى الرابعة

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين الحمد لله رب العالمين وصلاته

وسلامه على محمد خاتم النبيين وإمام ورسول رب العالمين وعلى آله

والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين خرج الإمام

أحمد من حديث معاذ بن جبل قال احتبس علينا رسول الله صلى الله

عليه وسلم ذات غداة في صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى قرن الشمس

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعا فثوب بالصلاة فتجوز

في صلاته فلما سلم قال كما أنتم على مصافكم كما أنتم ثم أقبل علينا

فقال إني سأحدثكم ما حبسني عنكم الغداة إني قمت من الليل

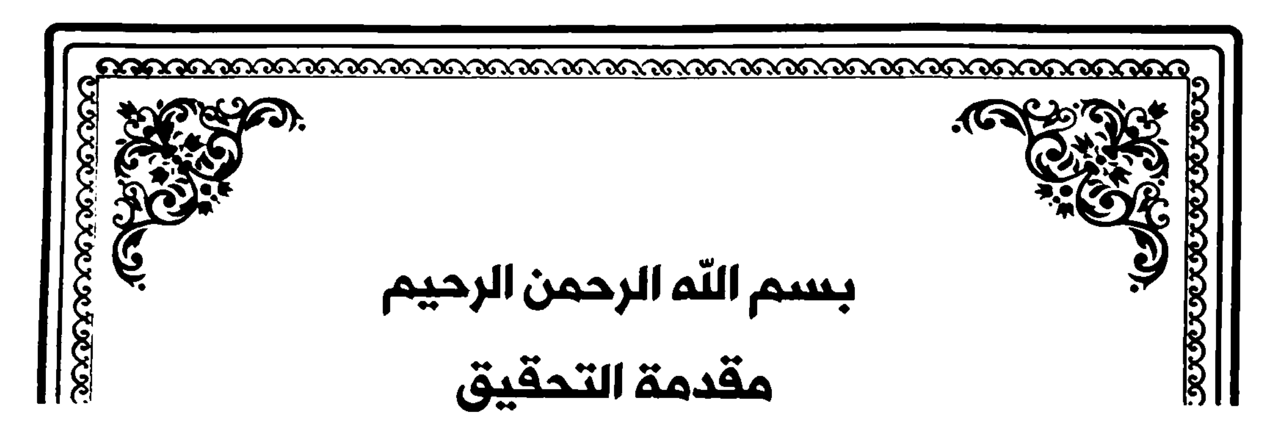
فصليت ما قدر لي فنعست في صلاتي حتى استثقلت فإذا

أنا بربي عز وجل في أحسن صورة فقال يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى

قلت لا أدري رب قال يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى قلت

لا أدري رب قال يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى قلت لا أدري

مكتبة الفاتح في اسطنبول (ف)



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله المتفضِّل على عباده بالجزاء الأوفى، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صاحب لواء الحمد في المقام الأعلى، وعلى آله وأصحابه ذوي الشرف الأسمى، وعلى من تبعهم واهتدى بهديهم الأزكى.

أما بعد:

فحديث اختصام الملأ الأعلى حديث جليل، يرويه معاذ بن جبل رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، وقد شرحه المصنف رحمه الله تعالى لمن يريد العمل، ولم يدخل فيه بميدان الجدل.

فاقتصر على حظِّ العبد المقصود منه، وما يُستنبط منه من المعارف والأحكام، وذِكر الكفارات والدرجات والدعوات، وعقد لكل واحدة منها فصلاً مفرداً.

فذكرَ الكفارات: التي تمحو الخطايا والسيئات، وهي إسباغ الوضوء في الكريهات، ونقل الأقدام إلى الجمعات والجماعات، والجلوس في المساجد بعد الصلوات.

وذكر الدرجات: وهي إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة بالليل والناس نيام، وما لكلٍ من الكفارات والدرجات من الفضائل وحسن العوائد والفوائد، نصاً واستنباطاً من التنزيل العزيز، ومن كلام المصطفى الهادي ﷺ، ومن أقوال الصحابة والتابعين والعارفين رضي الله عنهم.

ثم ذكر بعد ذلك الدعوات، وهي أدعية عظيمة من أجمع الأدعية وأكملها، مما تضمن طلب كل خير وترك كل شر، وقد كان ﷺ يستحب تلك الأدعية الجامعة.

لم يخض الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى في شرح وتفسير ما لا يجوز الخوض فيه. وهذه طريقة السلف رضي الله عنهم من القرون المشهود لها بالخير.

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى مقرراً ذلك:

«وأما وصف النبي ﷺ لربه عز وجل بما وصفه به ـ أي في هذا الحديث ـ فكل ما وصف به النبي ﷺ ربه فهو حق وصدق يجب الإيمان والتصديق به، كما وصف الله عز وجل به نفسه مع نفي التمثيل عنه، ومَنْ أشكل عليه فهم شيء من ذلك واشتبه عليه، فليقل كما مدح الله تعالى به الراسخين في العلم، وأخبر عنهم أنهم يقولون عند المتشابه: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾، وكما قال النبي ﷺ في القرآن: «وما جهلتم منه فَكِلُوه إلى عالمه» خرجه الإمام أحمد والنسائي وغيرهما، ولا يتكلف ما لا علم له به، فإنه يخشى عليه من ذلك الهَلَكَة».

نعوذ بالله من الهَلَكة، ومن الخوض في الآراء المُهْلِكة.

* * *

ذكرَ هذا الكتاب للمصنف رحمه الله: ابن عبد الهادي في «الجوهر المنضد» (ص: ٥٠) فقال وهو يعدد كتبه: «وكتاب حديث اختصام الملأ الأعلى».

ونقل منه المرداوي في «الإنصاف» (١/ ٤٣٨)، والغزي في «حسن التنبه» (٣/ ٤٧٢)، والسفاريني في «كشف اللثام» (٢/ ٢٦٠) (٣/ ٤٩)، وفي «غذاء الألباب» (٢/ ٥٠٠). وهو مما يرويه الروداني في «صلة الخلف» (ص: ٢٧٦).

وقد اعتمدت في إخراج هذا الكتاب على ثلاث نسخ خطية:

١ ـ نسخة مكتبة شستربتي، ورمزها (ش).

وهي الرسالة الخامسة في ضمن المجموع (٣٢٩٢)، تقع في (٣٢) لوحة (من ص: ١٠٣ إلى ص: ١٣٤)، ومسطرتها ١٧ ـ ٢٢ سطراً.

لا يوجد اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ.

ويظهر في هذه النسخة ثلاثة خطوط مختلفة: فاللوحات العشرين الأولى يشبه خطها خط كتاب «الطب النبوي» لابن القيم في هذا المجموع، وهو بخط أحمد بن أبي بكر الطبراني الكاملي، المتوفى سنة ٨٣٥ رحمه الله تعالى[١].

ثم اللوحات التي تليها بخط آخر، وصفحة الورقة الأخيرة بخط ثالث، وهي جميعاً من خطوط القرن التاسع الهجري.

٢ ـ النسخة التونسية، ورمزها (ت).

وهي الرسالة الرابعة في ضمن المجموع (١٥٧)، وتقع في (٢٠) لوحة، (من ٢٨/ ب إلى ٤٧/ أ).

لم يذكر اسم الناسخ.

أما تاريخ النسخ: فيوم الثلاثاء ١٧ المحرم ٨٥٢.

وهي مقابلة وعلى حواشيها بلاغات وتصحيحات.

٣ ـ نسخة الفاتح، في إصطنبول، ورمزها (ف).

وهي الرسالة الرابعة في ضمن المجموع (٥٣١٨)، وتقع في (٤١) لوحة، (من ٥٩/ ب إلى ٩٨/ أ).

---

(١) انظر ترجمته في «المقصد الأرشد» لابن مفلح (١/ ٨١)، و«المنهج الأحمد» للعليمي (٥/ ٢١٤).

ناسخها: عيسى بن علي بن محمد الحوراني الشافعي.

وتاريخ الفراغ من نسخ المجموع: ٥ ربيع الأول ٨٩٣.

وعلى حواشي النسخة في أوائلها تعليقات نقلها كاتبها من «شرح الشفا» لملا علي القاري.

٤ ـ وثمة نسخة رابعة لم نرجع إليها لتأخرها، وهي نسخة مكتبة الرياض العامة السعودية، ضمن المجموع (رقم ٥٢٧/ ٨٦). وهي الرسالة الثانية منه، تقع في (٢٣) لوحة (من ١٠/أ إلى ٣٢/أ).

وعليها ختم «وقف الشيخ محمد بن عبد اللطيف».

وللكتاب نسخ أخرى.

ـ منها نسختا جامعة برنستون ـ مجموعة يهودا، رقم (٤١٦١)، والنسخة الثانية، برقم (٣١٢١).

ـ ومنها: نسختان بغداديتان، في مكتبة الأوقاف (مجموع ٤٧٥٤)، و(مجموع ٤٧٦٧).

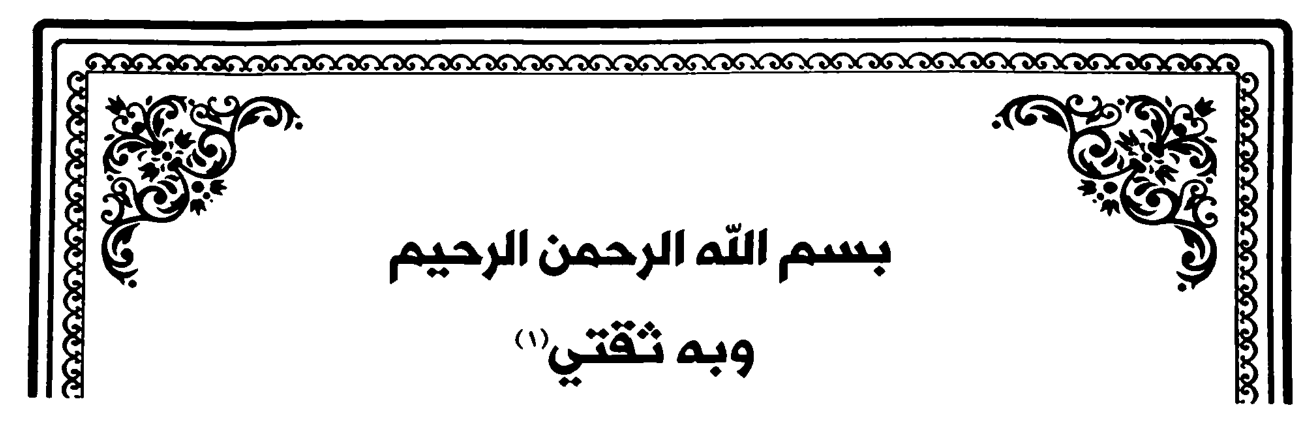
ـ ونسخة في الإمبروزيانة بإيطالية.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

كتبه

محمد مجير الخطيب الحسني

* * *



بسم الله الرحمن الرحيم
وبه ثقتي[1]

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلاتُه وسلامُه على محمَّدٍ خاتَمِ النَّبيِّين وإمامِ المتَّقين ورسولِ ربِّ العالمين، وعلى آلِه وصحبِه، والتَّابعين لهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ.

خرَّجَ الإمامُ أحمدُ [رحمَه اللهُ] مِنْ حديثِ معاذِ بنِ جبلٍ رضي الله عنه قال: احتبسَ علينا[2] رسولُ الله ﷺ ذاتَ غداةٍ في صلاة الصُّبحِ حتَّى كِدْنا نتراءَى قَرْنَ الشَّمسِ، فخرجَ رسولُ الله ﷺ سريعاً، فثُوِّبَ بالصَّلاةِ، وصلَّى، وتجوَّزَ في صلاتِه، فلمَّا سلَّمَ قال: «كما أنتم على مَصافِّكم، كما أنتم»، ثمَّ أقبلَ إلينا[3] فقال: «إنِّي سأحدِّثُكم ما حبَسَني عنكم الغداةَ، إنِّي قمتُ مِنَ اللَّيلِ فصلَّيتُ ما قُدِّرَ لي، فنعَستُ في صلاتي حتَّى استُثْقِلتُ[4]، فإذا أنا بربِّي عزَّ وجلَّ في أحسنِ صورةٍ، فقال: يا محمَّدُ! فيمَ[5] يختصِمُ الملأُ الأعلى؟ قلتُ: لا أدري ربِّ، قال: يا محمَّدُ! فيمَ يختصِمُ الملأُ الأعلى؟ قلتُ: لا أدري ربِّ، قال: يا محمَّدُ! فيمَ يختصِمُ الملأُ

---

(١) في (ت) و(ف): «وبه نستعين».

(٢) في (ش): «عنا». وهو موافق لما في «الترمذي»، ووقع في (ت) و(ف) مضبوطاً: «أُحِبس».

(٣) في (ت) و(ف): «علينا».

(٤) في «المسند»: «استيقظت»، والمثبت موافق لما في «الترمذي».

(٥) في «المسند» و«الترمذي»: «أتدري فيم..».

الأعلى؟ قلتُ: لا أدري ربِّ، فرأيتُه وضعَ كفَّه[١] بين كِتفَيَّ حتَّى وجدتُ بَرْدَ أناملِه بين[٢] صدري، وتجلَّى لِي كلُّ شيءٍ وعرفتُ، فقال: يا محمَّدُ! فيمَ يختصِمُ الملأُ الأعلى؟ قلتُ: في الكفَّاراتِ[٣].

قال: وما الكفَّاراتُ؟ قلتُ: نَقْلُ الأقدامِ إلى الجُمُعات، وجلوسٌ[٤] في المساجدِ بعد الصَّلوات، وإسباغُ الوضوءِ عند الكريهاتِ.

قال: وما الدَّرجاتُ؟ قلتُ: إطعامُ الطَّعامِ، ولِينُ الكلامِ، والصَّلاةُ والنَّاسُ نِيامٌ.

قال: سَلْ، قلتُ: اللَّهمَّ إنِّي أسألكَ فِعْلَ الخيراتِ، وتَرْكَ المنكراتِ، وحُبَّ المساكينِ، وأنْ تغفِرَ لي وترحمَني، وإذا أردتَ فتنةً في قومٍ فتوفَّنِي غيرَ مَفْتُونٍ، وأسألكَ حبَّكَ، وحُبَّ مَنْ يُحبُّكَ، وحُبَّ عملٍ يقرِّبُني إلى حُبِّكَ، وقال رسولُ اللهِ ﷺ: إنَّها حقٌّ، فادرُسُوها وتعلَّمُوها»[٥].

وخرَّجَه التِّرْمِذِيُّ وقال: حديثٌ [حسنٌ][٦] صحيحٌ، قال: وسألتُ محمَّدَ ابنَ إسماعيلَ - يعني البُخاريَّ - عن هذا، فقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ[٧].

قلتُ: وفي إسنادِه اختلافٌ، وله طرقٌ متعدِّدةٌ، وفي بعضِها زيادةٌ ونُقْصانٌ، وقد ذكرتُ عامَّةَ أسانيدِه وبعضَ ألفاظِه المختلفةِ في كتابِ «شرحِ التِّرمذيِّ»[٨].

---

(١) تصحفت في (ت) و(ف) إلى: «كفيه».

(٢) في (ش): «في».

(٣) زاد في (ش): «والدرجات» وليست في «المسند» ولا في «الترمذي».

(٤) في (ش): «والجلوس» وهو موافق للترمذي.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢١٠٩).

(٦) لا توجد في (ت) و(ف).

(٧) أخرجه الترمذي (٣٢٣٥) ولا يوجد هذا الحديث في نسخة الكروخي من «الجامع الكبير» للترمذي.

(٨) وهو من الكتب التي فقدت عند اجتياح تيمورلنك لدمشق سنة ٨٠٣هـ.

وفي بعضِ ألفاظِه عند الإمامِ أحمدَ والتِّرمِذيِّ أيضاً: «المشيُ على الأقدامِ إلى الجماعاتِ» بدلُ «الجمُعاتِ»[١].

وفيه أيضاً عندهما بعد ذكرِ الكفَّاراتِ زيادةُ: «ومَنْ فعلَ ذلكَ عاشَ بخيرٍ وماتَ بخيرٍ، وكان مِنْ خطيئتِه كيومِ ولدته أمُّهُ»[٢].

وفيه أيضاً عندهما: «والدَّرجاتُ إفشاءُ السَّلامِ» بدلُ «لينِ الكلامِ»[٣].

وفي بعضِ رواياتِه: «فَعَلِمْتُ ما في السَّماءِ والأرضِ، ثمَّ تلا: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥][٤].

وفي رواية أخرى: «فتجلَّى لي ما بين السَّماءِ والأرضِ»[٥].

وفي رواية: «ما بين المشرقِ والمغربِ»[٦].

وفي بعضِها زيادةٌ في الدُّعاءِ الَّذي فيه، وهي: «وتتوب عليَّ»[٧].

---

(١) عند الإمام أحمد في «المسند» (٢٣٢١٠) من حديث بعض أصحاب النبي ﷺ، والترمذي (٣٢٣٥) من حديث معاذ رضي الله عنه.

(٢) عند الإمام أحمد في «المسند» في الموضع السابق نفسه، وفي (٣٤٨٤) من حديث ابن عباس، والترمذي (٣٢٣٣، ٣٢٣٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) في «المسند» (٣٤٨٤)، والترمذي (٣٢٣٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) عند الإمام أحمد في «المسند» (٢٣٢١٠) من حديث بعض أصحاب النبي ﷺ، ولفظه: «حتى تجلى لي ما في السماوات وما في الأرض»، والطبري في «تفسيره» (٩/ ٣٥٤) من حديث عبد الرحمن بن عائش الحضرمي، ولفظ: «فعلمت ما في السموات والأرض»...

(٥) وهي عند الطبراني في «الدعاء» (١٤١٧) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٦) عند الترمذي (٣٢٣٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

(٧) عند الإمام أحمد في «المسند» (٢٣٢١٠) من حديث بعض أصحاب النبي ﷺ، والطبراني في الدعاء (١٤١٨) من حديث عبد الرحمن بن عائش، ولفظهما: «وأن تتوب عليَّ».

وفي بعضِها: «إسباغُ الوضوءِ في السَّبَرَاتِ[1]»[2].

وفي بعضِها: «وقال: يا محمَّدُ! إذا صلَّيْتَ فقل: اللَّهُمَّ إنِّي أسألكَ فِعْلَ الخيراتِ» فذكره[3].

والمقصودُ هاهنا شرحُ الحديثِ، وما يُستنبَطُ منه مِنَ المعارفِ والأحكامِ وغيرِ ذلك.

ففي الحديثِ: دلالةٌ على أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يكن مِنْ عادتِه تأخيرُ صلاةِ الصُّبحِ إلى قريبِ طلوعِ الشَّمسِ، وإنَّما كانت عادتُه التَّغليسَ بها، وكان أحياناً يُسْفِرُ بها عند انتشارِ الضَّوءِ على وجهِ الأرضِ، وأمَّا تأخيرُها إلى قريبِ طلوعِ الشَّمسِ فلم يكن مِنْ عادتِه، ولهذا اعتذرَ لهم عنه في هذا الحديثِ.

وقد قيل: إنَّ تأخيرَها إلى هذا الإسفارِ الفاحشِ لا يجوزُ لغيرِ عذرٍ، وإنَّه وقتُ ضرورةٍ؛ كتأخيرِ العصرِ إلى بعد اصفرارِ الشَّمسِ، وهو قولُ القاضي مِنْ أصحابِنا في بعضِ كتبِه[4]، وقد أومأَ إليه الإمامُ أحمدُ وقال: هذه صلاةُ مفرِّطٍ، إنَّما الإسفارُ أنْ ينتشِرَ الضَّوءُ على الأرضِ[5].

---

(١) «السَّبَرات» جمع «سَبْرة»: وهي الغداة الباردة، كما في «القاموس».

(٢) عند الطبراني في «الدعاء» (١٤١٥) من حديث معاذ رضي الله عنه، و(١٤١٦) من حديث أبي عبيدة رضي الله عنه.

(٣) عند الإمام أحمد في «المسند» (٣٤٨٤)، والترمذي (٣٢٣٣) واللفظ له، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) عزاه المصنف في «فتح الباري» (٤/ ٤٥٣) إلى كتاب «المجرد» للقاضي أبي يعلى.

(٥) نقله المصنف في «فتح الباري» (٤/ ٤٥٣)، وهو في «مسائل الإمام أحمد بن حنبل ـ رواية ابن هانئ» (١/ ٣٩). ونقله عن المصنف: المرداوي في «الإنصاف» (١/ ٤٣٨).

وفي الحديث: دلالةٌ على أنَّ مَنْ أخَّرَ الصَّلاةَ إلى آخرِ الوقتِ لعذرٍ أو غيرِه، وخافَ خروجَ الوقتِ في الصَّلاةِ إنْ طوَّلها أنَّه يخفِّفُها حتَّى يدركَها كلَّها في الوقتِ.

وأمَّا قولُ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه لـمَّا طوَّلَ في صلاةِ الفجرِ وقرأ بالبقرةِ، فقيل له: كادتِ الشَّمسُ أنْ تطلُعَ، فقال: لوْ طلَعَتْ لم تجدْنا غافلين[1]، فإنَّ أبا بكرٍ رضي الله عنه لم يتعمَّدِ التَّأخيرَ إلى طلوعِ الشَّمسِ، ولا أنْ يمدَّها ويُطيلَها حتَّى تطلُعَ الشَّمسُ؛ لأنَّه دخلَ فيها بغَلَسٍ وأطالَ القراءةَ، وربَّما كان قد استغرقَ في تلاوتِه، فلو طلَعَتِ الشَّمسُ حينئذٍ لم يضرَّه؛ لأنَّه لم يكن متعمِّداً لذلك، وهذا يدلُّ على أنَّه كان يرى صحَّةَ الصَّلاةِ لِمَنْ طلَعتْ عليه الشَّمسُ وهو في صلاتِه، كما أمرَ النَّبيُّ ﷺ مَنْ طلَعت عليه الشَّمسُ وقد صلَّى ركعةً مِنَ الفجرِ أنْ يُضيفَ إليها أخرى[2].

وفي حديثِ معاذٍ: دليلٌ على أنَّ مَنْ رأى رؤيا تسرُّه فإنَّه يقصُّها على أصحابِه وإخوانِه المحبِّين له، ولا سيَّما إنْ تضمَّنَتْ رؤياه بشارةً لهم وتعليماً لما ينفعُهم،

---

(١) قراءة أبي بكر رضي الله عنه سورة البقرة في صلاة الصبح، رواها:

١ ـ أنس رضي الله عنه، من وجهين:

الزهري: عند الشافعي في «اختلاف مالك» (الأم ٨/ ٦٢٩) ومن طريقه: البيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ٣٨٩). ونحوه عند عبد الرزاق (٢٧١١) وابن أبي شيبة (٣٥٦٥).

وخالفه قتادة؛ فذكر أنه قرأ بآل عمران: عند عبد الرزاق (٢٧١٢) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ١٨١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١/ ٣٧٩).

٢ـ عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي: عند الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ١٨٢).

٣ ـ عروة بن الزبير: عند الإمام مالك في «الموطأ» (١٧٩)، وعنه الشافعي في «كتاب اختلاف مالك والشافعي» (الأم ٨/ ٥٦٦) و(الأم (٨/ ٦٢٨)، ومن طريقه البيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ٣٨٩). وعند عبد الرزاق (٢٧١٣).

(٢) كما روى الإمام أحمد في المسند (١٠٣٣٩) بلفظ: «من صلى من صلاة الصبح ركعة قبل أن تطلع الشمس ثم طلعت فليصل إليها أخرى». من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد كان النَّبيُّ ﷺ إذا صلَّى الفجرَ يقولُ لأصحابِه: «مَنْ رأى منكم اللَّيلةَ رؤيا؟»[(١)].

وفيه أيضاً: أنَّ مَنِ استثقَلَ نومُه في تهجُّدِه باللَّيلِ حتَّى رأى رؤيا تسرُّه، فإنَّ في ذلك بشرى له.

وفي «مراسيل الحسن»: «إذا نامَ العبدُ وهو ساجدٌ باهى اللهُ به الملائكةَ يقولُ: يا ملائكتِي! انظروا إلى عبدِي جسدُه في طاعتي وروحُه عندي»[(٢)].

وفيه: دلالةٌ على شرَفِ النَّبيِّ ﷺ وتفضيلِه بتعليمِه ما في السماء والأرضِ، وتجلِّي ذلك له مما يختصِمُ فيه الملائكةُ في السَّماءِ وغيرِ ذلك؛ كما أُرِيَ إبراهيمُ ملكوتَ السَّماواتِ والأرضِ[(٣)].

وقد وردَ في غيرِ حديثٍ مرفوعاً وموقوفاً[(٤)]: أنَّه ﷺ أُعطِيَ عِلْمَ كلِّ شيءٍ خلا

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٦) واللفظ له، ومسلم (٢٢٧٥)، من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.

(٢) روي عن الحسن من وجوه:

١ ـ أصحها ما رواه سلام بن مسكين عن الحسن قوله. عند ابن أبي شيبة (٣٦٧٤٩) وأحمد في «الزهد» (١٦٠٦) والمروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٢٩٩).

٢ ـ ورواه عباد بن راشد عنه مرفوعاً. أشار إليه الدارقطني في «العلل» (١٥٥٢).

٣ ـ وحزم بن أبي حزم عنه مرسلاً. أشار إليه الدارقطني في «العلل» (١٥٥٢).

٤ ـ ومبارك بن فضالة وعنه ابن المبارك في «الزهد» (١٢١٣) ومن طريقه المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٢٩٨) مرسلاً. وخالفه: حجاج بن نصير فرواه عن الحسن عن أبي هريرة مرفوعاً، أخرجه ابن سمعون في «أماليه» (٥٩)، وابن شاهين في «الناسخ والمنسوخ» (١٩٥). وهو منقطع.

وقد ورد نحوه من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً: أخرجه البيهقي في «الخلافيات» (٣٨٩)، والآجري في «فضل قيام الليل» (٢٢)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤١/ ٢٩٢).

قال البيهقي: «ليس هذا بالقوي».

(٣) الآية الكريمة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥].

(٤) مرفوعاً عند الإمام أحمد (٥٥٧٩) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، ولفظه: «أوتيت مفاتيح =

مفاتيحَ الغيبِ الخمس الَّتي اختصَّ اللهُ عزَّ وجلَّ بعلمِها، وهي المذكورةُ في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ [لقمان: ٣٤] الآيةَ.

وأمَّا وصفُ النَّبيِّ ﷺ لربِّه عزَّ وجلَّ بما وصفَه به، فكلُّ ما وصَفَ به النَّبيُّ ﷺ ربَّه عزَّ وجلَّ فهو حقٌّ وصِدْقٌ يجبُ الإيمانُ والتَّصديقُ به، كما وصَفَ اللهُ عزَّ وجلَّ به نفسَه معَ نفيِ التَّمثيلِ عنه، ومَنْ أشكلَ عليه فهمُ شيءٍ مِنْ ذلك واشتبَهَ عليه، فليقُلْ كما مدَحَ اللهُ تعالى به الرَّاسخينَ في العلمِ، وأخبرَ عنهم أنَّهم يقولون عند المتشابِه: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

وكما قال النَّبيُّ ﷺ في القرآن: «وما جهِلْتُمْ منه فكِلُوه إلى عالِمِه». خرَّجه الإمامُ أحمدُ والنَّسائيُّ وغيرُهما[1]، ولا يتكلَّفُ ما لا عِلْمَ له به، فإنَّه يُخشى عليه مِنْ ذلك الهلَكَةُ.

سمِعَ ابنُ عبَّاسٍ يوماً مَنْ يروي عنِ النَّبيِّ ﷺ شيئاً مِنْ هذه الأحاديثِ[2]، فانتفضَ رجلٌ ـ استنكاراً لذلك ـ، فقال ابنُ عبَّاسٍ: ما فَرَقُ[3] هؤلاء؟ يجدون ـ

= كل شيء إلا الخمس...». وموقوفاً عند الإمام أحمد (٣٦٥٩) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ولفظه: أوتي نبيكم ﷺ مفاتيح كل شيء غيرَ خمس ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾. و(٤١٦٧) و(٤٢٥٣).

(١) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (٢٠٣٦٧)، وعنه الإمام أحمد في «المسند» (٢٧٤١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص. ولم أجده عند النسائي.

(٢) وهو حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند عبد الرزاق في باب صفة أهل النار (٢٠٨٩٣). وفيه «... فلا تمتلئ حتى يضع رجله ـ أو قال: قدمه ـ فيها، فتقول: قط، قط، قط». وليس هو حديث «إن الله خلق آدم على صورته» كما ظنه بعضهم.

(٣) في حاشية (ش): «ما بال» وهي موافقة لرواية ابن أبي عاصم، وفي «مصنف عبد الرزاق»: «فرق من».

رقَّة[١] ـ عند مُحْكَمِه، ويَهْلِكون عند مُتَشابِهه! خرَّجَه عبدُ الرَّزَّاقِ في «كتابِه» عن مَعْمَرٍ، عن ابنِ طاوسٍ، عن أبيه، عن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما[٢].

فكلَّما سمِعَ المؤمنون شيئاً مِنْ هذا الكلامِ قالوا: هذا ما أخبرَنا اللهُ به ورسولُه، وصدقَ اللهُ ورسولُه، وما زادَهم إلَّا إيماناً وتسليماً.

وفيه: دلالةٌ على أنَّ الملأَ الأعلى وهم الملائكةُ أو المقرَّبون منهم يختصِمون فيما بينهم، ويتراجَعون القولَ في الأعمالِ الَّتي تقرِّبُ بني آدمَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وتكفِّرُ بها عنهم خطاياهم، وقد أخبرَ اللهُ عنهم بأنَّهم يستغفرون للَّذين آمنوا ويَدْعون لهم[٣].

---

(١) صواب العبارة كما في «المصنف»: «يَجِدُّون عند محكمه» أي يجتهدون في فهم محكم القرآن ويجتهدون في العمل به. أما كلمة (رِقَّة) فليست من كلام ابن عباس رضي الله عنهما وليست في المصنف، وإنما هي مدرجة ممن قرأ قبلها: (يَجِدُون) تفسيراً منه لما يجدونه!.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (٢٠٨٩٥) وفي «تفسيره» (٢٩٦٠). ومدار هذا الأثر على معمر، وهو عند: ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٩٠٥٧)، ولفظه: «عن ابن عباس أنه ذكر ما يلقى الخوارج عند القرآن، فقال: يؤمنون عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه». وابن أبي عاصم في «السنة» (٤٨٥)، والطبري في «تفسيره» (٥/ ٢١٤) والهروي في «ذم الكلام وأهله» (٢٠٠) والآجري في «الشريعة» (٤٥).

(٣) كتب أحدهم في حاشية (ف): [اختصامهم: إما عبارة عن تبادرهم إلى ثَبْت تلك الأعمال والصعود بها إلى السماء، وإما عبارة عن تقاولهم في فضلها وشرفها، وإما عن اغتباطِهم الناسَ بتلك الفضائل لاختصاصهم بها. خلخالي رحمه الله]. والخلخالي: لعله محمد بن مظفر، شمس الدين الخطيبي، المتوفى قريب (سنة ٧٤٥هـ) له «شرح المصابيح» واسمه «المفاتيح في حل المصابيح» المترجم في «الدرر الكامنة» لابن حجر (٤/ ٢٦٠). وخلط الزركلي بينه وبين حسين الحسيني، المتوفى سنة (١٠١٤هـ).

وفي الحديثِ الصَّحيحِ: «إنَّ اللهَ إذا أحبَّ عبداً نادى: يا جبريلُ! إنِّي أحبُّ فلاناً، فأحبَّه فيحبُّه جبريلُ، ثمَّ يُنادِي في السَّماءِ: إنَّ اللهَ يحِبُّ فلاناً فأحبُّوه، فيحبُّه أهلُ السَّماءِ، ثمَّ يُوضَعُ له القَبولُ في الأرضِ»[1].

وقال أبو هريرة: إذا ماتَ ابنُ آدمَ قال النَّاسُ: ما خلَّفَ؟ وقالت الملائكةُ: ما قدَّمَ؟[2].

فالملائكةُ يسألون عن أعمالِ بني آدمَ، ولهم اعتناءٌ بذلك واهتمامٌ به.

وبقِيَ الكلامُ على المقصودِ مِنَ الحديثِ، وهو ذكرُ الكفَّاراتِ والدَّرجاتِ والدَّعواتِ، ونعقِدُ لكلٍّ واحدةٍ منها فَصْلاً مُفْرداً.

* * *

(١) أخرجه البخاري في مواضع منها (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧). وما هنا أقرب إلى لفظه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه بنحوه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٩٩٢) من حديث أبي هريرة يبلغ به.

الفصلُ الأوَّلُ
في ذكرِ الكفَّاراتِ

وهي: إسباغُ الوضوءِ في الكريهاتِ، ونَقْلُ الأقدامِ إلى الجمُعاتِ والجَماعاتِ، والجلوسُ في المساجدِ بعدَ الصَّلواتِ، وسمِّيَتْ هذه كفَّاراتٍ؛ لأنَّها تكفِّرُ الخطايا والسَّيِّئاتِ، ولذلك جاء في بعضِ الرِّواياتِ: «مَنْ فعلَ ذلك عاش بخيرٍ ومات بخيرٍ، وكان مِنْ خطيئَتِه كيومِ ولدته أمُّهُ»(١).

وهذه الخِصالُ المذكورةُ الأغلبُ عليها: تكفيرُ السَّيِّئاتِ، ويحصُلُ بها أيضاً رفعُ الدَّرجاتِ؛ كما في «صحيحِ مسلمٍ» عن أبي هريرةَ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «ألا أدلُّكم على ما يمحو اللهُ به الخطايا، ويرفَعُ به الدَّرجاتِ؟»، قالوا: بلى يا رسولَ اللهِ، قال: «إِسْباغُ الوُضوءِ على المكارِهِ، وكثرةُ الخُطا إلى المساجدِ، وانتظارُ الصَّلاةِ بعدَ الصَّلاةِ، فذلكم الرِّباطُ، فذلكم الرِّباطُ»(٢).

وقد رُوِيَ هذا المعنى عن النَّبيِّ ﷺ مِنْ وجوهٍ متعدِّدةٍ.

فهذه ثلاثةُ أسبابٍ تكفَّرُ بها الذُّنوبُ:

أحدُها: الوضوءُ.

وقد دلَّ القرآنُ على تكفيرِه الذُّنوبَ في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ﴾، إلى قولِه: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ [المائدة: ٦] الآياتِ.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥١).

فقولُه تعالى: «لِيطهِّرَكم» يشملُ طهارةَ ظاهرِ البدنِ بالماءِ، وطهارةَ الباطنِ مِنَ الذُّنوبِ والخطايا.

وإتمامُ النِّعمةِ إنَّما يحصُلُ بمغفرةِ الخطايا[١] وتكفيرِها، كما قال اللهُ تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ [الفتح: ٢].

وقد استنبطَ هذا المعنى محمَّدُ بنُ كعبٍ القُرَظِيُّ[٢]، ويشهَدُ له الحديثُ الَّذي خرَّجَه التِّرْمِذِيُّ وغيرُه عن معاذٍ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ سمِعَ رجلاً يدعو يقولُ: أسأَلُكَ تمامَ النِّعمةِ، فقال له: «أتدري ما تمامُ النِّعمةِ؟»، قال: دعوةٌ دعوتُ بها أرجو بها الخيرَ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «إنَّ تمامَ النِّعمةِ النَّجاةُ مِنَ النَّارِ ودخولُ الجنَّةِ»[٣]. فلا تتمُّ نعمةُ اللهِ على عبدِه إلَّا بتكفيرِ سيِّئاتِه.

وقد تكاثَرَتِ النُّصوصُ عن النَّبيِّ ﷺ بتكفيرِ الخطايا بالوضوءِ؛ كما في «صحيحِ مسلمٍ» عن عثمانَ رضي الله عنه أنَّه توضَّأَ ثمَّ قال: رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ توضَّأَ مثلَ وُضوئِي هذا، ثمَّ قال: «مَنْ توضَّأَ هكذا غُفِرَ له ما تقدَّمَ مِنْ ذَنْبِه، وكانت صلاتُه ومشيُه إلى المسجدِ نافلةً»[٤].

---

(١) في (ش): «الذنوب» وفي حاشيتها: «الخطايا».

(٢) نقله البغوي في «تفسيره» (٣/ ٢٥). قال: إتمام النعمة: تكفير الخطايا بالوضوء في تفسير آية الوضوء من سورة المائدة. وذكره المصنف ابن رجب في «لطائف المعارف» (ص ٤٨٧).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٢٧) إلا أن فيه: «فإن من تمام النعمة دخول الجنة، والفوز من النار»، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن»، وهو عند الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٠١٧)، والطبراني في «الكبير» (٩٨).

(٤) أخرجه مسلم (٢٢٩).

وفيه أيضاً: عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَنْ توضَّأ فأحسنَ الوُضوءَ خرَجَتْ خطاياه مِنْ جسدِه حتَّى تخرُجَ مِنْ تحتِ أظفارِه»(١).

وفيه أيضاً: عن أبي هريرةَ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إذا توضَّأَ العبدُ المسلمُ أو المؤمنُ فغسلَ وجهَه، خرَجَ مِنْ وجهِه كلُّ خطيئةٍ نظرَ إليها بعينيه مع الماءِ أو مع آخرِ قَطْرِ الماءِ، فإذا غسَلَ يديه خرَجَ مِنْ يديه كلُّ خطيئةٍ كان بطشَتْها يداه مع الماءِ أو مع آخر قَطْرِ الماءِ، فإذا غسلَ رجليه خرَجَتْ كلُّ خطيئةٍ مشَتْها رجلاه مع الماءِ أو مع آخر قَطْرِ الماءِ، حتَّى يخرُجَ نقياً مِنَ الذُّنوبِ»(٢).

وفيه أيضاً: عن عمرو بنِ عَبَسَةَ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «ما منكم مِنْ رجلٍ يُقَرِّبُ وَضوءَه فيتمضمَضُ ويستنشِقُ فينتثِرُ إلَّا خرَجت خطايا وجهِه وفيهِ وخياشيمِه، ثمَّ إذا غسلَ وجهَه كما أمرَه اللهُ إلَّا خرَجت خطايا وجهِه مِنْ أطرافِ لحيتِه معَ الماءِ، ثمَّ يغسِلُ يديه إلى المِرْفَقين إلَّا خرَجتْ خطايا يديه مِنْ أناملِه مع الماءِ، ثمَّ يمسَحُ رأسَه إلَّا خرَجتْ خطايا رأسِه مِنْ أطرافِ شعرِه مع الماء، ثمَّ يغسِلُ قدميه إلى الكعبين إلَّا خرَجَتْ خطايا رجليه مِنْ أناملِه مع الماءِ، فإنْ هو قامَ فصلَّى فحمِدَ اللهَ وأثنى عليه ومجَّدَه بالَّذي هو أهل له، وفرَّغَ قلبَه للهِ إلَّا انصرَفَ مِنْ خطيئتِه كهيئتِه يومَ ولدته أمُّهُ»(٣).

وفي «الموطَّأِ» و«مسندِ الإمامِ أحمدَ» و«سننِ النَّسائيِّ» و«ابنِ ماجَهْ» عن الصُّنابِحِيِّ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إذا توضَّأَ العبدُ المؤمنُ فمضمَضَ خرجَتِ الخطايا مِنْ فيه، فإذا استنثرَ خرجَتِ الخطايا مِنْ أنفِه، فإذا غسلَ وجهَه خرَجَتِ الخطايا مِنْ وجهِه حتَّى تخرُجَ مِنْ تحتِ أشفارِ عينيه، فإذا غسَلَ يديه خرَجَتِ الخطايا مِنْ يديه

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٤).

(٣) أخرجه مسلم (٨٣٢). إلا أن عنده: «خرَّت» بدلًا من «خرجت» في أربعة مواضع. وعنده: «بالذي هو له أهل». وفي (ت) و(ف): «بالذي هو أهله».

حتَّى تخرُجَ مِنْ تحت أظفارِ يديه، فإذا مسَحَ برأسِه خرَجَتِ الخطايا مِنْ رأسِه حتَّى تخرُجَ مِنْ أذنيه، فإذا غسَلَ رجليه خرَجَتِ الخطايا مِنْ رجليه حتَّى تخرُجَ مِنْ تحت أظفارِ رجليه، ثمَّ كانَ مشيُه إلى المسجدِ وصلاتُه نافلةً»[1].

وفي «المسندِ» عن أبي أُمامةَ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «ما مِنْ مسلمٍ يتوضَّأُ فيغسِلُ يديه ويمضمضُ فاه ويتوضَّأُ كما أمرَ اللهُ إلَّا حطَّ اللهُ عنه يومئذٍ ما نطَقَ به فمُه، وما مسَّ بيديه[2]، وما مشى إليه، حتَّى إنَّ الخطايا تَحادَرُ مِنْ أطرافِه، ثمَّ إذا هو مشى إلى المسجد فرِجْلٌ تَكْتُبُ حسنةً، وأخرى تَمْحا[3] سيِّئةً»[4].

وفيه أيضاً عن النبي ﷺ قال: «أيُّما رجلٍ قامَ إلى وُضوئِه يريدُ الصَّلاةَ، ثمَّ غسلَ كفَّيه نزلتْ خطيئتُه مِنْ كفَّيهِ مع أوَّلِ قطرةٍ، فإذا مضمضَ واستنشقَ واستنثرَ نزلت خطيئتُه مِنْ لسانِه وشفتيه مع أوَّلِ قطرةٍ، فإذا غسلَ وجهَه نزلتْ خطيئتُه مِنْ سمعِه وبصرِه مع أوَّلِ قطرةٍ، فإذا غسلَ يديه إلى المِرْفَقين ورجليه إلى الكعبين، سَلِمَ مِنْ كلِّ ذنبٍ هو له ومِنْ كلِّ[5] خطيئةٍ كهيئتِه يومَ ولدته أمُّهُ، فإذا قامَ إلى الصَّلاةِ رفعَ اللهُ بها درجتَه، وإنْ قعدَ قعدَ سالماً»[6].

---

(١) أخرجه الإمام مالك في «الموطأ» (٦٦)، والإمام أحمد في «المسند» (١٩٠٦٤)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٧) واللفظ له، وابن ماجه (٢٨٢).

(٢) في (ش): «بيده».

(٣) في (ش): «تمحو».

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧٩٩٥). وهو ليس في «مسند أحمد» ولم يذكره الحافظ ابن حجر في «إتحاف المهرة» ولا في «إطراف المسند المعتلي».

(٥) في (ش): «وكان من كل».

(٦) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٢٦٧).

وفي المعنى أحاديثُ أُخَرُ، وفيما ذكرناه كفايةٌ.

وقد وردَتِ النُّصوصُ أيضاً بحصولِ الثَّوابِ على الوضوءِ، وهذا زيادةٌ على تكفيرِ السَّيِّئاتِ به، ففي «صحيحِ مسلمٍ» عن عمرَ رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَنْ توضَّأَ فأحسنَ الوضوءَ، ثمَّ قال: أشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له[1]، وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، فُتِحَتْ له أبوابُ الجنَّةِ الثَّمانيةِ يدخل مِنْ أيِّها شاءَ»[2].

وفيه أيضاً: عن أبي هريرةَ، عن النَّبيِّ ﷺ: «تبلُغُ الحِلْيَةُ مِنَ المؤمنِ حيثُ يبلُغُ الوضوءُ»[3].

وفيه أيضاً: عن النَّبيِّ ﷺ قال: «أنتم الغُرُّ المحجَّلون مِنْ إسباغِ الوُضوءِ»[4].

وخرَّجَه البخاريُّ ولفظُه: «إنَّ أمَّتِي يُدْعَون يومَ القيامةِ غُرًّا محجَّلين مِنْ آثار الوضوءِ»[5].

واعلمْ أنَّ حديثَ معاذِ بنِ جبلٍ في المنامِ إنَّما فيه ذكرُ إسباغِ الوضوءِ على الكريهاتِ، وكذا في حديثِ أبي هريرةَ المبدوءِ بذكرِه في هذا الفصلِ، فهاهنا أمران:

أحدُهما: إسباغُ الوضوءِ، وهو إتمامُه وإبلاغُه مواضِعَه الشَّرعيَّةَ؛ كالثَّوبِ السَّابغِ الْمُغَطِّي للبدنِ كلِّه.

وفي «مسندِ البزَّارِ» عن عثمانَ مرفوعاً: «مَنْ توضَّأَ فأسبغَ الوضوءَ غُفِرَ له ما

---

(١) «وحده لا شريك له» ليست في (ش) وهي في إحدى روايتي مسلم، أدرجهما المصنف رحمه الله.

(٢) أخرجه مسلم من حديث عقبة بن عامر عن سيدنا عمر رضي الله عنهما (٢٣٤).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٠).

(٤) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (٢٤٦).

(٥) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (١٣٦).

تقدَّمَ مِنْ ذنبِه وما تأخَّرَ»(١). وإسنادُه لا بأس به. وخرَّجه ابنُ أبي عاصمٍ منْ وجهٍ آخر عن عثمان(٢).

وخرَّجَ النَّسائيُّ وابنُ ماجهْ مِنْ حديثِ أبي مالكٍ الأشعريِّ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إسباغُ الوضوءِ شطرُ الإيمانِ»(٣).

وخرَّجَه مسلمٌ ولفظُه: «الطُّهورُ شَطْرُ الإيمانِ»(٤).

وثانيهما: أن يكون إسباغُه على الكريهاتِ.

والمرادُ أنْ يكونَ على حالةٍ تكرَهُ النَّفسُ فيها الوضوءَ، وقد فُسِّرَ بحالِ نزولِ المصائبِ، فإنَّ النَّفسَ حينئذٍ تطلُبُ الجزَعَ، فالاشتغالُ عنه بالصَّبرِ والمبادرةِ إلى الوضوءِ والصَّلاةِ مِنْ علامةِ الإيمانِ؛ كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

والوضوءُ مفتاحُ الصَّلاةِ، وقد يُطْفَأُ به حرارةُ القلبِ النَّاشئةُ عن ألمِ المصائبِ، كما يؤمَرُ مَنْ غضِبَ بإطفاءِ غضبِه بالوضوءِ(٥).

وفُسِّرَتِ «الكريهاتُ» بالبَرْدِ الشَّديدِ، ويشهدُ له أنَّ في بعض رواياتِ حديثِ

---

(١) أخرجه البزار (٤٢٢) بلفظ قريب منه.

(٢) «الآحاد والمثاني» لابن أبي عاصم (١٥٠).

(٣) أخرجه النسائي (٢٤٥٦)، وابن ماجه (٢٨٠).

(٤) أخرجه مسلم (٢٢٣).

(٥) أخرج الإمام أحمد في «المسند» (١٧٩٨٥) من حديث عطية السعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ».

معاذٍ: «إسباغُ الوضوءِ على السَّبَراتِ»، والسَّبْرةُ: شدَّةُ البَرْدِ، ولا ريبَ أنَّ إسباغَ الوضوءِ في شدَّةِ البَرْدِ يشُقُّ على النَّفسِ وتتألَّمُ به، وكلُّ ما يؤلِمُ النفس[1] ويشُقُّ عليها فإنَّه كفَّارةٌ للذُّنوبِ، وإنْ لمْ يكن للإنسانِ فيه صُنْعٌ ولا تسبُّبٌ كالمرَضِ ونحوه[2]، كما دلَّتِ النُّصوصُ الكثيرةُ على ذلك.

وأمَّا إنْ كان ناشئاً عن فعلٍ هو طاعةٌ للهِ فإنَّه يُكتَبُ لصاحبِه به أجرٌ وتُرْفَعُ به درجاتُه؛ كالألمِ الحاصلِ للمجاهدِ في سبيلِ الله تعالى، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠] الآيـةَ، وكذلك الجوعُ والعطَشُ الَّذي يحصُلُ للصَّائمِ، فهكذا التَّألُّمُ بإسباغِ الوضوءِ في البَرْدِ.

ويجبُ الصَّبرُ على الألمِ بذلك، فإنْ حصَلَ به الرِّضا فذلك مقامُ خواصِّ العارفين المحبِّين، وينشأُ الرِّضا بذلكَ عن[3] ملاحظةِ أمورٍ:

أحدُها: تذكُّرُ فضلِ الوضوءِ مِنْ حَطِّه للخطايا، ورفعِه للدَّرجاتِ، وحصولِ الغُرَّةِ والتَّحْجيلِ به، وبلوغِ الحِلْيَةِ في الجنَّةِ إلى حيثُ يبلُغُ.

وهذا كما انكسَرَ ظفرُ بعضِ الصَّالحاتِ مِنَ السَّلَفِ مِنْ عَثْرَةٍ عثَرَتْها فضحكتْ وقالتْ: أنساني حلاوةُ ثوابِه مرارةَ وجَعِه[4].

---

(١) في (ت) و(ف): «النفوس».

(٢) في (ت) و(ف): «وغيره».

(٣) في (ت) و(ف): «على».

(٤) واسمها: موفّقة أو موافقة رحمها الله تعالى.

والخبر في «صفة الصفوة» لابن الجوزي (٤/ ١٩١) في ذكر المصطفيات من عابدات الموصل.

وقال بعضُ العارفين: مَنْ لمْ يعرِفْ ثوابَ الأعمالِ ثقُلَتْ عليه في جميعِ الأحوالِ[1].

الثَّاني: تذكُّرُ ما أعدَّهُ اللهُ عزَّ وجلَّ لمَنْ عصاهُ مِنَ العذابِ بالبَرْدِ والزَّمْهَرِيرِ، فإنَّ شدَّةَ بَرْدِ الدُّنيا يذكِّرُ بزَمْهَرِيرِ جهنَّمَ.

وفي الحديثِ الصَّحيحِ: «إنَّ أشدَّ ما تجدونَ مِنَ الْبَرْدِ مِنْ زَمْهَرِيرِ جهنَّمَ»[2].

فملاحظةُ هذا الألمِ الموعود[3] يهوِّنُ الإحساسَ بألمِ بَرْدِ الماءِ؛ كما رُوِيَ عن زُبَيْدٍ اليَامِيِّ أنَّه قامَ ليلةً للتَّهجُّدِ وكان البردُ شديداً[4]، فلمَّا أدخلَ يدَه في الإناءِ وجَدَ شدَّةَ بَرْدِهِ، فذكر زَمْهَرِيرَ جهنَّمَ فلمْ يشعُرْ ببَرْدِ الماءِ بعد ذلك، وبقيَتْ يدُه في الماء حتَّى أصبحَ، فقالت له جاريَتُه: ما لَكَ لمْ تصَلِّ اللَّيلةَ كما كنتَ تصلِّي؟ فقال: إنِّي لمَّا وجدتُ شدَّةَ بَرْدِ الماءِ ذكرتُ زَمْهَرِير جهنَّمَ، فما شعرتُ به حتَّى أصبحتُ، فلا تُخبِري بهذا أحداً ما دُمتُ حيًّا[5].

---

(١) وهو أبو عبد الله البَرَاثي رحمه الله تعالى، محمد بن خالد بن يزيد.
والخبر رواه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (١٣٩)، وعنه: الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (٢٣٩٦). ورواه أبو سعيد الأعرابي في «كتاب فيه معنى الزهد والمقالات وصفة الزاهدين» (ص ٦١)، وأبو نُعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ١٣٨). وأورده ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (٢/ ٣٨٩) في ذكر المصطفين من أهل بغداد.
ورواه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٤٩) من كلام بشر بن الحارث رحمه الله تعالى.

(٢) أخرج البخاري (٥٣٧) ومسلم (٦١٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أصله، وهذا اللفظ في «مسند أحمد» (٧٧٢٢).

(٣) تصحفت في (ف) إلى: «الموجود».

(٤) في (ت) و(ف): «والبرد شديد».

(٥) أورده المصنف أيضاً في «لطائف المعارف» (ص: ٥٦٧)، وفي «التخويف من النار».
والخبر نقله ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (٣/ ٩٩).

الثَّالثُ: ملاحظةُ جلالِ مَنْ أمرَ بالوضوءِ، ومطالعةُ عظمتِه وكبريائِه، وتذكُّرُ[١] التَّهيُّؤِ للقيامِ بين يديه ومناجاتِه في الصَّلاةِ، فذلك يهوِّنُ كلَّ ألمٍ ينالُ العبدَ في طلبِ مرضاتِه مِنْ بَرْدِ الماءِ وغيرِه، وربَّما لَمْ يشعُرْ بألمِه[٢] بالكليَّةِ؛ كما قال بعضُ العارفين: بالمعرفةِ هانَتْ على العاملين العبادةُ[٣].

قال سعيدُ بنُ عامرٍ: بلغني أنَّ إبراهيمَ الخليلَ عليه السَّلامُ كانَ إذا توضَّأَ سُمِعَ لعظامه قَعْقَعَةٌ[٤].

وكان عليُّ بنُ الحسينِ إذا توضَّأَ اصفرَّ[٥]، فيُقال له: ما هذا الَّذي يعتريكَ عند الوضوءِ؟ فيقولُ: أتدرون بين يدي مَنْ أريدُ أنْ أقومَ؟![٦]

وكان منصورُ بنُ زاذانَ إذا فرَغَ مِن وضوئِه يبكي حتَّى يرتفعَ صوتُه، فقيل له: ما شأنُكَ؟ فقال: وأيُّ شيءٍ أعظمُ مِنْ شأني أنِّي أريدُ أنْ أقومَ بين يدي مَنْ لا تأخذُه سِنةٌ ولا نومٌ، فلعلَّهُ يُعرِضُ[٧] عنِّي[٨].

وكان عطاءٌ السَّليميُّ إذا فرَغَ مِنْ وضوئِه ارتعدَ وانتفضَ وبكى بكاءً شديداً،

---

(١) في (ش): «وذكر».

(٢) في (ش): «بالماء».

(٣) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (٣٤٤٠) من كلام أبي عبد الله البراثي رحمه الله تعالى. ونقله ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (٢/ ٣٨٩).

(٤) لم أجده عند غير المُصَنِّف.

(٥) في (ف) «اصفر لونه»، وكتب فوقها (حـ) وكأنها علامة ضرب. وليست في «تاريخ دمشق».

(٦) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤١/ ٣٧٨).

(٧) في (ش): «يرضى».

(٨) أورده ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (٢/ ٧).

فقيل له في ذلك، فقال: إنِّي أريدُ أنْ أتقدَّمَ إلى أمرٍ عظيمٍ، إنِّي أريدُ أنْ أقومَ بين يدي اللهِ عزَّ وجلَّ[١].

الرَّابعُ: استحضارُ اطِّلاعِ اللهِ عز وجل على عبدِه في حالِ العملِ له، وتحمُّلِ المشاقِّ لأجلِه، فمَنْ تيقَّنَ أنَّ البلاءَ بعينِ مَنْ يحبُّه هان عليه الألمُ؛ كما أشارَ اللهُ تعالى إلى ذلك بقولِه عز وجل لنبيِّه ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، وقولِه تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]. وقال ﷺ: «اعبُدِ اللهِ كأنَّكَ تراهُ، فإنْ لمْ تكن تراه فإنَّه يراكَ»[٢].

قال أبو سليمانَ: قرأتُ في بعضِ الكتبِ: يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: «بعيني ما تحمَّلَ المتحمِّلون مِنْ أجلي، وكابدَ المُكابدون في طلب مَرْضاتي، فكيفَ بهم وقد صاروا في جِواري، وتَبَحْبَحُوا[٣] في رياضِ خُلْدِي، فهنالك فليُبشِرِ الْمُصَفُّون لله أعمالَهمْ بالمنظرِ العَجيبِ مِنَ الحبيبِ القريبِ، أَيُرَون[٤] أنِّي أضيِّعُ لهم عملاً؟! فكيف وأنا أجودُ على المولِّين عنِّي، فكيف بالمـُقبلين إليَّ؟!»[٥].

فإسباغُ الوضوءِ في البَرْدِ لا سيَّما في اللَّيلِ يطَّلِعُ اللهُ عليه، ويرضى به، ويُباهي به الملائكةَ، فاستحضارُ ذلكَ يهوِّنُ ألم برد الماء[٦].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٢١٨).

(٢) أخرجه هذا اللفظ أبو نُعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٢٠٢) من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه. وحديث جبريل من رواية عمر وأبي هريرة رضي الله عنهما معروف في تسمية تلك العبادة إحساناً.

(٣) المثبت من (ش)، «والحلية». ومعناه: تمكنوا في المقام والحلول. وفي (ت) و(ف): «تبجحوا». ومعناه: فرحوا». وكلا المعنيين يستقيم هنا.

(٤) في (ش): «أترونني».

(٥) في «الحلية»: «عليّ». والخبر في «حلية الأولياء» (٩/ ٢٥٥).

(٦) في (ت) و(ف): «ألمه».

وفي «المسندِ» و«صحيحِ ابنِ حبَّانَ» عنْ عقبةَ بنِ عامرٍ، عنِ النَّبيِّ ﷺ قال: «رجلانِ مِنْ أمَّتي يقومُ أحدُهما من اللَّيلِ يعالِجُ نفسَه إلى الطُّهورِ، وعليه عُقَدٌ، فيتوضأ، فإذا وضَّأ يدَيه انحلَّتْ عُقدة، وإذا وضَّأ وجهَه انحلَّتْ عُقْدة، وإذا مسح برأسِه[1] انحلَّتْ عُقدة، وإذا وضَّأ رِجلَيْه انحلَّت عُقدة، فيقولُ الرب عزَّ وجل للذين وراءَ الحجابِ: «انظُروا إلى عَبدي هذا يُعالِجُ نفسَه، ما سألَني عبدي هذا فهو له». وذكرَ بقيَّةَ الحديثِ[2].

وروى عَطِيَّةُ عن أبي سعيدٍ، عنِ النبيِّ ﷺ: «إنَّ اللهَ يضحَكُ إلى ثلاثةِ نفرٍ: رجل قام من جَوفِ اللَّيلِ فأحسنَ الطُّهورَ فصلَّى»[3]. وذكرَ الحديثَ.

كانَ بعضُ السَّلفِ له وِرْدٌ باللَّيلِ، فَفَتَر عنه، فهتَفَ به هاتفٌ:

بعيــنِ اللهِ فــي اللَّيـلِ   لَـمَـــا يَصنــعُ خُدَّامُــهْ

إذا قـــاموا وحَـــثَّـتْـهـم   على الخِدمَـــةِ أحكامُـــهْ[4].

الخامسُ: الاستغراقُ في محبَّةِ مَنْ أَمرَ بهذه الطَّاعةِ، وأنَّه يرضى بها ويحبُّها، كما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فمَنِ امتلأَ قلبُه مِنْ محبَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ أحبَّ ما يحبُّه وإنْ شَقَّ على النَّفْسِ وتألَّمَتْ به، كما يقال: المحبَّةُ تهوِّنُ الأثقالَ.

---

(١) في (ش): «رأسه».

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١٧٤٥٨) و(١٧٧٩١)، وابن حبان (١٠٥٢) و(٢٥٥٥) ولكن لا بقية للحديث عندهما!

(٣) أخرجه البزار («كشف الأستار» (٧١٥) ومسند أبي سعيد مفقود من مسند البزار). وتتمته: «ورجل نام وهو ساجد، ورجل أحسبه كان في كتيبة فانهزمت، وهو على فرس جواد لو شاء أن يذهب لذهب».

(٤) لم أجد هذا الخبر عند غير المصنِّف.

وقالَ بعضُ السَّلفِ في مرضِه: أَحَبُّه إليَّ أَحَبُّه إليْه[1].

وكما قِيل:

فمــا لجُــرْحٍ إذا أرضَاكُــمُ أَلَــمُ[2]

وكما قِيل أيضاً:

فِي حُبِّكُمْ يَهُونُ مـا قَـدْ أَلـقـى ... مَا يَسْعَدُ بالنَّعِيْمِ مَنْ لا يَشْقى[3]

مَنْ خدَمَ مَنْ يُحِبُّ تلذَّذَ بشَقَائِه في خِدْمَتِه.

قالَ بعضُهم: القلبُ المحبُّ للهِ يُحِبُّ النَّصَبَ له[4].

وقالَ عبدُ الصَّمدِ: أوجدَهمْ في عَذَابِه عُذُوبةً[5].

---

(١) عزاه المصنف في «فتح الباري» (١/ ٦٤) وفي «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٨٧) إلى بعض التابعين. وأخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (٨٠٤). من كلام عمران بن حصين رضي الله عنه جواباً لمُطرِّف بن عبد الله.

(٢) عجز بيت لأبي الطيب المتنبي، وصدره:

إن كان سَـرَّكُمُ مـا قـال حاسِـدُنا

(٣) ذكره ابن الجوزي في «مرافق الموافق في الوعظ» (ص ٧٦)، وفي «المدهش» (ص ١٥٨).

(٤) نسبه أبو طالب المكي في «قوت القلوب» (٢/ ٩٢) إلى عيسى عليه السلام.

وقرأه ثور بن يزيد في «التوراة»، كما في «المحبة لله سبحانه» لابن الجنيد (٢٤)، و«حلية الأولياء» لأبي نعيم (٦/ ٩٣).

وروي من كلام مالك بن دينار، كما في «المحبة» لابن الجنيد (٢٥)، و«حلية الأولياء» لأبي نعيم (٢/ ٣٥٩).

(٥) ذكره المصنف في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٨٧) وعزاه لبعضهم. وعبد الصمد هو عبد الصمد بن عمر بن محمد بن إسحاق، أبو القاسم الواعظ، المتوفى (سنة ٣٩٧هـ). وأورد ابن الجوزي أخباره في «صفة الصفوة»، ومنها قوله هذا (١/ ٥٥٤).

إسباغُ الوضوءِ على المكارهِ مِنْ علاماتِ المحبِّين، كما في كتابِ «الزُّهدِ» للإمامِ أحمدَ عن عطاءِ بنِ يسارٍ قالَ: قالَ موسى عليه السَّلامُ: «يا ربِّ مَنْ أهلُكَ الذينَ هُم أهلُك، الذينَ تُظلُّهم في ظِلِّ عَرْشِكَ؟ قالَ: همُ البَرِيَّةُ أيديهم، الطَّاهرةُ قلوبُهم، الذين يتحابُّون بجلالي، الَّذينَ إذا ذُكِرْتُ ذُكِروا بي، وإذا ذُكِروا ذُكِرتُ بذكرِهم، الذين يُسبغون الوضوءَ في المكارِه، وينيبون إلى ذِكري كما تُنِيْبُ النُّسور إلى أوكارها، ويَكْلَفُون بمحبَّتي[1] كما يَكْلَفُ الصَّبيُّ بحبِّ الناسِ، ويَغْضَبُونَ لمحارِمي إذا استُحِلَّتْ كما يغضَبُ النَّمِرُ إذا حَرِب»[2].

وقد يَخْرِقُ الله العادةَ لبعضِ المحبِّينَ له؛ فلا يَجِدُ ألَمَ بَرْدِ الماءِ كما كانَ بعضُ السَّلفِ قد دعا اللهَ أنْ يهوِّنَ عليه الطُّهورَ في الشِّتاءِ، فكانَ يُؤتى بالماءِ وله بُخار[3].

---

(١) في (ش): «يحبي».

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (٣٨٩). وابن أبي الدنيا في «الأولياء» (٣٧)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦١/ ١٤١) من حديث عطاء.
وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٠٧٥)، وذكر له ابن عساكر طرقاً متعددة عن غيره من كلام موسى ﷺ.
وأخرجه الطبراني في «الأوسط» (١٨٦٠) من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً بنحوه، وعنه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ١٣)، ولفظه في آخره: «غضب النمر لنفسه، فإن النمر إذا غضب لم يبال أقلَّ الناس أم كثروا».
قال الغزالي في «الإحياء» (في كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا) (٦/ ٧٩): «وأما النمر فإنه لا يملك نفسه عند الغضب حتى يبلغ من شدة غضبه أنه يهلك نفسه».
قال ابن السكيت في «إصلاح المنطق» (ص: ٣٥): «والحَرَب: مصدر حَرِب يحرَب حَرَباً: إذا اشتد غضبه». وفي (ش) و(ف): «جُرِبَ»، والمثبت من (ت) دون الضبط، فقد ضبط الحاء بالضم.

(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٧/ ١٠٥) عن قتادة قال: سأل عامر بن عبد الله ربه أن يهون عليه الطهور... وهو في «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٢٦/ ٢٢).

وربما سُلِبَ بعضُهم الإحساسَ في البردِ والحرِّ مطلقاً.

وكانَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه قدْ دعا له النَّبيُّ ﷺ أنْ يُذهبَ اللهُ عنه الحَرَّ والبردَ، فكانَ يَلْبَسُ في الصَّيفِ لباسَ الشِّتاءِ، وفي الشِّتاءِ لباسَ الصَّيفِ، وقال النَّبيُّ ﷺ فيه: «إنه يُحِبُّ اللهَ ورَسولَه ويحبُّه اللهُ ورسولُه»[1].

ورأى أبو سليمانَ الدَّارانيُّ في طريقِ الحَجِّ في شِدةِ بردِ الشِّتاءِ شَيْخاً عليه أَخْلاقٌ رَثَّة[2] وهو يَرْشَحُ عَرَقاً، فسأَلَه عن حالِه؟ فقال: إنما الحرُّ والبردُ خَلْقان للهِ عزَّ وجلَّ، فإنْ أَمَرَهما أنْ يَغْشَياني أصاباني، وإنْ أَمَرهما أنْ يَتْرُكاني تركاني، وقال: أنا في هذه البَرِّيةِ منذُ ثلاثينَ سنةً يُلْبِسُني في البردِ فَيْحاً مِنْ مَحبَّته، ويُلْبِسُني في الصَّيفِ بَرداً مِنْ مَحَبَّته[3].

وقيلَ لآخرَ وعليه خِرْقتانِ في بردٍ شديدٍ: لِو استترتَ في موضعٍ يُكِنُّك مِنَ البردِ؟ فأنشدَ:

ويحسُنُ ظَنِّي أنَّني في فِنائِه ... وهلْ أحدٌ في كِنِّه يجدُ البردا[4]

السَّببُ الثَّاني مِنْ مكفِّراتِ الذُّنوبِ: المشيُ على الأقدامِ إلى الجماعاتِ وإلى الجُمُعاتِ، ولا سيَّما إنْ توضَّأَ الرَّجلُ في بيتِه، ثمَّ خرَجَ إلى المسجدِ لا يُريدُ بخروجِه إلَّا الصَّلاةَ فيه، كما في «الصَّحيحينِ» عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٧٧٨).

(٢) يقال ثوبٌ أخلاق: إذا كانت الخُلوقة فيه كله. ومعنى الخَلَق: البالي. كما في «القاموس المحيط» (خلق).

(٣) أخرجه ابن الجوزي في «مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن» (٤٨).

(٤) أخرجه أبو عبد الرحمن السُّلمي في «طبقات الصوفية» (ص: ١٩٦)، ومن طريق ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٠/ ٣١) في قصةٍ جَرَتْ بين سَمْنون وشابٌّ في بيت المقدس رحمهما الله.

النَّبيِّ ﷺ قالَ: «صلاةُ الرَّجلِ في الجماعةِ تُضَعَّفُ على صَلاتِه في بيتِه وفي سُوقِه خمسةً وعشرين ضِعفاً، وذلك أنَّه إذا توضَّأَ فأحسنَ الوضوءَ، ثمَّ خَرَجَ إلى المسجدِ ـ لا يُخرِجُه إلَّا الصَّلاةُ ـ لمْ يَخْطُ خَطْوةً إلَّا رُفِعَتْ له بها درجةٌ، وحُطَّ عنه بها خَطِيئةٌ، فإذا صَلَّى لمْ تزلِ الملائكةُ تُصلِّي عليه ما دامَ في مُصلَّاه، اللَّهمَّ صلِّ عليه، اللَّهمَّ ارحمْه، ولا يزالُ أحدُكم في صلاةٍ ما انتظرَ الصَّلاةَ»[1].

وفي «صحيحِ مسلمٍ» عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «مَنْ تَطَهَّر في بيتِه، ثمَّ مَشى إلى بيتٍ مِنْ بيوتِ اللهِ؛ ليقضيَ فريضةً مِنْ فرائضِ اللهِ: كانتْ خَطْوتَاه إحداهما تحُطُّ خطيئةً، والأخرى ترفعُ درجةً»[2].

وفي «الصَّحيحين» عن أبي هريرةَ، عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «كلُّ خطوةٍ يمشيها إلى الصَّلاةِ صدقةٌ»[3].

وفي «المُسْندِ» و«صحيحِ ابنِ حبَّانَ»، عن عُقْبةَ بنِ عامرٍ، عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «إذا تَطَهَّرَ الرَّجلُ ثمَّ أتى المَسْجِدَ يَرْعى الصَّلاةَ: كَتَبَ له كاتباهُ بكلِّ خَطْوةٍ يَخطُوها إلى المسجدِ عَشْرَ حسناتٍ»[4].

وفيهما أيضاً عن عبدِ اللهِ بنِ عمرو، عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «مَنْ راحَ إلى مَسجدِ جماعةٍ فخطوتاه خَطْوةٌ تمحو سيِّئةً، وخَطْوةٌ تكْتُبُ حسنةً، ذاهِباً وراجِعاً»[5].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧) واللفظ له، ومسلم (٦٤٩).

(٢) أخرجه مسلم (٦٦٦).

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٩١)، ومسلم (١٠٠٩).

(٤) أخرجه الإمام أحمد (١٧٤٤٠) (١٧٤٥٦ ـ ١٧٤٦١)، وابن حبان (٢٠٤٥).

(٥) أخرجه الإمام أحمد (٦٥٩٩)، وابن حبان (٢٠٣٩).

وفي «سننِ أبي داودَ»، عن أبي أُمامةَ، عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «مَنْ خرجَ مِنْ بيتِه مُتَطهِّراً إلى صلاةٍ مكتوبةٍ؛ فأجرُه كأجرِ الحاجِّ المُحرِمِ»(١).

وفيهِ أيضاً عن رجلٍ مِنَ الأنصارِ، عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «مَنْ توضَّأَ فأحسنَ الوضوءَ، ثمَّ خرجَ إلى الصَّلاةِ لم يرفَعْ قَدَمَه اليُمْنى إلَّا كَتَبَ اللهُ له بها حسنةً، ولمْ يَضَعْ قدمَهُ اليُسرى إلَّا حَطَّ اللهُ عنه بها خطيئةً، فليقرُبْ أو ليبعُدْ، فإنْ أتى المسجدَ فصلَّى في جماعةٍ غُفِرَ له»(٢).

والأحاديثُ في هذا المعنى كثيرةٌ جِدًّا، فالمشيُ إلى الجمُعاتِ له مزيدُ فَضْلٍ، لا سِيَّما إنْ كان بعدَ الاغتسالِ، كما في «السُّننِ» عن أَوْس بنِ أَوْسٍ، عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «مَنْ غَسَلَ يومَ الجمعةِ واغتَسَلَ، وبكَّرَ وابتكَرَ، ومشى ولم يركَبْ، ودنا مِنَ الإمامِ، واستمعَ ولمْ يَلْغُ، كان له بكلِّ خَطوةٍ أجرُ سنةٍ صيامِها وقيامِها»(٣).

وكلَّما بَعُدَ المكانُ الذي يمشي منه إلى المسجدِ كانَ المشيُ منه أفضلَ لكثرةِ الخُطا.

وفي «صحيحِ مسلمٍ» عن جابرٍ قالَ: كانت دارُنا نائيةً من(٤) المسجدِ فأرَدْنا أنْ نبيعَ بيوتَنا فنقرُبَ مِنَ المسجدِ، فنهانا رسولُ اللهِ ﷺ وقالَ: «إنَّ لكم بكلِّ خطوةٍ حسنةً»(٥).

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٥٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٥٦٤).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٤٩)، والترمذي (٤٩٦) وقال: حسن، والنسائي (١٣٨١)، وابن ماجه (١٠٨٧).

(٤) في مطبوعة الصحيح: «عن». وفي حاشية (ت): «نائية أي بعيدة».

(٥) أخرجه مسلم (٦٦٤) وعنده: «.... بكل خطوة درجة».

وفي «صحيحِ البخاريِّ» عـن أنسٍ، عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «يا بني سَلِمَة! ألا تحتسبونَ آثارَكم»[١].

وفي «الصَّحيحينِ» عن أبي موسى: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «إنَّ أعظمَ النَّاسِ أجراً في الصَّلاةِ أبعدُهمْ إليها ممشىً فأبعدُهم»[٢].

ومعَ هـذا، فنَفْسُ الـدَّارِ القريبـةِ مِـنَ المسـجدِ أفضـلُ من الـدار البعيـدةِ عنه، لكـنَّ المشـيَ من الـدارِ البعيـدةِ أفضلُ، ففـي «المُسْنَد» عن حُذيفـةَ، عـنِ النَّبيِّ ﷺ قـالَ: «فضـلُ الـدَّارِ القريبةِ مِنَ المسـجدِ علـى الدَّارِ الشَّاسِـعَةِ؛ كفضـلِ الغازي على القاعـدِ». وإسـنادُه منقطعٌ[٣].

والمشيُ إلى المسجدِ أفضلُ مِنَ الرُّكوبِ، كما تقدَّم في حديثِ أوسٍ في الجُمُعة، ولهذا جاءَ في حديثِ معاذ ذكرُ المشيِ على الأقدامِ[٤]، وكان النَّبيُّ ﷺ لا يخرُجُ إلى الصَّلاةِ إلَّا ماشِياً، حتَّى يومُ العيدِ يخرُجُ إلى المصلَّى ماشِياً[٥]، فإنَّ الآتيَ للمسجدِ زائرُ اللهِ، والزِّيارةُ على الأقدامِ أقربُ إلى الخضوعِ والتَّذلُّلِ، كما قيلَ:

لو جِئْتُكم زَائراً أسعى علـى بَصَـري ... لـمْ أدِّ حـقًّـا وأيَّ الـحـقِّ أدَّيتُ[٦]

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٥، ٦٥٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥١)، ومسلم (٦٦٢).

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٢٣٢٨٧) (٢٣٣٨٥).

(٤) يعني الحديث المشروح في هذا الخبر.

(٥) هذا المعنى في المشي إلى العيد روي في أحاديث جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، وفي كل منها مقال وأمثلُها حديث علي رضي الله عنه عند الترمذي (٥٣٠) وقال: حسن. أما الصلوات الخمس فداره ﷺ مجاورة للمسجد.

(٦) أورد البيت ضمن أبيات: ابن الجوزي في «المدهش» (ص: ١٤٥). وعنده: «لم أقض حقًّا».

وفي «صحيحِ البخاريِّ» عن أبي هريرةَ، عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «مَنْ غدا إلى المسْجدِ أوْ راحَ أعدَّ اللهُ له نُزُلاً في الجنَّةِ كلَّما غدا أوْ راحَ»[١].

والنُّزُلُ: هو ما يُعَدُّ للزَّائِرِ عندَ قُدُومِه.

وفي الطَّبرانيِّ مِنْ حديثِ سلمانَ مرفوعاً: «مَنْ توضَّأَ في بيتِه فأحسنَ الوضوءَ، ثمَّ أتى المسجدَ، فهو زائرُ اللهِ تعالى، وحَقٌّ على المَزُورِ أنْ يُكرِمَ الزَّائرَ»[٢].

وفي «صحيحِ مُسلم» عن أُبيِّ بنِ كعبٍ قال: كان رجلٌ لا أعلمُ رَجُلاً أبعدَ مِنَ المسجدِ منه، وكانَ لا تُخطِئُه صلاةٌ في المسجدِ، قالَ: فقيلَ له ـ أوْ قلتُ له ـ لو اشتريتَ حِماراً تركبُه في الظَّلماءِ وفي الرَّمْضاءِ، فقال: ما يَسُرُّني أنَّ منزلي إلى جَنْبِ المسجدِ، إني أُريدُ أن يُكتبَ لي ممشايَ إلى المسجدِ ورُجوعي إذا رَجَعتُ إلى أهلي. فقال رسول الله ﷺ: «قد جَمَعَ اللهُ لكَ ذلكَ كلَّه»[٣].

وكلَّما شَقَّ المشيُ إلى المساجد[٤] كانَ أفضلَ، ولهذا فُضِّلَ المشيُ إلى صلاةِ العِشاء وصلاةِ الصُّبْحِ، وعدل بقيامِ الليلِ كما في «صحيح مسلمٍ» عن عثمانَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «من صلَّى العشاءَ في جماعةٍ فكأنَّما قام نصفَ الليلِ، ومن صَلَّى الصُّبحَ في جماعةٍ فكأنَّما قام الليل»[٥].

وفي «الصَّحيحينِ» عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «أثقلُ صلاةٍ على

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٢) ولفظه: «من غدا إلى المسجد وراح». بالواو لا بـ (أو).

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٦١٣٩).

(٣) أخرجه مسلم (٦٦٣).

(٤) في (ف): «وكلما شق عليك إلى المساجد»، وفي (ش): «وكلما شق المشي إلى المسجد».

(٥) أخرجه مسلم (٦٥٦).

المنافقينَ صلاةُ العِشاءِ وصلاةُ الفَجْرِ، ولو يعلمون ما فيهما لأَتَوْهما ولو حَبْواً»[١].

وإنما ثَقُلَتْ هاتانِ الصلاتانِ على المنافقينَ لأنَّ المنافقَ لا ينشطُ للصلاةِ إلا إذا رآهُ الناسُ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢] وصلاة العِشاء والصُّبح يقعان في ظُلْمة، فلا ينشط للمشي إليهما إلا كلُّ مخلِصٍ، يكتفي برؤيةِ اللهِ عزَّ وجل وحدَه لعلْمِه به.

وثوابُ المشيِ إلى المساجد[٢] في الظُّلَمِ: النورُ التَّامُ في ظُلَمِ القيامةِ، كما في «سنن أبي داود» و«الترمذي» عن بُريدةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «بَشِّرِ المَشَّائِينَ في الظُّلَمِ إلى المساجِدِ بالنُّورِ التَّامِّ يومَ القيامة»[٣].

وخَرَّجه ابنُ ماجه من حديث سهل بن سعد[٤]، وقد رُوي من وجوهٍ كثيرةٍ، وفي بعضِها زيادةٌ: «يفزَعُ النَّاسُ ولا يَفْزَعون»[٥]. قال النخعي: وكانوا يرون أن المشيَ في الليلةِ الظَّلْماءِ إلى الصَّلاةِ موجِبَة يعني تُوجِبُ المغفرةَ[٦].

ورُوِّينا عن الحسن قال: أهلُ التَّوحيدِ في النَّارِ لا يُقَيَّدون، فيقول الخزنةُ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧)، ومسلم (٦٥١).

(٢) في (ش): «الصلاة».

(٣) أخرجه أبو داود (٥٦٢)، والترمذي (٢٢٣) وقال: غريب.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٧٨٠).

(٥) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٦٣٣ ـ ٧٦٣٤).

(٦) ذكره الغزالي في الإحياء (٣/ ٣١ مع إتحاف السادة المتقين). وعنده: «موجب للجنَّة». ونقله البغوي في «شرح السنة» (٢/ ٣٥٨). وأورده المصنف في «فتح الباري» (٣/ ٣٧١) وذكر أنها توجب المغفرة، و(٦/ ٣٥) وذكر أنها توجب لصاحبها الجنة.

بعضهم لبعض: ما بالُ هؤلاءِ لا يُقَيَّدونَ وهؤلاء يُقَيَّدون؟ فيناديهم مُنادٍ: إنَّ هؤلاءِ كانوا يَمْشونَ في ظُلَمِ الليلِ إلى المساجِدِ(١).

كما أَنَّ مواضعَ السُّجودِ من عُصاةِ الموحِّدينَ في النَّارِ لا تَأكُلُها النَّارُ فكذلكَ الأقدامُ التي تمشي إلى المساجِدِ في الظُّلَمِ لا تُقَيَّدُ في النَّارِ، لا يُسَوِّي(٢) في العذابِ بينَ مَنْ خَدَمَهُ وبين مَنْ لم يخدِمْهُ وإن عذَّبه.

ومَــنْ كان فــي سُــخْطِه مُحْسِـناً ... فكيف يكـونُ إذا مـا رَضِيْ؟(٣)

لمَّا كانت الصَّلاةُ صِلةً بين العبدِ وربِّه ومناجاةً تظهرُ فيها آثارُ تَجَلِّيهِ لقلوبِ العارفين وقُرْبِه: شُرِعَ قبل الدخولِ فيها الطهارةُ فإنَّه لا يَصْلُحُ للوقوفِ بين يدي اللهِ عزَّ وجل والخلوةِ بمناجاته(٤) إلا طاهرٌ، فأما المتلوِّثُ بالأوساخِ الظَّاهرةِ والباطنةِ فلا يَصْلُح للقُربِ؛ فشرعَ اللهُ عزَّ وجلَّ للمصلي غَسلَ أعضائِه بالماءِ، ورتَّبَ عليها طهارةَ الذنوبِ وتكفيرَها، حتى يجتمعَ لِمَنْ يريدُ المناجاةَ طهارةُ ظاهِرِهِ وباطِنه، ثم شرعَ المشيَ إلى المساجِدِ، وفيه أيضاً تكفيرُ الخطايا حتَّى تكمل طهارةُ الذنوبِ إن بقِيَ منها شيءٌ بعدَ الوضوءِ حتى لا يقفَ العبدُ في مقامِ المناجاةِ إلا بعدَ كمالِ طهارةِ ظاهرةٍ وباطِنةٍ من دَرَنِ الأوساخِ والذنوب، ولهذا شُرِعَ له تجديدُ التَّوبةِ والاستغفارُ

---

(١) لم أجده عند غير المصنِّف. وأروده المصنف في «فتح الباري» (٣/ ٣٧١)، وفي «التخويف من النار» «وقال: وروينا من طريق محمد بن معاوية، حدثنا حَزْم، عن الحسن، فذكره».
وحَزْم: هو حَزْم بن أبي حَزْم، وهو مِهران القُطَعِيُّ، الذي يروي عن الحسن، ويروي عنه محمد بن معاوية.
ومثل هذا المعنى لا يُقال من جهة الرأي، فهو مقطوع له حكم الرفع لكنه مرسل، ولم نقف له على سند.

(٢) في (ت) و(ف): «لا يستوي».

(٣) البيت لأبي محمد عبد المحسن بن محمد الصوري، الشاعر، المتوفى سنة ٤١٩ كما في ترجمته من «النجوم الزاهرة» لابن تغري بردي (٤/ ٢٦٩).

(٤) في (ف): «المناجاته».

عقيبَ كلِّ وضوءٍ، حتى تكملَ طهارةُ ذنوبهِ، كما خَرَّجَ النَّسائيُّ من حديثِ أبي سعيدٍ مرفوعاً وموقوفاً: «مَنْ توضَّأ، فأسبغَ الوضوءَ، ثم قال عند فراغِه من وُضوئه: سبحانك اللهمَّ وبحمدك، أستغفركَ اللهمَّ وأتوب إليك، خُتِمَ عليها بخاتمٍ؛ فوضعتْ تحتَ العرشِ، فلم يُكسَرْ إلى يومِ القيامةِ»[1].

ومتى اجتهدَ العبدُ على تكميلِ طَهارته ومشيهِ إلى المسجد، ولم يقوَ ذلكَ كلُّه على تكفيرِ ذنوبهِ؛ فإنَّ الصلاةَ يكملُ بها التَّكفيرُ كما في الصَّحيحينِ عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «أرأيتمْ لو أنَّ نهراً ببابِ أحدِكم يغتَسِلُ فيه كلَّ يومٍ خمسَ مرَّاتٍ، هل يبقى من دَرَنِه شيءٌ؟» قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: «فذلك مَثَلُ الصلواتِ الخمسِ يمحُو اللهُ بهنَّ الخطايا»[2] وإن قَوِيَ الوضوءُ وحدَهُ على تكفيرِ الخَطايا، فالمشيُ إلى المسجدِ والصلاةُ بعدَه تكونُ زيادةَ حسناتٍ، وهذا هو المرادُ بقولِ النبيِّ ﷺ في حديثِ عُثمان والصُّنابحيِّ: «وكان مَشْيُه إلى المسجد، وصلاتُه نافلة» وقد سبقَ ذكرُ الحديثين[3].

واعلمْ أنَّ جمهورَ العُلماءِ على أنَّ هذه الأسبابَ كلَّها إنَّما تكفِّرُ الصغائرَ دونَ الكبائِر، وقد صَرَّح[4] بذلكَ عطاءٌ وغيرُه من السَّلَفِ في الوضوء[5]، وقالَ سلمانُ الفارسيُّ: الوضوء يكفِّرُ الجراحاتِ الصِّغارَ، والمشيُ إلى المسجدِ يكفِّرُ أكثرَ من ذلك، والصلاةُ تكفِّرُ أكثرَ من ذلك. خَرَّجه محمَّدُ بنُ نصرٍ المَروزي[6].

---

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٩٨٢٩) مرفوعاً، و(٩٨٣٠) (٩٨٣١) موقوفاً، وصَوَّبه النسائي. وعنده اختلاف ألفاظ عما هنا. أما مثل هذا اللفظ: فرواه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٠) مرفوعاً.

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧).

(٣) في أول هذا الفصل.

(٤) في (ش): «فسر». وفي حاشيتها عن نسخة: «استدل».

(٥) نقله المصنف أيضاً في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٢٥).

(٦) «تعظيم قدر الصلاة» للمروزي (٩٩).

ويدُلُّ على أنَّ الكبائرَ لا تُكفَّرُ بذلك ما في «الصَّحيحينِ» عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «الصلواتُ الخمسُ، والجُمعةُ إلى الجمعةِ، ورمضانُ إلى رمضان مكفِّراتٍ لما بينَهُنَّ إذا اجتُنبتِ الكبائرُ»[1].

وفي «صحيحِ مسلم» عن عثمان، عن النبي ﷺ قال: «ما من امرئٍ مسلمٍ تحضُرُه صلاةٌ مكتوبةٌ، فيُحسنُ وضوءَها وخُشوعَها وركوعَها[2] إلا كانتْ كفارةً لما قَبْلَها من الذنوب، ما لم تؤتَ كبيرةٌ وذلكَ الدهر كله[3].

إلى كَمْ تُيَسَّرُ لكَ أسبابُ تكفيرِ الخطايا لَعلَّكَ تَطَّهَّرُ منها قبلَ الموتِ فتلقاهُ طاهِراً فتصلحَ لمجاورتِهِ في دارِ السَّلام، وأنت تأبى إلا أنْ تموتَ على خبثِ الذُّنوب؛ فتحتاجُ إلى تطهيرها في كِيْرِ جهنم! يا هذا أَمَا علمتَ أنَّه لا يَصْلُحُ لقُرْبنا إلا طاهرٌ؟ فإذا أردْتَ قُرْبنا ومناجاتنا اليومَ فطهِّرْ ظاهِرَكَ وباطِنَكَ؛ لتَصْلُحَ لذلك، وإن أردْتَ قُربنا ومجاورتنا[4] غداً: فطهِّرْ قلبَك مِنْ سِوانا لتَصْلح لمجاورتنا يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

القلبُ السَّليمُ الذي ليسَ فيه غيرُ محبَّةِ الله ومحبَّةِ ما يُحِبُّه.

إنَّ اللهَ طَيِّبٌ لا يقبلُ إلا طَيِّباً، فما كلُّ أَحَدٍ يَصْلح لمجاورةِ اللهِ تعالى غَداً، ولا كلُّ عبدٍ يَصْلح لمناجاتِهِ[5] اليوم، ولا على كل الحالات تَحْسُنُ المناجاةُ.

---

(١) هذا اللفظ إنما هو في مسلم (٢٣٣). ولا يوجد في البخاري.

(٢) زاد في (ش): «وسجودها»، وليست في مطبوعة «صحيح مسلم».

(٣) «صحيح مسلم» (٢٢٨).

(٤) في (ش): «ومناجاتنا».

(٥) في (ش): «لمناجاة الله».

النَّاسُ من(1) الهوى على أصنافٍ:

هــذا نَقَـضَ العهــدَ وهــذا وافــي

هيهـات مــن الكُــدُور تَبْغِـي الصَّافي

مـا يَصْلُـح للحَضْـرةِ قَلْـبٌ جافـي(2)

السَّبَبُ الثَّالثُ من مُكَفِّراتِ الذُّنوبِ: الجُلوسُ في المساجد بعد الصَّلوات:

والمراد بهذا الجلوس: انتظارُ صلاةٍ أخرى، كما في حديثِ أبي هُريرة: «وانتظارُ الصَّلاةِ بعد الصَّلاةِ، فذلِكُم الرِّباطُ فذلكم الرِّباطُ»(3) فجعلَ هذا من الرِّباط في سبيل الله عَزَّ وجَلَّ، وهذا أفضلُ من الجلوسِ قبل الصَّلاةِ لانتظارها؛ فإنَّ الجالسَ لانتظارِ الصَّلاةِ لِيُؤَدِّيَها ثم يذهب تقصُرُ مدةُ انتظاره، بخلاف مَنْ صلَّى صلاةً ثمَّ جلسَ ينتظرُ أُخرى؛ فإنَّ مُدَّته تَطُول، فإنْ كانَ كلَّما صلَّى صلاةً جَلسَ يَنْتَظِرُ ما بَعْدَها فقد استغرقَ عُمُرَهُ بالطَّاعةِ، وكانَ ذلكَ بمنزلةِ الرِّباطِ(4) في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ.

وفي «المُسْند» و«سنن ابن ماجهْ» عن عبد الله بن عمرو قال: صلَّينا مع رسولِ الله ﷺ المَغرِبَ فَرَجَع مَنْ رَجَعَ، وعَقَّبَ مَنْ عَقَّبَ(5) فجاءَ رسولُ الله ﷺ مُسْرعاً قد حَفزَهُ النَّفَسُ، قَدْ حَسَرَ عن رُكبتيه فقال: «أَبشِرُوا. هذا ربُّكم قد فتَحَ باباً

---

(١) في حاشية (ش) عندها: «لعله: في».

(٢) هذان البيتان من بحر الدوبيت، وليس هو من أوزان الخليل، وإنما هو من الأوزان الشعرية المستحدثة في العصر العباسي.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥١).

(٤) في حاشية (ش): «المرابط».

(٥) قال ابن الأثير في «النهاية» (٦/ ٢٨٢٧): «أي أقام في مصلاه بعدما يفرغ من الصلاة. يقال: صلّى القومُ وعقَّبَ فلان».

من أبوابِ السَّماءِ يُبَاهي بكمُ الملائكةَ يقول: انظروا إلى عِبادي قد قَضَوا فريضةً وهم يَنْتَظِرون أُخرى»[1].

وفي «المُسند» عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «منتظِرُ الصلاةِ مِنْ بعد الصَّلاةِ كفارسٍ اشتدَّ به فرسُه في سبيلِ الله على كشحه، تُصَلِّي عليه ملائكةُ اللهِ ما لم يُحْدِثْ، أو يقومُ، وهو في الرِّباط الأكبر»[2].

ويدخل في قوله: «والجلوسُ في المساجدِ بعد الصَّلَوات»: الجلوسُ للذِّكرِ والقراءةِ وسَماعِ العلمِ وتعليمِه ونحوِ ذلك، لا سيَّما بعدَ صلاة الصُّبحِ حتى تطلعَ الشمسُ، فإنَّ النصوصَ قد وردتْ بفضلِ ذلكَ وهو شبيهٌ بجلوسِ مَنْ جَلَسَ ينتظِرُ صلاةً أُخرى، لأنه قد قَضى ما جاءَ إلى المسجدِ لأجلِهِ من الصَّلاةِ وجلسَ ينتظِرُ طاعةً أُخرى.

وفي «الصحيح» عن النبيِّ ﷺ قال: «وما اجتمعَ قومٌ في بيتٍ من بيوتِ الله تعالى يَتْلُون كتابَ اللهِ ويتدارسُونَه بينهم إلا نَزَلتْ عليهمُ السَّكِينَةُ، وغَشِيَتْهُم الرَّحمةُ، وحَفَّتْهُم[3] الملائكةُ، وذكرَهم اللهُ فيمن عِنْده»[4]. وأمَّا الجالسُ قبلَ الصَّلاةِ في المسجدِ لانتظار تلكَ الصلاةِ خاصةً فهو في صلاةٍ حتَّى يُصلي.

وفي «الصحيحين» عن أنس، عن النبيِّ ﷺ: أنَّه لما أَخَّر صلاةَ العِشاءِ الآخرةِ ثم خَرَجَ فصلَّى بهم قال لهم: «إنَّكم لم تزالوا في صلاةٍ ما انتظرتُم الصَّلاةَ»[5].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٦٧٥٠)، وابن ماجه (٨٠١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٨٦٢٥).

(٣) في (ش): «وحفت بهم».

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري (٨٤٧)، ومسلم (٦٤٠).

وفيهما أيضاً عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «الملائكةُ تصلِّي على أحدِكم ما دام في مُصَلَّاه ما لم يُحْدِث: اللهمَّ اغفرْ له، اللهمَّ ارحمْه، ولا يزالُ أحدُكم في صَلاةٍ ما كانت الصلاةُ تحبِسُه، لا يمنعه أنْ ينقلبَ إلى أهلِه إلا الصَّلاةُ»[1].

وفي روايةٍ لمسلمٍ: «ما لم يُؤْذِ فيهِ ما لم يُحْدِثْ فيه» وهذا يدلُّ على أنَّ المرادَ بالحَدَثِ: حَدَثُ اللِّسانِ ونحوهِ من الأذى، وفَسَّرهُ أبو هريرة بحَدَثِ الفَرْج[2]، وقيل إنه يَشْمل الحَدَثَين.

وفي «المُسند» عن عُقْبَة بن عامر، عن النبيِّ ﷺ قال: «القاعِدُ يَرْعى الصَّلاةَ كالقانِتِ، ويُكْتبُ من المُصَلِّين من حينِ يخرجُ من بيتهِ حتى يرجعَ إليه»[3].

وفي روايةٍ له: «فإذا صلى في المسجد ثم قعدَ فيه كان كالصَّائِمِ القَانِتِ حتى يرجع»[4] وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة.

وبالجُملة: فالجلوسُ في المساجدِ[5] للطَّاعات له فَضْلٌ عَظيمٌ، وفي حديثِ أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «لا يُوَطِّنُ رجلٌ المساجدَ للصَّلاةِ والذكر إلا تَبَشْبَشَ اللهُ عزَّ وجلَّ [به][6] كما يَتبشْبَشُ أهلُ الغائِب إذا قَدِمَ عليهم غائبُهم»[7].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٩)، ومسلم (٦٤٩).

(٢) أخرجه مسلم (٦٤٩).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٧٤٤٠).

(٤) أخرجه الإمام أحمد (١٧٤٥٦).

(٥) في (ف): «المسجد».

(٦) من مصادر التخريج. والبَشُّ: فرح الصديق بالصديق، واللطف في المسألة والإقبال عليه. وهذا مثل ضربه لتلقيه إياه ببره وتقريبه وإكرامه. كما في «النهاية» لابن الأثير (١/ ٣١٣).

(٧) أخرجه الإمام أحمد (٨٣٥٠)، وابن حبان (٢٢٧٨)، وغيرهما.

وروى دَرَّاجٌ عـن أبـي الهيثَـم، عـن أبي سـعيدٍ، عن النبـيِّ ﷺ قال: «مَـنْ أَلِفَ المسـجدَ أَلِفَهُ الله عَـزَّ وجلَّ»[١].

وقال سعيد بن المسيّب: من جلس في المسجد فإنما يُجالِسُ اللهَ عزَّ وجلَّ[٢].

وصَحَّ عن النبيِّ ﷺ أَنَّه عَدَّ من السَّبعةِ الذين يُظِلُّهم اللهُ في ظلِّه يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّه: رَجلٌ قلبُه معلقٌ بالمسجدِ إذا خَرجَ منه حتى يعودَ إليه[٣].

وإنما كان ملازمةُ المسجدِ للطَّاعات مُكَفِّراً للذنوبِ لأنَّ فيه مجاهدةَ النفس، وكفّاً لها عن أهوائِها، فإنَّها لا تَميلُ إلا إلى الانتشارِ في الأرضِ؛ لابتغاءِ الكَسْبِ أو لمجالسَةِ النَّاسِ لمحادَثتهم[٤]، أو لتنزهٍ في الدورِ الأنيقةِ والمساكنِ الحَسَنَةِ ومواطِنِ التَّنَزُّهِ ونحو ذلك، فمن حبسَ نفسَه في المساجِدِ على الطَّاعةِ فهو مُرابطٌ لها في سبيل الله، مخالفٌ لهواها وذلكَ من أفضَلِ أنواعِ الصَّبْرِ والجهاد.

وهذا الجنسُ ـ أعني ما يؤلمُ النفسَ ويخالفُ هواها ـ فيه كفارةٌ للذنوبِ وإنْ كانَ لا صُنْعَ للعبدِ فيه، كالمرضِ ونحوِه، فكيفَ بما كان حاصِلاً عن فِعْلِ العبدِ واختيارِه إذا قصد به التقرُّبَ إلى الله عزَّ وجلَّ، فإنَّ هذا من نوعِ الجهادِ في سبيل الله، الذي يَقتَضِي تكفيرَ الذنُوبِ كلِّها، ولهذا المعنى كانَ المشيُ إلى المساجِدِ كفارةً للذنوبِ أيضاً، وهو نوع من الجِهاد أيضاً، كما خَرَّجَه الطبرانيُّ من حديثِ أبي أُمامة

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٣٨٣). وقد تفرَّد بهذا اللفظ عمرو بن خالد عن ابن لهيعة عن درّاج. وله لفظ آخر عن درّاج رواه الترمذي (٢٦١٧) وغيره.

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٤١٦)، ولفظه: «يجالس ربه».

(٣) أخرجه بهذا اللفظ الإمام مالك في «الموطأ» (١٨٤١) من حديث أبي سعيد أو أبي هريرة، ومن طريقه مسلم (١٠٣١) وهو في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة دون شك. أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

(٤) في (ش): «ومحادثتهم».

عن النبيِّ ﷺ: «الغُدُوُّ والرَّواحُ إلى المساجِدِ من الجهادِ في سبيل الله عز وجل»[١].

كان زيادٌ مولى ابنِ عيَّاشٍ أحدَ العُبَّادِ الصَّالحين، وكانَ يلازِمُ مسجدَ المدينةِ فسمعوه يومًا يُعاتِبُ نفسَه، ويقول لها: أين تُريدين؟ تريدينَ أنْ تذهبي إلى أحسن من هذا المسجدِ؟ تريدين أن تُبْصِري دارَ فلانٍ ودارَ فلان[٢].

لما كانت المساجدُ في الأرضِ بيوتَ اللهِ: أضافَها اللهُ إلى نفسهِ تَشْريفاً لها. تعلَّقتْ قلوبُ المحبينَ للهِ عَزَّ وجَلَّ بها لنسبتِها إلى مَحبُوبهم، وارتاحوا[٣] إلى مُلازمتها لإظهارِ ذكرهِ فيها ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٦ـ٣٧]. أين يذهبُ المحبُّون عن بيوتِ مولاهُم؟ قلوبُ المحبين ببيوت مَحبُوبهم مُتعلِّقةٌ، وأقدامُ العابدين إلى بيوتِ مَعْبُودهم مُتَرددةٌ.

يا حبَّذا العَرْعَرُ النَّجْدِيُّ والبَانُ ... ودارُ قومٍ بأكنافِ الحمى بَانُوا

وأطيبُ الأرضِ ما للنَّفْسِ[٤] فيه هوىً ... سَمُّ الخِياطِ مع المحبوبِ مَيْدانُ

لا يُذكَرُ الرَّمْلُ إلا حَنَّ مُغْتَرِبٌ ... لـه بذي الرَّمْلِ أوطارٌ وأوطانُ

تهفُو إلى البانِ مِنْ قلبي نوازعُه ... وما بِيَ البانُ بَلْ مَنْ دارُه البانُ[٥]

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٧٣٩) مرفوعاً. وأخرجه الإمام أحمد عقب حديث (٢٢٣٠٤) موقوفاً، وهو الصواب، والله أعلم.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» (١٤٩). ومن طريقه: البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٢٩٩). وزياد هو زياد بن أبي زيادة ميسرة، مولى عبد الله بن عيَّاش القرشي المدني. وتصحف «عياش» في (ت) و(ف) إلى «عباس».

(٣) في (ش): «وانقطعت».

(٤) في (ت) و(ف): «للقلب» وأشير إليها نسخةً في حاشية (ش).

(٥) البيتان الأولان هما لإبراهيم بن عثمان الغزي، المتوفى (سنة ٥٢٣ هـ)، وهما في ديوانه (ص: ٥٢٠) =

الفصل الثَّاني

في ذِكْرِ الدَّرجاتِ المذكورةِ في حديثِ مُعاذ

وهي ثلاث:

أحدها: إطعامُ الطَّعام، وقد جعله اللهُ في كتابِه من الأسبابِ الموجبَةِ للجنَّةِ ونعيمِها. قال الله عز وجل: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ إلى قوله: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٨ ـ ٢١] الآيات؛ فوصفَ فاكهتَهم وشرابَهم جزاءً لإطعامِهم الطَّعام.

وفي «الترمذيّ» من حديث أبي سعيدٍ الخُدريِّ، عن النبيِّ ﷺ قال: «أيما مؤمنٍ أطعمَ مُؤمناً على جوعٍ أطعمَه اللهُ من ثمارِ الجنَّة، ومَنْ سقى مؤمناً على ظَمأ سقاهُ الله من الرَّحيقِ المختوم»(١).

وفي «المسند» و«الترمذي» عن عليٍّ بن أبي طالبٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: «إن في الجنَّةِ غُرَفاً يُرى ظاهِرُها من باطِنِها وباطِنُها من ظاهِرِها» قالوا: لمن هي يا

= المطبوع بتحقيق د. عبد الرزاق حسين. مركز جمعة الماجد ١٤٢٩/ ٢٠٠٨.

أما البيتان الآخران فهما للشريف الرضي في قصيدة طويلة، وفي (ت) و(ف): «يهفو إلى البان».

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٤٩) وقال: غريب، وذكر أنه رُوي موقوفاً على أبي سعيد، وقال: «وهو أصح عندنا وأشبه». وأبو داود (١٦٧٩).

رسول الله؟ قال: «لمنْ أطعمَ الطَّعامَ، وأطابَ الكلامَ، وصلَّى بالليلِ والناسُ نِيام»[١].

وفي حديثِ عبدِ الله بن سَلَام الذي خَرَّجه أهلُ السُّنَنِ: أنه سَمعَ النبيَّ ﷺ أولَ قُدومِهِ المدينةَ يقول: «أَيُها الناس! أفشُوا السَّلامَ، وأطعمُوا الطَّعامَ، وصِلُوا الأرحامَ، وصَلُّوا باللَّيلِ والناسُ نيام، تَدْخُلوا الجنَّةَ بسلام»[٢].

وفي حديثِ عُبَادةَ عن النبيِّ ﷺ: أنه سُئِل أيُّ الأعمالِ أفضلُ؟ قال: «إيمانٌ باللهِ وجهادٌ في سبيله وحَجٌّ مَبرور، وأهونُ من ذلكَ: إطعامُ الطَّعامِ ولِينُ الكَلام». خَرَّجه الإمامُ أحمد[٣].

وفي حديثِ هانئ بن يزيد أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله دُلَّني على عملٍ يُدْخِلُني الجنَّةَ ويباعدني مِنَ النَّارِ قال: «تُطْعِمُ الطَّعامَ وتُفْشي السَّلام»[٤].

وفي حديثِ حُذيفةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «من خُتِمَ لهُ بإطعامِ مِسكينٍ دخلَ الجنَّة»[٥].

وفي «الصَّحيحينِ» من حديثِ[٦] عبدِ الله بن عَمروٍ: أنَّ رجُلاً قال: يا رسولَ الله

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٣٣٨)، والترمذي (١٩٨٤) وقال: غريب. وفي ألفاظه اختلاف يسير عما هنا.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٨٥) وقال: صحيح، وابن ماجه (١٣٣٤) (٣٢٥١) واللفظ لآخرها.

(٣) أخرج أصله الإمامُ أحمد (٢٢٧١٧) لكنه بنحو هذا اللفظ عند أبي يعلى في «مسنده الكبير»، (كما في «إتحاف الخيرة المهرة» (٢).

(٤) أخرج ابن حبان (٤٩٠) (٥٠٤) نحوه، وهو بهذا اللفظ دون ذكر «النار» في «المنتقى من مسموعات مرو» للضياء المقدسي (٢٥٢).

(٥) أصله في مسند الإمام أحمد (٢٣٣٢٤)، وهو بنحو هذا اللفظ في «أخبار أصبهان» لأبي نعيم (٤٣٣).

(٦) في (ش): «عن» بدلًا من «من حديث».

أيُّ الإسلامِ خيرٌ؟ قال: «تُطعِمُ الطَّعامَ وتقرأ السلامَ على من عَرَفتَ ومَنْ لم تَعْرِف»[١].

وفي حديثِ صُهيب عن النبيِّ ﷺ قال: «خيرُكم من أطعمَ الطَّعامَ». خَرَّجَهُ الإمامُ أحمد[٢].

فإطعامُ الطَّعامِ يُوجِبُ دخولَ الجنَّةِ، ويباعِدُ من النَّارِ ويُنْجي منها، كما قال تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١١-١٦] الآية.

وفي الحديثِ الصَّحِيحِ عن النبيِّ ﷺ: «اتقوا النَّارَ ولو بِشِقِّ تمرةٍ»[٣].

وكانَ أبو موسى الأشعريُّ يقول لولده: اذكُروا صاحِبَ الرَّغيف، ثم ذكرَ أنَّ رجلاً من بني إسرائيلَ عَبَدَ اللهَ سبعينَ سنةً، ثم إنَّ الشَّيطانَ حَسَّنَ في عَيْنَيْهِ امرأةً، فأقامَ معها سبعةَ أيَّامٍ، ثمَّ خَرَجَ هارباً، فأقامَ[٤] مع مساكين، فتُصُدِّقَ عليه برغيفٍ كانَ بعضُ أولئكَ المساكين يريدُه، فآثرهُ به. ثُمَّ ماتَ. فوُزِنَتْ عبادَتُه بالسَّبعَةِ أيَّامِ التي معَ المرأةِ فرَجَحَت الأيامُ السبعةُ بعبادتِهِ، ثم وُزِنَ الرغيفُ بالسَّبعةِ الأيامِ فرجَحَ بها[٥].

ويتأكَّدُ إطعامُ الطعامِ للجَائِعِ وللجيرانِ خُصُوصاً.

وفي «الصَّحيحِ» عن أبي مُوسى الأشعريِّ عن النبيِّ ﷺ قال: «أطعِمُوا الجائعَ، وعُودوا المريض، وفُكُّوا العَاني»[٦].

---

(١) أخرجه البخاري (١٢)، ومسلم (٣٩).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢٣٩٢٩).

(٣) أخرجه البخاري من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه (١٤١٧)، ومسلم (١٠١٦).

(٤) في (ت) و(ف): «فنام».

(٥) أخرج القصة ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٦٠٥٩)، وذكرها المصنف مختصرة أيضاً في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٣٦).

(٦) أخرجه البخاري (٥٣٧٣). والعاني: الأسير.

وفي «صحيح مسلمٍ» عن أبي ذَرٍّ: أنَّ النبيَّ ﷺ قال له: «يا أبا ذرٍّ! إذا طَبَخْتَ مَرَقَةً فأكثِرْ ماءَها وتعاهَدْ جيرانَك»[1].

وفي «المُسْنَد» و«صحيحِ الحاكم» عن ابن عمر[2] عن النبيِّ ﷺ قال: «أيما أهلُ عَرْصَة[3] أصبحَ فيهم امرؤ جائعاً فقدْ بَرِئَتْ منهُم ذِمَّةُ اللهِ عَزَّ وجل»[4].

وقال ﷺ: «لا يَشْبَعُ المؤمنُ دونَ جاره»[5].

وفي «صحيحِ الحاكمِ» عن ابن عباس، عن النبيِّ ﷺ قال: «ليسَ بالمؤمنِ الذي يَشْبَعُ وجارهُ جائِعٌ»[6].

وفي رواية: «ما آمنَ مَنْ باتَ شَبْعانًا وجارُه طاوياً»[7].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٥).

(٢) سبق قلم الناسخ في (ش) فكتب: «وصحيح ابن حبان عن عمر». وكتب ناسخ (ف): «وصحيح الحاكم عن ابن عباس» وفي كليهما خطأ، والصواب المثبت اعتماداً على مصادر التخريج.

(٣) العَرْصَة: البقعة الواسعة التي تكون بين الدور ليس فيها بناء.

(٤) أخرجه الإمام أحمد (٤٨٨٠) والحاكم في «المستدرك» (٢/ ١١ ـ ١٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

قال الحاكم: «هذه الأحاديث الستة طلبتها وخرجتها في موضعها من هذا الكتاب احتساباً لما فيه الناس من الضيق والله يكشفها، وإن لم يكن من شرط هذا الكتاب»... اللهم وسع ضيق القبر على عبدك أبي عبد الله النيسابوري يا أرحم الراحمين.

(٥) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٥١٣) والحاكم في المستدرك (٤/ ١٦٧) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه. قال الذهبي: سنده جيد.

(٦) هو في «المستدرك» (٤/ ١٦٧) وقال صحيح الإسناد، ولفظه: «ليس المؤمن الذي يبيت وجاره إلى جنبه جائع».

(٧) كذا جاء مصروفاً! أخرجه ابن أبي شيبة في «الإيمان» (١٠٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، بلفظ: «ما هو بمؤمن من بات شبعان وجاره طاو إلى جانبه»، وأخرجه البزار (٧٤٢٩) بلفظ: «ليس المؤمن الذي يبيت شبعان وجاره طاوٍ» من حديث أنس رضي الله عنه.

فأفضل أنواعِ إطعامِ الطَّعامِ: الإيثارُ مع الحاجةِ كما وصفَ اللهُ تعالى بذلكَ الأنصارَ رضي الله عنهم فقال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، وقد صَحَّ أن سببَ نزولِها: أن رجلًا منهم أخذَ ضَيفاً من عند النبيِّ ﷺ ليُضَيِّفَهُ فلم يجدْ عندَه إلا قوتَ صِبْيَانِه فاحتالَ هو وامرأتُه حتى نَوَّما صِبيانَهما[١]، وقام إلى السِّراجِ كأنَّه يُصْلِحُه فأطفأه، ثم جَلَس مع الضَّيْفِ يُريه أنَّه يأكلُ معه، ولَمْ يأكلْ. فلما غَدَا على رسول الله ﷺ قال له: «لقدْ عجبَ اللهُ من صنيْعِكما الليلة» ونزلت هذه الآية[٢].

وكان كثيرٌ من السَّلَفِ يؤثِرُ بفطوره وهو صائمٌ، ويصبحُ صائماً منهم: عبدُ الله بن عُمر[٣]، وداودُ الطائي، وعبدُ العزيز بن سليمان، ومالكُ بن دينار، وأحمدُ بن حنبل، وغيرهم[٤].

وكان ابنُ عُمَر لا يُفْطِرُ إلا مع اليتامى والمساكين، وربما عَلِمَ أنَّ أهلَه قد ردُّوهُم عنه فلم يفطرْ تلكَ الليلة[٥].

ومنهم مَنْ كان لا يأكلُ إلا مع ضَيفٍ له. قال أبو السَّوَّار العَدَويُّ: كان رجالٌ من بني عَدِيٍّ يُصَلُّون في هذا المسجدِ، ما أفطرَ أحدٌ منهُم على طعامٍ قَطُّ وحدَه، إنْ وجدَ من يأكلُ معه أكلَ، وإلا أخرجَ طعامَه إلى المسجدِ فأكلَهُ مع النّاسِ وأكلَ النّاسُ معَه[٦].

---

(١) في (ت) و(ف): «نوموا صبيانهم».

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٨٩) ومسلم (٢٠٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه.

(٣) في (ت) و(ف): «عمرو» وهو خطأ.

(٤) أخبارهم عند ابن أبي الدنيا في «الجوع»: (٥٠، ٢٩٥، ٢٩٧، ٢٩٨). وتركُ الإمامِ أحمدَ للماء المثلج عند فطره في «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (ص: ٤٤٤)، وذكر المصنف في «لطائف المعارف» (ص ٣١٤) أن سائلاً جاء إلى الإمام أحمد، فدفع إليه رغيفين كان يعدهما لفطره، ثم طوى وأصبح صائماً.

(٥) «الجوع» لابن أبي الدنيا (٢٩٠).

(٦) أخرجه البرجلاني في «الكرم والجود وسخاء النفوس» (٥٥).

وكان منهم من يُطْعِمُ إخوانَه الطعامَ وهو صائمٌ ويجلسُ يخدُمُهم ويُرَوِّحهم [١] منهم: الحسنُ وابن المبارك[٢].

وكان ابنُ المبارك ربَّما يشتهي الشَّيءَ فلا يصنَعُه إلا لضيفٍ ينزلُ به، فيأكُلُه مع ضَيْفه[٣].

وكانَ كثيرٌ منهم يُفَضِّلُ إطعامَ الإخوانِ على الصَّدقةِ على المساكين. وقد رويَ هذا المعنى مرفُوعاً من حديثِ أنسٍ بإسنادٍ ضعيفٍ[٤]، ولاسيَّما إنْ كان الإخوانُ لا يجدونَ مثلَ ذلكَ الطعام.

كان بعضُهم يعملُ الأطعمةَ الفاخِرةَ، ثم يطعِمُها إخوانَه الفقراءَ ويقول: إنَّهم لا يجدُونها[٥].

وبعضهم يصنَعُ له طعاماً، ولا يأكُلُ، ويقول[٦]: إني لا أشتَهِيهِ وإنَّما صنعْتُه لأجلِكُم[٧].

---

(١) أي: يبذل خدمته لراحتهم، أو يطيبهم.

(٢) ذكر المصنف ذلك عن الحسن وابن المبارك في «لطائف المعارف» (ص ٣١٤) أيضاً. وكان ابن المبارك يطعم رفاقه الخَبِيصَ، وهو الدهر صائم. انظر: «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٣٢/ ٤٢٦).

(٣) ومثله ما روي عن أبي حمزة محمد بن ميمون السكري قال: «ما شبعت منذ ثلاثين سنة إلا أن يكون لي ضيف»، «تاريخ بغداد» (٤/ ٤٣٥).

(٤) ذكره الديلمي في «الفردوس» (٧٨٦٠) حديثاً بهذا المعنى، ولفظه: «لأن تدعو أخاك المسلم فتطعمه وتسقيه أعظم لأجرك من أن تتصدق بخمسة وعشرين درهماً».

(٥) كما نقل عن ابن سيرين رحمه الله أنه قال لأضيافه: ما أدري ما أتحفكم؟ كل رجل فيكم في بيته خبز ولحم، ولكن سأطعمكم شيئاً لا أراه في بيوتكم، فجاء بشهدة فكان يقطع بالسكين ويلقمهم. أخرجه ابن أبي الدنيا في «قرى الضيف» (٦٥).

(٦) في (ت) و(ف) بدلًا من هذه الجملة: «ومنهم من يقول».

(٧) وهو خيثمة بن عبد الرحمن رحمه الله، وخبره في «الإخوان» لابن أبي الدنيا (٢١٠)، و«حلية الأولياء» لأبي نعيم (٤/ ١١٣).

وبعضهم اتَّخذَ حلواءَ، وأطعمَه لمعتوه[١] فقال له أهلُه: إن هذا لا يدري ما يأكلُ، فقال: لكنَّ اللهَ يدري[٢].

واشتَهى الربيعُ بن خُثيم حلواءَ، فلما صُنِعتْ له دعا بالفُقراء فأكلُوا، فقال له أهله: أتعبتَنا ولم تأكلْ، فقال: ومَنْ أكلَه غيري[٣].

وقال آخرُ منهم ـ وجرى له نحو من ذلك ـ: إذا أكلتُه كانَ في الحُشِّ، وإذا أطعمتُه كانَ عندَ الله مذخوراً[٤].

ورُوي عن علي رضي الله عنه قال: لأنْ أجمعَ ناساً من إخواني على صاعٍ من طعامٍ أحبُّ إليَّ من أن أدخلَ سُوقَكُم هذا فأبتاعَ نسمةً فأعتقَها[٥].

وعن أبي جَعفر محمد بن عليٍّ قال: لأنْ أدعُو عشرةً من أصحابي فأطعمَهم طعاماً يشتهُونه أحبُّ إليَّ مِنْ أَنْ أُعتِقَ عشرةً مِنْ وَلَدِ إسماعيل[٦].

---

(١) في (ش): «اتخذ حلاوة فأطعمها المعتوه».

(٢) هو الربيع بن خثيم رحمه الله، وخبره في «حلية الأولياء» (٢/ ١٠٧) وعنده في آخر الخبر: «لكُنَّ اللهُ».

(٣) نقله ابن الجوزي في كتابه «التبصرة» (٢/ ٢٥٩).

(٤) هو داود الطائي رحمه الله تعالى. والخبر في إطعامه الأيتام أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٣٥١).

(٥) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٦٦)، وابن أبي الدنيا في «الإخوان» (١٩٩) بنحوه.

(٦) لم أجد هذا الأثر عن الإمام الجليل محمد الباقر رضي الله عنه.

وقد روي من طريق عبيد الله بن الوليد الوصافي عن أبي جعفر مرفوعاً مرسلاً: «لأن أعطي أخاً في الله درهماً أحبُّ إلي من أن أتصدق بعشرة...». انظر: «الإخوان» لابن أبي الدنيا (١٧٥).

والحديث روي بطرق مختلفة. انظر: «الزهد» لابن المبارك (٢٥٨)، و«تاريخ جرجان» (ص ٣٥٩)، و«الغيلانيات» (٧٧)، و«شعب الإيمان» للبيهقي (٩١٨١).

أأصفُ الإيثارَ لمَنْ يبخَل بأداءِ الحقوقِ الواجبةِ على الأعيان[١]؟

أأطلبُ الشَّجاعة من الجَبَان، أو أستشهدُ على رؤيةِ الهلالِ مَنْ هُو مِنْ جُملةِ العُميان؟

كم بينَ مَنْ قِيلَ فيه: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ﴾ [التوبة: ٧٦]، وبين مَنْ قِيلَ فيه ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، كم بيننا وبين القَوْم! كما بين اليَقَظة والنَّوم.

لا تَعرِضَنَّ لِذِكرنا في ذِكْرِهم ليسَ الصحيحُ إذا مشى كالمُقْعَدِ[٢]

فيا مَنْ يطمعُ في عُلوِّ الدرجاتِ من غيرِ عملٍ صالحٍ هيهات هيهات ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية: ٢١].

نزلوا بمكةَ في قبائلِ نَوْفَلٍ[٣] ونَزَلْتَ بالبَيْداءِ أبعدَ مَنْزِلِ[٤]

الثاني من الدَّرجَات: لينُ الكلام، وفي روايةٍ إفشاءُ السَّلام، وهو داخلٌ في لِينِ الكلامِ وقد قال الله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣] وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [البقرة: ٥٣] وقال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] وقال تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى

---

(١) في (ش): «عليه» بدلًا من «على الأعيان».

(٢) نسبه المصنف في «فضل علم السلف» إلى ابن المبارك، وفي «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٨/ ٢٦٦): أنَّ مَخْلد بن الحسين كان يتمثل به.

(٣) في (ت) و(ف): «هاشم». ويُذكر هذا البيت في المصادر باللفظين.

(٤) هذا البيت تمثَّل به كثير من المؤلفين في ذكر المفارقة بين الأشياء. وقد أورده القاضي عبد الحق الإشبيلي في كتابه «العاقبة في ذكر الموت». (ص ١٧٧).
وأتبعه بعدة أبيات على وزنه وقافيته، ثم قال: «البيت الأول قديم».

هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [العنكبوت: ٤٦] ولمّا قال النبيُّ ﷺ: «الحجُّ المبرورُ ليسَ له جزاءٌ إلا الجنَّة» قالوا له: وما الحجُّ المبرورُ يا رسولَ الله؟ قال: «إطعامُ الطَّعامِ ولِينُ الكلامِ» خَرَّجَه الإمامُ أحمد[١].

وقد تقدَّمَ في ذكرِ إطعامِ الطَّعامِ أحاديثُ أُخَرُ في طِيبِ الكلام.

وفي الحديثِ الصَّحيح عن النبيِّ ﷺ: «والكلمةُ الطَّيبةُ صدقة»[٢].

وفيه أيضاً: «اتَّقوا النارَ ولو بشِقِّ تمرةٍ، فمنْ لم يَجدْ فبِكلمةٍ طَيبةٍ»[٣].

وأما إفشاءُ السَّلامِ فمن مُوجباتِ الجنَّة.

وفي «صحيحِ مُسلم» عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «والذي نفسي بيدِه لا تَدْخُلُوا الجنَّةَ حتى تُؤمنُوا، ولا تؤمنُوا حتى تحابُّوا، ألا أَدُلُّكُم على شيءٍ[٤] إذا فَعلتُموه تحاببتُم: أفشُوا السَّلامَ بينكُم»[٥].

وخَرَّجَ الإمامُ أبو داودَ من حديثِ أبي أُمامة، عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ أولى الناسِ بالله مَنْ بدأَهُم بالسَّلام»[٦].

---

(١) أخرجه من حديث جابر رضي الله عنه: الإمام أحمد (١٤٤٨٢) (١٤٥٨٢) لكن عنده: «وإفشاء السلام» بدلاً من «لين الكلام».

وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٨٣) ولفظه: «وطيب الكلام». وقال: صحيح الإسناد...

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩).

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٤٠)، وسبق تخريجه من موضع آخر في الصحيح من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٤) في (ف): «عمل».

(٥) أخرجه مسلم (٥٤).

(٦) أخرجه أبو داود (٥١٥٥).

ويُروى من حديثِ ابنِ مسعودٍ مرفوعاً وموقوفاً: إذا مَرَّ الرجلُ بالقومِ فسلَّمَ عليهم فردُّوا عليه كانَ لهُ عليهم فضْلُ درجةٍ؛ لأنه ذكرهم بالسَّلام، وإنْ لَمْ يَرُدوا عليه رَدَّ عليه ملأٌ خيرٌ منهم وأطيب[١].

وقد رُوي من حديثِ عِمران بن حُصين وغيره: أنَّ رجُلاً دخل على النبيِّ ﷺ فقال: السلامُ عليكم فقال النبيُّ ﷺ: «عشر» ثم جاءَ آخرُ فقال: السلامُ عليكم ورحمةُ الله، فقال رسول الله ﷺ: «عشرون»، ثم جاءَ آخرُ فقال: السلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاتُه، فقال رسول الله ﷺ: «ثلاثون». خَرَّجَه الترمذيُّ وغيرهُ[٢].

وخَرَّجَه أبو داودَ وزاد: ثم جاءَ آخرُ فقال: السلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاتُه ومغفرتُه، فقال النبيُّ ﷺ: «أربعون»، ثم قال: «هكذا تكون الفضائل»[٣].

وقد سبقَ حديثُ: «أن تقرأ السَّلامَ على من عَرَفتَ ومن لم تَعْرِفْ»[٤].

وفي حديث ابن مسعود مرفوعاً: «من أشراطِ الساعة: السلامُ بالمعرفة». خرَّجهُ الإمامُ أحمد[٥].

وإنما جمعَ بين إطعامِ الطَّعام ولِينِ الكلام، ليكمُلَ بذلكَ الإحسانُ إلى الخَلْقِ بالقولِ والفِعل، فلا يتمُّ الإحسانُ بإطعامِ الطَّعامِ إلا بِلِيْنِ الكلامِ وإفشاءِ السَّلام، فإن

---

(١) أخرجه موقوفاً البخاري في «الأدب المفرد» (١٠٣٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨٤٠٠) وقال: وقد روي مرفوعاً من وجه ضعيف (٨٤٠١)، وروي من وجه آخر مرفوعاً وهو أيضاً ضعيف (٨٤٠٢) (٨٤٠٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٧١) وقال: حديث حسن غريب.

(٣) أخرجه أبو داود (٥١٥٣) (٥١٥٤).

(٤) في أول الفصل الثاني.

(٥) انظر: «مسند الإمام أحمد» (٣٨٤٨).

إساءَة الكلام[1] تُبْطِلُ الإحسانَ بالفعلِ من الإطعامِ وغيرِه، كما قال اللهُ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤] وربما كانَ معاملةُ الناسِ بالقَولِ الحسنِ أحبَّ إليهم مِنَ الإحسانِ بإعطاءِ المالِ، كما قال لقمانُ لابنه: يا بُنَيَّ لتكن كلمتُك طيبةً، ووجهُك منبسطاً؛ تكن أحبَّ إلى الناسِ ممن يُعطيهم الذَّهبَ والفِضَّة[2].

وقد كانَ النبيُّ ﷺ يُلينُ القولَ لمن يُشْهَدُ له بالشَّرِّ؛ فيتَّقي بذلكَ شرَّه[3]. وكانَ ﷺ لا يواجِهُ أحداً بما يَكْره في وَجْهِه[4]، ولم يكنْ ﷺ فَحّاشاً ولا مُتَفَحِّشاً[5].

ورُوي عن ابن عُمرَ أنه كان يُنْشِدُ:

[بُنيَّ] إنَّ البِرَّ شيءٌ هيِّنُ … وَجْهٌ طليقٌ وكلامٌ لَيِّنُ[6]

ولبعضهم:

خُذِ العفوَ وأمُرْ بعُرْفٍ كما … أُمِرتَ وأعرضْ عَنِ الجاهلين

ولِنْ في الكلامِ لكلِّ الأنامِ … فمُسْتكبرٌ من ذوي الجاهِ لين[7]

---

(١) في (ش): «فإن أساء بالقول».

(٢) أخرج وكيع في «الزهد» (٤٢٢)، وابن المبارك في «الزهد» (٣٧٣) عن عروة بن الزبير قال: مكتوب في الحكمة، وذكر «العطاء» بدل «الذهب والفضة».

(٣) كما في حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري (٦٠٣٢)، ومسلم (٢٥٩١).

(٤) كما في حديث أنس رضي الله عنه عند الترمذي في «الشمائل» (٣٤٤)، وأبي دواد (٤١٧٩).

(٥) أخرجه البخاري (٣٥٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو، ومسلم (٢٣٢١). ولفظه: «لم يكن فاحشاً».

(٦) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٧٠٢)، وليس فيه ذكر أنه كان ينشد.

وانظر: «الكامل» للمبرد (٢/ ٥٥١). وهذا الرجز يذكر في أوله: «بُنيَّ»، وليست في نسخ الكتاب، لكن الوزن لا يستقيم بدونها.

(٧) ذكرهما القيرواني في «زهر الآداب وثمار الألباب» (٢/ ٤٢٧)، ونسبهما إلى أبي الفتح البستي. ووقع عنده: «فمستحسن من ذوي الجاه لين»، وهو أولى وأنسب مما هنا.

وقد وصفَ اللهُ عزَّ وجلَّ في كتابه أهلَ الجنَّةِ بمعامَلَةِ الخَلْقِ بالإحسانِ بالمالِ واحتمالِ الأذى، فقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٤] الآية. فالإنفاقُ في السَّراءِ والضَّراءِ يقتضِي: غايةَ الإحسانِ بالمالِ من الكثرةِ والقِلَّةِ، وكَظْمُ الغَيْظِ والعفوُ عن النَّاسِ يقتَضِي: عدمَ المقابلةِ على السُّوءِ بمِثْلِه[1] من قولٍ أو فعلٍ، وذلك يتضمنُ إلانةَ القولِ واجتنابَ الفُحْشِ والإغلاظِ في المَقالِ ولو كانَ مُباحاً، وهذا نهايةُ الإحسانِ، فلهذا قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

ومن هذا قولُ بعضِهم ـ وقد سُئِلَ عن حُسْنِ الخُلُق ـ فقال: بَذْلُ النَّدى وكَفُّ الأذى[2]، وهذا الوصفُ المذكورُ في القرآنِ أكملُ من هذا؛ لأنَّه وصفَهُم ببذْلِ النَّدى واحتمالِ الأذى، وحُسنُ الخُلُق يبلُغُ به العبدُ درجاتِ المجتهدين في العبادة، كما قالَ النبيُّ ﷺ: «إنَّ الرجلَ ليدرِكُ بحُسْنِ خُلُقِه درجةَ الصَّائِم النَّهارَ والقائمِ الليلَ»[3].

ورُؤي بعضُ السَّلَفِ في المنام فسُئِل عن بعضِ إخوانِه الصَّالحين، فقال: وأينَ ذاكَ؟ رُفِعَ في الجنَّةِ بحسُنِ خُلُقِه[4].

---

(١) في (ش): «المقابلة على السيئة من قول وفعل».

(٢) نسبه الغزالي في «إحياء علوم الدين» (٣/ ٦٠٤) إلى الحسن رحمه الله. وكذلك نسبه إليه ابنُ تيمية في «الإيمان» (ص ١٠).

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٢٥٥٣٧) وأبو داود (٤٧٦٥) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها، وليس فيه لفظ النهار والليل.

(٤) لم أجده عند غير المصنف.

ومما يُنْدبُ إلى إلانةِ القولِ فيه: الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المُنْكرِ، وأنْ يكونَ برِفْقٍ كما قال تعالى في حَقِّ الكُفَّارِ: ﴿وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

قال بعضُ السَّلفِ: ما أَغْضَبْتَ أحداً فقَبِلَ مِنْكَ[١].

وكانَ أصحابُ ابنِ مسعودٍ إذا رأوا قوماً على ما يُكْرَه يقولون لهم: مَهْلاً مَهْلاً، بارك اللهُ فيكم[٢].

ورأى بعضُ التابعين رجلاً واقفاً مع امرأةٍ، فقال لهما: إنَّ الله يراكما[٣]، سَتَرَنا اللهُ وإياكُما[٤].

ودخلَ[٥] الحسنُ إلى دَعْوة، فجِيءَ بآنيةِ فِضَّةٍ فيها حَلواء، فأخذَ الحسنُ الحلواءَ فقَلَبَها على رَغيفٍ وأكلَ منها، فقال بعضُ من حَضَرَ: هذا نَهْيٌ في سُكُونٍ[٦].

ورأى الفُضَيلُ رجلاً يَعْبثُ في صَلاته فزَبرَهُ، فقال له الرجل: يا هذا يَنْبَغِي لمنْ يقومُ لله أنْ يكونَ ذليلاً! فبكى الفُضَيلُ، وقال له: صَدَقْتَ[٧].

قالَ شُعيبُ بنُ حَربٍ: ربَّما مَرَّ سفيانُ الثَّوريُّ بقومٍ يلعبونَ بالشَّطْرَنْجِ، فيقول: ما يصنَعُ هؤلاء؟ فيقالُ له: يا أبا عبدِ الله ينظرونَ في كتابٍ! فيُطأطِئ رأسَه، ويمضِي. وإنَّما يريُد بذلكَ ليُعْلَمَ أنه قدْ أنكرَ[٨].

---

(١) أخرجه الخلال في «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (ص ٢٦) من كلام سليمان التيمي.

(٢) أخرجه الخلال في «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (ص ٢٥).

(٣) أشير في حاشية (ف) إلى نسخة: «يرانا».

(٤) في (ش): «سترنا الله وإياكم» أخرجه ابن أبي الدنيا في «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (٤٦)، والتابعي هو محمد بن المنكدر رحمه الله تعالى، ويذكر هذا عن غيره أيضاً.

(٥) في (ش): «ودعي».

(٦) أخرجه الخلال في «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (ص ٢٥).

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (٦٤). ومعنى زَبَرَه: زَجره وانتهزه.

(٨) لم أظفر به عند غير المصنف.

وقال سفيانُ: لا يأمرُ بالمعروفِ ولا يَنْهى عن المنكرِ إلا من كانَ فيه خصالٌ ثلاثٌ: رفيقٌ بما يأمرُ، رفيقٌ بما يَنْهى، عَدْلٌ بما يأمرُ، عَدْلٌ بما يَنْهى، عالمٌ بما يأْمُرُ، عالمٌ بما يَنْهى(١).

وقال الإمامُ أحمدُ: الناسُ يحتاجُونَ إلى مُداراةٍ ورِفقٍ في الأمرِ بالمعروفِ بلا غِلْظة، إلا رجلاً مُعلناً بالفِسقِ فإنه لا حُرمةَ له(٢).

وكانَ كثيرٌ من السَّلَفِ لا يأمرُ بالمعروفِ ولا ينْهى عنِ المنكرِ إلا سِرًّا فيما بينَه وبين مَنْ يأمُرُه وينهاهُ.

وقالتْ أمُّ الدرداء: مَنْ وَعَظَ أخاهُ سِرًّا فقد زانَه، ومَنْ وعظَه علانيةً فقد شَانه(٣).

وكذلك مقابلةُ الأذى بإلانةِ القولِ كما قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢].

قال بعضُ السَّلَفِ: هو الرجلُ يسبُّه الرجلُ، فيقول له: إنْ كنتَ صادقاً فغَفَر اللهُ لي، وإن كنتَ كاذِباً فَغَفَر اللهُ لَكْ(٤).

قال رجلٌ لسالمِ بن عبدِ الله ـ وقدْ زحمتْ راحلتَه راحلتُه في سَفرٍ ـ: ما أُراكَ إلا رجلَ سُوءٍ! فقالَ له سالمٌ: ما أُراكَ أبعدتَ(٥).

---

(١) أخرجه الخلال في «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (ص ٢٤).

(٢) أخرجه الخلال في «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (ص ٢٤).

(٣) أخرجه الخلال أيضاً (ص ٢٧ ـ ٢٨)، ووقع في (ش): «وقال أبو الدرداء...»!

(٤) روي عن أنس رضي الله عنه: أخرجه ابن أبي الدنيا في «مداراة الناس» (٤٩)، وهو عند ابن المنذر كما عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (١٣/ ١١٥). ووقع في (ت): «فيغفر» في الأول، ووقع في (ف): «فيغفر» في الموضعين. وهو منقول أيضاً عن علي بن الحسين والشعبي رحمهما الله.

(٥) أورده ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (١/ ٣٥٢).

وقالت امرأة لمالكِ بن دينارٍ: يا مُرائي! قال: متى عرفتِ اسمي؟ ما عرفه أحدٌ من أهلِ البَصرةِ غيرُك[١]!

ومرَّ بعضُهم على صبيانٍ يلعبونَ بجَوزٍ، فوطِئ على بعضِ الجوزِ بغيرِ اختيار فكسرَهُ، فقال له الصبيُّ: يا شيخَ النار! فجلسَ الشيخُ يبكي ويقول: ما عرفني غيرهُ[٢]

ومَرَّ بعضُهم مع أصحابهِ في طريقٍ، فرمَوا عليهم رماداً، فقال الشيخُ لأصحابه: مَنْ يستحقُّ النارَ فصالَحُوه على الرَّماد[٣]، يعني: فهو رابحٌ[٤].

ورأى جُنديٌّ إبراهيمَ بنَ أدهم خارجَ البلدِ، فسألهُ عن العمران، فأشارَ له إلى القبورِ، فضربَ رأسهَ، ومضى. فقيل له: إنه إبراهيمُ بنُ أدهم، فرجعَ يعتذرُ إليه. فقال له إبراهيمُ: الرأسُ الذي يحتاجُ إلى اعتذارِكَ تركتُهُ ببَلْخٍ[٥].

ومرَّ به جنديٌّ آخرُ وهو ينطُر بستاناً لقومٍ بأُجرة، فسأله أنْ يناولِهُ من البستانِ شَيئاً، فلمْ يفعلْ قال: إنَّ أصحابهَ لمْ يأذنُوا لي في ذلك، فضربَ رأسَه، فجعلَ إبراهيمُ يطأطِئُ رأسَه، ويقول: اضربْ رأساً طالما عصى الله.

---

(١) أورده كذلك القشيري في «رسالته» (٢/ ٤٠٠).

وأخرجه أن رجلاً قال لمالك: أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٣٩)، والخطيب البغدادي في «الزهد والرقائق» (٦٢) ومن طريقه: ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٦/ ٤١٩).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الأولياء» (٩٠).

(٣) في (ف): «بالرماد».

(٤) ذكر ذلك فريد الدين العطار في «تذكرة الأولياء» (ص ٤٠٩) في ترجمة أبي عثمان الحيري عنه. توفي رحمه الله تعالى (سنة ٢٩٨هـ).

(٥) ذكره ابن الجوزي في «المدهش» (ص ١٨١). ووقع في (ش): «إعذارك».

وبَلْخ: مدينة من أمهات مدن خراسان، وتقع الآن في أفغانستان، وفي حاشية (ت): «هي مسكن إبراهيم بن أدهم».

مِـن أجلـك قـد جعلـتُ خـدِّي أرضاً ... للشَّـامت والحَسُـود حتَّـى ترضـى[١]

الثالث من الدَّرجات: الصَّلاةُ بالليلِ والنَّاسُ نِيام، فالصلاةُ بالليلِ من مُوجباتِ الجنَّةِ كما سبق ذكرُه في غيرِ حديثٍ، وقد دَلَّ عليه قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٥ ـ ١٩]، فوصفهم بالتَّيقُّظِ بالليل، والاستغفارِ بالأسحارِ، وبالإنفاقِ من أموالِهم.

كانَ بعضُ السَّلَفِ نائماً، فأتاه آتٍ في منامِه، فقال له: قُمْ فصَلِّ، أما علمتَ أنَّ مفاتيحَ الجنَّةِ مع أصحابِ اللَّيلِ؟! هم خُزَّانُها. هُمْ خُزَّانُها[٢].

وقيامُ الليلِ يوجِبُ علوَّ الدرجاتِ في الجنَّةِ قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، فجعلَ جزاءَه على التَّهجُّدِ بالقرآنِ بالليلِ أَنْ يبعثَهُ المقامَ المحمودَ، وهو أعلى درجاتِهِ ﷺ.

قـال عونُ بـنُ عبـدِ الله: إن الله يُدْخِلُ الجنَّـةَ أقوامـاً[٣]، فيعطيْهِم حتـى يَمَلُّوا[٤]،

---

(١) ذكر الخبر مع الشعر ابن الجوزي في «المدهش» (ص ١٨١).
وجاء هنا في حاشية (ش): «بلغ».
ولا يُفهم من هذا وأمثاله من الأخبار تسويغ الظلم لفاعله، وإنما هو من احتساب الأجر لمن وقع عليه الظلم، والتفاته عن ألم الظلم إلى الطمع بتكفير الخطايا في الدنيا، والتخفف بذلك من عذاب الآخرة. والله تعالى أعلم.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التهجد وقيام الليل» (٤٨٨). والرائي لذلك كنيته أبو خزيمة، ونقله عن المصنف السفاريني في «كشف اللثام» (٣/ ٤٩).

(٣) في (ت) و(ف): «يُدخل الله الجنة...».

(٤) هكذا جاء رسمها في النسخ الخطية، وفي المطبوع في «مختصر قيام الليل» للمروزي: يثملوا! وهو بهذا الرسم لكن بالتاء في مطبوعتي «الزهد» و«الحلية»: «يَتَمَلَّوا» ولعله هو الصواب.

وفوقَهـم ناسٌ في الدرجـاتِ العُلى، فلما نَظَـروا إليهم عَرَفُوهم، فقالـوا: ربَّنَا إخواننا كنَّـا معهـم، فبِـمَ فضَّلتَهُم علينا؟ فيقـول: هيهات هيهـاتَ. إنَّهم كانـوا يَجُوعُونَ حين تَشْبَعُون، ويَظمـؤون حيـن تَـرْوَوْن، ويقومُـون حيـنَ تنامُـون، ويشـخصون حيـن تخفضون[1][2].

ويُوْجِبُ أيضاً مِنْ نعيمِ الجنَّةِ ما لم يطَّلِعْ عليه العبادُ في الدنيا: قال تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٦ ـ ١٧].

وفـي «الصَّحِيـحِ» عـن النبـيِّ ﷺ قال: «يقـول اللهُ عـزَّ وجلَّ: أعـددتُ لعبادي الصالحيـنَ مـا لا عيـنٌ رأتْ، ولا أذنٌ سـمعتْ، ولا خَطَـرَ علـى قلبِ بَشـرٍ، اقرؤوا إنْ شـئتمْ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السـجدة: ١٧]»[3].

قالَ بعضُ السَّلَفِ: أخفَوا للهِ عملاً، فأخفى اللهُ لهمُ الجزاءَ، فلو قَدْ قدمُوا عليه لأقرَّ[4] تلكَ الأعينَ عندَه[5].

ومما يجزي به المتهجدينَ في الليل: كثرةُ الأزواجِ من الحُورِ العِيْن في الجنَّةِ،

---

(١) المثبت من (ت)، وفي (ف): «ويستحفون»، وفي (ش): «تحفظون» وكلاهما تصحيف.

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٩٩)، وهو في «مختصر قيام الليل ورمضان والوتر» لمحمد بن نصر المروزي، للمقريزي (ص ٥٩)، و«الحلية» لأبي نُعيم (٤/ ٢٤٧). والأثر مقطوع.

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٨٠) ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) في (ف): «أخفوا لله العمل»، وفي (ف): «لأقر لهم».

(٥) هو تتمة للحديث السابق. قال أبو صخر ـ أحد رواته ـ فأخبرتها محمد بن كعب القرظي، فذكره... أخرجه محمد بن نصر المروزي في «قيام الليل» (مختصره ـ ص ٣٧)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (١٢٢)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٦٣)، وقال: صحيح الإسناد. والروياني في «مسنده» (١٠٤٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٥١٤) وابن عساكر في «معجم الشيوخ» (٨٨٥).

فإنَّ المُتَهَجِّدَ قدْ تركَ لذَّةَ النومِ باللَّيل ولذَّةَ التمتُّعِ بأزواجِه؛ طلباً لما عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ، فعوَّضَهُ الله تعالى خيراً مما تركَه، وهو الحورُ العِينُ في الجنَّة، ومن هنا قال بعضهم: طولُ التَّهجُّدِ مهورُ الحورِ العِيْنِ في الجنَّةِ[1].

كانَ بعضُ السَّلَفِ يُحيي الليلَ صلاةً[2]، ففترَ عن ذلكَ، فأتاهُ آتٍ في منامهِ، فقال له: قد كنتَ يا فلانُ تَدْأَبُ في الخِطْبَة، فما الذي قَصَّرَ بكَ عن ذلك؟ قال: وما ذلك؟ قالَ: كنتَ تقومُ من الليلِ، أوما علمتَ أنَّ المتهجِّدَ إذا قامَ إلى تَهَجُّدِهِ[3] قالت الملائكة: قد قامَ الخاطِبُ إلى خِطْبَتِه[4].

ورأى بعضُهم في منامه امرأةً لا تُشْبِهُ نساءَ الدُّنيا، فقال لها: مَنْ أَنْتِ؟ قالت: حوراءُ أمةُ الله، فقال لها: زَوِّجيني[5] نفسَكِ. قالت: اخطُبني إلى سيِّدي، وأَمهِرْني. قال: وما مَهْرك؟ قالت: طولُ التَّهَجُّدِ[6].

نامَ بعضُ المُتهجِّدينَ ذاتَ ليلةٍ فرأى في مَنامِهِ حوراءَ تُنْشِدُه:

أتخطُبُ مِثْلِي وعَنِّي تَنَامْ ... ونُومُ المحبِّينَ عَنَّا[7] حَرَامْ

لأنَّا خُلِقْنَا لكلِّ امرِئٍ ... كثيرِ الصلاةِ براهُ الصِّيامْ[8]

---

(١) كما سيأتي بَعْدَ خبر.

(٢) في (ش): «في صلاة».

(٣) في (ش): «التهجد».

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التهجد وقيام الليل» (٢٥٣).

(٥) في (ت) و(ف): «زوَّجتيني؟».

(٦) ذكره أزهر بن ثابت التغلبي عن والده، كما في «مختصر قيام الليل» للمروزي (ص ١٠٥).

(٧) في (ت) و(ف): «عني».

(٨) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٣٢٦) في ضمن قصة. والأبيات من البحر السريع. ومعنى «براه الصيام»؛ أي: نحت بدَنه كما يُبرى العود.

وكانَ لبعضِ السَّلَفِ وِرْدٌ من اللَّيل، فنامَ عنْهُ ليلةً فرأى في منامِهِ جاريةً، كأنَّ وجهَهَا القَمَرُ، ومعها رَقٌّ فيه كتابٌ مكتوبٌ، فقالت: أتقرأُ؟ قال: نعم، فأعطته إيَّاه، ففتحه، فإذا فيه مكتوب:

أَأَلهتْكَ اللَّذائذُ والأماني ... عن الفِردوسِ والظُّلَلِ الدَّواني

و[1] لذةُ نَومَةٍ عن خيرِ عَيْشٍ ... مَعَ الخيراتِ في غُرَفِ الجِنَانِ

تعيشُ مخلَّداً لا موتَ فيها ... وتَنْعَمُ في الجِنَانِ مع الحِسَانِ

تيقَّظْ من مَنامِكَ إنَّ خَيْراً ... مِنَ النومِ التهجُّدُ بالقُران

فاستيقظ، قال: فوالله ما ذكرتُها إلا ذهبَ عني النومُ[2].

كانَ بعضُ الصَّالحينَ له وِردٌ، فنام ليلةً عنه، فوقفَ عليه فتى في منامه، فقال له بصوت محزون:

تَيَقَّظْ لساعاتٍ[3] من اللّيلِ يا فتى ... لعلَّك تحظَى في الجِنانِ بحُورِها

---

(١) سقط البيت الأول من النسخة (ش) وجاء الثاني فيه هكذا:

أألهتْكَ لذة نومة عن خير عيش ... مع الخيرات في غرف الجنان

(٢) ذُكرت هذه القصة بصيغ متعددة، وأقربها ما في «فضل قيام الليل والتهجد» للآجري (١١٥)، و«التهجد وقيام الليل» لابن أبي الدنيا (٢٥٠)، «والمنامات» (٢٣٢) و«مختصر قيام الليل» للمروزي (ص ١٠٥).

وذكرها أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٥) مسندة إلى أبي سليمان الداراني بنحوها. وأوردها الغزالي في «الإحياء» (٢/ ٢٥٣) وعزاها إلى مالك بن دينار. والأبيات من البحر الوافر.

(٣) في (ت) و(ش): «ساعات».

فتَنْعَمَ في دارٍ يدومُ نعيمُها ... محمدُ فيها والخليلُ[١] يزورُها
فقُمْ فتيقَّظْ ساعةً بعدَ ساعةٍ ... عساكَ تُقضِّي ما بَقِيْ مِنْ مُهورِها[٢]

كانَ بعضُ السَّلفِ الصالحين كثيرَ التَّعبُّدِ[٣]، وبَكى شَوقاً إلى اللهِ تعالى ستينَ سنةً، فرأى في منامه كأنَّه على ضِفَّةِ نَهْرٍ يجري بالمسكِ، حافتاه شجرُ لؤلؤٍ ونَبْتٌ من قضبانِ الذَّهبِ، فإذا بِجَوارٍ[٤] مُزَيَّناتٍ يقلنَ بصوتٍ واحدٍ: سبحانَ المُسَبَّحِ بكلِّ لسانٍ، سبحانَه. سبحانَ المُوحَّد[٥] بكلِّ مكانٍ، سبحانَه. سبحانَ الدَّائمِ في كلِّ الأزمانِ، سبحانه. فقال لهن: ما تصنعنَ هاهنا؟ فقلن:

ذَرانا إلهُ النَّاسِ ربُّ محمدٍ ... لقومٍ على الأقدامِ بالليلِ قُوَّمُ
يناجُونَ ربَّ العالمينَ إلهَهم ... وتَسْرِي همومُ القَومِ والنَّاسُ نُوَّمُ

فقال: بَخٍ بَخٍ لهؤلاء، مَنْ هم؟ لقد أقرَّ اللهُ أعينَهم بِكُنَّ فقلن: أوما تعرفُهم؟! قال: لا. فقلن: بلى هؤلاءِ المتهجِّدونَ أصحابُ القرآنِ والسَّهرِ[٦].

وكانَ بعضُ الصَّالحين ربَّما نامَ في تهجُّده، فتوقظه الحوراءُ في[٧] منامه، فيستيقظُ بإيقاظها.

---

(١) في (ت) و(ف): «والجليل»، وفي «فضل قيام الليل»: «والخليل بدورها».

(٢) أخرجه الآجري في «فضل قيام الليل» (٢٦).

(٣) في (ف): «التهجد» وأشار في الحاشية إلى نسخة موافقة للمثبت.

(٤) في (ت) و(ف): «بحُور».

(٥) هكذا في نسخنا، وفي مطبوعات مصادر التخريج: «الموجود». ويستقيم معناه أن يكون: الموجود بعلمه بكل مكان.

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التهجد وقيام الليل» (٢٩٢)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٤٤). والرائي هو مطهَّر السعدي رحمه الله تعالى. والأبيات من البحر الطويل.

(٧) في (ت) و(ف): «من».

ورُوِيَ عن أبي سُليمانَ الدَّاراني أنَّه قالَ: ذهبَ بي النومُ ذات ليلةٍ في صلاتي، فإذا بها - يعني الحوراء - تنبِّهُني وتقول: يا أبا سليمان! أترقدُ وأنا أُرَبَّى لكَ في الخُدورِ[١] منذ خمسمائة سنة[٢].

وفي رواية عنه: أنَّه نامَ ليلةً في سُجوده. قال: فإذا بها قَدْ ركضَتْني برِجْلِها، وقالت: حبيبي! أترقدُ عيناكَ، والمَلِكُ يقظان ينظرُ إلى المتهجِّدينَ في تهجُّدِهم؟ بؤساً لعَينٍ آثرتْ لذَّةَ نومٍ على مناجاةِ العزيزِ. قُمْ فقد دنا الفراغُ، ولقيَ المحبونَ بعضُهم بعضاً، فما هذا الرقاد؟ حبيبي وقرة عيني! أترقدُ عيناكَ، وأَنا أُربَّى لكَ في الخدورِ منذُ خمسمائة عام؟ فوثبَ فَزِعاً، وقد عرقَ من توبيخِها له. قال: وإنَّ حلاوةَ منطِقِها لفي سَمْعي وقَلْبي[٣].

وكانَ أبو سليمان يقول: أهلُ الليل في لَيْلِهمْ ألذُّ مِنْ أهلِ اللَّهوِ في لَهْوهم، ولولا الليل ما أحببتُ البقاءَ في الدُّنيا[٤].

وقالَ يزيدُ الرَّقاشيُّ لحبيبٍ العَجَميِّ: ما أعلمُ شَيئاً أقرَّ لعيونِ العابدين في الدُّنيا من التهجُّدِ في ظُلمةِ الليلِ، وما أعلمُ شيئاً من نَعِيم الجِنَان وسُرورها ألذَّ عندَ العابدين، ولا أقر لعيونهم من النَّظَرِ إلى ذي الكِبرياءِ العظيم، إذا رُفِعتْ تلكَ الحُجُبُ وتجلَّى لهمُ الكريمُ. فصاحَ حبيبٌ عند ذلكَ وخَرَّ مَغْشِيًّا عليه[٥].

---

(١) في (ش): «الخِدْر».

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٥٩).

(٣) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٠٢، ٢٩٣٤)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٤/ ١٤٧).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٢٧٥)، والخطيب في «المنتخب من كتاب الزهد والرقائق» (٦٤)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٤/ ١٤٦).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التهجد وقيام الليل» (٣٤٨).

وكانَ السَّريُّ يقولُ: رأيتُ الفوائدَ تَرِدُ في ظَلامِ اللَّيل[(١)].

وقالَ أبو سليمان: إذا جَنَّ الليلُ وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبه: افترشَ أهلُ المحبَّةِ أقدامَهم وجَرَتْ دموعُهم على خُدودِهم أشرفَ الجليلُ جل جلاله فنادى يا جبريلُ بعيني من تلذَّذَ بكلامِي، واستروحَ إلى مُناجاتي. نادِ فيهم يا جبريلُ: ما هذا البكاءُ، هل رأيتم حَبيباً يعذِّبُ أحبَّاءَه، أم كيفَ يجمُلُ بي أن أُعذِّبَ قوماً إذا جنَّهم الليلُ تملَّقُوني، فبي حلفتُ إذا قدموا عليَّ يومَ القيامة لأكشِفَنَّ لهم عن وَجهي ينظرُون إليَّ وأنظرُ إليهم[(٢)].

وسُئِلَ الحسنُ البصريُّ: لِمَ كان المتهجِّدونَ أحسنَ النَّاسِ وُجوهاً؟ قال: لأنَّهم خَلَوا بالرحمنِ فألبَسَهُم نُوراً من نُوره[(٣)].

رأت امرأةٌ من الصَّالحاتِ في مَنامها كأنَّ حُللاً قد فُرِّقَتْ على أهلِ مسجدِ محمد ابن جُحادةَ، فلما انتهى الذي يُفرِّقها إليه؛ دعا بسَفَطٍ مختومٍ فأخرجَ منه حُلَّةً صفراءَ. قالت: فلم يَقُم لها بصري، فكساه إيَّاها، وقال: هذه لكَ بطولِ السَّهَر. قالت: فوالله لقدْ كنتُ أراه ـ تعني محمد بنَ جُحَادة ـ بعدَ ذلكَ فأتخايلها عليه ـ تعني تلكَ الحُلَّة ـ[(٤)].

قال كُرْزُ بنُ وَبْرَةَ: بلغني أن كَعبًا قال: إنَّ الملائكةَ ينظرونَ من السماءِ إلى الذين يُصَلُّون[(٥)] بالليل، كما تنظرون أنتم إلى نجومِ السَّماءِ[(٦)].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١١٩، ١٢١).

(٢) أخرجه مطولًا بأكثر من هذا: أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٦). وأخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» مختصراً (٣٤/ ١٣٨).

(٣) أخرجه الآجري في «فضل قيام الليل» (٨). وهو في مختصر «قيام الليل» للمروزي (ص ٥٨).

(٤) أخرجه ابن الجوزي في «المنتظم» (٧/ ٢٨٣) في ترجمة محمد بن جحادة، وذكره في «صفة الصفوة» (٢/ ٧٢).

(٥) في (ش): «يتهجدون» وفي حاشيتها نسخة موافقة لما أثبتناه.

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التهجد وقيام الليل» (٣٦٢)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٤٣).

يـا نفسُ فـازَ الصَّالحـون بالتُّـقـى وأبـصَروا الحـقَّ وقلبـي قـدْ عـمـي

يـا حُسْـنَهم والليـلُ قـدْ جنَّهـم ونُـورهُـم يـفـوقُ نـورَ الأنجُـم

ترنَّمـوا بـالـذِّكـرِ فـي لَيْلِهـم فعيشُهُـم قـدْ طـابَ بالتَّرنُّـم

قلوبُهـم للذِّكـرِ قـد تفرَّغـتْ دمُـوعُهـم كـلُـؤلـؤٍ منتَظِـمِ

أسحارهم[1] بهـم لهـم قـدْ أشـرَقَتْ وخِلَـعُ الغُفْـرانِ خيـرُ القِسَـمِ[2]

في بعض الآثار يقولُ اللهُ عز وجل كلَّ ليلةٍ: يا جبريلُ أقمْ فُلاناً وأنمْ فلاناً[3].

قامَ بعضُ الصَّالحين في ليلةٍ باردةٍ، وكان عليه خُلْقان[4] رثَّـة، فضربَه البردُ، فبكى فسمعَ هاتفاً يقول: أقمناكَ وأنمناهم ثم تبكي علينا[5].

تـنبَّهُوا أيـا أُهـيـلَ ودِّي[6] كم ذا الكَرى؟ هَبَّ نسيمُ نَجْدِ[7]

كـم بين خَـالٍ وجَـوٍ وسَـاهِـرٍ وراقـدٍ وكـاتـمٍ ومُبْدي[8]

---

(١) في (ف): «أنوارهم».

(٢) الأبيات بعض قصيدة لابن الجوزي أنشدها في «المدهش» (ص ٥١٤). وكتب أحدهم في حاشية (ف): «مهم جداً».

(٣) لم أجده إلا في مواعظ الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله تعالى «جلاء الخواطر» (ص ٤٧، ٧٥) منسوباً إلى النبي ﷺ بغيره سند.

(٤) في (ت) و(ف): «أخلاق». وثوب خَلَق: أي بالٍ، والجمع خُلْقان.

(٥) أخرجه الآجري في «فضل قيام الليل» (٣٠)، وأبو نُعيم في «الحلية» (٨/ ٣٣٥) من كلام داود بن رشيد.

(٦) جاء هذا الشطر في (ش): «يا أهل وادي المنحى» وفي أصل القصيدة: «تنبَّهي يا عَذَباتِ الرندِ».

(٧) في (ش): «وجدي».

(٨) الأبيات من قصيدة لأبي الغنائم محمد بن علي بن فارس الواسطي، ابن المعلم، المتوفى =

قيل لابن مسعود: ما نستطيعُ قيامَ الليل! قال: أبعدَتْكم ذنوبُكم[١].

وقيل للحسن: أَعجَزَنا قيامُ الليل قال: قيَّدتكم خطاياكُم[٢].

إنما يؤَهِّلُ الملوكُ للخلوةِ بهم ومخاطبتِهم مَنْ يُخْلِصُ في وِدادهم ومعاملتهم، فأمَّا مَنْ كان من أهل مُخالفتهم فلا يرتَضُونه[٣] لذلك.

اللَيلُ لي ولأحبابي أُحادِثُهم ... قَد اصطَفَيْتُهم كي يَسْمَعوا ويَعُوا

لَهْم قلوبٌ بأسراري لها مُلِئَتْ ... على وِدادي وإرشادِي لهم طُبِعوا

قد أثمرتْ شجرات الفهمِ عندَهُمُ ... فما جَنَوا إذ جنوا مما به ارتَفَعُوا

سَرَوا فما وَهَنُوا عَجْزاً ولا[٤] ضَعُفُوا ... وواصَلوا حَبْلَ تقريبي فما انقَطَعُوا[٥]

***

= (سنة ٥٩٢هـ) رحمه الله. انظر: «المختصر المحتاج إليه» لابن الدبيثي (١/ ٩٥ ـ ٩٦)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (٤٢/ ١٠٧).

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التهجد وقيام الليل» (٣٥٩) بلفظ: «أقعدتكم ذنوبكم».

(٢) لم أجده عن الحسن رحمه الله.

وفي حاشية (ف) تعليق من أحدهم: «كما قُيِّدَ الأُسَراء في أسر عدوٍّ، وأسرُ ـ كذا ولعله: أسير ـ النفس، كذلك مقيد بالهوى وحب الدنيا».

(٣) في (ش): «يرضونه».

(٤) في (ش): «وما». وأشار في الحاشية إلى نسخة توافق ما أثبتناه.

(٥) ذكر المصنف هذه الأبيات أيضاً في «لطائف المعارف» (ص ٩٥)، وفي حاشية (ت): «بلغ من أول الكراس».

الفصلُ الثّالث

في ذكرِ الدّعواتِ المذكورةِ في هذا الحديث

وهي: اللَّهمَّ إنِّي أسألُك فعلَ الخيراتِ وتركَ المنكراتِ وحبَّ المساكين، وأنْ تغفرَ لي وترحَمَني، وإذا أردتَ بقومٍ فتنةً فاقبضني إليكَ غيرَ مفتون، وأسألُكَ حُبَّكَ وحُبَّ من يُحِبُّكَ وحُبَّ العملِ الذي يُبَلِّغُني حُبَّك.

فقال النبيُّ ﷺ: «تعلَّموهُنَّ وادرسُوهنَّ فإنَّهُنَّ حقٌّ».

هذا دعاءٌ عظيمٌ من أجمعِ الأدعيةِ وأكمَلِها.

فقولـه ﷺ: «أسـألُكَ فعـلَ الخيراتِ وتَـركَ المنكراتِ»: يتضمنُ طلـبَ كلِّ خيرٍ وتـركَ كلِّ شـر، فإنَّ الخيـراتِ تجمعُ كلَّ ما يحبُّـه الله تعالى ويقرِّبُ منـه من الأعمال والأقـوال، من الواجبات والمستحبات. والمنكرات تشـمل كلَّ مـا يكرههُ اللهُ تعالى ويباعِـدُ منـه مـن الأقوال والأعمـال، فمن حَصَـلَ له هـذا المطلوب: حصـل له خيرُ الدنيا والآخرة.

وقَدْ كانَ النبيُّ ﷺ يستحبُّ مثلَ هذه الأدعيةِ الجامعةِ. قالت عائشة: كان النبيُّ ﷺ يعجِبُه الجوامعُ من الدعاءِ ويَدَعُ ما بين ذلك. خَرَّجهُ أبو داود[1].

وقوله: «وحُبَّ المساكين» هذا قد يقال إنَّه من جملةِ فعلِ الخيراتِ، وإنما أفردهُ بالذكرِ لشرفهِ وقوَّةِ الاهتمام به، كما أفردَ أيضاً ذكرَ حُبِّ الله تعالى وحبِّ من يحبُّه وحبِّ عملٍ يُبَلِّغهُ إلى حُبِّه، وذلك أصلُ فعلِ الخيراتِ كلِّها.

وقد يقال: إنه طلبٌ من اللهِ عزَّ وجل أنْ يرزقَهُ أعمالَ الطَّاعاتِ بالجوارحِ، وأنْ يرزقَه ما يوجبُ له ذلك، وتركَ المنكراتِ بالجوارحِ، وأن يرزقَه ما يُوجِبُ له ذلك؛

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٧٧).

وهو حُبُّه وحبُّ من يحبُّه وحبُّ عملٍ يُبَلِّغهُ حُبَّه. فهذه المحبةُ بالقلبِ موجبةٌ لفعلِ الخيراتِ بالجوارحِ ولترك المنكراتِ بالجوارحِ، وسأل الله تَعالى أَنْ يرزقَهُ المحبةَ فيه. فقد تضمَّنَ هذا الدعاءُ: سؤالَ حُبِّ الله عزَّ وجلَّ وحبِّ أحبابهِ وحبِّ الأعمالِ التي تُقَرِّبُ من حُبِّهِ والحُبِّ فيه، وذلك مقتضٍ لفعلِ الخيراتِ كلِّها، وتَضَمَّن تركَ المنكرات والسلامةَ من الفتن وذلك يتضمن اجتناب الشر كله فجمع هذا الدعاء طلبَ خير الدنيا.

وتضمن: سؤالَ المغفرةِ والرَّحمةِ، وذلك يجمعُ خيرَ الآخرةِ كلَّه، فجَمَعَ هذا الدعاءُ خيرَ الدنيا والآخرةِ.

والمقصود: أن حُبَّ المساكينِ أصلُ الحبِّ في الله تعالى؛ لأنَّ المساكين ليسَ عندَهُم من الدنيا ما يُوجِبُ محبَّتَهُم لأجله، فلا يُحَبُّونَ إلا للهِ عزَّ وجلَّ، والحبُّ في اللهِ من أوثقِ عُرى الإيمان[1]، ومن علامات ذَوْقِ حلاوةِ الإيمان[2]، وهو صريحُ الإيمان[3]، وهو أفضلُ الإيمان[4]، وهذا كلُّه مرويٌّ عن النبيِّ ﷺ أنه وصفَ به الحبَّ في الله تعالى.

ورُوي عن ابن عباسٍ أنه قال: به تُنالُ وِلايةُ الله عزَّ وجلَّ، وبه يُوجدُ طعمُ الإيمانِ[5].

وحبُّ المساكين قد وصَّى به النبيُّ ﷺ غيرَ واحدٍ من أصحابهِ:

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٥٢٤) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) كما في حديث أنس رضي الله عنه: «ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان»... الحديث عند البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

(٣) أخرج أحمد (١٥٥٤٩) من حديث عمرو بن الجموح: «لا يجد العبد صريح الإيمان حتى يحب لله تعالى...».

(٤) أخرج أحمد (٢٢١٣٠، ٢٢١٣٢) من حديث معاذ بن أنس سؤاله النبي ﷺ عن أفضل الإيمان.

(٥) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣٥٣).

قال أبو ذرٍّ: وَصَّاني[١] رسولُ الله ﷺ أن أُحِبَّ المساكين وأن أدنُوَ منهُم. خَرَّجه الإمامُ أحمد[٢].

وخَرَّجَ الترمذيُّ عن عائشةَ أن النبيَّ ﷺ قال لها: «يا عائشةُ أحِبِّي المساكينَ وقَرِّبيهِمْ، فإنَّ اللهَ يقرِّبُكِ يومَ القيامَةِ»[٣].

ويُروى أنَّ داودَ عليه السلام كان يُجالسُ المساكين ويقول: يا رب مسكينٌ بين مساكين[٤].

ولم يزل السَّلَفُ الصَّالحُ يوصونَ بحُبِّ المساكين:

كتبَ سفيانُ الثوريُّ إلى بعضِ إخوانه[٥]: عليكَ بالفقراءِ والمساكينِ والدُّنوِّ منهم[٦]؛ فإنَّ رسولَ الله ﷺ كان يسألُ ربَّه حُبَّ المساكين[٧].

وحُبُّ المساكين مُسْتَلزِمٌ لإخلاصِ العملِ لله تعالى، والإخلاصُ هو أساسُ الأعمالِ الذي لا تثبتُ الأعمالُ إلا عليه، فإنَّ حُبَّ المساكينِ يقتضي إسداءَ النَّفع إليهم بما يُمْكِنُ من منافعِ الدِّينِ والدُّنيا، فإذا حَصَلَ إسداءُ النَّفْعِ إليهم حُبّاً لهم والإحسانُ إليهم كان هذا العمل خالصاً.

---

(١) في (ت) و(ف): «أبو الدرداء: أوصاني»، وهو تصحيف.

(٢) أخرج الإمام أحمد (٢١٤١٥) من حديث أبي ذر قال: أمرني خليلي ﷺ بسبع: «أمرني بحب المساكين، والدنو منهم...» الحديث.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٥٢) في آخر حديثٍ لأنس رضي الله عنه، وقال: «هذا حديث غريب».

(٤) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (٣٧٩)، وابن أبي الدنيا في «الخمول والتواضع» (١٠٨).

(٥) في (ف): «أصحابه» وأشار في حاشيتها إلى نسخة توافق المثبت.

(٦) أوصى سفيان بذلك عبّاد بن عباد. أخرجه ابن أبي حاتم في «تقدمة المعرفة لكتاب الجرح والتعديل» (ص ١٠٧).

(٧) وذلك في الحديث الذي يشرحه الحافظ ابن رجب رحمه الله في هذا الكتاب.

وقد دلَّ القرآنُ على ذلك، قال عز وجل: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٨ ـ ٩]، وقال عزَّ وجلَّ ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وقال تعالى ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨].

قال سعدُ بن أبي وقَّاص: نزلتْ هذه الآيةُ في سِتَّة: فيَّ وفي ابنِ مسعودٍ وصُهيبٍ وعمَّارٍ والمقدادِ وبلالٍ، قالت قريش لرسول الله ﷺ: إنَّا لا نَرْضى أن نكون أتباعاً لهم؛ فاطرُدْهم عنك؛ فأنزل الله عزَّ وجلَّ ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢] الآية[١].

وقال خَبَّابُ بن الأرتّ في هذه الآية: جاء الأقرعُ بن حابس وعُيينةُ بن حِصْن فوجدوا رسولَ الله ﷺ مع صُهيب وعمَّار وبلال وخبَّاب قاعداً في ناس من الضعفاء من المؤمنين؛ فلمَّا رأوهم حولَ النبيِّ ﷺ حقَروهم، فأتوه فخلَوا به، وقالوا: إنَّا نريُد أن تجعلَ لنا مِنْكَ مجلساً تَعْرِفُ لنا به العربُ فضلَنا، فإنَّ وفود[٢] العربِ تأتيك فنستحيي أن ترانا العربُ مع هذه الأعبُدِ، فإذا نحن جئناكَ فأقِمْهُم عنك، فإذا نحن فرغْنَا فاقعد معهم إنْ شِئت. قال: نعم. قالوا فاكتبْ لنا عليكَ كتاباً. قال: فدعا بصَحِيفة، ودعا علياً ليكتبَ، ونحنُ قعودٌ في ناحيةٍ[٣] فنزلَ جبريلُ عليه

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤١٣) مختصراً، وانظر «سنن ابن ماجه» (٤١٢٨)، و«الدر المنثور» للسيوطي (٦/ ٥٧).

(٢) في (ت) و(ف): «وجوه».

(٣) في (ف) زيادة: «المسجد» وفوقها ضبة علامة إلغاء، وليست في ابن ماجه ولا الطبري.

السَّلامُ فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢] ثم ذكرَ الأقرعَ بن حابسٍ وعُيينة بن حِصْن فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣] ثم قال: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] قال: فدنَونا منه، حتى وضعنَا رُكَبنا على رُكبتيه، وكان رسولُ الله ﷺ يجلسُ معنا، فإذا أرادَ أن يقومَ قام وتركَنا، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجَلَّ ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨] ولا تجالس الأشرافَ ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨] يعني عيينة والأقرع. قال خَبَّاب: فكنا نقعُدُ مع النبيِّ ﷺ، فإذا بلغنَا الساعةَ التي يقومُ فيها قُمنا وتركناه حتَّى يقومَ. خَرَّجه ابنُ ماجه وغيرُه[1].

وكانَ النبي ﷺ يعُودُ المرضى من مساكينِ أهلِ المدينةِ ويُشَيِّعُ جنائزهم[2]، وكان لا يأنفُ أن يمشيَ مع الأَرملةِ[3] والمسكين حتى يقضيَ حاجَتَهما[4]، وعلى هذا الهديِ كانَ أصحابُه مِنْ بَعدِه والتابعون لهم بإحسان.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٢٧)، والطبري (٩/ ٢٥٩). وفي حاشية (ش): «بلغ مقابلة».

(٢) كما في حديث أبي أمامة بن سهل بن حنيف: أن مسكينة مرضت... الحديث، عند الشافعي في «مسنده» (٥٧٦ بترتيب السندي).

وهو بلفظ: «كان رسول الله ﷺ يأتي ضعفاء المسلمين ويزورهم ويعود مرضاهم ويشهد جنائزهم» عند الحاكم (٢/ ٤٦٦) وقال: «صحيح الإسناد» من حديث سهل بن حنيف رضي الله عنه.

(٣) في (ت) و(ف): «الأمة». وكتب في حاشيتهما ما يوافق المثبت.

(٤) أخرجه الدارمي (٧٥)، والنسائي (١٤١٤). من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه.

فيُروى[١] عن أبي هُريرة قال: كان جعفرُ بن أبي طالبٍ يُحِبُّ المساكينَ، ويجلِسُ إليهم، ويحدِّثُهم ويُحدِّثونه، وكان النبيُّ ﷺ يُكنِّيه أبا المساكين[٢].

وفي رواية: أنه كان يُطعِمُهم، وربما أخرجَ لهم عُكَّةً فيها العَسلُ[٣] فشَقُّوها ولَعِقُوها[٤].

وكانت زينبُ بنتُ خُزيمة أمُّ المؤمنين تُسمَّى أُمَّ المَساكين؛ لكثرة إحسانِها إليهم، وتوفيت في حياة النبيِّ ﷺ[٥].

وقال ضِرار بن مُرَّة في وصف عليِّ بن أبي طالبٍ في أيام خِلافته: كان يُعَظِّمُ أهلَ الدينِ، ويحبُّ المساكينَ[٦]، ومَرَّ ابنُه الحسنُ رضي الله عنهما على مساكين يأكلونَ فدَعَوه، فأجابهم، وأكل معهم، وتلا ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣] ثم دعاهُم إلى منزلِه، فأطعَمَهم وأكرمَهُم[٧].

وكانَ ابنُ عُمرَ رضي الله عنهما لا يأكلُ غالباً إلا مع المساكينِ، وكان يقول: لعلَّ بعضَ هؤلاء أن يكون مَلِكاً يومَ القيامة[٨].

وجاءَ مسكينٌ أعمى إلى ابنِ مسعودٍ وقد ازدحمَ النَّاسُ عندَه فناداه:

---

(١) في (ش): «وروي».

(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٦٦) وقال: حديث غريب، وابن ماجه (٤١٢٥).

(٣) في (ت) و(ف): «عكة العسل».

(٤) أخرجه البخاري (٣٧٠٨). العكة: الظرف الذي يكون فيه السَّمن.

(٥) انظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (١٠/ ١١١).

(٦) ترتيب «الأمالي الخميسية» لابن الشجري (١/ ١٨٧).

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الخمول والتواضع» (١١٥).

(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا (٥٣) وفيه: «كان يدعوا المجذومين فيأكل معهم...».

يـا أبا عبد الرحمن أدنيـتَ أربابَ[1] الخَزِّ واليمنيَّة، وأقصَيتني لأجل أنّي مسـكين؟ فقـال له: ادنُهْ، فلـم يزل يُدنيه حتى أجلسَـه إلى جانِبـهِ أو بقربه[2].

وكانَ مُطَرِّفُ بنُ عبد الله يلبَسُ الثِّيابَ الحسنةَ، ثم يأتي المساكين ويُجالِسُهم[3].

وكانَ سفيانُ الثَّوريُّ يعظِّمُ المساكينَ، ويجفُو أهلَ الدُّنيا، فكانَ الفقراءُ في مجلِسِه هم الأغنياءُ والأغنياءُ همُ الفقراءُ[4].

وقـال سـليمان التيمـي: كُنَّـا إذا طَلبنـا عليـةَ أصحابِنـا وجدناهم عنـد الفقراء والمسـاكين[5].

وقال الفضيلُ: مَنْ أرادَ عِزَّ الآخرةِ فليكن مجلسُهُ مع المساكين[6].

ومن فضائلِ المساكين: أنهم أكثرُ أهلِ الجنَّةِ كما قال النبي ﷺ: «قمتُ على بابِ الجنَّةِ فإذا عامة مَنْ دخَلَها المساكين»[7].

---

(١) في (ف): «أصحاب» مضبباً عليها وكتب في الحاشية ما يوافق المثبت.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٢٠٢).

والرجل هو زاذان أبو عمرو، وعنده: من أجل أني رجل أعجمي أدنيت هؤلاء... أصحاب الخز واليمنية: يعني أصحاب الثياب الفاخرة من الخز وبرود اليمن. ووقع في (ف): «جانبه وبقربه».

(٣) انظر: «الزهد» لأحمد بن حنبل (١٣٧١)، فعل ذلك، وقد مات ابنه تصبراً واحتساباً.

(٤) ذكر نحو ذلك الغزالي في «إحياء علوم الدين» (٤/ ٥١٧)، (٥/ ٣٨٥). وفي «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٦/ ٣٦٥) قال قبيصة: «ما رأيت الأغنياء أذل منهم في مجلس سفيان الثوري، ولا الفقراء أعزَّ منهم في مجلس سفيان الثوري».

(٥) لم أجده.

(٦) أخرجه ابن سمعون الواعظ في «أماليه» (١٢٣).

(٧) أخرجه البخاري (٥١٩٦)، ومسلم (٢٧٣٦) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

وقال ﷺ: «تحاجَّت الجنةُ والنارُ، فقالت الجنَّةُ: لا يدخُلني إلا الضُّعفاءُ والمساكين»[١].

وسُئِل النبيُّ ﷺ عن أهل الجنة، فقال: «كلُّ ضَعِيفٍ مُتَضعِّفٍ»[٢].

وهم أوَّلُ النَّاسِ دخولاً الجنةَ كما صح عنه ﷺ: أنَّ الفقراءَ يسبِقونَ الأغنياءَ إلى الجنَّة بأربعينَ عاماً[٣].

وفي روايةٍ: أنَّهم يدخُلونَ الجنَّةَ بنصفِ يومٍ وهو خمسمائة سَنَة[٤].

وهُمْ أوَّلُ الناسِ إجازةً على الصراطِ كما صحَّ عنهُ ﷺ: أنه سُئِلَ عن أوَّل الناسِ إجازةً على الصراط فقال: «فقراءُ المهاجرين»[٥].

وهم أول الناس وروداً عليه الحوض، كما قال ﷺ: «أولُ النَّاسِ وروداً عليَّ الحوضَ[٦] فقراءُ المهاجرين، الدنسةُ رؤوسهم، الشَّعِثَةُ ثيابهم[٧]، الذين لا يُنْكحون المتنعمات، ولا تفتَّح لهم السُّدَدُ»[٨].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، واللفظ موافق لمسلم.

(٢) أخرجه البخاري (٤٩١٨)، ومسلم (٢٨٥٣) من حديث حارثة بن وهب رضي الله عنه.

(٣) الحديث في فقراء المهاجرين. أخرجه مسلم (٢٩٧٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه الإمام أحمد (١٠٦٥٤) والترمذي (٢٣٥٣) وقال: «حسن صحيح» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وروي عن غيره من الصحابة رضي الله عنهم.
ويجمع بين الحديثين بأن الاختلاف باختلاف مراتب أشخاص الفقراء في حال صبرهم ورضاهم وشكرهم. وانظر: «مرقاة المفاتيح» لملا علي القاري (٥٢٤٣).

(٥) أخرجه مسلم (٣١٥) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٦) في (ش): «عليه» بدلًا من «علي الحوض».

(٧) هنا قلب، وصواب الحديث: «الشعثة رؤوسهم، الشحبة وجوههم، الدنسة ثيابهم».

(٨) أخرجه الإمام أحمد (٦١٦٢) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. والترمذي (٢٤٤٤) من حديث ثوبان رضي الله عنه وقال: «غريب من هذه الوجه». السدد: الأبواب.

وهم أتباعُ الرسل كما أخبرَ اللهُ تعالى عن نوحٍ عليه السَّلام أنَّ قومَه عيَّروه باتِّباع الضُّعفاءِ له، فقالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١] وكذلك قال هِرَقْلُ لأبي سُفيان لمَّا سأله عن النبيِّ ﷺ: وهل يتَّبعه أشرافُ النَّاسِ أم ضعفاؤُهم؟ فقال: بل ضُعفاؤهم قال هرقل: هم أتباعُ الرُّسُلِ[١].

وهم أفضلُ من الأغنياءِ عند كثيرٍ من العلماءِ أو أكثرِهم، وقد دلَّ على ذلكَ أدلة كثيرةٌ:

منها: قول النبي ﷺ حين مَرَّ به الغنيُّ والمِسْكينُ في المسجدِ: «هذا ـ يعني المسكين ـ خيرٌ مِنْ ملءِ الأرضِ من مِثْلِ[٢] هذا»[٣] يعني الغنيَّ، وقد خَرَّجه البخاريُّ وغيرُه.

ومنهم: مَنْ لو أقسمَ على الله لأبرَّه، كما في الصَّحيح عن النبيِّ ﷺ أنه قال في أهل الجنة: «كل ضعيفٍ متضعِّفٍ، لو أقسمَ على الله لأبرَّه»[٤].

وفي رواية: «أشعث ذو طِمْرَينِ»[٥].

وفي رواية خَرَّجها ابنُ ماجه أنَّهم ملوكُ أهلِ الجنَّة[٦].

وفي الحديث المشهور: رب أشعثَ أغبرَ[٧] ذي طِمْرين مدفوعٍ بالأبواب لو أقسم على الله لأبرَّه» خرَّجه الحاكمُ وغيرُه[٨].

---

(١) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٣٧٣) من حديث ابن عباس عن أبي سفيان رضي الله عنهما.

(٢) «مثل» سقطت من (ت) و(ف)، و«من» لا توجد في الصحيحين.

(٣) أخرجه البخاري (٥٠٩١)، (٦٤٤٧) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري (٤٩١٨)، (٦٦٥٧)، ومسلم (٢٨٥٣) من حديث حارثة بن وهب رضي الله عنه.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٢٤٧٦) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٦) أخرجه ابن ماجه (٤١١٥)، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٧) «أغبر»: ليست في (ش)، والطمر: الثوب الخَلَق البالي.

(٨) أخرجه أبو عوانة في «المسند» (١٢٤٥١) من حديث أبي هريرة، وهو عند مسلم (٢٨٥٤) وليس فيه «أغبر ذي طمرين»، وحديث أبي هريرة عند الحاكم (٤/ ٣٢٨) وليس فيه «مدفوع بالأبواب».

رُبَّ ذي طِمْرين نِضْوٍ[1] يـأمـنُ الـعـالَـمُ شـرَّه
لا يُـــرى إلا غـنـيـاً وهـــو لا يملـــك ذَرَّةْ
ثـم لـو أقسـمَ فـي شيـ ـيءٍ عـلـى اللهِ أبـرَّه[2]

قال ابنُ مسعودٍ: كونوا جُدُدَ القلوبِ خُلقان الثِّياب، سُرُجَ اللَّيلِ، مصابيحَ الظَّلامِ، تُعرفون في أهل السَّماء، وتَخْفَون على أهلِ الأرض[3].

طوبـى لعبـدٍ بحبـلِ اللهِ مُعْتَـصَـمُـهْ عــلـى صِـراطٍ سَـوِيٍّ ثابـتٍ قَدَمُـهْ
رَثِّ اللِّباسِ جَديدِ القـلـبِ مـسـتـترٍ في الأرضِ مشتهرٍ فوقَ السماءِ سِمُه
ما زالَ يسـتـحـقِـرُ الأولـى بـهِـمَّـتِـهِ حتـى ترقَّـتْ إلـى الأُخـرى بـه هِمَمُه
فـذاكَ أعظـمُ مـن ذي التَّـاج متَّكِئـاً علـى النَّمـارقِ محتفّـاً بـه خَدَمُـهُ[4]

واعلم أن محبة المساكين لها فوائد كثيرة:

منهـا: أنَّها تُوجِـبُ إخلاصَ العملِ للهِ عـزَّ وجلَّ؛ لأنَّ الإحسـانَ إليهم لمحبَّتهم لا يكـونُ إلا للهِ عـزَّ وجـلَّ، لأنَّ نفعَهُـم فـي الدُّنيـا لا يُرجـى غالبـاً، فأمَّـا من أحسـنَ إليهـمْ ليُمْـدَحَ بذلكَ فما أحسـنَ إليهـم حُبّاً لهم بل حُبّـاً لأهلِ الدنيا وطلبـاً لمدحِهم له بحبِّ المسـاكين.

---

(١) النضو: هو البعير المهزول. فشبهه به.

(٢) أنشده أبو بكر عبد الله بن حميد المؤدب، كما في «الغرباء» للآجري (٣١)، ونقله عن المصنف: الغزي في «حسن التنبه» (٣/ ٤٧٢). ووقع في (ش): «لو أقسم على الله في شيء».

(٣) مختصر من حديث لابن مسعود رضي الله عنه. أخرجه الدارمي (٢٦٢) وعنده: «مصابيح الهدى». خُلقان الثياب: ثيابهم بالية.

(٤) الأبيات في «مقامات الزمخشري» (ص ٣٦).

ومنها: أنها تُزيلُ الكِبْرَ فإنَّ المستكبِر[١] لا يرضَى مجالسةَ المساكينِ، كما سبقَ عن رؤساءِ قريشٍ والأعرابِ، وحذا[٢] حذوهم من هذه الأمة، مَن تشبَّه بهم، حتَّى إنَّ بعضَ علماءِ السُّوء كان لا يشهدُ الصَّلاةَ في جماعةٍ خشيةَ أن يُزاحِمَهُ المساكينُ في الصَّفِّ[٣]، ويمتنعُ بسببِ هذا الكِبْر خيرٌ كثيرٌ جداً، فإنَّ مجالِسَ الذِّكرِ والعِلْمِ يقعُ فيها كثيراً مجالسةُ المساكينِ فإنَّهم أكثرُ أهلِ هذهِ المجالس، فيمتنعُ المستكبرُ[٤] من هذهِ المجالسِ بتكبُّره، وربَّما كان المسموعُ منه الذكرُ والعلمُ من جملةِ المساكينِ، فيأنفُ أهلُ الكِبْر من التردُّدِ إلى مجلسه لذلك[٥]، فيفوتُهم خيرٌ كثيرٌ.

وقد أخبرَ اللهُ تعالى عن المشركين أنَّهُمْ قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] يشيرون إلى عظماءِ مكَّةَ والطائف، كعُتْبَةَ بنِ ربيعة وأخيه شيبة، ونحوهما من صَناديدِ قريش وثَقِيْف، ذوي الأموالِ والشرف فيهم، ممَّن كانَ أكثرَ مالاً من محمد ﷺ وأعظمَ رياسَةً عندهم، وردَّ عليهم سُبحانه بأنَّه يقسِم رحمتَه كما يشاء، وأنه كما رفعَ درجاتِ بعضِهم على بعضٍ في الدنيا فكذلك يرفعُها في الآخرة، وأن رحمتَهُ بالنُّبوَّة والعلم والإيمانِ خيرٌ مما يجمعونه من الأموالِ التي تفنى، فهو يختصُّ بهذهِ الرَّحمةِ الدينيَّةِ مَنْ يشاء ويَرْفعُه على أهل النِّعم الدُّنيويةِ، وقد خصَّ محمداً ﷺ بما لم يَشْرَكْهُ غيرُه فيه من هذه النِّعم كما قال

---

(١) في (ش): «المتكبر» وفي حاشيتها ما يوافق المثبت.

(٢) في (ش): «ومن حذا».

(٣) كتب على حاشية (ف) هنا: «مطلب: علماء السوء الذين لا يخرجون للصلاة مع الجماعة إلى المسجد خشية من أن يجلس أو يزاحمه فقراء المسلمين والمساكين».

(٤) في (ش): «المتكبر».

(٥) في (ف): «في مجلسه»، وفي (ش): «مجلسه كذلك».

تعالى له: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

وقد كانَ عليُّ بنُ الحسين يجلسُ في مجلسِ زيدِ بن أَسلم، فيُعاتَبُ على ذلكَ، فيقولُ: «إنما يجلسُ المرءُ حيثُ يكون له فيه نفعٌ»[١]، أو كما قال، يشيرُ إلى أنَّه ينتفعُ بسماعِ ما يسمَعُه من العِلمِ والحكمةِ. وزيدُ بنُ أسلمَ أبوه مولىً لعُمَرَ، وعليُّ بنُ الحسين سيِّدُ بني هاشمٍ وشريفُهم.

ولمَّا اجتمعَ الزهريُّ وأبو حازم الزاهدُ بالمدينةِ عند بعضِ بني أُميَّة لما حَجَّ وسمعَ الزهريُّ كلام أبي حازمٍ وحكمَتَه أعجبه ذلك، وقال: هو جاري منذُ كذا وكذا وما جالستُه ولا عرفتُ أنَّ هذا عنده! فقال له أبو حازم: أجلْ إني من المساكينِ، ولو كنتُ من الأغنياءِ لعرفتَني فوبَّخه بذلكَ[٢].

وفي رواية عنه أنه قال له: «لو أحببتَ اللهَ لأحببتَني، ولكنك نسيتَ اللهَ فنسيتني»[٣]. يشيرُ إلى أنَّ من أحبَّ اللهَ تعالى أحبَّ المساكينَ من أهلِ العلمِ والحِكمة لأجلِ محبَّتِهِ لله تعالى، ومَنْ غَفَلَ عنِ اللهِ تعالى غَفَل عَن أوليائِه من المساكِينِ فلمْ يرفعْ بهم رأساً، ولم ينتفعْ بما اختصَّهُم اللهُ عزَّ وجلَّ به من الحِكْمة والعلومِ النَّافِعةِ التي لا تُوجد عندَ غيرهم من عُلماءِ أهلِ الدنيا.

وقدْ كانَ عُلماءُ السَّلفِ يأخذونَ العِلمَ عن أهلِهِ، والغالبُ عليهمُ المسكنةُ

(١) أورده البخاري في «التاريخ الكبير» (١٢٨٧). وأخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ١٣٨).

(٢) أخرجه البيهقي في «المدخل إلى السنن» (١٦٧٠) من طريق الإمام أحمد بن حنبل في «مسائله» رواية ابنه أبي الفضل صالح (١١١٨).

(٣) «صفة الصفوة» لابن الجوزي (١/ ٣٨٧). وفي (ش): «أحببتني».

وعدمُ المالِ والرفعةِ في الدنيا، وَيَدَعونَ أهلَ الرِّياساتِ والولاياتِ فلا يأخذونَ عنهم ما عندهم من العلمِ بالكُلِّيةِ.

ومنها: أنه يوجِبُ صلاحَ القلْبِ وخشوعَه. وفي «المُسنَد» عن أبي هريرةَ: أنَّ رجلاً شَكى إلى رسولِ الله قَسوةَ قلبِه، فقال له: «إنْ أحببتَ أن يَلِينَ قلبُك: فأطعمِ المسكينَ وامسحْ رأسَ اليتيم»[1].

ومنها: أنَّ مُجالسةَ المساكين توجبُ رضى مَنْ يُجالِسُهم برزقِ الله عز وجل، ويعظُمُ عندَه نعمةُ الله عزَّ وجلَّ عليه بنظَرِه في الدنيا إلى مَنْ دُونه. ومجالسةَ الأغنياءِ تُوجِبُ التَّسَخُّطَ بالرِّزق ومدَّ الأعينِ[2] إلى زِينتِهم وما هم فيه، وقد نهى اللهُ عز وجل نبيه ﷺ عن ذلك، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

وقال النبي ﷺ: «انظُروا إلى من دُونَكُم، ولا تنظُروا إلى من فَوقَكم؛ فإنَّه أجدرُ أنْ لا تزدَروا نعمةَ اللهِ عليكُم»[3].

قال أبو ذرٍّ: وصَّاني رسولُ الله ﷺ أنْ أنظُرَ إلى من دُوني، ولا أنظرَ إلى مَنْ فَوْقي، ووصَّاني أنْ أُحِبَّ المساكينَ وأدنُو منهُم[4].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٧٥٧٦) (٩٠١٨).

(٢) في (ش): «العين».

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٦٣) وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: «انظروا إلى من هو أسفل منكم...». واللفظ الذي أورده المصنف أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (١١٠٧) من حديث ابن مسعود، والصواب فيه حديث أبي هريرة.

(٤) سبق نحوه في أول الفصل الثالث من حديث أبي ذر رضي الله عنه. أخرجه الإمام أحمد (٢١٤١٥). ولعله هو الصواب في هذا الحديث، وفي (ت): «أوصاني» و(ف): «وقال أبو الدرداء: أوصاني»، =

وكانَ عونُ بنُ عبدِ الله بنِ عُتبةَ بن مسعود يُجالسُ الأغنياءَ، فلا يزالُ في غَمٍّ؛ لأنَّه لا يزالُ يرى مَنْ هو أحسنُ منه لِباساً ومَرْكباً وطعاماً ومَسْكناً، فتركَهُم وجالسَ المساكينَ فاستراحَ مِنْ ذلك[1].

وقد رُويَ عن النَّبي ﷺ أنَّه نهى عائشةَ عن مخالطةِ الأغنياءِ[2].

وقالَ عُمَر: إيَّاكم والدخولَ على أهل السَّعَة، فإنَّه مَسْخَطَةٌ للرزْقِ[3].

واعلمْ أنَّ المِسْكينَ إذا أُطلِقَ فإنَّما يُرادُ به غالباً: مَنْ لا مالَ له يكفيه، فإنَّ الحاجةَ تُوجِبُ السُّكونَ والتَّواضُعَ، بخلافِ الغِنى فإنَّه يُوجِبُ الطُّغيانَ، ولهذا ذُمَّ الفقيرُ المختالُ وعَظُمَ وعيدُه، لأنَّه عصى بما ينافي فَقْره، وهو الاختيالُ والزَّهْو والكِبْر.

ولمَّا كان المسكينُ عند الإطلاقِ لا ينصرفُ إلا إلى مَنْ لا كفايةَ له من المالِ: وصَّى اللهُ تعالى بإيثارِ[4] المساكين وإطعامِهم الطَّعامَ، ومَدَحَ من يطعمهم[5]، وذَمَّ

= ولم أجد من جعله من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه غير الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧١٨٣) وعزاه للطبراني، ولعله في المفقود من معجمه الكبير. وكأنه تصحيف.

(١) أورده الترمذي في «جامعه» عقب الحديث (١٧٨٠). وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٤٢، ٢٤٣).

(٢) أخرجه الترمذي (١٧٨٠) في ضمن حديث، ولفظه: «وإياك ومجالسة الأغنياء». وقال: «حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث صالح بن حسان، سمعت محمداً يقول: صالح بن حسان منكر الحديث...».

(٣) أخرجه مسدد عن الحسن مقطوعاً، ولفظه: «إن دخولك على أهل السَّعة مَسْخَطَةٌ للرزق»، كما في «إتحاف الخيرة المهرة» للبوصيري (٧١٨٣). ولم أجده عن عمر رضي الله عنه.

(٤) في (ش): «بإيتاء».

(٥) في (ت) و(ف): «يفعل ذلك».

مَنْ لا يَحُضُّ على إطعامِهِم، وجعلَ لهم حقًّا في أموالِ الصَّدقاتِ والفَيءِ وخُمُسِ الغنائِمِ وحضورِ قِسمةِ الأموالِ، وهؤلاءِ المساكينُ على قِسْمين:

أحدُهُما: مَنْ هو مُحتاجٌ في الباطِنِ وقد أظهرَ حاجَتَه للنَّاسِ.

والثاني: من يَكتُم حاجَتَه، ويُظْهِرُ للنَّاسِ أنَّه غنِيٌّ، فهذا أشرفُ القِسمين، وقد مَدَحَ اللهُ عزَّ وجلَّ هذا في قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وقال النبيُّ ﷺ: «ليسَ المسكينُ بهذا الطوَّافِ الذي تَرُدُّه اللقمةُ واللُّقمتانِ والتمرةُ والتمرتان، ولكنَّ المسكينَ مَنْ لا يجدُ غِنَىً يُغْنِيْه، ولا يُفْطَنُ له فيُتَصَدَّقَ عليه»[1].

وقال بعضُهم: وهذا هو المحرومُ المذكورُ في قوله عز وجل: ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩، المعارج: ٢٥]، فأخبرَ النبيُّ ﷺ أنَّ مَنْ كتمَ حاجتَه فلمْ يُفطَن[2] له أحقُّ باسمِ المسكينِ مِنَ الذي أظهرَ حاجَتَه بالسؤال، وأنَّه أحقُّ بالبرِّ منه، وهذا يدُلُّ على أنَّهم كانوا لا يَعْرفونَ من المساكينِ إلا مَنْ أظهَرَ حاجتَه بالسؤالِ[3].

وبهذا فَرَّقَ طائفةٌ من العلماءِ بين الفَقيرِ والمسكين، فقالوا: مَنْ أظهرَ حاجتَه فهو مسكينٌ، ومن كَتَمها فهو فقيرٌ.

وفي كلام الإمامِ أحمدَ إيماءٌ إلى ذلك، وإن كانَ المشهورُ عنه: أنَّ التفريقَ

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٩) (٤٥٣٩)، ومسلم (١٠٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في حاشية (ش): «يتفطن».

(٣) وممن ذهب إلى ذلك: قتادة، والزهري. انظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥١٤ ـ ٥١٥).

بينهما بكثرةِ الحاجةِ وقلَّتِها، كقولِ كثيرٍ من الفقهاء، وهذا حيث جَمَعَ بين ذكرِ الفقيرِ والمسكينِ كما في آيةِ الصَّدقاتِ، فأمَّا إنْ[1] أفردَ أحدَ الاسمينِ دخلَ فيه الآخرُ عند الأكثرين.

وقد كانَ كثيرٌ من السَّلَفِ يكتُمُ حاجَتَه ويُظهِرُ الغِنى تَعفُّفاً وتكرُّماً، منهم: إبراهيمُ النَّخَعيُّ كان يلبَسُ ثياباً حِساناً[2]، ويخرجُ بها إلى النَّاسِ وهُمْ يرون أنه تحلُّ له الميتةُ من الحاجَةِ[3].

وكانَ بعضُ الصَّالحينَ يلبَسُ الثيابَ الجميلةَ، وفي كمِّه مفتاحُ دارٍ كبيرةٍ، ولا مأوى له إلا المساجدُ.

وكانَ آخرُ لا يلبَسُ جبَّةً في الشِّتاءِ لفقْرِه، ويقول: بي عِلَّةٌ تمنَعُني مِنْ لُبسِ المحشوِّ، وإنما يعني به الفقرَ[4].

إنَّ الكريمَ ليُخْفِي عنكَ عُسْرَتَـهُ ... حَـتَّى تراهُ غنيّاً وهو مَجْهُودُ[5]

---

(١) في (ش): «من».

(٢) في (ش): «حسناء».

(٣) أخرجه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (١٩٢٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٢١).

(٤) هو الإمام الفقيه، أحد رواة الجامع الصحيح: أبو زيد محمد بن أحمد المروزي الفاشاني المتوفى (سنة ٣٧١هـ) رحمه الله تعالى. انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٤/ ٢٠٨).

(٥) نسبه ابن عبد ربه في «العقد الفريد» (١/ ١٩٧) إلى حمّاد عجرد، ونسبه محمد بن أيدمر في «الدر الفريد وبيت القصيد» (٤/ ٤٤٥) إلى بشار، ونسبه صدر الدين البصري في «الحماسة البصرية» (٢/ ٦٣) إلى كلثوم بن عمرو التغلبي. قال الثعالبي في «الإعجاز والإيجاز» (ص ١٤٩) تحت ترجمة (حماد عجرد): «غرّة شعره ما أنشده له ابن المعتز، ورواه غيره لبشار، ولأيهما كان فهو من خير الكلام وسحر البيان».

وكانَ بعكسِ هؤلاءِ من لَبِسَ[١] ثيابَ المساكينِ مع الغنى، تواضعاً لله عزَّ وجَلَّ، وبُعْداً من الكِبْرِ، كما كان يفعلُهُ الخلفاءُ الرَّاشدونَ الأربعةُ وبعدَهم عمرُ بنُ عبدِ العزيز، وكذلكَ كانَ جماعةٌ من الصَّحابَةِ منهم: عبدُ الله بن عُمَر، وعبدُ الله بن عمروِ بنِ العاصِ، وغيرهما رضي الله عنهم.

ورُويَ أنَّ أبا بكرٍ الصديقَ رضي الله عنه كانَ يُنْشِدُ:

إذا أردتَ شريفَ النَّاسِ كلِّهِمِ فانظرْ إلى مَلِكٍ في زَيِّ مِسكينِ
ذاكَ الذي حَسُنَتْ في النَّاسِ سيرَتُه وذاكَ يصلُحُ للدُّنيا وللدِّينِ[٢]

وكانَ عليٌّ رضي الله عنه يعاتَبُ على لِباسِهِ فيقول: هو أبعدُ عن الكِبْرِ وأَجْدَر أنْ يقتديَ بيَ المسلمُ[٣].

وعُوتِبَ عُمرُ بنُ عبدِ العزيز على ذلك فقال: إنَّ أفضَلَ القَصْدِ[٤] عِنْدَ الجِدَةِ. يعني: أفضل ما اقتصدَ الرجلُ في لِباسِهِ مع قُدْرَته ووُجْدانه[٥].

وفي سننِ أبي داودَ وغيرهِ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «البَذاذَةُ من الإيمانِ»[٦] يعني التَّقَشُّفَ.

---

(١) في (ت) و(ف): «يلبس».

(٢) أخرجه بن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٨/ ١٢٧) من رواية ابن عباس، عنه رضي الله عنهم ونسبه ابن عبد ربه في «العقد الفريد» (١/ ٣٦) إلى أبي العتاهية.

(٣) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زياداته على «المسند» (٧٠٣).

(٤) تحرف في (ف): إلى «الفضل».

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الخمول والتواضع» (١٥٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٦١).

(٦) أخرجه أبو داود (٤١٥٨) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه. والبذاذة: ترك الترفه والتزين، ولا تعني الوساخة وسوء الثياب.

وفي الترمذيِّ عن النبيِّ ﷺ: «مَنْ تركَ اللباسَ تواضعاً لله عزَّ وجلَّ، وهو يقدِرُ عليه دعاه الله يومَ القيامَةِ حتى يُخيِّره مِنْ أيِّ حُلَلِ الإيمانِ شَاء [١] يَلْبَسُها»[٢].

وخَرَّجَه أبو داودَ من وجه آخرَ، ولفظه: «مَنْ تركَ ثوبَ جَمالٍ، وهو يقدر عليه ـ أحسبه قال: تواضعاً ـ كساهُ الله حُلَّةَ الكرامةِ»[٣].

وإنما يُذَمُّ مَنْ تركَ اللباسَ مع قدرته عليه بُخلاً على نفسه، أو كتماناً لنعمةِ الله، وفي هذا جاءَ الحديثُ المشهورُ: «إنَّ اللهَ إذا أنعمَ على عبدِهِ نعمةً أحبَّ أن يرى أثرَ نعمتِه على عبده»[٤]، ومَنْ لبس لباساً حَسَناً إظهاراً لِنعْمة الله ولم يفعلْه اختيالاً كانَ حسناً[٥].

وكانَ كثيرٌ من الصَّحابة والتَّابعين يَلْبَسون لِباساً حَسناً، منهم: ابنُ عبَّاس والحسنُ البصريُّ، وقَدْ صَحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه سُئِلَ عن الرَّجُلِ يُحِبُّ أنْ يكونَ لباسُه حسناً ونعلُه حسناً، فقال: «ليس ذلكَ بالكِبْرِ، وإنَّما الكِبْرُ بطَرُ الحَقِّ وغَمْطُ النَّاسِ» يعني[٦]: التكبُّرُ[٧] عن قَبُولِ الحَقِّ والانقيادِ له، واحتقارَ الناسِ وازدراءهم فهذا هو الكِبْرُ.

فأمَّا مجرَّد اللِّباسِ الحَسَنِ الخالي عن الخُيلاءِ فليس بكبر، واحتقارُ النَّاسِ مع رَثَاثَةِ اللباس كِبْرٌ، وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنَّه كانَ ماشياً في طريقٍ، وهناك أَمَةٌ

---

(١) «شاء» سقطت من (ش).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٨١) من حديث معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٤٥) من حديث رجل من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ مبهماً.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٦٠٩٣) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٥) في حاشية (ف): «قلت: ومن لبس لباساً خشناً ولم يفعله احتيالًا كان أيضاً حسناً».

(٦) هـذا اللفظ مركّب من أحاديث، وآخره في «صحيح مسلم» (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٧) في (ش): «الكبر».

سوداءُ، فقال لها رجل: الطريقَ الطريقَ للنبي ﷺ، فقالت: الطريقُ يَمْنَةً ويَسْرةً، فقال النبيُّ ﷺ: «دعوها فإنَّها جَبَّارَةٌ». خَرّجه النسائيُّ وغيره[1].

وفي روايةٍ للطَّبراني وغيره، قالوا: يا رسول الله! إنها - يعني - مسكينةٌ، قال: «إنَّ ذاكَ في قَلْبِها»[2] يعني أنَّ الكِبْر في قَلْبها، وإنْ كانَ[3] لباسُها لباسَ المساكين.

وقال الحسن: إنَّ أقواماً جعلُوا التواضُعَ في لِباسِهم، والكِبْرَ في صُدُورهِم، إنَّ أحدَهُم أشدُّ كبراً[4] بمِدْرَعتهِ من صَاحِبِ السَّريرِ بسَرِيره، وصَاحِبِ المنبَرِ بمنْبَرِهِ[5].

قالَ أحمدُ بنُ أبي الحَواري: قال لي سُليمان بنُ أبي سليمان - وكان يعدل بأبيه -: أيَّ شيءٍ أرادُوا بثيابِ الصُّوف؟! قلت: التواضع. قال: وما يتكبَّرُ أحدُهم إلا إذا لَبِسَ الصُّوفَ![6].

وقال أبو سليمان: يكونُ ظاهِرُكَ قُطْنياً وباطنك صُوفياً[7].

وقال أبو الحسن بن بشار[8]: صَوِّفْ قلبَكَ، والبس القُوهِيَّ على القُوهيِّ[9]؛

---

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» (١٠٥٠٠) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) عند الطبراني في «الكبير»، وهو في المفقود منه. انظر: «مجمع الزوائد» للهيثمي (٣٦٣).

(٣) في (ش): «كان في».

(٤) في (ش): «كبرته».

(٥) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٩/ ١٦٩)، وابن أبي الدنيا في «الخمول والتواضع» (٧١) بنحوه. وليس فيه ذكر السرير والمنبر، بل فيه «صاحب الكساء بكسائه، وصاحب الطرف بمطرفه». وجاء أوله في (ش): «إن قوماً...».

(٦) أورده ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (ص ١٧٦).

(٧) أخرجه ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (ص ١٧٧).

(٨) هو أبو الحسن علي بن محمد بن بشار، الزاهد العارف، المتوفى سنة ٣١٣ رحمه الله تعالى.

(٩) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٣/ ٥٣٤)، وابن أبي يعلى في «طبقات الحنابلة» (٢/ ٦٣ ط. الفقي)، =

يعني رفيعَ الثياب، فمتى أظهرَ الإنسانُ لباسَ المساكين بدعوى الصَّلاحِ ليشتهرَ بذلك عند الناس كانَ ذلك كِبْراً ورِياءً.

ومن هنا تركَ كثيرٌ من السَّلَفِ المُخْلصين اللباسَ المختَصَّ بالفقراءِ والصالحين، وقالوا: إنَّه شُهْرة.

ولما قَدِمَ سيَّارٌ أبو الحَكَمِ البصرةَ لزيارةِ مالكِ بنِ دينارٍ لبسَ ثياباً حِساناً، ثم دخلَ المسجدَ فصلَّى صلاةً حسنةً، فرآهُ مالكٌ ولم يعرفه، فقال له: يا شيخ إني أرغبُ بك عن هذه الثيابِ مع هذهِ الصَّلاةِ، فقال له: يا مالكُ ثيابي هذه تَضَعني عندَكَ أم ترفعُني؟ قال: بل تَضَعُك. فقال: نِعْم الثوبُ ثوبٌ يضَعُ صاحبَه عندَ الناسِ، ولكن انظرْ يا مالك، لعلَّ ثوبيكَ هذينِ ـ يعني الصوف ـ أنزلاك مِنَ النَّاسِ ما لم يُنزلاكَ من الله. قال: فبكى مالكٌ وقامَ إليه واعتَنَقَه، وقال له: أنشدك الله أنتَ سيارٌ أبو الحكم؟ قال: نعم[1].

فلهذا كَرِهَ مَنْ كَرِه من السَّلفِ كابنِ سيرينَ وغيرِهِ لباسَ الصُّوفِ[2] حيثُ صارَ شعاراً للزاهدين، فيكون لباسُه إشهاراً للنفس[3] وإظهاراً للزهد.

وأما النبيُّ ﷺ فكانَ يَلْبَسُ ما وجدَ، فتارةً يلبَسُ لباسَ الأغنياءِ مِنْ حُلَلِ اليمن وثيابِ الشَّام ونحوها، وتارةً يلبَسُ لباسَ المساكينِ؛ فيلبَسُ جُبَّةً من صُوفٍ أحياناً، وأحياناً يتَّزِرُ بعبَاءةٍ ويهنأُ إبلَ الصَّدَقةِ بيده، يعني أنه يطليها بيدهِ ويصلِحُها، كما

= وذكره ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (ص١٧٧).

والقوهي: ضرب من الثياب، بيض، كما في «لسان العرب» (١٣/ ٥٣٢) وهو فارسي نسبة إلى قُوهِستان في نواحي خراسان.

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٣١٣، ٣١٤).

(٢) انظر: «الزهد» زيادات نعيم بن حماد على المروزي عن ابن المبارك (٢/ ٦٤).

(٣) في (ت) و(ف): «اشتهاراً».

يفعلُ أربابُ الإبلِ بها، ولم يبعث اللهُ نبياً من أهلِ الكِبْرِ، وإنَّما بعثَ مَنْ لا كِبْرَ عندَه ولا يتكبَّرُ عن معالجةِ الأشياءِ التي يأنَفُ منها المتكبِّرون كرعايةِ الإبلِ والغَنَمِ وإجارةِ نفسِهِ عند الحاجَةِ إلى الاكتسابِ، ومَنْ أعطاهُ اللهُ منهم مُلْكاً فإنَّه يزدادُ به[1] تواضُعاً لله عزَّ وجلَّ كداودَ وسليمانَ ومحمد صلَّى الله عليه وسَلَّمَ تسليماً كثيراً.

وقد يُطْلَقُ اسمُ المسكين ويرادُ به: من استكانَ قلبُه للهِ عزَّ وجلَّ، وانكسرَ له وتواضعَ لجلالِهِ وكبريائِهِ وعظمتِهِ وخشيتِهِ ومحبتِهِ ومهابتِهِ، وعلى هذا المعنى حَمَلَ بعضُهُم الحديثَ المرويَّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «اللهمَّ أحيِنِي مسكيناً، وأَمِتني مِسكيناً، واحشُرني في زُمْرة المساكين». خَرَّجَهُ التِّرمذيُّ من حديثِ أنسٍ[2]، وخرَّجهُ ابنُ ماجهْ من حديثِ ابن عباسٍ[3] وفي حملِهِ على ذلكَ نظرٌ لأنَّ في تمامِ حديثِهِما ما يَدُلُّ على أنَّ المرادَ به المساكين مِنَ المالِ لأنَّه ذَكَرَ سَبْقَهُم الأغنياءَ إلى الجنَّةِ مع أنَّ في إسنادِ الحديثين ضَعْفاً.

وقَدْ خُيِّرَ النبيُّ ﷺ بينَ أن يكونَ نبيًّا مَلِكاً أوْ عبْداً رسُولاً، فأشار عليه جبريلُ أنْ تواضَعْ، فقال ﷺ: «بلْ عبداً رسُولاً، فكانَ بعدَ ذلكَ لا يأكُلُ متَّكِئاً ويقول: «آكلُ كما يأكلُ العبدُ، وأجلِسُ كما يجلسُ العبدُ»[4].

---

(١) في (ش): «فإنه لم يزل دأبه».

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٥٢) وقال: «غريب» وقد سبق تخريج طرف آخر منه: «يا عائشة أحبي المساكين».

(٣) الذي عند ابن ماجه (٤١٢٦) هو من حديث أبي سعيد لا ابن عباس. وممن ذهب إلى حمله على استكانة القلب: البيهقي، وإليه يشير صنيع ابن الجوزي، والتقي ابن تيمية، والتقي السبكي. وممن لم يستبعد حمل الحديث على ظاهره: السيوطي، وانظر حاشيته على سنن ابن ماجه والترمذي.

(٤) أخرجه أبو يعلى (٤٩٢٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

قال الحسن: قال رسولُ الله ﷺ: «فأعطاني اللهُ لذلكَ أنْ جعلني سيِّد ولدِ آدمَ، وأوَّلَ شافِعٍ، وأوَّلَ مُشَفَّع، وأول مَنْ تنشَقُّ عنه الأرضُ»[١].

وصحَّ عنه ﷺ أنه قال: «إنما أنا عبدٌ فقولوا عبد الله ورسوله»[٢]. فأشرفُ أسمائهِ عبدُ الله، ولهذا سُمِّي بهذا الاسم في القرآن في أفخر مقاماته، فلما حقَّقَ ﷺ عبودية ربِّه حصلتْ له السِّيادةُ على جميعِ الخَلْقِ.

كان كثيرٌ من العارفين[٣] يقولُ في مناجاتِهِ لربِّه: كفى بي فَخْراً أنِّي لك عبدٌ، وكفى بي شَرفاً أنكَ لي رَبٌّ[٤].

وكانَ بعضُهم يقولُ: كلَّما ذكرتُ أنَّه ربي وأنّي عبدُه حصلَ لي من السُّرورِ ما يصلُحُ به بدني[٥].

شَرَفُ النفوسِ دخُولها في رِقِّهمْ ... والعبدُ يحوي الفخْرَ بالمُتَمَلِّكِ[٦]

كانَ أبو يزيدَ يُنْشِد:

يا[٧] ليتني صرتُ شيئاً ... من غيرِ شيءٍ أُعَدُّ

---

(١) أخرج ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٧١٣٤) عن الحسن نحوه، دون ذكر: «فأعطاني الله لذلك»، وقولِه: «مشفّع». وله شواهد عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٥) من حديث عمر رضي الله عنه.

(٣) في (ش): «كان كثيراً يقول».

(٤) هو بشر الحافي رحمه الله تعالى، كما ذكره المصنف في رسالته «شرح حديث: لبيك اللهم لبيك»، وانظر: «تفسير سورة الفاتحة» للمصنف.

(٥) أخرجه ابن الجنيد الختلي في «المحبة لله» (٢٦٠) عن رجل بالبصرة. وذكره المصنف أيضاً في «شرح حديث: لبيك اللهم لبيك».

(٦) هو ليحيى بن يوسف بن يحيى الصرصري الحنبلي، انظر: «مسالك الأبصار» لشهاب الدين العمري (١٦/ ١٩٤)، وذكره أيضاً ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٥١) والمصنف في «تفسير سورة الفاتحة».

(٧) في (ف): «وا».

أصبحْتُ للكُلِّ مولىً لأنَّني لكَ عَبْدُ[١]

فمن انكسرَ قلبُه للهِ تعالى واستكانَ وخشَعَ وتواضَعَ جبرهُ الله عزَّ وجَلَّ، ورفعَه بقَدْر ذلك.

وفي الأثرِ المشهورِ: أنَّ اللهَ عز وجل قالَ لموسى على نبينا وعليه السَّلام حينَ سأله أينَ أَجِدُكَ؟ قال: عندَ المنكسِرة قلوبُهم من أجلي، فإنِّي أدنُو منهم كلَّ يومٍ باعاً، ولولا ذلكَ لانهدموا[٢].

ورُوِيَ عن عبدِ الله بن سَلام أنَّه فَسَّره فقال: «همُ المنكسرةُ قلوبُهم بحبِّ اللهِ عَنْ حُبِّ غيرِهِ»[٣].

وفي الحديثِ المشهورِ المرفوعِ: «إنَّ الله تعالى إذا تجلَّى لشيءٍ من خَلْقِه خَشَعَ له»[٤]، فإذا تجلَّى لقلوبِ العارفين عظمةُ اللهِ وجلالُه وكبرياؤه اندكَّتْ قلوبُهم من هَيبته، وخشعتْ وانكسرتْ من محبَّتِه ومخافَتِه.

---

(١) ذكره المصنف أيضاً في رسالته «شرح حديث: ما ذئبان جائعان».

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ٩٥)، وابن الجنيد في «المحبة» (٦٩)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (١/ ٥٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٦٤) (٦/ ١٧٧). وهو مشهور على ألسنة العُبَّاد والزهاد، لا على معنى الشهرة في اصطلاح أهل الحديث. وهو مما نُقِل إلينا من الإسرائيليات.

(٣) أخرجه ابن الجنيد في «المحبة» (٦٩).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٨٣٥١) (١٨٣٦٥)، والنسائي (١٤٨٥)، وابن ماجه (١٢٦٢) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما، وهو في كسوف الشمس على عهد رسول الله ﷺ.
وقال ابن خزيمة في «التوحيد» عقب روايته له (٢/ ٨٨٩): معنى هذا الخبر يشبه بقوله تعالى ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣] إلا أن أبا قلابة لا نعلمه سمع من النعمان بن بشير شيئاً ولا لقيه.
وللأستاذ نبيل البصارة تحقيق مفيد في تخريج هذا الحديث في كتابه «أنيس الساري تخريج أحاديث =

مساكينُ أهلُ الحُبِّ حتَّى قبورُهم عليها ترابُ الذُّلِّ بين المقابرِ[(١)]

فالمسكينُ في الحقيقةِ: من استكانَ قلبُه لربِّه، وخشَعَ من خَشْيَته وحُبِّه، ولا يكونُ المسكينُ ممدُوحاً بدون هذه الصِّفَةِ، فإنْ لم يخشَعْ قلبُه مَعَ فقرِه وحاجَتِهِ فهو جبَّارٌ، كتلك الأَمَةِ السَّوداءِ التي قالَ فيها النبيُّ ﷺ: «إنها جبَّارة»، وهو إما عائِلٌ مستكبِرٌ أو فقيرٌ مُخْتالٌ، وكلاهما لا ينظرُ الله إليهما يومَ القيامةِ، فالمؤمنُ يستكينُ قلبُه لربِّه ويخشعُ له ويتواضَعُ ويُظْهِرُ مسكَنَتَه وفاقته إليه في الشِّدَّة والرَّخاء، أما في حَالِ الرخاء[(٢)] فإظهاراً للشُّكر[(٣)]، وأما في حَالِ الشِّدةِ فإظهاراً للذُّلِ[(٤)] والعبوديةِ والفَاقةِ والحَاجةِ إلى كَشْفِ الضُّر. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦]، فذمَّ مَنْ لا يستكينُ لربِّه عندَ الشِّدَّة.

= فتح الباري» (١١٢٠) ذكر فيه استشكال الغزالي هذه اللفظة في حديث الكسوف في كتابه «تهافت الفلاسفة»، وردّ التاج السبكي عليه في «منع الموانع»، وتحقيق ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» وإشارته إلى إدراج هذه الجملة في حديث الكسوف... فلينظر.

وقد أبعد جدًّا مَنْ جعل كلام المصنف بعده من جملة الحديث ثم عَلَّقَ عليه بقوله: «لم أقف عليه ولا أظنه إلا موضوعاً، فهو أشبه بكلام المتصوفة من كلام المعصوم ﷺ، وغفر الله لابن رجب ما كان أغناه عن مثل هذه الأحاديث التي لا خطام لها ولا أزمة».

قلت: غفر الله لذلك المعلّق لو تأنى لوجد الحديث، ولم يدرج كلام المصنف رحمه الله فيه ولم يعترض بعد ذلك!

(١) استشهد به الإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله، ولم يُنسب إلى قائل، وهو في ديوان الشعر المنسوب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه (ص ٢٨) وفيه: «مساكين أهل الفقر...».

(٢) في (ت) و(ف): «الرضى».

(٣) في (ش): «فإظهار الشكر».

(٤) في (ش): «فإظهار الذل».

وكانَ النبيُّ ﷺ يخرُجُ عند الاستسقاءِ متواضِعاً مُتَخشِّعاً مُتمسْكِناً[١].

وحُبِسَ لمطرِّفِ بن عبدِ الله قريبٌ له فلَبِسَ خُلْقَانَ ثيابِهِ، وأخذَ بيدِهِ قَصَبةً، وقال: «أتمسكنُ لربي لعلَّه يُشَفِّعُني فيه»[٢].

ومما يُشْرعُ فيه التمسكنُ للهِ عزَّ وجَلَّ: حالُ الصلاةِ كما في حديثِ الفَضْل ابن عبَّاسٍ عن النبيِّ ﷺ قال: «الصَّلاةُ مَثْنى مَثْنى. تشَهَّدُ في كلِّ ركعتين، وتَخَشَّعُ وتَضَرَّعُ وتَمَسْكَنُ وتُقْنِعُ يديكَ ـ يقول: ترفعهما ـ وتقول: يا رب يا رب ثلاثاً، فمن لم يفعل ذلك فهي خِدَاجٌ». خَرَّجَهُ الترمذيُّ وغيرُه[٣].

وكذلكَ يُشْرعُ إظهارُ المسكنةِ في الدُّعاءِ، وخَرَّجَ الطبرانيُّ من حديثِ ابن عبَّاس قال: رأيتُ النبيَّ ﷺ يدعو بعَرَفَةَ ويداهُ إلى صَدْره كاستِطْعامِ المِسْكِين[٤].

ومن حديثِهِ أيضاً: أن النبيَّ ﷺ قال في دعائِهِ عشيَّةَ عرفة: أنا البائسُ الفقيرُ، المُستَغِيْثُ المُسْتجِيْرُ، الوَجِلُ المُشْفِقُ، المُقِرُّ المعتَرِفُ بذَنْبِه، أسألكَ مسألةَ المِسكينِ، وأبتهلُ إليكَ ابتهالَ المُذْنِبِ الذَّليلِ، وأدعوكَ دعاءَ الخائِفِ الضَّريرِ[٥].

---

(١) «متواضعاً متخشعاً»: عند الترمذي (٥٥٨، ٥٥٩) من حديث ابن عباس، وقال: حسن صحيح. و«متمسكناً»: عند ابن حبان (٢٨٦٢).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٠٩)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٨/ ٣٢٥).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٨٥).

(٤) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٢٨٩٢).

(٥) أخرجه الطبراني في «الدعاء» (٨٧٧)، وفي «المعجم الكبير» (١١٤٠٥) و«الصغير» (٦٩٦)، ومن طريقه: الضياء في «المختارة» (٢٣٢).

وكانَ بعضُ السَّلفِ يجلِسُ باللَّيلِ مُطْرِقاً رأسَه، ويمدُّ يديهِ وهو ساكِتٌ كحالِ المسكينِ المُسْتَعطِي[١].

وقالَ طاوسٌ: دخلَ عليُّ بنُ الحسينِ الحِجْرَ ليلةً، فصلَّى، فسمعتُهُ يقولُ في سُجودِهِ: عُبَيْدُك بفِنَائِكَ، مِسكينُكَ بفِنَائِك، فقيرُك بفِنائِك، سائِلك بفِنائك. قال طاوس: فحَفِظْتُهنَّ فما دعوتُ بهِنَّ في كَرْبٍ إلا فُرِّجَ عني[٢].

وكانَ بعضُ العُبَّاد قد حَجَّ ثمانينَ حَجَّة على قدميه، فبينا هو في الطَّوافِ وهو يقول: يا حبيبي يا حبيبي، فهتفَ به هاتفٌ: أليسَ ترضى أن تكونَ مِسْكيناً حتى تكونَ حبيباً؟! فغُشي عليه، فكان بعدَ ذلك يقول: مسكِينُكَ مِسكينُكَ[٣].

ولشيخِ الإسلام ابنِ تَيْمِيَّة رحمه الله تعالى[٤]:

أنـا الفقيـرُ إلـى ربِّ السـماواتِ ... أنـا المُسَيكينُ في مجمـوعِ حَالاتي

أنـا الظَّلـومُ لنفسـي وهـي ظَالمتي ... والخيـرُ إنْ جَاءَنـا مِـنْ عنْـدِه يَاتـي

قوله ﷺ: «وأنْ تَغفِرَ لي وتَرْحَمَني»: المغفرةُ والرَّحمةُ يَجْمعانِ خيرَ الآخرةِ كلَّه، لأنَّ المغفرةَ سَتْرُ الذَّنبِ مع وِقايةِ شَرِّه.

وقَدْ قيل: إنَّه لا تَجْتَمِعُ المغفرةُ مع عُقوبَةِ الذَّنْبِ، حيثُ كانت المغفرةُ

---

(١) ذكره المصنف أيضاً في رسالته «الذل والانكسار».

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» (٦٩)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤١/ ٣٨٠ ـ ٣٨٢) من طرق.

(٣) عزاه المصنف في «الذل والانكسار» إلى ابن باكويه الصوفي بإسناد له.

(٤) في (ش): «شعر لابن تيمية رحمه الله» بخط مغاير نقله أيضاً ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٥٢٠) باختلاف طفيف.

وقايـةَ شـرِّ الذَّنْـبِ، وهـذا لا يكونُ مـع عُقوبةٍ عليـه، ولذلك سُـمِّي المِغْفَـر مِغْفراً؛ لأنَّـه يسـترُ الرأسَ ويقيـه الأذى. وهذا بخلافِ العَفْـو، فإنَّه يكونُ تارةً قبـلَ العُقوبةِ، وتـارةً بعدَها.

وأمـا الرحمـةُ فهـي دخـولُ الجنَّـة وعُلـوُّ درجاتِهـا. وجميعُ مـا فـي الجنَّةِ من النَّعيـم بالمخلوقـاتِ، ومِـنْ رِضى الله عـزَّ وجلَّ وقُرْبِه ومشـاهدتِهِ وزيارتـهِ فإنَّه من رحمـةِ الله تعالى.

وفي الحديثِ الصَّحيحِ: «إنَّ اللهَ عز وجل يقولُ للجنَّةِ: أنتِ رحمتي، أرحمُ بكِ مَنْ أشاءُ من عِبادي»[1]، فكلُّ ما في الجنَّةِ فهو من رحمتِه عَزَّ وجَلَّ، وإنما تُنَالُ برحمَتِه لا بالعملِ، كما قال ﷺ: «لنْ يدخلَ أحدٌ منكُمُ الجنَّةَ بعمَلِه»: قالوا: ولا أنتَ يا رسول الله! قال: «ولا أَنَا إلا أَنْ يتغمَّدني اللهُ برحمةٍ منه»[2][3].

قوله ﷺ: «وإذا أردتَ بقومٍ فتنةً فاقبضني إليكَ غيرَ مفتونٍ»: المقصودُ بهذا الدُّعاءِ سلامةُ العبدِ مِنْ فِتَنِ الدُّنيا مُدَّةَ حياتِه، فإنَّ قدَّرَ اللهُ عز وجل على عِبَادِهِ فتنةً قَبَضَ عبدَهُ إليه قَبْلَ وقُوعِها، وهذا مِنْ أَهَمِّ الأدعيةِ، فإنَّ المؤمنَ إذا عاشَ سليمًا من الفِتَنِ، ثم قبضَه اللهُ تعالى قبلَ وقوعِهَا وحصولِ النَّاسِ فيها؛ كان ذلكَ نجاةً له من الشَّرِ كلِّه، وقد أمرَ النبيُّ ﷺ أصحابَه أن يتعوَّذوا باللهِ من الفِتَنِ ما ظهرَ منها وما بَطَنَ[4].

---

(١) أخرجه البخاري في حديث (٤٨٥٠) من رواية أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في (ت) و(ف): «برحمته».

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٧٤٧٩)، والبخاري (٥٦٧٣) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم (٢٨٦٧) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

وفي حديث آخرَ: «وجَنِّبنا الفواحشَ والفِتَنَ ما ظَهرَ منها وما بَطَن»[١].

وكان يخُصُّ بعضَ الفِتنِ العظيمةِ بالذِّكرِ، فكانَ يتعوَّذُ في صَلاتِهِ مِنْ أَربَعٍ، ويأمرُ بالتعوُّذِ منها: أعوذُ باللهِ من عذابِ جهنَّم، ومن عذابِ القَبْرِ، ومن فتنةِ المحيا والممات، ومن فتنةِ المسيحِ الدَّجَّال[٢].

ففتنةُ المحيا: تدخلُ فيها فِتَنُ الدِّينِ والدُّنيا كلُّها، كالكفر والبِدَع والفُسوق والعِصْيان.

وفتنةُ الممات: يدخلُ فيها سوءُ الخاتِمة، وفتنةُ المَلَكين في القبر، فإنَّ الناسَ يُفْتَنونَ في قُبورِهم مِثْلَ أو قريباً مِنْ فِتْنَةِ الدَّجالِ[٣]، ثمَّ خَصَّ فتنةَ الدَّجالِ بالذِّكرِ لِعظَمِ مَوْقِعها فإنَّه لمْ يكنْ في الدنيا فتنةٌ قبلَ يومِ القيامَةِ أعظمَ منها، وكلَّما قَرُبَ الزمانُ من الساعةِ كَثُرت الفِتَنُ.

وفي حديثِ معاويةَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لم يبقَ مِنَ الدنيا إلا بلاءٌ وفِتْنةٌ»[٤].

وقد أخبرَ النبيُّ ﷺ عن الفتنِ التي كقِطَعِ الليلِ المُظْلِمِ يُصبحُ الرَّجلُ فيها مُؤمِناً، ويُمسِي كافراً، يبيعُ دِيْنَه بعَرَضٍ من الدُّنيا[٥].

وكانَ أولُ هذه الفتن ما حَدَثَ بهم مِنْ مقتلِ[٦] عُمرَ رضي الله عنه ونَشأ من تلكَ

---

(١) أخرجه أبو داود (٩٦١) وغيره من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. ولفظة: «والفتن» لا توجد في هذا الحديث، والله تعالى أعلم. لكن ذكرها أيضاً ابن الأثير في «جامع الأصول» (٢١٨٠)!

(٢) أخرجه البخاري (١٣٧٧)، ومسلم (٥٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه النسائي (١٤٧٥) من حديث عائشة رضي الله عنها في الكسوف.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٠٣٥) وهذا لفظه، والإمام أحمد (١٦٨٥٣)، وفي (ش): «إنه لم يبق».

(٥) في حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عند مسلم (١١٨).

(٦) في (ش) و(ت): «حدث بعد عمر».

الفِتَنِ؛ فَقَتْلُ عثمانَ رضي الله عنه وما ترتَّب عليهِ من إراقَةِ الدِّماءِ وتفرُّقِ القُلوبِ وظهورِ فِتَنِ الدِّينِ كبِدَعِ الخوارجِ المارقينَ من الدِّينِ وإظهارِهم ما أظهَروا، ثمَّ ظهورُ بِدَعِ أهلِ القَدَرِ والرَّفْضِ ونحوِهم، وهذه هي الفِتْنَةُ التي تموجُ كموجِ البحرِ المذكورةِ في حديثِ حذيفةَ المشهورِ حين سأله عنها عُمرُ رضي الله عنه[١]، وكان حذيفةُ مِنْ أكثرِ النَّاسِ سُؤالاً للنبيِّ ﷺ عن الفتنِ خَوفاً من الوقوعِ فيها[٢]، ولمَّا حَضَرهُ الموتُ قال: حبيبٌ جاءَ على فاقةٍ، لا أفلحَ مَنْ نَدِمَ، الحمدُ لله الذي سَبَقَ بي الفتنةَ قادَتَها وعُلُوجَها[٣]. وكانَ موتُه قبلَ قَتْلِ عثمان بنحوٍ من أربعينَ يوماً[٤]، وقيل: بل ماتَ بعدَ قتلِ عثمان[٥]. وكانَ في تلك الأيَّامِ رَجلٌ من الصحابةِ نائماً، فأتاه آتٍ في منامِهِ فقال له: قُمْ فاسألِ اللهَ أن يعيذَكَ من الفِتنةِ التي أعاذَ منها صالحَ عِبادِهِ، فقامَ فتوضَّأ، وصلَّى، ثم اشتكى، وماتَ بعدَ قليلٍ[٦].

وقد رُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال لرجل: «إذا متُّ أنا وأبو بكرٍ وعُمر وعثمان؛ فإنِ استطعتَ أن تموتَ فمُتْ»[٧]، وهذا إشارةٌ إلى هذه الفِتَنِ التي وَقعتْ بمقتَلِ عثمانَ رضي الله عنه.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٥) وغيره.

(٢) كحديثه في البخاري (٣٦٠٦): كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني...

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥٠٢) وقال: «صحيح الإسناد»، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٨٢) واللفظ له.

(٤) انظر: «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي (١/ ٥٠٨) وخطَّأه.

(٥) انظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٨/ ١٣٧).

(٦) وهو عامر بن ربيعة رضي الله عنه، كما في «الطبقات الكبرى»، لابن سعد (٣/ ٣٦٠) و«حلية الأولياء» (١/ ١٧٨).

(٧) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٩/ ١٧٥)، وله رواية مطولة أخرجها ابن حبان في «المجروحين» (٤٣٦). من حديث سهل بن أبي حثمة رضي الله عنه.

والدعاءُ بالموتِ خشيةَ الفِتنة في الدِّينِ جائزٌ، وقد دعا به الصحابةُ والصالحون بعدَهم.

ولمَّا حَجَّ عمرُ رضي الله عنه آخرَ حَجَّةٍ حَجَّها: استلقى بالأبطَحِ ثم رَفعَ يديه وقال: اللهمَّ إنَّه قد كبرت سِنِّي ورَقَّ عَظْمِي وانتشرتْ رعيَّتي، فاقبضني إليكَ غيرَ مُضَيِّعٍ ولا مفتونٍ، ثم رجعَ إلى المدينةِ فما انسلخَ الشهرُ حتى قُتِلَ رضي الله عنه[1].

ودعا عليٌّ رضي الله عنه ربَّه أن يُرِيحَه من رَعيَّته، حيثُ سئِمَ منهم، فقُتِلَ عن قَرِيبٍ[2].

ودَعَتْ زينبُ بنتُ جحشٍ لمَّا جاءَها عطاءُ عمرَ من المالِ فاستكثَرَتْه وقالت: اللهمَّ لا يُدْرِكني عطاءٌ لعُمَر بعدَها، فماتَتْ قبلَ العطاءِ الثاني[3].

ولما ضَجِرَ عُمرُ بنُ عبدِ العزيز من رَعيَّتِهِ حيثُ ثَقُلَ عليهم قيامُه فيهم بالحَقِّ طَلَبَ مِنْ رجلٍ كانَ معروفاً بإجابةِ الدَّعوةِ أن يدعوَ له بالموتِ، فدعا له ولنفسِهِ بالموتِ فماتا[4].

ودُعِيَ طائفةٌ من السَّلَفِ الصَّالح إلى ولايةِ القَضاءِ، فاستَمْهلوا ثلاثةَ أيَّامٍ، فدعَوُا اللهَ لأنفسِهِمْ بالموتِ فماتُوا[5].

---

(١) أخرجه الإمام مالك في «الموطأ» (٢٤٧٤).

(٢) روى عبد الرزاق في «مصنفه» (١٨٦٧٠) عن عَبيدة قال: سمعت علياً يخطب، يقول: «اللهم إني قد سئمتهم وسئموني، ومللتهم وملوني، فأرحني منهم وأرحهم مني، فما يَمنَعُ أشقاكم أن يخضبها بدم؟» ووضع يده على لحيته.

(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١٠/ ١٠٦).

(٤) الرجل الصالح هو عبد الله بن أبي زكريا. والخبر في «سيرة عمر بن عبد العزيز» لابن عبد الحكم المصري (ص ٩٩).

(٥) هو الإمام الجليل قاسم بن ثابت السرقطسي الأندلسي، مؤلف كتاب «الدلائل في غريب الحديث»، =

واطَّلِعَ عَلى حالِ بعضِ الصَّالحين ومعاملاتِه التي كانتْ سِرًّا بينه وبين ربِّه، فسألَ اللهَ أنْ يَقبِضَهُ إليه خَوْفاً من فِتْنةِ الاشتهارِ، فماتَ. فإنَّ الشهرةَ بالخيرِ فتنةٌ، كما جاءَ في الحديثِ «كفى بالمرءِ[1] أنْ يُشارَ إليه بالأصابعِ»[2]، فإنَّها فتنةٌ.

كانَ سفيانُ الثوريُّ يتمنَّى الموتَ كثيراً فسُئِلَ عن ذلكَ فقالَ: ما يُدْريني لعَلِّي أدخلُ في بِدْعة! لعلِّي أدخلُ فيما لا يَحِلُّ لي! لعلِّي أدخلُ في فِتْنَة! أكونُ قد متُّ فسبقْتُ هذا[3].

واعلم أنَّ الإنسانَ لا يخلو مِنْ فِتنةٍ. قال ابنُ مسعود: لا يَقُلْ أحدُكُم: أعوذُ باللهِ مِنَ الفِتَنِ، ولكنْ ليقلْ: أعوذُ باللهِ مِنْ مُضِلَّاتِ الفِتَن. ثمَّ تلا قولَه تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨][4] يشيرُ إلى أنه لا يُستعاذُ من المالِ والولدِ وهما فِتْنَة.

وفي «المُسْند»: أنَّ النبيّ ﷺ أَمَرَ أُمَّ سَلَمَةَ أَنْ تقول: «اللهمَّ ربَّ النبيِّ محمدٍ اغفرْ لي ذنبي، وأذهبْ غيظَ قلبي، وأجرني من مُضِلّاتِ الفِتَنِ ما أَبقيتني»[5].

وقَدْ جعلَ النبيُّ النساءَ والأموالَ فِتنةً، ففي «الصحيحِ» عنه ﷺ قال: «ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجالِ من النِّساءِ»[6].

= المتوفى (سنة ٣٠٢هـ) رحمه الله تعالى، وخبر دعائه في «بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس» للضبي (١٣٠٠).

(١) زاد في (ت) و(ف): «فتنة» وليست من الحديث.

(٢) الحديث من رواية عمران بن الحصين رضي الله عنه. أخرجه الطبراني في «الكبير» ١٨ (٥١٨) ولفظه: «كفى بالمرء من الشر...» وأخرجه أيضاً ١٨ (٥٦٧) ولفظه: «كفى بالمرء من الإثم...». وقد روي هذا المعنى عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم.

(٣) أخرجه البيهقي في «الزهد الكبير» (٥٧١).

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ١١٥، ١٢٧).

(٥) «مسند الإمام أحمد» (٢٦٥٧٦) ولفظه: «ما أحييتنا» بدل «أبقيتني».

(٦) أخرجه البخاري (٥٠٩٦) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

وفيه أيضاً: أنه ﷺ قال: «واللهِ ما الفقرَ أخشى عليكم، ولكنْ أخشى أن تُبْسَطَ عليكُم الدنيا كما بُسِطتْ على مَنْ كانَ قبلَكُم، فتنافَسُوها كما تنافسوها، وتهلِكَكُم[1] كما أهلكتهم»[2].

وفي «صحيحِ مُسْلِمٍ» عنه ﷺ قال: «اتَّقُوا النساءَ، فإنَّ أولَ فتنةِ بني إسرائيلَ كانتْ في النساء»[3].

وفي «الترمذيِّ» أنَّه ﷺ قال: «لكلِّ أمةٍ فِتْنة، وفتنةُ أمَّتي المالُ»[4]. وقدْ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠] الآية. فالرجلُ فتنةٌ للمرأةِ والمرأةُ فتنةٌ للرجلِ، والغنيُّ فتنةٌ للفقيرِ والفقيرُ فتنةٌ للغنيِّ، والفاجرُ فتنةٌ للبرِّ والبرُّ فتنةٌ للفاجرِ، والكافرُ فتنةٌ للمؤمنِ والمؤمنُ فتنةٌ للكافرِ. قال اللهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]، وقال اللهُ عزّ وجلَّ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، فجعلَ كلَّ ما يصيبُ الإنسانَ من شَرٍ أو خيرٍ فتنةً، يعني أنَّهُ محنةٌ يُمتَحَنُ بها، فإنْ أصيبَ بخيرٍ امتُحِنَ[5] به شُكْرُه، وإنْ أصيبَ بشَرٍّ امتُحِنَ[6] بِهِ صَبْرُه.

وفتنةُ السَّرَّاءِ أشدُّ من فِتنةِ الضَّراءِ قال عبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ: بُلِينا بفتنةِ الضَّراءِ فصبَرنا، وبُلينا بفتنةِ السَّرَّاءِ فلمْ نصبِرْ[7].

---

(١) في (ش): «فتهلككم».

(٢) أخرجه البخاري (٣١٥٨، ٤٠١٥) من حديث عمرو بن عوف الأنصاري.

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٤٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٣٣٦) من حديث كعب بن عياض رضي الله عنه. وقال: حسن صحيح غريب.

(٥) في (ش): «استحق».

(٦) في (ش): «استحق».

(٧) أخرجه الترمذي (٢٤٦٤) بنحوه، وقال: حديث حسن.

وقالَ بعضُهم: فتنةُ الضَّراءِ يصبرُ عليها البَرُّ والفاجِرُ، ولا يصبِرُ على فتنةِ السَّرَّاءِ إلا صِدِّيقٌ[١].

ولمَّا ابتُلِيَ الإمامُ أحمدُ بفتنةِ الضَّراءِ صَبَرَ ولم يَجْزَعْ، وقال: كانتْ زيادةً في إيماني. فلما ابتلِيَ بفتنةِ السَّرَّاءِ جَزِعَ وتمنَّى الموتَ صباحاً ومساءً وخَشِيَ أنْ يكونَ نَقْصاً في دِينه[٢].

ثُمَّ إنَّ المؤمنَ لا بُدَّ أنْ يُفتَنَ بشيءٍ مِنَ الفِتنِ المؤلِمَةِ الشَّاقَّةِ عليه، ليُمْتَحَنَ إيمانهُ، كما قال اللهُ تعالى ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣]، ولكنَّ الله يلطُفُ بعبادِه المؤمنينَ في هذه الفِتَنِ، ويصبِّرُهُم عليها، ويثيبهم فيها ولا يُلْقيهم في فتنةٍ مُضِلَّةٍ مُهْلِكَةٍ[٣] تذهبُ بدينهم، بل تمرُّ عليهمُ الفتَنُ وهم فيها في عَافية.

وخَرَّجَ ابنُ أبي الدُّنيا مِنْ حديثِ ابنِ عُمر مرفوعاً: «إنَّ لله ضنائِنَ من عِباده،

---

(١) هذا كأنه مقتبس من كلام سهل بن عبد الله التستري رحمه الله، الذي أخرجه أبو نُعيم في «الحلية» (١٠/ ١٩٧) قال: «ليس من عمل بطاعة الله صار حبيب الله، ولكن من اجتنب ما نهى عنه الله صار حبيب الله. ولا يجتنب الآثام إلا صدِّيق مقرب. وأما أعمال البر يعملها البر والفاجر».

(٢) روى ابن الجوزي في «مناقب الإمام أحمد» (ص ٥٠٧) عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله قال: «هذا أمر أشدُّ عليَّ من ذلك! ذاك فتنة الدين: الضرب والحبس كنت أحتمله في نفسي، وهذا فتنة الدنيا».
وروي أيضاً (ص ٥٠٢) قوله: «إني لأتمنى الموتَ صباحاً ومساءً أخاف أن أفتن بالدنيا. لقد تفكرت البارحة، فقلت: هذهِ محنتان: امتحنت بالدِّين، وهذه محنة بالدنيا. وقال لي ونحن بالعسكر: ألا تعجب! كان قُوتي فيما مضى أرغفة، وقد ذهبت عني شهوة الطعام فما أشتهيه. قد كنت في السجن آكل، وذلك عندي زيادة في إيماني، وهذا نقصان».

(٣) في (ش): «مهلكة مضلة».

يَغْذُوهم في رحمته، ويحييهم في عافيته، ويتوفَّاهُم إلى جَنَّته، أولئك الذين تَمُرُّ عليهم الفتنُ كَقِطَعِ الليلِ المُظْلِمِ وهُمْ مِنْها[1] في عافيةٍ»[2].

والفتنُ الصِّغارُ التي يُبْتَلى بها المرءُ في أهلِه ومالِه وولدِه وجارِه تُكَفِّرُها الطاعاتُ مِنَ الصَّلاةِ والصِّيامِ والصَّدقَةِ. كذا جاءَ في حديثِ حُذيفَة[3].

ورُويَ عنهُ أنه سألَ النبيَّ ﷺ قال: إنَّ في لِساني ذَرَباً، وإنَّ عامةَ ذلكَ على أهلي. فقال له: «أينَ أنتَ عنِ الاستغفارِ»[4].

وأمَّا الفتنُ المضِلَّةُ التي يُخشى منها فسادُ الدِّينِ فهي التي يُستعاذُ منها، ويُسأَلُ الموتُ قبلَها، فمنْ ماتَ قبلَ وقُوعِه في شيءٍ من هذهِ الفِتَنِ فقدْ حفظهُ الله تعالى وحَمَاه.

وفي «المسند» عن محمودِ بنِ لَبيد، عن النبيِّ ﷺ قال: «اثنتانِ يَكرَهُهُما ابنُ آدم: يكرهُ الموتَ، والموتُ خيرٌ للمُؤمنِ من الفِتنةِ، ويكرهُ قِلَّةَ المالِ، وقلةُ المالِ أقلُّ للحِساب»[5].

وقوله ﷺ «وأسألكَ حُبَّكَ وحُبَّ من يُحِبُّك وحُبَّ العملِ الذي يُبَلِّغُني حُبَّك»: هذا الدعاءُ يجمعُ كلَّ خيرٍ فإنَّ الأفعالَ الاختيارِيَّةَ مِنَ العِبادِ إنما تنشأُ عن محبةٍ وإرادةٍ، فإذا كانتْ محبةُ اللهِ ثابتةً في قلبِ العبدِ: نشأتْ عنها حركاتُ الجوارحِ؛

---

(١) في (ف): «عنها»، وفي (ت): «فيها».

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الأولياء» (٢).

(٣) الذي أخرجه البخاري (٥٢٥).

(٤) أخرجه أحمد (٢٣٣٦٢)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٤٤٨ _ ٤٥٣)، وابن ماجه (٣٨١٧).
ذَرِبَ لسانُه: إذا كان حادَّ اللسان، لا يبالي ما قال.

(٥) أخرجه أحمد (٢٣٦٢٥).

فكانت بحسبِ ما يُحبُّه اللهُ ويرتَضِيه؛ فـأحـبَّ ما يحبُّه اللهُ عزَّ وجلَّ من الأعمالِ والأقوالِ كلِّها؛ ففعلَ حينئذٍ الخيراتِ كلَّها، وَتَركَ المنكراتِ كلَّها، وأحبَّ من يحبهُ اللهُ مِنْ خَلْقِه.

وهذا الدعاءُ كانت الأنبياءُ عليهم السلام تدعُوا به، كما في «الترمذيِّ»، عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ داودَ عليه السلام كان يقول: اللهمَّ إني أسألكَ حبَّكَ وحُبَّ مَنْ يحبُّكَ وحُبَّ عملٍ يبلِّغُني حبَّك»[1].

وفيه أيضاً: أنَّ النبي ﷺ كان يدعو: «اللهمَّ ارزُقني حُبَّك وحُبَّ مَنْ يُحِبُّك وحُبَّ عملٍ يبلِّغني إلى حُبِّك[2] اللهمَّ ما رزقتَني مما أُحِبُّ فاجعله قوةً لي فيما تُحِبُّ، وما زويتَ عنِّي مما أحبُّ فاجعلهُ فراغاً لي فيما تُحِبُّ»[3].

وفي حديثٍ مرسلٍ خَرَّجه ابنُ أبي الدُّنيا وغيرُه: أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقول: «اللهمَّ اجعلْ حُبَّكَ أحبَّ الأشياءِ إليَّ، وخشيَتَك أخوفَ الأشياءِ عِندي، واقطعْ عني حاجاتِ الدُّنيا بالشَّوقِ إلى لِقائِك، وإذا أقررتَ أعيُنَ أهلِ الدُّنيا من دُنياهم فأقرر عيني مِنْ عبادَتِك»[4].

ومـن كان أكبـرَ همِّـه طلبُ محبَّـةِ اللهِ أعطـاهُ اللهُ عز وجـل فوقَ ما يريـدُ[5] من الدنيـا تبَعاً.

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه (٣٤٩٠) وقال: «حسن غريب».

(٢) هذه الجملة: «وحب من يحبك وحب عمل يبلغني إلى حبك» مدرجة ليست من هذا الحديث، وإنما فيه: «وحبَّ من ينفعني حبُّه عندك»

(٣) أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن يزيد الخطمي رضي الله عنه (٣٤٩١) وقال: «حسن غريب».

(٤) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٢٨٢) عن الهيثم بن مالك الطائي رحمه الله تعالى مرسلًا.

(٥) في (ش): «يريده».

قال بعضُ السَّلفِ: لما تُوفِّي داودُ عليه السلامُ أرسلَ اللهُ عزَّ وجلَّ إلى سليمان عليه السلام: ألكَ حاجةٌ تسألني إيَّاها؟ فقالَ سليمانُ: اسألُ الله أنْ يجعلَ قلبي يحبُّه كما كان قلبُ أبي داودَ يحبُّه، وأنْ يجعلَ قلبي يخشاهُ كما كان قلبُ أبي داودَ يخشاه، فشكرَ اللهُ له ذلكَ وأعطاه مُلْكاً لا ينبغي لأحدٍ مِنْ بعدِه[1].

ومحبة الله تعالى على درجتين:

إحداهما: واجبةٌ وهي المحبةُ التي تُوجِبُ للعبدِ محبَّة ما يحبُّه اللهُ من الواجباتِ، وكراهةَ ما يكرهُه من المحرماتِ، فإنَّ المحبةَ التامَّة تقتضي الموافقةَ لمن يحبُّه[2] في محبَّةِ ما يحبُّه، وكراهِيَةِ ما يكرهُهُ خصوصاً فيما[3] يحبُّه ويكرَهُهُ من المحبِّ نفسِه، فلا تَصِحُّ المحبَّةُ بدونِ فعلِ ما يحبُّه المحبوبُ مِنْ مُحبِّهِ، وكراهَةِ ما يكرهُهُ المحبوبُ من مُحِبِّه.

سُئِلَ بعضُ العارفين عن المحبَّةِ فقال: الموافقةُ في جميعِ الأحوالِ، وأنشد:

ولو قلتَ لي[4] مُتْ مُتُّ سَمعاً وطاعةً ... وقلتُ لداعي الموتِ أهلاً ومَرْحبا[5]

وأنشد آخرُ منهم:

---

(١) أخرجه ابن الجنيد الختلي في «المحبة» (٧٩). عن صالح بن مسمار قال: بلغنا... وصالح بن مسمار من شيوخ مَعْمَر.

(٢) في (ت) و(ف): «للمحبوب».

(٣) في (ت) و(ف): «لمن».

(٤) في (ت) و(ف): «ولو قيل مت».

(٥) هذا قول العبد الصالح رويم بن أحمد البغدادي الصوفي رحمه الله تعالى لمَّا سُئل عن المحبة؛ فقال وأنشد. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٣٠١).

تعصِي الإلهَ وأنتَ تزعم[١] حبَّهُ هذا لعَمْري في القياسِ فَظِيعُ[٢]

لو كان حُبُّكَ صادقاً لأطعتَه إن المحبَّ لمنْ يُحِبُّ مطيعُ[٣]

ومتى أخلَّ العبدُ ببعضِ الواجباتِ، أو ارتكبَ بعض المحرَّماتِ فمحبتُّه لربِّه غيرُ تامةٍ، فالواجبُ عليه المبادرةُ بالتَّوبةِ والاجتهادِ في تكميلِ المحبَّةِ المقتضِيَةِ[٤] لفعلِ الواجباتِ كلِّها واجتنابِ المحرَّماتِ كلِّها، وهذا معنى قول النبيِّ ﷺ: «لا يزني الزَّاني حينَ يزني وهو مُؤمن، ولا يسرقُ السَّارقُ حين يسرقُ وهو مؤمن، ولا يشربُ الخمرَ حين يشربُها وهو مُؤمن»[٥]، فإنَّ الإيمانَ الكاملَ يقتضي محبةَ ما يحبُّه اللهُ وكراهةَ ما يكرَهُهُ اللهُ، والعمل بمقتَضى[٦] ذلك. فلا يرتكبُ أحدٌ شيئاً من المحرماتِ أو يخلُّ بشيءٍ من الواجباتِ إلا لتقديمِ هوى النَّفسِ المقتضِي لارتكابِ ذلكَ على محبَّةِ اللهِ تعالى المقتضيةِ[٧] لخلافِهِ[٨].

الدرجةُ الثانيةُ: من المحبَّةِ: درجةُ المقرَّبين، وهي أنْ يمتلئَ القلبُ بمحبةِ اللهِ حتى توجِبَ له محبَّةَ النوافلِ والاجتهادَ فيها، وكراهةَ المكروهاتِ والانكفافَ عنها،

---

(١) كذا في (ش) وحاشية (ت) و(ف). وفي (ت) و(ف): «تظهر».

(٢) في (ت) و(ف): «شنيع».

(٣) هذان البيتان مما يكثر جدًّا التمثل بهما ونُسبا إلى كثير من القائلين، فنسبا لذي الرمة، ولأبي العتاهية، ولابن المبارك، وللشافعي، ولمحمود الوراق، وتمثَّل بهما كثير من الأكابر. والشطر الثاني من البيت الأول ذكر بألفاظ متعددة.

(٤) في (ش): «المفضية».

(٥) أخرجه البخاري (٥٥٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) في (ت) و(ف): «يقتضي».

(٧) في (ش): «المفضية».

(٨) في حاشية (ش): «بلغ مقابلة».

والرِّضَا بالأقضيةِ والأقدارِ المؤلمةِ للنفوسِ بصدُورها عن المحبوبِ، كما قال عامرُ بنُ عبد قيس: أحببتُ اللهَ حُبّاً هَوَّنَ عليَّ كلَّ مصيبةٍ، ورضَّاني بكلِّ بَلِيَّة، فلا أُبالي مع حُبِّي إياهُ على ما أصبحتُ ولا على ما أمسيتُ[1].

وقال عُمرُ بنُ عبدِ العزيز لمَّا ماتَ ولدُه الصَّالحُ: إنَّ الله أحبَّ قبضَه، وإنِّي أعوُذ باللهِ أن يكونَ لي محبةٌ في شيءٍ من الأمورِ يخالِفُ محبَّةَ اللهِ[2]، وكانَ يقولُ: أصبحتُ ومالي سرورٌ إلا في مواقعِ القضاءِ والقدرِ[3]. وأنشد بعضُهم:

يا مَنْ يَعِزُّ علينا أنْ نُفَارِقَهُم ... وجدانُنا كلَّ شيءٍ بعدَكُمْ عَدَمُ

إنْ كانَ سَرَّكُمُ ما قَدْ بُلِيتُ بِهِ ... فَما لجُرْحٍ إذا أرضَاكُمُ أَلَمُ[4]

ولبعضهم:

وحَسبُ سلطانِ الهوى ... أنَّه يُلَذُّ فيه كلُّ ما يُؤلم[5]

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الأولياء» (٧١)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٨٩)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٦/ ٢٩) وعندهم: «حباً سهل علي كل مصيبة ورضاني بكل قضية».
وعامر بن عبد قيس ممن انتهى إليهم الزهد من التابعين.

(٢) من كتاب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن في وفاة ابنه عبد الملك، أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣٥٧).

(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٧/ ٣٦٣)، وابن عبد الحكم في «سيرة عمر بن عبد العزيز» (ص ٩٧)، وابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (١٠، ٤٦) بألفاظ مقاربة.

(٤) البيتان من قصيدة من مشهور شعر المتنبي في سيف الدولة. وهما في ديوانه (ص ٣٣٣)، وصدر البيت الثاني:

إن كان سركم ما قال حاسدنا

(٥) البيت من أبيات لأبي الخطاب محمد بن علي البغدادي، المعروف بالجَبُّلي. أنشدها له ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٤/ ٣٨١).

كانَ عمارُ بنُ ياسرٍ يقول: اللهمَّ لو أعلمُ أنَّه أرضى لكَ عني أنْ أرميَ بنفسي مِنْ هذا الجبلِ فأتردَّى فأَسقُطَ فعلتُ، ولو أعلمُ أنَّه أرضى لكَ عنِّي أنْ أوقدَ ناراً عظيمةً فأقعَ فيها فعلتُ، ولو أعلمُ أنَّه أرضى لكَ عني أنْ أُلقِيَ نفسي في الماءِ فأُغَرِّقَ نفسي فعلتُ، وإني لا أقولُ هذا إلا أريدُ وجهَكَ، وأنا أرجو أنْ لا تُخَيِّبني وأنا أريدُ وجهَك[١].

وقُتِلَ لبعضِ الصَّالحين ولدانِ في الجهاد، فعزَّاهُ الناسُ فيهما، فبكى وقال: ما أبكي لفَقْدِهما، إنما أبكاني[٢] كيفَ كان رِضاهُما عَنِ اللهِ حيثُ أَخذَتْهُما السيوفُ[٣].

وكانَ بعضُ العارفينَ يطوفُ بالبيتِ فهَجَمت القرامطةُ على الناسِ فقتلُوهم في الطَّوافِ، فوصَلُوا إليه فلم يقطع الطَّوافَ حتى سقَطَ من ضَرْبِ السُّيوفِ صَرِيعاً وأنشدَ:

تَرى المُحبِّين صرعى في ديارِهم ... كفتيةِ الكهفِ لا يدرونَ كم[٤] لَبِثُوا[٥]

---

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٢٣٨)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٣/ ٤٥٧)، وفي (ش): «وإنما أريد وجهك».

(٢) في (ت) و(ف): «أبكي».

(٣) ذكره المصنف أيضاً في رسالته «شرح حديث لبيك اللهم لبيك».

(٤) في (ف): «ما».

(٥) العارف هو علي بن بابويه الصوفي المحدّث، ذكره الفاسي في «العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين» (٥/ ٢٤٢). وكان استشهاده في ذي الحجة (سنة ٣١٧هـ) رحمه الله تعالى عند استيلاء الزنادقة القرامطة على البلد الحرام، وإلحادهم فيه، وقتلهم الحُجَّاج، وكفرهم بالله العظيم. انظر: «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» لابن الجوزي (١٣/ ٢٨٣).

قال بعضُ العارفين: إنْ كنتَ تسمحُ ببذلِ روحِكَ في هذه الطريقِ، وإلا فلا تَشتغلْ بالتُّرَّهاتِ[١].

خاطِرْ برُوحِكَ في هَوانا واسترِحْ ... إنْ شئتَ تحظى بالمحلِّ الأعظَمِ

لا يَشْغَلَنَّكَ شاغِلٌ عنْ وَصْلِنا ... وانهضْ على قَدَمِ الرَّجا وتقدَّمِ[٢]

أقلُّ ثمنِ المحبَّةِ بذلُ الروح:

بدم المُحِبِّ يباعُ وصلُهُم ... فمنْ ذا[٣] الذي يبتاعُ بالثَّمَنِ[٤]

ولمَّا كانتْ محبةُ اللهِ عزَّ وجلَّ لها لوازم، وهي محبَّةُ ما يحبُّه اللهُ عزَّ وجلَّ من الأشخاصِ والأعمالِ، وكراهةُ ما يكرهُهُ من ذلكَ سألَ النبيُّ ﷺ اللهَ تعالى مع محبَّتِهِ شيئين آخرين:

أحدُهما: محبةُ مَنْ يُحِبُّ ما يحبُّه الله تعالى، فإنَّ مَنْ أحبَّ اللهَ أَحبَّ أَحِبَّاءَه فيه، ووالاهُم وأبغضَ أعداءَه وعاداهم، كما قال النبي ﷺ: «ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ وجَدَ بهنَّ

---

(١) قال محمد بن خفيف: سألت رويم بن أحمد فقلت له: أوصني فقال: «أقل ما في هذا الأمر: بذل الروح، فإن أمكنك الدخول فيه مع هذا، وإلا فلا تشتغل بترهات الصوفية» أخرجه البيهقي في «الزهد الكبير» (٧٣٢)، والقشيري في «الرسالة» (١/ ٨٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٩٧).

(٢) البيتان لأبي الثناء تقي الدين محمود بن علي الدقوقي ثم البغدادي الحنبلي، المتوفى (سنة ٧٣٣هـ) رحمه الله تعالى من قصيدة طويلة في مدح النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم. انظر: «ذيل طبقات الحنابلة» للمصنف رحمه الله (٥/ ٤٤).

(٣) في (ف): «هذا».

(٤) ذكره ابن القيم في «مدارج السالكين» (٣/ ٧).

حلاوةَ الإيمانِ: أن يكونَ اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سِواهُما، وأنْ يُحِبَّ المرءَ لا يحبُّه إلا للهِ...» الحديث[١].

وأعظمُ من تَجِبُ محبَّتُه في الله تعالى: أنبياؤه ورُسُلُه، وأعظَمُهم نبيُّه محمدٌ ﷺ الذي افترَضَ اللهُ على الخَلْقِ كلِّهم متابعَتَهُ، وجعلَ متابَعَتَه علامةً لصحَّةِ محبَّتِه، كما قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾[٢] [آل عمران: ٣١].

وتوعَّدَ من قدَّمَ محبةَ شيءٍ من المخلوقينَ على محبَّتِه ومحبَّةِ رسولِه ومحبَّةِ الجهادِ في سبيلِه في قولِه تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ الآية [التوبة: ٢٤].

ووصفَ المحبِّينَ لـه باللِّينِ للمؤمنينَ من الرأفةِ بهم والمحبَّةِ لهم، والشِّدَّةِ على الكافرينَ من البُغْضِ لهم، والجهادِ في سبيلِه؛ فقال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ الآيـة [المائدة: ٥٤].

والثاني: محبةُ ما يُحبُّه الله تعالى من الأعمالِ، وبها يُبْلَغُ إلى حُبِّه، وفـي هذا إشارةٌ إلى أنَّ درجةَ المحبَّةِ لله تعالى إنما تُنالُ بطاعَتِه وبفعلِ ما يُحبُّه، فإذا امتثَلَ العبدُ أوامرَ مولاه، وفعلَ ما يحبُّه أحبَّه اللهُ تعالى ورَقَّاهُ إلى درجةِ محبَّتِه، كما في الحديث

---

(١) أخرجه البخاري من حديث أنس رضي الله عنه (١٦).

(٢) وهذه الآية واردة في محبة الله جل جلاله وأن علامةَ محبةِ الله تعالى: اتباعُ رسوله ﷺ.

أما تفسير محبة رسول الله ﷺ بأنها مجرد اتباعه، فأخطأ مَنْ استدل عليه بالآية.

وإنما الاتباع من لوازم المحبة، فإن وجدت المحبةُ ولم يوجد الاتباعُ كان ذلك علامة على نقصانها.

أما الاتباع بلا محبة، فذلك من جملة النفاق عياذاً بالله.

الإلهي الذي خَرَّجَهُ البخاريُّ: «وما تقرَّبَ إليَّ عبدي بمثْلِ أداءِ ما افترضتُ عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافِلِ حتَّى أُحِبَّه»[(١)]، فأفضلُ ما استُجلِبَتْ به محبةُ اللهِ عزَّ وجلَّ: فعلُ الواجباتِ وتركُ المحرَّماتِ، ولهذا جعلَ النبيُّ ﷺ من علاماتِ وجدان حلاوةِ الإيمان: «أنْ يكرَه أن يرجع إلى الكُفرِ كما يكرَهُ أنْ يُلْقى في النَّارِ»[(٢)].

وسُئلَ ذو النُّونِ: متى أحبُّ ربي؟ قال: إذا كانَ ما يكرَهُهُ عندَكَ أَمَرَّ مِنَ الصَّبِرِ[(٣)].

ثـم بعدَ ذلك: **الاجتهادُ**[(٤)] فـي نـوافـلِ الطَّاعاتِ، وتركِ دقائقِ المكروهاتِ والمُشْتَبهات، ومن أعظمِ ما تحصل به محبَّة اللهِ تعالى مِنَ النَّوافِلِ: تلاوةُ القرآنِ، وخُصوصاً مع التَّدبُّرِ. قال ابن مسعود: لا يسأَلُ أحدُكم عِنْ نفسِه إلا القرآنَ، فمنْ أحبَّ القرآنَ فهو يحبُّ اللهَ ورسولَه[(٥)]. ولهذا قالَ النبيُّ ﷺ لمنْ قالَ إنِّي أُحِبُّ سورةَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ لأنَّها صفةُ الرحمنِ، فقال: «أخبروه أنَّ اللهَ يحبُّه»[(٦)].

وقالَ أبو سَلَمة بنُ عبدِ الرحمن: لمَّا قدمَ النبيُّ ﷺ المدينةَ خطَبَ فقال في خُطبَته: «إنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله. قدْ أفلحَ من زيَّنه اللهُ في قِلْبه، وأدخَلَه في الإسلامِ بعدَ الكُفْر، واختارَه على ما سِواهُ من الأحاديثِ، إنَّه أحسنُ الحديثِ وأبلَغُه، أحبُّوا مَنْ أحبَّ اللهَ، أحبُّوا اللهَ مِن كُلِّ قلوبِكُم»[(٧)].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) جزء من الحديث السابق: «ثلاث من كن فيه...».

(٣) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٣٦٣) (٩/ ٣٩٢). والصَّبِرُ: عصارة مُرَّة.

(٤) في (ش): «الجهاد».

(٥) أخرجه نحوه الطبراني في «الكبير» (٨٦٥٧)، وابن سمعون في «أماليه» (١٧١).

(٦) أخرجه البخاري من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (٧٣٧٥).

(٧) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٥٢٥). وهو في «سيرة ابن هشام» أيضاً (٢/ ١٠٦).

وكانَ بعضُهم يُكثِرُ تلاوةَ القرآنِ، ثم فتَرَ عن ذلكَ فرأى في المنامِ قائلاً يقولُ له:

إنْ كنـــتَ تزعُـــمُ حُبِّـــي فَلِـــمْ جفَـــوتَ كتـــابي؟

أمـــا تدبـــرتَ مـــا فيـــ ـــه مـــن لطيـــف عتـــابي!

فاستيقظَ وعادَ إلى تلاوتِه[١].

ومـنَ الأعمـالِ التـي توصِـلُ إلـى محبَّـةِ الله تعالى، وهي مِـنْ أعظَـمِ علاماتِ المحبيـن: كثـرةُ ذِكْـرِ الله عَـزَّ وجَـلَّ بالقَلْبِ واللِّسـانِ. قـال بعضُـهم: ما أدمَـنَ أحدٌ ذِكْرَ اللهِ إلا وأفادَ مِنْهُ محبَّةَ الله تعالى[٢].

وقال ذو النون: مَنْ أدمنَ ذِكرَ اللهِ قَذَفَ اللهُ في قَلبه نورَ الاشتياقِ إليه[٣].

وقالَ بعضُ التابعين: علامةُ حُبِّ اللهِ تعالى كثرةُ ذِكره، فإنَّكَ لَنْ تحِبَّ شيئاً إلا أكثرتَ ذكرَهُ[٤].

وقالَ فتحُ المَوْصِلِيُّ: المحبُّ للهِ لا يَجِدُ معَ حُبِّ اللهِ للدنيا لَذَّةً، ولا يَغْفل عَنْ ذِكْرِ الله طَرْفةً[٥].

المحبُّونَ إنْ نطَقُوا نَطَقُوا بالذِّكْرِ، وإنْ سَكَتُوا اشتَغَلُوا بالفِكْرِ:

---

(١) حكاه أحمد بن جعفر الأرتاحي عن شيخ في بلدة أولاس، قال: كان لي ورد أقرأ فيه جزوين من القرآن كل ليلة، قال: فنمت عنه، فنوديت من زاوية البيت... رواه ابن العديم في «بغية الطلب في تاريخ حلب» (٢/ ٦٠٩).

(٢) قائله إبراهيم ابن الجنيد الختلي في كتابه «المحبة لله سبحانه» (٥) باختلاف يسير في ألفاظه، ونقله (٢٤٧) عن بعضهم.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٣٧٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨٥٩).

(٤) أخرجه إبراهيم بن الجنيد في «المحبة لله» (٣٢) عن الربيع بن أنس عن بعض أصحابه. وتحرف ابن أنس في المطبوعات إلى: عن أنس!

(٥) أخرجه إبراهيم بن الجنيد في «المحبة لله» (٨).

فإنْ نطَقْتُ فلم ألفِظْ بغيرِكُمُ ... وإنْ سكَتُّ فأنتُمْ عقد إضْمارِي[(١)]

ومن علاماتِ المحبِّين لله، وهو مما يحصل به المحبة أيضاً: حُبُّ الخلوة بمناجاةِ الله تعالى وخُصوصًا في ظُلْمة الليلِ.

اللَّيلُ لي ولأحبابي أُسامِرُهُم ... وأَنْتَجِيهم كَيْ يَسْمَحُوا بوِصَالي[(٢)]

قال الفُضيلُ: يقول اللهُ عزَّ وجَلَّ: كَذَبَ مَنْ ادَّعى محبَّتي، فإذا جَنَّ[(٣)] الليلُ[(٤)] نامَ عنِّي، أليسَ كلُّ حبيبٍ يحِبُّ خلوةَ حبيبِهِ؟ ها أنا ذا مُطَّلعٌ على أحبابي، إذا جَنَّهُمُ الليلُ جعلتُ أبصارَهُم في قلوبهم، ومَثُلَت نفسي بينَ أعينهم، فخَاطبوني على المُشَاهَدَةِ، وكلَّموني على حُضوري، غداً أُقِرُّ عينَ أحبابي في جنَّاتي[(٥)].

تنامُ عيناكَ وتَشْكو الهوى ... لو كنتَ صَبًّا لم تكن نائِماً[(٦)]

قلوبُ المحبِّينَ جمرةٌ تحتَ فَحْمَةِ اللَّيل، كلما هَبَّ عليها نَسيمُ السَّحَرِ التهبَتْ.

وأُنشد[(٧)]:

---

(١) نسب نحوه إلى أبي بكر العنبري الصوفي البغدادي في «يتيمة الدهر» للثعالبي (٥/ ٧٧).

(٢) الشطر الثاني في (ش): «قد اصطفيتهم كي يسمعوا ويعوا» وقد سبق ذكره بلفظ (ش) ضمن أبيات آخر الفصل الثاني من هذه الرسالة، وفي (ت) و(ف): «وانتجبتهم»، وهو مصحف عن المثبت.

(٣) في (ش): «جنَّه».

(٤) هنا سقطت الورقة الأخيرة من النسخة (ش) وألحق مكانها ورقة متأخرة كتب فيها بخط أحدث بقية الكتاب.

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٩٩) ولعله من الكتب السابقة. وذكره ابن الجوزي في عدد من كتبه.

(٦) ذكرهما ابن الجوزي في «المدهش» (ص ٤٧٠).

(٧) و«أنشد» زيادة من (ش).

يُذَكِّرُنـي مَـرُّ النَّسيمِ عهودَكُـمْ فأزدادُ شَـوقاً كلَّما هَبَّتِ الرِّيحُ

أُرانـي إذا مـا أَظْلَـمَ اللّيـلُ أشـرقَـتْ بقَـلْبيَ مِـنْ نَـارِ الغَـرامِ مَصَابِيْحُ[١]

كلَّما جَنَّ الغَاسِقُ حَنَّ العَاشِقُ:

فلـو أنّكَ أبصـرتَ أهلَ الهـوى إذا غـابَـتِ الأنْـجُـمُ الطُّلَّعُ

فهـذا ينـوحُ علـى ذَنْبِـهِ وهَـذا يُصَلِّـي وذا يَركَـعُ[٢]

مَنْ لَمْ يَكُنْ له مِثْلُ تقواهُم لَمْ يَدْرِ ما الذي أبكاهُم، ومَنْ لم يُشاهِدْ جمالَ يُوسف[٣] لَمْ يَدْرِ ما الذي آلَمَ يعقوب.

سُئِلَ السَّرِيُّ السَّقَطيُّ عَنْ حالِه فأنشَدَ:

مَنْ لَمْ يَبِتْ والحبُّ حَشْوُ فؤادِه لـم يَـدْرِ كيفَ تفتُّتُ الأكبادِ[٤]

أينَ رجالُ الليل؟ أينَ ابنُ أدهمَ والفضيل؟ ذهبَ الأبطالُ وبقيَ كلُّ بطَّال! يا مَنْ رَضِي من الزُّهدِ بالزي، ومن الفَقْرِ بالاسم، ومن التَّصوُّفِ بالصُّوف، ومِنَ التَّسبيحِ بالسُّبَح، أينَ فَضْلُ فُضَيلٍ؟ أينَ جِدُّ الجُنيد؟ أينَ سِرُّ السَّرِيِّ؟ أين بِشْرُ بِشْر؟ أين هِمَّة ابنِ أدهمَ؟ ويحكَ إنْ لم تقدرْ على مَعرفةِ معروفٍ فاندب على رَبْعِ رابِعَة:

هاتيـكَ رُبُوعُهـم وفيهـا كانوا بانُـوا عنهـا فليتَهُـم مـا بانـوا

ناديـتُ وفـي حَشاشَـتي نيرانُ يـا دارُ متى تحـوَّلَ السُّكانُ[٥]

---

(١) ذكره ابن الجوزي في «المدهش» (ص ٥٠٢).

(٢) ذكرهما المصنف أيضاً في «لطائف المعارف» (ص ٩٦).

(٣) في حاشية (ف): «لعله: المحبوب».

(٤) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٨٨)، وأبو نُعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ١١٩).

(٥) ذكرهما ابن الجوزي في «المدهش» (ص ٢١٠).

يا مَنْ كانَ لهُ قَلْبٌ فانقلب! يا مَنْ كان له وقتٌ مع اللهِ فذهبْ! قيامُ الأسحارِ يستوحِشُ لك. صيامُ النهارِ يسألُ عنك. ليالي الوِصَالِ تُعاتِبُكَ على انقطاعك[1].

تَشَاغلْتُمُ عنَّا بصُحْبَةِ غيرنا ... وأظهرتُمُ الهجران ما هكذا كُنَّا

وأقْسَمْتمُ أن لا تَحُولوا عن الهَوى ... فقَدْ وحياةِ الحُبِّ حُلتُم وما حُلْنا

ليالِيَ كُنَّا نجتَني مِنْ ثمارِكُم ... فقلبي إلى تلكَ الليالي قَدْ حَنَّا[2]

إخواني! مجالسُ الذِّكْرِ شرابُ المحبِّين وتِرياقُ المذنِبين. ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾.

مجالسُ الذِّكرِ مآتمُ الأحزانِ، فهذا يبكي لذنوبِهِ، وهذا يندب لعيُوبِهِ، وهذا يتأسَّفُ على فواتِ مطلوبه، وهذا يتلهَّفُ لإعراضِ محبوبه، وهذا يبوح بوَجْدِه، وهذا ينوحُ على فَقْده.

ما أذكرُ عَيْشَنا الذي قَدْ سَلَفا

إلا وَجَفَ القلبُ وكم قَدْ وَجَفا

وَاهاً لزماننا الذي كان صَفَا

وا أسفاً لفقده[3] وا أسفا[4]

---

(١) في (ش): «وأنشد».

(٢) أنشده أبو بكر الشبلي وقد سأله رجل ما تقول في رجل كان له حظ من قيام الليل، ثم عاوده فهو يجهد أن يناله فلا يقدر؟ رواه أبو طاهر السِّلفي في «الطيوريات» (١٠٧٨). وقوله: «قد حنَّا» كذا في جميع النسخ الخطية التي وقفنا عليها، وكذا هي في المصادر، وصوابه: «لقد حنَّا» ليستقيم الوزن به.

(٣) في (ت) و(ف): «وا أسفاً وهل يرد فائتا».

(٤) البيتان من بحر الدوبيت، وقد ذكرهما المصنف أيضاً في «لطائف المعارف» (ص ٤٩، ٤٢٤)، والشطر الثاني ثمة:

هل يرجع بعد فوته وا أسفا ... وا أسفا لرده وا أسفا

غيره:

يـــا ليتَنَـــا بزمـــزمٍ والـحِـجْـــرِ
يـــا جيرتنـــا[١] قُبَيْـــلَ يـــومِ النَّفْــرِ
هَلْ يرجعُ[٢] صَفْوُ ما مضى من عُمري
أدريْ مـا كـــانَ ليـتـنـي لا أدريْ[٣]

كأنِّـي أرى الخِلَـعَ قـد خُلِعَتْ على المقبُوليـن، كأنـي أرى الملائكـةَ تُصَافِحُ التَّائبيـن، فتعالـوا نبكـي علـى المَطْرودين.

مـا زلـتَ دَهْـراً للرضـى[٤] متعَرِّضا ... ولطـالـمـا قَـدْ كنـتَ عنَّـا مُعْرِضـا
جانبتَنـا دَهْـراً فلمـــا لـــم تـجـــدْ ... عِوَضاً سِوانا صِرتَ تبكي مـا مَضى
لـو كنـتَ لازمـتَ الوقـوفَ بِبَابِنَـا ... لَلَبِسْـتَ مِـنْ إحسـانِنَا خِلَـعَ الرِّضـا
ولقـدْ[٥] تركـتَ حُقُوقَنـا وهَجَرْتنـا ... فلـذاكَ ضـاقَ عليـك مُتَّسِـعُ الفَضَـا

تَمَّ بحمدِ اللهِ وعَوْنِهِ[٦]. اللهمَّ اجعلْ صلواتِـك ورحمتَك وبركاتِك على سيِّد المرسلينَ، وإمامِ المتقين، وخاتمِ النبيين محمدٍ عبدِك ورسولِك، إمامِ الخيرِ، وقائدِ الخيرِ، ورسولِ الرَّحمة. اللهم ابعثْهُ مَقاماً محموداً يغبِطُهُ فيه الأَوَّلُون والآخِرُون.

* * *

(١) في (ت) و(ف): «نرى جيرتنا».

(٢) في (ش): «يعود».

(٣) البيتان من بحر الدوبيت، وقد ذكرهما المصنف أيضاً في «لطائف المعارف» (ص ٤٢٤).

(٤) في (ت) و(ش): «للقلى». وفي نسخة: «للقا».

(٥) في (ش): «لكن».

(٦) في (ش): «تم بحمد الله تعالى». وهنا تنتهي النسخة، وما بعده ليس فيها.

* ومِنْ فوائِدِه رحمةُ اللهِ عليه في قولِه تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥] يدلُّ على أنَّ فعلَ الخيراتِ يُسمَّى إيماناً، وأنَّ تركَ بعضِ الطَّاعاتِ يُسمَّى كفراً، فإنَّ المرادَ مِنَ الآيةِ أنَّ أهلَ الكِتابِ كانوا يَقتُلُون بعضَهم بعضاً، ويُخرِجُونَهم من ديارهم نُصرةً لحلفائهم من الأَوسِ والخزرج، وقَدْ حُرِّمَ ذلكَ عليهم في كِتابهم، وقَدْ أقرُّوا بذلكَ وشَهِدوا به، ثم يَفْدُونَهم امتثالاً لِما أُمِروا به في التَّوراةِ، فسَمَّى فعلَهم للفِداءِ إيماناً بالكتابِ، وقَتْلَهم وإخراجَهم مِنَ الدِّيار كُفراً بالكِتابِ، وهذا يُشبِهُ قولَه ﷺ: «سِبابُ المسلمِ فُسوقٌ وقِتالُه كُفْر»[١].

وهذا لم أرَ أحداً من المُفَسِّرينَ تعرَّضَ له. وكذلكَ يُؤخَذُ ذلكَ من قولِه تعالى ردًّا عليهم دعوى الإيمانِ بما أُنزلَ عليهم أَنَّهم قالوا ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ وقال: ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣] فدلَّ على أنَّ عصيانَهم لمَّا أُمِروا بالإيمانِ به يُنافي الإيمانَ.

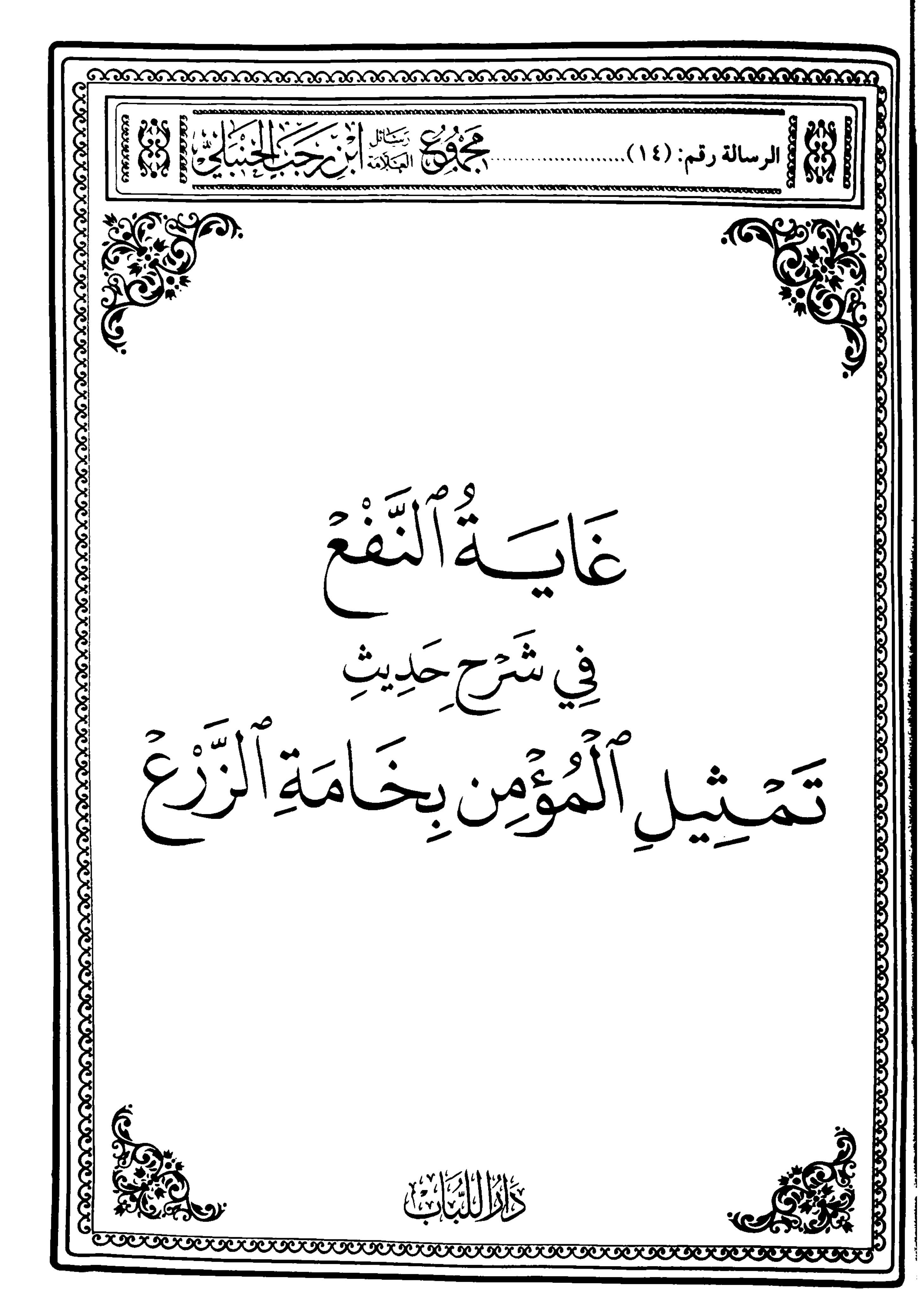
تمَّ والحمدُ لله وحدَه[٢]، وكان الفراغ منه يوم الثلاثاء في سابع عشر المحرم سنة اثنين وخمسين وثمان مائة، والحمد لله رب العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمدٍ وآلِهِ وصحبِه، وسلم تسليماً إلى يوم الدين، ورضي الله عن أصحاب رسول الله أجمعين.

* * *

(١) أخرجه البخاري (٤٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) هنا تنتهي النسخة (ف)، وبعد هذا: «وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه، وحسبنا الله ونعم الوكيل».

والخاتمة المثبتة من (ت).



غاية النفع

في شرح حديث

تمثيل المؤمن بخامة الزرع

دار اللباب

مكتبة المسجد الأقصى (ق)

هذا
كتاب غاية النفع في شرح حديث تمثيل المؤمن بخامة الزرع
للشيخ زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن رجب الحنبلي عفا الله عنه

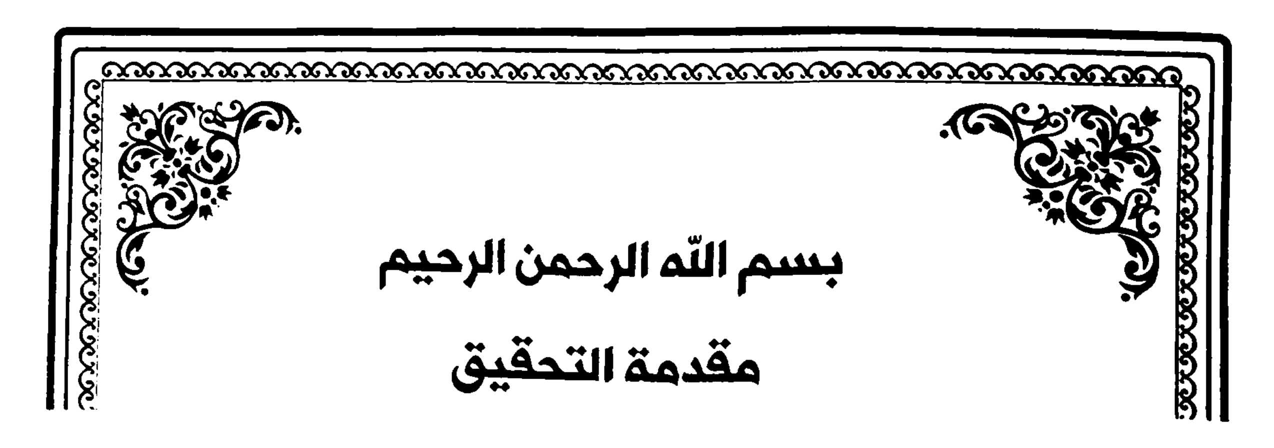
بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله
وصحبه أجمعين خرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة عن النبي
صلى الله عليه وسلم قال مثل المؤمن كمثل خامة الزرع من حيث أتتها الريح كفأتها فإذا اعتدلت
تكفأ بالبلاء والفاجر كالأرزة صماء معتدلة حتى يقصمها الله إذا شاء وهذا لفظ
البخاري وخرجا أيضاً من حديث كعب بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال مثل
المؤمن كالخامة من الزرع تفيئها الريح مرة وتعدلها مرة ومثل المنافق كالأرزة
لا تزال حتى يكون انجعافها مرة واحدة وخرج البزار من حديث أنس عن النبي
صلى الله عليه وسلم ففي هذه الأحاديث أن النبي صلى الله عليه وسلم ضرب مثل المؤمن في إصابة
البلاء لجسده بخامة الزرع التي تفيئها الريح يمنة ويسرة والخامة الرطبة من

جامعة في القدس - نسخة الشيخ عبد القادر بدران (ب)

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر يا كريم
الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين
. خرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة عن النبي
صلى الله عليه وسلم قال مثل المؤمن كمثل خامة الزرع من حيث
أتتها الريح كفأتها فإذا اعتدلت تكفأ بالبلاء والفاجر
كالأرزة صماء معتدلة حتى يقصمها الله إذا شاء وهذا
لفظ البخاري . وخرجا أيضا من حديث كعب بن مالك
عن النبي صلى الله عليه وسلم قال مثل المؤمن كالخامة من الزرع
تفيئها الريح مرة وتعدلها مرة ومثل المنافق كالأرزة
لا تزال حتى يكون انجعافها مرة واحدة . وخرجه
الإمام أحمد بمعناه من حديث جابر بن عبد الله عن النبي
صلى الله عليه وسلم . وخرجه البزار من حديث أنس
عن النبي صلى الله عليه وسلم . ففي هذه الأحاديث أن
النبي صلى الله عليه وسلم ضرب مثل المؤمن في إصابة البلاء
لجسده بخامة الزرع التي تفيئها الرياح يمنة ويسرة
. والخامة الرطبة من النبات ومثل المنافق والفاجر
بالأرزة . وهي الشجرة العظيمة التي لا تحركها الرياح
ولا تزعزعها حتى يرسل الله عليها ريحا عاصفا فتقتلعها
من الأرض دفعة واحدة . وقد قيل إنها شجرة الصنوبر

مكتبة الفاتح في اسطنبول (ف)

مكتبة جامعة الرياض ثم جامعة الملك سعود (ع)



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله سابغ النِّعم، دافعِ النِّقم، وليِّ مَنْ ظُلِم، حسيب مَنْ ظَلَم، وصلى الله على سيدنا محمد سيد العَرب والعجم، وعلى آله وصحبه هداة الأمم، وعلى من اقتفى أثرهم فَعَلِمَ وَعَلَّم.

أما بعد:

ففي هذه الرسالة النافعة جواب عما يتساءَلُه كثير من شباب المسلمين اليوم، حول ما يمر به أهل الإسلام عامة من ابتلاءات، وشدائد، ومصائب، ومحن، وأهوال، وخوف، وجوع، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات.

وأما أهل الكفر فهم في رغد عيش، وبذخ، وترف، ورفاهية، وتَنَعُّم وتَبسُّط في الأموال والشهوات!!

أورد المصنف رحمه الله تعالى فيها من الأحاديث الشريفة ما يجيب عن تلك التساؤلات المُلِحَّة، وأنَّ من فضيلة المؤمن: ابتلاؤه في الدنيا في جسده بأنواع البلاء والمصائب، فيكون ذلك كفارة لذنوبه في الدنيا.

وأما الفاجر والمنافق فلا يصيبه البلاء حتى يموت بحاله؛ فيلقى الله تعالى بذنوبه كلها فيستحق العقوبة عليها.

وما الأمة إلا مجموع أفرادها يصيبها ما أصابهم وتبتلى بابتلاءاتهم.

قال الفيومي في «فتح القريب المجيب»: «وقد يجهل بعض الناس؛ فيظن أن شدة البلاء وكثرته إنما ينزل بالعبد لهوانه على الله تعالى، وهذا لا يقوله إلا من أعمى الله قلبه، بل العبد يبتلى على حسب دينه كما في الحديث. قال سفيان الثوري: ليس بفقيه من لم يَعُدَّ البلاء نعمة والرخاء مصيبة»(١).

وإنما هذا بعد وقوع البلاء بقدر الله، وإلا فلا ينبغي سؤال البلاء، ولا تمني المكروهات.

قال الهادي ﷺ: «لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية»(٢).

اللهم إنا نسألك العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة.

* * *

ذكر هذا الكتاب للمصنف رحمه الله: ابنُ عبد الهادي في «الجوهر المنضَّد» (ص: ٥٠)، والروداني في «صلة الخَلَف» (ص: ٢٧٦).

وقد اعتمدت في إخراجه على أربع نسخ خطية:

١ـ نسخة المسجد الأقصى ـ فرّج الله عنه وعن أهله ـ، ورمزها (ق)، وهي الرسالة السادسة في ضمن مجموع برقم (١٤٦)، وقد تقدم التعريف به في المقدمات، وتقع في (٥) لوحات (٥٦/ أ ـ ٦٠/ ب). لم يُذكر اسم ناسخها، ولا تاريخ نسخها، لكنه من خطوط القرن التاسع الهجري.

---

(١) نقله الشيخ عبد القادر بدران على ظهر نسخته من هذا الكتاب، ونسبه إلى الدَّميري في «حياة الحيوان»! وإنما هو في «فتح القريب المجيب» للفيومي (١٣/ ٣٦٥).
والحديث المشار إليه، هو الذي رواه الترمذي (٢٣٩٨) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. وقول سفيان أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (ص: ٢٥ من زيادات نعيم).

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٣٧) من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه.

٢ـ نسخة الشيخ عبد القادر بدران، ورمزها (ب).

وهي في جامعة بالقدس برقم (٧٤١)، وتقع في (٧) أوراق، وقبلها ورقة كتب فيها الشيخ عبد القادر بدران الدومي الحنبلي، المتوفى سنة ١٣٤٦ رحمه الله عنوان الرسالة وبعض الفوائد، وفي ظهرها كتب ترجمة للمصنف من «المقصد الأرشد» لابن مفلح، وزاد فائدة:

«قال محمد الكناني بخطه على حاشية المذكور: قلت: وقد زرته، ومكتوب عليه: هذا قبر الحافظ ابن رجب، وهو لصيق الشيرازي الحنبلي، والله أعلم».

ثم ذكر بعض كتبه ونقل عن ابن قاضي شهبة.

وكتب في الورقة الأولى: «دخل هذا الكتاب بملك الفقير عبد القادر بن أحمد بدران الدوماني بلداً، الدمشقي إقليماً، الحنبلي مذهباً في ٢٠ محرم الحرام سنة ١٢٩٥ خمس وتسعين ومئتين وألف من هجرة محمد ﷺ».

وله بعض التعليقات أثبتها في الحواشي.

لم يذكر اسم ناسخ الرسالة، ولا تاريخ نسخها، لكنه من خطوط القرن التاسع الهجري.

٣ـ نسخة مكتبة الفاتح في اصطنبول، ورمزها (ف).

وهي الرسالة السابعة عشرة في ضمن المجموع (٥١٣٨)، وتقدم التعريف به في المقدمات، وتقع في (٩) لوحات (٢٢١/ ب ـ ٢٢٩/ أ) بخط عيسى بن علي بن محمد الحوراني الشافعي وفرغ من كتابة المجموع بتمامه ٥ ربيع الأول ٨٩٣.

٤ـ نسخة جامعة الرياض، ثم جامعة الملك سعود، ورمزها (ع).

وهي الرسالة الثالثة عشرة من المجموع (١٦٣٧) وقد سبق التعريف به في المقدمات، وتقع في (٣) ورقات من (ص:٢٨١ إلى ص: ٢٨٦) بخط عبد الله بن إبراهيم الربيعي، فرغ من كتابتها ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٣٤.

وثمة نسخة خامسة إلا أنا لم نقابل بها لتأخرها:

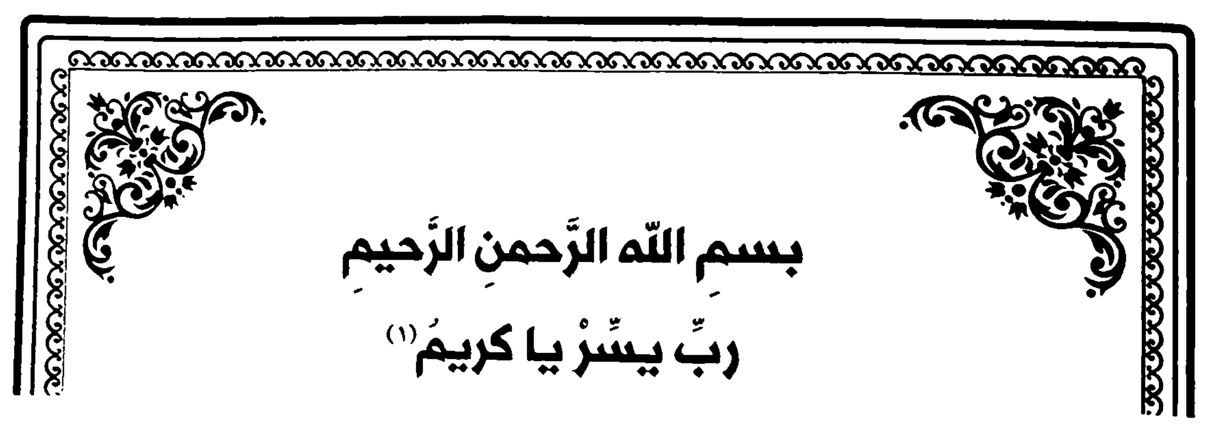
وهي من وقف الشيخ محمد عبد اللطيف، وكانت في مكتبة الرياض العامة السعودية (٨٦/ ٥٢٧) وهي في ضمن مجموع فيه رسائل للحافظ ابن رجب، وقد سبق في المقدمات التعريف به، وهي الرسالة الثامنة منه.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه

محمد مجير الخطيب الحسني

* * *



بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

ربِّ يسِّرْ يا كريمُ[1]

الحمـدُ للهِ ربِّ العالميـن، وصلَّـى اللهُ علـى سيِّدنا محمَّـدٍ وآلِـه وصحبِـه أجمعيـن.

خـرَّجَ البخـاريُّ ومسـلمٌ مِـنْ حديثِ أبـي هريرةَ رضـي الله عنه عـنِ النَّبيِّ ﷺ قـالَ: «مَثَـلُ المؤمـنِ كمثـلِ خَامَةِ[2] الـزَّرعِ مِـنْ حيثُ أتتْهـا الرِّيـحُ كَفَأَتْهـا[3]، فإذا اعتدلَـتْ تَكَفَّأُ بالبـلاءِ، والفاجرُ كالأَرْزَةِ صمَّـاءَ معتدِلةً حتَّى يَقصِمَها اللهُ إذا شـاءَ». وهذا لفظُ البخـاريِّ[4].

وخرَّجا أيضاً مِنْ حديثِ كعبِ بنِ مالكٍ عنِ النَّبيِّ ﷺ قال: «مثَلُ المؤمنِ كالخامَةِ مِنَ الزَّرعِ، تُفيِّئُها[5] ....

---

(١) جاء في (ع) بدل الدعاء: «وبه نستعين».

(٢) في «صحيح البخاري»: «الخامة من الزرع».

(٣) كفأتها: أمالتها. «فتح الباري» لابن حجر (١٣/ ١٣)، وفي رواية أبي ذر من «صحيح البخاري»: «كَفَتْها» بتسهيل الهمزة.

(٤) أخرجه البخاري بهذا اللفظ في المرضى (٥٦٤٤)، ولفظه في التوحيد (٧٤٦٦) يُبَيِّنُ معناه: «فإذا سكنتْ اعتدلت، وكذلك المؤمن يُكَفَّأ بالبلاء». وأخرجه من وجه آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه: مسلم في صفات المنافقين (٢٨٠٩).

(٥) أي: تميلها؛ وزنه ومعناه. «فتح الباري» لابن حجر (١٣/ ١٠) من (فيّاً): (ميّل). ويحتمل أن تكون مخففة تُفِيئُها من (أفاء) (أمال)، وضبطناها بالتشديد تبعاً للأكثرين، والله أعلم.

الرِّيحُ مرَّةً وتَعْدِلُها مرَّةً، ومثَلُ المنافقِ كالأَرْزَةِ لا تزالُ[١] حتَّى يكونَ انجِعافُها[٢] مرَّةً واحدةً»[٣].

وخرَّجَه الإمامُ أحمدُ بمعناهُ مِنْ حديثِ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ عنِ النَّبيِّ ﷺ[٤].

وخرَّجَه البزَّارُ مِنْ حديثِ أنسٍ عنِ النَّبيِّ ﷺ[٥].

ففي هذه الأحاديثِ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ ضربَ مثَلَ المؤمنِ في إصابةِ البلاءِ لجسدِه بخامةِ الزَّرعِ الَّتي تُفَيِّئُها الرِّيحُ[٦] يَمنةً ويَسرةً ـ والخامةُ: الرَّطْبَةُ مِنَ النَّباتِ ـ ومثَلَ المنافقِ والفاجرِ بالأَرْزَةِ، وهي الشَّجرةُ العظيمةُ الَّتي لا تحرِّكُها الرِّياحُ ولا تُزعزِعُها؛ حتَّى يرسلَ اللهُ تعالى عليها ريحاً عاصفاً فيقتلعَها[٧] منَ الأرضِ دَفْعةً واحدةً.

وقد قيلَ: إنَّها شجرةُ الصَّنَوْبَرِ، قالَه أبو عُبيدٍ[٨] وغيرُه[٩].

وقيلَ: إنَّها شجرةٌ تُشْبِه شجرَ الصَّنَوْبَرِ[١٠].

---

(١) في (ف): «لا يزال».

(٢) أي: انقلاعها. «فتح الباري» لابن حجر (١٣/ ١١).

(٣) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٤٣) واللفظ له، ومسلم في صفات المنافقين (٢٨١٠) من طرق.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» ٢٣ (١٤٧٦١، ١٥١٥٤، ١٥٢٤٥) بلفظ: «مثل المؤمن كمثل السنبلة تخر مرةً وتستقيم مرةً، ومثل الكافر مثل الأرز لا يزال مستقيماً حتى يخر ولا يشعر».

(٥) أخرجه البزار ١٣ (٦٨٩٣ ـ ٧٢١٧ ـ ٧٢١٨) ولفظ الموضع الأول: «مثل المؤمن كمثل السنبلة تميل أحياناً وتقوم أحياناً».

(٦) في (ق) و(ف): «الرياح».

(٧) في (ع): «فتقلعها».

(٨) أحمد بن محمد الهروي في كتاب: «الغريبين» له (١/ ٦٥).

(٩) كابن سيده في «المحكم والمحيط الأعظم» (٩/ ٧٨).

(١٠) انظر: «شرح مسلم» للنووي (١٧/ ١٥٣). وهذا القيل ذكره النووي عن أهل اللغة والغريب في «شرح مسلم» (١٧/ ١٥٣). والصنوبر والأرز من فصيلة واحدة فيها أجناس متباينة.

ففـي هـذا فضيلةٌ عظيمةٌ للمؤمنِ بابتلائِه في الدُّنيا في جسدِه بأنواعِ البلاءِ، تمييزٌ له على الفاجرِ والمنافقِ بأنَّه لا يُصيبُه البلاءُ حتَّى يموتَ بحالِه، فيلقى اللهَ تعالى بذنوبِه كلِّها، فيستحقَّ العقوبةَ عليها.

والنُّصوصُ في تكفيرِ ذنوبِ المؤمنِ بالبلاءِ والمصائبِ كثيرةٌ جدًّا.

ففي «الصَّحيحين» عن عائشةَ رضي الله عنها عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «ما مِن مُصيبةٍ تُصيبُ المسلمَ إلَّا كفَّر اللهُ بها عنه، حتَّى الشَّوكةِ يُشاكُها»[1].

وفيهما أيضاً عن عطاءِ بنِ يسارٍ عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ وأبي هريرةَ عن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «ما يُصيبُ المؤمنَ مِنْ نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا همٍّ ولا حُزْنٍ ولا أذىً ولا غمٍّ حتَّى الشَّوكةِ يُشاكُها إلَّا كفَّر اللهُ بها مِنْ خطاياهُ»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٤٠) واللفظ له، ومسلم (٢٥٧٢) من طرق كثيرة بألفاظ متعددة.

(٢) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٤١، ٥٦٤٢) ولفظه: «ما يصيب المسلم» وباقيه سواء، ومسلم في البر والصلة بألفاظ أخرى (٢٥٧٣)، وعنده: «المؤمن». في حاشية (ب) بخط الشيخ عبد القادر بدران الحنبلي رحمه الله: قوله: «وَصَبٌ» أي مرض، والوصب دوام الوجع ولزومه، وقد يُطلق على التعب والفتور.

و«النَّصَب»: بفتح النون والصاد المهملة: التعب.

و«الهم» توقُّع المكروه وقد ينشأ عن الفكر فيما يتوقع حصوله مما يتأذى به.

و«الحزن»: وهو على فوات محبوب وقد ينشأ لفقد ما يشق على المرء فقده.

و«الغمّ»: الوقوع في المكروه، وهو كرب يحصل بسبب ما حصل.

وقيل: الهم والغم بمعنى واحد. وقال الكرماني: الغم يشمل جميع أنواع المكروهات لأنهما بسبب ما يعرض للبدن أو النفس، والأول إما بحيث يخرج عن المجرى الطبيعي أولا، والثاني إما أن يلاحظ فيه الغير وإما أن يظهر فيه الانقباض أو لا وإما بالنظر إلى الماضي أو لا.

و«الأذى» أعم مما قبله، وعطف الأعم على الأخص لا يُسأل عنه.

و«يُشاكها»: أي يشوكه غيره بها.

وفيهما أيضاً عن ابنِ مسعودٍ عن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «ما مِنْ مسلمٍ يُصيبُه أذىً - مِنْ مرضٍ فما سِواه - إلَّا حاتَّ اللهُ عنه خطاياه كما تَحاتُّ ورقُ الشَّجر»[١].

وفي روايةٍ: «يُصيبُه أذىً: شوكةٌ[٢] فما فوقَها إلَّا كفَّرَ اللهُ بها سيِّئاتِه كما تحُطُّ الشَّجرةُ ورقَها»[٣].

وخرَّجَ الإمامُ أحمدُ والنَّسائيُّ والتِّرمذيُّ مِنْ حديثِ سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «ما يزالُ البلاءُ بالعبدِ حتَّى يتركَه[٤] يمشي على الأرضِ ما به خطيئةٌ»[٥].

وخرَّجَ الإمامُ أحمدُ والتِّرمذيُّ وابنُ حبَّانَ مِنْ حديثِ أبي هريرةَ عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «ما يزالُ البلاءُ[٦] بالمؤمنِ والمؤمنةِ في جسدِه ومالِه وولدِه حتَّى يلقى اللهَ وما عليه خطيئةٌ»[٧].

وفي «صحيحِ ابنِ حبَّانَ» عن أبي هريرةَ عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «إنَّ الرَّجلَ لَتكونُ

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٤٧) واللفظ له إلا الجملة المعترضة فهي مدرجة من رواية مسلم في البر والصلة (٢٥٧١)، وفي (ب) و(ق): «ورق الشجرة».

(٢) في حاشية (ب) بخط الشيخ عبد القادر بدران: «جوَّزوا فيها الحركات الثلاث».

(٣) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٤٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) في (ع): «لا تزال البلايا بالعبد حتى تتركه»، وفي (ف): «بالعبد البلاء».

(٥) مدار الحديث على عاصم بن بهدلة، عن مصعب بن سعد، عن أبيه. ووقع هنا تلفيق بين ألفاظ وجوهه. أخرجه في سياق حديث: الإمام أحمد ٣ (١٦٠٧)، والترمذي في الزهد (٢٣٩٨) وقال: حسن صحيح، والنسائي في الطب (٧٤٣٩)، ولفظهم: «فما يبرح البلاء بالعبد». وأخرجه الإمام أحمد من وجوه أخر ٣ (١٤٨١، ١٤٩٤، ١٥٥٥).

(٦) في (ع): «ما تزال البلايا».

(٧) أخرجه الإمام أحمد ١٣ (٧٨٥٩)، والترمذي في الزهد (٢٣٩٩) وقال: حسن صحيح، وابن حبان ٧ (٢٩٣١، ٢٩٢٤)، واللفظ للموضع الأخير منه.

له عند اللهِ المنزلةُ فما يبلُغُها بعملٍ، فلا يزالُ اللهُ يبتليه بما يكرَه حتَّى يُبلِّغَه إيَّاها»[١].

وفي «المسندِ» عن جابرٍ عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «لا يمرضُ مؤمنٌ ولا مؤمنةٌ ولا مسلمٌ ولا مسلمةٌ إلَّا حطَّ اللهُ عنه مِنْ خطاياهُ»[٢].

وخرَّجَه ابنُ حبَّانَ، وزادَ: «كما يحُطُّ الورقُ عنِ الشَّجرِ»[٣].

وفيه عن أبي الدَّرداءِ عن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «ما يزالُ الصُّداعُ والمليلةُ[٤] بالمؤمنِ وإنَّ ذنبَه مثلُ أُحُدٍ، فما يدعُه وعليه مِنْ ذلكَ مثقالُ حبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ»[٥].

وإنَّما يُعرَفُ قدرُ البلاءِ إذا كُشِفَ الغِطاءُ يومَ القيامةِ، كما في التِّرمذيِّ عن جابرٍ عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «يودُّ أهلُ العافيةِ يومَ القيامةِ حين يُعطى أهلُ البلاءِ الثَّوابَ لو أنَّ جلودَهم قُرِضَتْ بالمقاريضِ في الدُّنيا»[٦].

وفي «سُننِ أبي داودَ» عن عامرٍ الرَّامِ قال: جلستُ إلى النَّبيِّ ﷺ، فذكرَ الأسقامَ، فقال: «إنَّ المؤمنَ إذا أصابَه السَّقَمُ ثمَّ أعفاه اللهُ منه كانَ كفَّارةً لما مضى مِنْ ذنوبِه،

---

(١) أخرجه ابن حبان ٧ (٢٩٠٨).

(٢) أخرجه الإمام أحمد ٢٣ (١٤٧٢٥، ١٥١٤٦)، واللفظ هنا ملفق من الموضعين.

(٣) في (ع): «الشجرة». والحديث أخرجه ابن حبان ٧ (٢٩٢٧)، ولفظه: «كما تتحط الورقة عن الشجرة».

(٤) في «النهاية» لابن الأثير (ملل): «المليلة: حرارة الحمَّى، ووهجها، وقيل: هي الحمى التي تكون في العظام».

(٥) أخرجه الإمام أحمد ٣٦ (٢١٧٢٨، ٢١٧٣٧) وفيه ابن لهيعة.

(٦) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٤٠٢) وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه بهذا الإسناد إلا من هذا الوجه، وقد روى بعضهم هذا الحديث عن الأعمش عن طلحة بن مصرف عن مسروق قوله شيئاً من هذا». ومدار الحديث على الأعمش، وانفرد عبد الرحمن بن مغراء بروايته عنه هكذا. وقد تكلم علي بن المديني في حديثه عن الأعمش. انظر: «تقريب التهذيب» لابن حجر.

وموعظةً له فيما يَستقبلُ، وإنَّ المنافقَ إذا مرِضَ ثمَّ أُعْفِيَ كانَ كالبعيرِ عَقَلَه أهلُه ثمَّ أرسلوه، فلَمْ يدرِ لِمَ عقَلوه ولِمَ أرسلوه»، فقالَ رجلٌ ممَّنْ حولَه: يا رسولَ الله، وما الأسقامُ؟ واللهِ ما مرضتُ قطُّ، قال: «قُمْ عنَّا فلستَ منَّا»[1][2].

وهذا كما قالَ للَّذي سألَه عنِ الحُمَّى فلمْ يعرِفْها: «مَنْ سرَّه أنْ ينظُرَ إلى رجلٍ مِنْ أهلِ النَّارِ فلينظرْ إلى هذا»[3]، فجعلَ الفَرْقَ بينَ أهلِ الجنَّةِ وأهلِ النَّارِ إصابةَ البلاءِ والمصائبِ، كما جعلَ ذلك فرْقاً بين المؤمنين والمنافقين والفُجَّارِ في هذه الأحاديثِ المذكورةِ ها هنا.

---

(١) أخرجه أبو داود في الجنائز (٣٠٨٣) في ضمن حديث طويل، وفي سنده مبهم.

(٢) في حاشية (ب) بخط الشيخ عبد القادر بدران الحنبلي:

أخرج أحمد وصححه أبو عوانة والحاكم من طريق عبد الرحمن بن شيبة العبدري أن أم المؤمنين أخبرته أن رسول الله ﷺ طرقه وجع فجعل يتقلب على فراشه ويشتكي فقالت له عائشة رضي الله عنها: لو صنع هذا بعضنا لوجدت عليه، فقال ﷺ: «إن الصالحين يشدد عليهم، فإنه لا يصيب المؤمن نكبة تشوكه إلا كتب الله بها حسنة أو حط عنه بها خطيئة». [أخرجه أحمد (٢٥٢٦٤) (٢٥٨٠٤)، وأبو عوانة (١١٢٢٦) والحاكم (٣/ ٣١٩) وصححه].

ولمسلم: ما يصيب المؤمن من وصب، ولا نصب، ولا سقم، ولا حزن، حتى الهم يهمه إلا كفر الله به من سيئاته». ولفظ البخاري: «ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب». [أخرجه مسلم (٢٥٧٣)، والبخاري (٥٦٤١) وعنده: المسلم، من حديث أبي سعيد وأبي هريرة].

عن سعد بن أبي وقاص قال: قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل من الناس، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زِيد في بلائه، وإن كان في دينه رِقّة خفف عنه، لا يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض وليس عليه خطيئة». رواه الترمذي [(٢٣٩٨)] بنحوه، وقال: حديث حسن صحيح. [وأخرجه أحمد (١٤٨١)].

(٣) أخرجه الإمام أحمد ١٤ (٨٣٩٥، ٨٧٩٤) والبخاري في «الأدب المفرد» (٤٩٥) وغيرهما.

وفي «المسندِ» عن أبي هريرةَ عنِ النَّبيِّ ﷺ: أنَّه ذَكَرَ أهلَ النَّارِ فقالَ: «كلُّ شديدٍ جَعْظَرِيٍّ[١]، همُ الَّذين لا يألَمون رؤوسَهم»[٢].

وفي «المسندِ» عن أنسٍ: أنَّ امرأةً أتتِ النَّبيَّ ﷺ فقالت: يا رسولَ اللهِ! ابنةٌ لي كذا وكذا - ذكرَتْ حُسْنَها وجمالَها - آثرْتُكَ بها، قال: «قد قبلتُها»، فلَمْ تزَلْ تمدحُها حتَّى ذكرَتْ أنَّها لم تَصْدَعْ ولم تشتكِ شيئاً قطُّ، قال: «لا حاجةَ لي في ابنتكِ»[٣].

وخرَّجَه ابنُ أبي الدُّنيا مِنْ وجهٍ آخرَ مرسلاً، وفيه قالَ النَّبيُّ ﷺ: «لا حاجةَ لنا في ابنتكَ، تجيئُنا تحملُ خطاياها، لا خيرَ في مالٍ لا يُرْزأُ منه، وجسدٍ لا يُنالُ منه»[٤].

---

(١) في «النهاية» لابن الأثير (جعظر) «الجعظري: «الفظ الغليظ المتكبر»، وقيل: هو الذي يتنفخ بما ليس عنده، وفيه قِصَر».

(٢) أخرجه الإمام أحمد ١٤ (٨٨٢١، ١٠٥٩٨) وهذا لفظه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد ٢٠ (١٢٥٨٠).

(٤) لعله مما رواه ابن أبي الدنيا عن ابن سعد، وهو أحد من يروي طبقاته، والخبر في «الطبقات الكبرى» (٨/ ١٤٩) من حديث التابعي عبد الله بن عبيد بن عمير الليثي قال: جاء رجل من بني سليم إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إن لي ابنة من جمالها وعقلها ما إني لأحسد الناس عليها غيرك، فهمَّ النبي ﷺ أن يتزوجها، ثم قال: وأخرى يا رسول الله، لا والله ما أصابها عندي مرض قط، فقال له النبي ﷺ: «لا حاجة لنا في ابنتك، تجيئنا تحمل خطاياها، لا خير في مال لا يُرزأ منه، وجسد لا يُنال منه».
وأخرج ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (٢٥٧)، وفي «الصبر والثواب عليه» (١٨١) من حديث أبي سعيد الخدري قال: أتى رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، كبرت سني، وسقم جسدي، وذهب مالي، فقال رسول الله ﷺ: «لا خير في جسد لا يبتلى، ولا خير في مال لا يرزأ منه، إن الله إذا أحب عبدًا ابتلاه، وإذا ابتلاه صبره». قال الحافظ العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٥/ ٢٥٥): «بإسناد فيه لين».

وروى بإسنادِه عن قيسِ بنِ أبي حازمٍ قالَ: طلَّقَ خالدُ بنُ الوليدِ امرأتَه ثمَّ أحسنَ عليها الثَّناءَ، فقيلَ له: يا أبا سليمانَ، لِأيِّ شيءٍ طلَّقْتَها؟ قال: ما طلَّقْتُها لأمرٍ رابَني منها، ولكنْ لم يُصِبْها عندي بلاءٌ[1].

وبإسنادِه عن عمَّارِ بنِ ياسرٍ أنَّه ذُكِرَ الأوجاعُ، فقال أعرابيٌّ عنده: ما اشتكيتُ قطُّ، فقال عمَّارٌ: ما أنتَ مِنَّا، أو لستَ مِنَّا، إنَّ المسلمَ يُبتلى ببلاءٍ، فتُحَطُّ عنه ذنوبُه كما تحُطُّ الشَّجرةُ ورقَها، وإنَّ الكافرَ والفاجرَ يُبتلى ببلاءٍ، فمَثَلُه مثَلُ البعيرِ أُطلِقَ فلَمْ يدرِ لِمَ أُطلِقَ، وعُقِلَ فلَمْ يدرِ لمَ عُقِلَ[2].

وبإسنادِه عن كَعْبٍ قالَ: أجدُ في التَّوراةِ لو لا أنْ يحزَنَ عبدي المؤمنُ لعَصَبْتُ[3] الكافرَ بعِصابةٍ مِنْ حديدٍ لا يصدعُ أبداً[4].

وعن الحسنِ قال: كان الرَّجلُ منهم أو مِنَ المسلمين إذا مرَّ به عامٌ لم يُصَبْ في نفسِه ولا في مالِه قال: ما لنا؟ أتَوَدَّعَ اللهُ منَّا؟![5].

وقال الحسنُ: إنَّما أنتم بمنزلةِ الغَرَضِ يُرمى كلَّ يومٍ، ليسَ مِنْ مَرْضةٍ إلَّا قد أصابَتْكم منه رميةٌ، عقَلَ مَنْ عقَلَ، وجهِلَ مَنْ جهِلَ، حتَّى تجيءَ الرَّميةُ الَّتي لا تُخطئُ[6].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (٢٠٤).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (١٥).

(٣) في (ع): «لعصب».

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (١٠٢).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (١٥٨)، ومن طريقه البيهقي في «شعب الإيمان» ١٢ (٩٤٤٨).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (١٧٦).

وعن صالحِ بنِ مِسْمارٍ أنَّه دخلَ على مريضٍ يعودُه، فقال له: إنَّ ربَّكَ قد عاتبكَ فأَعْتِبْهُ[(١)].

وعن ابن عبَّاسٍ: أنَّه كان إذا رأى النَّاقِهَ[(٢)] قال له: وفَّيْتَ لربِّكَ[(٣)].

ورُوِيَ مرفوعاً مِنْ حديثِ خوَّاتِ بنِ جُبيرٍ، وإسنادُه ضعيفٌ[(٤)].

وقال الحسنُ في أيَّامِ الوَجَعِ: أما واللهِ ما هو بِشَرِّ أيَّامِ[(٥)] المسلمِ أيَّامٌ قُرِّبَ له فيها أجلُه، وذُكِّرَ فيها ما نسِيَ مِنْ معادِه، وكُفِّرَ بها عنه خطاياه[(٦)].

وكـانَ إذا دخلَ على مريضٍ قد عُوفيَ قال له: يا هذا، إنَّ الله تعالى قد ذكَرَكَ فاذكُرْه، وأقالَكَ فاشكُرْه[(٧)].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (٨٦).

(٢) قال ابن الأثير في «النهاية» (نقه): «نَقِه المريضُ يَنْقَه، فهو ناقِهٌ، إذا برئ وأفاق، وكان قريب العهد بالمرض، لم يرجع إليه كمال صحته وقوته».

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (١٧٥).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (١٧٤) بلفظ: «مرضت فأتيت رسول الله ﷺ فقال: «صح جسمك يا خوَّات»، قلت: وجسمك يا رسول الله فصح، قال: «أوفِ والله بما وعدته»، قلت: يا رسول الله! ما وعدت الله شيئًا، قال: «بلى، ما من مريض يمرض إلا وهو يحدث نفسه بخير، فَفِ لله بما وعدتَه». وفي سنده: محمد بن الحجاج المصفَّر البغدادي: متروك. انظر: «لسان الميزان» لابن حجر (٧/ ٥٣).

(٥) تصحفت هذه اللفظة في بعض المطبوعات إلى «يَسُرّ أيامَ» ولا يستقيم معناه.

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (٥٥، ١٥٧)، ومن طريقه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٥١٩)، وفي مطبوعته عدة تصحيفات.

(٧) هذا الأثر لم أقف عليه مسنداً، ولم أجده في المصادر؛ إلا في لحق كتبه أحد النساخ لكتاب «البداية والنهاية» لابن كثير، بعد ترجمة الحسن البصري، في وفيات (١١٠ هـ)، وليس هو من كتاب «البداية والنهاية».

فهذه الأسقامُ والبلايا والأوجاعُ كلُّها كفَّاراتٌ للذُّنوبِ الماضيةِ، ومواعظُ للمؤمنين حتَّى يتَّعظوا بها، ويرجعوا بها في المستقبلِ عنْ سيِّئِ[1] ما كانوا عليه.

قال الفضيلُ: إنَّما جُعِلَتِ العِلَلُ ليؤدَّبَ بها العبادُ، ليس كلُّ مَنْ مرِضَ ماتَ[2].

وإلى هذا المعنى الإشارةُ بقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٦].

ولبعضِ المتقدِّمين:

أفي كلِّ عامٍ مَرْضةٌ ثم نَقْهةٌ ... وتَنعي ولا تُنعى متى ذا إلى متى[3]

واعلم: أنَّ تمثيلَ المؤمنِ بالزَّرعِ وتمثيلَ المنافقِ والفاجرِ بالشَّجرِ العِظامِ يشتملُ على فوائدَ جليلةٍ، نذكرُ ما يسَّرَ اللهُ منها:

فمنها: أنَّ الزَّرعَ ضعيفٌ مُسْتَضْعَفٌ، والشَّجرَ قويٌّ مستكبرٌ متعاظِمٌ، فالشَّجرُ لا يتأذَّى مِنْ حَرٍّ ولا بَرْدٍ، ولا مِنْ كثرةِ ماءٍ ولا مِنْ ريحٍ، والزَّرعُ بخلافِ ذلك، وهذا هو الفرقُ بين المؤمن والكافر، وبين أهل الجنَّة والنَّار، كما في «الصَّحيحين» عن حارثةَ بنِ وَهْبٍ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «ألا أُخبرُكم بأهلِ الجنَّةِ؟ كلُّ ضعيفٍ متضعِّفٍ لو أقسمَ على اللهِ لأبرَّه، ألا أخبرُكم بأهلِ النَّارِ؟ كلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتكْبِرٍ»[4].

---

(١) في (ب) و(ف): «شيء ما».

(٢) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ١٠٨) في ترجمة الفضيل رحمه الله.

(٣) نسب البيت لأبي العيص الجرمي في «الأغاني» للأصفهاني (١٨/ ١٥٨)، ونسب لعمران بن حطان الخارجي في «تاريخ دمشق» (٥/ ١٤٦)، وغيره.

(٤) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩١٨)، وفي الأدب (٦٠٧١)، وفي الأيمان والنذور (٦٦٥٧)، ومسلم في كتاب الجنة (٢٨٥٣).

وفي «المسندِ» عن أبي هريرةَ عن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «ألا أنبِّئكم بأهلِ الجنَّةِ؟ قالوا: بلى، قالَ: «الضُّعفاءُ المغلوبون، ألا أنبِّئكم بأهلِ النَّارِ؟»، قالوا: بلى، قالَ: «كلُّ شديدٍ جَعْظَرِيٍّ، همُ الَّذين لا يَأْلَمون رؤوسَهم»[1].

وخرَّجَه أيضاً بمعناه مِن حديثِ سُراقةَ بنِ مالكٍ[2]، وعبدِ الله بنِ عَمرٍو[3] وغيرِهما.

وفي[4] «الصَّحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «تحاجَّتِ الجنَّةُ والنَّارُ، فقالت الجنَّةُ: ما لي لا يدخلُني إلَّا ضُعفاءُ النَّاسِ[5] وسَقَطُهم، وقالت النَّارُ: ما لي لا يدخلُني إلَّا الجبَّارون والمتكبِّرون» الحديث[6].

وقد وردَ في القرآنِ تشبيهُ المنافقين بالخُشُبِ المسَنَّدةِ مع حُسنِ منظرِهم، فقال تعالى ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ﴾ [المنافقون: ٤]، فوصفَهم بحُسنِ الأجسامِ وتمامِها، وحُسنِ المقالِ وفصاحتِه، حتَّى يُعجِبَ منظرُهم مَنْ رآهم، ويسمعَ قولَهم مَنْ سمِعَه سماعَ إصغاءٍ وإعجابٍ به، ومع هذا فبواطنُهم خرابٌ ومعانيهم فارغةٌ، فلهذا مثَّلَهم بالخُشُبِ المسنَّدةِ الَّتي لا رُوحَ فيها[7] ولا إحساسَ، وقلوبُهم مع هذا ضعيفةٌ في غاية الضَّعفِ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد، وقد تقدم طرف منه آنفاً.

(٢) أخرجه الإمام أحمد ٢٩ (١٧٥٨٥).

(٣) أخرجه الإمام أحمد ١١ (٦٥٨٠، ٧٠١٠).

(٤) في (ع): «وخرجاه» بدل قوله «وغيرهما. وفي».

(٥) في (ف): «الضعفاء من».

(٦) أخرجه بنحوه البخاري (٤٨٥٠) ومسلم في كتاب الجنة (٢٨٤٦).

(٧) في (ع): «لها».

يحسبون كلَّ صيحةٍ عليهم؛ لأنَّهم لمـَّا أضمروا خلافَ ما أظهروا خافوا الاطِّلاع عليهم، فكلَّما سمعوا صيحةً ظنُّوا أنَّها عليهم، وهكذا كلُّ مريبٍ يُظهِرُ خلافَ ما يُضمِرُ يخافُ مِنْ أدنى شيءٍ ويحسبُه عليه.

وأمَّا المؤمنُ، فبعكسِ هذه الصِّفاتِ، غالبُهم مُسْتضعَفون في ظاهرِ أجسامِهم ولباسِهم وكلامِهم؛ لأنَّهم اشتغلوا بعمارةِ قلوبِهم وأرواحِهم عن عمارةِ أجسادِهم، فقلوبُهم قويَّةٌ ثابتةٌ عامرةٌ، فيكابدون بها الأعمالَ الشَّاقَّةَ في طاعة الله مِنَ الجهادِ والعباداتِ والعلومِ وغيرِها ممَّا لا يستطيعُ المنافقُ مكابدتَه لضعفِ قلبِه، ولا يخافون مِنْ ظهور ما في قلوبِهم إلَّا خشيةَ الفتنةِ على نفوسِهم، فإنَّ بواطنَهم خيرٌ مِنْ ظواهرِهم، وسرائرهم[1] أصلحُ مِنْ علانيتِهم.

قال سليمانُ التَّيميُّ: أتاني آتٍ في منامي، فقالَ: يا سليمانُ، إنَّ قوَّةَ المؤمنِ في قلبِه[2].

فالمؤمنُ لمَّا اشتغلَ بعمارةِ قلبِه عن عمارةِ قالبِه استُضعِفَ ظاهرُه، وربَّما ازدُرِيَ به، ولو علِمَ النَّاسُ ما في قلبِه لمـَا فعلوا ذلك.

قال عليٌّ رضي الله عنه لأصحابه: كونوا في النَّاس كالنَّحلِ في الطَّيرِ، كلُّ الطَّيرِ تستضعفُها، ولو علِموا ما في جوفِها ما فعلوا[3].

ومِنْ قوَّةِ قلبِ المؤمنِ وثباتِه أنَّه ثابتٌ على الإيمانِ، فالإيمانُ الَّذي في قلبه مَثَلُه كمثلِ شجرةٍ طيِّبةٍ أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السَّماءِ، فيعيشُ على الإيمان ويموتُ

---

(١) في (ب) و(ف) و(ع): «وسرهم».

(٢) نقله عن سليمان التيمي أيضاً: ابن الخراط الإشبيلي في «الصلاة والتهجد» (ص: ٣٦٣)، وهذا المعنى منقول عن غير واحد من السلف رحمهم الله.

(٣) أخرجه الدارمي في «سننه» (٣٢٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٢/ ٥٠٩).

عليه[١] ويُبعَثُ عليه، وإنَّما الرِّياحُ وهي بلايا الدُّنيا تقلبُ جسمَه يَمْنةً ويَسْرةً وقلبُه لا تصلُ إليه الرِّياحُ؛ لأنَّه محروسٌ بنورِ الإيمانِ، والكافرُ والمنافقُ والفاجرُ بعكس ذلك، جسمُه قويٌّ، لا تقلبُه رياحُ الدُّنيا، وأمَّا قلبُه فإنَّه ضعيفٌ تتلاعبُ به الأهواءُ المضلَّةُ، فتقلبُه[٢] يَمْنةً ويَسْرةً، فلذلك كانَ مثَلُ قلبِه كشجرةٍ خبيثةٍ اجتُثَّتْ مِنْ فوق الأرضِ ما لها مِنْ قرارٍ، كشجرةِ الحَنْظَلِ ونحوِه ممَّا ليسَ له أصلٌ ثابتٌ في الأرض.

وقال عليٌّ رضي الله عنه في صفة الهَمَجِ الرَّعاعِ: أتباعُ كلِّ ناعقٍ، يميلون معَ كلِّ ريحٍ، لم يستضيئوا بنورِ العلمِ، ولم يَلجؤوا منه إلى رُكْنٍ وثيقٍ[٣].

وبهذا يظهرُ الجمعُ بين حديثِ تمثيلِ المؤمنِ بخامةِ الزَّرعِ والكافرِ[٤] بشجرة الأَرْزِ، وبين حديثِ تمثيلِ المؤمنِ بالنَّخلةِ، فإنَّ الممثَّلَ بالزَّرعِ جسدُه لتوالي البلاءِ عليه، والممثَّلَ بالنَّخلةِ إيمانُه وعملُه وقولُه، يدلُّ عليه قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، فجعلَها مثلاً لكلمةِ الشَّهادةِ الَّتي هي أصلُ الإسلامِ، وثبوتُها في قلب المؤمنِ كثُبوتِ أصلِ النَّخلةِ في الأرضِ، وارتفاعُ عملِ المؤمنِ إلى السَّماءِ كارتفاعِ النَّخْلةِ، وتجدُّدُ عملِ المؤمنِ كلَّ حينٍ كإيتاءِ النَّخْلةِ أُكُلَها كلَّ حينٍ[٥].

---

(١) في (ع): «على الإيمان».

(٢) في (ف): «فتنقلته».

(٣) جاءت العبارة في (ف): «ولم يلجؤوا منه إلا إلى ركن غير وثيق». وهذا الأثر جزء من وصية علي رضي الله عنه لكُميل بن زياد. أخرجها أبو نُعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٨٠)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٧/ ٤٠٨)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٤/ ١٨، ٥٠/ ٢٥٢_٢٥٤_٢٥٥) من طرق.

(٤) في (ع): «والفاجر».

(٥) في حاشية (ب) بخط الشيخ عبد القادر بدران رحمه الله [مصححاً ما فيه]:

عن أبي موسى: سمعت رسول الله ﷺ غير مرة ولا مرتين يقول: «من كان له عمل يعمله، فشغله

= عنه مرض أو سفر، فإنه يكتب له صالح عمله الذي كان يعمله وهو صحيح مقيم» أخرجه البخاري [٢٩٩٦] بمعناه [وهذا اللفظ عند أبي داود (٣٠٨٤)].

أخرجه أحمدُ [(١٧١١٨)] من طريق إسماعيل بن عياش، عن راشد بن داود الصنعاني، والطبراني في «الكبير» [(٧١٣٦)]، والأوسط [(٤٧٠٦)] عن أبي الأشعث الصنعاني أنه راح إلى مسجد دمشق، وهجَّر بالرواح، فلقي شداد بن أوس والصنابحي معه رضي الله عنهما، فقلت أين تريدان يرحمكما الله؟ فقالا: نريد ههنا إلى أخ لنا مريض نعوده، فانطلقت معهما حتى دخلا على ذلك الرجل، فقالا له: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت بنعمة، فقال شداد: أبشر بكفارات السيئات وحط الخطايا، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يقول: إذا ابتليت عبداً من عبادي مؤمناً، فحمدني على ما ابتليته ... فأجروا كما كنتم تجرون له». وهو حديث صحيح.

وظواهر هذه الأحاديث: أن المؤمن تكتب له طاعاته التي كان يعملها لولا العذر. قال القرطبي: ولا ينبغي أن يختلف في ذلك. قال في «الفروع» [(٣/ ٧٧)] قال شيخ الإسلام ابن تيمية: من نوى الخير، وفعل ما يقدر عليه منه كان له كأجر الفاعل، ثم احتج بحديث أنس عند الإمام أحمد [(١٢٠٠٩)] قال: قال رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك: «إن بالمدينة قوماً ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم» وفي بعض ألفاظ صحيح البخاري [(٢٨٣٩)] قال: «إن أقواماً بالمدينة خلفنا ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا فيه» أي في ثوابه، وفي لفظ: «إلا وهم معكم فيه بالنية»، وفي رواية عند ابن حبان [(٤٧١٤)] وأبي عوانة [(٧٨٩٧)] عن جابر: «إلا شركوكم في الأجر» قالوا: «يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينة حبسهم العذر، وفي «صحيح مسلم» [(١٩١١)]: «حبسهم المرض»، وفي «سنن أبي داود» [(٢٥٠٠)] أن النبي ﷺ قال: «لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً، ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم» قالوا: يا رسول الله وكيف يكونون معنا، وهم بالمدينة؟ قال: «حبسهم المرض».

وأنشد الحافظ ابن رجب في «اللطائف»:

يا سائرين إلى البيت العتيق لقد ... سرتم جسوماً وسرنا نحن أرواحا

إنا أقمنا على عذر ومن عدم ... ومن أقام على عذر كمن راحا

وقد رُوِيَ عن أبي هريرةَ: أنَّ المؤمنَ الضَّعيفَ مثَلُه كزرعٍ[1]، والقويَّ مثَلُه كمثلِ النَّخلةِ[2].

وخرَّجَه البزَّارُ[3] وغيرُه مرفوعاً، ولا يصحُّ رفعُه، إنما هو موقوفٌ، قاله الدَّارَقُطْنيُّ[4] وغيرُه.

ومنها: أنَّ ثمرةَ الزَّرعِ ـ وهو السُّنْبُلُ ـ يُستَضعفُ ويَطْمَعُ فيه كلُّ أحدٍ لقربِ تناولِه، فيَطْمَعُ الآدميُّ في الأكلِ منه وفي قَطْعِه وسرقتِه، والبهائمُ في رعيِه، والطَّيرُ في الأكل منه، وكذلكَ المؤمنُ يُستضعَفُ فيعاديه عمومُ النَّاسِ؛ لأنَّ «الإسلامَ بدأ غريباً، وسيعودُ غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباءِ»[5]، فعمومُ الخلقِ يستضعفُه ويستغربُه ويؤذيه لغربتِه بينهم.

وأمَّا الكافرُ أو المنافقُ أو الفاجرُ الَّذي كالصَّنَوْبَرةِ، فإنَّه لا يُطْمَعُ فيه، فلا الرِّياحُ تُزعزعُ بدنَه، ولا يُطمَعُ في تناولِ ثمرتِه لامتناعِها.

وفي كتاب «الزُّهد» للإمام أحمدَ عن عصام بنِ يحيى الحَضْرَميِّ قالَ: شكا

---

(١) في (ع): «مثل الزرع».

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» ١٥ (٣٠٩٨٣) من رواية بشير بن نَهيك، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) لم أجد الحديث في «مسند البزار» مرفوعاً بذكر الزرع مثالًا للمؤمن الضعيف. وقد انفرد بروايته مرفوعاً سليمان بن أيوب صاحب البصري، عن حماد بن زيد، عن علي بن سويد بن منجوف عن أبي رافع عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً. أخرجه الرامهرمزي في «أمثال الحديث» (٣٠٦)، وأبو الشيخ في «أمثال الحديث» (٣٣٢). والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٣٥٧).

(٤) في «العلل» ٩ (١٦٤٣).

(٥) أخرجه مسلم (١٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الحواريُّون إلى المسيحِ عليه السلام مِنْ ولَعِ النَّاسِ بهم وبُغْضِهم إيَّاهم، فقال المسيحُ عليه السلام: كذلك المؤمنون مُبَغَّضُون[1] في النَّاسِ، وإنَّما مثَلُهم كمثلِ حبَّةِ القَمْحِ، ما أحلى مذاقَها وأكثرَ أعداءَها[2].

وقال كعبٌ: في التَّوراةِ: ما كانَ حكيمٌ قطُّ في قومٍ إلَّا بَغَوا عليه وحسَدوه[3].

وكان خيثمةُ يقولُ كلاماً معناه: إنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ أجتهدُ في نفعِه وهو يجتهدُ في أذاي، إنَّه لا يُحِبُّ منافقٌ مؤمناً أبداً[4].

ومنها: أنَّ المؤمنَ يمشي معَ البلاءِ كيفما مشى به، فيلينُ له، فيُقَلِّبُه البلاءُ يَمْنَةً ويَسْرةً، فكلَّما أدارَه استدارَ معه، فتكونُ عاقبتُه العافيةَ مِنَ البلاءِ وحسنَ الخاتمةِ، ويُوقى مِيتَةَ السُّوءِ، فلهذا كانَ مثَلُه كمثلِ السُّنْبُلَةِ، تُفَيِّئُها الرِّياحُ يَمْنَةً ويسرةً، فلا تضرُّه الرِّياحُ، كما في أمثالِ العرب: (إذا رأيتَ الرِّيحَ عاصفاً فتَطامَنْ)[5]، أي: إذا رأيتَ الأمرَ عالياً[6] فاخضعْ له.

وقال الحُكماءُ: لا يُرَدُّ العدوُّ القويُّ بمثلِ الخضوعِ له، ومثَلُه مثَلُ الرِّيحِ

---

(١) في (ع): «مبغوضون».

(٢) لم أجده في كتاب «الزهد» للإمام أحمد.

(٣) أخرجه البيهقي في «المدخل إلى السنن» (١٨٠٠)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٧/ ٢٠٣).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ١١٦) بنحو معناه من كلام خيثمة بن عبد الرحمن.

(٥) انظر: «جمهرة الأمثال» لأبي هلال العسكري (١/ ١٧٠).

(٦) في (ع): «غالباً».

العاصفِ يَسْلَمُ منها الزَّرعُ للينِه لها وانثنائِه معها، وينقصفُ فيها[1] الشَّجرُ العِظامُ لانتصابِها لها.

فالفاجرُ[2] لقوَّتِه وتعاظُمِه يتقاوى على الأقدارِ، ويَستعصي عليها، كشجرةِ الصَّنَوْبَرِ الَّتي تَستعصي على الرِّياحِ ولا تنطاعُ[3] معها، فتُسَلَّطُ عليه ريحٌ عاصفٌ[4] لا يقوى عليها، فتقلعُه من أصلِه بعروقِه فتهلكُه.

وهذا كما حكى اللهُ عزَّ وجلَّ عن عادٍ قال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ۝١٥ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ الآيتين [فصلت: ١٥ ـ ١٦].

فالمؤمنُ لمَّا تواضعَ لعظمةِ اللهِ وصبرَ على بلائِه كانت عاقبتُه الحسنى، وسَلِمَ في الدُّنيا والآخرةِ مِنَ البلاءِ، وكانتِ العاقبةُ له، والفاجرُ لمَّا تكبَّرَ وتعاظمَ وتقاوى على أقدارِ اللهِ تعالى عجَّلَ اللهُ عقوبتَه، فسلَّطَ عليه[5] بلاءً يستأصِلُه، ولا يقدِرُ على الامتناعِ منه، كالشَّجرِ العِظامِ الَّتي تقتلعُها الرِّياحُ بعروقِها.

قال بعضُهم:

إنَّ الرِّياحَ إذا عَصَفْنَ فإنَّما ... تُولِي الأذيَّةَ شامخَ الأغصانِ[6]

---

(١) في (ع): «ويتقصف منها»، وفي «جمهرة الأمثال»: «تتقصف فيها». وهذه الجمل منقولة منه.

(٢) في (ع): «فإن الفاجر».

(٣) في (ع): «تطامح».

(٤) في (ع): «قاصف».

(٥) في (ف): «فيُسَلَّطُ»، وفي (ق) «فتسلَّطَ».

(٦) البيت لابن الدهان النحوي سعيد بن المبارك الأنصاري نسبه له ياقوت الحموي في «معجم الأدباء» =

ولغيرِه(١):

مَنْ أحمـلَ النَّفسَ أحياهـا وروَّحَها ... ولـم يَبِـتْ طاويـاً منهـا علـى ضَجَـرِ

إنَّ الرِّياحَ إذا اشتـدَّتْ عـواصـفُـهـا ... فليس ترمـي سوى العالي مِنَ الشَّجرِ(٢)

ومنها: أنَّ الزَّرعَ وإنْ كانت كلُّ طاقةٍ منه ضعيفةً ضئيلةً إلَّا أنَّه يتقوَّى بما يخرُجُ معه وحوله ويعتضِدُ به، بخلاف الشَّجرِ العِظامِ، فإنَّ بعضَها لا يشُدُّ بعضاً، وقد ضربَ اللهُ تعالى مثَلَ نبيِّه ﷺ وأصحابِه بالزَّرعِ لهذا المعنى قال: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ [الفتح: ٢٩].

قولُه: «أخرجَ شَطْأَه»: أي: فِراخَه. «فآزرَه»: أي: ساواه فصـار مثلَ الأمِّ وقويَ به. «فاستغلظ»: أي: غلُظَ. «واستوى على سوقِه»: جمعُ «ساقٍ»، فالزَّرعُ مَثَلُ النَّبيِّ ﷺ إذْ خرَجَ وحدَه، فأيَّدَه(٣) بأصحابِه وهم شَطْأُ الزَّرعِ، كما قوَّى الطَّاقةَ مِنَ الزَّرعِ بما نبتَ منها حتَّى غلُظَتْ واستحكمَتْ.

وفي الإنجيل: سيخرُجُ قومٌ ينبُتون نباتَ الزَّرعِ(٤).

وقد قال عـزَّ وجلَّ: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٧١]، وقال: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴾ [التوبـة: ٦٧]، فالمؤمنـون بينهـم ولايـةٌ،

= (٣/ ١٣٧٠)، والقفطي في «إنباه الرواة». (٢/ ٤٩). وعندهما: «إذا عصفن رأيتها...».

(١) في (ع): «وقال غيره».

(٢) البيتان لجعفر بن الفضل المعروف بابن حنزابة الوزير وليس له غيرهما، كما في «تاريخ بغداد» للخطيب (٨/ ١٥٧)، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (٧٢/ ١٤٢).

(٣) في (ع): «فأمده».

(٤) أخرجه الطبري (٢١/ ٣٣٠) من تفسير قتادة لقوله تعالى ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ﴾ [الفتح: ٢٩].

وهي مودَّةٌ ومحبَّةٌ باطنةٌ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]؛ لأنَّ المؤمنين قلوبُهم على قلبِ رجلٍ واحدٍ فيما يعتقدونه منَ الإيمان، وأمَّا المنافقون فقلوبُهم مختلفةٌ، كما قال تعالى ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤]، فأهواؤُهم مختلفةٌ، ولا ولايةَ بينهم في الباطنِ، وإنَّما بعضُهم منْ جنس بعضٍ في الكفرِ والنِّفاقِ.

وفي «الصَّحيحين» عن النَّبيِّ ﷺ: «المؤمنُ للمؤمنِ كالبُنْيانِ يشُدُّ بعضُه بعضاً» وشبَّكَ بين أصابعه[1].

وفيهما أيضاً عن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «مثَلُ المؤمنين في توادِّهمْ وتراحُمِهمْ وتعاطُفِهمْ كَمَثَل[2] الجسدِ الواحدِ، إذا اشتكى منه عضوٌ تَداعى له سائرُه بالحُمَّى والسَّهَرِ»[3].

ومنها: أنَّ الزَّرعَ يُنتَفَعُ به بعدَ حَصادِه، فإنَّه يحصِدُه أربابُه، ثمَّ يبقى منه بعدَ حَصادِه ما يلتقطُه المساكينُ، وترعاه البهائم، وتأكلُه الطَّيرُ، وربَّما استُخْلِفَ بعضُه، فأُخرِجَ منه ثانيةً، ويقعُ منه مِنَ الحَبِّ ما ينبُتُ مراراً، وهكذا مثَلُ المؤمنِ يموتُ ويخلفُ ما يُنتفَعُ به[4] مِنْ علمٍ نافعٍ، وصدقةٍ جاريةٍ، وولدٍ صالحٍ يُنتَفَعُ به، وأمَّا

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٨١)، وفي المظالم (٢٤٤٦)، وفي الأدب (٦٠٢٦)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٥) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) في (ع): «مَثَلُ».

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٤) في (ع): «منه».

الفاجرُ فإذا انقطعَ[(١)] مِنَ الأرضِ لمْ يبقَ فيه نفعٌ، بل ربَّما أثَّرَ ضرراً، فهو كالشَّجرةِ المُنْجَعِفَةِ[(٢)] لا تصلُحُ إلَّا لوَقيدِ النَّارِ.

ومنها: أنَّ الزَّرعَ يُباركُ في حَبِّه[(٣)] كما ضربَ اللهُ تعالى مثَلَ حبَّةٍ أنبتتْ سبْعَ سنابلَ في كلِّ سُنبُلةٍ مائةُ حبَّةٍ، واللهُ يُضاعِفُ لمَنْ يشاءُ[(٤)]، وليس الشَّجرُ كذلكَ؛ لأنَّ كلَّ حبَّةٍ ممَّا يُغْرَسُ منه لا تزيدُ على نباتِ شجرةٍ واحدةٍ منها.

ومنها: أنَّ الحَبَّ الَّذي ينبُتُ منه الزَّرعُ هو قوتُ الآدميِّين، وغذاءُ أبدانِهم، وسببُ حياةِ أجسادِهم، فكذلك الإيمانُ هو قوتُ القلوبِ، وغذاءُ الأرواحِ، وسببُ حياتِها، ومتى فقدَتْه القلوبُ ماتَتْ، وموتُ القلوبِ لا يُرجى معه حياةٌ أبداً، بل هو هلاكُ الدُّنيا والآخرةِ، كما قيل:

لَيسَ مَنْ ماتَ فاستراحَ بميْتٍ إنَّما الميْتُ ميِّتُ الأحياءِ[(٥)]

فلذلك شبَّهَ المؤمنَ بالزَّرعِ حيثُ كان الزَّرعُ حياةَ الأجسادِ، والإيمانُ حياةَ الأرواحِ.

وأمَّا ثمرُ بعضِ الأشجارِ العِظامِ كالصَّنَوْبَرِ ونحوِه، فليس له كثيرُ[(٦)] نفعٍ، وربَّما لا يتضرَّرُ بفقْدِه، فلذلك مَثَّلَ الفاجرَ أو المنافقَ بهذه الشَّجرةِ لقلَّةِ نفعِ ثَمرِها.

---

(١) في (ع): «فإذا انقلع».

(٢) من «انجعف» مطاوع «جعف»، أي: انقطع.

(٣) في (ق) و(ف): «حمله»، وفي (ع): «في حمله مبارك».

(٤) قال تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١].

(٥) البيت لعدي بن رعلاء الغساني كما في «الأصمعيات» (ص: ١٥٢)، و«الصناعتين» لأبي هلال العسكري (ص: ٣١٥).

(٦) في (ع): «كبير».

الدُّنيا سجنُ المؤمنِ وجنَّةُ الكافرِ[١]، فصاحبُ السِّجنِ لا يزالُ في بلاءٍ حتَّى يخرُجَ منه، فإذا خرجَ مِنَ السِّجنِ أفضى إلى الرَّخاءِ والنَّعيمِ الدَّائمِ، وصاحبُ الجنَّةِ إذا خرجَ منها وقعَ في السِّجنِ الدَّائمِ، إذا صُبغَ أنعَمُ النَّاسِ كان في الدُّنيا صَبْغةً في العذابِ، فقيل له: هل مرَّ بك نعيمٌ قطُّ؟ قالَ: لا، يا ربِّ، وإذا صُبغَ أبْأَسُ النَّاسِ كان في الدُّنيا في النَّعيمِ صَبْغةً، ثمَّ قيل له: هل مرَّ بك بؤسٌ قطُّ؟ قال: لا، يا ربِّ[٢].

ما كأنَّه تعِبَ مَنِ استراحَ، ولا استراحَ مَنْ تَعِبَ.

فما هي إلَّا ساعةٌ ثمَّ تنقضي ... ويذهبُ هذا كلُّه ويزولُ[٣]

لا يجدُ أهلُ الجنَّةِ مِنْ ألَمِ تعَبِ[٤] الدُّنيا شيئاً، بل ينقلِبُ راحةً أبديَّةً:

جميعُ آلامِ لَسْعِ النَّحلِ يُذْهِبُها ... ما يَجتني المُجْتَني مِنْ لذَّةِ العَسَلِ[٥]

مَنْ طَمِعَ في الوصولِ إلى المعالي، صبَرَ على مواصلَةِ نَصَبِ النَّهارِ بسَهَرِ اللَّيالي.

مَنْ أرادَ غداً قُرْبَنا، فليصبِرِ اليومَ على ألَمِ ضَرْبِنا، فما يُحِسُّ بألمِه مَنْ صدقَ في حُبِّنا.

لا بُدَّ مِنَ البَلوى والاختبارِ؛ ليتبيَّنَ الصَّادقُ اليومَ مِنَ الكاذبِ، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

---

(١) أخرجه مسلم في «الزهد» (٢٩٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) مقتبس من حديث أنس رضي الله عنه عند مسلم في صفة القيامة (٢٨٠٧).

(٣) أصل البيت للبهاء زهير المصري، وهو في «ديوانه» (ص: ٢١٠).

(٤) في (ع): «نصب».

(٥) لم أجد هذا البيت عند غير المصنف رحمه الله.

الرَّاحةُ لا تُنالُ بالرَّاحةِ.

لولا المشقَّةُ سادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ ... الجودُ يُفْقِرُ والإقدامُ قَتَّالُ[١]

مراتبُ الدُّنيا لا تُنالُ إلَّا بالصَّبرِ على البلاءِ في طلَبِها والمجاهدةِ، فكيفَ مَنْ أرادَ مَقْعَدَ صِدْقٍ عند مليكٍ مُقْتَدِرٍ.

كَمْ صبروا حتَّى قَدَروا! كَمْ غضُّوا حتَّى نظروا!

ما وصلوا إلى المنزلِ إلَّا بعدَ طُولِ السُّرى[٢].

ما نالوا لَذَّةَ الرَّاحةِ إلَّا بعدَ أنْ صبروا على المشقَّةِ.

لو قُرِّبَ الدُّرُّ على جُلَّابِه[٣] ... ما لَجَّجَ الغائصُ في طِلابِه

ولو أقامَ لازِماً أَصْدافَه ... لَمْ تكُنِ التِّيجانُ في حِسابِه

ما لؤلؤُ البحرِ ولا مَرْجانُه ... إلَّا وراءَ الهولِ مِنْ عُبابِه[٤]

مَنْ يعشَقِ العلياء يلقَ عندها ... ما لقيَ المحبُّ مِنْ أحبابِه[٥]

ما حظيَ الدِّينارُ بنَقْشِ اسمِ الملِكِ عليه حتَّى صبرَتْ سبيكتُه على النَّارِ، فنفَتْ عنها كلَّ كدَرٍ، ثمَّ صبرَتْ على تقطيعِها دنانيرَ، ثمَّ صبرَتْ على ضربِها

---

(١) البيت للمتنبي. انظر: «ديوانه» (٤٩٠).

(٢) تصحفت في (ع) إلى: «السجن». و«السُّرى»: السير بالليل.

(٣) في (ع): «طلابه».

(٤) هنا تنتهي نسخة (ع). وكتب ناسخها بعده: «آخر ما وجدنا، والحمد لله أولًا وآخراً، وظاهراً وباطناً، وصلى الله على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً. تم ذلك بمعونة الله في اليوم الثاني عشر من ربيع أول سنة (١٣٣٤) بقلم الفقير إلى الله عبد الله بن إبراهيم الربيعي».

(٥) الأبيات من قصيدة لعلي بن الحسن المعروف بصردر يمدح بها الوزير أبا نصر محمد بن محمد بن جهير. انظر: «ديوان صردر» (ص: ٦٤).

على السِّكَّةِ، كذلكَ قلبُ المؤمن يصبِرُ على مِحْنةٍ بعد مِحْنةٍ حتَّى يُرقَمَ عليه نقشُ: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

كَمْ أُصبِحُ والهاً وأُمسي قلِقا ... والحزنُ وقلبي قلَّ أنْ يفترِقا

مِنْ بعدِ الصَّفْوِ عادَ عَيْشي رَنِقا[1] ... كمْ يَصْبِرُ قلبي ليتَه ما خُلِقا[2]

غيره:

يا مَنْ بحبالِ حُبِّه أَمْتَسِكُ ... صَبْرٌ مُفْتَضِحٌ وسِتْرُه مُنْهَتِكُ

هذا قلبي أعزُّ ما أمتلِكُ ... عَذِّبْه فما عليكَ منه دَرَكُ[3]

غيره:

هذا قلبي وربعُه قد أقوى ... ما يحسنُ بي إلَّا إليكَ الشَّكْوى

أنتَ المُبْلي فكنْ مُزِيلَ البَلْوى ... ما يُسْعِدُ ذا الضَّعيفَ إلَّا الأقوى[4]

---

(١) رَنِقاً: كدراً، وتصحفت في النسخ إلى: «رتقا».

(٢) لم أقف على قائله، وهو من الرباعيات (الدوبيت). وأورده ابن الجوزي أيضاً في «مرافق الموافق في الوعظ» (ص: ٧٧).

(٣) هذا من الرباعيات (الدوبيت) ينسب لعماد الدين الأصبهاني الكاتب. فيما جُمع من ديوانه. وأورده ابن الجوزي غير منسوب إلى أحد في «مرافق الموافق في الوعظ» (ص: ٣٣). وفيه:

صبري خاف وسرُّه منهتكُ...

وهو أولى مما هنا.

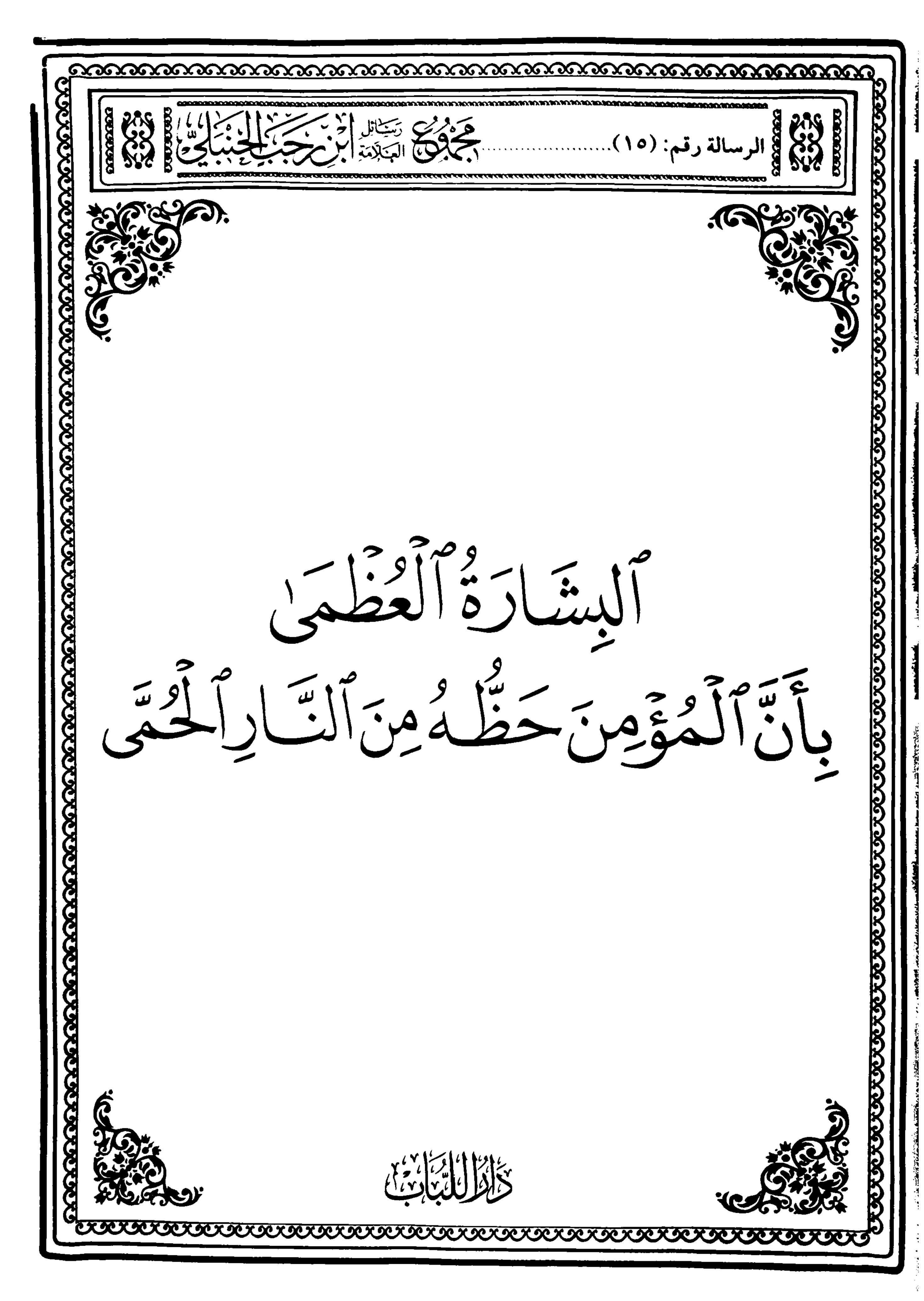
(٤) البيتان من بحر الدوبيت، وهما لأبي علي بن خليفة الدَّوَوي، أوردهما العماد الكاتب الأصبهاني في «خريدة القصر وجريدة العصر»، قسم العراق (٢/ ٢٦٢). وشطره الأول ثمة:

يا من أدعو فيستجيب الدعوى

آخره والحمدُ لله وحدَه، وصلَّى اللهُ على سيِّدِنا محمد وآلِه وصحبِه وسلَّمَ تسليماً كثيراً، ورضي الله عن أصحاب رسول الله أجمعين[١].

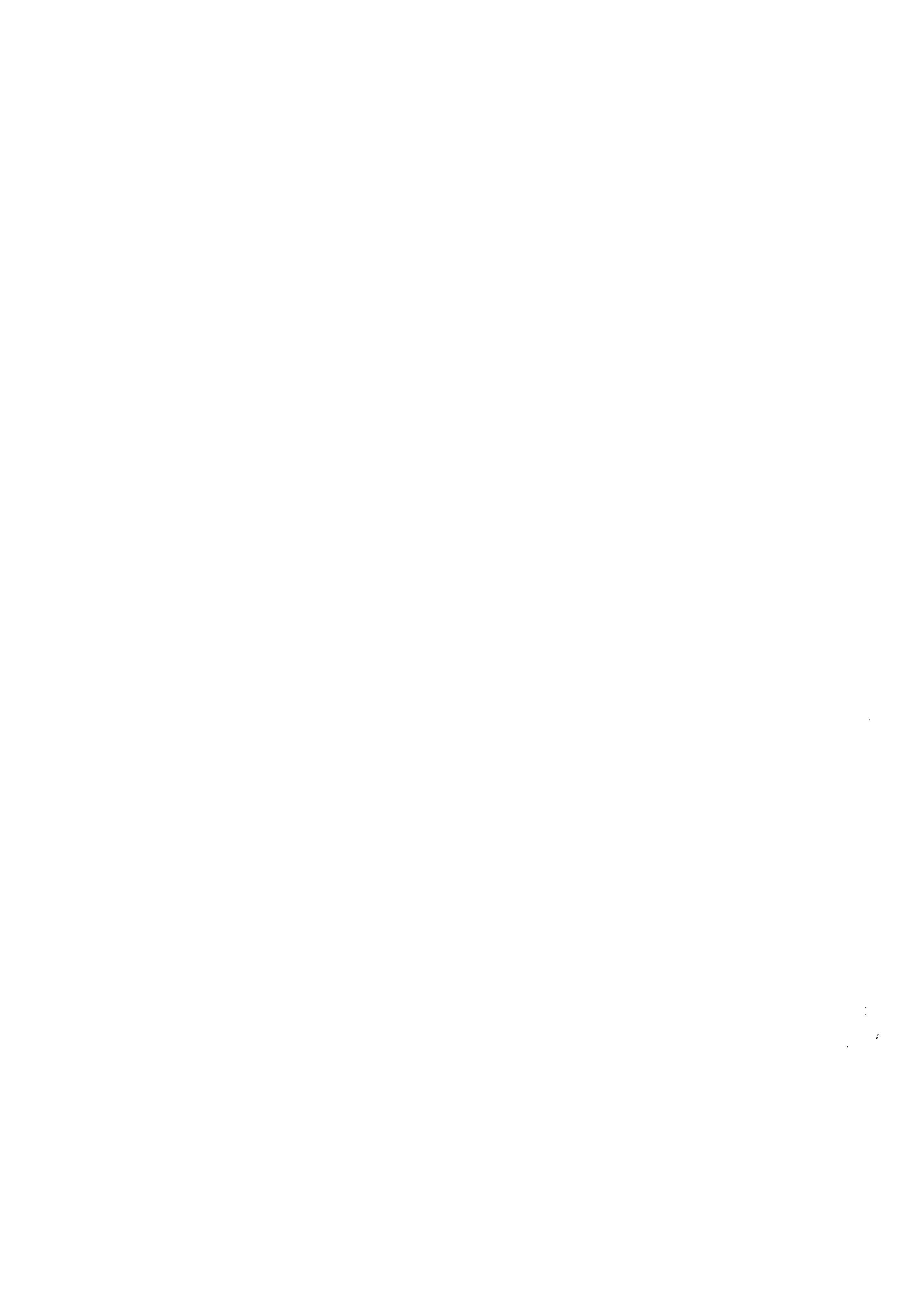
* * *

(١) الترضي في (ب) وحدها.



البِشَارَةُ العُظْمَى
بِأَنَّ المُؤْمِنَ حَظُّهُ مِنَ النَّارِ الحُمَّى

دار اللباب



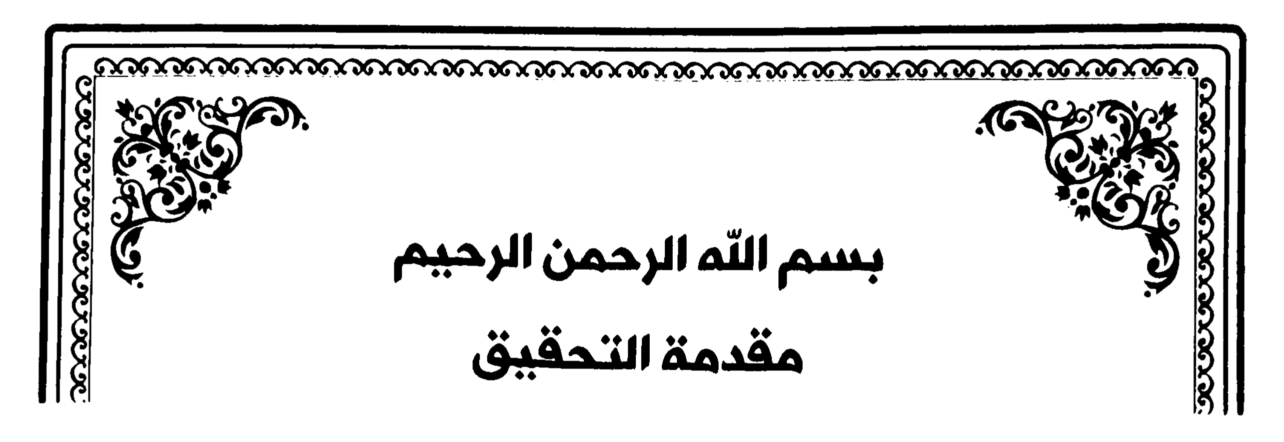
دار الكتب الوطنية بتونس (ت)

مكتبة المسجد الأقصى (ق)

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر يا كريم
الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
اجمعين . خرج الامام احمد من حديث ابي الحصين
الشامي عن ابي صالح الاشعري عن ابي امامة عن النبي صلى الله
عليه وسلم قال الحمى كير من جهنم فما اصاب المؤمن منها كان حظه
من النار . وفي رواية له ايضا كان حظه من جهنم
اختلف في اسناد هذا الحديث على ابي صالح عن ابي امامة
وخالفه اسماعيل بن عبيد الله فرواه عن ابي صالح الاشعري
عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه عاد مريضا ومعه
ابو هريرة من وعك به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ابشر
فان الله يقول هي ناري اسلطها على عبدي المؤمن في الدنيا
لتكون حظه من النار في الآخرة . خرجه ابن ماجه
من طريق ابي اسامة عن عبد الرحمن بن يزيد عن اسماعيل
وعبد الرحمن بن يزيد هو ابن تميم الدمشقي ضعيف ومن
قال انه ابن جابر فقد وهم . وقد خرجه الطبراني من
رواية ابي المغيرة عن ابي صالح عن كعب الاحبار من قوله
قال الدارقطني وهو الصواب . ورواه سيابة عن ابي غسان
عن ابي حصين الاسدي الكوفي بفتح الحاء وكسر الصاد وظن
ابا صالح هو السمان وكل ذلك وهم انما هو ابو حصين بضم

مكتبة الفاتح في اسطنبول (ف)

مكتبة جامعة الرياض ثم جامعة الملك سعود (س)



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله على نعمائه، والصلاة والسلام على سيد رسله وأنبيائه، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأوليائه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم لقائه.

أما بعد:

فهذه الرسالة هي صنو أختها المتقدمة «غاية النفع في شرح حديث تمثيل المؤمن بخامة الزرع»، فهذه خاصة بما يصيب المؤمن من الحمى، وتلك عامة بما يصيب المؤمن من الأمراض والحمى والابتلاءات.

وقد تكلّم فيها الحافظ ابن رجب رحمه الله عن الأحاديث والآثار التي ورد فيها أن الحمى حظ المؤمن من النار، وكل واحدٍ منها لا يصح سنده بمفرده، وإنما القبول للمعنى الجامع بينها.

ومن روائع ما ذكره رحمه الله: أن الله تعالى أشهد عبادَه في نفوسهم آثاراً محسوسة يمدونها ويحسُّونها من آثار الجنة والنار... وما يجدونه من الحمى أثر من آثار النار نعوذ بالله منها.

وكما أن النار تطهر العاصين في الآخرة ليدخلوا الجنة بعدها، فكذلك الحمى تطهر الذنوب في الدنيا، فإن ذهبت بها جميعاً نجا من النار في الآخرة.

ومع هذا كله؛ فلا ينبغي للعبد سؤال البلاء بل ينبغي سؤال العافية.

اللهم إنا نسألك العفو والعافية، والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة.

* * *

ذكر هذه الرسالة للمصنف: ابنُ عبد الهادي في «الجوهر المنضَّد» (ص: ٥٠)، وسماها: «البشارة العظمى في أن حظ المؤمن من النار الحمى».

ونقل عنها السَّفاريني في «غذاء الألباب شرح منظومة الآداب» (١/ ٨١)، وسماها كذلك أيضاً.

وهي مما يرويه الرُّوداني في «صلة الخلف» (ص: ١٤٣) وسماها: «البشارة العظمى بأن المؤمن حظه من النار الحمى».

وقد اعتمدت في إخراج هذه الرسالة على أربع نسخ خطية:

١ ـ النسخة التونسية، ورمزها (ت).

وهي الرسالة السادسة عشرة ـ الأخيرة ـ من المجموع (١٥٧) وقد تقدم وصفه في المقدمات. تقع في (٣) لوحات (من ١٥٩/ أ إلى ١٦١/ أ)، وآخرها مخروم مقدار ورقة، فليس فيها اسم ناسخ ولا تاريخ نسخ. لكن كتب الناسخ أولها: «من تأليف شيخنا الإمام العالم العلامة زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن رجب الحنبلي رحمه الله»، فكأنه أحد تلاميذه، وقد جاء تاريخ الفراغ من نسخ إحدى رسائل هذا المجموع سنة ٨٥٢.

وقد جاء العنوان فيها: «البشارة العظمى للمؤمن بأن حظه من النار الحمى».

٢ ـ نسخة المسجد الأقصى ـ فرج الله عنه ـ، ورمزها (ق).

وهي الرسالة الخامسة ضمن المجموع (١٤٦) وسبق وصفه في المقدمات.

تقع في (٨) لوحات، (من ٤٨/ ب إلى ٥٥/ ب). لم يذكر اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ، لكنه من خطوط القرن التاسع الهجري.

وجاء العنوان فيها: «البشارة العظمى بأن حظه من النار الحمى» هكذا بدون كلمة «المؤمن»، ولعل الناسخ سبق نظره عنها، وحاقُّ موضعها: «بأن المؤمن حظه».

على أنه في أول المجموع جاء العنوان: «البشارة العظمى بأن حظ المؤمن من النار الحمى».

٣ ـ نسخة الفاتح بإصطنبول، ورمزها (ف).

وهي الرسالة السادسة عشرة ضمن المجموع (٥٣١٨) ـ وسبق وصفه في المقدمات ـ وتقع في (١٠) لوحات، من (٢١٢/ ب إلى ٢٢١/ أ). ناسخها: عيسى ابن علي بن محمد الحوراني الشافعي، وتاريخ الفراغ من المجموع سنة ٨٩٣.

وجاء العنوان فيها كما في (ت).

٤ ـ نسخة جامعة الرياض ـ ثم جامعة الملك سعود ـ ورمزها (س).

وهي الرسالة الرابعة عشرة ـ الأخيرة ـ من المجموع (١٦٣٧) ـ وسبق وصفه في المقدمات ـ وتقع في (٤) لوحات من (ص ٢٨٦ إلى ٢٩٢)، مسطرتها مختلفة (٣١ ـ ٣٦) سطراً.

ناسخها: عبد الله بن إبراهيم الربيعي، وتاريخ النسخ: ١٣/ ٣/ ١٣٣٤.

وجاء العنوان فيها كما في (ت) و(ف).

* * *

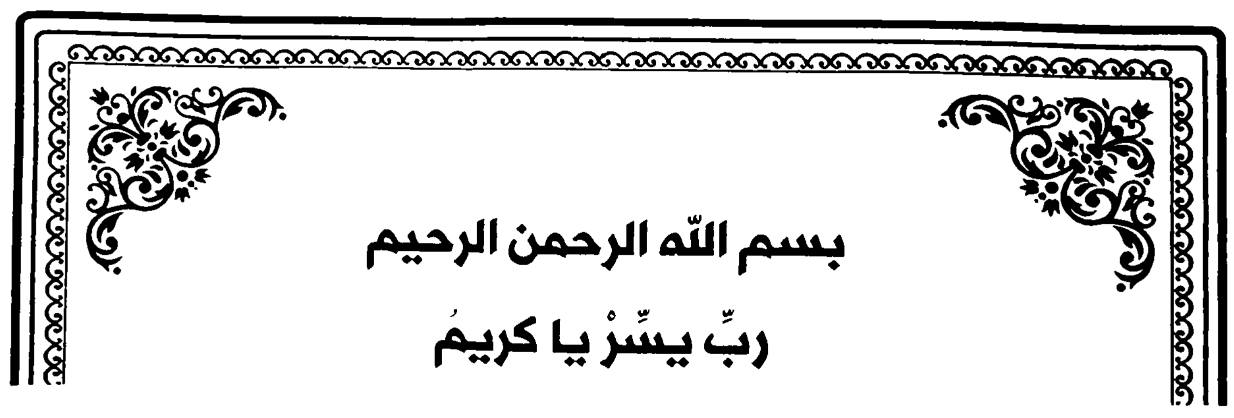
ولما كان العنوان في (ت) و(ف) و(س) ركيكاً في السجع، وهو في (ق) مختلف بين ظهر المجموع وبين داخله، فقد اعتمدت في إثباته ما ذكره الروداني من تسمية هذا الكتاب وهو مثل ما في (ق) على ما قدَّرته.

والله تعالى أعلم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

كتبه

محمد مجير الخطيب الحسني

* * *



بسم الله الرحمن الرحيم

ربِّ يسِّرْ يا كريمُ

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلَّى اللهُ على سيِّدِنا محمَّدٍ خاتمِ النَّبيِّين وعلى آلِه وصحبِه أجمعين.

* **خرَّجَ الإمامُ أحمدُ مِنْ حديثِ أبي الحُصَينِ الشَّامي، عن أبي صالحٍ الأشعريِّ، عن أبي أُمامةَ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «الحُمَّى كِيرٌ مِنْ جهنَّمَ، فما أصابَ المؤمنَ منها كان حظَّه مِنَ النَّارِ»[1].**

وفي روايةٍ له أيضاً: «كان حظَّه مِنْ جهنَّمَ»[2].

اختُلِفَ في إسنادِ هذا الحديثِ على أبي صالحٍ الأشعريِّ، فقال أبو[3] الحُصَينِ الفِلَسْطِينيُّ: عن أبي صالح، عن أبي أُمامةَ، وخالفَه إسماعيلُ بنُ عُبيد الله، فرواه عن أبي صالحٍ الأشعريِّ، عن أبي هريرةَ، عن النَّبيِّ ﷺ أنه عاد مريضاً ومعه أبو هريرةَ مِنْ وَعْكٍ به، فقال رسولُ الله ﷺ: «أبشِرْ، فإنَّ اللهَ يقولُ: هي ناري، أُسَلِّطُها على عبدي المؤمنِ في الدُّنيا؛ لتكونَ حظَّه مِنَ النَّارِ في الآخرةِ».

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢١٦٥) ووقع في بعض نسخه: «من كيرٍ»، وفي بعضها: «من كيرٍ من جهنم». والكير: ما تُنفخ به النار، وجزم ابن عبد البر في «التمهيد» (٢٣/ ١٧١) أنه موضع نار الحداد والصائغ، وليس الجلد الذي تسميه العامة كيراً.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٢٧٤).

(٣) «أبو»: لا توجد في (ق) و(ت) و(ف)، وهي في (س) وحدها.

خرَّجَه ابنُ ماجهْ مِنْ طريق أبي أسامةَ، عن عبد الرَّحمن بنِ يزيدَ، عن إسماعيلَ به[١].

وعبدُ الرَّحمنِ بنُ يزيدَ هو ابنُ تميمٍ الدِّمشقيُّ: ضعيفٌ، ومَنْ قال: إنَّه ابن جابر، فقد وهِمَ[٢].

وقد خرَّجَه الطَّبرانيُّ مِنْ رواية أبي المغيرة عن ابن تميمٍ به[٣].

وخالفَه سعيدُ بنُ عبدِ العزيزِ، فرواه عن إسماعيلَ بنِ عبيد اللَّهِ، عن أبي صالحٍ، عن كعبِ الأحبارِ مِنْ قوله[٤].

قال الدَّارَقُطْنِيُّ: وهو الصَّوابُ[٥].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٤٧٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠٨٨)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٣٤٥) من طريق أبي أسامة، وفيه:... ابن جابر.

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (١٠). وقال: «لم يروه عن أبي صالح -وهو الأشعري- إلا إسماعيل بن عبيد الله. تفرد به عبد الرحمن».

(٤) ولفظه: «الحمى كير من النار يبعثها الله على عبده المؤمن في الدنيا فتكون حظه من نار جهنم». أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ٣٨٢)، ويعقوب بن سفيان في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٤٨٣).

(٥) انظر: «علل الدارقطني» (١٩٨٧). والخلاصة: أن مدار الحديث على أبي صالح الأشعري، واختلف عليه فيه، فرواه عنه: أبو الحصين الشامي وهو مجهول من حديث أبي أمامة، وإسماعيلُ بن عبيد الله المخزومي وهو ثقة فتكون رواية إسماعيل أرجح من رواية أبي الحصين.

ثم اختُلِف فيه على إسماعيل:

فرواه عبد الرحمن بن يزيد من حديث أبي هريرة، وسعيد بن عبد العزيز من حديث كعب.

وعبد الرحمن بن يزيد إن كان ابن تميم فهو ضعيف، وإن كان ابن جابر فهو ثقة.

لكن سعيد بن عبد العزيز التنوخي هو إمام، فتكون روايته أرجح لذلك صَوَّب الدارقطني أن الكلام لكعب الأحبار. والله أعلم.

ورواه شبَّابةُ عن أبي غسَّانَ، عن أبي حُصَينٍ، عن أبي صالحٍ، عن أبي هريرةَ، عن النَّبيِّ ﷺ[1] ووَهِمَ، قلتُ: ظنَّه أبا حَصِينٍ الأَسَديَّ الكوفيَّ ـ بفتح الحاء وكسر الصَّاد ـ، وظنَّ أبا صالحٍ هو السَّمانَ، وكلُّ ذلك وَهْمٌ، إنَّما هو أبو حُصَينٍ ـ بضمِّ الحاء وفتح الصَّادِ ـ فِلَسْطينيٌّ ليس بالمشهور، وأبو صالحٍ هو الأشعريُّ.

* وقد رُوِيَ هذا مِنْ حديثِ عائشةَ رضي الله عنها مِنْ روايةِ هُشَيمٍ، ثنا مغيرةُ، عن إبراهيمَ، عن الأسودِ، عن عائشةَ، سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقولُ: «الحُمَّى حَظُّ كُلِّ مؤمنٍ مِنَ النَّارِ».

خرَّجَه ابنُ أبي حاتمٍ مِنْ طريق عثمانَ بنِ مَخْلَدٍ التَّمَّارِ الواسطيِّ، عن هُشَيمٍ به[2].

وذكرَه الدَّارَقُطْنِيُّ وقال في التَّمَّارِ: لا بأسَ به.

قال: وخالفَه مندل، فرواه عن مغيرةَ، عن إبراهيمَ، عن عائشةَ موقوفاً، وهو المحفوظُ[3].

قلتُ: قد توبِعَ التَّمَّارُ على روايتِه عن هشيمٍ، فرواه نصر بن زكريَّا، عن [جمعة][4] بنِ عبد الله البَلْخِيِّ، عن هشيمٍ، كما رواه التَّمَّارُ[5].

---

(١) ذكره الدارقطني في «العلل» (١٩٨٧).

(٢) لا يوجد في مظانه من مطبوعات «تفسير ابن أبي حاتم» ولعله من القسم المفقود منه.
وأخرجه البزار ـ وهو مما لم يوجد في مسنده ـ وهو في «كشف الأستار» (٧٦٥)، وقال: «لا نعلم أسنده عن هشيم إلا عثمان». وأخرجه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١٤٥٠).

(٣) انظر: «علل الدارقطني» (٣٦٠٤).

(٤) وقع في (ف): «من زكريا، عن حفص»، وفي (س): «بن زكريا، عن جعفر»، وفي (ت) و(ق): «نصر بن زكريا، عن حفص»، وما أثبته هو اجتهاد أوصل إليه البحث في الرواة، كما في الحاشية التالية، والله أعلم.

(٥) نصر بن زكريا، له ترجمة في «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٦٢/ ٣٤)، وفي «ميزان الاعتدال» =

وقد رُوِيَ عن عائشةَ مِنْ وجهٍ آخرَ خرَّجَه الطَّبَرانيُّ والبزَّارُ مِنْ روايةِ عمرَ بنِ راشدٍ مولى عبدِ الرَّحمنِ بنِ أبانَ بنِ عثمانَ، عن محمَّدِ بنِ عَجْلانَ، عن هشامِ بنِ عُرْوةَ، عن أبيه، عن عائشةَ رضي الله عنها، عن النَّبيِّ ﷺ[١]. وعمرُ بنُ راشدٍ هذا قال ابنُ عَدِيٍّ: هو مجهولٌ[٢].

* ورُوِيَ مِنْ حديثِ عثمانَ بنِ عفَّانَ مِنْ روايةِ الفَضْلِ بنِ حمَّادٍ الأَزْدِيِّ، عن عبدِ الله بنِ عمرانَ القُرَشِيِّ، عن مالكِ بنِ دينارٍ، عن مَعْبَدٍ الجُهَنِيِّ، عن عثمانَ بنِ عفَّانَ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «الحُمَّى حظُّ المؤمنِ مِنَ النَّارِ يومَ القيامة».

خرَّجَه ابنُ أبي الدُّنيا والعُقيليُّ[٣]، وقال في ابن عمرانَ: لا يُتابعُ على حديثِه.

= للذهبي (٤/ ٢٥١)، وفي «لسان الميزان» لابن حجر (٨١١٣).

وأما حفص بن عبد الله البلخي، كما في (ت) و(ف) و(ق)، أو جعفر بن عبد الله البلخي، كما في (س) فلا وجود لهما في الرواة بحسب ما أمكن تتبعه.

لكن يوجد فيمن روى عن هشيم: جمعة بن عبد الله البلخي، أبو بكر السلمي، المتوفى (٢٣٣هـ) رحمه الله من رجال البخاري، وترجم له في «تهذيب الكمال» للمزي (٢/ ١٢٠).

فلعل: حفص، أو جعفر مصحف من جمعة، خاصة وأن النسخ غير سالمة من التصحيف والأسقاط. والله أعلم.

على أن هذه الترجمة: (نصر بن زكريا، عن جمعة بن عبد الله، عن هشيم) شاذة بمرة لم أقف على حديث رُوي بها! ولم أظفر بما ذكره المصنف رحمه الله.

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣٣١٨) و«الصغير» (٣١٤) بلفظ: «إن جبريل عليه السلام أخبرني أن الحمى حظ أمتي من جهنم»، ولعله مما فقد من مسند البزار، ولم يعزه الهيثمي في المجمع (٣٨٦٩) إليه.

(٢) في: «الكامل في ضعفاء الرجال» لابن عدي (٥/ ٤٢٥) قال: «شيخ مجهول».

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (١٥٧)، والعقيلي في «الضعفاء الكبير» (٢/ ٢٨٧)، (٣/ ٤٤٨).

قال: وإسنادُه غيرُ محفوظٍ، والمتنُ معروفٌ بغير هذا الإسنادِ[1]. وقال في موضعٍ آخرَ: في إسنادِه نظرٌ. قال: وهذا يُروى مِنْ غيرِ هذا الوجهِ بإسنادٍ أصلحَ مِنْ هذا يثبُتُ وهو صحيحٌ، انتهى[2].

ومَعْبَدٌ الجُهَنيُّ هو القدَريُّ المبتدِع.

* ورُوِيَ مِنْ حديثِ أبي رَيحانةَ مِنْ روايةِ عِصْمَةَ بنِ سالمِ الهُنَائيِّ، عن أشعثَ الحُدَّانيِّ، عن شَهْرِ بنِ حَوْشَبٍ، عن أبي رَيحانة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «الحُمَّى كِيرٌ مِنْ جهنَّمَ، وهي نصيبُ المؤمنِ مِنَ النَّارِ». خرَّجَه ابنُ أبي الدُّنيا وغيرُه[3].

* ورُوِيَ مِنْ حديثِ أنسٍ، خرَّجَه[4] الطَّبرانيُّ مِنْ حديثِ الشَّاذَكُونيِّ، ثنا عُبَيْس[5] بنُ ميمون، عن قتادةَ، عن أنسٍ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «الحُمَّى حظُّ المؤمنِ مِنَ النَّارِ»[6]. إسنادُه ضعيفٌ.

* وقد رُوِيَ أيضاً مِنْ حديثِ ابنِ مسعودٍ، ولا يصِحُّ أيضاً[7].

---

(١) انظر: «الضعفاء الكبير» للعقيلي (٢/ ٢٨٧). وقال: «وقد روي في هذا أحاديث مختلفة في الأعداد بأسانيد صالحة».

(٢) انظر: «الضعفاء الكبير» للعقيلي (٣/ ٤٤٨)، وقوله: «يثبت وهو صحيح» ليس في المطبوع.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (٢١)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٢٢١٧) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٣٨٦)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٦/ ٣٦٠).

(٤) في (س): «رواه».

(٥) «عبيس» تصحف في النسخ إلى: «عيسى»! وكذلك في «مجمع الزوائد» (٢/ ٣٠٦) [illegible] ومن نقل عنها.

(٦) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧٥٤٠). وأبو نُعيم في «معرفة الصحابة» ([illegible]).

(٧) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٦٢) وتتمته: «وحمى ليلة يكفر [illegible]».

* ورُوِيَ مرسلاً، خرَّجَه محمَّدُ بنُ سعدٍ في «طبقاتِه»: حدثنا أبو نُعيمٍ الفضلُ بنُ دُكَينٍ، حدَّثنا إسماعيلُ بنُ مسلمٍ العَبْدِيُّ، حدَّثنا أبو المتوكِّلِ أنَّ نبيَّ اللهِ ﷺ ذكَرَ الحُمَّى، فقال: «مَنْ كانت به فهي حَظُّه مِنَ النَّارِ»، فسألَها سعدُ بنُ معاذٍ ربَّه فلزِمَتْه، فلم تُفارِقْه حتَّى فارقَ الدُّنيا[1].

* ورُوِيَ عن مجاهدٍ قال: الحمى... مِنْ قولِه، خرَّجَه ابنُ أبي الدُّنيا مِنْ روايةِ عثمانَ بنِ الأسودِ، عن مجاهدٍ قال: الحُمَّى حَظُّ كلِّ مؤمنٍ مِنَ النَّارِ، ثمَّ قرأ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]، والورودُ في الدُّنيا هو الورودُ في الآخرةِ[2].

* * *

اعلمْ أنَّ اللهَ خلقَ الجنَّةَ والنَّارَ، ثمَّ خلقَ بني آدمَ، وجعلَ لكلِّ واحدةٍ مِنَ الدَّارينِ أهلاً منهم، ثمَّ بعثَ الرُّسُلَ مُبشِّرين ومُنذِرين، يُبَشِّرون بالجنَّةِ مَنْ آمنَ وعمِلَ صالحاً، ويُنذِرون بالنَّارِ مَنْ كفرَ وعصى، وأقامَ أدلَّةً وبراهينَ دلَّت على صدقِ رُسُلِه فيما أخبروا به عن ربِّهم مِنْ ذلك، وأشهدَ عبادَه في هذه الدَّارِ آثاراً مِنَ الجنَّةِ وآثاراً مِنَ النَّارِ، فأشدُّ ما يجدُه النَّاسُ مِنَ الحرِّ مِنْ فَيْحِ جهنَّمَ، وأشدُّ ما يجدونه مِنَ البَرْدِ مِنْ زَمْهَريرِ جهنَّمَ، كما صحَّ ذلك عن النَّبيِّ ﷺ[3].

---

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٣٨٩).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٥٩٧)، وابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (٢٠).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٦٠)، ومسلم (٦١٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. ولفظ البخاري: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: رب أكل بعضي بعضاً، فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير».

ورُوِيَ: أنَّ بَرْدَ السَّحَرِ الَّذي يشهدُه[١] النَّاسُ كلَّ ليلةٍ مِنْ بَرْدِ الجنَّةِ حين تُفَتَّحُ سَحَراً كلَّ ليلةٍ[٢].

ورُوِيَ عن عبدِ اللهِ بنِ عمرو: أنَّ الجنَّةَ معلَّقَةٌ بقرون الشَّمسِ تُنْشَرُ كلَّ عامٍ مرَّةً[٣].

يُشيرُ إلى زمنِ الرَّبيعِ وما يظهرُ فيه مِنَ الأزهارِ والثِّمارِ، وطيبِ الزَّمانِ واعتدالِه في الحرِّ والبَرْدِ.

وأبلغُ مِنْ هذا كلِّه أنَّ الله تعالى أشهدَ عبادَه في نفوسِهم آثاراً محسوسةً يجدونها ويحسُّونها مِنْ آثارِ الجنَّة والنَّارِ.

فأمَّا ما يجدونه مِنْ آثارِ الجنَّةِ، فما يتجلَّى لقلوبِ المؤمنين مِنْ آثارِ أنوارِ الإيمانِ، وتجلِّي الغيبِ لقلوبِهم، حتَّى يصيرَ الغيبُ كالشَّهادةِ لقلوبِهم في مقامِ الإحسانِ،

---

(١) في (س): «يجده».

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (٧٥) من حديث جابر رضي الله عنه بلفظ: «يقول الله عز وجل كل يوم للجنة: طيبي لأهلك، فتزداد طيبا، فذلك البرد الذي يجده الناس بسحر من ذلك».
ومدار الحديث على يوسف بن موسى السكري، عن عمرو بن عبد الغفار الفقيمي، وقد ذكره المصنف في أول كتابه «استنشاق نسيم الأنس» وقال في عمرو بن عبد الغفار: «وهو ضعيف».

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٥١١١)، والطبراني في «الكبير» (١٤١٦٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٩٠) وفي ألفاظهم: «الجنة مطوية معلقة».
وذكر ابن القيم رحمه الله تعالى هذا الأثر في «حادي الأرواح» (ص ٩٧)، وقال: «فهذا قد يظهر منه التناقض بين أول كلامه وآخره ولا تناقض فيه، فإن الجنة المعلّقة بقرون الشّمس: ما يحدثه الله سبحانه وتعالى بالشمس في كلِّ سنة مرة من أنواع الثمار والفواكه والنبات جعله الله تعالى مذكراً بتلك الجنّة، وآية دالَّة عليها، كما جعل هذه النار مذكرة بتلك، وإلا فالجنة التي عرضها السماوات والأرض ليست معلقة بقرون الشمس، وهي فوق الشمس وأكبر منها».

فرُبَّما تخيَّلت[١] الجنَّةُ أوْ بعضُ ما فيها لقلوبِهم أحياناً حتَّى يرونها كالعَيانِ، وربَّما استنشقوا مِنْ أراييحِها، كما قال أنسُ بنُ النَّضْرِ يومَ أُحُدٍ: واهاً لريحِ الجنَّةِ، واللهِ إنِّي لَأجدُ ريحَ الجنَّةِ مِنْ قِبَلِ أُحُدٍ[٢].

وأمَّا ما يجدونه مِنْ آثارِ النَّارِ، فما يجدونه مِنَ الحُمَّى، فإنَّها مِنْ فَيْحِ جهنَّمَ، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «الحُمَّى مِنْ فَيْحِ جهنَّمَ، فأطفِئوها بالماءِ»[٣].

وهي نوعان: حارَّةٌ وباردةٌ، فالحارَّةُ مِنْ آثارِ سَمومِ جهنَّمَ، والباردةُ مِنْ آثارِ زَمْهَريرِ جهنَّمَ.

وروى ابنُ إسحاقَ عن محمَّدِ بن عمرو بنِ عطاءٍ، عن أبي السَّائبِ مولى عبدِ اللهِ بنِ زهرةَ، عن أبي هريرةَ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إنَّ النَّارَ استأذنَتْ ربَّها في نفَسينِ، فأذِنَ لها، فأمَّا أحدُهما فهذه الجَذْوَةُ الَّتي تُصيبُكم مِنَ السَّماءِ، وأمَّا الآخر[٤] فهذه الحُمَّى الَّتي تُصيبُكم، فإذا اشتدَّتْ على أحدِكم فليُطْفِئها عنه بالماءِ البارد». خرَّجه أبو أحمدَ الحاكمُ، وإسنادُه جيِّدٌ، وهو غريبٌ جدًّا[٥].

فإذا كانت الحُمَّى مِنَ النَّارِ، ففي هذه الأحاديثِ السَّابقةِ أنَّها حَظُّ المؤمنِ مِنْ نارِ جهنَّمَ يومَ القيامةِ، والمعنى ـ واللهُ أعلمُ بمراده[٦] ـ أنَّ حرارةَ الحُمَّى في الدُّنيا تكفِّرُ ذنوبَ المؤمنِ وتطهِّرُها حتَّى يلقى اللهَ بغيرِ ذنبٍ، فيلقاه طاهراً مُطَهَّراً مِنَ

---

(١) في (س): «تجلت».

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٠٥)، ومسلم (١٩٠٣) من حديث أنس رضي الله عنه، واللفظ: «دون أحد».

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٢٣) واللفظ له، ومسلم (٢٢٠٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) في (س): «الأخرى».

(٥) أخرجه أبو أحمد الحاكم في «الأسامي والكنى» (٤/ ١٦٤ ـ ١٦٥). وعنده: «الحرورة» بدل «الجذوة» ولعل ما عنده أصوب.

(٦) «بمراده» من (س).

الخَبَثِ، فيصلُحُ لمجاورتِه في دارِ كرامتِه دارِ السَّلامِ، ولا يحتاجُ إلى تطهيرٍ في كِيرِ جهنَّمَ غداً، حيثُ لم يكن فيه خَبَثٌ يحتاجُ إلى تطهيرٍ، وهذا في حقِّ المؤمنِ الّذي حقَّقَ إيمانه[1]، ولم يكن له ذنوبٌ إلَّا ما تُكَفِّرُه الحُمَّى وتُطهِّرُه.

وقد تواترَتِ النُّصوصُ عنِ النَّبيِّ ﷺ بتكفير الذُّنوبِ بالأسقامِ والأَوْصابِ، وهي كثيرةٌ جدًّا يطولُ ذكرُها، ونحن نذكرُ ها هنا مِنْ ذلك بعضَ النُّصوصِ المصرِّحةِ بتكفيرِ الحُمَّى:

ففـي «صحيـحِ مسلمٍ» عن جابرٍ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ دخَلَ على أمِّ السَّائبِ أو أمِّ المسيَّبِ، فقال: «ما لكِ تُزَفْزِفِينَ؟»[2]، قالت: الحُمَّى، لا باركَ اللهُ فيها، قال: «لا تَسُبِّي الحُمَّى، فإنَّها تُذْهِبُ خطايا بني آدمَ كما يُذْهِبُ الكِيرُ الخَبَثَ»[3].

وخرَّجَ ابنُ ماجَهْ مِنْ حديثِ أبي هريرةَ، عن النَّبيِّ ﷺ معناه[4].

وخرَّجَ الحاكمُ مِنْ حديثِ عبدِ الرَّحمنِ بنِ أزهرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «مثَلُ العبدِ المؤمنِ حينَ يُصيبُه الوَعكُ والحُمَّى كمثلِ حديدةٍ تدخلُ النَّارَ، فتُذْهِبُ خبثَها، وتُبقي طِيبَها».

وقال: صحيحُ الإسنادِ[5]. وقال غيرُه مِنَ الحُفَّاظ: لا أعلمُ له عِلَّةً[6].

---

(١) في حاشية (ت) وحاشية (ف) و(س): «الإيمان».

(٢) تزفزفين: أي: تتحركين حركة شديدة، أي: ترعدين. كما في شرح مسلم للنووي. ولم يتقن ناسخ (ف) كتابتها.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٧٥) وعنده: «كما يذهب الكير خبث الحديد».

(٤) أخرجه ابن ماجه (٣٤٦٩).

(٥) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٧٣) ووقع في (س): «فيذهب خبثها ويبقى طيبها».

(٦) هو الحافظ الضياء المقدسي في جزئه «الأمراض والكفارات والطب والرقيات» (١٨) وعزاه إلى مسلم، وليس فيه، وجَعَلَه المعلِّقُ عليه من حديث جابر رضي الله عنه السابق!

وخرَّجَ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حديثِ عائشةَ أنَّها سألت النَّبيَّ ﷺ عن قولِه تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، وعن قولِه: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]، فقال: «هذه متابعة[١] اللهِ العبدَ بما يُصيبُه مِنَ الحُمَّى والنَّكْبَةِ، حتَّى البضاعةُ يضَعُها في جَيْبِ قميصِه فيفقِدُها فيفزعُ لذلك، حتَّى إنَّ العبدَ ليخرجُ مِنْ ذنوبِه كما يخرُجُ التِّبْرُ الأحمرُ مِنَ الكِيرِ». وقال: حسنٌ غريبٌ[٢].

وخرَّجَ ابنُ أبي الدُّنيا مِنْ حديثِ أبي الدَّرداءِ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الحُمَّى والمليلةَ لا يزالان بالمؤمن وإنَّ ذَنْبَه مِثْلُ أحدٍ، فما يدَعانه وعليه مِنْ ذنبِه مثقالُ حبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ»[٣].

وخرَّجَه الإمامُ أحمدُ وعنده: «إنَّ الصُّداعَ والمَلِيلةَ»[٤].

وخرَّجَ الطَّبرانيُّ مِنْ حديثِ أُبيِّ بنِ كعبٍ أنَّه قال: يا رسولَ اللهِ! ما جزاءُ الحُمَّى؟ قال: «تجري الحسناتُ على صاحبِها ما اخْتَلَجَ عليه قَدَمٌ، أو ضَرَبَ عليه عِرْقٌ»، فقال أُبيُّ بنُ كعبٍ: «اللَّهُمَّ إنِّي أسألك حُمَّى لا تمنعُني خروجاً في سبيلك، ولا خروجاً إلى بيتك، ولا مسجدِ نبيِّكَ، قال: فلم يُمَسَّ قطُّ إلا وبه الحُمَّى[٥].

---

(١) هو موافق لما في مسند الإمام أحمد، لكن عند الترمذي: «معاتبة»! ولم يُجِدْ ناسخُ (س) رسمها، فكتب: «ما أمسه»!.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٩١)، وقال: حديث حسن غريب من حديث عائشة، لا نعرفه إلا من حديث حماد بن سلمة. وفي بعض نسخ الترمذي «يد قميصه» وفي بعضها: «كم قميصه».

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (٢١٩) وفيه: «تزالان» و«تدعانه» بالتاء.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢١٧٣٦)، وابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (٤١). والمليلة: الحُمَّى التي تكون في العظم. قاله المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤/ ١٥١).

(٥) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٥٤٠)، و«الأوسط» (٤٤٥). ورواه الضياء المقدسي من طريقه في «الأحاديث المختارة» (١٢٦٩). وفي حاشية (ت) و(ق): «إلا وبه حمى».

ومعنى إجراءِ الحسناتِ عليه: كتابةُ ما كان يعملُه في الصِّحَّةِ ممَّا منعَتْه منه الحُمَّى، كما وردَ تفسيرُه في أحاديثَ أُخَرَ صريحاً[1].

وكان النَّبيُّ ﷺ إذا عادَ مَنْ به الحُمَّى قال له: «طَهورٌ إنْ شاءَ اللهُ»، يعني: أنَّها تطهيرٌ مِنَ الذُّنوبِ والخطايا.

ففي «صحيحِ البخاريِّ» عن ابنِ عبَّاسٍ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان إذا دخلَ على مريضٍ يعودُه قال: «لا بأسَ، طَهورٌ إن شاء الله»، فدخلَ على أعرابيٍّ يعودُه، فقال له: «لا بأسَ، طَهورٌ إن شاء الله»، فقال الأعرابيُّ: طهور؟! بل حُمَّى تفور، على شيخٍ كبيرٍ تُزِيرُه القبور، قال النَّبيُّ ﷺ: «فنَعَمْ إذاً»[2]. يعني: أنَّه لم يقبلِ الطَّهارةَ بل ردَّها، أخبرَ عن حُمَّاهُ بما أخبرَ به عن نفسِه، فحصلَ له ما اختارَه لنفسِه دونَ ما رَدَّه.

وقد خرَّجَه أبو نُعَيمٍ في «تاريخ أَصْبَهانَ» مِنْ حديثِ شُرَحْبِيلَ بنِ السِّمْطِ، قال: سنَحَ[3] أعرابيٌّ إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله! شيخٌ كبيرٌ، وحُمَّى تَفُور، في عظامِ شيخٍ كبيرٍ، تُزِيرُه القبورَ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «بل كفَّارةٌ وطَهورٌ»، فقالها ثلاثاً، فأعادَها عليه: «بل كفَّارةٌ وطَهورٌ»، فقال له النَّبيُّ ﷺ في الثَّالثةِ: «فنَعَمَ إذاً، إنَّ اللهَ إذا قضى على عبدٍ قضاءً لم يكن لقضائِه مردٌّ»[4].

وفي «مسند الإمامِ أحمدَ» عن أنسٍ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ دخلَ على أعرابيٍّ يعودُه وهو

---

(١) في (س): «صريحة».

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٦).

(٣) هكذا واضحة مجودة مضبوطة في (ف)، وكذا جاءت في (ت) و(ق). ووقع في (س): «شيخ...» وفي المطبوع من «تاريخ أصبهان»: «جاء شيخ أعرابي».

(٤) أخرجه أبو نعيم في «ذكر أخبار أصبهان» (١/ ٢٩٠).

محمومٌ، فقال: «كفَّارةٌ وطَهورٌ»، فقال الأعرابيُّ: «بل حُمَّى تفور، على شيخٍ كبيرٍ، تزيرُه القبورَ»، فقامَ رسولُ الله ﷺ وتركَه[1].

وقال هشامٌ عن الحسنِ: يرجون في حُمَّى ليلةٍ كفَّارةً لِما مضى مِنَ الذُّنوبِ[2].

وقال حَوْشَبٌ عن الحسن رفعَه: إنَّ الله ليكفِّرُ عن المؤمنِ خطاياه كلَّها بحُمَّى ليلةٍ[3].

ورُوِيَ عن الحسنِ، عن أبي هريرةَ مرفوعاً بإسنادٍ ضعيفٍ[4].

وقال عبدُ الملكِ بنُ عُمَيرٍ: قال أبو الدَّرداءِ: حُمَّى ليلةٍ كفَّارةُ سنةٍ[5].

روى ذلك كلَّه ابنُ أبي الدُّنيا.

وقد قيلَ في مناسبةِ تكفيرِ حُمَّى ليلةٍ لذنوبِ سنةٍ: أنَّ القِوى كلَّها[6] تضعفُ بالحُمَّى، فلا تعودُ إلى ما كانت عليه إلى سنةٍ تامَّةٍ.

وفي مناسبةِ تكفيرِها للذُّنوبِ كلِّها: أنَّ الحُمَّى يأخذُ منها كلُّ أعضاءِ البدنِ ومفاصلِه قِسْطَه مِنَ الألمِ والضَّعفِ، فيكفِّرُ ذلك ذنوبَ البدنِ كلَّها.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٣٦١٦).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (٢٩)، ومن طريقه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٤٠١).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (٢٨) ثم قال: قال ابن المبارك: هذا من جيد الحديث. ومن طريقه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٣٩٩، ٩٤٠٠).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (٨٣) بلفظ: «من وعك ليلة فصبر ورضي بها عن الله عز وجل خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه». وسيأتي آخر الرسالة.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (٤٩)، ومن طريقه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٨٦٩).

(٦) سقطت «كلها» من (س)، وبيض لها الناسخ، وكتب في الحاشية: «لعله: البدنية».

وإذا كانت الحُمَّى بهذه المثابةِ، وأنَّها كفَّارةٌ للمؤمن وطهارةٌ له من ذنوبه[١]، فهي حظُّه مِنَ النَّارِ باعتبار ما سبقَ ذكرُه، فإنَّه لا يحتاجُ إلى الطَّهارةِ بالنَّارِ يومَ القيامةِ إلَّا مَنْ لقِيَ اللهَ وهو متلطِّخٌ بخبَثِ الذُّنوبِ.

وفي «التِّرْمِذِيِّ»: عن أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ أنَّه كان عند النَّبيِّ ﷺ فأقرأه هذه الآيَةَ حين أُنزِلَتْ: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]، قال: ولا أعلمُ إلَّا أنِّي وجدتُ في ظَهْري انقصاماً، فتمطَّأْتُ لها[٢]، وقلتُ: يا رسولَ الله! وأيُّنا لم يعملْ سوءاً؟! وإنَّا لمجزيُّون بما عمِلْنا، فقال رسولُ الله ﷺ: «أمَّا أنتَ يا أبا بكرٍ والمؤمنون فتُجزون بذلك في الدُّنيا حتَّى تلقَوا اللهَ وليس لكم ذنوبٌ، وأمَّا الآخرون فيُجْمَعُ ذلك لهم حتَّى يُجزوا به يومَ القيامةِ»[٣].

وفي «مسند بَقِيِّ بنِ مَخْلَدٍ» بإسنادٍ جيِّدٍ عن عائشة: أنَّ رجلاً تلا هذه الآيَةَ: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١١٠]، فقال: إنَّا لَنُجْزَى بكلِّ عملٍ عمِلنا؟[٤] هلَكْنا إذاً، فبلغَ ذلك رسولَ الله ﷺ، فقال: «نعم، يُجْزَى به المؤمنُ في الدُّنيا، في نفسِه، في جسدِه، [فيما يؤذيه][٥]»[٦].

---

(١) في حاشية (س): ن: «تأخذ من ذنوبه».

(٢) وقع مثل هذا اللفظ في حديث آخر للزبير بن العوام في «صحيح البخاري» (٣٩٩٨)، قال القاضي عياض في «مشارق الأنوار» (١/ ٣٧٨): «التمطي معلوم غير مهموز، ووقع في الأصل مهموزاً «تمطأت» وهو وهم من النقلة. قيل: هو التمدد... وقيل: أصله الطاء من المطا وهو الظَّهر». فالتمطي يمد ظهره.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٠٣٩) وقال: هذا حديث غريب، وفي إسناده مقال.

(٤) في (ف): «عملناه».

(٥) تصحفت في جميع النسخ إلى: «فما دونه»، والمثبت من مصادر التخريج.

(٦) أشار إليه الترمذي في أحاديث الباب (٣٠٣٩)، وأخرجه الإمام أحمد (٢٤٣٦٨)، وأبو يعلى (٤٦٧٥) (٤٨٣٩)، وابن حبان (٢٩٢٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٣٤٩).

وأمَّا ما رُوِيَ عن مجاهدٍ: أنَّ الحُمَّى في الدُّنيا هو ورودُ جهنَّمَ يومَ القيامةِ[١]، فإنْ صحَّ عنه فله معنىً صحيحٌ، وهو أنَّ ورودَ النَّارِ في الآخرةِ قدِ اختلَفَ فيه الصَّحابةُ على قولين:

أحدُهما: أنَّه المرورُ على الصِّراطِ، كقولِ ابنِ مسعودٍ.

والثَّاني: أنَّه الدُّخولُ فيها، كقولِ ابنِ عبَّاسٍ[٢].

فمَنْ قالَ: هو[٣] المرورُ على الصِّراطِ فإنَّه يقولُ: إنَّ مرورَ المؤمنين على الصِّراطِ بحسبِ إيمانِهم وأعمالِهم، كما صحَّتْ به النُّصوصُ النَّبويَّةُ، فمَنْ كمُلَ إيمانُه نجا ولم يتأذَّ بالنَّارِ، ولم يَسْمَعْ حسيسَها، ومَنْ نقصَ إيمانُه فإنَّه قد تخدِشُه الكلاليبُ، أو يتكرْدَسُ في النَّارِ بحسبِ ما نقصَ مِنْ إيمانِه، ثمَّ ينجو[٤].

ومَنْ قالَ: هو دخولُ النَّارِ، فإنَّه يقولُ: إنَّ المؤمنين الَّذين كمُلَ إيمانُهم لا يحسُّون بحرِّها بالكليَّةِ[٥].

وفي «المسندِ» عن جابرٍ مرفوعاً: «لا يبقى أحدٌ إلَّا دخلَها، فأمَّا المؤمنون فتكون عليهم برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيمَ، حتَّى إنَّ للنَّارِ لضجيجاً مِنْ بَرْدِهم»[٦].

وفي حديثٍ آخرَ: «تقولُ النَّارُ للمؤمن: جُزْ يا مؤمنُ، فقد أطفأَ نورُكَ لهَبي»[٧].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه عنهما الطبري في «تفسيره» [مريم: ٧١].

(٣) في (س): «إنه».

(٤) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣) في حديث طويل لأبي سعيد رضي الله عنه.

(٥) **هنا تنتهي النسخة (ت) وما بعده مخروم منها.**

(٦) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٤٥٢٠) وفي لفظه هنا اختصار.

(٧) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٦٦٨). من حديث يعلى بن منية رضي الله عنه.

وقـال بعـضُ التَّابعين: إذا قطعَ المؤمنون الصِّراطَ يقول بعضُهم لبعضٍ: ألَمْ يعِدْنا ربُّنا أنْ نرِدَ النَّارَ؟ فيقولون: نعَمْ، ولكن وَرَدتُموها وهي خامدةٌ[١].

فعلى كلا القولينِ: المؤمنون[٢] الَّذين كمُلَ إيمانُهم لا يحسُّون بحرِّ جهنَّمَ، ولا يتأذَّون به عند الورودِ عليها، فيكون ما أصابَهم في الدُّنيا مِنْ فَيْحِ جهنَّمَ بالحُمَّى هو حظَّهم مِنَ النَّارِ، فلا يحصُلُ لهم شعورٌ وإحساسٌ بحرِّ النَّارِ سِوى إحساسِهم بحرِّ الحُمَّى في الدُّنيا، فهذا هو معنى ما وردَ أنَّ «الحُمَّى حظُّ المؤمنِ مِنَ النَّارِ»، وأنَّها «حظُّهم مِنْ ورودِ النَّارِ يومَ القيامةِ»[٣]، واللهُ أعلمُ.

وقد كانت الحُمَّى تشتدُّ على رسولِ الله ﷺ؛ لعِظَمِ درجتِه عند الله، وكرامتِه عليه، وإرادتِه رفعةَ درجتِه عنده.

فروى ابنُ مسعودٍ قال: دخلتُ على رسولِ الله ﷺ وهو يحمُّ، فوضعتُ يدي عليه، فقلتُ: ما أشدَّ حُمَّاك! وإنَّكَ لتُوعكَ وَعْكاً شديداً، قال: «أجل، إنِّي أُوعَكُ كما يُوعَكُ رجلان منكم، أما إنَّه ليس مِنْ عبدٍ مؤمنٍ ولا أمَةٍ مؤمنةٍ يمرضُ مرضاً إلَّا حطَّ اللهُ عنه خطاياه كما يحُطُّ عن الشَّجَرةِ ورقُها»[٤]. خرَّجَه البخاريُّ بمعناه، وهذا لفظُ ابنِ أبي الدُّنيا.

وفي روايةٍ للبخاريِّ[٥]: قلتُ: ذلك أنَّ[٦] لكَ أجرين؟ قال: «أجل».

---

(١) أخرجه نعيم بن حماد في «زوائد الزهد لابن المبارك» (٢/ ١٢٢) مختصراً، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢١٢) بنحوه من كلام خالد بن معدان رحمه الله تعالى.

(٢) في حاشية (س): «إن المؤمنين».

(٣) كلاهما قد تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه البخاري (٥٦٤٧)، ومسلم (٢٥٧١)، وابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (٢٢٥) واللفظ له، لكن ليس فيه ذكر الأمة المؤمنة.

(٥) في (ق): «وفي لفظ البخاري»، وفي (س): «وفي رواية البخاري».

(٦) في حاشية (ف): «أي لأن».

وخرَّجَ ابنُ ماجهْ مِنْ حديثِ أبي سعيدٍ الخدريِّ قال: دخلتُ على النَّبيِّ ﷺ وهو يُوعَكُ، فوضعتُ يدِي عليه، فوجدتُ حرَّه بين يديَّ فوق اللِّحافِ، فقلتُ: يا رسولَ الله! ما أشدَّها عليكَ! قال: «إنَّا كذلك يُضعَّفُ لنا البلاءُ، ويُضعَّفُ لنا الأجرُ»[1].

وفي «المسند» عن فاطمةَ بنتِ عُتْبَةَ قالت: أتينا رسولَ اللهِ ﷺ نعودُه في نِساءٍ[2]، فإذا سقاءٌ معلَّقٌ نحوَه يقطرُ ماؤُه عليه مِنْ شدَّةِ ما يجدُ مِنْ حرِّ الحُمَّى، فقلنا: يا رسولَ الله! لو دعوتَ اللهَ شفاكَ، فقال: «إنَّ مِنْ أشدِّ النَّاسِ بلاءً: الأنبياءَ، ثمَّ الَّذين يلونَهم، ثمَّ الَّذين يلونهم»[3].

وقد جعلَ النَّبيُّ ﷺ مَنْ لا تصيبُه الحُمَّى والصُّداعُ مِنْ أهلِ النَّارِ، فجعلَ ذلك مِنْ علاماتِ أهلِ النَّارِ، وعكسَه مِنْ علاماتِ المؤمنين.

ففي «المسند» و«النَّسائيِّ»: عن أبي هريرةَ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لأعرابيٍّ: «هل أخذتكَ أمُّ مِلْدَمٍ؟»، قال: يا رسولَ الله! وما أمُّ مِلْدَمٍ؟ قال: «حَرٌّ يكونُ بين الجلدِ والدَّمِ»، قال: ما وجدتُ هذا، قال: يا أعرابيُّ! هل أخذَكَ هذا الصُّداعُ؟ فقال: يا رسولَ الله! وما الصُّداعُ؟ قال: عروقٌ تضربُ على الإنسانِ في رأسِه، قال: ما وجدتُ هذا، فلمَّا ولَّى قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ أحبَّ أنْ ينظُرَ إلى رجلٍ مِنْ أهلِ النَّارِ فلينظرْ إلى هذا»[4].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠٢٤).

(٢) في حاشية (ف): «في هذا الحديث حجة على عيادة النساء للرجال». اهـ. وقد ترجم البخاري رحمه الله: «باب عيادة النساء الرجال» (٧/ ١١٦)، ولو كان الرجالُ من الأجانب بشرط التستر المأمور به، مع عدم الخلوة بإحداهن.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢٧٠٧٩).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٨٣٩٥)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٧٦٤٨) واللفظ له.

وخرَّجَ الطَّبرانيُّ مِنْ حديثِ أنسٍ: أنَّ أعرابيًّا أتـى النَّبيَّ ﷺ فقال: «متى عهدُكَ بأمِّ مِلْدَمٍ؟»، قال: وما أمُّ مِلْدَمٍ؟ قال: «حَرٌّ يكونُ بين الجلدِ والعَظْمِ، يمصُّ الدَّمَ ويأكُلُ اللَّحمَ»، قال: ما اشتكيتُ قطُّ، فقال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ أرادَ أنْ ينظرَ إلى رجلٍ مِنْ أهلِ النَّارِ، فلينظرْ إلى هذا»، ثمَّ قال: «أخرِجوه عنِّي»[1].

وفي «المسندِ» عن أبيِّ بنِ كعبٍ قال: دخلَ رجلٌ على النَّبيِّ ﷺ فقال: «متى عهدُكَ بأمِّ مِلْدَمٍ؟ وهو حَرٌّ بين الجِلْدِ واللَّحمِ، قال: إنَّ ذلكَ لوَجَعٌ ما أصابَني قطُّ، فقال رسولُ الله ﷺ: «مثَلُ المؤمنِ مثَلُ الخامةِ[2]، تَحْمَرُّ مرَّةً وتَصْفَرُّ أخرى»[3].

وقد اختارَ النَّبيُّ ﷺ الحُمَّى لأمَّتِه عموماً، ولأهلِ مدينتِه خصوصاً، وللأنصارِ مِنْ أهلِ قُباءَ خصوصاً.

فأمَّا الأوَّلُ، ففي «المسند» عن أبي قِلابةَ قال: نُبِّئْتُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ بينما هو ذاتَ ليلةٍ يُصلِّي، قال في دعائِه: «فحُمَّى إذاً أو طاعونٌ» قالها ثلاثَ مرَّاتٍ، فلمَّا أصبحَ سألَه إنسانٌ مِنْ أهلِه عن ذلك، فقال: «إنِّي سألتُ ربِّي أنْ لا يُهلِكَ أمَّتي بسَنَةٍ، فأعطانيها، وسألتُه أنْ لا يُسَلِّطَ عليهم عدوًّا مِنْ غيرِهم فيستبيحَهم، فأعطانيها، وسألتُه أنْ لا يَلْبِسَهم شِيَعاً، ويذيقَ بعضَهم بأسَ بعضٍ، فأبى عليَّ»، أو قال: «فمُنِعْتُ»، فقلتُ: «حُمَّى إذاً أو طاعوناً، حمَّى إذاً أو طاعوناً» يعني: ثلاثَ مرَّاتٍ[4].

وأمَّا الثَّاني، ففي «المسندِ» أيضاً عن أبي عَسيبٍ مَوْلى النَّبيِّ ﷺ، عن النَّبيِّ ﷺ

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٩٠٥).

(٢) الخامة: الغضة اللينة من الزرع. انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٢/ ٨٩).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢١٢٨٢).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢١٣٦).

قال: «أتاني جبريلُ بالحُمَّى والطَّاعونِ، فأمسكتُ الحُمَّى بالمدينةِ، وأرسلتُ الطَّاعون إلى الشَّامِ، فالطَّاعونُ شهادةٌ لأمَّتي، ورحمةٌ لهم، ورِجْزٌ على الكافر»[1].

ولا يُنافي هذا ما في «الصَّحيحِ» عن عائشةَ قالتْ: لما قدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينةَ وُعِكَ أبو بكرٍ وبلالٌ، فكان أبو بكرٍ إذا أخذَتْه الحُمَّى يقولُ:

كلُّ امرئٍ مُصبَّحٌ في أهلِه ... والموتُ أدنى مِنْ شِراكِ نَعْلِه

وكان بلالٌ إذا أُقْلِعَ عنه يرفعُ عَقيرتَه يقولُ:

ألا ليتَ شِعْري هلْ أَبيتَنَّ ليلةً ... بوادٍ وحولي إِذْخِرٌ وجليلُ

وهلْ أرِدَنْ يوماً مياهَ مَجَنَّةٍ ... وهلْ يَبْدُوَنْ لي شامةٌ وطَفِيلُ

اللَّهُمَّ العنْ شيبةَ بنَ ربيعةَ وعُتبةَ بنَ ربيعةَ وأميَّةَ بنَ خلفٍ، كما أخرجونا مِنْ أرضِنا إلى أرضِ الوَباءِ، ثمَّ قال رسولُ اللهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ حبِّبْ إلينا المدينةَ كحُبِّنا مكَّةَ أو أشدَّ، اللَّهُمَّ باركْ لنا في صاعِنا وفي مُدِّنا، وصحِّحْها لنا، وانقُلْ حُمَّاها إلى الجُحْفَةِ»، قالت: وقدِمْنا المدينةَ وهي أَوْبأُ أرضِ الله، قالت: فكان بُطْحانُ يَجْري نَجْلاً، يعني: ماءً آجِناً[2].

فإنَّ المرادَ بالحُمَّى في هذا الحديثِ الوباءُ، وهو وَخَمُ الأرضِ وفسادُها، وفسادُ مائِها وهوائِها المقتضِي للمرضِ.

وقد نُقِلَ ذلك مِنَ المدينةِ إلى الجُحْفَةِ، كما في «صحيحِ البخاريِّ» عن ابن عمرَ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «رأيتُ امرأةً سوداءَ ثائرةَ الرَّأسِ خرَجت مِنَ المدينةِ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢٠٧٦٧) إلا أنه قال: «ورجس». وفي (س): «على الكافرين».

(٢) أخرجه البخاري (١٨٨٩). والآجن: الماء المتغير الطعم واللون، وذلك من أسباب الأوبئة.

حتَّى قامَتْ بمَهْيَعَةٍ، وهي الجُحْفَةُ، فأوَّلتُها[1]: وباءُ المدينةِ يُنقَلُ إلى الجحفة»[2].

وأمَّا الحُمَّى المُعتادةُ، فهي الَّتي أمسكَها النَّبيُّ ﷺ بالمدينةِ، وهي الَّتي تكونُ بالأرضِ الطَّيِّبةِ والبلادِ الهَنِيَّة الصَّحيحةِ هواؤُها وماؤُها.

وأمَّا الثَّالثُ ـ وهو تخصيصُ الأنصارِ بها ـ، ففي «المسندِ» أيضاً و«صحيحِ ابنِ حبَّان» عن جابرٍ قال: استأذنت الحُمَّى على رسولِ الله ﷺ، قال: «مَنْ هذه؟»، قالت: أمُّ مِلْدَمٍ، قال: فأمرَ بها إلى أهلِ قُباءٍ، فلقوا منها ما يعلمُ اللهُ، فأتوه فشكوا ذلك إليه، قال: «ما شئتُمْ؟ إنْ شئتُمْ أنْ أدعوَ لكم يكشفها عنكم، وإنْ شئتُم أنْ تكونَ لكم طَهوراً»، قالوا: يا رسولَ الله! أوَ تفعلُ؟ قال: «نعم»، قالوا: فدَعْها[3].

وخرَّجَ الخلَّالُ في كتاب «العِلَلِ» مِنْ حديث سلمانَ الفارسيِّ قال: استأذنَتِ الحُمَّى على النَّبيِّ ﷺ فقال: «مَنْ أنتِ؟»، قالت: أنا الحُمَّى، أَبْرِي اللَّحمَ وأمُصُّ الدَّمَ، قال: «اذهبي إلى أهلِ قُباءَ» فأتَتْهم، فجاؤوا إلى رسولِ الله ﷺ وقد اصفرَّتْ وجوهُهم، فشكوا الحُمَّى إلى رسولِ الله ﷺ، فقال: «ما شئتُمْ؟ إنْ شئتُمْ دعوتُ اللهَ فكشفَها عنكم، وإنْ شئتُمْ تركتموها، فاستَنْظَفَتْ بقيَّةَ ذنوبِكم، قالوا: بل دَعْها يا رسولَ الله[4].

وقد كانَ كثيرٌ مِنَ السَّلَفِ الصَّالحِ يختارُ الحُمَّى لنفسِه؛ كما سبقَ عن أبيِّ بنِ كعبٍ أنَّه دعا الله لنفسِه بالحُمَّى.

ورُوِيَ مِنْ وجهٍ آخرَ مِنْ حديثِ أبي سعيدٍ الخُدْريِّ قال: قال رجلٌ للنَّبيِّ ﷺ: أرأيتَ هذه الأمراضَ الَّتي تُصيبُنا ما لنا بها؟ قال: «كفَّاراتٌ»، قال: أُبيٌّ: وإنْ قلَّتْ؟

---

(١) في (س): «فأولها».

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٣٨ ـ ٧٠٣٩).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٤٣٩٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٩٣٥).

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٦١١٣) وفي المطبوع: «فأسقطت بقية ذنوبكم».

قال: «وإنْ شَوْكَةً فما فوقَها»، قال: فدعا اللهَ أُبيٌّ على نفسِه أنْ لا يفارقَه الوَعْكُ حتَّى يموتَ في أنْ لا يشغلَه عن حجٍّ ولا عمرةٍ ولا جهادٍ في سبيلِ الله، ولا صلاةٍ مكتوبةٍ في جماعةٍ، فما مسَّهُ إنسانٌ إلَّا وجدَ حرَّها حتَّى ماتَ. خرَّجه الإمامُ أحمدُ وابنُ حبَّانَ في «صحيحِه» والحاكمُ وقال: على شرطِهما[1].

وخرَّجَ النَّسائيُّ أوَّلَ الحديثِ فقطْ[2]، وقد سبقَ عن سعدِ بنِ معاذٍ نحوُ ذلك[3].

وروى ابنُ أبي الدُّنيا بإسنادِه عن عطاءٍ، عن أبي هريرةَ قال: ما مِنْ مَرَضٍ أحبُّ إليَّ مِنْ هذه الحُمَّى، إنَّها تدخلُ في كلِّ مِفْصَلٍ، وإنَّ الله عزَّ وجلَّ يُعطي كلَّ مِفصَلٍ قِسْطَه مِنَ الأجرِ[4].

ووضعَ بعضُ ولدِ الإمامِ أحمدَ يدَه عليه، فقال له: كأنَّكَ محمومٌ، فقال أحمدُ: وأنَّى لي بالحُمَّى[5]؟!

ومع هذا كلِّه، فالمشروعُ سؤالُ العافيةِ لا سؤالُ البلاءِ، وقد كان النَّبيُّ ﷺ يأمرُ بسؤالِ العافيةِ، ويحثُّ عليه، وقال لمَنْ سألَ البلاءَ وتعجيلَ العقوبةِ له في الدُّنيا: «إنَّكَ لا تُطِيقُ ذلكَ، ألا قلتَ: ربَّنا آتنا في الدُّنيا حسنةً وفي الآخرةِ حسنةً وقِنا عذابَ النَّارِ؟!»[6].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١١١٨٣) واللفظ له، وابن حبان في «صحيحه» (٢٩٢٨)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣٠٨) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٢) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٧٦٤٦) بلفظ: «أن رجلاً قال: يا رسول الله! ما لنا في هذه الأمراض؟ قال: كفارات، قال أبي: وإن قلت؟ قال: ولو شوكة.

(٣) إنما سبق من حديث أُبيٍّ نفسه رضي الله عنه.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (٢٤٠).

(٥) أخرجه ابن الجوزي في «مناقب الإمام أحمد» (ص ٣٣٢).

(٦) أخرجه مسلم (٢٦٨٨) من حديث أنس رضي الله عنه بلفظ: «أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من =

وسمِعَ رجلاً يسأَلُ الصَّبرَ، فقال: «سألتَ اللهَ البلاءَ، فسَلِ اللهَ العافيةَ»[1].

وفي دعائِه بالطَّائفِ وقد بلغَ منه الجَهْدُ ممَّا أصابَه مِنْ أذى المشركين: «إنْ لمْ يكنْ بكَ غضبٌ عليَّ فلا أُبالي، ولكنَّ عافيتَكَ أوسعُ لي»[2].

وقال: «لا تتمنَّوا[3] لقاءَ العدوِّ، ولكنْ سلوا اللهَ العافيةَ، فإذا لقيتموهم فاصبروا»[4].

وكان بعضُ السَّلَفِ يقولُ في دعائِه في المرضِ: اللَّهُمَّ انْقُصْ مِنَ الوجَعِ، ولا تَنْقُصْ مِنَ الأجرِ[5].

وروى ابنُ أبي الدُّنيا في كتاب «المرضى» بسندِه عن أبي هريرةَ رفعَه قال: «مَنْ وُعِكَ ليلةً فصبرَ ورضِيَ بها عن الله عزَّ وجلَّ، خرَجَ مِنْ ذنوبِه كيومَ ولدَتْه أمُّهُ»[6].

= المسلمين قد خَفَتَ، فصار مثل الفرخ، فقال له رسول الله ﷺ: «هل كنت تدعو بشيء أو تسأله إياه؟»، قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله! لا تطيقه أو لا تستطيعه، أفلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار؟!»، فدعا الله له فشفاه.

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٢٧) وقال: حديث حسن. من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبراني في «الدعاء» (١٠٣٦)، ومن طريقه الضياء في «المختارة» (٩/ ١٨١) من حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنه. وفي (ق): «عافيتك هي أوسع لي».

(٣) في (س): «تمنوا»، وهي روايةٌ في الصحيح أيضاً.

(٤) أخرجه البخاري (٣٠٢٦)، ومسلم (١٧٤١) من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه.

(٥) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٩٤٤) من كلام الصحابي أبي نحيلة رضي الله عنه، وذلك لمَّا رُمِيَ بسهم، فقيل له: انزعه...

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (٨٣). وجاء هذا الحديث لحقاً في حاشية في (ف) هنا، وفي (ق) كُتِب مفرداً بعد ختم الرسالة، ولا يوجد في (س).

ومِنْ هنا كُرِهَ تمنِّي الموتِ، فإنَّه استعجالٌ للبلاءِ قبلَ وقوعِه، كما قال ابنُ عمرَ لمَنْ سمِعَه يتمنَّى الموتَ: لا تتمنَّ الموتَ، فإنَّكَ ميِّتٌ، ولكِنْ سَلِ اللهَ العافيةَ[1].

وفي «المسندِ» عن جابرٍ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لا تتمنَّوا الموتَ، فإنَّ هَوْلَ المطلَعِ شديدٌ، وإنَّ مِنْ سعادةِ المرءِ أنْ يطولَ عمرُه، ويرزقَه اللهُ الإنابةَ»[2].

والحُمَّى هي بريدُ الموتِ ورائدُه، فتمنِّيها كتمنِّي الموت، فيجوزُ حيثُ يجوزُ تمنِّي الموتِ.

وكان أبو الدَّرداءِ يقولُ: أحبُّ الموتَ اشتياقاً إلى ربِّي، وأحبُّ المرضَ تكفيراً لذنبي، وأحبُّ الفقرَ تواضعاً لربِّي[3].

وفي حديثِ عبدِ الرَّحمنِ بنِ المرقَّعِ، عنِ النَّبيِّ ﷺ قال: «إنَّما الحُمَّى رائدُ الموتِ وسجنُ اللهِ في الأرضِ». خرَّجَه أبو القاسم البغويُّ[4].

وقال حسَّانُ بنُ عطيَّةَ: ذكرت الحُمَّى عند رسولِ الله ﷺ فقال: «تلك أمُّ الدَّمِ، تلدمُ اللَّحمَ والدَّمَ»[5].

---

(١) رواه هنَّاد بن السَّري في «الزهد» (٤٣٩).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٤٥٦٤).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢١٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٦١١).

(٤) طرف من حديث أخرجه البغوي في «معجم الصحابة» (١٩٣٤) وسقط من النسخة المطبوعة هذا الطرف من الحديث، وهو بتمامه في «مسند الشهاب» (٥٩)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٦/ ١٦٠).

(٥) ذكره بلا إسناد: عبد الملك بن حبيب في «مختصره في الطب» (ص ٢٠) وعنده: «تلك أم ملدم». و«تلدم»: تضرب.

وروى يونس عنِ الحسنِ، عـن النَّبيِّ ﷺ مرسلاً قال: «الحُمَّى رائدُ الموتِ، وهي سجنُ الله في الأرضِ، يحبسُ عبدَه إذا شاءَ ثمَّ يرسلُه إذا شاء»[1].

وقال ابنُ شُبْرُمَةَ عن الحسنِ: قال رسولُ الله ﷺ: «الحُمَّى رائدُ الموتِ، وهي سجنُ الله في الأرض للمؤمنين»[2].

وقال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ: الحُمَّى بريدُ الموتِ[3]. خرَّجَه كلَّه ابنُ أبي الدُّنيا.

وصلَّـى اللهُ علـى سـيِّدِنا محمَّدٍ وآلِه وصحبِه، وسـلَّمَ[4] تسـليماً كثيـراً إلى يومِ الدِّيـنِ، ورضِيَ عـن أصحابِ رسـولِ الله أجمعينَ[5].

***

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (٩٢).

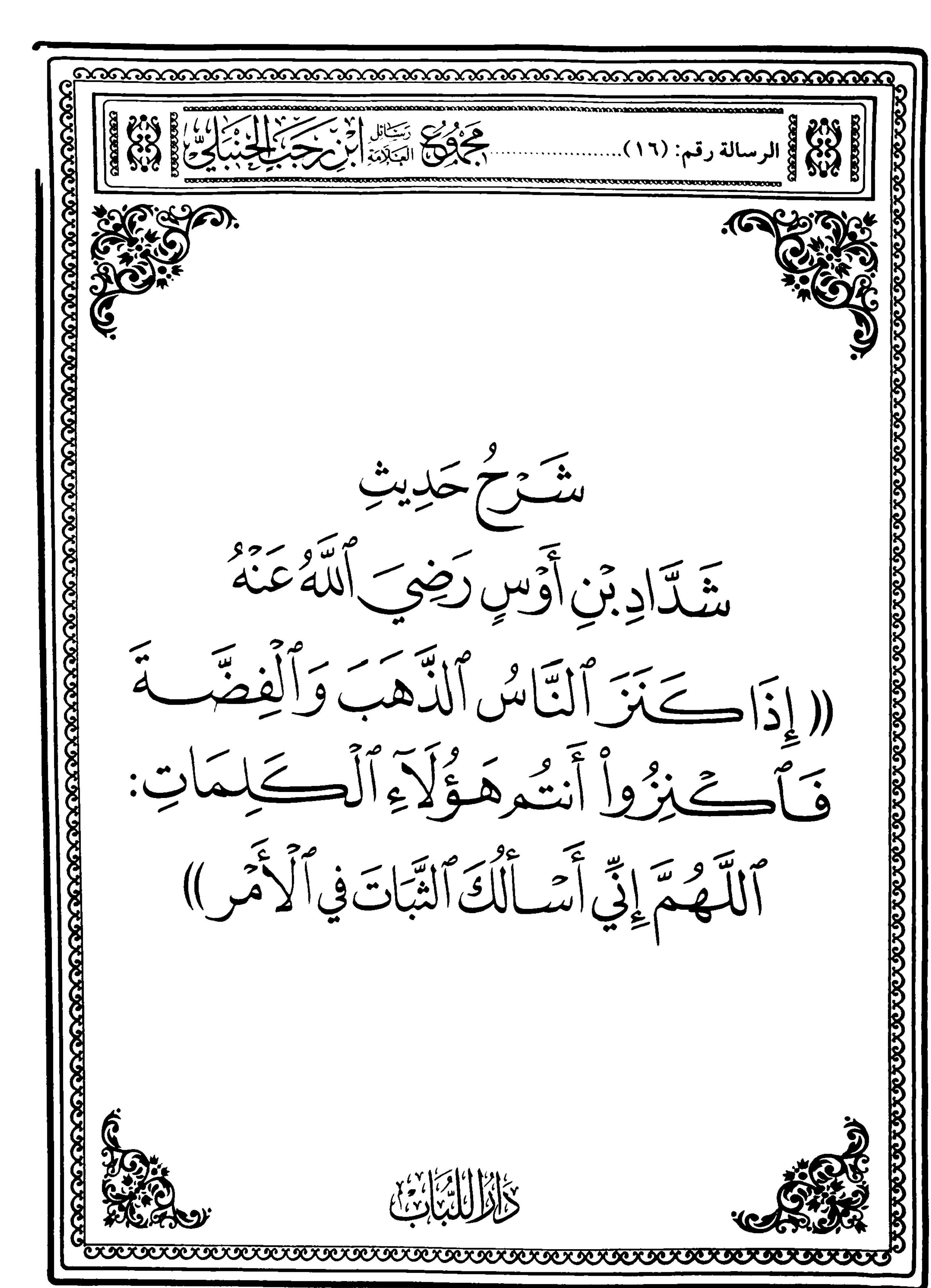
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (٧٣). وعنده: «للمؤمن».

(٣) أخرجه بهذا اللفظ: البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٤٠٦) من طريق ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (٧٤)، ولفظه: «رائد الموت».

(٤) هنا تنتهي النسخة الخطية (ق).

(٥) كذا في خاتمة النسخة الخطية (ف).

وفي (س): «آخر ما ذكره المصنف رحمه الله تعالى، وعفا عنه، آمين، وقع الفراغ من نسخها في اليوم الثالث عشر من شهر ربيع أول (سنة ١٣٣٤) في بلد الرياض حالة كون الضعيف يلتمس العلم، وهو كاتبه لنفسه عبده: عبد الله بن إبراهيم الربيعي غفر الله له ولوالديه ومشايخه ومن أحسن إليه والمسلمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم».



شرح حديث شداد بن أوس رضي الله عنه

«إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا أنتم هؤلاء الكلمات: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر»

دار اللباب

بسم الله الرحمن الرحيم وبه استعين
قال شيخنا الإمام العالم العلامة شيخ الإسلام
ابو الفرج عبد الرحمن بن احمد بن رجب الحنبلي رحمه الله
خرج الامام احمد من حديث شداد بن اوس
رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول اذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا
انتم هولاء الكلمات اللهم اني اسالك الثبات
في الامور والعزيمة على الرشد واسالك شكر نعمتك
وحسن عبادتك واسالك قلبا سليما واسالك
لسانا صادقا واسالك من خير ما تعلم واعوذ
بك من شر ما تعلم واستغفرك لما تعلم انك انت
علام الغيوب ٥ وخرجه الترمذي مختصرا وابن
حبان في صحيحه والحاكم وصححه وله طرق متعدده
عن شداد وفي بعض طرقه ان النبي صلى الله عليه وسلم
علمهم ان يدعوا بهذه الكلمات في الصلاة اودبر
الصلاة ٥ فقوله صلى الله عليه وسلم اذا

الناس الذهب والفضة فاكنزوا انتم هولاء الكلمات
اشارة الى ان كنز هذه الكلمات انفع من كنز الذهب
الفضة فان هذه الكلمات نفعها يبقى والذهب والفضه
يفنى قال الله تعالى المال والبنون زينة الحياة الدنيا
والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير
املا وقال تعالى ما عندكم ينفد وما عند الله باق
وروي ان سليمان بن داود عليهما السلام مر في موكبه
من الانس والجن بحراث فقال الحراث لقد اوتي
آل داود ملكا عظيما فاتاه سليمان فقال له تسبيحه
واحدة خير من ملك سليمان لان التسبيح يبقى وملك
سليمان يفنى ٥ وفي الحديث المشهور عن ثوبان انه
لما نزلت هذه الاية والذين يكنزون الذهب
والفضة قال النبي صلى الله عليه وسلم تبا للذهب والفضه
قالوا يا رسول الله فما نتخذ قال ليتخذ احدكم قلبا شاكرا
ولسانا ذاكرا وزوجة صالحة تعين احدكم على ايمانه
قال بعضهم انما سمي الذهب ذهبا لانه يذهب وسميت

المكتبة المحمودية بالمدينة المنورة (م)

دار الكتب الوطنية بتونس (ت)

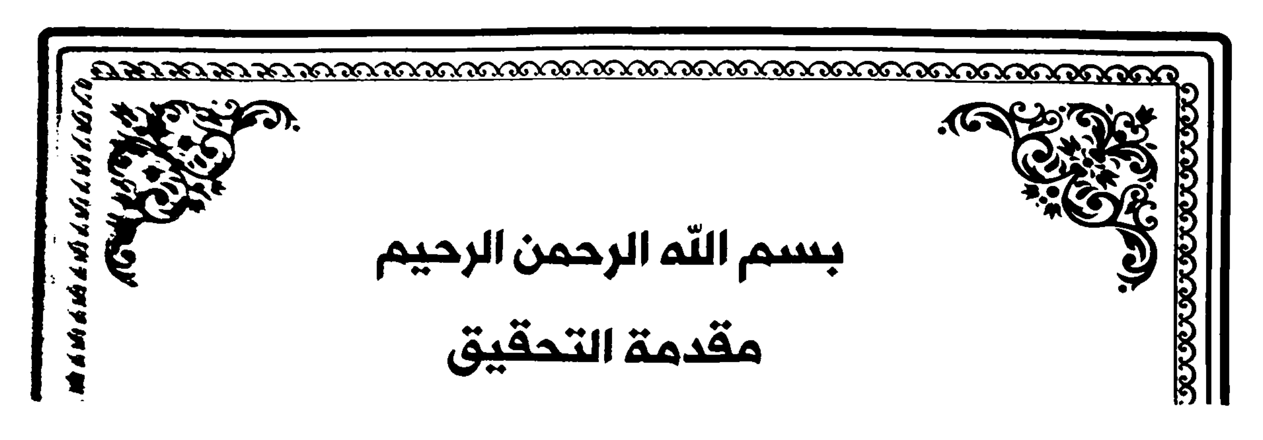
[illegible] الإمام العالم العلامة
[illegible] بن أحمد بن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى
[illegible] شداد بن أوس رضي الله عنه قال سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إذا كنز الناس الذهب والفضة
فاكنزوا أنتم هؤلاء الكلمات: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر
والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك،
وأسألك قلبًا سليمًا، وأسألك لسانًا صادقًا، وأسألك من خير
ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك
أنت علام الغيوب. وخرجه الترمذي مختصرًا وابن
حبان في صحيحه والحاكم وصححه. وله طرق متعددة عن شداد
وفي بعض طرقه أن النبي صلى الله عليه وسلم علمه أن يدعو بهذه
الكلمات في الصلاة أو في دبر الصلاة. فقوله صلى الله عليه وسلم
إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا أنتم هذه الكلمات
إشارة إلى أن كنز هذه الكلمات أنفع من كنز الذهب
والفضة، فإن هذه الكلمات نفعها يبقى، والذهب والفضة
يفنى، كما قال تعالى: المال والبنون زينة الحياة الدنيا
والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابًا وخير أملا
وقال: ما عندكم ينفد وما عند الله باق. وقد روي
أن سليمان بن داود عليه السلام مر في موكبه ومعه الإنس

والجن بحراث فقال الحراث: لقد أوتي ابن داود ملكًا عظيمًا،
فقال سليمان: لتسبيحة واحدة خير من ملك سليمان؛ لأن
التسبيحة تبقى وملك سليمان يفنى. وفي الحديث المشهور عن
ثوبان أنه لما نزلت هذه الآية: والذين يكنزون الذهب
والفضة قال صلى الله عليه وسلم: تبًا للذهب والفضة، فقالوا
يا رسول الله فما نتخذ؟ قال: ليتخذ أحدكم قلبًا شاكرًا ولسانًا ذاكرًا
وزوجة صالحة تعين أحدكم على إيمانه. قال بعضهم: إنما سمي
الذهب ذهبًا لأنه يذهب، وسميت الفضة فضة لأنها تنفض،
يعني تذهب بسرعة فلا بقاء لها. فمن كنزهما فقد أراد بقاءً لا
بقاء له، فإن نفعهما إنما هو بإنفاقهما في وجوه البر وسبل الخير.
قال الحسن: بئس الرفيق الدرهم والدينار، لا ينفعانك
حتى يفارقانك. فأما مكنوزين فإنما يضران ولا ينفعان،
فإنما نفعهما بإنفاقهما في الطاعات. قال الله تعالى: والذين
يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم
بعذاب أليم. يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم
وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون.
والآية ذم ووعيد لمن منع حقوق ماله الواجبة من الزكاة
وصلة الرحم وقرى الضيف والإنفاق في النوائب. وفي
صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما من صاحب

مكتبة الفاتح في اسطنبول (ف)

بسم الله الرحمن الرحيم قال الشيخ الإمام العالم العلامة
أبو الفرج عبد الرحمن بن رجب الحنبلي رحمه الله من حديث
شداد بن أوس رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا كنز
الناس الذهب والفضة فاكنزوا أنتم هؤلاء الكلمات اللهم إني أسألك الثبات في الأمر
والعزيمة على الرشد وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك وأسألك قلبًا سليمًا
وأسألك لسانًا صادقًا وأسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم وأستغفرك
لما تعلم إنك أنت علام الغيوب وخرجه الترمذي مختصرًا وابن حبان في صحيحه و
الحاكم وصححه وله طرق متعددة عن شداد وفي بعض طرقه أن النبي صلى الله عليه وسلم علمهم
أن يدعوا بهذه الكلمات في الصلاة أو في دبر الصلاة وقوله صلى الله عليه وسلم
إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا أنتم هؤلاء الكلمات إشارة إلى أن كنز هذه الكلمات
أنفع من كنز الذهب والفضة فإن هذه الكلمات نفعها يبقى والذهب والفضة تفنى قال الله
تعالى المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابًا وخير أملا
وقال تعالى ما عندكم ينفد وما عند الله باق وقد روي أن سليمان بن داود عليهما السلام
مر في موكبه ومعه الجن والإنس بحراث فقال الحراث لقد أوتي ابن داود ملكًا عظيمًا فأتاه

مكتبة جامعة الرياض ثم جامعة الملك سعود (س)



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله عالم الغيب والشهادة، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله الهادي إلى سبيل السعادة، وعلى صحبه الأبرار وآله السادة، ومن تبعهم في سبيل الحسنى وزيادة.

أما بعد:

فإن تجاذب الإنسان بين الماديات وصورها، وبين المعاني وحقائقها، هو مجاهدته الكبرى في هذه الحياة، والإيمان بالغيب هو الفيصل الفارق في تلك المعركة.

فمن آمن بالله واليوم الآخر حقاً ترجحت لديه المعاني وحقائقها الباقية على المادة الزائلة الفانية.

ومن ضعف إيمانه بالله واليوم الآخر تلاطمت به الأمواج بين مد وجزر في ذلك على قدر ضعفه.

ومن انعدم إيمانه بالغيب، لم يؤمن إلا بالمحسوس الملموس، فلم يعش إلا حياة مادية صرفة، ليس فيها أي معنى.

في حديث شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ الذي شرحه الحافظ ابن رجب رحمه الله في هذه الرسالة إرشاد نبوي كريم إلى الالتفات عن الدنيا بذهبها وفضتها نحو حقيقة هذه الحياة الدنيا، التي هي ممر عبور لا دار قرار.

فالعاقل من تزود منها ما ينفعه في آخرته، ولم ينشغل عن ذلك بجمع حطامها من زينتها وزخرفها.

١ ـ وذلك بالثبات على الإيمان والطاعة.

٢ ـ والعزيمة على ذلك ابتداءً واستمراراً.

٣ ـ وشكر الله تعالى على نعمه.

٤ ـ وأداء حقها من حسن العبادة له والإقبال عليه.

٥ ـ مع سلامة القلب.

٦ ـ وصدق اللسان.

٧ ـ وكل هذا مفتقر إلى عون الله تعالى وفضله وتوفيقه، لذلك لا بد من سؤاله سبحانه الخير.

٨ ـ مع الاستعاذة مما ينافي في ذلك من كل شر.

٩ ـ والاستغفار مما تزل به الأقدام، فإن الإنسان ضعيف.

١٠ ـ وذلك كله مع معرفة صفاته سبحانه، والثناء بها عليه.

تلك عشرة كاملة، ولَعمر الحق إنها تذكرة تجمع الدين كله، لا تقوَّم بذهب الأرض وفضتها، جاءت في هذه الوصية النبوية الشريفة التي ينبغي أن تكون للمسلم ورداً يومياً من الذكر والدعاء باللسان، والتذكر والعمل بهذا المنهاج النبوي في الحياة ليستقيم أمره ولا تزل به قدمه.

أعِنّا اللهم على قولها والعمل بها في كل يوم من عمرنا، آمين.

* * *

اعتمدت في إخراج هذه الرسالة على أربع نسخ خطية:

١ـ نسخة المكتبة المحمودية بالمدينة المنورة على ساكنها الصلاة والسلام، ورمزها (م) وهي الرسالة السادسة من المجموع رقم (١٧٤٢) ـ وسبق التعريف به في المقدمات ـ، وهي في (٢١) لوحة (من ١١٨/أ إلى ١٣٨/أ). وهي مخرومة في آخرها مقدار ورقة.

بخط أحمد بن محمد بن خضر القطان النجاد، وتاريخ كتابة المجموع ٨٣٦هـ.

٢ـ النسخة التونسية، ورمزها (ت).

وهي الرسالة الثانية عشرة من المجموع رقم (١٥٧) ـ وسبق التعريف به في المقدمات ـ، وهي في (١١) لوحة (من ١٢٣/ب إلى ١٣٣ب).

لم يذكر اسم الناسخ، والمجموع قد كتب قبل ٨٥٢.

وبآخرها: «بلغ مقابلة بحمد الله تعالى وعونه».

٣ـ نسخة مكتبة الفاتح باصطنبول، ورمزها (ف).

وهي الرسالة السادسة من المجموع رقم (٥٣١٨) ـ وسبق التعريف به في المقدمات ـ وهي في (١٧) لوحة (من ١٠٥/أ إلى ١٢١/أ).

وناسخها: عيسى بن علي بن محمد الحوراني الشافعي.

وتاريخ انتهاء نسخ المجموع ٨٩٣.

٤ـ نسخة جامعة الرياض ثم جامعة الملك سعود، ورمزها (س).

وهي الرسالة السادسة من المجموع (١٦٣٧) ـ وسبق التعريف به في المقدمات ـ، وهي في (١٦) صفحة (من ٢٦٥ إلى ٢٨٠).

وناسخها: عبد الله بن إبراهيم بن محمد الربيعي وتاريخ الانتهاء من نسخها: ٢٢ محرم ١٣٣٤هـ.

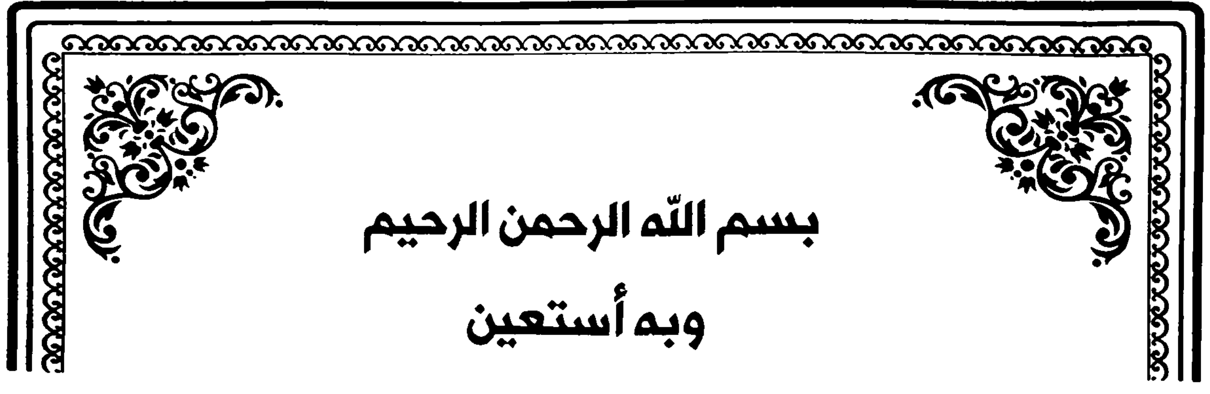
٥ - ويوجد لهذه الرسالة مختصر ملخص، في مكتبة رئاسة الشؤون الدينية بأنقرة ضمن المجموع (٢٣٤٥) في (٣) صفحات.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

كتبه

محمد مجير الخطيب الحسني

* * *



بسم الله الرحمن الرحيم

وبه أستعين

قال سيِّدُنا وشيخُنا الإمامُ العالمُ العَلَّامةُ أبو الفرجِ عبدُ الرَّحمنِ بنُ أحمدَ بنِ رَجَبٍ الحنبليُّ رحمه اللهُ تعالى[1]:

خرَّجَ الإمامُ أحمدُ مِن حديثِ شدَّادِ بنِ أوسٍ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**إذا كَنَزَ النَّاسُ الذَّهبَ والفِضَّةَ فاكنِزوا أنتم هؤلاء الكَلِماتِ: اللهمَّ إني أسأَلُكَ الثَّباتَ في الأمرِ، والعزيمةَ على الرُّشدِ، وأسأَلُكَ شُكْرَ نعمَتِك، وحُسْنَ عِبادتِك، وأسأَلُك قلباً سليماً، وأسأَلُكَ لساناً صادقاً، وأسأَلُكَ مِن خيرِ ما تعلَمُ، وأعوذُ بك مِن شرِّ ما تعلَمُ، وأستغفِرُكَ لِمَا تعلَمُ إنَّك أنت علَّامُ الغُيوبِ**»[2].

وخرَّجَه التِّرمذيُّ مُختصَراً، وابنُ حِبَّانَ في «صحيحه»، والحاكمُ وصحَّحَه، وله طرقٌ مُتعدِّدةٌ عن شدَّادٍ[3].

---

(١) من (ت) و(ف) ونحوه في (م)، وفي (س): «الكلام على حديث شداد بن أوس، بسم الله الرحمن الرحيم، قال الشيخ الإمام العالم العلامة أبو الفرج عبد الرحمن بن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى».

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١٧١١٤).

(٣) رُوي عن شداد رضي الله عنه من أوجه، أشهرها:

١ـ ما رواه الأوزاعي، عن حسان بن عطية، عن شداد. هكذا رواه عامة أصحاب الأوزاعي مرسلاً بين حسان وشداد.

أخرجه كذلك من طرق عن الأوزاعي: ابن المبارك في «الزهد» (٨٤٣) بطرفه فحسب دون المرفوع، وأبو بكر بن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٩٩٧١)، وأحمد في «مسنده» (١٧١١٤)، والخرائطي في =

= «فضيلة الشكر لله» (٥)، وأبو شعيب الحراني في «فوائد منتقاة» (٤٦)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٦٦) (٦/ ٧٧ ـ ٧٨)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٢/ ٤١١ ـ ٤١٢) (٧٣/ ١٥١).

وجوَّده عن الأوزاعي: سويد بن عبد العزيز، فرواه عن الأوزاعي، عن حسان بن عطية، عن أبي عبيد الله مسلم بن مشكم، عن شداد بن أوس رضي الله عنه.

أخرجه من طريقه: ابن حبان (٩٣٥)، والطبراني في «الكبير» (٧١٥٧) وفي «الدعاء» (٦٣٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٦٦)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٧٣/ ١٥٠).

٢ـ وما رواه أبو مسعود الجريري، عن أبي العلاء بن الشخير. واختلف فيه الرواة عن أبي مسعود في إسناده. وليس في متنه ذكر الكنز، وإنما الدعاء فحسب.

فرواه يزيد بن هارون وسفيان وخالد بن عبد الله، فقالوا: عن أبي العلاء، عن الحنظلي، عن شداد أخرجه أحمد (١٧١٣٣)، والترمذي (٣٤٠٧)، والطبراني في «الكبير» (٧١٧٥) (٧١٧٦) (٧١٧٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٦٥).

ورواه عدي بن الفضل وهلال بن حق، فقالا: عن أبي العلاء، عن رجلين، عن شداد. أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧١٧٩)، وفي (الدعاء) (٦٢٦)، والداني في «كتاب في علوم الحديث» (٢٥).

ورواه بشر بن المفضل، فقال: عن أبي العلاء، عن رجل من مجاشع، عن شداد. أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧١٧٨). وفي «الدعاء» (٦٢٨ ـ ٦٢٩). وينظر «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٢٢/ ٤١٢).

ورواه حماد بن سلمة، فقال: عن أبي العلاء، عن شداد. منقطعاً. أخرجه النسائي (١٣٠٤) والطبراني في «الكبير» (٧١٨٠).

٣ـ ورواه أبو الأشعث الصنعاني عن شداد، وفيه ذكر الكنز. أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧١٣٥) وفي «الدعاء» (٦٣١)، وأبو الحسين الكلابي في «أحاديثه» (١٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧).

٤ ـ وشداد بن عبد الله أبو عمار، عن شداد. وليس فيه ذكر الكنز. أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٥/ ٣٢٣)، والحاكم (١/ ٥٠٨) وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

٥ ـ محمد بن عبد الله الشعيثي، عن شداد. وليس فيه ذكر الكنز. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٦٧). =

وفي بعضِ طُرُقِه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ علَّمَهم أن يدعوا بهذه الكلماتِ في الصَّلاةِ أو في دُبرِ الصَّلاةِ[1].

* * *

فقولُه ﷺ: «إذا كَنَزَ النَّاسُ الذَّهبَ والفضَّةَ فاكنِزوا أنتم هؤلاء[2] الكلماتِ» إشارةٌ إلى أنَّ كنزَ هذه الكلماتِ أنفَعُ مِن كنزِ الذَّهبِ والفِضَّةِ؛ فإنَّ هذه الكلماتِ نَفْعُها يبقى، والذَّهبُ والفضَّةُ يفنى، قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦] وقال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

= ٦ ـ بشير بن كعب العدوي، عن شداد. وفيه ذكر الكنز. أخرجه الطبراني في «الدعاء» (٦٣٢).

٧ ـ ثابت البناني، عن شداد بأول القصة دون ذكر الكنز والدعاء. أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٢/ ٤١٢).

٨ ـ سليمان بن موسى، عن شداد. موقوفاً وليس فيه ذكر الكنز. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦).

وهذه الأوجه تعتضد ببعضها. ومثلها لا يُرَدُّ في هذا الباب، فلا يضر ما في بعضها من انقطاع أو جهالة والحديث ثابت.

* **تنبيه**: روى موسى بن مطير، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب رضي الله عنه مرفوعاً نحو هذا الحديث ولفظه: «إذا رأيت الناس قد تنافسوا... الحديث. أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١٧٢) و«الأوسط» (٧٤٠٨) و«الدعاء» (٦٣٣)، وعنه أبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (١/ ٤٥٣)، و«معرفة الصحابة» (١١٦٧). وأخرجه أيضاً أبو طاهر السِّلَفي في «السابع والعشرون من المشيخة البغدادية».

موسى بن مطير: متروك فلا يُعد هذا شاهداً لحديث شدّاد، ولعل موسى سرقه! والله أعلم.

(١) وهي الطرق التي رويت عن الجريري عن أبي العلاء بن الشخير.
ومنها ما أخرجه أحمد (١٧١٣٣)، والنسائي (١٣٠٤).

(٢) في (ت) و(ف): «هذه».

وقد رُوِيَ أنَّ سُليمانَ بنَ داودَ عليهما السَّلامُ مرَّ في موكبِه ومعه الإنسُ والجنُّ بحَرَّاثٍ، فقال الحرَّاثُ: لقد أوتي ابنُ داودَ مُلْكاً عظيماً، فأتاه سليمانُ فقالَ له: تسبيحةٌ واحدةٌ خيرٌ مِن مُلْكِ سليمانَ[1]؛ لأنَّ التَّسبيحةَ تبقى ومُلْكُ سليمانَ يفنى.

وفي الحديثِ المشهورِ عن ثوبانَ أنَّه قال: لَمَّا نزلَتْ هذه الآيةُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ [التوبة: ٣٤] فقال النبي ﷺ[2]: «تبًّا للذَّهبِ والفِضَّةِ»، فقالوا: يا رسولَ اللهِ! فما نتَّخِذُ؟ قال: «ليَتَّخِذْ أحدُكُم قَلْباً شاكراً، ولِساناً ذاكراً، وزوجةً صالحةً تُعِينُ أحدَكُم على إيمانِه»[3].

قال بعضُهم: إنَّما سُمِّيَ الذَّهَبُ ذَهَباً لأنَّه يذهَبُ، وسُمِّيَت الفِضَّةُ فِضَّةً لأنَّها تنفضُّ[4]، يعني: تذهَبُ بسُرعةٍ فلا بقاءَ لهما، فمَنْ كَنَزهما فقد أراد بقاءَ ما لا بقاءَ له؛ فإنَّ نفعَهُما ما هو إلا بإنفاقِهما في وجوهِ البرِّ وسُبُلِ الخيرِ.

قال الحسنُ: بئس الرَّفيقُ الدِّرهمُ والدِّينارُ، لا ينفعانِكَ حتَّى يُفارقانِك[5]. فما داما مَكْنوزَيْنِ فهما[6] يضرَّانِ ولا ينفعانِ، وإنَّما[7] نفعُهما بإنفاقِهما في الطَّاعاتِ.

---

(١) أخرجه نعيم بن حماد في زياداته على «الزهد» لابن المبارك (٢١٠) بنحوه.

(٢) سبق نظر ناسخ (ف) فكتب: «سليمان عليه السلام»!

(٣) هذا اللفظ الذي ساقه المصنف: فيه إدراج من ألفاظ رواياته المتعددة. أخرجه الإمام أحمد (٢٢٣٩٢) (٢٢٤٣٧)، والترمذي (٣٠٩٤) وقال: «هذا حديث حسن»، وابن ماجه (١٨٥٦)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٢٨). والطبراني في «الصغير» و«الأوسط».

(٤) ذكره الثعلبي في تفسيره «الكشف والبيان» (٨/ ١١٥) تفسير الآية ١٤ من سورة آل عمران.

(٥) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ١٥٥).

(٦) في (س) و(م): «فما».

(٧) في (ت) و(ف): «فإنما».

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤ ـ ٣٥] والآيةُ ذَمٌّ ووعيدٌ لِمَن يمنعُ حُقوقَ مالِه الواجبةَ من الزَّكاةِ، وصلةِ الرَّحِمِ، وقِرَى[1] الضَّيفِ، والإنفاقِ في النَّوائبِ.

وفي «صحيح مسلمٍ»، عن أبي هريرةَ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «ما مِن صاحبِ ذهبٍ ولا فضَّةٍ لا يؤدِّي منها حقَّها، إلا إذا كان يومُ القيامةِ صُفِّحتْ له صَفائحُ مِن نارٍ فأُحمِيَ عليها في نارِ جهنَّمَ، فيُكوى بها جَنْبُه وجَبينُه وظَهْرُه، كلَّما بَرَدَتْ أُعيدَت له في يومٍ كان مِقدارهُ خمسينَ ألفَ سنةٍ، حتى يُقضى بين العِبادِ، فيَرى سبيلَه إمَّا إلى الجنَّةِ وإمَّا إلى النَّارِ»[2].

وفي «صحيح البخاريِّ»، عن أبي هريرةَ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَن آتاه اللهُ مالاً فلم يُؤدِّ زكاتَه، مُثِّلَ مالُه يومَ القيامةِ شُجاعاً أقرعَ، له زبيبتانِ، يُطوَّقُه يومَ القيامةِ، ثمَّ يأخذُ بلِهْزمَيْه ـ يعني بشِدْقيه[3] ـ ثمَّ يقولُ: أنا مالُك، أنا كنزُك»، ثمَّ تلا: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[4] [آل عمران: ١٨٠] الآية.

وفيه أيضاً، عن أبي هريرةَ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «يكون كنزُ أحدِكُم يومَ القيامةِ

---

(١) في (س): «وإقراء».

(٢) أخرجه مسلم (٩٨٧).

(٣) في (ت) و(ف): «بلهزمته يعني بشدقه».

(٤) أخرجه البخاري (١٤٠٣) (٤٥٦٥) والآية مضبوطة على قراءة حمزة.

شُجاعاً أقرعَ، يَفِرُّ منه يومَ القيامةِ، ويطلبُه ويقولُ: أنا كنزُكَ، فلن[١] يزالَ يطلبُه حتَّى يبسطَ يدَه فيُلقمَها فاه»[٢].

وفي «صحيح مسلم»: عن جابرٍ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «ما مِن صاحبِ كنزٍ لا يَفعَلُ فيه حقَّهُ إلَّا جاء كنزُه يومَ القِيامةِ شُجاعاً أقرعَ يتبَعُه فاتحاً فاه، فإذا أتاه فرَّ منه، فيُناديه: خُذْ كنزَكَ الذي خبأتَهُ، فأنا عنه غَنِيٌّ، فإذا رأى أن لا بدَّ منه سلكَ يدَهُ في فيه فقضَمَها قَضْمَ الفَحْلِ»[٣].

والشُّجاعُ: الحيَّةُ الذَّكرُ، والأقرَعُ: الذي قد تمعَّطَ شعرُ فروةِ رأسِه لكثرةِ سُمِّهِ.

فلهذا وردَ الشَّرعُ بالأمرِ باكتنازِ ما يبقى نفعُه بعد الموتِ مِن الإيمانِ والأعمالِ الصَّالحةِ والكلماتِ الطَّيِّبةِ، فإنَّ نفع ذلك يبقى، وبه يَحصلُ الغِنى الأكبرُ.

قال ابنُ مَسعودٍ: نِعْمَ كنزُ الصُّعلوكِ: البقرةُ وآلُ عِمرانَ، يقومُ بهما مِن آخرِ الليلِ[٤].

وآخرُ سورةِ البقرةِ مِن كنزٍ تحت العرشِ أُعطِيَتْهُ هذه الأمَّةُ[٥]، مع سورةِ الفاتحةِ[٦].

---

(١) في (ت) و(ف) ونسخة بحاشية (س): «فلا».

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٥٧). وفيه: «يفر منه صاحبه ويطلبه».

(٣) أخرجه مسلم (٩٨٨).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٦٠١٥)، وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٢٣٨)، والدارمي (٣٤٤١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٣٧٧) وليس عندهم ذكر سورة البقرة، وأخرجه المستغفري في «فضائل القرآن» (٧٠٥) بمثل ما أورده المصنف.

(٥) أخرجه أحمد (٢١٣٤٣) (٢١٥٦٤) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٦) روي عن معقل بن يسار مرفوعاً: أخرجه الحاكم (١/ ٥٥٩).

ولا حولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ[١] كنزٌ مِن كُنوزِ الجنَّةِ[٢].

وفي بعضِ الآثارِ[٣] الإسرائيليَّةِ: كنزُ المؤمِنُ ربُّهُ[٤].

يعني أنَّه لا يَكنِزُ سوى طاعتِه، وخَشْيتِه ومَحبَّتِه، والتَّقرُّبِ إليه، فمَنْ كان كنزُه ربَّه وجدَه وقتَ حاجَتِه إليه، كما في وصيَّةِ النَّبيِّ ﷺ لابنِ عبَّاسٍ: «احفَظِ اللهَ يَحْفظْكَ، احفَظِ اللهَ تَجِدْهُ أمامك، تعرَّفْ إلى اللهِ في الرَّخاءِ يَعرِفْكَ في الشِّدَّةِ»[٥].

أنـتَ كَنْـزِي أنـتَ ذُخْرِي ... أنـتَ عِـزِّي أنـتَ فَخْـرِي

كيـفَ أَخْشَـى الفَقْـرَ إِذْ مـا ... كُنْـتَ أَمْنِـي عنـدَ فَقْـرِي[٦]

مَن كانَ اللهُ كنزَهُ فقد ظَفِرَ بالغنى الأكبرِ.

قال بعضُ العارفين: مَنِ استَغْنى باللهِ أَمِنَ مِنَ العَدَمِ، ومَنْ لزمَ البابَ أُثْبِتَ في الخَدَمِ، ومَن أكثرَ ذِكرَ الموتِ أكثرَ مِن النَّدَمِ[٧].

تـنـقـضـي الدُّنيـا وتَفْنى ... والـفـتـى فيهـا مُعَنَّـى

ليـس فـي الدُّنيـا نَعيـمٌ ... لا ولا عَيْـشٌ مُهَنَّـا

---

(١) في (ت) و(ف): «بالله العلي العظيم».

(٢) روي عن عدد من الصحابة، منهم: أبو موسى رضي الله عنه عند البخاري (٦٣٨٤).

(٣) في (ف): «الآيات».

(٤) انظر: «الفردوس» للديلمي (٤٨٩٥)، وتفسير الألوسي (سورة الذاريات، الآيات ٥٤ ـ ٦٠).

(٥) قد أفرد المصنف رحمه الله هذا الحديث الشريف بالشرح في رسالة مفردة.

والحديث أخرجه الترمذي (٢٥١٦) وغيره.

(٦) لم أجده لغير المصنف رحمه الله.

(٧) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٦/ ٣٠١) وهو مما سمعه أبو صالح الدمشقي المتعبد بالمسجد خارج باب شرقي من رجل صالح في جبل اللكام.

يـــا غَـنِـيًّــا بـالـدَّنـانــيـــــرِ مُحِـبُّ اللهِ أَغْنَـــى[١]

والمقصودُ هنا: شَرْحُ الكلماتِ التي أمرَ ﷺ بكَنْزِها وأشارَ إلى أنَّ نفعَها[٢] خيرٌ مِن الذَّهَبِ والفِضَّةِ، وهي تتضمَّنُ طلبَ العبدِ مِن ربِّهِ لأهمِّ الأمورِ الدِّينيَّةِ.

فقولُه ﷺ: «أسألُكَ الثَّباتَ في الأمرِ»:

المرادُ بالأمرِ: الدِّينُ والطَّاعةُ فسألَ الثَّباتَ على الدين[٣] إلى المماتِ، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠] الذين قالوا: ربُّنا اللهُ كثيرٌ، ولكنَّ أهلَ الاستقامةِ قليلٌ.

كان عُمَرُ يقولُ في خُطبتِهِ: اللهمَّ اعصِمْنا بحِفْظِكَ وثَبِّتْنا على أمرِكَ[٤].

فالاستقامةُ والثَّباتُ لا قُدرةَ للعبدِ عليه بنفسِه، فلذلك يحتاجُ أن يسألَه[٥] ربَّهُ.

كان الحسنُ إذا قرأ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠] يقولُ: اللهمَّ أنت ربُّنا فارزُقْنا الاستقامةَ[٦].

كان النَّبيُّ ﷺ كثيراً ما يقولُ: «يا مُقلِّبَ القُلوبِ ثبِّت قَلْبِي على دينِك»، فقيلَ له

---

(١) أنشده علي بن محمد بن بشار. ذكره أبو موسى المديني في «اللطائف من دقائق المعارف في علوم الحفاظ الأعارف» (٣٩).

(٢) في (س): «نفعها وأنها».

(٣) في (ت) و(ف): «عليهما».

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٥٤). ولفظه: «اعصمنا بحبلك».

(٥) في (ت) و(ف): «يسأل».

(٦) «اللهم فارزقنا الاستقامة»: مكررة في (ف). والأثر أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٤٤٦)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢٧٠٧)، والطبري في «جامع البيان» (٢٠/ ٤٢٥).

في ذلك، فقال: «إنَّ القلبَ بين أصبعينِ من أصابعِ الرَّحمنِ، إن شاء أن يقيمَهُ أقامَهُ، وإن شاءَ أن يُزيغَهُ أزاغَهُ»(١).

وفي روايةٍ للتِّرمذيِّ: قلنا: يا رسولَ اللهِ! آمنَّا بك وبما جئتَ به، فهل تخافُ علينا؟ فقال: نعم، ثمَّ ذكرَ الحديثَ(٢).

كيفَ يأمَنُ على نفسه مَن قلبُه بين أصبعينِ؟ كيفَ يطيبُ عيشُ مَن لا يدري بما يُختَمُ له؟

كم مِن عاملٍ خاشعٍ وُقِّعَ على قصَّةِ عملِه: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٣ ـ ٤]، رُبَّ صائمٍ حظُّه مِن صيامِه الجوعُ والعَطَشُ، وقائمٍ حظُّه مِن قيامِه السَّهَرُ.

كان بعضُ الصَّالحينَ يَسرُدُ الصِّيامَ، فإذا أفطرَ بكى، ويقولُ: أخشى أن يكون حظِّي منه الجوعَ والعطَشَ(٣).

في الصَّحيحِ: «إنَّ أحدَكُم لَيعمَلُ بعَمَلِ أهلِ الجنَّةِ، حتَّى ما يبقى بينه وبينها إلَّا ذِراعٌ ثمَّ يَسبِقُ عليه الكِتابُ»(٤).

كم مِن عاملٍ يعمَلُ الخيرَ، إذا بَقِيَ بينه وبين الجنَّةِ، ذِراعٌ، وشارفَ مَركبُه(٥) ساحِلَ النَّجاةِ(٦) ضربَهُ مَوجُ الهوى فغَرِقَ.

---

(١) اللفظ مدرج من حديثين أخرجهما الإمام أحمد، أوله من حديث عائشة رضي الله عنها (٢٤٦٠٤)، وآخره من حديث النواس بن سمعان (١٧٦٣٠).

(٢) أخرجه الترمذي من حديث أنس رضي الله عنه (٢١٤٠)، وقال: حسن.

(٣) رحمه الله تعالى.

(٤) أخرجه البخاري في مواضع منها (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٥) في (س): «مراكبه».

(٦) في نسخة في (ف): «السلامة».

المِحْنةُ العُظمى أنَّ أمركَ كلَّهُ بيَدِ مَن لا يُبالي بوُجودِكَ ولا عَدَمِك[١]، كم أَهْلَك قبلكَ مِثلَكَ. ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧].

كان الحسنُ يبكي، ويُطيلُ البُكاءَ ويقولُ: أخافُ أن يَطْرَحَني في النَّارِ ولا يُباليَ[٢].

قال أبو الدَّرداءِ: ما أهونَ العِبادَ على اللهِ إذا عَصَوْهُ[٣].

يا قلبُ إلى مَ تُطالِبُني ... بلِقَا الأحبابِ وقَدْ رَحَلُوا
أَرْسلتُكَ في طَلَبي لَهُمُ ... لِتَعودَ فضِعْتَ وما حَصَلُوا
سَلِّمْ واصبِرْ واخضَعْ لَهُمُ ... كَمْ مِثلِكَ قَبْلَكَ قد قَتلُوا
ما أَحْسَنَ ما عَلَّقْتَ بهِ ... آمالَكَ مِنْهُم لو فَعَلُوا[٤]

العبدُ يحتاجُ إلى الثَّباتِ في طولِ حياتِه، وأحوَجُ ما يحتاجُ إليه عند مماتِه.

في الطَّبرانيِّ: «لَقِّنوا مَوْتاكم لا إلهَ إلَّا الله، وقولوا: الثَّباتَ الثَّباتَ، ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ»[٥].

---

(١) في (ت) و(ف): «وعدمك».

(٢) ذكره الغزالي في «الإحياء» (٤/ ٥٣٤)، وابن الجوزي في «المدهش» (ص: ٣٦٢)، وفي «المقلق» (ص: ٢٩). وفي «صفة الصفوة» (٢/ ١٣٨). ثم وجدت ابن الجوزي قد أخرجه بسنده في «المنتظم» (٧/ ١٣٧).

(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٧/ ١٨٦) قاله بعد فتح قبرس.

(٤) ذكر الأبيات ابن الجوزي في «المدهش» (ص: ٢٩٩).

(٥) أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (١١١٩)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٣/ ٣٩).

ويحتاجُ إلى الثَّباتِ أيضاً بعدَ الموتِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وفي «الصَّحيحِ»: أنَّها نزلَتْ في سُؤالِ القبرِ، يُسأَلُ المؤمِنُ في قبرِه، فيشهَدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وأنَّ محمداً رسولُ اللهِ[١].

وفي «سننِ أبي داودَ»: أنَّه ﷺ كان إذا دُفِنَ الميِّتُ يقولُ: «سَلُوا له التَّثبيتَ، فإنَّه الآنَ يُسأَلُ»[٢].

مَن دخلَ في الطَّاعةِ فهو يحتاجُ[٣] إلى الثَّباتِ عليها.

يا معشرَ التَّائبين! أنتم تُقاتِلُونَ جنودَ الهَوى بجنودِ التَّقوى، فاصبِرُوا وصابِرُوا ورابِطُوا، لا تقولُوا: جنودُ الهوى لا طاقةَ لنا بها، ولكن اصبِرُوا إنَّ اللهَ مع الصَّابرين، يا جنودَ العَزائمِ! اثبتوا واحذَرُوا هَتِيكةَ الهزيمةِ، ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ﴾ [الأنفال: ٦٥].

لا تَجْزَعَنْ مِن كلِّ خطبٍ عرا ... ولا تُرِي الأعداءَ ما يَشْمَتُوا

يا قومُ بالصَّبْرِ يُنالُ المُنَى ... إذا لقيتُمْ فئةً فاثبتُوا[٤]

يا قومِ الثَّباتَ الثَّبات، والمداومةَ المداومةَ إلى المَمَات.

«أحبُّ العمَلِ إلى اللهِ أدوَمُه وإن قَلَّ»[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٩)، ومسلم (٢٨٧١) من حديث البراء رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٢٦٣) من حديث عثمان رضي الله عنه.

(٣) في (ت) و(ف): «محتاج».

(٤) البيتان لأبي نصر سهل بن المرزبان، ذكرهما له الثعالبي في «يتيمة الدهر» (٤/ ٤٥٤). والشطر الأول من البيت الثاني عنده: «أما سمعت الله في قوله». وذكر البيتين كما هنا: ابن الجوزي في «المدهش» (ص: ٤٧٦) وعنده: «يُشْمِتُ» بدل «يشمتوا».

(٥) حديث أخرجه مسلم (٢٨١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وفي حاشية (ف): «نكتة شريفة فافهم».

قال الحسنُ: إنَّ الله لم يجعَلْ لعَمَلِ المؤمنِ أجلاً دونَ الموتِ، ثمَّ قرأ: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾[١] [الحجر: ٩٩].

في الصَّحيحِ: عن النَّبيِّ ﷺ قال: «سدِّدُوا وقارِبُوا، واغْدُوا وروحُوا، وشيءٌ مِن الدُّلْجَةِ، والقصْدَ القصْدَ تبلُغوا»[٢].

يا معشرَ التَّائبين! صوموا اليومَ عن شَهواتِ الهوى، لتُدرِكُوا عيدَ الفطرِ يومَ اللقا، لا يَطُولنَّ عليكم الأمدُ باستبطاءِ الأجلِ؛ فإنَّ مُعظمَ نهارِ الصِّيامِ قد ذهب، وإنَّ[٣] عيد اللقاءِ قدِ اقترب[٤]

وما هيَ إلا ساعةٌ ثمَّ تنقضي ... ويذهبُ هذا كلُّه ويزولُ[٥]

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴾ [الانشقاق: ٦].

﴿ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ﴾ [العنكبوت: ٥].

مَن سارَ في طريقِ العُبوديَّةِ إلى لقاءِ الحبيبِ فلا بُدَّ مِن مُواصلَةِ السَّيرِ حتَّى يَصِلَ، فإنْ وقفَ في الطَّريقِ أو رجعَ هلكَ[٦]؛ فإن اشتدَّ عليه ألَمُ السَّيرِ فليَذْكُر راحةَ الوُصولِ وقد زالَ التَّعَبُ.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٨)، وأحمد بن حنبل في «الزهد» (١٥٤٨). وانظر «الزهد» لابن المبارك (١٩).

(٢) قد أفرد المصنف رحمه الله هذا الحديث الشريف بالشرح في رسالةٍ مفردة، وهو مما أخرجه البخاري (٦٤٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) «إن»: من (ت) و(ف).

(٤) في (س): «قرب».

(٥) أصل البيت للبهاء زهير المصري، وهو في «ديوانه»: (ص: ٢١٠) وصدره: «وما هي إلا غيبة ثم نلتقي». وذكره كما هنا ابن القيم رحمه الله في عدد من كتبه.

(٦) في حاشية (ف) تعليق: «فافهم ترشد».

لهـا أحاديـثُ مِـن ذكـراكَ تَشْغَلُـهـا عــن الشَّـرابِ وتُلهيهـا عَـنِ الـزَّادِ
لهـا بوَجْهِـكَ نـورٌ تَسـتضيءُ بـهِ وقـتَ المسيرِ وفـي أعقابِهـا حـادي
إذا شـكَتْ مِـن كَلالِ السَّـيرِ أوعِدُهـا رَوْحَ القُـدومِ فتَحْيَـا عنـدَ مِيعـادِي[1]

* * *

قولُه ﷺ: «والعزيمةَ على الرُّشدِ».

العزيمةُ على الرُّشدِ مَبْدأُ الخيرِ؛ فإنَّ الإنسانَ قد يعلَمُ الرُّشدَ وليس له عليه عزمٌ، فإذا عزمَ على فِعْلِه أفلحَ.

والعَزِيمةُ: هي القصدُ الجازمُ المتَّصِلُ بالفِعْلِ. وقيل: استجماعُ قُوَى الإرادةِ على الفعلِ. ولا قُدرةَ للعبدِ على ذلك إلَّا باللهِ، فلهذا كان مِن أهمِّ الأُمورِ سُؤالُ اللهِ العَزِيمةَ على الرُّشدِ.

وفي «المسند» عن عِمرانَ بنِ حُصَينٍ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ[2] قال لرَجُلٍ: «قُل: اللهمَّ قِني شرَّ نفسي واعزِمْ لي على أرشَدِ أمري»[3].

فالعبدُ يحتاجُ إلى الاستعانةِ باللهِ والتَّوكُّلِ عليه في تحصيلِ العَزْمِ، وفي العَمَلِ بمُقتضى العَزْمِ بعدَ حُصولِ العَزْمِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

---

(١) الأبيات لإدريس بن أبي حفصة، انظر: الحماسة البصرية (١/ ١٥٧)، و«الأنوار» للشمشاطي (١/ ٤٠٠)، والبيت الأول مما كان يكثر الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله إنشاده، كما ذكر ابن مفلح في «الآداب الشرعية» (٢/ ٣٦٠).
وجاء في (م) و(س): «إذا اشتكت».

(٢) «أن النبي ﷺ»: سقط من (م) و(س).

(٣) أخرجه الإمام أحمد (١٩٩٩٢).

والرُّشدُ: هو طاعةُ اللهِ ورسُولِه، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

وكان النَّبيُّ ﷺ يقولُ في خُطبَتِه: «مَن يُطِعِ اللهَ ورسولَهُ فقد رَشَدَ، ومَن يعصِ اللهَ ورسولَه فقد غَوَى»[1].

والرُّشْدُ: ضدُّ الغيِّ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فمَن لم يَكُن رشيداً فهو إمَّا غاوٍ وإمَّا ضالٌّ، كما قالَ تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٢]، فالغاوي مَن تعمَّدَ خِلافَ الحقِّ، والضَّالُّ مَن لم يتعمَّدْه.

والعزمُ نوعانِ:

أحدُهما: عزمُ المُريدِ على الدُّخولِ في الطَّريقِ، وهو البداياتُ.

والثَّاني: العزمُ على الاستمرارِ على الطَّاعاتِ بعدَ الدُّخولِ فيها، وعلى الانتقالِ مِن حالٍ كاملٍ إلى حالٍ أكملَ منه، وهو مِن النِّهاياتِ، ولهذا سمَّى اللهُ تعالى خواصَّ الرُّسُلِ: ﴿أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وهم خمسةٌ، وهم أفضَلُ الرُّسُلِ.

فالعَزْمُ الأوَّلُ يُحصِّلُ للعبدِ الدُّخولَ في كلِّ خيرٍ والتَّباعُدَ مِن كلِّ شرٍّ، إذ به يحصلُ للكافرِ الخروجُ مِن الكُفْرِ والدُّخولُ في الإسلامِ، وبه يحصلُ للعاصي الخروجُ مِن المعصيةِ والدُّخولُ في الطَّاعةِ، فإذا كانت العزيمةُ صادقةً وصمَّمَ عليها صاحِبُها وحمَلَ على هوى نفسِه وعلى الشَّيطانِ حملةً صادقةً ودخلَ فيما أُمِرَ به من الطاعات فقد فازَ.

---

(١) أخرجه الشافعي وهو في «مسنده ـ بترتيب السندي» (٤٢٧)، ومن طريقه البيهقي في «معرفة السنن والآثار» (٦٤٩٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وعونُ اللهِ للعَبْدِ على قدر قوَّةِ عزيمتِه وضَعْفِها، فمَنْ صمَّمَ على إرادةِ الخيرِ أعانَه اللهُ وثبَّتَه كما قيلَ:

على قـدرِ أهـلِ العَـزْمِ تأتـي العَزائِـمُ وتأتـي على قـدرِ الكِـرامِ المَـكارِمُ[١]

لَمَّا أفضَتِ الخلافةُ إلى عُمَرَ بنِ عبدِ العزيزِ رضي اللهُ عنه بعدَ سُلَيمانَ بنِ عبدِ الملكِ، فأوَّلُ ما اشتغلَ بدَفْنِ سُلَيمان، فلمَّا رجعَ مِن دفنِه، وصُفَّتْ له مَراكبُ الخِلافةِ، فوقفَ وأنشدَ:

ولـولا النُّهَـى ثـمَّ التُّقَـى خشيةَ الرَّدَى لعاصَيْـتُ فـي حُـبِّ الصِّبَـا كلَّ زاجـرِ

قَضَى ما قَضَى فيما مضَى ثمَّ لا تُرى لـهُ عَـوْدةٌ أخـرى اللَّيَـالي الغَـوابِرِ

ثمَّ قال: ما شاءَ اللهُ لا قوَّةَ إلَّا باللهِ! قرِّبُوا إليَّ بَغْلي[٢]. فرَكِبَ دابَّتَه التي كان يَركَبُها أوَّلاً، وسارَ مُستصحِباً لتلك العَزيمةِ، فعَلِمَ اللهُ صِدقَهُ فيها فأعانَه.

فأوَّلُ ما بدأَ به أنَّه سارَ بين يديه أهلُ الموكبِ فنَحَّاهُم، وقالَ: إنَّما أنا رجلٌ مِن المسلمينَ[٣]، ثمَّ نزلَ فقعدَ، فقامَ النَّاسُ بين يديه فأُقعِدُوا، قال: إنَّما يقومُ النَّاسُ لربِّ العالَمينَ[٤].

ثمَّ عزمَ على ردِّ المظالمِ، فأدركَتْهُ القائلةُ، وكان قد تَعِبَ وسَهِرَ تلك الليلةَ لِمَوْتِ سُليمانَ بنِ عبدِ الملك، فدخلَ ليَقيلَ ثمَّ يخرُجَ فيرُدَّ المظالمَ وقتَ صلاةِ الظُّهرِ، فجاءَ ابنُه عبدُ الملكِ فقالَ له: أتنامُ وما رددتَ المظالم؟ فقال: إذا صلَّيتُ الظُّهرَ ردَدْتُها، فقالَ عبدُ الملكِ: ومَن لك أن تعيشَ إلى الظُّهرِ؟ وإن عشتَ فمَنْ لك

---

(١) من الأبيات المشهورة للمتنبي يمدح سيف الدولة.

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٧/ ٣٣٣)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٥/ ١٦٦).

(٣) أخرجه الأصبهاني في «سير السلف الصالحين» (٣/ ٨٥٤).

(٤) «سيرة عمر بن عبد العزيز»، لابن عبد الحكم (ص: ٣٩).

أن تبقى لك نيَّتُكَ؟ فقامَ وخرجَ ونادى: الصَّلاةَ جامعةً، فاجتمعَ النَّاسُ، فردَّ المظالم، وجاءَ بكتبِ القُرَى والأملاكِ التي كانت في يدِه مِن إقطاعِ بني عمِّه، فمزَّقَها كلَّها، وردَّ تلك القُرَى إلى بيتِ مالِ المُسلمينَ[١].

وكان يقولُ: إنَّ لي نفساً توَّاقةً ما نالت شيئاً إلَّا تاقت[٢] إلى ما هو أفضَلُ منه، فلَمَّا نالتِ الخِلافةَ وليس فوقَها في الدُّنيا مَنزلَةٌ تاقَتْ إلى الآخرةِ[٣].

وإذا كانــتِ النُّفــوسُ كِبــاراً تَعِبَت في مُرادِهــا الأجســادُ[٤]

لَمَّا وَلِيَ الخلافةَ سمعوا[٥] في بيتِه صراخاً عالياً مِن النِّساءِ، فسُئِلَ عن ذلك، فقيل: إنَّه خيَّرَ امرأتَهُ وجَواريَه، فقال: مَن أرادَتْ مِنكنَّ أن تذهبَ فلتَذْهَبْ، ومَن أرادَتْ أن تُقيمَ فلتُقِم، وليس لها مِنِّي نَصيبٌ، فإنِّي قد نزلَ بي أمرٌ شغَلَني[٦] عنكنَّ، فبَكَيْنَ إياساً منه[٧].

ذاكَرُوه مَرَّةً شيئاً ممَّا كان فيه قبلَ الخِلافةِ مِن النَّعيمِ، فبَكى حتَّى بكى الدَّمَ[٨].

---

(١) أخرج نحوه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٥/ ٣٥٨).

(٢) في (ف): «وتاقت».

(٣) أخرج نحوه مطولًا أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٣١)، وابن قتيبة في «عيون الأخبار» (١/ ٣٣٤).

(٤) البيت مشهور عن المتنبي، وآخره: «الأجسام».

(٥) في (ف): «سُمع» لكنه نصب «صراخاً» بعدها!

(٦) في (ت) و(ف): «أشغلني».

(٧) «سيرة عمر بن عبد العزيز»، لابن عبد الحكم (ص: ١٢٥). وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٨٨٩)، ومن طريقه: أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٥٩)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٥/ ١٦٨) (٧٣/ ١٢).

(٨) أخرجه أحمد بن حنبل في «الزهد» (١٦٨٩)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٥/ ٢٣٧).

وكان أكثرَ ما يقتاتُ به حالَ خِلافَتِه العَدَسُ[١] والزَّيتُ، فإذا عُوتِبَ في ذلك يقولُ: هذا أهوَنُ علينا[٢] مِن مُعالجةِ الأغلالِ غداً في النَّارِ[٣].

ودخلَ مرَّةً على بَناتِه وقد كُنَّ تَعشَّيْنَ بعَدَسٍ فيه بصَلٌ، فكَرِهْنَ أن يَشَمَّ مِنهنَّ رائحةَ ذلك، فلمَّا رأينَه هرَبْنَ فبكى وقالَ: يا بناتي إمَّا تفعَلْنَ أن تتعشَّيْنَ الألوانَ[٤]، ويُذهبَ بأبيكنَّ إلى النَّارِ[٥]؟.

وكان يقولُ لأولادِه: إنَّ أباكم خُيِّرَ بين أن تَفتَقِرُوا ويَدخُلَ الجنَّةَ، وبين أ· تَسْتغنوا ويَدخُلَ النَّارَ، فكان أن تَفتَقِرُوا ويَدخُلَ الجنَّةَ أحبَّ إليهِ[٦].

كـم أحمِـلُ في هـواكَ ذُلًّا وعَـنَـا ... كم أصبِرُ فيك تحتَ ضُرٍّ وضَـ.

لا تَطرُدَنِّي فليس لـي عنكَ غِنى ... خُذْ روحيَ إنْ أردتَ رُوحي ثَمَنا[٧]

كان يقولُ لبَعضِ أعوانِه: إذا رأيتَني مِلتُ عن الحقِّ، فضَعْ يدكَ في تلبابي، ثمَّ هُزَّني وقُل[٨]: ما تصنَعُ يا عُمَرُ![٩].

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٥/ ٢٣٨) (٦٠/ ٣٦٠).

(٢) في (ف): «علي».

(٣) أخرجه البيهقي في «الزهد الكبير» (٤٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٥٩)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٥/ ٢١٤).

(٤) هكذا في النسخ، وصوابه: «ما ينفعكن أن...».

(٥) «سيرة عمر بن عبد العزيز»، لابن عبد الحكم (ص: ٥٤).

(٦) أخرجه ابن الجوزي في «المنتظم» (٧/ ٧١).

(٧) ذكره ابن الجوزي في «المدهش» (ص: ١٥٧).

(٨) في (س): «فقل».

(٩) قاله عمر بن عبد العزيز رحمه الله لعمرو بن مهاجر. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٩٢).
تلبابي: مجمع الثياب عند النحر.

مِنْ أجْلِكَ قد تركتُ[1] خدِّي أرضَا   للشَّامتِ والحَسُودِ حتَّى تَرْضَى
مَوْلايَ إلى مَتى بهذا أحظَى   عُمرِيَ يفنى وحاجَتي ما تُقْضَى[2]

لا زالَ ينحلُ جسمُه حتَّى كانت أضلاعُه يعدُّها مَنْ رآهُ عدًّا.

حبِّي والفِراقُ أورثاني سُقْمَا   هذا جَسَدِي يُعَدُّ عظمًا عظمَا
دَعْني فالشَّوقُ قد كفاني خَصْمَا   يا سهمَ البينِ قد أَصبتَ[3] المرمى[4]

وقال غيرُه:

أُخفِي شَجَني ولَوْعَتي تُبديهِ   والدَّمعُ يَنِمُّ بالذي أُخفيهِ
قلبي قَلِقٌ بحُبِّ مَن يُضنِيهِ   لا أعذِلُه فما به يَكفيهِ[5]

كم كان يُعذَلُ على حالهِ ويُلَام، والمحبَّة تنهاهُ أن يُصغِيَ إلى عَذْلٍ أو مَلَام.

قطَّعَني الغَرامُ إربًا إرْبَا   ما ازدَدْتُ على الملامِ إلَّا حُبَّا
زِلتُ بكُمْ أسيرَ وَجْدٍ صَبَّا   حتى[6] أقضي على هواكُم نَحْبَا[7]

ما زالت به المَحَبَّةُ حتى رقَّته إلى درجةِ الرِّضى بمُرِّ القَضا، فكان يقولُ: أصبحتُ ومالي سُرورٌ في غيرِ مَواقعِ القَضاءِ والقَدَرِ[8].

---

(١) في (ت) و(ف): «جعلت».

(٢) البيتان في «المدهش» لابن الجوزي (ص: ١٨١).

(٣) في (ت) و(ف): «أُصيبَ».

(٤) البيتان في «المدهش» (ص: ٣٢٩).

(٥) لم أجده عند غير المصنف رحمه الله.

(٦) في (ت) و(ف): «حتى انني»!

(٧) ذكرهما ابن الجوزي في «المدهش» (ص: ١٨٢).

(٨) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٧/ ٣٦٣)، وابن الحكم في «سيرة عمر بن عبد العزيز» =

ومات أعوانُه على الخيرِ كلُّهُم فـي أيامٍ مُتواليةٍ، ابنُه عبدُ الملكِ وأخوه سَهلٌ ومولاه مزاحِمٌ، فكان يقولُ بعدَ مَوتِهم في مُناجاتِه: أنت تعلَمُ[١] ما ازددتُ لك إلَّا حُبًّا ولا فيما عندكَ إلا رَغبةً[٢].

ولَمَّا دُفِنَ ابنُه عبدُ الملكِ، وكان أحبَّ الخلقِ إليه قال: ما زلتُ أرى فيه السُّرورَ وقُرَّةَ العينِ مِن يومِ وُلِدَ إلي يومي هذا، فما رأيتُ فيه أمراً قطُّ أقرَّ لعَيْنِي مِن أمرٍ رأيتُه فيه اليومَ[٣].

وكتبَ إلى الأمصارِ: إنَّ اللهَ أحبَّ قَبْضَه، وأعوذُ باللهِ أن تكونَ لي محبَّةٌ فِ مِن الأمورِ تُخالِفُ محبَّةَ اللهِ[٤]؛ فإنَّ خِلافَ ذلك لا يصلحُ في بلائِه عندي وإ ء إليَّ ونِعمَتِه عليَّ[٥].

إن كـــان سُكَّـــانُ الـغَـضـا ... رَضُـــوا بقَـتْـلِـــي فَرِضَـــا

واللهِ مـــا كـنــتُ لِـمَـــا ... يَهْـوى الحبيـبُ مُبغِضَـــا

صِـــرْتُ لهـــم عَبْـــدًا ومـــا ... للعَـبْـــدِ أن يَعـتَـرِضَـــا[٦]

= (ص: ٩٧)، وابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (١٠/ ٤٦) بألفاظ مقاربة.

(١) في (س): «تعلم أني».

(٢) «سيرة عمر بن عبد العزيز»، لابن عبد الحكم (ص: ١٠٠).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣٥٧) وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٢/ ٤٤٣) في ترجمة علي بن الحسين بن الخشخاش البصري.

(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد «الزهد» (١٧١٤)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٠٦).

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٥٧).

(٦) في (م) و(س): «والله لا كنت».

والأبيات من شعر أبي عبد الله الحسين بن محمد بن عبد الوهاب، البارع، والقصيدة بتمامها في «خريدة القصر» (٣/ ٦٦).

إخواني! الخيرُ كلُّه مَنوطٌ بالعَزيمةِ الصَّادقةِ على الرُّشدِ، وهي الحملةُ الأولى التي تهزِمُ جيوشَ الباطلِ، وتوجِبُ الغلبةَ لجنودِ الحقِّ.

زَجَـرَ الحَـقُّ فـؤادِي فارْعَوَى ... وأفـاقَ القَلْـبُ مِنِّـي وصَحَـا

هـزمَ العَـزْمُ جُيُوشـاً للـهَوَى ... سادَتِي لا تعجَبُـوا إن صَلحَـا[7]

قال أبو حازمٍ: إذا عزمَ العَبْدُ على تركِ الآثامِ أتته[2] الفُتوحُ[3].

يشيرُ إلى ما يُفتَحُ عليه مِن تيسيرِ الإنابةِ والطَّاعةِ ومَقاماتِ[4] العارفينَ.

سُئِلَ بعضُ السَّلفُ: متى ترتحلُ[5] الدُّنيا مِن القَلْبِ؟ قال: إذا وقعَتِ العزيمةُ ترحَّلَتِ الدُّنيا مِن القلبِ ودرجَ القَلْبُ في ملكوتِ السَّماءِ، وإذا لم تقَعِ العزيمةُ اضطربَ القلبُ ورجعَ إلى الدُّنيا[6].

مَن صَدَقَ العزيمةَ يَئِسَ منه الشَّيطانُ، ومتى كان العبدُ مُتردِّداً طَمِعَ فيه الشَّيطانُ وسوَّفَه ومنَّاه.

يا هذا! كلَّما رآكَ الشَّيطانُ قد خرجتَ مِن مجلسِ[7] الذِّكرِ كما دخلتَ وأنتَ غيرُ عازمٍ على الرُّشدِ فَرِحَ بك إبليسُ، وقال: فديتُ مَن لا يُفلِح.

---

(٧) لم أجده عند غير المصنف رحمه الله، وأورده في «لطائف المعارف» (ص: ٣٣٨).
«سادتي»: في جميع النسخ، وفي بعض نسخ «لطائف المعارف»: «فاسدي»!.

(٢) في (ت) و(ف): «أتت».

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص والنية» (١٤)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٣٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٢/ ٦٢).

(٤) في (م) و(س): «بتيسير»، وفي (س): «ومقام».

(٥) في (ف): «ترحل».

(٦) مما سمعه أحمد بن أبي الحواري من مؤدب في البصرة يقال له: أبو غسان. أخرجه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (٥١٨) و«ذم الدنيا» (٤٤٤).

(٧) في (ت) و(ف): «مجالس».

يا مَن شابَ وما تاب، ولا عَزَمَ على الرُّشدِ ولا أناب، لقد أفرحتَ الشَّيطانَ وأسخَطْتَ الرَّحمَن.

وإذا تكامَلَ للفتى مِن عُمرِه ... خمسون وهو إلى التُّقى لا يجنَحُ

عكفَتْ عليه المُخزِيَاتُ فما لهُ ... مُتأَخَّرٌ عنها ولا مُتزحزَحُ

وإذا رأى الشَّيطانُ غُرَّةَ وجهِه ... حَيَّا[1] وقال فَدَيتُ مَن لا يُفلِحُ[2]

***

قولُه ﷺ: «وأسأَلُكَ شُكرَ نِعمَتِك وحُسنَ عِبادَتِك»:

هذا كما وصَّى النَّبيُّ ﷺ مُعاذاً أن يقولَ في دبرِ كلِّ صلاةٍ: «اللهمَّ أعنِّي على ذكرِكَ وشُكرِكَ وحُسنِ عِبادَتِك»[3].

فهذانِ أمرانِ:

أحدُهُما: شُكرُ النِّعَمِ، وهو مأمورٌ به قالَ تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤]، والشُّكرُ بالقَلْبِ واللسانِ والعَملِ بالجوارحِ.

فالشُّكرُ بالقلبِ: الاعترافُ بالنِّعَمِ للمُنعمِ وأنَّها منه وبفَضلِه.

---

(١) في (س): «حياه».

(٢) أصل الأبيات للبحتري، وهي في «ديوانه».

وأنشده له البيهقي في «الزهد الكبير» (ص: ٢٤٩) لكن قافيتها بكسر الحاء. وما عند المصنف مأخوذ من ابن الجوزي في «المدهش» (ص: ٣٤٤).

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٢٢١١٩)، وأبو داود (١٥١٧)، وهو الحديث المسلسل بالمحبة.

وجاء مِن حديثِ عائشةَ مرفوعاً: «ما أنعمَ اللهُ على عبدٍ نِعمةً فعَلِمَ[١] أنَّها مِن عندِ اللهِ إلَّا كتبَ اللهُ[٢] لهُ شُكرَها»[٣].

ومِنَ الشُّكرِ بالقلبِ: محبَّةُ اللهِ على نِعَمِه، ومنه حديثُ ابنِ عبَّاسٍ المرفوعُ: «أَحِبُّوا اللهَ لِمَا يَغذوكُم به مِن نِعَمِه»[٤].

قال بعضُهُم: إذا كانتِ القلوبُ جُبِلَت على حُبِّ[٥] مَن أحسَنَ إليها، فواعجباً لِمَن لا يرى مُحسِناً إلَّا الله كيفَ لا يميلُ بكُلِّيَّتِه إليه[٦].

وقال بعضُهم:

إذا أنتَ لم تزدَدْ على كُلِّ نِعمَةٍ ... لِمُؤتيكَها حُبًّا فلستَ بشاكرِ

إذا أنت لم تُؤثِرْ رِضَى اللهِ وحدَهُ ... على كُلِّ ما تهوى فلستَ بصَابرِ[٧]

والشُّكرُ باللسانِ: الثَّناءُ بالنِّعَمِ وذكرُها وتَعدادُها وإظهارُها، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

---

(١) في (س): «فيعلم».

(٢) في (س): «إلا كُتبَ له».

(٣) أخرجه يعقوب بن سفيان في «مشيخته» (٢٠)، وابن أبي الدنيا في «الشكر» (٤٧)، والطبراني في «الأوسط» (٢٦٧٦)، والحاكم (١/ ٥١٤). وقال: «لا أعلم في إسناده أحداً ذكر بجرح، ولم يخرجاه».

(٤) أخرجه الترمذي (٣٧٨٩) وقال: غريب. يغذوكم: يرزقكم.

(٥) في (س): «محبة».

(٦) أخرجه أبو عبد الرحمن السلمي في «طبقات الصوفية» في ترجمة أبي سعيد الخراز من قوله، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٦٦)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٥/ ٤٥٦)، ومن طرقهم ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥/ ١٣٨). ولا يصح هذا الكلام مرفوعاً.

(٧) ذكرهما ضمن أبيات: القفطي في «إنباه الرواة على أنباه النحاة» (٢/ ٢٢٩) في ترجمة أبي الحسن علي بن أحمد بن محمد المقرئ المؤدب الأحدب.

وفي حديثِ النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ المرفوعِ: «التَّحدُّثُ بالنِّعَمِ شكرٌ وتَركُها كُفْرٌ»[١].

وقال عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ: ذكرُ النِّعَمِ شكرُها[٢].

وكان يقولُ في دعائِه: اللهمَّ إنِّي أعوذُ بك أن أُبدِلَ[٣] نِعَمَك كُفْرًا وأن أكفُرَها بعد مَعرِفَتِها أو[٤] أنساها فلا أُثْنِي بها[٥].

قال فُضَيلٌ: كان يُقالُ: مِن شُكرِ النِّعمةِ أن تُحدِّثَ بها[٦].

وجلس ليلةً هو وابنُ عيينةَ يتذاكرانِ النِّعَمَ إلى الصَّباحِ[٧].

والشُّكرُ بالجوارحِ: أن لا يُستعانَ بالنِّعَمِ إلَّا على طاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وأن يحذرَ مِن استعمالِها في شيءٍ مِن معاصيه، قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سبأ: ١٣].

قال بعضُ السَّلَفِ: لَمَّا قيلَ لهم هذا لم تأتِ عليهم ساعةٌ إلا وفيهم مُصَلٍّ[٨].

وكان النَّبيُّ ﷺ يقومُ حتَّى تتورَّمَ قدماهُ ويقولُ: «أفلا أكونُ عَبْداً شكوراً»[٩].

---

(١) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في «زياداته» (١٨٤٤٩) (١٨٤٥٠) (١٩٣٥٠)، وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٦٤)، ومن طريقه: القضاعي في «الشهاب» (٤٤)، وغيرهم.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٦٢٣٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤١٠٦)، وغيرهما.

(٣) في (ف): «أتبع».

(٤) في (ت) و(ف): «و».

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٦٧)، ومن طريقه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٢٢٥).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٥٦).

(٧) ذكره عنهما: ابن أبي الحواري، أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١١٤).
وفي (م) و(س): «يتذاكرون».

(٨) قاله مسعر رحمه الله. أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٧٤).

(٩) أخرجه البخاري (١١٣٠) (٦٤٧١) ومسلم (٢٨١٩) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

ومرَّ ابنُ المُنكَدِرِ بشابٍّ يُقاوِمُ امرأةً فقالَ: يا بُنَيَّ! ما هذا جزاءُ نعمة الله عليك[1].

العجبُ ممَّنْ يعلَمُ أنَّ كلَّ ما بهِ مِن النِّعَمِ مِن اللهِ ثمَّ لا يَستَحْيِي مِن الاستعانةِ بها على ارتكابِ ما نهاهُ.

هَبِ البَعْثَ لم تأتِنَا رُسلُه ... وجاحمةَ النَّارِ لم تُضرَمِ

أليسَ مِن الواجبِ المُستَحَقْ ... ـقُ حياءُ العِبَادُ مِن المُنعمِ[2]

مَن كَثُرَت عليه النِّعَمُ فليُقيِّدْها بالشُّكرِ وإلَّا ذهبَتْ.

إذا كنتَ في نِعمَةٍ فارعَها ... فإنَّ المعاصي تُزِيلُ النِّعَمْ

وحافِظْ عليها بشُكْرِ الإلَهِ ... فشُكْرُ الإلهِ يُزِيلُ النِّقَمْ[3]

دخلَ خالدُ بنُ صفوانَ على عُمرَ بنِ عبدِ العزيزِ فقال: يا أميرَ المؤمنين! إنَّ اللهَ لم يرضَ أن يكونَ أحدٌ فوقك، فلا ترضَ أن يكون أحدٌ أَوْلى بالشُّكرِ له منك، فبكى عُمَرُ حتَّى غُشِيَ عليه[4].

والأمرُ الثَّاني: حُسْنُ العبادةِ. وحُسْنُها[5]: إتقانُها والإتيانُ بها على أكملِ وُجوهِها.

وإلى هذا أشارَ ﷺ لَمَّا سألَهُ جبريلُ عنِ الإحسانِ فقال: «أن تعبُدَ اللهَ كأنَّك تراه فإن لم تكُن تراهُ فإنَّه يراكَ»[6].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٨٦). يقاوم: يغامز.

(٢) أصلهما للوزير الحسن بن محمد المهلبي، كما في «يتيمة الدهر» للثعالبي (٢/ ٢٨٥). وذكرهما ابن الجوزي في «المدهش» (ص: ٤٩٤).

(٣) «شعب الإيمان» للبيهقي (٤٢٣٨)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٤/ ٧٠) وقائل الشعر قديم.

(٤) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٠٣٤)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٦/ ٩٦).

(٥) في (س): «وحسن العبادة».

(٦) من حديث جبريل الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه واستفتح به مسلم أحاديث صحيحه.

فأشارَ إلى مقامينِ:

أحدُهما: أن يَعبُدَ اللهَ العبدُ مُستحضِراً لرُؤيةِ اللهِ إيَّاهُ، ويستحضرَ قُرْبَ الله منه واطِّلاعَه عليه فيُخلِصَ له العملَ ويَجتهِدَ في إتقانِه وتحسينِه.

والثَّاني: أن يَعبُدَهُ على مُشاهدَتِه إيَّاه بقَلْبِه فيُعامِلَهُ مُعاملةَ حاضرٍ لا مُعاملةَ غائبٍ.

وقد وصَّى ﷺ رَجُلاً أن يُصَلِّيَ صلاةَ مُودِّعٍ[1]، يعني: يَستشعِرُ أنه يصلِّي صلاةً لا يُصلِّي بعدَها صلاةً أُخرى، فيحملُه ذلك على إتقانِها وتكميلِها وإحسانِها.

وقد وردَتْ أحاديثُ فضائلِ الأعمالِ مُقيَّدةً بإحسانِ العَملِ، كما في حديث أبي سعيدٍ عن النَّبيِّ ﷺ: «إذا أسلمَ العبدُ فحَسُنَ إسلامُه كتبَ اللهُ له كلَّ حسنةٍ كان أزلفَها ومحى عنه كلَّ سيِّئةٍ كان أزلفَها، ثمَّ كان بعد ذلك القِصاصُ، الحسَنةُ بعشرِ أمثالِها إلى سبعِ مئةِ ضِعفٍ، والسَّيِّئةُ بمثلِها إلَّا أن يتجاوزَ اللهُ عزَّ وجلَّ عنها» خرَّجه البُخاريُّ تعليقاً[2].

وفي روايةٍ: «وقيلَ له ايتنف[3] العملَ»[4].

وفي «صحيحِ مُسلمٍ» عن أبي هُريرةَ، عن النَّبيِّ ﷺ: «إذا أحسنَ أحدُكُم إسلامَه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٣٤٩٨) وابن ماجه (٤١٧١) من حديث أبي أيوب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري تعليقاً (٤١) وليس فيه ذكر الحسنة، واللفظ الذي أورده المصنف أخرجه النسائي (٤٩٩٨).

أزلفها: قرَّبها، والمراد: ما تقرب به العبد إلى الله عز وجل من أعمال البر والأفعال الصالحة.

(٣) في (س): «استئنف».

(٤) عزاه القسطلاني في «إرشاد الساري» (١/ ١٢٨) إلى الإسماعيلي موصولاً كاملاً.

فكلُّ حسنةٍ يعمَلُها تُكتَبُ بعشرِ أمثالِها إلى سبع مئةِ ضعفٍ، وكلُّ سيئةٍ تُكتَبُ بمثلِها حتَّى يَلْقى اللهَ عزَّ وجلَّ»[١].

وفيه أيضاً: عن عثمانَ رضيَ الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ: «مَن توضَّأَ فأحسنَ الوُضوءَ خرجَتْ خطاياه مِن جَسَدِه حتَّى تَخرُجَ مِن تحتِ أَظفارِه»[٢].

وفيه أيضاً: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «مَن أحسنَ في الإسلامِ لم يُؤاخَذْ بما عَمِلَ في الجاهليَّةِ، ومَن أساءَ في الإسلامِ أُخِذَ بالأوَّلِ والآخرِ»[٣].

وكان السَّلفُ يوصونَ بإتقانِ العملِ وتحسينِه دون الإكثارِ منه[٤]؛ فإنَّ العملَ القليلَ مع التَّحسينِ والإتقانِ أفضلُ مِن الكثيرِ مع الغَفْلةِ وعدمِ الإتقانِ.

قال بعضُ السَّلفِ: إنَّ الرَّجُلينِ لَيقومانِ في الصَّفِّ وبين صلاتَيْهِما كما بين السَّماءِ والأرضِ[٥].

كم بين مَن تصعَدُ صلاتُه لها نورٌ وبُرهانٌ كبُرهانِ الشَّمسِ وتقولُ: «حَفِظَكَ اللهُ كما حَفِظتَني»، وبين مَن تُلَفُّ صلاتُه كما يُلَفُّ الثَّوبُ الخَلَقُ فيُضرَبُ بها وجهُ صاحبِها وتقولُ له: «ضيَّعَكَ اللهُ كما ضيعتَنِي»[٦].

---

(١) أخرجه مسلم (١٢٩)، وأخرجه البخاري أيضاً (٤٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٥).

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٢١)، ومسلم (١٢٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) في حاشية (س): «مطلب: في إحسان العمل».

(٥) أخرجه الدولابي في «الكنى والأسماء» (١٦٧٧)، وابن المبارك في «زيادات الزهد برواية نعيم بن حماد» (ص: ٢٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٦٧) من كلام شفي بن ماتع الأصبحي.
وأخرجه ابن المبارك في «زيادات الزهد برواية نعيم بن حماد» (ص: ٢٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٧١) من كلام حسان بن عطية. وأما روايته مرفوعاً فموضوعة. والله أعلم.

(٦) مقتبسٌ من حديث أخرجه أبو داود الطيالسي في «مسنده» (٥٨٦) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

ولهذا قال ابنُ عبَّاسٍ وغيرُه: صلاةُ ركعتينِ في تَفكُّرٍ خيرٌ مِن قيامِ ليلةٍ والقلبُ ساهٍ[1].

قال بعضُ السَّلَفِ: لا يَقِلُّ عملٌ مع تقوى، وكيف يَقِلُّ ما يُتقبَّلُ؟[2] يشيرُ إلى قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

ولهذا قالَ مَن قالَ مِن الصَّحابةِ: لو علمتُ أنَّ اللهَ قَبِلَ مِني ركعتينِ كان أحبَّ إليَّ مِن كذا وكذا[3]. فمَنِ اتَّقى اللهَ في العملِ قَبِلَه منه، ومَن لم يتَّقِه فيه لم يتقبَّلْه منه، والتَّقوى في العَملِ أن يأتيَ به على وجهِ إكمالِ واجباتِه الظَّاهرةِ والباطنةِ، وإن ارتقى إلى الإتيانِ بآدابِه وفضائلِه كان أكملَ، والقبولُ هنا يرادُ به: الرِّضى بالعملِ والمدحُ لعاملِه والثناء عليه في الملأِ الأعلى ومُباهاةُ الملائكةِ.

وقد يرادُ بالقبولِ: الثَّوابُ على العملِ وإن لم يَرْضَ به ولم يَمْدَح عاملَه، فيُجازى عليه بأنواعٍ مِن الجزاءِ فَضْلاً مِن اللهِ وإحساناً وإن لم يرضَ عن عاملِه.

كما رُئِيَ بعضُ العُلَماءِ المفرِّطينَ في النَّومِ، فسُئِلَ عن حالِه، فقال: غفرَ لي وأعرضَ عنِّي وعن جماعةٍ مِن العُلَماءِ لم يعمَلُوا بعِلْمِهم[4].

ويُطلَقُ القَبولُ على إسقاطِ الفَرْضِ بالعَملِ، وإن لم يُثَب عليه بثَوابٍ غيرَ سُقوطِ العقوبةِ والمُطالبةِ بأداءِ الفرضِ به.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٢٨٨) (١١٤٧). وأخرج أبو الشيخ في «العظمة» (٤٢) عن ابن عباس موقوفاً: «تفكر ساعة خير من قيام ليلة».

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص والنية» (٦) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) أخرج ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء رضي الله عنه نحوه. كما في تفسير آية المائدة من «الدر المنثور» للسيوطي.

(٤) ذكره المصنف رحمه الله أيضاً في الباب العاشر من «استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس».

والعارفونَ كلُّهُم إنَّما يَطلبونَ القبولَ بالوَجهِ الأوَّلِ وهو الرِّضَى، ويخافونَ مِن فَواتِه أشدَّ الخوفِ.

قال مالكُ بنُ دينارٍ: وَدِدتُ أنَّ اللهَ تعالى إذا جمعَ الخلائقَ يقولُ لي: يا مالك! فأقولُ: لبيكَ، فيأذَن لي أن أسجُدَ بين يديهِ سَجدةً، فأعرف أنَّه قد رَضِيَ عنِّي، ثمَّ يقول لي: يا مالك! كنِ اليومَ تراباً، فأكون تُراباً[1].

كان بعضُهُم يقولُ في سُجودِه: متى ألقاكَ وأنت عني راضٍ[2]؟

قد عَذَّبني بكثرةِ الإعراضِ ... وَاعْتاضَ ولستُ عنه بالمُعتاضِ

يا مَنْ بوِصالِه شِفا أمراضِي ... هل أنتَ عليَّ ساخطٌ أم راضِي؟[3]

رضاهُ أكبرُ مِن الجنَّةِ ونَعيمِها، فليس للعارفينَ هَمٌّ سِواه.

لعلَّكَ غضبانٌ وقلبيَ غافِلٌ ... سلامٌ على الدَّارينِ إن كنتَ راضِيَا[4]

* * *

قولُه ﷺ: «وأسألُكَ قلباً سليماً ولِساناً صادقاً»:

القلبُ واللسانُ هما عِبارةٌ عن الإنسانِ، كما يقالُ: الإنسانُ بأصغريهِ قلبِه[5] ولسانِه[6].

---

(١) أخرجه الختلي في «الديباج» (٢٤)، وابن أبي الدنيا في «المتمنين» (٣٣)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق»(٥٦/ ٤١٢). ولا يوجد في المصادر: «فأكون تراباً»، وكذلك لا توجد في (ف).

(٢) كان يقوله مسلم بن يسار رحمه الله.

أخرجه أحمد في «الزهد» (١٣٩٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٩١) وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٨/ ١٣٧).

(٣) لم أجد البيتين عند غير المصنف رحمه الله.

(٤) في هامش (س): «بلغ». والبيت ذكره ابن الجوزي في «التبصرة» (١/ ٢٤٤).

(٥) في (س): «بقلبه».

(٦) مثل قديم قبل الإسلام.

وخرَّجَ ابنُ سعدٍ، من روايةِ عُروةَ بنِ الزُّبيرِ مُرسَلاً: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لَمَّا رأى أشجَّ عبدِ القيسِ، وكان رَجُلاً دميماً، [فقال الأشجُّ]: «إنه لا يُستقى في مُسُوكِ[١] الرِّجالِ، إنَّما يُحتاجُ مِن الرَّجُلِ إلى أصغريهِ لسانِه وقلبِه»[٢].

وقال المتنبِّي:

لسانُ الفتى نِصْفٌ ونِصفٌ فؤادُهُ ... فلم يَبقَ إلَّا صورةُ اللَّحمِ والدَّمِ[٣]

فمَنِ استقامَ قلبُه ولِسانُه استقامَ شأنُه كلُّه، فالقلبُ السَّليمُ هو الذي ليس فيه شيءٌ مِن محبَّةِ ما يكرَهُه اللهُ، فدخلَ في ذلك سلامتُه مِن الشِّركِ الجَليِّ والخَفيِّ، ومِن الأهواءِ والبِدَعِ، ومِن الفُسوقِ والمعاصي كبائرِها وصَغائرِها الظَّاهرةِ والباطنةِ؛ كالرِّياءِ والعُجْبِ والغِلِّ والغِشِّ والحِقْدِ والحَسَدِ وغيرِ ذلك.

وهذا القلبُ السَّليمُ هو الذي لا ينفعُ يومَ القيامةِ سواهُ، قال اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩].

إذا سَلِمَ[٤] القلبُ لم يَسكُنْ فيه إلَّا الرَّبُّ[٥].

---

(١) في حاشية (ف): «جلود».

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٨/ ١١٨) من رواية عبد الحميد بن جعفر عن أبيه مرسلًا.
وإنما رواية عروة بن الزبير لمتن كان قبله!
وهو موقوف من كلام الأشج، وليس من كلام النبي ﷺ! وهو في النسخ الخطية لدينا معزو للنبي ﷺ لذلك أضفنا ما بين معقوفين لإيضاح الأمر وعدم نسبته للنبي ﷺ. ومعناه: أن دمامة الوجه لا تحجب حسن قول صاحبه وحسن رأيه فما يُصنع بعد ذلك بجلد وجهه!

(٣) البيت من معلقة زهير بن أبي سلمى. وتمثل به عدة من الأفاضل. فليس هو للمتنبي.

(٤) في (ف): «أسلم».

(٥) معناه: لم يسكن فيه إلا محبة الرب سبحانه.

في بعضِ الآثارِ[١]: يقولُ اللهُ: ما وَسِعَني سَمائي ولا أرضي، ولكن وَسِعَني قلبُ عبدي المؤمنِ[٢].

ساكنٌ في القلبِ يَعمُرُه لستُ أنسَاهُ فأذكرُهُ
غابَ عن سَمْعِي وعن بَصَرِي فسُوَيدا القلبِ تُبصِرُهُ[٣]

متى سكنَ في القلبِ غيرُ اللهِ فاللهُ أغنى الأغنياءِ عنِ الشِّركِ، وهو لا يرضى بمُزاحمةِ أصنامِ الهوى.

أردناكُمُ صِرْفاً فلمَّا مُزِجْتُم بَعُدْتُم بمقدار التِفاتِكُمُ عنَّا
وقُلنا لكم لا تُسكِنُوا القَلْبَ غيرَنا فأسكنتُمُ الأغيارَ ما أنتمُ مِنَّا[٤]

سلامةُ الصُّدورِ مِن الرِّياءِ والغِلِّ والحَسَدِ والغِشِّ والحِقْدِ، وتطهيرُها مِن ذلك أفضَلُ مِن التَّطوُّعِ بأعمالِ الجَوارحِ.

قال بعضُهم: ما بلغ عندنا مَن بلغَ بكثرةِ صيامٍ ولا صلاةٍ، ولكن بسَلامةِ الصُّدورِ وسَخاوةِ النُّفوسِ والنَّصيحةِ[٥].

وكثرةُ أعمالِ الجَوارحِ مع تدنُّسِ القلبِ بشيءٍ مِن هذه الأوضارِ لا يزكو، وهو كزرعٍ في أرضٍ كثيرةِ الآفاتِ، لا يكادُ يسلَمُ ما ينبتُ[٦] فيها.

---

(١) في (ت) و(ف): «في بعض نسخ الآثار».

(٢) أثر إسرائيلي. وانظر التعليق عليه في «الكلام على كلمة الإخلاص».

(٣) ذكر نحو هذين البيتين عن الجنيد القشيريُّ في «الرسالة» (٢/ ٤٧٢).

(٤) ذكره ابن الجوزي في «المدهش» (ص: ٣٢٧).

(٥) نقله المصنف رحمه الله أيضاً عن بعض السلف في «لطائف المعارف» في وظيفة شهر ذي القعدة. وهذا المعنى يُروى مرفوعاً في أحاديث الأبدال. كمرسل الحسن، عند ابن أبي الدنيا في «الأولياء» (٥٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٣٩٣).

(٦) في (س): «نبت».

وأمَّا اللسانُ الصَّادقُ فهو مِن أعظمِ المواهبِ مِن اللهِ والمِنَحِ، وفي الحَديثِ: «أعظَمُ الخَطايا اللِّسانُ الكذوبُ»[١]، وكذلك اللِّسانُ الصَّادقُ أعظَمُ الحَسَناتِ.

وروى أبو نُعَيمٍ بإسناده: أنَّ عبدَ اللهِ بنَ عمرِو بنِ العاصِ كان جالساً فأقبلَ إليه تُبَيْعٌ الحِمْيَريُّ، فقال عبدُ اللهِ: قد أتاكم أعرَفُ مَن عليها، فلمَّا جلسَ قال له عبدُ اللهِ: أخبِرْنا عن الخَيْراتِ الثَّلاثِ والشَّرَّاتِ الثَّلاثِ، قال: نعم، الخَيْراتُ الثَّلاثُ: لسانٌ صَدوقٌ وقلبٌ نقيٌّ[٢] وامرأةٌ صالحةٌ، والشَّرَّاتُ الثَّلاثُ: لسانٌ كذوبٌ وقلبٌ فاجرٌ وامرأةُ سوءٍ، فقال عبدُ اللهِ: قد قلتُ لكم[٣].

وفي «الصَّحيحِ»، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «عليكم بالصِّدقِ؛ فإنَّ الصِّدقَ يَهْدي إلى البرِّ، وإنَّ البِرَّ يَهْدي إلى الجنَّةِ، وإيَّاكم والكَذِبَ، فإنَّ الكذبَ يهدي إلى الفُجورِ، والفُجورَ يهدي إلى النَّارِ، ولا يزالُ الرَّجُلُ يصدقُ ويتحرَّى الصِّدقَ حتَّى يُكتبَ عندَ اللهِ صِدِّيقاً، ولا يزالُ الرَّجلُ يكذِبُ ويتحرَّى الكَذِبَ حتَّى يُكتبَ عندَ اللهِ كذَّاباً»[٤].

وفيه أيضاً: عن النَّبيِّ ﷺ قال: «آيةُ المُنافقِ ثلاثٌ، إذا حدَّثَ كذبَ وإذا وعدَ أخلفَ وإذا اؤتمِنَ خان»[٥].

---

(١) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٢٤١) من حديث عقبة بن عامر، وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٤٧٩)، وأبو داود في «الزهد» (١٦٠) وغيرهما موقوفاً على ابن مسعود رضي الله عنه. وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٤٧٨) موقوفاً على علي رضي الله عنه.

(٢) في (م): «تقي».

(٣) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٨٧).

(٤) أخرجه البخاري (٦٠٩٤) ومسلم (٢٦٠٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فالكَذِبُ أساسُ النِّفاقِ الذي بُني عليه، كما أنَّ الصِّدقَ أساسُ الإيمانِ.

قال ابنُ مَسعودٍ: إنَّ الكذبَ لا يَصلحُ في جدٍّ ولا هزلٍ، ثمَّ تلا قولَه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩][1].

وقال كعبُ بنُ مالكٍ: إنَّ مِن تَوْبتي أن لا أُحدِّثَ إلَّا صِدْقاً، قال: وإنَّما نجَّاني اللهُ بالصِّدقِ[2].

قال بعضُهم: حقيقةُ الصِّدقِ أن يَصدُقَ العبدُ في موطنٍ يرى أنَّه لا يُنَجِّيه فيه إلا الكَذِبُ[3].

كان الرَّبيعُ بنُ حِراشٍ[4] مَوْصوفاً بالصِّدقِ، يقالُ إنَّه لم يكذِبْ قطُّ، وكان له ابنانِ عاصيانِ للحَجَّاجِ، وكان يَطلُبُهما، فقَدِما على أبيهما، فبعثَ الحجَّاجُ إلى الرَّبيعِ وقال: سيَعْلَمُ بنو عبسٍ أنَّ شيخَهُم اليوم[5] يكذِبُ، فقال له: أين ابناكَ؟ فقال: تركتُهما في البيتِ واللهُ المستعانُ، فقال: قد عفَوْنا عنهما بصِدْقِك[6].

ومتى طَهُرَ اللسانُ مِن الكذبِ طَهُرَ مِن غيرِه مِن الكلامِ السَّيئِ المُحرَّمِ، واستقامَ حالُ العبدِ كلُّه، ومتى لم يستقِم اللسانُ فسدَ حالُ العبدِ كلُّه.

وربَّما يُعبَّرُ عن صدقِ اللسانِ باستقامةِ المقالِ كلِّه، كما في قولِه تعالى: ﴿وَاجْعَل

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٤٠٠)، ووكيع في «الزهد» (٣٩٥) (٣٩٦)، وعبد الرزاق (٢٠٠٧٦)، وهناد في «الزهد» (٢/ ٦٣٣)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٨٧). وغيرهم.

(٢) في حديث توبته الطويل، أخرجه البخاري (٤٤١٨) ومسلم (٢٧٦٩).

(٣) هو من كلام الجنيد رحمه الله. أخرجه القشيري في «الرسالة» (٢/ ٣٦٥).

(٤) كذا في النسخ، وإنما هو أخوه رِبعي رحمهما الله تعالى.

(٥) «اليوم»: سقط من (س).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (١٣٥)، و«الصمت» (٤٥٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٦٨)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٨/ ٤٣ ـ ٤٤).

﴿لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] وقولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠] يريدُ ثناءً عليهم بحقٍّ.

وكما تنقسمُ الأعمالُ[١] إلى صدقٍ وغيرِ صدقٍ، والمرادُ بالصِّدقِ ما له نفعٌ ودوامٌ، فكذلك أقوالُ الصِّدقِ قد يرادُ بها ما هو حقٌّ له نفعٌ وثَباتٌ.

وجاءَ مِن حديثِ أنسٍ مرفوعاً: «لا يَستقيمُ إيمانُ عبدٍ حتَّى يستقيمَ قلبُه، ولا يستقيمُ قلبُه حتى يستقيمَ لسانُه» خرَّجَه الإمامُ أحمدُ[٢].

ويُروى مِن حديثِ أبي سعيدٍ رفعَه: «إذا أصبحَ ابنُ آدمَ، فإنَّ الأعضاءَ كلَّها تُكَفِّرُ اللسانَ تقول: اتَّقِ اللهَ فينا، فإن استقَمْتَ استقمنَا، وإن اعوجَجْتَ اعوجَجْنا» خرَّجَه التِّرمذيُّ وصحَّحَ وقفَه[٣].

وقال مُطرِّفٌ: مَن صفا عملُه صفا لِسانُه، ومَن خلط خُلطَ له[٤].

وقال يونسُ بنُ عبيدٍ: ما رأيتَ أحداً لسانُه منه على بالٍ إلَّا رأيتَ ذلك صلاحاً في سائرِ عملِه[٥].

ومِن مَراسيلِ زيدِ بنِ أسلمَ: «ما مِن عُضوٍ مِن الأعضاءِ إلَّا وهو يَشْتكي إلى اللهِ ما يلقى مِن اللسانِ على حِدتِه»[٦].

---

(١) في (س): «الأقوال».

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (١٣٠٤٨) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٠٧) مرفوعاً وموقوفاً.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم الكذب» (١١١)، وفي «الصمت» (٥٧٣)، ومن طريقه وطريق غيره: ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٨/ ٣٠٣).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٦٠) (٦٥٣)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (١١٢).

(٦) أخرجه الخطيب من حديث زيد بن أسلم مرسلًا في «الفصل للوصل المدرج في النقل» (١/ ٢٠٩)، وأدرجه بعضهم على موقوف قبله، انظر: «الورع» لابن أبي الدنيا (٩٢)، و«الصمت» (١٣).

قال الحسَنُ: اللسان[١] أميرُ البَدنِ؛ فإذا جنى على الأعضاءِ شيئاً[٢] جنَتْ، وإذا عَفا عَفَتْ[٣].

وقد رُوِيَ عن طائفةٍ من السَّلَفِ: أنَّ اللِّسانَ ترجمانُ القلبِ، والقلبَ مَلِكُ الأعضاءِ، وبقيَّةَ الجوارحِ جنودُه[٤].

فإذا صلحَ الملكُ وترجمانُه صَلَحت الجنودُ كلُّها، وإذا فَسَدا فسَدَتِ الجنودُ كلُّها، فإذا كان الملك سليماً مِن الهوى، والتُّرجمانُ صادقاً أميناً، فالرَّعيَّةُ معهما في عافيةٍ، وإن كان الملِكُ جائراً، والتُّرجمانُ غيرَ أمينٍ فلا تسألْ عن فَسادِ حالِ الرَّعيَّةِ معَهما، ومتى كان التُّرجمانُ غيرَ أمينٍ فقد يُلَبِّسُ[٥]، ولكن حالُ الجائرِ لا يخفى.

وفي «الصَّحيحينِ»، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «ألا إنَّ في الجسدِ مُضغةً إذا صَلَحت صَلَح الجسدُ كلُّه، وإذا فَسدت فَسَد الجسَدُ كلُّه ألا وهي القلبُ»[٦].

وقد تقدَّمَ حديثُ أنسٍ المرفوعُ: «لا يستقيمُ إيمانُ عبدٍ حتَّى يستقيمَ قلبُه، ولا يستقيمُ قلبُه حتَّى يستقيمَ لِسانُه»[٧].

---

(١) في (ف): «القلب»! سبق قلم.

(٢) في (ت) و(ف): «منه شيئاً».

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٥٩) وعنده: «وإذا عفَّ عفَّت».

(٤) ذُكر هذا المعنى في حديثين مرفوعين أخرجهما ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٥٠) من حديث أبي سعيد ومن حديث عائشة رضي الله عنهما. وذكر هذا المعنى كثير من المصنفين قديماً وحديثاً.

(٥) في (س): «يلتبس». وفي (ت) و(ف): «تلبس».

(٦) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

(٧) وقد سبق آنفاً.

وفي «المسندِ» أيضاً، عن ابنِ مَسعودٍ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «والذي نفسي بيدِه لا يُسلِمُ عبدٌ حتى يُسلِمَ قلبُه ولسانُه»[1].

وفي «سنن ابن ماجه»، عن عبدِ اللهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ قال: قلنا: يا رسولَ اللهِ! مَن خيرُ النَّاسِ؟ قال: «ذو القلبِ المخمومِ، واللسانِ الصَّادقِ». قلنا[2]: قد عَرَفنا اللسانَ الصَّادقَ، فما القلبُ المخمومُ؟ قال: «هو التَّقيُّ النَّقيُّ الذي لا إثمَ فيه ولا غِلَّ ولا بغيَ ولا حَسَدَ»[3].

وفي «المسند»: عن أبي ذرٍّ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «قد أفلحَ مَن أخلصَ قلبَهُ للإيمانِ، وجعلَ قلبَه سليماً، ولسانَه صادقاً، ونفسَهُ مُطمئنَّةً، وخليقتَهُ مُستقيمةً، وجعلَ أذنَه مُستمعةً، وعينَه ناظرةً، فأمَّا الأذنُ فَقِمْعٌ[4]، والعينُ مقرَّةٌ، بِمَ[5] يُوعى القلبُ، فقد أفلح مَن جعلَ قلبَه واعياً»[6].

وفي حديثِ ابنِ عبَّاسٍ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يقولُ في دُعائِه: «وسَدِّد لِساني، واسلُلْ سَخِيْمةَ صَدْرِي» خرَّجه التِّرمذيُّ[7].

وسَخِيمةُ الصَّدرِ: ما فيه مِن الغِلِّ والغِشِّ والحسَدِ ونحو ذلك.

قال خالدٌ الرَّبَعيُّ: أمرَ سيِّدُ لُقمانَ لقمانَ بذَبحِ شاةٍ، وقالَ له: ائتِني بأطيَبِها

---

(١) أخرجه أحمد (٣٦٧٢).

(٢) في (ف): «قال».

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٢١٦) بنحوه.

(٤) القمع: ما يوضع في فم القربة حتى ينصبَّ منه الماء فيها.

(٥) في (ت) و(ف): «ثم يوعي».

(٦) أخرجه أحمد (٢١٣١٠).

(٧) أخرجه الترمذي (٣٥٥١)، وقال: «حسن صحيح».

مُضغتينِ. فأتاه باللِّسانِ والقلبِ، فقال له[١]: أما وجدتَ فيها[٢] أطيبَ مِن هذينِ؟ قال: لا. ثمَّ أمرَه أن يذبحَ شاةً أخرى، وقال له: ألقِ أخبثَها مُضغتينِ، فألقى اللسانَ والقلبَ، فقال له: أما كان فيها أخبثُ مِن هذينِ؟ قال: لا. فسألَه عَن فعلِه الأوَّل والثَّاني، فقالَ: إنَّه ليس شيءٌ أطيبَ منهما إذا طابا، ولا أخبثَ مِنهما إذا خبثا[٣].

تعاهَدْ لسانَكَ إنَّ اللسانَ ... سريعٌ إلى المرءِ في قَتْلِهِ
وهذا اللِّسانُ بَريدُ[٤] الفُؤادِ ... يَدُلُّ الرِّجالَ على عقلِهِ[٥]

إذا سَلِمَ القلبُ وصدقَ اللسانُ: ترجمَ اللِّسانُ الصَّادقُ عن القلبِ السَّليمِ بأنواعِ السَّلامةِ، فهذا المسلمُ الذي[٦] سَلِمَ المسلمون مِن لسانِه ويدِه. وإذا فسدَ القَلْبُ فسَدَ اللِّسانُ، فترجمَ عن القلبِ بأنواعِ الفسادِ، وهذا الفاجرُ المُعلِنُ بفُجورِه، فإن ترجمَ عن القلبِ الفاسدِ بالسَّلامةِ[٧] فهذا اللسانُ الكذوبُ، وهو المنافقُ[٨] الذي يختَلِفُ ظاهرُه وباطنُه وقولُه وفِعلُه.

يا مَن يقولُ بلِسانِه ما ليس في قلبِه! لا تَبع ما ليس عندَك، لا تنسُبْ أحكامَ فِرعون إلى موسى.

* * *

---

(١) في (ف): «فقال له لقمان» وهو خطأ.

(٢) في (ف): «فيها شيئاً».

(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (٢٧١).

(٤) في حاشية (س): «لعله: دليل». وليس كذلك.

(٥) البيتان لعبد الله بن المبارك رحمه الله. أنشدهما له ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٦٩١)، وابن الأعرابي في «معجمه» (١٦٨٣).

(٦) في (س): «من».

(٧) في حاشية (س): «لعله بالفجور». وليس كذلك فما في المتن صواب.

(٨) في (ت) و(ف): «للمنافق».

قولُه ﷺ: «وأسألُكَ مِن خيرِ ما تعلَمُ وأعوذُ بك مِن شرِّ ما تعلَمُ»:

هذا سؤالٌ جامعٌ لطلَبِ كلِّ خيرٍ والاستعاذةِ مِن كلِّ شرٍّ، وسواء عَلِمَه الإنسانُ أو لم يعلَمْه، وهذا السُّؤالُ العامُّ بعد سؤالِ تلك الأُمورِ الخاصَّةِ مِن الخيرِ هو مِن بابِ ذكرِ العامِّ بعد الخاصِّ[1].

وقد كان النَّبيُّ ﷺ يُعجِبُه الجوامِعُ مِن الدُّعاءِ، ويأمرُ بها، كما خرَّجه الإمامُ أحمدُ وابنُ ماجَه وابنُ حِبَّان في «صحيحه» مِن حديثِ عائشةَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ علَّمَها هذا الدُّعاءَ: «اللهمَّ إني أسألُكَ مِن الخيرِ كلِّه عاجلِه وآجلِه ما عَلِمْتُ منه وما لم أعلَم، وأعوذُ بك مِن الشَّرِّ كلِّه عاجلِه وآجله ما علمتُ منه وما لم أعلَم، اللهمَّ إنِّي أسألُكَ مِن خيرِ ما سألكَ منه عبدُك ونبيُّك، وأعوذُ بك مِن شرِّ ما عاذَ[2] منه عبدُكَ ونبيُّك، اللهمَّ إنِّي أسألُكَ الجنَّةَ وما قرَّبَ إليها مِن قولٍ وعمَلٍ، وأعوذُ بك مِن النَّارِ وما قرَّبَ إليها مِن قولٍ وعملٍ، وأسألُكَ ما قضيتَ لي مِن قضاءٍ أن تجعلَ عاقبتَهُ[3] رشداً»[4].

وخرَّجَه الحاكمُ، وعنده أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لها: «يا عائشةُ! عليكِ بالكواملِ»[5]، وذكرَ الحديثَ.

---

(١) في (س): «العامة بعد الخاصة»! لعله سبق نظر.

(٢) في (ف): «استعاذ».

(٣) في (م) و(س): «عاقبته لي».

(٤) أخرجه الإمام أحمد (٢٥٠١٩)، وابن ماجه (٣٨٤٦)، وابن حبان (٨٦٩). وعندهم: «وأسألك أن تجعل كل قضاء قضيته لي خيراً» بدلاً من الجملة الأخيرة، وهي مدرجة من طريق آخر يأتي تخريجه في التعليق التالي.

(٥) أخرجه الإمام أحمد (٢٥١٣٧) (٢٥١٣٨)، والحاكم (١/ ٥٢٢).

وخرَّجه الفِريابيُّ في «كتاب الدعاء»، وفي روايةٍ له: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لها: «يا عائشةُ! عليكِ بالجوامعِ من الدُّعاءِ»[1] فذكرَه.

وخرَّجَ التِّرمذيُّ مِن حديثِ أبي أمامةَ قال: دعا رسولُ اللهِ ﷺ بدُعاءٍ كثيرٍ لم نحفَظْ منه شيئاً، قلتُ: يا رسولَ اللهِ! دعوتَ بدُعاءٍ كثيرٍ لم نحفَظْ منه شيئاً، فقال: ألا أدلُّكُم على ما يجمعُ ذلك كلَّه؟ تقولُ: اللهمَّ إنَّا نسألُكَ مِن[2] خيرِ ما سألكَ منه نبيُّك محمَّدٌ ﷺ، ونعوذُ بك مِن شرِّ ما استعاذَ[3] منه نبيُّكَ محمَّدٌ ﷺ، وأنت المُستعانُ وعليك البَلاغُ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ[4].

وسَمِعَ سعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ ابناً له يَدْعو يقولُ: اللهمَّ إنِّي أسأَلُكَ الجنَّةَ ونعيمَها وإستبرقَها، ونحواً مِن هذا...، وأعوذُ بك مِن النَّارِ وسلاسلِها وأغلالِها، فقال: لقد سألتَ اللهَ خيراً كثيراً، وتعوَّذْتَ باللهِ مِن شرٍّ كثيرٍ، وإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «إنَّه سيكونُ قومٌ يعتدونَ في الدُّعاءِ، وقرأ هذه الآيةَ: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥] وإنَّ بحَسْبِكَ أن تقولَ: اللهمَّ إنِّي أسأَلُكَ الجنَّةَ وما قرَّبَ إليها مِن قولٍ وعَمَلٍ، وأعوذُ بك مِن النَّارِ وما قرَّبَ إليها مِن قولٍ وعَمَلٍ». خرَّجَه الإمامُ أحمدُ[5].

وخرَّجَ الطَّبرانيُّ وغيرُه مِن حديثِ أمِّ سَلمةَ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يقولُ في دُعاءٍ له

---

(١) وأخرج نحوه الطيالسي (١٦٧٤).

(٢) في (م) و(س): «إني أسألك خيرَ».

(٣) في (م) و(س): «استعاذك».

(٤) أخرجه الترمذي (٣٥٢١)، وقال: «حسن غريب».

(٥) أخرجه الإمام أحمد (١٤٨٣) وفيه: «من قول أو عمل».

طويلٍ: «اللهمَّ إنِّي أسألُكَ فواتحَ الخيرِ وخواتِمَه، وجوامِعَه، وأوَّلَه وآخرَهُ، وظاهرَهُ وباطنَه»[١].

وخرَّج أبو داودَ مِن حديثِ عائشةَ قالت: كان النَّبيُّ ﷺ يُعجِبُه الجوامعُ مِن الدُّعاءِ ويدَعُ ما بين ذلك[٢].

***

قولُه ﷺ: «وأستغفِرُكَ لِمَا تعلَمُ إنَّكَ أنتَ علَّامُ الغُيوب»:

ختمَ الدُّعاءَ بالاستغفارِ فإنَّهُ خاتمةُ الأعمالِ الصَّالحةِ.

وقولُه: «وأستغفِرُكَ لِمَا تعلَمُ» يشمَلُ[٣] جميعَ ما يجِبُ الاستغفارُ منه مِن ذنوبِ العبدِ.

وقد لا يكونُ العبدُ عالِماً بذلك كلِّه فإنَّ مِن الذُّنوبِ ما لا يشعرُ العبدُ[٤] بأنَّه ذنبٌ بالكُلِّيَّةِ، كما في الحديثِ المرفوعِ: «الشِّركُ أخفى في هذه الأمَّةِ مِن دبيبِ النَّمْلِ على الصَّفا» قالوا: فكيف نقولُ يا رسولَ الله! قال: «قولوا: اللهمَّ إنَّا نعوذُ بك أن نُشرِكَ بك ونحن نعلَمُ، ونستغفِرُكَ لِمَا لا نعلَمُ»[٥].

وكان النَّبيُّ ﷺ يقولُ في دُعائِه: «اللهمَّ اغفِر لي ما قدَّمتُ وما أخَّرْتُ، وما

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧١٧)، وفي «الدعاء» (١٤٢٢).

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٧٧)، ولفظه: «يستحب الجوامع».

(٣) «يشمل»: سقط من (م) و(س).

(٤) في (ف) «العبد به بأنه».

(٥) روي هذا المعنى عن عدد من الصحابة، ومن ذلك حديث أبي موسى رضي الله عنه. أخرجه الإمام أحمد (١٩٦٠٦).

أسـرَرتُ ومـا أعلنتُ، ومـا أنت أعلَـمُ به مِنِّـي، أنت المقـدِّمُ وأنت المؤخِّـرُ، لا إله إلا أنت»[١].

ومِن الذُّنوبِ ما ينساه العبدُ ولا يَذكُرُه وقتَ الاستغفارِ، فيحتاجُ العبدُ إلى استغفارٍ عامٍّ مِن جميعِ ذنوبِه، ما عَلِمَ منها وما لم يعلَم، والكلُّ قد عَلِمَه اللهُ وأحصاه، فلهذا قال: «وأستغفِرُكَ لِمَا تعلَمُ إنَّك أنتَ علَّام الغُيوبِ».

قـالَ اللهُ تـعـالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].

قال إبراهيمُ التَّيميُّ: لَأنا على ذنوبي التي لا أذكرُها أخوَفُ منِّي على الذُّنوبِ التي أذكرُها، لأنِّي أستغفِرُ اللهَ مِن التي أذكرُها[٢].

مَن أهمَّتْه ذنوبُه صارَت نصبَ عينيه ولم ينسَها، ومَن لم تُهمَّه ذنوبُه هانت عليه فنَسِيَها فلم يَذكُرها إلى[٣] يومِ يتذكرُ الإنسانُ[٤] وأنَّى له الذِّكرى!

إذا نُشِرَ ديوانُ السَّيِّئاتِ ضجَّ أربابُ الجرائمِ مِن صِغارِها قبلَ كبارِها، ويقولون: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

قال ابنُ مسعودٍ: إنَّ المؤمنَ يرى ذنوبَه كأنَّه في أصلِ جبلٍ يخافُ أن يقعَ عليه، وإنَّ الفاجرَ يرى ذنوبَه كذبابٍ طارَ على أنفِه فقالَ به هكذا[٥].

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي موسى رضي الله عنه (٢٧١٩)، ومن حديث علي رضي الله عنه (٧٧١).

(٢) لم أجده عند غير المصنف رحمه الله.

(٣) في (س): «إلا».

(٤) في (ف): «يتذكر الإنسان ما سعى». سبق قلم.

(٥) أخرجه أحمد في «المسند» (٣٦٢٧)، والترمذي (٢٤٩٧)، وقال: «حسن صحيح».

قـال عونُ بنُ عبدِ اللهِ: جرائمُ التَّائبين مَنصوبةٌ بالنَّدامةِ نصبَ أعينِهم، لا تَقَرُّ للتَّائبِ في الدُّنيا عينٌ كلَّما ذكرَ ما اجترحَ على نفسِه(١).

قال الفُضَيلُ: بقدرِ ما يصغرُ الذَّنبُ عندك يعظُمُ عندَ اللهِ، وبقدرِ ما يعظمُ عندكَ يَصغرُ عندَ اللهِ(٢).

قال كعبٌ: إنَّ العبدَ ليعمَلُ الذَّنبَ الصَّغيرَ فيحتقرُه(٣)، ولا يندمُ عليه، ولا يستغفرُ اللهَ منه، فيعظمُ عندَ اللهِ، حتَّى يكونَ مثل الطَّودِ، ويعملُ الذَّنبَ العظيمَ فيندمُ عليه، ويستغفرُ منه، فيصغرُ عندَ اللهِ حتَّى يغفرَ له(٤)(٥).

قال: وأصابَ رجلٌ ذنباً فحَزِنَ عليه، فجعلَ يجيءُ ويذهَبُ ويقولُ: بم أرضي ربي؟ فكُتِبَ صِدِّيقاً(٦).

قـال أبو أيُّـوبَ الأنصاريُّ: إنَّ الرَّجُلَ ليعمَلُ بالمُحقَّراتِ حتَّى يأتي اللهَ، وقد أحطنَ به، ويعمَلُ بالسَّيِّئةِ، فَيَفْرَقُ منها حتى يأتي اللهَ آمناً(٧).

قال بعضُ السَّلَفِ: إنَّ الرَّجُلَ لَتُعرَضُ عليه ذنوبُه يومَ القيامةِ، فيَرى ذنباً فيقولُ: أما إنِّي كنتُ مُشفِقاً منك فيغفرُ له(٨).

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٨٥).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (٦٤)، ومن طريقه: البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٧٥١).

(٣) في (ف): «يحتقره».

(٤) في (س): «يغفره».

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (٢٠٧)، ومن طريقه: البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٧٥٠).

(٦) أخرجه الختلي في «الديباج» (١٠٥)، وابن أبي الدنيا ومن طريقه: البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٧٦١).

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (٢٠٨).

(٨) هو من كلام عروة بن عامر رضي الله عنه. أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٦١) (١٣٦٢)، وهناد بن السري في «الزهد» (٢/ ٤٥٩)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٣٦٥)، وابن أبي الدنيا في «التوبة» (٢٠٥).

وقال بعضُهم: كفاكَ همُّكَ بذنبِكَ مِن توبَتِك إقلاعاً وإنابةً[١].

قال الأوزاعيُّ: كان يقالُ: مِن الكبائرِ أن تعملَ الذَّنبَ فتحتقِرَه[٢][٣].

ومن هنا قال بعضُهم: لا تنظُرْ إلى صِغَرِ الخطيئةِ ولكن انظُرْ مَن عصيتَ[٤].

وقال أويسٌ لهَرِمِ بنِ حيَّان: لا تنظُرْ إلى صِغَرِ ذنبِك ولكن انظُر مَن عصَيْتَ، فإن صغَّرْتَ ذنبكَ فقد صغَّرْتَ اللهَ، وإن عظَّمْتَ ذنبكَ فقد عظَّمْتَ اللهَ[٥].

وقال عبدُ اللهِ بنُ عمرِو بنِ العاصِ: مَن ذكرَ خطيئةً عَمِلَها، فوجِلَ قلبُه منها، فاستغفرَ اللهَ منها لم يحبسها شيءٌ حتى يمحوَها عند الرَّحمنِ[٦].

قال الفضيلُ في قولِه تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [ق: ٣٣] قال: هو الرَّجلُ يذكرُ ذنوبَه في الخلاءِ فيستغفرُ اللهَ منها[٧].

كان السَّلفُ لقِلَّةِ ذُنوبِهم يعدُّونَها.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (٣٦) من كلام مُكرم الأزدي من عُبّاد أهل الجزيرة.

(٢) في (س): «فتحقره».

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (٧٢) والبيهقي في «الشعب» (٦٧٥٢ ـ ٦٧٥٣).

(٤) من كلام بلال بن سعد. أخرجه عنه ابن المبارك في «الزهد» (٧١)، وعبد الله بن أحمد في زوائد «الزهد» (ص: ٣٨٤)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٢٣). وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٦٧٥٩).

(٥) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٩/ ٤٤٨).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (١١٧) ولفظه: «حتى يمحاها».
وأخرجه ابن الجوزي في «ذم الهوى» (ص: ٢١٥) ولفظه «حتى تمحى». وذكره المصنف في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤١٤) بمثل لفظ ابن أبي الدنيا وعزاه للطبراني، وذكره أيضاً (١/ ٤٥١) بلفظ «حتى يمحوها عنه الرحمن».

(٧) لم أجده عن الفضيل، وإنما هو عن مجاهد أخرجه يحيى بن سلام في «تفسيره» (١/ ٣٢٠)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١٥٥٧)، وأخرجه ابن أبي شيبة (٣٦١٤٥) عن مجاهد عن عبيد بن عمير، وأخرجه هناد بن السري في «الزهد» (٢/ ٤٥٨) من وجه آخر عن عبيد بن عمير.

قال رياحٌ القيسيُّ: لي نيِّفٌ وأربعون ذنبًا، قد استغفرتُ لكلِّ ذنبٍ مئةَ ألفِ مرَّةٍ[(١)].

رَكِبَ ابنَ سيرين الدَّيْنُ فقال: هذا بذنبٍ أذنبْتُه منذُ أربعين سنةً، قلتُ لرَجُلٍ: يا مُفلِس!.

فذُكِرَ ذلك لأبي سليمان، فقال: قلَّتْ ذنوبُهم، فعَرَفوا مِن أين أُتُوا، وكَثُرت ذنوبُنا فلم نعرِفْ مِن أينَ نُؤتى[(٢)].

كان مَعروفٌ الكرخيُّ رحمه الله يُنشِدُ:

أيَّ شيءٍ تريدُ مِنِّي الذُّنوبُ ... شُغِفَت بي فليس عنِّي تغيبُ

ما يَضُرُّ الذُّنوبَ لو أعتقَتْنِي ... رحمةً لي فقد عَلَاني المَشيبُ[(٣)]

ما للمُذنبين أحدٌ يرجعونَ إليه غيرُ اللهِ، وإلى ذلك أشارَ بقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

ما يأمُلُ الخطَّاؤون إلَّا رحمةَ[(٤)] مَن أسبلَ على خطاياهُم ذيلَ الكرمِ، فستر ما لولا أنَّ حلمَه وسعَ الخَلْقَ لهلكُوا.

قال هارونُ بنُ رئابٍ: حملةُ العرشِ أربعةٌ، يَتجاوبونَ بالتَّسبيحِ[(٥)]. يقولُ اثنانِ مِنهم: سُبحانك وبحمدِك على حلمِك بعدَ علمِك، ويقولُ الآخرانِ: سُبحانك وبحمدِك على عفوِك بعد قُدرَتِك، لِمَا يرَوْنَ مِن ذنوبِ بني آدمَ[(٦)].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٨٠)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ١٩٤).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٧١)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٣/ ٥٤٥)، ومن وجه آخر (٥٣/ ٢٢٦).

(٣) ذكره ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (١/ ٤٧٠).

(٤) في (ف): «رحمة الله».

(٥) في (س): «التسبيح».

(٦) هكذا في جميع نسخنا «حملة العرش أربعة»! وفي المصادر: «ثمانية». =

قال محمَّدُ بنُ النَّضْرِ الحارثيُّ: أَصبْتُ في بعضِ الكتبِ: إنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ابنَ آدمَ! لو يعلمُ[(١)] النَّاسُ منك ما أعلَمُ لَنبذوكَ، فقد سَترتُ عليك وغفَرْتُ لك على ما كان مِنك ما لم تُشرِكْ بي شيئاً[(٢)].

وفي «الصَّحيحينِ»: عن ابنِ عُمرَ، عن النَّبيِّ ﷺ: «إنَّ اللهَ يدعـو بالعبدِ يومَ القيامةِ، فيضَعُ عليه كَنَفَه فيُقرِّرُه بذُنوبِه فيقولُ: أتذكرُ ذنبَ كذا؟ أتذكرُ ذنبَ كذا؟ فلا يزالُ يُقرِّرُه، حتَّى إذا رأى أنَّه هلكَ قالَ له: إنِّي قد سَترتُها[(٣)] عليك في الدُّنيا وأنا أغفِرُها لك اليومَ»[(٤)].

وفي روايةٍ: «يأتي اللهُ يومَ القيامةِ بالمؤمنِ فيُقرِّبُه حتَّى يجعلَهُ في حِجابِه مِن جميعِ الخلقِ، فيقولُ له: اقرأ، فيُعرِّفُه ذنباً ذنباً، أتعرِفُ أتعرفُ؟ فيقولُ: نعم نعم، ثمَّ يلتفِتُ العبدُ يَمْنةً ويَسْرةً فيقولُ اللهُ: لا بأس عليك يا عبدي، أنت في ستري مِن جميعِ خَلقِي، ليس بيني وبينكَ اليومَ أحدٌ يطَّلِعُ على ذُنوبِك غيري، اذهب فقَدْ غفَرْتُها لك اليومَ بحرفٍ واحدٍ مِن جميعِ ما أتيتَني به، قال: ما هو يا ربِّ؟ قال: كنتَ لا تَرْجو العفوَ[(٥)] ....

= أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٤٨١)، والدينوري في «المجالسة» (٢٤٤٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٧٤)، والبيهقي في «الشعب» (٣٥٨) من كلام هارون بن رئاب.

وأخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣٣١٤)، والأصبهاني في «الترغيب والترهيب» (٧٤٤) من طريق آخر عن هارون بن رئاب عن شهر بن حوشب.

(١) في (ت) و(ف): «عَلِمَ».

(٢) أخرجه بنحوه: عبد الله بن أحمد في زوائد «الزهد» (٤٤١)، ومن طريقه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٢٢١). وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٦٧٢٦)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٨/ ٦٦٢).
وبهذا اللفظ أخرجه أبو بكر المروذي في «أخبار الشيوخ وأخلاقهم» (٣٥٣).

(٣) في (م) و(س): «إني سترتها».

(٤) أخرجه البخاري (٢٤٤١، ٤٦٨٥، ٦٠٧٠، ٧٥١٤)، ومسلم (٢٧٦٨)، بألفاظ مقاربة.

(٥) في (س): «عفواً».

مِن أحدٍ غيري»[١].

إخواني هَب أنَّه تجاوزَ عن الزَّلَلِ، فأين ما يلقاه العاصي عند تقريرِه بذُنوبِه مِن الحَياءِ والخَجَل؟ العارِفونَ يشتَدُّ قَلَقُهم مِن الحياءِ مِن اللهِ عند الوُقوفِ بين يديه.

قال بعضُهم: ما يمرُّ بي أشَدُّ من الحياءِ مِن اللهِ[٢].

وكان الفُضَيلُ يقول: واسوأتاه منكَ وإن عَفَوْتَ[٣][٤].

وقال غيرُه: لو خُيِّرْتُ بين أن أُبعَثَ، فأوقَفَ بين يديه ثمَّ يأمُرُ بي إلى الجنَّةِ، وبين أن لا أبعثَ، لاخترتُ أن لا أُبعثَ ولا أريدُ الجنَّةَ[٥].

وقال آخرُ: لو أمر بي من الموقفِ إلى النَّارِ لكان أهونَ عليَّ مِن أن يَقِفَني بين يديه[٦] ثمَّ يأمُرَ بي إلى الجنَّةِ[٧].

قال أبو هريرةَ رضي الله عنه: يُدني اللهُ العبدَ يومَ القيامةِ، فيضَعُ عليه كنفَهُ فيستُرُه مِن الخلائقِ كلِّها، ويدفَعُ إليه كتابَه في ذلك السترِ، فيقولُ: اقرأ يا ابنَ آدمَ كتابَك، فيقرأُ فيَمُرُّ بالحسنةِ فيَبْيَضُّ لها وجهُه ويُسَرُّ بها قلبُه، فيقولُ اللهُ: أتعرِفُ يا عبدي، فيقولُ: نعم، فيقولُ: إنِّي قَبِلْتُها منك، فيَسجدُ، فيقولُ: ارفَع رأسَك، وعُدْ في كتابِكَ

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٣٧٢٨) من حديث سعيد بن جبير عن ابن عمر مرفوعاً.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (١٨٦) من كلام إسماعيل بن داود المسحلي رحمه الله.

(٣) في (س): «غفرت».

(٤) ذكره ابن الجوزي في «مثير الغرام الساكن» (ص: ١٩١)، ونقل أيضاً عن غير عياض عند ابن أبي الدنيا في «الأولياء» (٨٨).

(٥) ذكره المصنف عن الفضيل أيضاً في «استنشاق نسيم الأنس» في الباب العاشر. وهو مما أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٨٤).

(٦) هنا آخر نسخة (م) وما بعده مخروم منها. وهي بخط أحمد بن محمد بن خضر القطان النجاد الحنبلي.

(٧) ذكره المصنف رحمه الله عن بعض التابعين في «استنشاق نسيم الأنس» الباب العاشر. ولم أجده عند غيره.

فيَمُرُّ بالسَّيِّئةِ فيَسوَدُّ لها وَجهُه ويَوْجَلُ منها قلبُه وترتعدُ[١] منها فرائصُه، ويأخذُه مِن الحياءِ مِن رَبِّه ما لا يَعلَمُه غيرُه، فيقولُ: أتعرِفُ يا عبدي، فيقول: نعم يا رب أعرِفُ، فيقولُ: إنِّي قد غَفَرتُها لك، فيَسجدُ فلا يَرَى منه الخلائقُ إلَّا السُّجودَ، حتَّى ينادي بعضُهم بعضاً[٢]: طوبى لهذا العبدِ الذي لم يعصِ اللهَ قطُّ، ولا يدرون ما قد لَقِيَ فيما بينَه وبين اللهِ عزَّ وجلَّ فيما قد وَقَفه عليه[٣].

أستغفِرُ اللهَ مـمَّا يعلَـمُ اللهُ ... إنَّ الشَّقِيَّ لَمَنْ لا يرحَمُ اللهُ
هَبْهُ تجاوزَ لي عن كلِّ مَظْلَمَةٍ ... يا سَوْأتا مِن حَيَائي يومَ ألقاهُ
ما أَحْلَمَ اللهَ عمَّن لا يُراقِبُه ... كلٌّ مُسيءٌ ولكن يحلُمُ اللهُ
فاستغفِرِ اللهَ ممَّا[٤] كان مِن زلَلٍ ... طُوبى لِمَن كفَّ عمَّا يكرَهُ اللهُ
طوبى لِمَن حَسُنَت منه[٥] سَريرَتُه ... طوبى لِمَن يَنتهي عمَّا نهى اللهُ[٦]

تمَّ والحمدُ للهِ وحدَه[٧]

---

(١) في (س): «وترعد».

(٢) في (ت) و(ف): «لبعض».

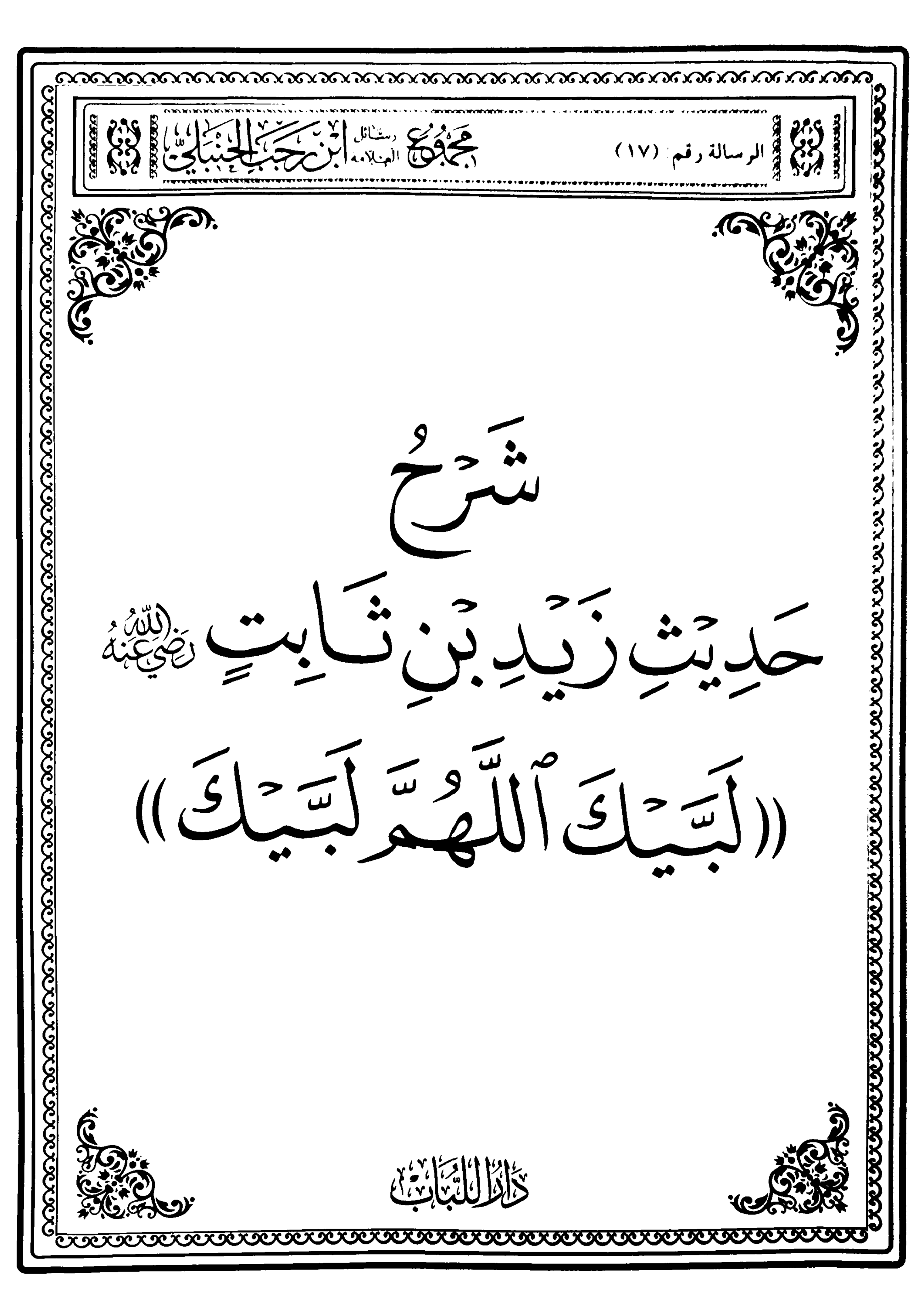
(٣) في (س): «وقفه الله عليه». والأثر أخرجه الختلي في «الديباج» (٩)، وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (٩٦٦)، وابن أبي الدنيا، ولفظه أقرب إلى لفظ المصنف، أورده ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢٠/ ٤٣).

(٤) في (س): «استغفر الله ما»، وفي (ت) و(ف): «فاستغفروا»، والمثبت من المصادر.

(٥) في (س): «أيضاً».

(٦) البيتان الأولان لإبراهيم بن محمد ـ نفطويه ـ أنشدها له: الخطيب في «تاريخ بغداد» (٧/ ٩٥)، والسلفي في «الطيوريات» (٦٩٧)، وابن الجوزي في «المنتظم» (١٣/ ٣٥١)، وذكرتهما له كثير من كتب التراجم للأدباء. والأبيات الثلاثة الباقية من قصيدة لأبي القاسم محمد بن خلاد البصري أنشدها له: ابن مسلمة في «المشيخة البغدادية» (ص: ١٨٥). وذكره المصنف في «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٤١٦).

(٧) في (س): «آخر الكلام على الحديث، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم. تم بقلم كاتبه لنفسه عبد الله بن إبراهيم بن محمد بن ربيعة الربيعي غفر الله له ولوالديه والمسلمين أجمعين، وذلك في يوم ٢٢ محرم سنة ١٣٣٤». وفي الحاشية «بلغ».



شرح حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه «لبيك اللهم لبيك»

دار اللباب

مكتبة الفاتح في اسطنبول (ف)

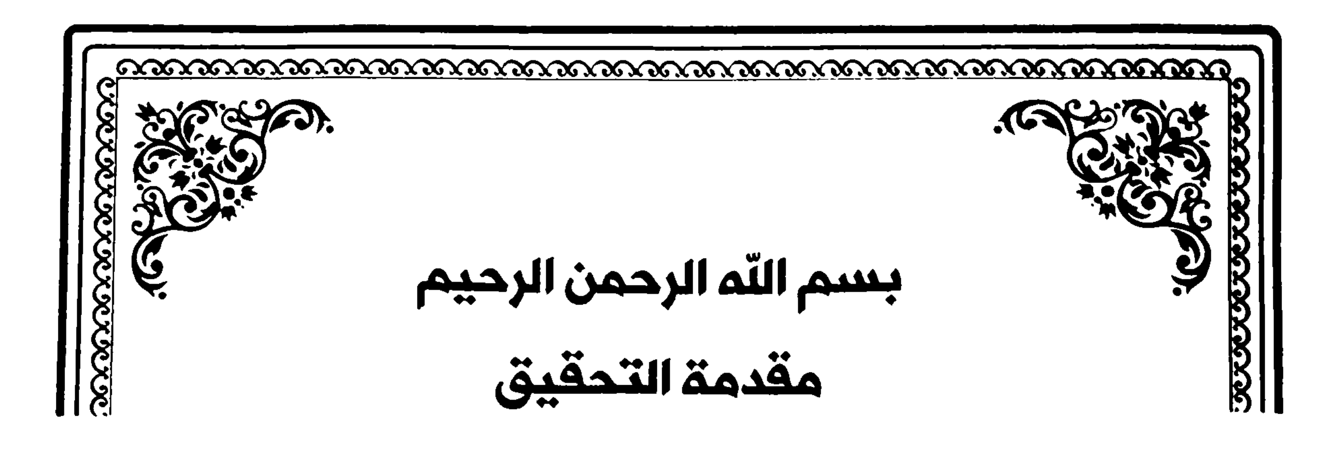
مركز جمعة الماجد (ج)

مكتبة الفاتح في اسطنبول (ف)

مركز جمعة الماجد (ج)

مكتبة الرياض العامة (س)

مكتبة جامعة الرياض (ر)



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله السميع لمن ناداه، القريب ممن ناجاه، المجيب لمن دعاه، المثيب لمن اتقاه، الرقيب المجازي لمن عصاه. والصلاة والسلام على رسوله ومصطفاه، سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه وأتباعه ومن اهتدى بهداه.

أما بعد:

فإن الله عز وجل قد أمر عباده بالدعاء، ووعدهم بالإجابة، قال عز من قائل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. فسمى الدعاء عبادةً. قال ﷺ فيما أخرجه الإمام أحمد وأصحاب السنن من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه: «إن الدعاء هو العبادة» ثم قرأ ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ..﴾، وهذا كقوله ﷺ: «الحج عرفة» أي الوقوف بعرفة هو الركن الأعظم في الحج، وقوله ﷺ: «الدين النصيحة» أي أن النصيحة بها ثبات الدين وقوته وعماده وقوامه.

وكل عبادة لها خشوع، يأتي من تدبرها والتفكر في معانيها وحقيقتها. فالخشوع في الدعاء يأتي من فهم ما يقوله الداعي ويناجي به ربه ويسأله. وأما من دعا الله تعالى وهو غافل ساه عما يناجي ويطلب فما أبعده عن أدب الدعاء وتحقق الرجاء.

ومما يعين على الحضور فيه: فهم معانيه، وهو ما قصده الإمام الحافظ ابن

رجب رحمه الله تعالى في شرح هذا الدعاء المأثور، الجامع لأسس الإيمان والعمل والسلوك، مما يوصل إلى السعادة في الدنيا والآخرة.

وهذا الشرح لحديث زيد بن ثابت هو صنو «شرحه لحديث شداد بن أوس» و«شرحه لحديث عمار بن ياسر» وفيها جمل ومعان مشتركة، تعين المؤمن على فهم تلك الدعوات، والعلم بما تقتضيه من العمل، والثبات على ذلك إلى حلول الأجل.

أسأل الله النفع بذلك لي ولكل من قرأه. آمين.

* * *

ذكر هذا الكتاب للحافظ ابن رجب رحمه الله:

المرداوي في «الإنصاف» (٧/ ٤٠٨)، ونقل منه، وسماه: «شرح حديث لبيك»، وذكره ابن عبد الهادي في «الجوهر المنضد» (ص: ٥٠)، وسماه: «شرح الحديث لبيك اللهم لبيك»، والروداني في «صلة الخلف بموصول السلف» (ص: ٢٧٦)، والكتاني في «فهرس الفهارس» (٢/ ٦٣٦) وسمياه: «شرح حديث لبيك اللهم لبيك».

* * *

واعتمدت في إخراجه ست نسخ خطية، وبينها تفاوت كبير، فالنسخ الثلاث القديمة منها متقاربة، سقط منها كثير من الأبيات الشعرية، وبعض الآثار، وربما تجاوز مقدار السقط صفحة أو نحوها أحياناً، مما أثبتُّه من نسختين متأخرتين جداً.

مما قد يدل على محنة تعرضت لها إحدى نسخ الكتاب التي نقلت عنها النسخ المتقدمة في القرن التاسع الهجري ذهبت ببعض المواضع منه، والله تعالى أعلم.

النسخة الأولى: النسخة التونسية، ورمزها (ت).

وهي في ضمن مجموع (١٥٧) وقد تقدم وصفه في المقدمات. وهي الرسالة الثانية منه، وليس في أولها عنوان لها، لكن في أول المجموع في فهرس رسائله: «شرح حديث لبيك اللهم لبيك وسعديك».

وتقع في (١١) لوحة (من ١٢/أ إلى ٢٣/أ) وبعد ذلك خرم في المجموع يقدر بأربع أو خمس ورقات، ذهب معه آخر الرسالة وأول ما يليها ـ ولم يراع ذلك في ترقيم صفحات المجموع.

لم يذكر اسم الناسخ في رسائل هذا المجموع، إلا أن إحدى رسائله نسخت سنة ٨٥٢.

النسخة الثانية: النسخة المقدسية في الجامعة بالقدس، ورمزها (ع).

وهي في ضمن مجموع قد تقدم وصفه في المقدمات، وهي الرسالة الثانية من رسائل ابن رجب فيه، وليس في أولها عنوان لها، وتقع في (٢٣) لوحة (من ١٠٨/أ إلى ١٣٠/ب).

ناسخ المجموع: إبراهيم بن علي بن أحمد بن بريد الديري القادري، وتاريخ نسخ إحدى رسائله سنة ٨٥٥.

النسخة الثالثة: نسخة مكتبة الفاتح في إصطنبول، ورمزها (ف).

وهي في ضمن المجموع (٥٣١٨)، وقد تقدم وصفه في المقدمات. وهي الرسالة الثانية منه، وليس في أولها عنوان لها، لكن في أول المجموع فهرسة رسائله، وجاء فيها: «شرح حديث لبيك اللهم لبيك وسعديك» وتقع في (٢٧) لوحة (من ١٧/أ إلى ٤٣/أ).

ناسخ المجموع: عيسى بن علي بن محمد الحوراني الشافعي في سنة ٨٩٣.

النسخة الرابعة: نسخة مركز جمعة الماجد، ورمزها (ج).

وهي في ضمن مجموع برقم (٩٠١٦٢٨) جاء العنوان في أولها: «شرح بعض الأدعية المأثورة للإمام الهمام الورع الزاهد العابد الحافظ ابن رجب تلميذ شيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله تعالى آمين».

وهي في (١٨) لوحة (من ٨٦/ أ إلى ١٠٣/ ب) وهي بخط أبي خليل محمد ابن حسين الأنصاري اليماني[1] بتاريخ الأحد ١٣ جمادى الأولى سنة ١٣٠٧.

النسخة الخامسة: نسخة مكتبة الرياض العامة السعودية، ورمزها (س).

وهي في ضمن مجموع برقم (٥٢٧/ ٨٦) من وقف الشيخ محمد بن عبد اللطيف، وهي الرسالة الثالثة منه، جاء العنوان فيها: «الكلام على حديث زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه»، وفي فهرس المجموع في أوله: «شرح حديث زيد بن ثابت». وتقع في (١٥) لوحة (من ٣٢/ أ إلى ١٠٣/ ب).

لم يذكر اسم الناسخ، ولا تاريخ النسخ، وهي من خطوط القرن الرابع عشر، فإحدى الرسائل مؤرخة بـ ١٣٣٣، وأخرى مؤرخة بـ ١٣٥٦.

---

(١) هو الشيخ العالم المحدث محمد بن حسين بن محسن بن محمد الأنصاري الخزرجي السبعي - وتتصحف في بعض المصادر إلى السعدي - اليماني. ولد في الحديدة باليمن سنة ١٢٧٣، ورحل إلى بهوبال في الهند سنة ١٢٩١، ودرَّس في ندوة العلماء بلكنهو، وتوفي في بهوبال سنة ١٣٤٤ رحمه الله تعالى.

له ترجمة في «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» لعبد الحي الحسني (٨/ ١٣٣٩).

النسخة السادسة: نسخة مكتبة جامعة الرياض، ورمزها (ر).

وهي في ضمن مجموع برقم (١٨١٧)، وهي الرسالة الأولى منه، جاء العنوان فيها «شرح حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه»، وتقع في (٩) لوحات (١/ ب إلى ٩/ ب)، وقد اعتنى صاحبها بمقابلة الأوراق الأولى منها، وكتب الفروق على الحواشي وكتب الأسقاط على جذاذات إلا أنه عدل عن ذلك، فهي نسخة مختصرة وليس فيها سياق الكتاب بتمامه وإنما ذكرت قطع مختارات منه، لذلك عدلت عن المقابلة بها بتمامها.

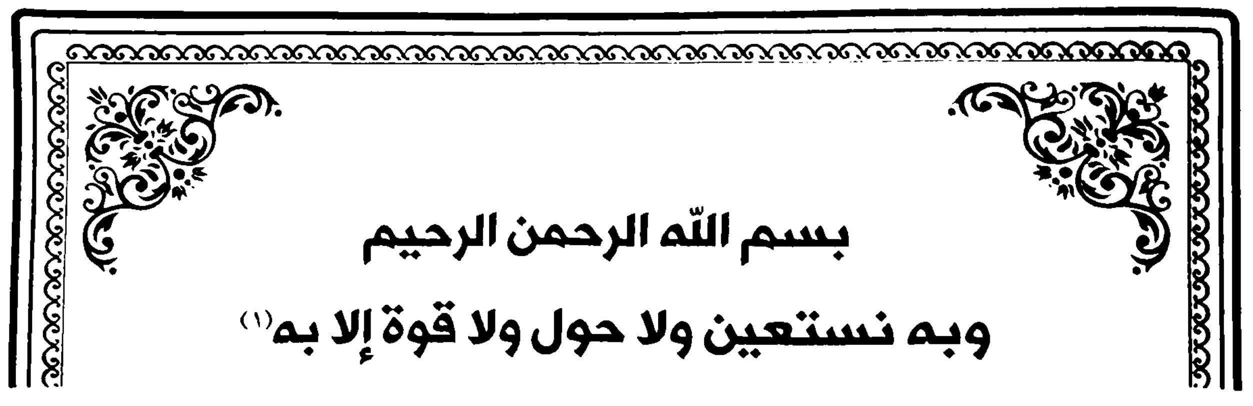
ناسخ المجموع: عبد المحسن بن عبيد بن عبد المحسن، وتاريخ نسخه في سنة ١٣٦١.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه

محمد مجير الخطيب الحسني

* * *



بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين ولا حول ولا قوة إلا به[1]

خَرَّجَ الإمامُ أحمدُ والحاكمُ مِنْ حديثِ زيدِ بنِ ثابتٍ رضي اللهُ عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ عَلَّمهُ دعاءً وأمرهُ أنْ يتعاهدَ بهِ أهلَه كلَّ يومٍ.

قال: «قُلْ حِينَ تُصبِحُ: لبَّيْكَ اللهمَّ لبَّيْكَ وسَعْدَيكَ، والخيرُ في يَدَيكَ، ومِنْكَ وبِكَ وإليكَ.

اللَّهمَّ ما قلتُ مِنْ قولٍ أَوْ نذرتُ مِنْ نَذْرٍ أو حَلَفْتُ مِنْ حَلِفٍ فمَشيئَتَكَ بينَ يَدَيهِ، ما شِئتَ كانَ، وما لم تَشَأ لم يكنْ، ولا حولَ ولا قُوَّةَ إلا بكَ، إنَّكَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

اللهمَّ وما صليتُ مِنْ صلاةٍ فعلى مَنْ صَلَّيتَ، وما لَعنْتُ مِنْ لَعْنٍ فعلى مَنْ لعنتَ، أنت وليِّي في الدُّنيا والآخرةِ، توفَّني مُسلِماً، وألحقني بالصالحين.

اللهمَّ إنِّي أسألكَ الرِّضا بعدَ القَضا[2]، وبَرْدَ العَيشِ بعدَ الموتِ، ولذَّةَ النَّظرِ إلى وجهِكَ، وشَوقاً إلى لِقائِكَ مِنْ غيرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ ولا فِتْنَةٍ مُضِلَّة، أعوذُ[3] بكَ اللهمَّ أنْ أظلِمَ أو أُظْلَمَ، أو أعتَدِيَ أو يُعتَدَى عَلَيَّ، أو أكتَسِبَ خَطِيئَةً مُحيطة[4] أو ذَنباً لا تَغْفِرُه.

---

(١) «وبه نستعين ولا حول ولا قوة إلا به» من (س). وفي (ت) و(ع): «فصل».

(٢) رسمت في النسخ بلا همز، ولعلها مع أمثالها تُقرأ بالمد لا بالهمز، والله أعلم.

(٣) في (س) و(ر): «وأعوذ».

(٤) في (ع) و(س): «أكسب». «محيطة»: المثبت من (ت) و(ف)، وهو الموافق لما شرحه المصنف، وفي (ج) و(ر) والمطبوعات من «مسند الإمام أحمد» وغيره: «مُحبطة»، وفي (ع) و(س) وحاشية (ر): «مخطئة». ولا توجد هذه اللفظة في «المستدرك».

اللهمَّ فاطرَ السمواتِ والأرضِ[١] عالمَ الغيبِ والشَّهادةِ ذا الجلالِ والإكرام، فإنِّي أعهَدُ إليكَ في هذهِ الحياةِ الدُّنيا، وأُشهِدُكَ وكفى بكَ شَهيداً أني أشهَدُ أن لا إله إلا أنتَ وحدَكَ لا شَريكَ لكَ، لكَ المُلْكُ ولكَ الحمدُ وأنتَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُك ورسولُكَ، وأشهَدُ أنَّ وعدَكَ حقٌّ، ولقاءَكَ حَقٌّ، والجنَّةَ حقٌّ [والنَّارَ حقٌّ][٢]، والساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها، وأنَّكَ تبعثُ مَنْ في القبُورِ، وأشهدُ أنَّكَ إنْ تَكِلني إلى نَفسي تَكِلني إلى ضَيْعَةٍ وعَوْرةٍ وذَنْبٍ وخطيئةٍ، وإنِّي لا أَثِقُ إلا برَحمَتِكَ، فاغفرْ لي ذَنبي كُلَّه، إنَّه لا يغفرُ الذُّنوبَ إلا أنتَ، وتُبْ عَليَّ إنَّكَ أنتَ التَّوَّابُ الرَّحيمُ»[٣].

* * *

---

(١) في حاشية (ف) باللغة التركية: «دعاء عهدنامه»، وهذا يعني: دعاء وثيقة العهد.

(٢) هي في النسخ المخطوطة، لكنها ليست في «المسند» ولا في «المستدرك» ولا في غيرهما من مصادر الحديث.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٢١٦٦٦)، والحاكم (١/ ٥١٦) وقال: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه» كلاهما من طريق أبي بكر بن أبي مريم، عن ضمرة بن حبيب؛ فعند الحاكم: عنه عن ضمرة عن زيد رضي الله عنه. وعند أحمد: عنه عن ضمرة عن أبي الدرداء عن زيد رضي الله عنهما.

قال الذهبي: «أبو بكر ضعيف، فأين الصحة؟».

وقال ابن حجر في «إتحاف المهرة» (٤/ ٦٢٨): «بل أبو بكر ضعيف، وأظنه منقطعاً» يعني إسناد الحاكم.

ولا يخفى على ابن رجب رحمه الله ما في إسناده من ضعف وانقطاع، لكن تصرفه يعني صراحة: أنه مثل سائر العلماء يقبل تلك الضعاف في فضائل الأعمال والدعاء والذكر مما لا مخالفة فيه لما هو أقوى منه من دلائل الشرع. ولولا أنه يرى ذلك لَمَا تكلَّف شرح هذا الحديث بطوله. والله تعالى أعلم.

قولُه ﷺ: «لَبَّيكَ اللهمَّ لَبَّيكَ» معناهُ: إجابةً لدعائِكَ مرةً بعدَ مرةٍ، وليسَ المرادُ بـهِ حقيقةَ التَّثنيةِ، بل المرادُ: التَّكريرُ والتَّكثيرُ والتَّوكيدُ، كقولهِ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [تبارك: ٤] يعني مَرَّةً بعدَ مرةٍ، وأصلُه مِنْ لَبَّ[١] بالمكان إذا لَزِمَهُ وأقامَ فيه، فكأنَّ الملبِّيَ يجيبُ دعوةَ اللهِ، ويلزمُ ذلكَ، ويقتضي أيضاً سُرْعةَ الإجابةِ مع الدَّوامِ عليها.

وقوله ﷺ: «وسَعْدَيكَ»: يعني إسْعاداً بعدَ إسْعادٍ، والمعنى: طاعةً بعدَ طاعةٍ، وأصله: أنَّ المناديَ إذا دعا غيرَه فإنَّ المجيبَ لدعائِه يُجِيْبُه إسعاداً له ومُساعدةً، ثم نُقِلَ ذلكَ إلى مُطلَقِ الطَّاعَةِ حتى استُعْمِلَ في إجابةِ دعاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

وحُكِيَ عَنِ العَرَبِ: «سُبْحانَه وسُعْدَانه» ـ على معنى: أُسبِّحُهُ وأُطِيعُه ـ تَسمِيَةُ الإسعادِ بِسُعْدان كما سُمِّي التَّسبيحُ بِسُبْحان، ولم يُسمعْ سَعْدَيكَ مُفْرداً[٢].

ولا شَكَّ أنَّ اللهَ تعالى يدعُو عِبادَهُ إلى طاعَتِه وإلى ما فِيهِ رضَاه عَنْهُم، وما يُوجِبُ لهمْ بِهِ سعادةَ الآخِرة، فمَنْ أجابَ دُعاءَه واستَجابَ له فَقَدَ أفلَحَ وأَنْجح، قالَ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]، وقالَ تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقالَ تعالى حكايةً عَنِ الجِنِّ الذينَ استَمَعُوا القرآنَ: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣١]، ولهذَا يقولُ المُلَبِّي في الحَجِّ: «لبَّيكَ اللَّهمَّ لبَّيك» يعني إجابةً لدعائِكَ، وطاعةً لكَ حيثُ دعَوْتَنا إلى حَجِّ بيتِك.

---

(١) في (س): «لبَّب»، ولبَّب أصل لَبَّى.

(٢) انظر: «المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث» لأبي موسى المديني (٢/ ٨٨).

وقد تصحفت «بسعدان» إلى «لسعدان» وكذلك «بسبحان» إلى «لسبحان» في (ت) و(ع) و(ف).

وكانَ النبيُّ ﷺ يقولُ في دُعَاءِ الاستِفْتَاحِ في الصَّلاةِ ـ وقد قيل: إنَّه كان يقولُه في قيامِ اللَّيل، ورُويَ[1] أنَّه كانَ يقُولُه في استِفْتَاح المكتُوبَة ـ: لبَّيك اللَّهمَّ لبَّيكَ وسَعْدَيكَ، والخيرُ كُلُّهُ في يَدَيكَ، والشَّرُّ ليسَ إليكَ، أنا بِكَ وإليك، تباركتَ وتعاليتَ، أستغْفِركَ وأتوبُ إليكَ» خَرَّجَهُ مُسلِمٌ من حديثِ عليٍّ رضي اللهُ عنه[2].

ويُروى مِنْ حَدِيثِ حُذَيفةَ مَرفوعاً، ومَوقوفاً وهو أصَحّ: يُدْعى محمدٌ ﷺ، فيقولُ: «لبَّيكَ وسَعْدَيك، والخيرُ بيدَيكَ، تباركتَ وتعاليتَ، لبَّيكَ وحَنَانَيكَ، والمهتدي[3] مَنْ هَدَيتَ، عبدُكَ بينَ يَدَيكَ، لا مَلْجَأ ولا مَنْجَى مِنْكَ إلا إليكَ، تباركتَ[4] رَبَّ البيت»[5].

---

(١) في (ج): «وقد قيل: إنه» بدل «وروي».

(٢) أخرجه مسلم (٧٧١) في ضمن حديث طويل: أنه كان إذا قام إلى الصلاة ﷺ... وليس فيه: «لبيك اللهم» وإنما «لبيك وسعديك» فحسب. وجاء تقييد الحديث بكونه في المكتوبة عند أبي عوانة (١٦٠٨) ولكنَّ مسلماً أورده ضمن أحاديث الدعاء في صلاة الليل!

(٣) في المصادر: «والمهدي».

(٤) في (س): «تباركت وتعاليت»، والزيادة موافقة لما عند الطبراني وأبي نعيم، لكن ليس عندهما تتمة الحديث هنا.

(٥) هذا لفظ المرفوع. والحديث مداره على أبي إسحاق عن صلة بن زفر عن حذيفة رضي الله عنه.

فرواه شعبة وغيره موقوفاً: أخرجه الطيالسي (٤١٤)، والبزار (٢٩٢٦)، والنسائي (١١٢٩٤)، والحاكم (٢/ ٣٦٤)، وصححه على شرطهما، والبيهقي في «البعث والنشور» (٤٨٦).

وخالفهم ليث بن أبي سليم وعبد الله بن المختار فروياه مرفوعاً: أخرجه الطبراني في «الأوسط» (١٠٥٨)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (٥٢٩)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥٧٢)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٣٤٩)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٤٨٥). وهذا إن كان موقوف اللفظ فهو مرفوع المعنى.

فإذا كان العبدُ في صُبْحِ كلِّ يومٍ يقولُ: لبَّيكَ اللهمَّ لبيكَ وسَعْدَيكَ؛ فإنَّه يريدُ بذلكَ أنّي أصبحتُ مُجيباً لدعوتك، مُسرِعاً إليها، مُقيماً على طَاعَتكَ، ممتثِلاً لأوامِرك، مُجتنباً لنواهيك، فإذا قالَ هذا[1] بلِسانِه: فالواجبُ أنْ يُتبعَ ذلكَ بعَمَلِهِ ليكونَ مُستَجِيباً لدعوةِ اللهِ قولاً وفِعلاً، وإنْ قالَ ذلكَ بلسانه ثمَّ خالَفَهُ[2] بعَمَله، فقَدْ كَذَّبَ[3] قولُه عمَلَه، وهو جدِيرٌ أنْ يُجاب، كما[4] يُجابُ مَنْ حَجَّ بمالٍ حَرامٍ، وقال: لبَّيكَ اللهمَّ لبيكَ، فيقالُ له: لا لبيكَ ولا سَعْدَيك[5].

وفي بعضِ الآثارِ: إنَّ اللهَ عَزَّ وجلَّ يُنادي كلَّ يوم: ابنَ آدم: ما أَنصَفْتَني، أذكُرُكَ وتَنْساني، وأدعوكَ إليَّ وتذهَبُ[6] إلى غَيري، وأُذْهِبُ عَنْكَ البَلايا وأنتَ معتكفٌ[7] على الخَطايا، ابنَ آدم ما اعتذارُكَ غَداً إذا جِئتَني»[8].

كَمْ دعاكَ إلى بابِهِ فما أجبتَ[9] ولا لَبَّيتَ؟! كم استدعاكَ إلى جَنَابِهِ فقعدتَ وأَبيت؟! كَمْ عُرِضَتْ عليكَ واجِبَاتُه فتكاسَلْتَ وتَوانَيت؟! وزُجِرْتَ عَنْ مَنْهِيَّاتِهِ فما

---

(١) في (س): «ذلك».

(٢) في (س): «ثم خالف ذلك».

(٣) في (س): «خالف».

(٤) في (س): «جدير أن لا يجاب كما لا».

(٥) أخرج ابن مردويه في «ثلاثة مجالس من أماليه» من حديث عمر رضي الله عنه (٤٤) مرفوعاً: «من حج بمال حرام فقال: لبيك اللهم لبيك، قال الله عز وجل له: لا لبيك ولا سعديك، وحجك مردود عليك» وفي سنده رجل ضعيف.

(٦) في (ج): «فتذهب عني».

(٧) في (ج): «تعكف».

(٨) ذكره القشيري في «الرسالة» (٢/ ٣٧٨) من كلام سهل بن عبد الله رحمه الله تعالى. لكن المصنف أورده في «لطائف المعارف» (ص ٥٠٨) على أنه من الآثار الإسرائيليَّة.

(٩) في (ج): «رحبت».

انزَجَرْتَ وتَمادَيت؟! كم سَمعتَ دُعاءَ داعي الحقِّ فتصَامَمْتَ، وكَمْ رأيتَ آياتِه في الخَلْقِ فتعَامَيْت؟! فيا مَنْ جَسَدُه حَيٌّ وقَلْبُهُ مَيْت، يا ليتك أجبتَ مناديَ الهُدى حينَ ناداكَ يا لَيْت!.

يا نفسُ ويحَكِ قدْ أتاكِ هُداكِ ... أجيبي فداعِي الحقِّ قدْ نَاداكِ

كَمْ قَدْ دُعيتِ إلى الرَّشادِ فتُعرِضي ... وأجبتِ داعِي الغَيِّ حينَ دَعَاكِ[١]

طوبى لمنْ أجابَ داعي الهدى[٢] إذا دعاه. يا قومَنا أجيبوا داعيَ الله.

هكذا يا عبدَ سوءٍ هكذا ... عبدُ سوءٍ أنتَ لم تَصلُحْ لنا

هكذا يا عبدَ سوءٍ هكذا ... بعدَما قاربتَنا جانَبْتَنَا

كم قد دعوناك فما أَجَبْتَنا ... واختبَرْنَاك فما أعجَبْتَنا[٣]

***

قولُهُ ﷺ: «والخيرُ في يَدَيْك»: إشارةٌ إلى أنَّ اللهَ تعالى إنما يَدْعُو عبادَه إلى ما هُو خيرٌ لهم مما يُصْلِحُ دِينَهُم ودُنياهُم، وآخِرَتَهم، فإنَّه يدعُو إلى دارِ السَّلام، ويدعُوهُم لِيغفرَ لهم ذنوبَهُم، فإذا سارعَ العبدُ إلى إجابةِ دَعْوَةِ ربِّه بتلبيَتِهِ والاستجابةِ لهَ قالَ معَ ذلكَ: (والخيرُ في يَديكَ) إشارةً إلى أنِّي استجبتُ[٤] دعوَتَكَ طمَعاً في نَيلِ الخيرِ الذي كُلُّه بيدَيْكَ، وأنتَ لا تدعُو العبدَ إلا إلى ما هُو خيرٌ له في دُنياه وآخِرَتِه.

---

(١) ذكره المصنف رحمه الله تعالى أيضاً في «لطائف المعارف» (ص ٥٠٨) وفي «المحجة في سير الدلجة» ولم يعزه لأحد.

(٢) في (س) «داعي الله».

(٣) سقطت الأبيات من (ت) و(ع) و(ف) و(ر)، والمثبت من (ج) و(س). وقد ذكر نحوها ابن الجوزي في «المنثور» (ص: ٥٨) دار الغرب الإسلامي.

(٤) في (ت) و(ف) و(س): «أستجيب».

يا هذا! لو دعاك مخلوقٌ ترجُو خيره لأسرعتَ إجابَتَه معَ أنَّه لا يَمْلِكُ لكَ ولا لِنَفْسِه ضَرًّا ولا نفعاً، فكيفَ لا تُسارِعُ إجابةَ مَن الخيرُ كلُّه في يَدَيْهِ ولا يَدْعُوكَ إلا لخيرٍ يُوصِلُهُ إليك؟

ألم يَرِثِ التقى أنـاسُ صِـدْقٍ ... فقادَهـمُ الـتُّـقَى خيـرَ المقادِ

ألم يقلِ الإلـهُ إلـيَّ عَـبْـدي[1] ... فكلُّ الخيرِ عندي في المعادِ[2]

***

وقـولُـه ﷺ: «ومِنْكَ وبِكَ وإليك» يَحتمل أن مُرادَه: أنَّ الخيرَ كُلَّهُ مِنْكَ، وبكَ وإليكَ يعني أنَّ مَبدأَ الخيرِ مِنْكَ كما قالَ تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقالَ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] فاللهُ تعالى هو المُبتَدِئُ بالخيرِ، فمنهُ بدأَ ونَشأَ.

والخيرُ بـه: يعني أَنَّ دوامَه واستمرارَه وثبوتَه باللهِ، ولو شَاءَ اللهُ لنزَعَه وسلَبَه صاحِبَهَ، وقد قالَ تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ۝٨٦ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٦ ـ ٨٧] يعني أنَّ دوامَ هذهِ النعمةِ عليكَ منَ اللهِ كما أنَّ ابتداءَها منه.

والخيرُ إليه: يعني أنَّه يرجِعُ بصاحِبِه إلى اللهِ في الآخرةِ، إلى جِوارِه وقربِه في جنَّاتِ النَّعيمِ، فينتَهي الخيرُ بصاحِبِه إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ.

---

(١) في (ج): «أما يقل الإله إلي عبيدي» والمثبت من (س).

(٢) سقط البيتان من النسخ الأربعة، والمثبت من (ج)، وفيها: «ألم يرث التقوى...»، و(س)، وفيها: «ألم يرث التقى ناس صدقوا» ووزنه مختل.

والبيتان لفتى من الأزد كما في «الرقة والبكاء» لابن أبي الدنيا (١٩٤)، وعنه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (٢/ ٢٥٥) وفيهما: «يرث البكاء»، «فقادهم البكاء».

ويَحْتَمِلُ أنَّ المرادَ بقولِهِ: «ومنكَ وبِكَ وإليكَ»: أنَّ العبدَ نفسَه مِنَ اللهِ وبالله وإلى الله كما في حديث الاستفتاح: «أنا بك وإليك»[1]. ولعلَّ هذا أظهر، فيكونُ معنى الكَلامِ: أنَّ العبدَ وجودُه مِنَ اللهِ تعالى، فإنَّه كانَ عَدَماً فأوجَدَهُ ربُّه وخَلَقَه، وهُو في حالِ وجُودِه في الدُّنيا بالله: أي أنَّ ثباتَه وقيامَه بالله، فلولا أنَّ اللهَ يُقيمُ الوجودَ وما فِيه من أنواعِ الخَلْقِ لهَلَكَ ذلك كُلُّه وتَلِفَ، ومِنْ أسمائهِ: الحيُّ القَيُّومُ. وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١] وفي الأثَرِ المعروفِ في قِصَّةِ القَارُورَتَين: «يا مُوسى، لو نمتُ لسَقَطتِ السَّماءُ على الأرضِ»[2].

وبَعدَ انتقالِ العِبادِ من هذه الدَّارِ فإنَّ مرجِعَهُم إلى اللهِ كما قالَ تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٤]، وقالَ: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨، الروم: ١١، الزمر: ٤٤] في آياتٍ كثيرة في هذا المعنى[3].

---

(١) سقط من قوله: «أن العبد...» إلى هنا من (ف). وتقدم ذكر حديث الاستفتاح.

(٢) في حاشية (ف): «فيه كلام فتبصَّر، فإنه لم يثبت».

وقد روي مرفوعاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخطأ فيه راويه أمية بن شبل، والصواب أنه من حديث ابن عباس موقوفاً، فهذا الأثر رواه عبد الرزاق والطبري وابن جرير في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] من حديث ابن عباس موقوفاً.

قال ابن كثير: «وهو من أخبار بني إسرائيل، وهو مما يُعلم أن موسى عليه السلام لا يخفى عليه مثل هذا من أمر الله عز وجل وأنه منزه عنه».

وخلاصة الأثر: أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن لا ينام وأن يمسك قارورتين، فلما نعس ونام انكسرت القارورتان...

(٣) في (س) و(ر): «وفي هذا المعنى» والمثبت من سائر النسخ وهو أوفق لصواب المعنى.

قالَ بعضُ العارفين: حقيقةُ التوحيدِ أنْ يكون العبدُ فانياً باللهِ[١] عزَّ وجلَّ، يرى الأشياءَ كلَّها مِنْهُ وبِهِ وإليه[٢].

كما قالَ عامرُ بنُ عبدِ قَيس: ما نظرتُ إلى شيءٍ إلا ورأيتُهُ يدُلُّ على اللهِ[٣][٤].

تبارَكَ مَن أوجدَ الإنسانَ من عدمٍ ... وأقامه ولولا الإلهُ لم يقُمِ

إليه مرجعُه وهو باعِثُه ... بعد الممات من الأجداثِ[٥] والرِّمَمِ

* * *

قوله ﷺ: «اللهمَّ ما قلتُ مِنْ قولٍ أو نَذَرتُ من نَذْرٍ أو حلفتُ من حَلِفٍ فمشيئتكَ بين يديهِ، ما شئتَ كانَ وما لم تَشأ لم يكنْ ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا بكَ إنَّكَ على كلِّ شيءٍ قدير».

---

(١) في (س): «قانتاً لله». وهو تصحيف من النساخ.

(٢) وهذا بمعنى قول الغزالي رحمه الله في «إحياء علوم الدين» (الباب الثالث من آداب تلاوة القرآن): «فينبغي أن يشهد في الفعل الفاعل دون الفعل، فمن عرف الحق رآه في كل شيء فيرى منه وإليه وبه وله».

(٣) في (س) و(ج): «إلا ورأيت الله فيه».

(٤) ولم أظفر بهذا اللفظ عن التابعي الجليل العابد الزاهد عامر بن قيس رضي الله عنه ولكن جاء معناه في «نوادر الأصول» للحكيم الترمذي (٦/ ٢٣٣) وهو يذكر صفة السابقين المقربين: «إنه إذا أسرَّ العمل خلا بربه في العمل، فبرز له وجوده على القلب في الصَّدر». ثم قال: «المقتصد أسرَّ العمل فخلا بطاعته وعُبودَتِه لا بربه، فبرز له توحيده على قلبه في صدره».

فالمقتصد: «يتولى تربية عمله التوحيد، والسابق يتولى تربية عمله ربه الجواد الكريم، فإذا أسرَّ السابق الذي هذه صفته عملاً من أعماله، فإنما يسرّه ليخلو بربه فيجده في العمل، وذلك قول عامر بن عبد قيس: ما نظرت إلى شيء إلا رأيت الله أقرب منه، وقول محمد بن واسع: ما نظرت إلى شيء إلا رأيت الله فيه، فقد تباين قولاهما مع رفعة قوليهما وجلالة حظيهما في القولين»، وذكر الكلاباذي قول محمد بن واسع منسوباً إليه، وقول عامر دون تصريح بقائله في «التعرف لمذهب أهل التصوف» (ص: ٧٠).

(٥) سقطت الأبيات من (ت) و(ع) و(ف) و(ر).

وفي (ج) «والأجداث» والبيتان مختلفا الوزن ولم أجدهما.

ذكر الخطَّابيُّ في كتاب «الدُّعاء» له أنَّ قوله: «فمشيئتك» رُوِيَ بِضَمِّ التاءِ وفتحِها، وأنَّ مَنْ رواهُ بالضَّمِ: فإنَّ المعنى: الاعتذارُ بسابقِ الأقدارِ العائقةِ عن الوَفاءِ بما أَلزمَ العبدُ نفسَه مِنَ النُّذورِ والأَيمان. قال: وفي هذا طَرَفٌ مِنَ الجَبْرِ. قال: والصَّوابُ: روايةُ مَنْ رواه بفَتحِ التَّاءِ على إضمارِ فعلٍ كأنَّه قال: فإنِّي أُقدِّمُ مشيئتَكَ في ذلكَ. وأنوي الاستثناءَ فيه طَرْحاً للحِنْثِ عَنِّي عند وقوعِ الحَلِفِ قال: وفيه حُجَّةٌ لمن ذهبَ مذهبَ المكيِّين في جَوازِ الاستثناءِ منفصلاً عَنِ اليَمين[1].

قال أبو الفرج زينُ الدين ابنُ رجبَ: قلتُ: الصَّوابُ هذا المعنى على كلا الرِّوايتينِ أعني روايةَ الضَّمِّ وروايةَ الفَتْحِ[2]، وليسَ المرادُ بروايةِ الضَّمِ الاعتذارَ بالقَدَرِ، وإنما المعنى: فمَشِيئَتُكَ بين يَدَي ذلكَ كلِّه مُقَدَّمةٌ، فهو مبتدأٌ حُذِفَ خبرُه.

ويَشْهدُ لهذا المعنى ما خَرَّجَه أبو داود في «سُننِه» بإسناده عن أبي الدَّرداء رضي الله عنه أنَّه كانَ يقولُ: «مَنْ قالَ حينَ يُصبِحُ: اللهمَّ ما حَلَفْتُ مِنْ حَلِفٍ، أو قُلْتُ مِنْ قَوْلٍ، أو نَذَرتُ مِنْ نَذْرٍ فمشيئتُك بين يَدَي ذلكَ كلِّه، ما شئتَ كانَ، وما لم تَشأ لم يكنْ، اللهمَّ اغفرْ لي وتجاوَزْ[3] عَنِّي، اللهمَّ فَمَنْ صليتَ عليهِ فعليه صَلاتي، ومَنْ لعنتَ فعليه لَعنَتي؛ كانَ في استثناءٍ يومَه ذلك»[4].

---

(١) «شأن الدعاء» للخطابي (ص ٢١٥).

(٢) في (ج): «ورواية النصب»، وسقطت من (س).

(٣) في (ت) و(ع) و(ف): «اغفره لي وتجاوزه».

(٤) أخرجه أبو داود في «السنن» (٥٠٤٦) لكنه من حديث أبي ذر رضي الله عنه، لا من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه. وإنما روى حديث أبي الدرداء عن زيد بن ثابت رضي الله عنه مثله: الإمام أحمد في «المسند» (٢١٦٦٦).

فقد صرَّح أبو داود بأنَّ المرادَ بهذا الاستثناءِ بالمشيئةِ أنَّه يكونُ استثناءً في يَومِه ذلك، يعني فيما يحلِفُ[1]، وينذُره، ويقولُه في ذلك[2] اليوم، وهذا صريحٌ في أنَّه يكونُ استثناءً في ما يَستَقْبِلُه مِنَ الكَلام في يومِه ذلك.

وأمَّا قولُ الخَطَّابي: إنَّه يَمنعُ[3] الحِنْثِ، كقولِ مَنْ يقولُ ذلكَ في الاستثناءِ المنفَصِلِ[4] بعدَ الكلام، كما حَكاهُ عن المكِّيِّين[5]، فأصلُ ذلكَ أنَّه قد رُوي عن المكِّيِّين، كعطاءٍ[6] ومجاهدٍ[7]..............................

---

(١) في (س): «يحلف به».

(٢) في (س): «هذا».

(٣) في (س) و(ر): «يمتنع».

(٤) في (س) و(ر): «المتصل»!

(٥) في (ج): «في الاستثناء المنفصل بعد ذلك، حكاه عن المكيين».

(٦) أخرج ابن أبي حاتم عن عطاء أنه قال: «من حلف على يمين، فله الثنيا حلب ناقة». انظر: «الدر المنثور» للسيوطي، تفسير الآية (٢٤) من سورة الكهف.

(٧) ذكرت كثير من كتب التفسير والشروح الحديثية والفقه والأصول: أن مجاهداً رحمه الله يقول: إن للحالف أن يستثني بعد سنتين، والذي وجدتُ له إسناداً عنه هو ما رواه ابن الجعد في «مسنده» (٨١٤) من رواية عيسى بن يونس عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس قال: «الاستثناء ولو إلى سنتين» فقيل للأعمش: سمعته من مجاهد؟ قال: لا، حدثني ليث بن أبي سليم. ترى ذهبَ كسائي هذا.
ومعنى قوله: «ترى ذهب كسائي هذا»! أي أن أمر الإسناد قد انكشف أن فيه علة، وهي الواسطة بين الأعمش ومجاهد، والواسطة هي ليث بن أبي سليم وهو ضعيف!
وقد عزا الحافظ ابن حجر في «موافقة الخَبَر الخُبْر» (٢/ ٦١) رواية عيسى بن يونس إلى جزء لأبي موسى المديني، لكن فيها: «ولو بعد سنة»!
وقد روى هذا الأثر أبو معاوية، وعلي بن مسهر وغيرهما، عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس: أن له أن يستثني ولو إلى سنة! أخرجه الطبراني في «الأوسط» (١١٩)، و«الكبير» (١١٠٦٩)، وأخرجه =

وعمرِو بنِ دينارٍ[(١)]، وابنِ جُرَيجٍ[(٢)]، وغيرهم أنَّه ينفعُ الاستثناءُ بعد مُدَّةٍ من اليمينِ.

ورُوِيَ ذلكَ عن ابنِ عَبَّاسٍ من وُجُوهٍ[(٣)]، وقَدْ طَعنَ فيها كلِّها غيرُ واحدٍ منهم: القاضي إسماعيلُ المالكيُّ[(٤)]، والحافظُ أبو موسى المدينيُّ وله في ذلك مصنَّفٌ مفردٌ[(٥)].

ورُوِيَ عن ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾

= الحاكم (٤/ ٣٠٣) وصححه على شرط الشيخين! والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٤٨). فيبدو أن ذكر الستين وهم. والله أعلم. وقد ذكره ابن المنذر في «الأوسط» (١٢/ ١٥٩).

(١) ذكر ابن الملقن في «التوضيح لشرح الجامع الصحيح» (٣٠/ ٤٣٩): قال عمرو بن دينار: «متى ما ذكر» يعني له الاستثناء، وذكره قبله الواحدي في «التفسير البسيط» (١٣/ ٥٨٣).

(٢) روى عبد الرزاق (١٦١٢١) عن ابن جريج قال: قال لي عطاء: «إذا حلف ثم استثنى على أثر ذلك عند ذلك» كأنه يقول: ما لم يقطع اليمين ويتركه.

(٣) انظر ما سبق منها في التعليق على ما روي عن مجاهد.

(٤) وهو القاضي أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد الجهضمي الأزدي البغدادي المالكي، المتوفى سنة (٢٨٢هـ) رحمه الله تعالى.
ولعل ذلك في كتابه «أحكام القرآن» وقد وصلت منه قطع متفرقة طبعت في مجلد بتحقيق د. عامر حسن صبري. ط دار ابن حزم ١٤٢٦.

(٥) واسم كتابه: «التبيين لاستثناء اليمين» ومؤلفه هو الحافظ أبو موسى محمد بن عمر بن أحمد الأصبهاني المديني الشافعي، المتوفى سنة (٥٨١هـ) رحمه الله تعالى.
وقد ذكر كتابَه: الزركشيُّ في «المعتبر في تخريج أحاديث المنهاج والمختصر» (ص: ١٦١)، وكذلك ابن الملقن في «التوضيح لشرح الجامع الصحيح» (٣٠/ ٤٣١)، ورواه ابن الملقن عن أبي العباس الظاهري، عن الشيخة أم محمد حبيبة بنت حمد بنت نصر الحرانية، عن الحافظ أبي موسى.
ونقل منه ابنُ الملقن الروايات عن ابن عباس والكلام عليها.

[الكهف: ٢٤] قال: هي خاصةٌ للنبيِّ[(١)] ﷺ دونَ غيره. خَرَّجهُ الطَّبرانيُّ مِنْ وجهٍ ضعيفٍ[(٢)].

ورُوِيَ ذلك عنِ ابنِ جُريجٍ أيضاً[(٣)(٤)].

وقالتْ طائفةٌ: إنَّما أرادَ هؤلاءِ أنَّ هذا الاستثناءَ المنفَصِلَ يحصلُ به امتثالُ قولِهِ عزَّ وجلَّ ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٣ ـ ٢٤]، وسببُ نزولِها أنَّ قوماً سألوا النبيَّ ﷺ عن قِصَّةٍ... قال[(٥)]: غداً أخبركُم، ولمْ يقلْ إنْ شاءَ اللهُ فاحتبسَ الوحيُ عنه مدَّةً ثم نزلتْ هذه الآية[(٦)].

وفي الحديثِ الصَّحيحِ: أنَّ سليمانَ عليه السَّلام قال: «لأطوفَنَّ الليلةَ على مائةِ امرأةٍ...» الحديث[(٧)].

---

(١) في (ج): «بالنبي».

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١١٤٣)، و«الأوسط» (٦٨٧٢)، و«الصغير» (٨٧٦). وفي سنده: عبد العزيز بن الحصين، وهو ضعيف.

(٣) قال ابن الملقن في «التوضيح لشرح الجامع الصحيح» (٣٠/ ٤٣٩): «وقال ابن جريج في هذه الآية: أي استثن إذا ذكرت، قال: هي لرسول الله ﷺ دون الناس». ولعل ذلك مما نقله ابن الملقن من جزء أبي موسى المديني.

(٤) من قوله: «وروي ذلك عن ابن عباس من وجوه...» إلى هنا، حصل في (ج) تقديم وتأخير.

(٥) في (س) و(ج): «فقال».

(٦) ذُكر ذلك في قصة طويلة رواها ابن إسحاق من حديث ابن عباس، وأخرجها الطبري (في أول الكهف) وغيره، وأوردها ابن كثير في «تفسيره» (الكهف/ الآية: ٥)

(٧) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في مواضع أولها (٢٨١٩)، ومسلم (١٦٥٤).
يريد سليمان عليه السلام أن تلد كل واحدة منهن غلاماً يكون فارساً يقاتل في سبيل الله، لكنه لم يقل «إن شاء الله» فلم تحمل منهن إلا واحدة جاءت بنصف إنسان... قال ﷺ: «لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان دَرَكاً له في حاجته».

وفي الحديثِ: أنَّ بني إسرائيلَ لو لم يقولُوا: إنْ شاءَ الله ما[1] اهتدَوا أبداً ـ يعني إلى البقرةِ التي أُمِروا بذَبْحِها ـ[2].

وفي الحديثِ الذي في «المُسند» و«السُّنن»: أنَّ يأجوجَ ومأجُوج يحفِرونَ كلَّ يومِ السَّدَّ حتى يَكادوا يَروا منهُ شُعاعَ الشَّمْسِ، ثم يَنْصرِفُون، ويقولونَ غداً نفتحُهُ فإذا رَجَعوا مِنَ الغَدِ وَجَدُوه كما كان أولاً[3]، حتى يأذَنَ اللهُ في فَتْحِه، فيقولونَ: غداً نفتحُهُ إنْ شاءَ اللهُ، فيرجِعُون فيجِدُونه كما تَركُوه، فيفتَحُونَه[4].

قال سعيدٌ القدَّاحُ: بلغَني أنَّ مُوسى عليه السَّلام كانتْ لهُ إلى اللهِ حاجةٌ، فطَلَبها فأبطَأَتْ، فقال: ما شاءَ الله، فإذَا حاجَتُه بينَ يدَيه، فتعجَّبَ، فأوحى اللهُ إليهِ: أما علِمْتَ أنَّ قولَكَ: ما شاءَ الله أَنْجَحُ ما طُلِبَتْ بِهِ الحَوائِج[5].

قالَ إبراهيمُ بنُ أَدْهَم: قالَ بعضُهُم: ما سَأَلَ السَّائِلونَ مسألةً هي أَنْجَحُ مِنْ أنْ يقولَ العبدُ: ما شاءَ اللهُ. قال: يعني بذلكَ التفويضَ إلى اللهِ[6].

---

(١) في (س): «لما».

(٢) أخرج هذا المعنى سعيد بن منصور في «سننه» (١٩٣) عن عكرمة مرسلًا، ويروى من حديث أبي هريرة مرفوعاً عند ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧٢٢).

(٣) في (س): «فلا يفتحونه».

(٤) أخرجه الإمام أحمد (١٠٦٣٢)، والترمذي (٣١٥٣) وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (٤٠٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) سقط هذا الأثر من (ت) و(ع) و(ف)، و(ر).
والأثر أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (٣٥٦)، وابن بشكوال في «كتاب المستغيثين بالله تعالى عند المهمات والحاجات» (١٠١). وأورده المصنف في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٩٤).

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» للسيوطي، (تفسير الكهف، الآية ٣٩). وأورده المصنف في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٩٤) لكن وقع ثمة: «مسألة هي ألحف».

وكان مالكُ بنُ أنسٍ كثيراً يقولُ[1]: ما شاءَ الله، ما شاءَ الله[2]، فعاتَبه رجلٌ على ذلكَ فرأى في منامه قائلاً يقول: أنتَ المعاتِبُ لمالكٍ على قولِه: ما شاءَ الله؟! لو شاءَ مالكٌ أنْ يثقُبَ الخرْدَلَ بقولِه: ما شاءَ اللهُ فعَلَ[3].

قالَ حمَّادُ بنُ زيدٍ: جعلَ رجلٌ لرجلٍ جُعْلاً على أنْ يَعبُرَ نَهْراً فعبَرَ، حتى إذا قَرُبَ مِنَ الشَّطِّ قال: عَبَرْتُ واللهِ، فقالَ له الرجلُ: قلْ ما[4] شاء الله! فقال: شاء الله! أوْ لمْ يَشأ. قال: فأَخَذَتْهُ الأرضُ[5].

فلا يَنْبَغِي لأحدٍ أنْ يُخْبِرَ بفعلٍ يفعَلُه في المُستَقْبَلِ إلا أنْ يُلْحِقَهُ بمشيئةِ اللهِ، فإنَّه ما شاءَ اللهُ كانَ، وما لمْ يَشَأ لم يكنْ، والعبدُ لا يشاءُ إلا أنْ يشاءَ اللهُ لهُ، فإذا نَسِيَ هذِهِ المشيئَةَ، ثمَّ تذكَّرَها فقالَها عِنْدَ ذِكْرِها ولو بَعْدَ مُدَّةٍ فقد امتثَلَ ما أُمِرَ به، وزالَ عنهُ الإثمُ، وإنْ كانَ لا يرفع ذلك عنه الكفَّارةَ، ولا الحِنْثَ في يمينِهِ، ولهذا في كلامِ أبي الدَّرداءِ: اللهمَّ اغفرْ لي، وتجاوزْ عنِّي[6]، فلمْ يَسأَلْ إلا رَفْعَ الإثمِ دونَ رَفْعِ الكفَّارَةِ.

وكذا رُوِي عنْ سعيدِ بنِ جُبيرٍ في قولِه تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤] قال: يقول: إذا حَلَفْتَ فنَسِيتَ الاستثناءَ فاستثْنِ إذا ذَكَرتَ، ولو بعدَ خمسةِ

---

(١) في (س) و(ج): «كثيراً ما يقول».

(٢) لم تكرر في (ج) و(س) وهو الموافق لمطبوعات المصادر.

(٣) أخرجه ابن بطة في «الإبانة الكبرى» (١٩٢٨)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١٧٩٥)، وأبو الحسين بن غنائم في الأول من «فوائده» (٣٨).

(٤) المثبت من (س) موافق للمصدر، وفي سائر النسخ: «إن».

(٥) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١٣٣٩).

(٦) سبق تخريجه.

أشهرٍ أو ستةِ أشهرٍ فإنَّه يُجزئُك ما لم تَحْنث. خَرَّجَهُ آدمُ بنُ أبي إياسٍ في «تَفْسِيره»[1].

وعلى هذا حَمَلَ قولَ ابنِ عباسٍ وأصحابِه طائفةٌ من العلماءِ منهم: أبو مسْعودٍ الأصبهانيُّ الحافظُ[2]، وابنُ جريرٍ الطبريُّ[3].

وكذا يُقال في هذا الحديثِ من[4] تقديم الاستثناء[5]، فإنَّ تقديمَه أبعدُ مِنْ تأخِيْرِه عن اليمينِ، فإنَّ اليمين لم توجد بعدُ بالكُلِّيَّةِ، وفي تأخِيْرِه قد وجدت.

وقدْ قالَ مالكٌ في الاستثناءِ في اليمينِ: إنْ ذكرَ المشيئةَ يريدُ بها الاستثناءَ نفَعَهُ ذلكَ في مَنْعِ الحِنْثِ، وإنْ كانَ إنَّما أرادَ[6] امتثالَ قولِهِ تَعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٤] ثم حَنث فإنِّي أرى عليه الكفَّارةَ. نقلَهُ ابنُ المنذِرِ وغيرُه[7].

---

(١) «تفسير آدم بن أبي إياس» في عداد المفقود، وذكر نحو هذا القول عن سعيد: الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٥٨٢). و«إن كان بعد يوم أو شهر أو سنة». وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (تفسير الكهف، الآية ٢٤) وعزاه إلى ابن المنذر، وفيه: «إلى شهر».

(٢) أبو مسعود أحمد بن الفرات، الرازي، الضبي الأصبهاني، المتوفى سنة (٢٥٨هـ) رحمه الله تعالى، الإمام الحافظ، له صلة بالإمام أحمد بن حنبل. ولم أظفر بقوله هذا في غير هذا الموضع.

(٣) انظر: تفسير الطبري، «جامع البيان» (١٥/ ٢٢٧)، وكذلك حمله البيهقي في «السنن الكبرى» (٢٠/ ١١٩).

(٤) في (ج) و(س): «في».

(٥) زاد في (س) وحدها: «في اليمين».

(٦) في (س): «يريد».

(٧) انظر: «المدوَّنة»، رواية سحنون (٢/ ١٠٩). ونقله ابن المنذر في «الأوسط» (١٢/ ١٦٤).

وكذلك حكاهْ أبو عُبيدٍ عنْ بعضِ العُلماء[1].

وتردَّدَ بعضُ العُلماء في وجُوب الكفَّارةِ في هَذَا القَسمِ لتردُّدِ نظَرِهِ بينَ اللَّفْظِ والمعنى، فلفظُهُ معلَّقٌ بالمشيئة، ومعناهْ الجزمْ بالفعْل غيرَ معلَّقٍ، وإنَّما ذكَرَ الاستثناءَ تحقِيقاً وتأكِيداً للفِعل.

وفي الجُملَةِ فينبغي حَمْلُ حديثِ زيدِ بنِ ثابتٍ هذا على هَذا المعنى، وأن يُقدِّمَ[2] المشيئةَ على كلِّ قولٍ يقولُه وحَلِفٍ يحلِفُه ونَذْرٍ ينذره، ليخرُجَ بذلكَ مِنْ عُهْدَةِ استقلالِ العَبْدِ بفعْلِه، وليتحقَّقَ العبدُ أنَّه لا يَكُونُ ممَّا يَعْزِمُ عليه العبدُ ويقولُهُ مَنْ حَلِفٍ ونَذْرٍ وغيرِهما إلا ما شَاءَه[3] اللهُ وأرادَه، ولهذا قالَ بعدَه: «ما شِئْتَ كانَ وما لم تَشَأْ لَمْ يَكُنْ، ولا حُولَ ولا قُوَّةَ إلا بكَ إنَّكَ على كُلِّ شَيءٍ قديرٌ»، فتبرَّأَ[4] مِنْ حَوْلِه وقوَّتِه ومَشِيئَتِه بدُونِ مشيئَةِ اللهِ وحَوْلِه وقوَّتِه، وأقرَّ لربِّه بقُدْرَتِه على كلِّ شَيءٍ، وأنَّ العبدَ عاجزٌ عنْ كلِّ شَيءٍ إلا ما أَقْدَرَهُ عليه ربُّه.

ففي هَذا الكلامِ: إفرادُ الرَّبِّ تعالى بالحَوْلِ والقُوَّةِ والقُدْرَةِ والمَشِيْئَةِ وأنَّ العبدَ غيرُ قادِرٍ مِنْ ذلك كلِّه إلا على ما يُقَدِّرُهُ مولاهُ، وهذا نِهايةُ توحيدِ الرُّبوبيَّةِ.

وللشافعيِّ رحمهُ اللهُ من أبياتٍ:

مـا شِـئْتَ كـانَ وإنْ لـم أَشَـأْ ... وما شِـئْتُ إنْ لَـمْ تَشَـأ لـم يَكُـنْ[5]

---

(١) ذكره عن أبي عبيد أيضاً: ابن الملقن في «التوضيح لشرح الجامع الصحيح» (٣٠/ ٤٣٦).

(٢) في النسخ: «تقديم» وهو سبق قلم. والمثبت من (س) و(ر).

(٣) في (ج) و(س): «شاء».

(٤) في (ج): «فيستبرئ».

(٥) روى البيهقي هذا البيت في أبيات للشافعي رحمه الله في «السنن الكبرى» (١٠/ ٣٤٨).

وقَدْ حملَ طائفةٌ منهم الإمامُ أحمدُ كلامَ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه في تأويلِ الآيةِ على وَجْهٍ آخرَ، وهو أنَّ الرَّجُلَ إذا قالَ: لا أفعلُ كَذا وكَذا، ثمَّ أرادَ فعلَهُ، فإنَّه يَسْتَثْنِي، ويقول: إنْ شاءَ اللهُ، ثمَّ يفعَلُه ويتخلَّصُ بذلكَ من الكَذِبِ إذا[1] لَمْ يَكُنْ قد حَلَفَ عليهِ بيمينٍ[2].

وكانَ يحيى بنُ سعيدٍ القطَّانُ إذا قالَ: لا أفعلُ كذا ـ لا يفعله أبداً. فإذا قِيْلَ لهُ: لَمْ[3] تَحْلِف! يقول: هذا أشدُّ ـ يعني الكذبَ ـ، لو كنتُ حلفتُ كانَ أهونَ، كنتُ أكفِّرُ يميني وأفعَلُه[4].

وسُئِلَ الإمامُ أحمدُ عمَّنْ يقولُ: لا آكلُ، ثمَّ يأكلُ؟ قال: هو كَذِبٌ، لا ينبغي أنْ يفعلَ ذلكَ[5].

ونَقَلَ الوليدُ بنُ مسلمٍ في كتابِ «الأيمانِ والنُّذورِ» عَنِ الأوزاعيِّ في رجلٍ كُلِّمَ في شَيءٍ، فيقول: نَعَمْ إنْ شاءَ اللهُ، ومِنْ نيَّته[6] أنْ لا يَفعَلَ؟ قال: هذا الكَذِبُ والخُلف.

---

(١) في (س): «إن».

(٢) ذكر ابن مفلح ذلك أيضاً في كتابه «الفروع» (١٠/ ٤٤٨) عن الإمام أحمد رحمه الله.

(٣) في (س): «لم لا» والزيادة مفسدة للمعنى.

(٤) في (ج) و(ر): «أكفر عن يميني» لم أجده عن ابن القطان، وإنما وجدت في «التذكرة الحمدونية» (٣/ ٧٨): قال عبد الله بن السري: قلنا لابن المبارك: حَدِّثنا! قال: ارجعوا، فإني لست أحدِّثكم. فقيل له: إنك لم تحلف! فقال: لو حلفتُ لكفَّرتُ وحدثتكم، ولكن لست أكذب. فكان هذا أحبَّ إلينا من الحديث!. وأورده الزمخشري أيضاً في «ربيع الأبرار» (٤/ ٣٤٧).

(٥) ذكره ابن مفلح في «الآداب الشرعية» (١/ ٣٢).

(٦) في (س): «وما نيته إلا».

قال: إنما يجوزُ المُستثنى في اليمينِ. قيل له: فإنْ[1] قال: نعمْ إنْ شاءَ اللهُ، ومِنْ نيَّتِهِ[2] أنْ يفعَلَ، ثم بدا لهُ أنْ لا يفعلَ؟ قال: له ثُنْياه[3].

وهـذا يَـدُلُّ على أنَّ الاستثناءَ بالمشيئةِ في غيرِ اليمينِ إنَّما ينفعُ لمن لم يكنْ مُصَمِّماً على مُخالَفَةِ ما قَالَه مِنْ أَوَّلِ كَلامِهِ[4].

* * *

قَوْلُه ﷺ: «اللهمَّ ما صليتُ مِنْ صلاةٍ فعلى مَنْ صَلَّيتَ، وما لعنتُ مِنْ لَعْنٍ فعلى مَنْ لعنت»:

قـال الخطابي: «الوجـه: أَنْ ترفعَ التاءَ مِـنْ صليتُ ولعـنتُ فـي الأوَّلِ، وأنْ تَنْصِبها مِنْهما في الآخِر»، والمعنى كأنَّه يقولُ: اللهمَّ اصرفْ صَلاتِي ودعائِي إلى مَن اختَصَصْتَه[5] بصَلاتِكَ ورحَمتِكَ، واجعلْ لعنَتي على من استحقَّ اللعنَ عندَكَ،

---

(١) المثبت من (س)، وفي سائر النسخ: «فإنه».

(٢) في (س): «وما بنيته».

(٣) لم أجده في مظانه، وذكره المصنف مختصراً في «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٤٨٢): «ولو قال: أفعل كذا إن شاء الله تعالى ومن نيته أن لا يفعل كان كذباً وخُلفاً. قاله الأوزاعي».

* تنبيه: يتداول بعض الناس منسوباً إلى الإمام الأوزاعي: «الوعد بقول إن شاء الله مع إضمار عدم الفعل نفاق» وهذا تصرف بألفاظه لا يستقيم، ومن أراد الاستشهاد بقول عالم فليسقه بلفظه دون التصرف فيه!

(٤) فـي حاشـية (ت) و(س): بلـغ. وهـذا إيقـاظ لمـن يُكثـرون من قـول «إن شـاء الله» وهـم مصممون علـى خـلاف قولهـم، وفي هذا سـوء أدب مـع الخالق جـل جلاله، وكـذب على الخلائـق، وتلبيس للأباطيـل بالحقائق.

(٥) في (س) و(ر): «خصصته»، وفي (ج) وكتاب الخطابي: «أحققته».

واستوجَبَ الطَّرْدَ والإبعادَ في حُكْمِكَ. ولا تُؤَاخِذْنِي بالخَطَأ مِنِّي في وَضْعِها[١] غير مَوْضِعِها، وإحلالها في غيرِ مَحَلِّها» قالَ: «وإنَّما يَصِحُّ على هذا التَّأويل إذا كانَ قَدْ سَبَقَتْ منه صلاةٌ أو لَعْنٌ لغيرِ المُسْتحِقِّين».

قال: «وقدْ يحتَمِلُ أنْ يكونَ إنَّما دَعا بالتَّوفِيقِ، واشترطَ في مَسْألَتِه العِصْمَةَ لئلا يَجْرِيَ على لِسانهِ ثَناءٌ إلا لمنْ يستَحِقُّ الثَّناءَ مِنْ أوليائهِ، ولا ذَمٌّ إلا لمَنْ يستَحِقُّهُ مِنْ أَعْدَائِه، كأنَّه يقولُ: اللهمَّ احفَظْني حتى لا أُوالي إلا أولياءَك ولا أُعادِيَ إلا أعداءَكَ».

قال: «والوجهُ[٢] الأوَّلُ فإنَّما ينصرفُ إلى الماضِي، والوجهُ الآخَرُ إلى المستَقْبَلِ، واللهُ أعلم» انتهى[٣].

قالَ زينُ الدِّينِ ابنُ رَجب: قلتُ التَّفسيرُ الأوَّلُ أَصَحُّ، وَيشهدُ لهُ قولُ أبي الدَّرداءِ: «اللهمَّ فَمَنْ صَلَّيتَ عليهِ فعليه صَلاتي، ومَنْ لَعَنْتَ فعليهِ لَعْنَتي»[٤]، وقول الخطابي: إنَّ هذا الوجهَ إنَّما ينصرِفُ إلى الماضِي ضعيفٌ، بل الصوابُ أنَّه[٥] ينصَرِفُ إلى المستَقْبَلِ، وأنَّ[٦] المرادَ: ما لَعَنْتُ في هذا اليومِ مِنْ لَعْنٍ، وما صَلَّيتُ فيهِ مِنْ صَلاةٍ، يعني: ما ألعنُ وما أُصلِّي، وهَذا مما[٧] تقدَّمَ في قولهِ: «ما قلتُ مِنْ قولٍ، أو نذرتُ

---

(١) في (س): «وضعي إياها».

(٢) في (س): «فالوجه».

(٣) «شأن الدعاء»، للخطابي (ص: ٢١٦ ـ ٢١٧).

(٤) وقد سبق قبلًا.

(٥) في (س): «أن».

(٦) في (س): «وإنما».

(٧) في (س): «ما». وفي (ج): «كما».

مِنْ نذرٍ، أو حلفتُ مِنْ حَلِفٍ، فمشيئتُكَ بينَ يديهِ» وقدْ وافقَ الخطَّابيُّ كما تقدَّمَ عنهُ أنَّ المرادَ به: ما يقولُه ويحلِفُه[1] وينذُره في المُستقبلِ، فكذلكَ الصَّلاةُ واللَّعنُ.

* * *

واعلمْ أنَّ العبدَ مبتلىً بلسانهِ، يلعَنُ بهِ مَنْ يغضَبُ عليهِ، ويمدَحُ بهِ مَنْ يرضَى عَنْه، وكثيراً مَا يَمْدَحُ مَنْ لا يستَحِقُّ المدحَ، ويلعَنُ مَنْ لا يستَحِقُّ اللَّعْنَ.

وقد وردَ في غيرِ حديثٍ[2]: أنَّ اللعنةَ إذَا لم يكن الملعونُ بها أهلاً لها رَجَعتْ على اللَّاعِنِ[3]، واللعنُ دعاءٌ، فربَّما أُجِيبَ، وأصابَ ذلكَ الملعونَ.

وقدْ أمـرَ النبيُّ ﷺ المرأةَ التي لعنَتْ بَعِيْرَها أنْ تُرْسِلَهُ، وقال: لا تَصْحَبْنَا ناقةٌ ملعونةٌ[4].

وكانَ بعضُ السَّلَفِ لا يدخُلُ بيتَه بشيءٍ ملعونٍ، ولا يأكُلُ مِنْ بيضِ دَجاجَةٍ يلعَنُها، ولا يشربُ مِنْ لَبَنِ شاةٍ لَعَنها[5].

قال بعضُهم: ما أكلتُ شيئاً ملعُوناً قَطُّ[6].

---

(١) في (ج): «وما يحلفه».

(٢) في (ج): «وقد روي في غير ما حديث».

(٣) من ذلك: حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: «... وإنه من لعن شيئاً ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه» عند أبي داود (٤٨٧٢) والترمذي (١٩٧٨). وحديث أبي الدرداء مرفوعاً عند أبي داود (٤٨٦٩).

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٩٦) من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه، ولفظه: «لا تصاحبنا ناقة عليها لعنة». وروى مسلم أيضاً نحوه من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه (٢٥٩٥).

(٥) هو القدوة العابد الإمام أبو المغيرة عبد الله بن أبي الهذيل التابعي الجليل، رحمه الله تعالى. والأثر: أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧/ ١٥٢).

(٦) قائله هو التابعي الجليل أبو الجوزاء أوس بن عبد الله الرَّبعي البصري رحمه الله تعالى. وأخـرج قوله هذا عنه: ابن سعد في «الطبقات» (٧/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٧٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٨٠٤).

وذكرَ ابنُ حامدٍ مِنْ أصحابِنا عنْ أحمدَ قال: مَنْ لَعَنَ عبدَه فعليهِ أنْ يُعتِقَه، أوْ شيئاً مِنْ مالِه أنَّ عليهِ أنْ يتصدَّق به[1]. قال: ويجيءُ في لَعْنِ زوجَتِه أنَّه يلزَمُه[2] أنْ يُطلِّقَها.

و[3]يشهدُ لهذا في الزَّوجَةِ: وقوعُ الفُرقَة بينَ المتلاعِنَين لمَّا كانَ أحدُهما كاذِباً في نَفْسِ الأمرِ قَدْ حَقَّتْ عليهِ اللعنةُ والغَضَبُ[4].

فإذا قَدَّمَ العبدُ مِنْ أوَّلِ نهارِهِ في دُعائِهِ أنَّ ما لَعَنَ مِنْ لَعْنٍ فإنَّه لاحقٌ بمنْ[5] لَعَنَهُ الله، وما أثنى مِنْ ثناءٍ فهو لاحِقٌ بمَنْ أثنى اللهُ عليه، فقدْ خَلَصَ بذلِكَ مِنْ إثمِ لَعْنِ مَنْ لا يَستَحِقُّ اللَّعنَ، أو مَدْحِ مَنْ لا يَستَحِقُّ المدحَ، إذا وَقَع ذلك سَهواً، أو غَلطاً، أو عن قُوَّةِ غَضَبٍ ونحوه، فأمَّا مَنْ يتعمَّد[6] ذلكَ معَ عِلْمِه بالحالِ، ففي دُخُولِهِ في هذا الشَّرطِ نظرٌ، معَ أنَّ عُمومَ اشتراطِه يقتضي دُخُولَه فيه.

وَقَدْ صَحَّ عن النبيِّ ﷺ أنَّه اشترطَ على ربه أنه مَنْ سَبَّه أو لعنَه أو ضربَه في غضَبٍ ونحوِه أنَّه يكونُ له كفارةً وصلاةً[7].

---

(١) قال ابن مفلح في «الفروع» (٩/ ٣٣٣): «وقال ابن حامد: إذا لعن أمتَه أو مِلكاً من أملاكه، فعلى مقالة أحمد: يجب إخراج ذلك عن مِلكه، فيعتق العبد، ويتصدق بالشيء».

(٢) في (س): «زوجته أن عليه».

(٣) في (ف): «أو» وهو غلط.

(٤) نقل قولَ ابنِ حامد كلَّه عن المصنف من «شرح حديث لبيك» هذا: المرداويُّ في «الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف» (٧/ ٤٠٨).

(٥) في (س): «من».

(٦) في (ج) و(س): «تعمد».

(٧) أخرجه البخاري (٦٣٦١) مختصراً، ومسلم (٢٦٠١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرج مسلم هذا المعنى أيضاً عن السيدة عائشة رضي الله عنها (٢٦٠٠)، وجابر (٢٦٠٢)، وأنس (٢٦٠٣).

وفي رواية: «وهو غَيْرُ مستَحِقٍّ»[(١)] وهذا إنَّما يكُون إذا ظَنَّ استحقاقَه لِذلك، ثم تبيَّنَ أنَّه غيرُ مستَحِقٍّ.

* * *

قولُه ﷺ: «أنتَ وليِّي في الدُّنيا والآخِرَة، توفَّني مُسْلِماً وألحِقْني بالصَّالِحين»: هَذا مأخُوذٌ من دُعاءِ يُوسفَ عليه السَّلام حين قالَ: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، واللهُ عزَّ وجَلَّ وليُّ أوليائِه في الدُّنيا والآخِرةِ يتولَّى حِفْظَهم وكَلاءَتَهم وهِدايتَهم وحِراستهم في دِينهم ودُنياهم ما دامُوا[(٢)] أحياءً، فإذا حَضَرَهُم الموتُ توفَّاهم على الإسلامِ، وألحَقَهم[(٣)] بعدَ الموتِ بالصَّالحين، وهذا أَجَلُّ النِّعمِ وأتمُّها على الإطلاقِ، وقد قالَ رسولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ وفاتِهِ: «﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩]»[(٤)]، وقولُ يوسفَ عليه السَّلام: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قيل: إنَّه دعا لنفسه بالموت، وهو قولُ جماعةٍ من السَّلفِ، منهم: الإمامُ أحمد[(٥)]، فيُستَدَلُّ بِهِ على جَوازِ الدُّعاءِ بالموتِ من غيرِ ضُرٍّ نَزَلَ بهِ.

---

(١) هذا بمعنى ما جاء في حديث أنس رضي الله عنه عند مسلم: «فأيما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل أن يجعلها له طهوراً وزكاة وقربة...».

(٢) في (س): «كانوا».

(٣) في (س): «وأدخلهم».

(٤) أخرجه البخاري (٤٥٨٦)، ومسلم (٢٤٤٤) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها.

(٥) نقله ابن القيم في «بدائع الفوائد» (٣/ ١١١) من رواية المروذي عن الإمام أحمد، وهو في «مسائل الإمام أحمد ـ رواية ابنه صالح بن أحمد» (١٦٥٢).

وقيل: إنَّه إنما دَعا لنفسه بالموتِ على الإسلامِ عِنْدَ نُزولِ الموتِ، وليس فيه دعاءٌ بتعجيلِ الموتِ، كما أخبرَ عن المؤمنينَ أنَّهم قالوا في دُعائهم: ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، ويُؤَيِّدُ التفسيرَ الأوَّل أنَّه عَقَّبَهُ بالدُّعاء بالشَّوقِ إلى لقاءِ اللهِ تعالى، وهو يَتَضَمَّنُ الدُّعاءَ بالموتِ كما سنذكرهُ إنْ شاء الله[١].

واستَدَلَّ مَنْ جَوَّزَ الدعاءَ بالموتِ وتمنِّيه بقولِهِ تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤]، ثمَّ ذمَّهُم على عَدَم تمنيِّه[٢] بسببِ سيِّئاتِهم، وعلى حِرصِهم على طولِ الحياةِ في الدُّنيا، وكذلكَ قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٦ ـ ٧].

وفي المُسنَدِ عن النبيِّ ﷺ: «لا يَتَمنَّينَّ الموتَ إلا مَنْ وَثِقَ بعَمَلِه»[٣] فمَنْ كانَ لهُ عملٌ صالحٌ فإنَّه يتمنَّى القدومَ عليهِ وكذلكَ مَنْ غَلَبَ عليه الشوقُ إلى لقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأمَّا مَنْ تمنَّى الموتَ خوفَ فِتنةٍ في الدِّين فإنَّه يجوزُ بغيرِ خِلاف، وقدْ بسطنا الكلام على هذه المسائل في غير هذا الموضع[٤].

* * *

(١) «كما سنذكره إن شاء الله» من (ج) فقط. ولا توجد في سائر النسخ.

(٢) في (س): «تمنيهم».

(٣) في (ف): «لا يتمنين أحد». أخرجه أحمد (٨٦٠٧) من حديث أبي هريرة، لكن لفظه: «لا يتمنى أحدكم الموت، ولا يدعو به من قبل أن يأتيه، إلا أن يكون قد وثق بعمله».

(٤) هذا التنبيه من (س) و(ج) فقط وقد بسط المؤلف رحمه الله تعالى الكلام على مسألة تمني الموت في «شرح حديث عمار بن ياسر»، وفي «اختيار الأولى».

قولُه ﷺ: «اللهمَّ إنِّي أسألُكَ الرِّضا بعدَ القَضا، وبَرْدَ العَيشِ بعدَ الموت، ولذَّةَ النَّظَرِ إلى وَجْهِك، وشَوْقاً[١] إلى لِقَائِكَ مِنْ غيرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ ولا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ» هذه الثلاثُ خِصَالٍ قد رُوِيَ عنِ النبيِّ ﷺ أنَّه كانَ يدعُو بها في غَيرِ هذا الحديثِ أيضاً مِنْ حديثِ عمَّارِ بن ياسِرٍ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ. وقَدْ شَرَحنَا حديثَه بتمامِه في موضعٍ آخر[٢].

فأمَّا الرِّضَا بالقَضَاءِ: فهُو مِنَ عَلاماتِ المحبِّين الصَّادقينَ في المحبَّةِ، فمتى امتلأت القلوبُ بمحبَّةِ مولاهَا رضيتْ بكُلِّ ما يقضِيْهِ عليها مِنْ مُؤلم ومُلائِم

سِيَّانَ إنْ لامُوا وإنْ عَذَروا[٣] ... ما لي عَنِ الأحبَابِ مُصْطَبَرُ
لا بُدَّ لي مِنْهُمْ وإنْ تَرَكُوا ... قلبي بنارِ الهَجْرِ يَسْتَعِرُ
وعليَّ أنْ أرضَى بما حَكَمُوا ... وَأُطيعَهم في كُلِّ مَا أَمَرُوا[٤]

إذا امتلأتْ القلوبُ بالرِّضا عَنِ المحبُوبِ صارَ رِضاها في ما يَرِدُ عليهَا مِنْ أحكَامِهِ وأقْدَارِه.

قال عُمرُ بنُ عبدِ العَزيز: أصبحتُ وما لي سرورٌ إلّا في مواقعِ القَضَاءِ والقَدَرِ[٥].

دَخَلُوا على بعضِ التَّابعين في مَرَضِه فقال: أحَبُّه إليَّ أَحَبُّه إليه[٦].

---

(١) في (ج) و(س): «والشوق».

(٢) هذا التنبيه من (ج) و(س) فقط، وقد شرح المصنف حديث عمار رضي الله عنه وفيه هذه الخصال في جزء مفرد. والحديث أخرجه الإمام أحمد والنسائي.

(٣) في (س): «وإن عذلوا».

(٤) سقطت الأبيات من (ت) و(ع) و(ف) و(ر).

وهي في «المدهش» لابن الجوزي (ص ٤٤٣)، وفي «المنتظم» (١٦/ ١٢٠) في ترجمة أبي غالب محمد بن أحمد بن سهل، ابن بشران النحوي الواسطي، وهي له.

(٥) أخرجه بنحوه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٧/ ٣٦٣)، وابن عبد الحكم في «سيرة عمر بن عبد العزيز» (ص ٩٧)، وابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله بقضائه» (١٠) (٤٦).

(٦) هو التابعي الجليل أبو العالية رحمه الله تعالى وأخرج هذا الأثر عنه: ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله بقضائه» (٣٩).

إنْ كانَ سَرَّكُمُ مَا قَدْ بُلِيتُ بهِ ... فما لجُرْحٍ إذَا أرضَاكُمُ أَلَمُ[1]

وحَسْبُ سُلطانِ الهَوى أنَّه ... يُلَذُّ فيه كلُّ ما يُؤلِم[2]

وربَّما اختارَ بعضُ المحبِّين[3] الذُّلَّ على العِزِّ، والفَقْرَ على الغِنى، والمرَضَ على الصِّحَّةِ، والموتَ على الحياةِ.

عِزِّيَ ذُلِّيْ وصِحَّتي في سَقَمِي ... يا قوم رضيتُ في الهوى سَفْكَ دَمِي

عذالي كُفُّوا فمِنْ ملامي ألم ... مَنْ باتَ على وَعدِ اللِّقا لم يَنَمِ[4]

وإنَّما قالَ ﷺ: «الرِّضَا بعد القضا»، لأنَّ ذلكَ هو الرِّضا حقيقةً.

وأمَّا الرِّضَا بالقَضَاءِ قبلَ وقُوعِهِ فهُو عَزْمٌ على الرِّضا، وقَدْ تَنْفَسِخُ العَزائمُ عِنْدَ[5] وقوعِ الحقَائِقِ، ومعَ هَذا فلا ينبَغِي أنْ يستَعْجِلَ العبدُ البلاءَ، بلْ يسألُ اللهَ العافيةَ، فإنْ نَزَلَ البلاءُ تلقَّاهُ بالرِّضَا.

قُتِلَ لبعضِهمْ ولدانِ في الجِهادِ[6]، فجاءَهُ النَّاسُ يُعَزُّونَه بِهما، فبَكَى وقالَ:

---

(١) سقط من (ت) و(ع) و(ف) و(ر)، والبيت من قصيدة من مشهور شعر المتنبي في سيف الدولة، وهو في ديوانه (ص ٣٣٣) وصدره:

إن كان سركم ما قال حاسدنا...

(٢) كذلك سقط من النسخ الأربعة، وهذا البيت من أبيات لأبي الخطاب محمد بن علي البغدادي، المعروف بالجَبُّلي. أنشدها له ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٤/ ٣٨١).

وهذا البيت والذي قبله سقطا من (ف).

(٣) في (س): «الصالحين».

(٤) والبيتان كذلك ليسا في النسخ الأربعة البيتان في «المدهش» لابن الجوزي (ص ١٨١). وفي (ج) و(س): «على مواعد اللقا» والتصويب من المدهش.

(٥) في (س): «مع».

(٦) في (ج): «قيل: كان لبعض السلف ولدان فقتلا في الجهاد».

مـا أبكِي على قَتْلِهِما، ولكنْ كيفَ كانَ رِضَاهما عَن اللهِ حينَ أخَذَتْهُما السُّيُوفُ[1].

إنْ كانَ سُكَّـانُ الغَضا رَضُـوا بقتْلِـي فَرِضَـا

واللهِ مـا كنـتُ لِمـا يهـوى الحبيـبُ مُبغِضا

صِرْتُ لهـم عَبْـداً وما للعَبْـد أنْ يَعْتَـرِضا

مَـنْ لـمريـضٍ لا يَرى إلا الطبيـبَ المُمرِضَـا[2]

وأمَّا بَرْدُ العَيْشِ بَعْدَ الموتِ: فالمرادُ بِهِ طِيْبُ العَيْشِ ولذاذَتُه، وما تَقَرُّ بِهِ عينُ صَاحِبِهِ، فإنَّ البَرْدَ يحصلُ به قُرَّةُ عينِ الإنسانِ وطيبُها، وبردُ القَلْبِ يوجِبُ انشراحَه وطُمأنينَتَه، بخلافِ حَرارةِ القَلبِ والعينِ، ولهذا في الحديث: «طَهِّر قلبِي بماءِ الثَّلْجِ والبَرَد»[3]، ودمعةُ السُّرورِ باردةٌ، بخلافِ دَمْعةِ الحُزنِ فإنَّها حَارَّةٌ، فَبردُ العَيْشِ هُو طِيْبُه ونعيمُه.

وفي الحقيقةِ: إنَّما يكمُلُ طيبُ العَيشِ ونعيمُه في الآخرةِ لا في الدُّنيا، كما قالَ

---

(١) ذكره المصنف أيضاً في «اختيار الأولى». وذكر ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله بقضائه» (٧٣)، والبيهقي في «الشعب» (٩٦٤٥) نحو هذه القصة من رواية أبي عبد الرحمن الجرجاني أنه ذهب ليعزي رجلاً وقد قتلت الترك ابنه فبكى... القصة.

(٢) سقطت الأبيات من (ت) و(ع) و(ف) و(ر). وهي من شعر أبي عبد الله الحسين بن محمد بن عبد الوهاب، البارع، وهي في «المدهش» لابن الجوزي (ص ٢٧٧). والقصيدة بتمامها في «خريدة القصر» (٣/ ٦٦)، و«سكان الغضا» في شعر العرب هم أهل نجد، لكثرة شجر الغضا فيها، لكنها في البيت كناية عن المحبوب.

(٣) لم أجد حديثاً بهذا اللفظ. وفي «البخاري» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (٧٤٤): «اللهم اغسل خطاياي بالماء والثلج والبرد»، وفيه من حديث السيدة عائشة رضي الله عنه (٦٣٦٨): «اللهم اغسل عني خطاياي بماء الثلج والبرد ونق قلبي من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس» وفي «صحيح مسلم» من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه (٤٧٦): «... اللهم طهرني بالثلج والبرد والماء البارد».

النبيُّ ﷺ: «اللهمَّ لا عيشَ إلا عيشُ الآخِرة»[١]، وسببُ ذلك أنَّ ابنَ آدمَ مركَّبٌ مِنْ جَسَدٍ وروحٍ، وكلٌّ منهُما يحتاجُ إلى ما يَتَقوَّتُ به ويتنعَّمُ به، وذلكَ هو عيشُه.

فالجسدُ عيشُه الأكلُ والشُّربُ والنِّكاحُ واللِّباسُ والطِّيبُ وغيرُ ذلكَ من اللَّذَّاتِ الحِسِّيةِ، ففيه بهذا الاعتبارِ مشابهةٌ بالحيواناتِ في هذهِ الأوصافِ.

وأما الرُّوحُ فهي لطيفةٌ، وهي رُوحانيَّةٌ مِنْ جنسِ الملائكةِ، فقوَّتُها، ولذَّتُها، وفرحُها. وسرورُها في معرفةِ خالقِها وبارئِها وفاطِرِها، وفيما يقرِّبُ منه مِنْ طاعَتِه، في ذِكره، ومحبَّتِهِ، والأنسِ به، والشوقِ إلى لقائِه، فهذا هُو عيشُ النَّفْسِ وقوَّتُها، فإذا فقدتْ ذلكَ مَرِضَتْ أو هَلَكتْ أعظمَ مما يهلِكُ الجسدُ بفَقْدِ طعامِهِ وشرابِهِ، ولهذا يوجدُ كثيرٌ مِنْ أهلِ الغِنى والسَّعَةِ يُعطي جسدَهُ حظَّهُ من التَّنعِيمِ[٢]، ثمَّ يجِدُ ألماً في قلبِه ووحشةً، فيظنُّه الجهالُ[٣] أنَّ هذا يزولُ بزيادةِ هذهِ اللَّذَّاتِ الحسِّيةِ، وبَعْضُهم يظنُّ أنَّه يزولُ بإزالةِ العَقْلِ بالسُّكْرِ، وكلُّ هذا يزيدُ الألَمَ والوَحْشَة، وإنَّما سببُه أنَّ الروحَ فقَدَتْ قوَّتَها وغذاءَها فمَرِضَتْ وتألَّمتْ.

إذا كُنْتَ قوتَ النَّفْسِ ثم هَجَرْتَها ... فلنْ تَصْبِرَ النَّفْسُ التي أنتَ قوتُها
ستَبقى بقاءَ الضَّبِّ في الماءِ أو كمَا ... يعيشُ ببيداءِ المفاوِزِ حُوتُها[٤]

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٣) من حديث أنس رضي الله عنه. و(٦٤١٤) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) في (ج) و(س): «النعيم».

(٣) في (س): «الجاهل». وفي (ج) وحدها: «فيظن».

(٤) سقط البيتان من (ت) (ع) و(ف) و(ر)، ووقع في (س) «النفوس» بدل «النفس» في الموضعين، و«فلم تصبر»، ووقع في (ج): «فكم تبصر»، و«المغاور» بدل «المفاوز» والتصويب من المصادر.
وهذان البيتان المشهوران نسبا لجماعة:
=

قالَ بعضُ العارفين لقومٍ: ما تَعُدُّونَ العيشَ فيكُم؟ قالوا: الطَّعامُ والشَّرابُ ونحوُ ذلك، فقال: إنَّما[١] العيشُ أنْ لا يبقَى منك جارِحَةٌ إلا وهِيَ تجاذِبُكَ إلى طاعةِ الله عز وجل[٢].

مَنْ عاشَ مع اللهِ طابَ عيشُه، ومن عاشَ معَ نفسِه وهواه طالَ طيشُه.

قالَ الحسنُ: إنَّ أحبَّاءَ اللهِ هُم الذينَ ورِثُوا طِيْبَ[٣] الحياةِ بما وَصَلُوا إليهِ مِنْ مناجاةِ حبيبِهم، وبما وجَدُوا من لذَّةِ حُبِّه في قلُوبِهم[٤].

وأكلَ إبراهيمُ بن أدهم معَ أصحابِه كِسَراً يابسةً، ثم قامَ إلى نهرٍ فشَرِبَ منه بِكفِّه، ثم حَمِدَ اللهَ، وقال[٥]: لو عَلِمَ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نحنُ فيه من النَّعيمِ والسُّرورِ لجالَدُونا [عليهِ][٦] بالسُّيوفِ أيامَ الحياةِ على ما نحنُ فيهِ مِنْ لذيذِ العَيْشِ

= ـ ثعلب النحوي كما في «مصارع العشاق» (٢/ ١٠٩)، و«البداية والنهاية» (١٤/ ٧٢٦).

ـ إبراهيم بن محمويه النصراباذي النيسابوري، كما في «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٧/ ١٠٦).

ـ خالد الكاتب أو علي بن الجهم كما في «الدر الفريد وبيت القصيد» (٣/ ١١٢).

ـ أحمد بن عبد السلام الرصافي، كما في «الوافي بالوفيات» (٧/ ٣٩).

(١) في (ج): «أفٍّ، إنما...».

(٢) ذكره الإمام الجليل سفيان بن عيينة رحمه الله عن رجل من أهل الشام، ولفظه: «العيش أن تجيبك أطوارك إلى طاعة الله عز وجل» أخرجه المروزي في زياداته على «الزهد» لابن المبارك (١١٨٤)، والدينوري في «المجالسة» (٢٠١٤).

(٣) في (س): «أحباء الله الذين هم ورثوا طيب». وفي (ع) و(ف): «أطيب»، والمثبت من (ت) أرجح وهو مشير إلى قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾.

(٤) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٣٧)، وعزاه المصنف في «استنشاق نسيم الأنس» إلى ابن أبي الدنيا.

(٥) في (س): «ثم قال».

(٦) من (س) و(ر).

وقِلَّةِ التَّعَبِ. فقالَ له بعضُ أصحابِه: يا أبا إسحاق! طلبَ القومُ الرَّاحةَ والنَّعيمَ فأخطأوا الطَّرِيقَ المستقيمَ[1]، فتبسَّمَ ثمَّ قال: مِنْ أينَ لكَ هذا[2]؟

أهلُ المحبةِ قومٌ شأنهم عجَب ... سُرورُهم أبدٌ[3] وعيشُهم طَرَبُ

العيشُ عيشُهُمُ والمُلكُ ملكهمُ ... ما النَّاسُ إلا هُمُ بانُوا أو اقتربُوا[4]

قيلَ لبعضِ العَارفين ـ وقد اعتزلَ عنِ الخَلْقِ ـ: إذا هَجرتَ الخَلْقَ مع مَنْ تعيش؟ قال: معَ مَنْ هَجرتُهم لأجْلِه[5].

ويُروى عنِ المسيحِ عليه السَّلام أنَّه قالَ: يا معشرَ الحوارييِّن كَلِّموا اللهَ كثيراً، وكلِّموا النَّاسَ قليلاً. قالوا: كيفَ نُكَلِّمُ اللهَ كثيراً؟ قال: اخْلُوا بذِكره، اخلُوا بدعائِه[6]، أُخلُوا بمناجاته[7].

ما أطْيَبَ عَيْش مَنْ تخَلَّا[8] بحَبيب ... يَلْتَذُّ به من غير مَحاشاةِ رقيب

أعيا مَرَضي بكم كلَّ طبيب ... مَنْ أَمَّلَ فَضْلَ مثلِكم كيفَ يخيبُ[9]

---

(١) في (ف): «والنعم فأخطؤوا»، وفي (س): «الصراط المستقيم».

(٢) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٣٧٠)، والخطيب البغدادي في «الزهد والرقائق» (١١٥)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦/ ٣٠٣، ٣٦٦).

(٣) في (س): «زائد». تحريف.

(٤) ذكر المصنف نحوهما في «شرح حديث عمار بن ياسر».

(٥) هو العارف الزاهد يحيى بن معاذ الرازي المتوفى (سنة ٢٥٨هـ)، وهذا الجواب منه أخرجه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (١٦/ ٣١٠).

(٦) في (س): «بذكر نعمائه».

(٧) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٩٤) عن ثور بن يزيد رحمه الله مما قرأه في التوراة.

(٨) في (س): «يخلو».

(٩) لا توجد الأبيات في (ت) و(ع) و(ف) و(ر)، وسقط من (س) الشطر الثاني من البيت الأول، والشطر الأول من البيت الثاني واستدرِك ذلك من (ج). ولم أجد هذا الشعر عند غير المصنف.

واعلمْ أنَّ الجمعَ بين هذينِ العيشينِ في دار الدُّنيا غيرُ ممكنٍ، فمنْ اشتغَلَ بعيشِ رُوحِهِ وقلبِه، و(١)حَصَلَ له منهُ نصيبٌ وافرٌ لَهى(٢) عَنْ عيشِ جَسَدِه وبدنِه، ولم يقدرْ أنْ يأخذَ منه نهايةَ شهوتِه، ولم يقدرْ أنْ يتوسَّعَ في نَيْلِ الشَّهواتِ الحِسِّية، وإنما يأخذُ منها بقَدْرِ ما تقومُ به حاجةُ البدَنِ خاصةً، فينتقصُ بذلكَ عيشُ الجَسَدِ ولا بُدَّ، وهذه كانتْ طريقةَ الأنبياءِ والمرسلينَ وأتباعِهم، فكأنَّ اللهَ يختارُ أنْ يقلِّلَ نصيبَهم مِنْ عيشِ أجسادِهم، ويوفِّر نصيبَهم مِنْ عيشِ قُلوبهم وأرواحِهم.

قالَ سَهْلٌ التُّسْتَرِيُّ: ما آتى اللهُ عَبْداً مِنْ قُربه ومَعْرِفَتِه نَصيباً إلا حَرَمه مِنْ الدُّنيا بقَدْرِ ما أعطاهُ مِنْ مَعْرِفته وقُرْبه، ولا آتاهُ مِنَ الدُّنيا نَصيباً إلا حَرَمَه مِنْ مَعْرِفَتِهِ وقُربه بِقَدْرِ ما آتاهُ مِنَ الدُّنيا(٣).

وقَدْ كانَ النبيُّ ﷺ يَقْتَصِدُ في عَيْشِهِ غَايةَ الاقتصادِ، معَ ما فتَحَ اللهُ عليهِ منَ الدُّنيا والمُلْكِ، وماتَ ولَمْ يشبَعْ مِنْ خُبْزِ الشَّعيرِ(٤)، وكانَ يقولُ: «ما لي وللدُّنيا؟ إنَّما مَثَلِي ومَثَلُ الدنيا كراكِبٍ قَالَ(٥) في ظِلِّ شَجَرةٍ ثم رَاحَ وتركَها»(٦).

وقالَ ﷺ: «حُبِّبَ إليَّ مِنْ دُنياكُم النِّساءُ والطِّيبُ، وجُعِلَتْ قُرَّةُ عيني في الصَّلاةِ»(٧).

---

(١) سقطت من (س): وسقوطها يخل المعنى.

(٢) في (س): «ومَنْ لهى»، وزيادتها تخل المعنى. وفي (ج): «زهد» بدل «لهى».

(٣) في (ت) و(ع) و(ف): «بقدر ما آتاه في الدنيا». أخرجه الضياء المقدسي في «المنتقى من مسموعات مرو» ـ من حديث إسماعيل المقرئ ـ وربما تصحفت التستري إلى القشيري.

(٤) أخرجه البخاري (٥٤١٤) من حديث أبي هريرة.

(٥) في حاشية (ف): «هو من القيلولة».

(٦) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل (٣٧٠٩) (٤٢٠٨)، والترمذي (٢٣٧٧) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٤١٠٩) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٧) أخرجه الإمام أحمد (١٢٢٩٣) (١٢٢٩٤) (١٣٠٥٧) (١٤٠٣٧)، والنسائي (٣٩٣٦ ـ ٣٩٣٧) من =

والنِّساءُ والطِّيبُ فيهما قُوَّةٌ للرُّوح، بخلافِ الطَّعامِ والشَّرابِ، فإنَّ الإكثارَ مِنْهما يقسِّي القَلْبَ ويُفسِدُه، وربَّما أفسدَ البَدَنَ أيضاً، كما قالَ النبيُّ ﷺ: «ما مَلأَ آدميٌّ[1] وعاءً شراً مِنَ بَطْنٍ، فإنْ كانَ لا بُدَّ فاعِلاً، فثُلُثٌ طعامٌ وثلثٌ شرابٌ وثلثٌ نَفَسٌ»[2].

قالَ[3] بعضُ السَّلَفِ: قِلَّةُ الطَّعامِ عَوْنٌ على التَّسرُّعِ إلى الخيراتِ[4].

* [مدح الجوع]:

وقالَ آخرُ: ما قَلَّ طُعْمُ امرئٍ قط إلا رَقَّ قلبُه ونَدِيَتْ عيناهُ[5].

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهم: الشِّبَعُ يميتُ القَلْبَ، ومنهُ يكونُ الفَرَحُ والمرَحُ والضَّحِكُ[6].

* [ذم الشبع]:

وقالَ أبو سُليمان: إنَّ النَّفْسَ إذا جَاعَتْ وعَطِشَتْ صَفِيَ القَلْبُ ورَقَّ، وإذا شَبِعَتْ ورَويتْ عَمِيَ القَلبُ[7].

= حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. وفي بعض المواضع ذكر «من الدنيا» وفي بعضها بدونه ولفظ: «من دنيَاكم» لا يوجد في «المسند» و«سنن النسائي»، وهو في «تعظيم قدر الصلاة» للمروزي (٤٢٢).

(١) في (ع): «ابن آدم».

(٢) أخرجه الإمام أحمد وهذا لفظه (١٧١٨٦)، والترمذي نحوه (٢٣٨٠) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٣٣٤٩) من حديث مقدام بن معديكرب رضي الله عنه. ولفظه: «فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه».

(٣) في (س): «وقال».

(٤) هو عبد العزيز بن أبي رواد رحمه الله تعالى، والأثر أخرجه ابن أبي الدنيا في «الجوع» (١٠٧).

(٥) هو قُثَم العابد رحمه الله تعالى، والأثر أخرجه ابن أبي الدنيا في «الجوع» (١٢٤).

(٦) ذكره ابن الجوزي في «التبصرة» (٢/ ١٠٠٠)، وذكره المصنف في «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٤٧٣).

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الجوع» (٣١٩).

وقال: مفتاحُ الدُّنيا الشِّبَعُ، ومفتاحُ الآخرةِ الجُوعُ[١].

وقيلَ للإمامِ أحمد: يَجِدُ الرجلُ[٢] رِقَّةً مِنْ قَلْبِهِ وهو يَشْبَع؟ قال: ما أُرى[٣].

ولهذا المعنى شرعَ اللهُ الصِّيامَ، وقدْ كانَ النبيُّ ﷺ يُواصِلُ في صِيامِه أيَّاماً، فلا يأكلُ ولا يشربُ، فإذا[٤] سُئِلَ عن ذلكَ يقولُ: «إنِّي لستُ مِثْلَكُم، إني أَظَلُّ عندَ ربِّي يُطعِمُني ويَسْقِين»[٥]، يشيرُ إلى أنَّه يَستغني عَنْ قُوتِ جَسَدِه بما يمنَحُه اللهُ مِنْ قُوتِ رُوحِه عِنْدَ الخلوةِ به والأُنْسِ بذِكْره ومناجاته، مما[٦] يُورِدُه على قلبِه مِنَ المعارفِ القُدْسِيَّةِ والمواهِبِ الإلهيَّة.

لها أحاديثُ مِنْ ذِكراكَ تَشْغَلُها[٧] ... عَنِ الطَّعامِ وتُلهِيْها عَنِ الزَّادِ[٨]

واعلمْ: أنَّ عَيْشَ الجسَدِ يُفْسِدُ عَيْشَ الرُّوحِ ويُنَغِّصُهُ، وأمَّا عَيْشُ الرُّوحِ فإنَّه يُصْلِحُ عَيْشَ الجسَدِ، وقدْ يُغنيهِ عَنْ كثيرٍ مِمَّا يَحتاجُ إليه مِنْ عَيْشِه.

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٣٢٧) وغيره.

(٢) في (ج): «تجد للرجل».

(٣) سأله المروذي للإمام أحمد، وهو في «الورع» (٣٢٣).

(٤) في (س): «وإذا».

(٥) أخرجه البخاري (١٩٦٦)، ومسلم (١١٠٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو في «مسند أحمد» (٨٩٠٢) بهذا اللفظ.

(٦) في (س): «ومما».

(٧) وضبطت أيضاً في (ف): «تُشْغِلها» وكتب فوقها معاً.

(٨) ذكره أبو هلال العسكري في «ديوان المعاني» (١/ ٦٣) منسوباً إلى إدريس بن أبي حفصة في أبيات وشطره الثاني: «عن الرتوع وتلهينا عن الزاد».
وقد أورده ابن القيم في بعض كتبه قريباً مما ذكره المصنف، وذكره المصنف في «لطائف المعارف» وغيره بمثل ما هنا.

كانَ بالبَصرةِ رجلٌ مِنَ المُجتهدينَ في الطَّاعَةِ، وكانَ قليلَ الطُعْمِ[١]، وبَدَنُه غير مَهزولٍ، فسُئِلَ عَن سَبَبِ ذلكَ، فقال: ذلكَ مِنْ فَرَحي بحُبِّ اللهِ، إذا ذَكَرتُ أنَّه رَبِّي وأنا عَبْدُه لم يَمْنَعْ[٢] بَدَني أنْ يَصْلُح[٣].

وسُئِلَ أبو الحسَن بنُ بشَّار: هَلْ يكونُ الوَليُّ سَمِينًا؟ قال: نَعَم إذا كانَ الوليُّ أمِيناً، قِيْلَ له: كيفَ واللهُ يُبْغِضُ الحَبْرَ[٤] السَّمِين؟ قال: إذا عَلِمَ الحَبْرُ عبدَ مَنْ هُو ازدادَ سِمَناً[٥].

وكانَ بِشرٌ يخطِرُ[٦] في دَارِه ويقول: كفَى بي عِزّاً أنِّي لكَ عَبْدٌ، وكفى بي فَخراً أنَّك لي رَبٌّ[٧].

نُسِبتُ لكم عَبداً وذلكَ بُغْيَتي ... وتشريفُ قَدْري نِسبتي لعُلاكُمُ
فكلُّ عَذابٍ في هَواكم يلذُّ لي ... وكلُّ هَوانٍ طَيِّبٌ في هَواكُمُ
لحا اللهُ قلبي إنْ تغيَّرَ عنكمُ ... وإنْ مالَ في الدُّنيا لحِبِّ سِوَاكُمُ[٨]

---

(١) في (س): «المطعم»، وفي المصدر: «الطعام».

(٢) في (س): «يزل».

(٣) أخرجه الختلي في «المحبة لله» (٢٦٠).

(٤) وضبطت أيضاً في (ف): «الحِبْر»، وكتب فوقها: معاً.

(٥) أبو الحسن هو علي بن محمد بن بشار الزاهد العارف، المتوفي سنة (٣١٣هـ) رحمه الله تعالى، مترجم في «طبقات الحنابلة» (٣/ ١٠٨). وحديث: «إن الله يبغض الحبر السمين» لم يأت بسند صحيح عن نبينا ﷺ، وكأن أصله من الإسرائيليات.

(٦) يخطِر: يتبختر.

(٧) لم أجده عن بشر رحمه الله، وإنما وجدته منسوباً لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه في «التفسير الكبير» للفخر الرازي، في تفسير قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ولفظه: «كفى بي فخراً أن أكون لك عبداً، وكفى بي شرفاً أن تكون لي رباً...»، ولم أقف عليه مسنداً إليه.

(٨) لم أجد الأبيات عند غير المصنف، وسقطت من (ت) و(ع) و(ف) و(ر).

فمَنْ وَفَّى نفْسَه[١] حظَّها مِنْ عَيْشِ جَسَدِه بالشُّهواتِ الحِسِّيَّةِ، كالطَّعامِ والشَّرابِ فَسَدَ قلبُه وقَسى، وجَلَبَ له ذلكَ الغفلةَ وكثرةَ النَّومِ، فنقصَ حَظُّ رُوحِهِ وقلبِهِ مِنْ طَعامِ المناجَاةِ وشَرابِ المعرفةِ فَخَسِرَ خُسراناً مُبيناً.

قالَ بعضُهم: مساكين أهلُ الدنيا خَرَجُوا مِنها وما ذَاقُوا أطيبَ شيءٍ فيها، قيل: وما هُو؟ قال: معرفَةُ اللهِ عزَّ وجَلَّ[٢].

فمَنْ عاشَ في الدُّنيا لا يعرفُ[٣] ربَّه ولا يتنعَّمُ بخِدْمته، فعيشُهُ عَيْشُ البَهائم.

نهـارُك يـا مغـرورُ سـهوٌ[٤] وغَفْلَةٌ ... وليلُـكَ نـومٌ والـرَّدَى لـكَ لازِمُ
وتَتْعَـبُ فيمـا سَـوْفَ تكـرَهُ غِبَّـهُ ... كذلـكَ فـي الدُّنيـا تعيشُ البَهَائِـمُ[٥]

فالصَّالِحونَ كلُّهم قلَّلُوا مِنْ عَيشِ الأجسادِ، وتوفروا[٦] مِنْ عَيشِ الأرواحِ، لكنَّ منهم مَن قلَّلَ مِنْ عَيْشِ بَدَنِه ليستوفِيَه في الآخرةِ وهذا تاجِرٌ، ومنهم مَنْ فعلَ ذلكَ خَوفاً منَ الحِسابِ عليهِ في الآخِرة، والمحقِّقُون فعلُوا ذلكَ تفريغاً للسِّرِّ عمَّا يشغَلُ

---

(١) في (ج): «فمن رام في نفسه».

(٢) ذكره ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى في كثير من كتبه، عن بعض العارفين، ومنها «رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه» (ص: ٣١)، و«المدارج»، و«الجواب الكافي»، و«الوابل الصيب»، و«إغاثة اللهفان»، و«روضة المحبين».

(٣) في (س): «ولا يعرف».

(٤) في (ج): «لَهْوٌ».

(٥) كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يتمثل بهذه الأبيات وهي لعبد الله بن عبد الأعلى. انظر التعليق على «الكلام على تحريم الخمر» للمصنف، وهي آخر ما فيه.

وكتب بيت آخر منها في حاشية (ت):

تسَـرُّ بما يفنى وتـفـرحُ بالمُنى ... كما سُرَّ باللذات في النومِ حالِمُ

(٦) في (ف) وحدها: «وكثروا».

عَنِ اللهِ، لتتفرَّغَ[١] القلوبُ للعُكوفِ على طاعَتِه وخِدْمَتِه وذِكرِه وشُكْرِه والأُنسِ به والشَّوْقِ إلى لِقَائِه، فإنَّ الأخذَ مِنْ عَيْشِ الأجسادِ أكثرَ مِنْ قَدْرِ الحاجَةِ يُلْهِي عَنِ اللهِ وَيَشغَلُ عنْ خِدمَتِه.

قال بعضُهم: كلُّ ما شَغَلَكَ[٢] عن اللهِ فهُو عليك مَشؤُومٌ[٣].

فلا كانَ ما يُلهي عن اللهِ إنه يَضُرُّ ويُردِي[٤]، إنه لمشؤوم[٥]

فما تفرَّغَ أحدٌ لطلبِ عَيْشِ الأجسادِ وأعطى نفسَه حظَّها مِن ذلكَ إلا ونقَصَ حظُّه مِن عيشِ الأرواحِ، وربَّما ماتَ قلبُه مِنْ غفلَتِه عن اللهِ وإعراضِه عنه، وقدْ ذمَّ اللهُ مَنْ كان كذلك، قال الله عزَّ وجل[٦]: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

ثُمَّ إنَّ ما حَصَّلُوه[٧] مِنْ شَهَواتهم ينقطِعُ ويزولُ بالموتِ، وينقُصُ بذلكَ حظُّهم عندَ اللهِ في الآخِرة، فإنْ كانَ ما حَصَّلُوه من شَهَواتِهم[٨] مِنْ حَرامٍ فذلكَ هُو الخُسرانُ المبين، فإنَّه يوجِبُ العقوبةَ الشَّديدةَ في الآخرةِ، فلمَّا لم يجتَمِعْ في الدنيا للعَبْدِ بلوغُ حَظِّه مِنْ عَيْشِ رُوحِه وبلوغُ نهايةِ حَظِّه مِنْ عَيْشِ جَسَدِه، جَعَلَ اللهُ للمؤمنينَ داراً

---

(١) في (س): «لتفرغ».

(٢) في (ع) و(ف): «يشغلك».

(٣) هو من قول أبي سليمان الداراني رحمه الله، أخرجه عنه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٢٦٤).

(٤) في (س): «ويؤذي». وتصحفت في (ج) إلى «يروي».

(٥) ذكره المصنف في «لطائف المعارف» (ص ١٥٣)، ولم أجده عند غيره.

(٦) في (س): «فقال» بدل من «قال الله عز وجل».

(٧) في (س): «حصلوا».

(٨) سبق قلم ناسخ (ف) فكرر العبارات.

جمَعَ لهم فيها بيْنَ هذين الحظَّين على نِهايةِ ما يكونُ مِنَ الكَمَالِ وهي الجنَّة، فإنَّ فيها جميعَ لذَّاتِ الأجساد وعيشها ونعيمها كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقالَ: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥] ولا ينقص ذلكَ حظَّهم مِنْ لذَّاتِ أرواحِهم، فإنه تتوفر[١] لذَّاتُ قلوبِهم وتتزايدُ على ما كانتْ للمؤمنينَ في الدنيا بما لا نِسبةَ لما كانَ في الدُّنيا إليه، فإنَّ الخبرَ في الدُّنيا يصيرُ هناكَ عِياناً، فأعلى نعيمِهم هناكَ رؤيةُ اللهِ عزَّ وجل ومشاهدتُه وقربُه ورضاه، ويحصلُ لهم بذلكَ نهايةُ المعرفةِ بِهِ والأنسِ، ويتزايدُ هناكَ لذَّةُ ذِكرِه على مَا كانَ في الدُّنيا، فإنَّهم يُلْهَمُونَ التَّسبيحَ كما يُلْهَمُونَ النَّفَسَ[٢]، وتصيرُ كلمةُ التَّوحيدِ لهم كالماءِ البارِدِ لأهْلِ الدُّنيا[٣].

فعُلِمَ بهذَا أنَّ العَيْشَ الطَّيِّبَ على الحقيقةِ لا يحصُلُ في الدُّنيا، إنَّما يكونُ بعدَ الموتِ فإنَّ مَنْ يُوَفِّرُ حَظَّهُ مِنْ نَعِيمِ رُوحِه وقلبِه في الدُّنيا[٤] ينقصُ به حَظُّه من نعيم جسمه، وربما حصلَ له المشاقُّ على جسده من ذلك، ومن يوفر حظه في الدنيا من نعيم جسمه نقصَ به حظه من نعيم روحه وقلبه في الدنيا[٥]، ونقصَ بِهِ أيضاً حَظُّه مِنْ نَعيمِ الآخِرة، ومعَ هَذا فهُو نَعيمٌ منغَّصٌ لا يَدُومُ، ولا يَبْقى، وكثيراً

---

(١) في (س): «يتوافر».

(٢) أخرج مسلم من حديث جابر رضي الله عنه (٢٨٣٥) في ضمن حديث: «... يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس».

(٣) نقله المصنف عن ابن عيينة في «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٢٠١).

(٤) سقط ما بعده من (ف) و(س) وجاء لحق في حاشية (ف): «توفر في الآخرة أيضاً، ومن توفر حظُّه من نعيم جسده في دنياه ربما نقص في الدنيا».
وفي (س): «فإن من توفر حظه من نعيم جسده في الدنيا».

(٥) نهاية السقط في (ف) و(س).

ما يتنَغَّصُ بالأمراضِ والأسقامِ، وربَّما انقطعَ وتبدَّلَ صاحبُه بالفَقْرِ والذُّلِّ بعد الغِنى والعِزِّ، وإنْ[1] سَلِمَ مِنْ ذلكَ كُلِّه، فإنَّه ينغِّصُهُ الموتُ، فإذا جاءَ الموت فما كأنَّ مَنْ تَنعَّم بالدُّنيا[2] ذاقَ شيئاً مِنْ لَذَّاتِها، خُصوصاً إنْ انتقَلَ العبدُ بعدَ الموتِ إلى عذابِ الآخرةِ، كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝٢٠٦ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ ـ ٢٠٧].

وكانَ الرَّشيدُ قد بنى قَصْراً فلما فَرَغَ مِنْه ونَجَّدَه[3] وفَرَشه استدعَى فيه بطَعامٍ وشرابٍ وملاهي، واستدعى أبَا العَتَاهِيةِ، فقال له: صِفْ لي ما نَحنُ فيهِ منَ العَيشِ، فأنشَأَ يقولُ:

عِشْ ما بَدا لَكَ سالماً ... في ظِلِّ شَاهِقَةِ القُصُور

يُسْعَى عليكَ بما اشتهيْتَ ... لدى الرَّواحِ وفي البُكُورِ

فإذَا النُّفُوسُ تَقَعْقَعَتْ ... في ضِيْقِ حَشْرَجَةِ الصُّدُورِ

فهنَاكَ تعلَمُ مُوقِناً ... ما كنتَ إلا في غُرُورِ

فبَكى الرَّشيدُ، فقالَ له الوزيرُ: دعاكَ أميرُ المؤمنينَ لِتَسُرَّه فأحزَنْتَه؟ فقالَ الرشيدُ: دَعْه فإنَّه رَآنا في عمَىً فكَرِهَ أنْ يزِيدَنا عَمَىً[4].

---

(١) في (س): «فإن».

(٢) في (س): «في الدنيا ولذاتها كأنه ما».

(٣) التنجيد: التزيين.

(٤) أخرجه من طريق ابن أبي الدنيا: الدينوري في «المجالسة» (١٦٢١)، وذكر القصة ابن الأثير في «الكامل في التاريخ» (٥/ ٣٩٥) آخر ترجمة هارون الرشيد من حوادث سنة ١٩٣. والأبيات في «ديوان أبي العتاهية».

نظر بعضُ المُترفين[١] عندَ مَوتِه إلى مَنْزِله، فاستَحْسَنَه، وقالَ[٢]:

إنَّ عَيْشاً يكونُ آخِره المو ... تُ لعيشٌ معجَّلُ التَّنغِيْصِ

ثم ماتَ مِنْ يومِه[٣].

وقالَ آخرُ:

تَنقضي الدُّنيا وتَفْنى ... والفَتى فيها مُعَنَّا

ليسَ في الدُّنيا نعيمٌ ... لا ولا عيشٌ مُهنَّا[٤]

يا غنيًّا بالدنانيـ ... ـرِ محبُّ اللهِ أَغنى

وقالَ آخرُ:

إنما الدُّنيا وإن ... سَرَّت[٥] قَليلٌ مِنْ قَليلِ

إنما العَيش جوارُ ... اللهِ في ظِلٍ ظَلِيلِ

حيث لا تَسْمَعُ مَا ... يُؤْذِيكَ مِنْ قالٍ وقيلِ[٦]

---

(١) في (س): «العارفين»!

(٢) في (س): «فقال».

(٣) البيت لأبي العتاهية، وأوصى أن يكتب على قبره كما في «تاريخ دمشق» (٧/ ٥٩)، وأخرج نحوه ابن أبي الدنيا في «المحتضرين» (٣٠٣) عن إسحاق ابن السري قال: دخلنا على عبد الله بن يعقوب في اليوم الذي مات فيه، وعنده متطبب ينعت به دواء، فقال عبد الله متمثلاً...

(٤) الأبيات سقطت من النسخ وفي (ج) الأولان فقط، وفي (س) الثالث منها. أنشدها أبو موسى المديني في «اللطائف من دقائق المعارف» (٣٩) من أبيات أنشدها علي بن محمد بن بشار الحنبلي الزاهد رحمه الله.

(٥) في (ج): «كثرت» بدل «سرَّت».

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (١٧٠) عن رجل من بني يشكر، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢١٧) من إنشاد محمد بن منصور الطوسي رحمه الله تعالى.

وقال آخر:

وكيف يلَذُّ العيشَ مَنْ كانَ عالِماً ... بـأنَّ إلـهَ الخَـلْقِ لا بُدَّ سائِلُه

فيأخُذُ منهُ ظـلْـمَـه لـعـبـادِهِ ... ويجزيهِ بالخيرِ الذي هُو فاعِلُه[١]

فالأشقياءُ في البَرزخِ في عَيْشٍ ضَنْكٍ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤]، وقد رُوي عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه مرفوعاً وموقوفاً «أَنَّ المعيشةَ الضَّنْك عذابُ القَبْرِ»[٢]، يُضَيَّقُ عليهِ قبرُه حتى تختلفَ أضلاعُه[٣]، ويُسلَّطُ عليه تسعةٌ وتسعون تِنِّيناً»[٤].

وأمَّا عَيْشُهم في الآخرةِ فأَضيَقُ وأضيَقُ، فأمَّا مَنْ طاب عيشُه بعدَ الموتِ فإنَّ طِيْبَ عَيْشهِ لا ينقَطِعُ بلْ كُلَّما جاءَ تزايدَ طِيبُه.

ولهذا سُئِلَ بعضُهم: مَنْ أَنعَمُ النَّاسِ[٥]؟ فقال: أجسامٌ في الترابِ قَدْ أمِنَت العذابَ وانتظَرت[٦] الثَّوابَ[٧]. فهذا في البرزخ، في عيش طيب[٨].

---

(١) أبيات سقطت من النسخ وفي (ج) الأولاد فقط، وفي (س) الثالث منهما. قرأها صدقة بن مرداس البكري على شاهدةِ قبرٍ بطرابلس. خبرها في «القبور» لابن أبي الدنيا (٢١٨)، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (٢٨/ ٣٥٤).

(٢) أخرجه مرفوعاً عن أبي سعيد: الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٨١) وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه». وأخرجه موقوفاً عن أبي سعيد: ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٩٨٣).

(٣) أخرجه موقوفاً عن أبي سعيد: عبد الرزاق في «تفسيره» (١٨٤٤) وهو في «المصنف» (٦٧٤١)، والبيهقي في «إثبات عذاب القبر» (٦٠).

(٤) أخرجه مرفوعاً عن أبي سعيد: أحمد في «مسنده» (١١٣٣٤) وغيره. وأخرجه موقوفاً عن أبي سعيد: البيهقي في «إثبات عذاب القبر» (٦١). ولم أقف على هذه الجمل الثلاث في سياق واحد.

(٥) في (س): «من أنعم الناس عيشاً».

(٦) في (س): «فانتظرت».

(٧) أخرج نحوه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٥٣) من كلام صفوان بن عمرو قاله لبقية بن الوليد في قصة.

(٨) في (س): «في البرزخ، فإن المؤمن في عيش طيب».

رؤي معروفٌ في المنام بعدَ موتهِ وهُو يُنْشِد:

مــوتُ الـتَّـقـي حياةٌ لا نَـفَــادَ لـهـا　　　قد ماتَ قومٌ وهم في النَّاسِ أحياءُ[١]

وكانَ إبراهيمُ بن أدهم يُنْشِدُ:

مــا أحــدٌ أنعــمُ مِــنْ مُفْرَدِ　　　فــي قَبــره أعمالُــه تُؤنِسُــهْ

مُنَعَّــمُ الجسـمِ فـي رَوْضَـةٍ　　　زَيَّنهــا الله فَهِــيْ مَجْلِسُــهْ[٢]

رؤي بعضُ الصَّالحينَ في المنامِ بعدَ موتِه، فقال: نحنُ بحمدِ اللهِ في بَرزَخٍ محمودٍ، نفتَرِشُ فيه الرَّيحانَ، ونتوسَّدُ فيه السُّنْدُسَ والإستَبرقَ إلى يومِ النُّشُورِ[٣].

رؤي بعضُ الموتى في المنَامِ، فسُئِلَ عن حالِ الفُضَيلِ بن عِيَاضٍ، فقال: كُسِيَ حُلَّةً لا تقومُ لها الدُّنيا بحواشِيها[٤].

فأمَّـا عيـشُ المتَّقيـنَ فـي الجنَّةِ فـلا يحتاجُ أنْ يُسـأَلَ عن طِيبـهِ ولذَّتِـه، ويكفي في ذلـكَ قولُـه تعالـى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢١ ـ ٢٤] ومعنـى: ﴿رَّاضِيَةٍ﴾ أي: عِيْشَةٌ يحصلُ بهـا الرِّضى.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المنامات» (١٤٨)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٣٦٠).

(٢) هو مما قرأه إبراهيم بن أدهم مكتوباً على قبر ببلاد الشام، أخرجه البيهقي في «الزهد الكبير» (٧٠٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١١).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «القبور» ـ وليس في المطبوع منه ـ ومن طريقه: ابن الجوزي في «البر والصلة» (١٩٩). ونقله من كتاب ابن أبي الدنيا: ابن القيم في كتاب «الروح» في أوله، والمصنف في «أهوال القبور».

(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٨/ ٤٥٣) من طريق ابن أبي الدنيا. والرائي هو بعض المكيين، والمرئي هو: سعيد بن سالم القداح.

وفسَّر ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنه قولَه: ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ بأنّه لا موتَ فيها[١]، يشيرُ إلى أنه لمْ يَهْنِهِمُ العيشُ إلا بعدَ الموتِ والخلودِ فيها.

قالَ يزيدُ الرَّقَاشيُّ: أمِنَ أهلُ الجنَّةِ الموتَ فطابَ لهُم العيشُ، وأمِنُوا مِنَ الأسْقامِ فهنيئاً لهم في جِوارِ اللهِ طُول المُقَام[٢].

وقالَ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ [الطور: ١٧] ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر: ٤٥]، [الذاريات: ١٥] ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤ ـ ٥٥].

«أدنى أهلِ الجنَّةِ منزلةً من ينظرُ في ملكه وسُرُره وقُصورِهِ مسيرةَ ألفي عامٍ، يُرى أقصاهُ كما يُرى أدناهُ، وأعلاهم من ينظر إلى وَجْهِ اللهِ بُكرةً وعَشِيًّا»[٣].

وقالَ طائفةٌ مِنَ السَّلَفِ: إنَّ[٤] المؤمنَ له بابٌ في[٥] الجنَّةِ مِنْ دارِهِ إلى دارِ السَّلامِ يدخلُ مِنْهُ على رَبِّه إذا شَاءَ بلا إِذْنٍ[٦].

قالَ أبو سُليمانَ الدَّارانيُّ: وإذا أتاهُ رسولٌ مِنْ ربِّ العِزَّة بالتَّحيَّةِ واللُّطْفِ فلا يَصِلُ إليه حتَّى يستأذِنَ عليه، يقولُ للحاجِبِ: استأذنْ لي على وَليِّ اللهِ فإنِّي لستُ

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم في تفسير قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٩] عن ابن عباس: أي لا تموتون فيها.

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٥/ ٨٧).

(٣) هذا اللفظ مركب من روايات متعددة من حديث ابن عمر رضي الله عنه. أخرجه أحمد (٥٣١٧) (٤٦٢٣)، والترمذي (٢٥٥٣) وذكر الاختلاف في رفعه ووقفه، و(٣٣٣٠) وقال: غريب.

(٤) في (س): «قال بعض السلف: وإن».

(٥) في (س): «بابان من».

(٦) هو من كلام أبي سليمان الداراني رحمه الله، وهو طرف من الأثر التالي.

أَصِلُ إليه، فيُعْلِمْ ذلك الحاجبُ حاجِباً آخَر حتى يَصِلَ إليه فذلك قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠][(١)].

فللَّهِ ذاكَ العيشُ بينَ خِيامِها ... وروضاتِها والثغرُ في الرَّوضِ يبسمُ

ولله كم مِنْ خَيْرةٍ إنْ تبسَّمتْ ... أضاءَت لها الجنَّاتُ حين تَبَسَّمُ[(٢)]

ولله وادِيْهَا الذي هُو موعدُ الـ ... ـمَزِيد لوفْدِ الحُبِّ لو كُنْتَ مِنْهُمُ

بذيَّالك الوادِي يهيمُ صبابةً ... مُحِبٌّ يرى أنَّ الصَّبابةَ مَغْنَمُ

ولله أفراحُ المحبِّين عندَما ... يُخَاطِبُهم مولاهُمُ ويُسَلِّمُ

ولله أبصارٌ تَرى اللهَ جَهْرةً ... فلا الضَّيمُ يَغْشاها ولا هِي تَسْأَمُ

فيا نظرةً أهدتْ إلى الوجه نَضْرَةً[(٣)] ... أَمِنْ[(٤)] بعدِها يَسلُو المُحِبُّ المتيَّمُ؟

فَرُوحَكَ قَرِّبْ إنْ أَردتَ وِصالَهُمْ ... فما نظرةٌ تُشْرى[(٥)] بُرُوحِك مِنْهُمُ

وأقدِمْ ولا تَقْنَعْ بعيشٍ مُنَغَّصٍ ... فما فازَ باللَّذاتِ مَنْ لَيس يُقْدِمُ

وصُمْ[(٦)] يومَكَ الأدنى لعلَّكَ في غَدٍ ... تفوزُ بعيدِ الفِطْرِ والنَّاسُ صُوَّمُ

فَيا بائِعاً هذا ببَخْسٍ مُعَجَّلٍ[(٧)] ... كأنَّكَ لا تَدْرِي! بلى سَوْفَ تَعْلَمُ

فإنْ كُنْتَ لا تَدْرِي فتلكَ مُصِيبَةٌ ... وإنْ كنتَ تَدْرِي فالمصيبةُ أَعظمُ[(٨)].

---

(١) أخرجه وضمنه الأثر الذي قبله: البيهقي في «البعث» (٤٠٣). وفي حاشية (ت): «بلغ».

(٢) في «حادي الأرواح»: أضاء لها نور من الفجر أعظم. وفي (س): «أضاء لها الجنان».

(٣) في (س): «إلى القلب نضرة».

(٤) في (ج): «ومن».

(٥) في (س): «فما غلبت نظرة تشترى»!

(٦) في (س): «فصم».

(٧) في (ج): «بعيشٍ منغّص».

(٨) سقطت الأبيات كلها من (ت) و(ع) و(ف) و(ر)، وجاء هنا في (س): «بلغ». والأبيات من قصيدة =

وقولُه ﷺ بعدَ هذا: «وأسألُكَ لذَّةَ النَّظَرِ إلى وجْهِكَ، والشَّوقَ إلى لِقائِكَ من غيرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ ولا فِتنةٍ مُضِلَّةٍ»:

فهذا يشتَمِلُ[1] على أعلى نَعيمِ المؤمنِ[2] في الدُّنيا والآخرةِ، وأطيبِ عَيْشٍ لهم في الدَّارين، فأمَّا لذَّةُ النَّظرِ إلى وجهِ اللهِ عزَّ وجَلَّ فإنَّه أعلى نَعيمِ[3] أهلِ الجنَّةِ وأعظمُ لذَّةٍ لهم[4]، كما في صحيح مُسْلمٍ عن صُهيَبٍ رضي اللهُ عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا دَخَلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، نادى المنادِي: يا أهلَ الجنَّةِ إنَّ لَكُمْ عندَ اللهِ مَوْعِداً[5]، يريدُ أنْ يُنْجِزَكُموه، فيقولون: ما هُو؟ ألم يُبَيِّضْ وجُوهَنَا؟ ألم يُثَقِّل موازيننا؟ ألم يُدْخِلْنَا الجنَّةَ؟ ألم يُجِرْنا مِنَ النَّارِ؟ قال: فيكشِفُ الحِجَابَ فينظُرونَ إليه، فواللهِ ما أعطاهُم شَيئاً هو أحبُّ إليهم مِنَ النَّظَرِ إليهِ، وهو الزيادةُ، ثم تلا رسولُ اللهِ ﷺ هذهِ الآيَةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]»[6].

وفي روايةٍ لابنِ ماجَهْ وغيرِهِ في هذا الحديثِ: «فواللهِ ما أعطاهُم شيئاً هو أحبُّ إليهِم ولا أقرُّ لأعينهم مِنَ النَّظَرِ إليه»[7].

طويلة لابن القيم رحمه الله ذكر منها في أول كتابه «حادي الأرواح»، وأيضاً في «طريق الهجرتين». وأورد المصنف في «ذيل طبقات الحنابلة» (٥/ ١٧٧) أبياتاً منها قرئت على ابن القيم وابن رجب يسمع رحمهم الله تعالى. والبيت الثامن هنا ليس في تلك المصادر.

(١) في (س): «هذا يشمل».

(٢) في (س): «المؤمنين». وفي (ج): «النعم للمؤمنين».

(٣) في (ت) و(ف): «نِعَم».

(٤) في (ج): «لذتهم».

(٥) في (ج): وفي إشارة إلى نسخة في حاشية (ت) و(ف): «عهداً»، وجمع ناسخ (ع) بين الكلمتين.

(٦) أخرجه مسلم (١٨١)، لكن هذا اللفظ أقرب إلى ما أخرجه الترمذي (٣١٠٥)، وهو في الترمذي أيضاً بلفظ مقارب (٢٥٥٢).

(٧) أخرجه ابن ماجه (١٨٧).

وخَرَّجَ عثمانُ الدَّارِميُّ منْ حديثِ ابنِ عُمر مَرفوعاً: «إنَّ أهلَ الجنَّةِ إذا بَلغَ بهم النعيمُ كلَّ مبلَغٍ، فظنُّوا أنَّه لا نعيمَ أفضلُ منهُ، تجلّى الربُّ تباركَ وتعالى عليهم، فينظرونَ إلى وجهِ الرَّحمنِ تباركَ وتعالى، فنَسوا[1] كلَّ نعيمٍ عاينوه حينَ نَظَروا إلى وَجْهِ الرَّحمنِ»[2] وخرَّجهُ الدَّارقُطنيُّ بنقصانٍ منه وزيادة فيه[3]: «فيقولُ يا أهلَ الجنَّةِ هَلِّلوني وكبِّروني وسبِّحوني، كما كُنتم تُهلِّلوني وتكبِّروني وتسبِّحوني في دارِ الدُّنيا، فيتجاوبونَ[4] بتهليلِ الرَّحمنِ، فيقولُ اللهُ تبارَكَ وتعالى لداودَ عليه السلام: يا داودُ قُمْ فمجِّدني، فيقومُ داودُ فيمجِّدُ ربَّه عزَّ وجلَّ»[5].

وفي «سُنَنِ ابنِ ماجَهْ» عن جابرٍ مرفُوعاً: «بينما أهلُ الجنَّةِ في نَعيمهمْ إذْ سَطَعَ لهم نُورٌ فإذا الربُّ جلَّ جلالُه قد أشَرفَ عليهم، فقال: السَّلامُ عليكُم يا أهلَ الجنَّةِ، وهو قولُه تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨] فلا يَلْتفِتُونَ إلى شيءٍ مما هُ فيه منَ النعيمِ ما داموا ينظرونَ إليه»[6].

وخَرَّجَ البَيهقيُّ مِنْ حديثِ جابرٍ مرفوعاً: «إنَّ أهلَ الجنَّةِ يزورُونَ ربَّهم تعالى على نجائبَ مِنْ ياقوتِ أحمرَ، أَزِمَّتها من زُمُرُّدٍ[7] أخضر، فيأمرُ اللهُ بكُثبانٍ منْ مِسْكٍ أذفَرَ أبيضَ، فتُثيرُ[8] عليهم رِيحاً يُقال لها: المثيرةُ[9]، حتَّى تنتهي بهم إلى جَنَّة عَدْن،

---

(١) في (س): «فينسون».

(٢) أخرجه في «نقض الدارمي على المريسي» (٢/ ٧١٦)، وفي «الرد على الجهمية» (٩٦).

(٣) في (ج) «وزاد فيه».

(٤) تحرفت في (ت) و(ع) و(ف) إلى: «فيتهاوتون».

(٥) أخرجه الدارقطني في «رؤية الله» (١٧٦).

(٦) أخرجه ابن ماجه (١٨٤).

(٧) في (ع): «زبرجد».

(٨) في (ج): «فينشر». تصحيف.

(٩) في (ج): «المبشرة». تصحيف.

وهي قَصَبَةُ الجنَّةِ، فتقولُ الملائكةُ: ربَّنا جاءَ القومُ، فيقولُ: مَرْحباً بالصَّادقين، مَرْحباً بالطَّائعين. قال: فيكشف لهم الحجاب فَيَنْظرونَ إليه، ويتمتَّعون بنُورِه، حتى لا يُبْصِر بعضُهم بعضاً، ثم يقول: أرجعوهم[1] إلى القُصورِ بالتُّحَفِ، فيرجِعونَ وقد أبصرَ بعضُهم بعضاً، فذلك قولُه تعالى: ﴿ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾[2] [فصلت: ٣٢][3].

وفي «مُسنَدِ البزَّارِ» من حديثِ حُذيفةَ مرفُوعاً في حديثِ يوم المزيدِ: «إنَّ اللهَ يكشِفُ تلكَ الحُجُبَ ويتجلَّى لهم، فيغشَاهُم مِنْ نُوره ـ ما لولا[4] أنَّ اللهَ تعالى قَضى ألّا يحترقُوا لاحترقُوا مما غَشِيَهم[5] مِنْ نُورِه ـ فيرجِعُون إلى منازلهم وقد خَفُوا على أزواجِهم ممَّا غَشِيَهُم مِنْ نورِه فإذا صَاروا إلى مَنَازِلهم ترادَّ النورُ وأمكَنَ، وترادَّ وأمكنَ، حتى يرجِعوا إلى صُوَرِهم التي كانوا عليها»[6].

ويُروى من حديثِ أنسٍ مرفُوعاً: «إنَّ اللهَ يقولُ لأهلِ الجنَّةِ إذا استَزارَهُم وتجلَّى لهم: سلامٌ عليكُم يا عِبادي، انظُروا إليَّ فقدْ رَضيتُ عَنكُم. فيقُولونَ: سُبْحانك سُبْحانك، فتتصدَّعُ له مدائِنُ الجنَّةِ وقُصورُها، ويتجاوبُ فُصُولُ[7] شَجَرِها وأنهارُها وجميعُ ما فيها: سُبْحانَك سُبْحانَك، فاحتَقَرُوا الجنَّةَ وجميعَ ما فِيها حينَ نَظَرُوا إلى وَجْهِ اللهِ تعالى»[8].

---

(١) في (ف): «ارجعوا».

(٢) بدلها في (ج): قوله تعالى: ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾.

(٣) أخرجه البيهقي في «البعث والنشور» (٤٤٨) مطولًا، وسقط من مطبوعه: «ثم يقول أرجعوهم... إلى: بعضهم بعضاً»، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٠٨).

(٤) في (ج): «شيء لولا».

(٥) في (س): «يغشاهم» وفي حاشيتها ما يوافق المثبت.

(٦) هذا مختصر أخرجه البزار (٢٨٨١) في حديث طويل. قال علي بن المديني: «هذا حديث غريب».

(٧) في (س): «فيناجونه فيقول» تصحيف.

(٨) جزء من حديث طويل جدًّا في رؤية الحق جل جلاله، أخرجَ ابنُ الجوزي في «الموضوعات»: =

ويُروى مِنْ حديثِ عليٍّ مرفوعاً إنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ يتجلَّى لأهلِ الجنَّةِ عن وَجْهِه فكأنَّهم لم يَروا نِعْمَةً قبلَ ذلكَ، وهو قولُه تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥][1].

ويُـروى مِـنْ حديثِ أبـي جَعفر مُرسـلاً: «إنَّ أهـلَ الجنَّـةِ إذا زَارُوا ربَّهـم تباركَ وتعالـى، وكَشَـفَ لهـم عَـنْ وَجْهِه قالـوا: ربَّنـا أنتَ السَّـلامُ، ومنـك السَّـلامُ، ولكَ حَـقُّ الجـلالِ والإكْرامِ، فيقـولُ تعالى: مرحباً بعِبـادي الذينَ حَفظـوا وصيَّتي ورَعَوا عَهـدِي، وخافُونـي بالغَيـبِ، وكانُـوا مِنِّي علـى كُلِّ حالٍ مُشـفِقِين. فقالـوا: وعزَّتِك وعظمَتِـك وجَلالِـك مـا قَدَرْناك حَـقَّ قَـدْرِك، وما أَدَّينـا إليـكَ كُلَّ حَقِّك، فأْذَنْ لنا بالسُّـجودِ لك. فيقـولُ لهم عزَّ وجَـلَّ: إنِّي قَدْ وضعـتُ عَنْكم مَؤُنَةَ العبـادة، وأرحتُ لكـم أبدانَكـم، فطالما أنصَبْتُـم لـيَ الأبـدانَ، وأعنَيْتُم[2] لـي الوجوهَ، فـالآنَ أفضيتُم إلـى رَوْحـي ورَحْمتـي وكرامتي، فسـلوني ما شِـئتم، وتمنَّوا علـيَّ أُعطِكـم أمانيَّكم.

= (باب رؤية أهل الجنة ربهم) (٣/ ٢٥٩) طرفاً منه من طريق (ابن شاذان) بسنده إلى ضرار بن عمرو عن يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه. وأورده السيوطي بتمامه في «اللآلئ المصنوعة» (٢/ ٣٨٠ ـ ٣٨٢) وعزاه إلى كتاب «البكاء والرقة» للموفق ابن قدامة رحمه الله.

وأخرج الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٤٥٤) نحوه من رواية النضر بن عربي عن أنس رضي الله عنه. وحديث الرؤية وفيه فضل الجمعة مشهور روي من وجوه عن أنس رضي الله عنه، وأخرجه جماعة منهم من روى طرفاً منه ومنهم من أخرجه بتمامه، كالشافعي وعبد الرزاق وابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا وأبي يعلى والبزار والطبراني وأبي نعيم وغيرهم، ولا توجد لديهم الألفاظ التي هنا إلا الرضا. فأصل الحديث في فضل الجمعة والرؤية صحيح. ولا يستقيم الحكم عليه بالوضع ـ كما حكم ابن الجوزي ـ إلا على الألفاظ والزيادات المنكرة التي أتى بها الرقاشي أو ضرار بن عمرو، والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٨٥٢).

(٢) في (ف): «وأعنتم».

فإنِّي لم أجزِكم[1] اليومَ بقَدْرِ أعمالِكم، ولكنْ بقَدْرِ رحمَتي وكرامَتي، فما يزالونَ في الأمانيِّ والعَطايا والمواهبِ، حتى إنَّ المقَصِّر منهم في أُمنيَّته ليتمنَّى مثل جميعِ الدُّنيا منذُ خلقَها اللهُ إلى أنْ أفناها، فيقولُ لهم الربُّ تباركَ وتعالى: لقدْ قَصَّرتم في أمانِيِّكم، ورَضيتم بدونِ ما يَحِقُّ لكم، فقدْ أوجبتُ لكم ما سَألتم وتمنَّيتم، وألحقتُ بكم ذُرِّيتكم، وزِدْتكم ما قَصَّرتْ عنه أمانِيُّكم[2].

قالَ عبدُ الرحمنِ بنُ أبي ليلى: إذا تجلَّى لهم ربُّهم لا يكونُ ما أُعطُوا عندَ ذلكَ بشيءٍ[3].

قالَ الحسنُ: إذا تجلَّى لأهلِ الجنَّةِ نَسُوا كلَّ نعيمِ الجنَّةِ[4].

وكانَ يقولُ: لو عَلِمَ العابدونَ أنَّهم لا يرونَ ربَّهم في الآخرةِ لماتُوا[5].

وقال: إنَّ أحباءَ اللهِ هُم الذينَ وَرِثُوا[6] طيبَ الحياةِ وذاقُوا نَعيمَها بما وَصَلوا إليهِ مِنْ مناجَاةِ حَبيبِهم، وبما وَجَدُوا مِنْ حَلاوَةِ حُبِّهِ في قُلُوبِهم، لا سِيَّما إذا خَطَر على بَالهم ذِكرُ مُشافَهتِهِ، وكَشَفَ سُتورَ الحُجُبِ عنهُ في المقامِ الأمينِ

---

(١) في (ج): «لن أجزيكم».

(٢) أبو جعفر هو السيد الجليل محمد الباقر رضي الله عنه. والأثر أخرجه بطوله ابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» (٥٢)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (٤١١)، وهو معضل.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» (٩٣).

(٤) أخرجه الآجري في «الشريعة» (٥٧٢).

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٥٩) بهذا اللفظ، وأخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٨٦٩)، والآجري في «الشريعة» (٥٧١) ولفظه: «لذابت أنفسهم في الدنيا».

(٦) في (س): «أورثوا».

والسُّرور، وأراهُم جلالَه وأسمَعَهم لذَّةَ كلامِه وردَّ عليهِم[١] جوابَ ما نَاجَوه به أيَّام حَيَاتِهم[٢].

أَمَلِي أنْ أراكَ يوماً مِنَ الدَّهْـ ـرِ فأشكُو لكَ الهوى والغَلِيلا

وأناجِيْك مِنْ قُربٍ[٣] وأُبْدِي لكَ هَذا الجَوى وهَذا النُّحولا[٤]

قالَ وَهْبٌ: لو خُيِّرتُ بينَ الرؤيةِ والجنَّةِ لاخترتُ الرؤيةَ[٥].

رؤي بشرٌ في المنامِ فسُئِلَ عَنْ حَالِه وحَالِ إخوانهِ فقالَ: تركتُ فُلاناً وفُلاناً بين[٦] يدي اللهِ يأكلانِ ويَشْرَبانِ ويتنعَّمانِ. قيل له: فأنت؟ قالَ: عَلِمَ قِلَّةَ رَغْبتي في الطَّعامِ فأباحَنِي النَّظرَ إليه[٧].

يا حبيبَ القلوبِ مَن[٨] لي سِواكا ارحمِ اليومَ مُذنِباً قَدْ أتاكا

أنتَ سُؤلي ومُنْيَتي وسُروري طَالَ شَوقي متى يكونُ لِقَاكا

ليسَ سُؤلي مِنَ الجِنانِ نعيماً غيرَ أنِّي أريدُها لأَراكا[٩]

---

(١) «عليهم»: سقط من (ت) و(ع) و(ف) ويمكن على هذا أن تقرأ: «ورَدِّ جوابِ».

(٢) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٣٧)، وسبق طرف منه في هذه الرسالة قبلًا.

(٣) في (ج): «قريب».

(٤) لم أجد البيتين عند غير المصنف، وسقطا من (ت) و(ع) و(ف).

(٥) ذكر المصنف في «استنشاق نسيم الأنس» نحوه عن ابن وهب، وعزاه لابن منده.

(٦) في (ت) و(ف): «ما بين».

(٧) أخرجه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (١٢/ ٢٨٣) والرائي هو عاصم الحربي، وفلان وفلان هما أحمد بن حنبل وعبد الوهاب الوراق.
وهنا يبتدئ سقط في (ت) و(ع) و(ف).

(٨) في (س): «ما».

(٩) مما سمعه محمد بن المبارك الصوري من عباس المجنون رحمهما الله في جبل لبنان، أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٤٥).

قال ذُو النُّونِ: ما طابت الدنيا إلا بذِكرِه، ولا طابت الآخرةُ إلا بعَفْوِه[1]، ولا طابتْ الجنَّةُ إلا برُؤيته[2].

قال أبو يزيد: لو أنَّ اللهَ احتجَبَ عن أهلِ الجنَّةِ لاستغاثَ أهلُ الجنَّةِ مِنَ الجنَّةِ كما يستغيثُ أهلُ النَّارِ مِنَ النَّارِ[3].

كانَ بعضُ العارفين[4] يقولُ: ليتَ ربِّي جعلَ ثوابي مِنْ عَمَلي نظرةً إليه، ثم يقولُ: كنْ تراباً[5].

كان عليُّ بنُ الموفَّقِ يقول: اللَّهمَّ إنْ كنتَ تعلمُ أنِّي أعبُدُك خَوفاً مِنْ نَارِكَ فعذِّبني بها، وإنْ كنتَ تعلَمُ أنِّي أعبُدُكَ حُبّاً لجنَّتِكَ فاحْرِمنِيها، وإنْ كنتَ تعلَمُ أنَّما عَبْدتُك حُباً مِنِّي لكَ وشَوقاً إلى وَجْهِك الكريمِ فأَبِحنيْهِ واصنَعْ بي مَا شِئْتَ[6].

سَمِعَ بعضُهم قائِلاً يقولُ:

كَبُرتْ هِمَّةُ عَبْدٍ ... طَمِعَتْ في أنْ تَراكا

أَوْمَا حَسْبُ [لِعَيْنٍ] ... أن تَرَى مَنْ [قد] رَآكا

---

(١) في (ج): «النجوه».

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٣٧٢).

(٣) هذا من كلام أبي يزيد البسطامي رحمه الله، أخرجه بنحوه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٣٤) ولفظه: «إن لله خواصَّ من عباده».

(٤) في (س): «الصالحين».

(٥) ذكره المصنف في «استنشاق نسيم الأنس» منسوباً إلى نافع من عُبَّاد الجزيرة.

(٦) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٢٧)، وذكره ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (١/ ٥٠٣). وقد أجاب المصنف ابن رجب رحمه الله بعد أسطر عما قد يستشكله بعض الناس في مثل هذه العبارات.

ثم شَهَق شَهْقَةً فمات[١].

لمَّا غلبَ الشُّوقُ على قُلوبِ المحبينَ استَروَحوا إلى مِثْلِ هَذِه الكَلِماتِ وما تُخفِي صُدُورهم أكبرُ

تجاسرتُ فكاشَفْـ ـتُك لما غَلَبَ الصَّبرُ

فإنْ عنَّفني الناسُ ففي وَجْهِكَ لي عُذْرُ[٢]

أَبصَارُ المحبِّين قَدْ غَضَّتْ مِنَ الدُّنيا والآخِرةِ فلمْ تَفْتَح إلا عِنْدَ مُشَاهَدَةِ مُحبُوبِهم يومَ المَزِيد.

أروحُ وقَدْ خَتَمتُ على فؤادِي بِحُبِّكَ أنْ يحُلَّ به سِواكا

فَلَو أنّي استَطَعْتُ غَضَضْتُ طَرْفي فلَمْ أنظرْ بهِ حتَّى أراكَا

أُحِبُّكَ لا بِبَعْضِي بلْ بِكُلِّي وإنْ لم يُبْقِ حبُّكَ لي حَراكا

وفي الأحبابِ مَخْصوصٌ بَوجْدٍ وآخَرُ يدَّعي مَعَهُ اشتراكا

إذا استكبتْ دموعِي في خُدُودِي تبيَّنَ مَنْ بكى ممنَّ تَباكى

فأمَّا مَنْ بَكى فيذوبُ وَجْداً وينطِقُ بالهوى مَنْ قَدْ تَشَاكى[٣]

---

(١) أخرجه القشيري في «الرسالة» (٢/ ٥١٩)، وأصلح البيت الثاني منها.

(٢) البيتان من هزج الحسين بن الضحاك الشاعر المعروف بالخليع، المتوفى سنة (٢٥٠هـ)، ذكرهما ابن الجوزي في «المدهش» (ص: ١٧٣)، والصفدي في «الوافي بالوافيات» (١٢/ ٢٣٨) ونسبهما إليه.

(٣) الأبيات للمتنبي «ديوانه بشرح العكبري» (٢/ ٣٨٥ـ٣٩٧) من قصيدة قالها في عضد الدولة، وليس منها البيت الثالث والسادس، فالثالث لأبي نواس، والسادس ذكره ابن الجوزي في «المدهش» (ص: ٥٠٢).

كانَ سمنون المحبُّ ينْشِدُ:

وكانَ فُـؤادي خاليًـا قبـلَ حُبِّـكُمْ ... وكانَ بذِكْـرِ الخَلْـقِ يلهُـو ويَمْـرحُ

فلمَّـا دعَـا قَلْبِـي هـواكَ أجابَـهُ ... فلسـتُ أراهُ عَـنْ فِنائِـكَ يَبْـرحُ

رُميتُ ببُعـدٍ عَنْـكَ إنْ كنتُ كاذِبـاً ... وإنْ كنـتُ فـي الدُّنيـا بغَيـرِكَ أفـرَحُ

وإنْ كانَ شـيءٌ فـي البـلاد بأسْرِهَا ... إذا غِبْـتَ عَـن عَيْنِـي لِعَينـيَ يَمْلُـحُ

فإنْ شِئْتَ واصِلْنِي وإنْ شِئْتَ لا تَصِلْ ... فلسـتُ أَرَى قلبـي لِغيـرِكَ يَصْلُـحُ[١].

وأمَّا الشَّوق إلى لقاءِ اللهِ:

فهو أجل مقاماتِ العارفينَ في الدُّنيا، وقـد رُويَ عن النبيِّ ﷺ أنَّه كانَ يدعو: «اللهمَّ اجعلْ حُبَّكَ أحبَّ الأشياءِ إليَّ. وَخَشيتَكَ أخوفَ الأشياءِ عندِي، واقطعْ عنِّي حاجاتِ الدُّنيا بالشَّوقِ إلى لِقائِكَ، وإذا أَقررْتَ أعينُ أهلِ الدُّنيا مِنْ دُنياهُم فأقرِرْ عَيني مِنْ عِبادَتِك»[٢].

وإنما قـال: «مِـنْ غَيْرِ ضَرَّاء مضـرَّةٍ ولا فِتنَـةٍ مُضِلَّةٍ» لأنَّ الشَّـوقَ إلـى لِقاءِ اللهِ يستلزمُ محبَّـةَ المـوتِ، والمـوتُ يقـعُ تمنِّيهِ كثيـراً مِنْ أهـلِ الدُّنيـا بوقـوعِ الضَّراءِ المُضِـرَّةِ فـي الدُّنيـا، وإنْ كانَ مَنْهِيّـاً عنـهُ فـي الشَّـرْعِ، ويقعُ مِنْ أهـلِ الدِّيـن كتمَنِّيهِ

(١) والأبيات ذكرها لسمنون: ابن حبيب في «عقلاء المجانين» (ص: ١٠٤) وأبو عبد الرحمن السلمي في «طبقات الصوفية» (١/ ١٦١).

وهذا آخر السقط من (ت) و(ع) و(ف).

(٢) أخرجه الختلي في «المحبة لله» (٢٤٤)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٢٨٢) من حديث الهيثم بن مالك الطائي، وهو تابعي شامي رحمه الله، والحديث مرسل.

لخشيةِ الوُقوعِ في الفِتَنِ المُضِلَّةِ، فسأَلَ تمنِّيَ الموتِ خالياً مِنْ هَذينِ الحالَينِ، وأنْ يكونَ ناشِئاً عَنْ مَحْضِ مَحبَّةِ اللهِ والشَّوقِ إلى لِقائِه، وقَدْ حَصَلَ هذا المقامُ لكثيرٍ مِنَ السَّلَفِ.

قالَ أبو الدَّرداءِ: أُحِبُّ الموتَ اشتياقاً إلى رَبِّي[1].

وقالَ أبو عِنَبَة الخولانيُّ[2]: كانَ إخوانُكم: لقاءُ اللهِ أحبَّ إليهم مِنَ الشَّهْدِ[3].

وقالتْ رابعةُ: لقد طالتْ عليَّ الأيامُ والليالي بالشَّوقِ إلى لِقاءِ اللهِ[4].

ومَكَثَ فتح بن شخرفٍ ثلاثينَ سنةً لَمْ يرفَعْ رأسَهُ إلى السَّماءِ، ثمَّ رفعَ رأسَهُ فقال: طالَ شَوقِي إليكَ، فَعَجِّلْ قُدومِي عليكَ[5].

وكانَ بعضُهم يقولُ في مُناجاتِه: قبيحٌ بعبدٍ ذليلٍ مِثْلي يُعَلِّمُ عظيماً مثلَكَ، اللهم إنَّك تعلمُ أنَّكَ لو خَيَّرتني أنْ تكونَ ليَ الدُّنيا منذ خُلِقَتْ أتنعَّمُ فِيْها حَلالاً لا أُسأَلُ عنها يومَ القِيامَةِ وبينَ أنْ تخرُجَ رُوحي السَّاعةَ [لاخترتُ أن تخرجَ نفسي الساعة][6].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (٨١١)، وأبو داود في «الزهد» (٢٣٧)، وغيرهما.

(٢) في (ت) و(ف): «عتبة الحولاني»، وفي (س): «عتبة الخواص» وهو تصحيف في الأول، واشتباه في الثاني، والمثبت هو الصواب، وهو صحابي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٥٢٤)، وفي «الجهاد» (١٢٨).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٩٣) في سياق قصة.

(٥) الفتح بن شخرف عابد سائح، توفي ببغداد سنة (٢٧٣هـ) رحمه الله تعالى. والأثر ذكره ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (١/ ٥١١). وما بعده سقط من (ت) و(ع) و(ف).

(٦) هذا من كلام أبي عبد الله النباجي، وسقط آخره من (س). واستدرك ما سقط من آخره من «المتمنين» لابن أبي الدنيا (٨٤)، و«حلية الأولياء» (٩/ ٣١١) وقد تصحف في مطبوعهما النباجي إلى الساجي.

قالَ بعضُ السَّلف: إذا ذَكَرتُ القُدومَ على اللهِ كنتُ أشدَّ اشتِياقاً إلى الموتِ مِنَ الظَّمآنِ الشَّديدِ ظَمَؤُه في اليومِ الحارِّ الشَّديدِ حَرُّهُ إلى الشَّرابِ الشَّدِيدِ بَرْدُه[١].

أَشْتَاقُ إِلَيكَ يا قَريباً نائِي شَوقَ الظَّامي إلى زُلالِ الماءِ[٢].

قالَ الجُنيدُ: سمعتُ سَرِيّاً يقولُ: الشَّوقُ أجلُّ مقامٍ[٣] العَارِفِ إذا تحقَّقَ فيه، وإذا تحقَّقَ بالشَّوقِ لها عَنْ كلِّ ما[٤] يَشْغله عَمَّن يَشتاقُ إليه[٥].

رؤِي داودُ الطائي في المنامِ على مِنْبرٍ عالٍ، وهو يُنْشِدُ:

ما نالَ عبدٌ مِنَ الرَّحمنِ منزلةً أعلى مِنَ الشَّوقِ إنَّ الشَّوقَ محمودُ[٦]

لا زالَ المحبُّون يُرَوِّضُونَ أرواحَهم في الدُّنيا، حتَّى خرجتْ عن أبدانِ الهوى، وصارتْ في حواصِلِ طَيْرِ الشوقِ، فهي تَسْرحُ في رِياضِ الأُنسِ وتَرِدُ حِياضَ القُدْسِ، ثم تأوِي إلى قناديلِ المعرفةِ المعلَّقة في المحلِّ الأعلى حولَ العرش كما[٧] قالَ بعضُ العارِفين: القلوبُ جَوَّالةٌ، فقلبٌ يدورُ حولَ العَرْشِ وقَلْبٌ يجولُ حولَ الحُشِّ[٨].

---

(١) لم أجده عند غير المصنف رحمه الله، ذكره أيضاً في «لطائف المعارف» (ص: ٥١١).

(٢) البيت ذكره المصنف في «لطائف المعارف» (ص: ٥١١) وهنا نهاية سقط من (ت) و(ع) و(ف).

(٣) في (س): «مقامات».

(٤) في (س): «شيء».

(٥) أخرجه القشيري في «الرسالة» (٢/ ٤٩٩).

(٦) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٣٦٠)، والرائي هو عبد العزيز بن محمد رحمه الله. وفي (ع): «مَنْ عَبَدَ».

(٧) سقط ما بعد الشعر إلى هنا من (ت) و(ع) و(ف).

(٨) القائل هو أحمد بن خضرويه البلخي المتوفى سنة (٢٤٠هـ) رحمه الله تعالى. أخرجه السلمي في «طبقات الصوفية» (ص: ٩٦).
وبعده سقط من (ت) و(ع) و(ف).

كُلَّما حَلَّتْ نَسَمَاتُ القُدس مِنْ أرجاءِ الأُنسِ على أغصانِ قلوبِ الأحبابِ تمايلتْ شوقًا إلى ذلك الجَنَاب.

كانَ بعضُ السَّلَفِ يمشِي أبداً على قدميه مِنَ الشَّوقِ(١)، وكانَ بعضُهم كأنَّه مخمورٌ مِنْ غَيرِ شَرَابٍ(٢).

يُرَنِّحني إليكَ الشوقُ حتى ... أميلَ مِنَ اليمينِ إلى الشِّمالِ
ويأخُذُني لذِكرِكُمُ ارتياحٌ ... كما نشطَ الأسيرُ مِنَ العِقَالِ(٣)(٤)

---

(١) قال العلامة ابن رُشيد السبتي في «ملء العيبة»: لما قدمنا المدينة سنة ٦٨٤ كان معي رفيقي الوزير أبو عبد الله بن أبي القاسم الحكيم، وكان أرمد فلما دخلنا ذا الحليفة أو نحوها، نزلنا عن الأكوار، وقوي الشوق لقرب المزار، فنزل وبادر إلى المشي على قدميه احتساباً لتلك الآثار، وإعظاماً لمن حل في تلك الديار، فأحسَّ بالشفاء» وذكر قصيدة له، منها:

وحين تبدَّى للعيون جمالها ... ومن بُعدها عنا أديلت لنا قُرباً
نزلنا من الأكوار نمشي كرامة ... لمن حلَّ فيها أن نلمّ به ركباً

نقله لسان الدين ابن الخطيب في «الإحاطة في أخبار غرناطة» (٢/ ٣٢٣).

والمشي إلى المساجد وثوابه، وردت فيه أحاديث كثيرة، انظر ما أورده المصنف رحمه الله تعالى منها في «اختيار الأولى»: السبب الثاني من مكفرات الذنوب: المشي على الأقدام إلى الجماعات. وأما المشي إلى البيت العتيق فعقد له ابن الجوزي باباً في «مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن»، وذكر فيه أخبار مَنْ حجوا إلى البيت العتيق ماشين، منهم من مشى من نيسابور، ومنهم من مشى من قزوين... رحمهم الله تعالى، وقد حجَّ رسول الله ﷺ راكباً.

(٢) أخرج أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٧٦) ذلك عن عمر بن ذر يصف الربيع بن أبي راشد الكوفي العابد رحمه الله تعالى. وذكر ابن الجوزي في «صيد الخاطر» (ص: ٤٣٢) ذلك عن قيس بن الربيع رحمه الله تعالى.

(٣) ذكرهما ابن الجوزي في أبيات للشريف الرضي، في «المدهش» (ص: ٢٣٥)، وفي «مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن» (١/ ٥٦).

(٤) من قوله: «وأما الشوق إلى لقاء الله» إلى هنا سقط من (ج).

أَهْلُ الشَّوْقِ على طبَقتين:

أحدهما: مَنْ أقلَقَهُ الشَّوقُ ففَنِيَ اصطبارُه.

كانَ أبو عُبيدة الخواصُّ يمشي في الأسواقِ[١]، ويَضرِبُ على صَدْرِه ويقولُ: واشوقاه إلى من يراني ولا أراه[٢].

يـا آمِـري بـالـتَّـسلِّـي	ما لـي مـع الشَّـوق أَمْـرُ
أُمِـرْتُ عـنـك بصبرٍ	وليـس لي عنك صَبْرٌ[٣]

كانَ داودُ الطائيُّ يقولُ[٤] بالليلِ: هَمُّكَ عَطَّلَ عَلَيَّ الهُمومَ، وحَالف[٥] بيني وبينَ السُّهادِ، وشَوقي إلى النَّظَرِ إليكَ أوثَقَ[٦] منِّي اللذَّات حال[٧] بيني وبينَ الشَّهوات، فأَنا في سِجْنِكَ أيُّها الكريمُ مطلوبٌ[٨].

---

(١) في (س): «الخواص ينشد».

(٢) أخرجه الختلي في «المحبة» (٢٥٨)، وذكره ابن الجوزي في «المدهش» (ص: ٤٠٧)، وفي «صفة الصفوة» (٢/ ٤١٦)، وفي «صيد الخاطر» (ص: ٤٣١).

(٣) سقط البيتان من (س)، والبيتان في «المدهش» (ص ٥٠٥)، و«المنتظم» (١٥/ ١٦٨). وفي (ج): و(مالي) والتصويب من المصادر.

(٤) في (ج): «ينادي».

(٥) في (س): «خالف» تصحيف، وفي (ج): (حال) ولا يصح به المعنى.

(٦) في (س): «أوبق».

(٧) في (س): «وخالف».

(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الهم والحزن» (١٤٧) وفي «التهجد وقيام الليل» (١٧٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٣٥٦).

أحبَّايَ[(١)]: أما جَفْنُ عيني فمقْروحُ ... وأمَّا فؤادِي فهو بالشَّوقِ مجروحُ

يذكِّرني مرُّ النَّسيمِ عُهودكُم ... فأزدادُ شوقاً كُلَّما هَبَّت الرِّيحُ

أُراني إذا مَا أظلَمَ الليلُ أشْرقتْ ... بقَلْبيَ مِنْ نارِ الغَرامِ مَصابيحُ

أُصلِّي بذكراكم إذا كنتُ خَالياً ... ألا إنَّ تَذكارَ الأحبَّة تَسبيُح[(٢)]

الطَّبقةُ الثانية: مَنْ إذا أقلَقَهم الشوقُ سَكَّنَهم الأنسُ باللهِ فاطمأنتْ قلوبُهم بذِكره وأَنِسُوا بقُربه، وهذهِ حالُ الرسولِ ﷺ وخواصِّ العارفينَ مِنْ أُمَّتِه.

وسُئِلَ الشِّبليُّ: بماذا تستريحُ قلوبُ المحبِّين والمشتاقين؟ فقالَ: بسُرورِهم بمَنْ أحبُّوه واشتاقُوا إليه[(٣)].

أموتُ إذا ذكرتُكَ ثمَّ أَحيا ... ولولا ما أؤمِّلُ ما حَيِيْتُ

فأحيا بالمُنى وأموتُ شَوقاً ... فكمْ أحيا عليكَ وكمْ أموتُ

شربتُ الحبَّ كأساً بعد كأس ... فما نفد الشراب وما رَوِيتُ[(٤)]

كانتْ بعضُ الصَّالحات تقولُ: أليسَ عَجباً أنْ أكونَ حيَّة بينَ أظهُركُم وفي قَلْبي مِن الاشتياقِ إلى ربِّي مثلُ شُعَلِ النَّارِ التي لا تُطفأ[(٥)]؟

---

(١) في (س)، وفي غيرها من رسائل المصنف: «أحبابي»!، والتصويب من (ج) و«المدهش» (ص: ٥٠٢) لابن الجوزي والأبيات فيه.

(٢) من قوله «كلما حلت نسمات القدس من» إلى هنا سقط من (ت) و(ع) و(ف).

(٣) أخرجه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (١٦/ ٥٦٣).

(٤) ذكرها في أبيات لعلي بن عبد الرحيم: أبو عبد الرحمن السلمي في «حقائق التفسير» تفسير الآية (٤٢) من سورة الأحزاب. ونسبه الغزالي في «الإحياء» (١٢/ ٥٨١) مع شرحه للشبلي رحمه الله.

(٥) هي عابدة كانت بمكة، ذكر قولها ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (١/ ٤٥١).

أمـوتُ اشـتياقاً ثـم أحَيـا بذكركم ... وبـيـنَ التَّراقـي والضُّلـوعِ لَهيـبُ

فمـا عجبٌ مـوتُ المَشُـوقِ صَبابـةً ... ولكـنْ بَقَـاه فـي الحياةِ عَجيبُ[1]

هذه أحوالٌ لا يَعْرِفُها إلّا مَنْ ذَاقَها

لا يعـرفُ الشـوقَ[2] إلا مَـنْ يُكابِـدُهُ ... ولا الصَّـبـابـةَ إلا مَـنْ يُعانِيهـا[3]

فأما من ليس عنده منها خبر فربما لام أهلَها[4]

يـا عـاذلَ المُشـتاقِ دَعْـهُ فإنَّـه ... لديهِ مِـنَ الزَّفَـراتِ غيـرُ حَشَـاكا

لـو كانَ قلبُـك قلبَـه مـا لُمتـه ... حاشـاك ممـا عِنْـدَه حاشـاكا[5][6].

***

(١) البيتان لأبي علي الحسن بن مسعود ابن الوزير المتوفى سنة (٥٤٣هـ) رحمه الله، ذكرهما له الحافظ ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٣/ ٣٩٣). وقد وقع في نسخة (س): «فوا عجبا موت الشوق» وفي «تاريخ دمشق»: «موت الغريب».

(٢) في (س): «الوجد».

(٣) من الأبيات السائرة، بذكر الشوق بدلًا من الوجد. وهو لأبي عبد الله البغدادي، الشاعر المعروف بالأبله، المتوفى سنة (٥٧٩هـ) رحمه الله تعالى، ذكره له ابن خلكان في «وفيات الأعيان» (٤/ ٤٦٤)، والصفدي في «الوافي بالوفيات» (٢/ ١٧٦)، وغيرهما.

(٤) لخَّص المصنِّف الحافظُ الفقيهُ الإمامُ ابنُ رجب رحمه الله تعالى بقوله هذا الجوابَ على اعتراضاتٍ كثيرة عَلَّق بها كثيرون على تلك النقول والأخبار السابقة عن السلف رضي الله عنهم مستنكرين تلك الأحوال على مَنْ كانوا بالله تعالى ورسوله ﷺ والشرعِ أعرف.

(٥) البيتان للشريف الرضي ضمن قصيدة، وصواب عجز البيت الأول منهما: «يطوي على الزفرات غيرَ حشاكا». والقصيدة في «ديوانه» (٢/ ١٠٩).

(٦) من قوله «وسئل الشبلي بماذا تستريح قلوب المحبين» إلى هنا سقط من (ت) و(ع) و(ف).

قولـه ﷺ: «أعوذُ بكَ اللَّهمَّ أنْ أَظْلِمَ أو أُظْلَمَ، أو أَعتدِي أو يُعتَدى عليَّ، أو أكتَسِبَ خَطِيئةً مُحيْطةً[1]، أَوْ ذَنْباً لا تَغْفِرُه»:

استعاذَ مِنْ أربعةِ أشياء:

أحدها: الظُّلمُ مِنَ الطَّرفين، وهُو أنْ يظْلِمَ غيرَه أو يَظْلِمَه غيرُه، وخَرَّجَ أبو داود مِنْ حديثِ أُمِّ سلمةَ رضي الله عنها قالت: مَا خَرَجَ رسول الله ﷺ مِنْ بيتي قطّ إلا رفعَ طَرْفَه إلى السَّماء فقالَ: «اللهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ أَنْ أَضِلَّ أو أُضَلَّ، أو أَزِلَّ أو أُزَلَّ، أو أَظْلِمَ أو أُظلَم، أو أَجْهَلَ أو يُجهَلَ عَلَيّ»[2].

وخَرَّجَهُ التِّرمذيُّ وصحَّحه، ولفظُه: «اللهمَّ إنَّا نعوذُ بكَ أنْ نَزِلَّ أو نَضِلَّ أو نَظْلِمَ أو نُظلَمَ أو نَجهلَ أو يُجهلَ علينا»[3].

فمنْ سَلِمَ مِنْ ظُلْمِ غيرِه، وسَلِمَ الناسُ مِنْ ظُلْمِه فقدْ عُوفي، وعُوفيَ الناسُ منه. وكانَ بعضُ السَّلَفِ يدعو: «اللهمَّ سَلِّمني وسَلِّم مِنِّي»[4].

والثاني: العُدوان، وَقد فرّقَ اللهُ بينَ الظُّلمِ والعُدوانِ في قَولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ

---

(١) المثبت من (ت) و(ف)، وفي (ر): «محبطة»، وفي (ع) و(س): «مخطئة»، وانظر ما سبق في أول الرسالة في التعليق على هذا الموضع من الحديث.

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٥٣).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٤٢٧) من حديث أم سلمة رضي الله عنها، وقال: «حسن صحيح».

(٤) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٣/ ٥١١) من دعاء سعيد بن المسيب رحمه الله إذا أراد الفتيا أو القول... وذكر عون بن عبد الله بن عتبة عن رجل بمصر في بستان جرت له قصة في زمن ابن الزبير فكان يدعو بهذا الدعاء. أخرجه هناد بن السري في «الزهد» (٢/ ٤٠٤) وغيره.

نَارًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [النساء: ٢٩ ـ ٣٠]، وقد يُفرَّقُ بينَ الظُّلمِ والعدوانِ بأنَّ الظُّلمَ: ما كانَ بغيرِ حَقٍّ بالكُلِّيةِ، كأخذِ مالٍ[١] بغيرِ استحقاقٍ لشيءٍ[٢] منه، وقتلِ نفسٍ لا يَحِلُّ قتلُها.

وأمَّا العُدْوانُ: فهو مُجاوزةُ الحدودِ وتعَدِّيها فيمَا أصلُه مباحٌ، مثلُ أنْ يكونَ له على[٣] أحدٍ حَقٌّ منْ مالٍ أو دَمٍ أو عِرْضٍ، فيستَوفي أكثرَ مِنْه فهذا هُو العُدوان، وهُو تجاوزُ ما يجوزُ أخذُه، فيأخُذُ ما لَه أخذُه، وما[٤] ليسَ له أخذُه، وهو مِنْ أنواعِ الرِّبا المحرَّمة.

وقد وردَ: «السَّبَّتانِ بالسَّبَّةِ ربا»[٥].

والظُّلمُ المطلَقُ أخذُ ما ليسَ لَه أخذه ولا أَخذُ[٦] شيءٍ منهُ، مِنْ مَالٍ أو دَمٍ أو عِرْضٍ. كلاهُما في الحقيقةِ ظلمٌ، وقد حَرَّم اللهُ الظُّلْم.

وفي الصَّحيحِ عَنِ النبيِّ ﷺ: يقولُ الله عَزَّ وجَلَّ: «يا عِبادي إنِّي حَرَّمتُ الظُّلمَ على نَفْسِي، وجَعلتُه بينكم مُحرَّماً، فلا تَظالموا»[٧].

وفي «الصَّحيحينِ» عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «الظُّلمُ ظُلُمات يومَ القِيامَة»[٨].

---

(١) في (ج): «مال الغير».

(٢) في (س): «شيء».

(٣) في (س): «عند».

(٤) في (س): «إلى ما» بدلًا من «فيأخذ ماله أخذه وما».

(٥) أخرج أبو داود (من رواية ابن العبد وابن داسة) ـ بعد حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه (٤٨٤٣) مرفوعاً: «إن من أربى الربا الاستطالةَ في عرض المسلم بغير حق» ـ حديثَ أبي هريرة مرفوعاً: «إن من أكبر الكبائر استطالة المرء في عرض رجل مسلم بغير حق، ومن الكبائر: السبتان بالسَّبَّة».

(٦) المثبت من (ج) ونحوه في (س). وسقطت «أخذه» من سائر النسخ.

(٧) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٨) أخرجه البخاري (٢٤٤٧)، ومسلم (٢٥٧٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وفيهما عنه ﷺ قال: «إنَّ اللهَ ليملي للظَّالم حتَّى إذا أخَذَه لم يفْلِتْه ثمَّ قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]»[١].

وفي «صحيح البُخاريِّ» عنه ﷺ قال: «مَنْ كانتْ[٢] عندَه مَظْلِمةٌ لأخِيه فليتحلَّله منها ـ فإنَّه ليسَ ثَمَّ دينارٌ ولا دِرهم ـ مِنْ قَبْل أنْ يُؤخَذَ لأخيهِ مِنْ حَسَناتِه، فإنْ لم تكُنْ له حسناتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئاتِ أخيهِ فطُرِحَتْ عليه»[٣].

وفي «صَحيحِ مُسلمٍ» عنهُ ﷺ قال: «أتدرُونَ من المُفْلِسُ؟» فقالوا: المفلس مَنْ لا دِرْهَمَ له ولا مَتاع، قال: «إنَّ المُفْلِسَ مِنْ أُمَّتي مَنْ يَأتي يومَ القيامةِ بصَلاةٍ وصِيامٍ وزكاةٍ[٤]، ويأتي قَدْ شَتَمَ هَذَا، [وقَذفَ هذا][٥]، وأَكَلَ مالَ هذا، وسَفَكَ دمَ هذا، وضَرَب هَذا، فيقتضي هذا مِنْ حَسَناتِهِ وهَذا مِنْ حَسَناتِه، فإذا[٦] فَنِيَتْ حسنتُه قبلَ أَنْ يقْضِيَ ما عَلَيهِ أُخِذَ مِنْ سَيِّئاتِهم فطُرِحَتْ عَليه، ثمَّ طُرِحَ في النَّارِ»[٧].

وفي الحَديثِ: «لتُؤدُّنَّ الحقوقَ إلى أهلِها يومَ القِيامَةِ، حتى يقادَ للشاةِ الجَلْحاءِ[٨] مِنَ الشَّاةِ القَرنَاء»[٩].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) في (ف): «كانت له».

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٣٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) في (ف): «وقيام».

(٥) لا توجد في النسخ، وهي ثابتة في «صحيح مسلم».

(٦) في (س): «فإن».

(٧) أخرجه مسلم (٢٥٨١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٨) في (ف): «الجماء».

(٩) أخرجه مسلم (٢٥٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. والشاة الجلحاء: هي الجمَّاء التي لا قرن لها. قال النووي رحمه الله: «ليس هو من قصاص التكليف إذ لا تكليف عليها، بل هو قصاص مقابلة».

وفي حَديثِ عبدِ اللهِ بنِ أُنيسٍ: «وليُسأَلَنَّ الحجرُ لِمَ يَنكِبُ[١] الحجرَ، وليُسألَنَّ العودُ لِمَ خَدَشَ صَاحِبَه»[٢].

فَخَفِ القَضَاءَ غَداً إذا وُفِّيتَ[٣] ما ... كَسَبَتْ يداكَ اليومَ بالقِسطَاسِ

في مَوْقِفٍ ما فيهِ إلا شَاخِصٌ ... أو مُهْطِعٌ أو مُقنِعٌ للراسِ[٤]

أعضَاؤهم فيه الشُّهودُ وسِجْنُهم ... نَارٌ وحاكِمُهم شَدِيدُ البَاسِ[٥]

إنْ تَمطُلِ اليومَ الحُقوقَ معَ الغِنى ... فغَداً تؤدِّيها مَعَ الإفلاسِ[٦]

والظُّلم المحرَّم يكونُ تارةً في النُّفوسِ، وأشدُّه في الدِّماءِ، وتارةً في الأموالِ، وتارةً في الأعراضِ، ولهذا قالَ ﷺ في خُطبتِه في حَجَّةِ الوداعِ: «إنَّ دماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم عليكمْ حَرامٌ كحُرمَةِ يومِكُم هَذا، في شَهْرِكم هَذا، في بلَدِكم هذا»[٧].

وفي روايةٍ: «ثم قال: ألا اسمعُوا مني تَعيشُوا، ألا لا تَظالموا، ألا لا تَظلموا، إنَّه لا يَحِلُّ مالُ امرئٍ مسلِمٍ إلا عَنْ طِيْبِ نَفْسٍ منه»[٨].

---

(١) في (س): «نكب» وفي (ت) و(ع): «نكث».

(٢) هذا اللفظ زيادة في الحديث المشهور في رحلة جابر بن عبد الله رضي الله عنهما إلى عبد الله بن أنيس شهراً، وهو في القصاص بين الخلائق يوم القيامة. أخرج هذا اللفظ: الخطيب البغدادي في «الرحلة في طلب الحديث» (٣٣).

(٣) في (س): «وافيت».

(٤) في (ج) و(س): «بالراس».

(٥) في (س): ورد هذا البيت بعد البيت الذي يليه.

(٦) ذكر الأبيات الإمام الذهبي رحمه الله في كتاب «الكبائر» (ص: ١٠٦).

(٧) أخرجه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٨) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٠٦٩٥)، من حديث أبي حُرَّة الرقاشي عن عمه رضي الله عنه.

وفي «صَحِيحِ مُسلمٍ» عنه ﷺ قال: «كلُّ المسلِمِ على المُسلِمِ حرامٌ، دمُه ومالُه وعِرضُه»[١]، فظُلْمُ العِبادِ شَرٌّ مكتسبٍ، لأنَّ الحقَّ فيه لآدميٍّ مطبوعٍ على الشُّحِّ فلا يتركُ مِنْ حَقِّهِ شيئاً، لاسِيَّما معَ شِدَّة حاجَتِه يومَ القِيامةِ، فإنَّ الأمَّ تفرحُ يومئذٍ إذا كانَ لها حَقٌّ على ولدِها لتأخُذَه منه[٢].

ومَعَ هذا، فالغالبُ أَنَّ الظالمَ تعجَّلُ له العقوبةُ في الدُّنيا وإنْ أُمْهِلَ، كما قالَ ﷺ: «إنَّ اللهَ ليملي للظَّالم حتَّى إذا أَخَذَه لم يفلتْه»[٣]، ثمَّ تلا[٤]: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

كانَ بعضُ أكابرِ التَّابعينَ قال[٥] لرجلٍ: يا مُفْلِس! فابتُلي القائِلُ بالدَّينِ والحَبْسِ بعدَ أربعينَ سنةً[٦].

وضربَ رجلٌ أباهُ وسَحَبَه إلى مكانٍ، فقالَ الذي رآهُ: إلى هَاهُنا رأيتُ هذا المضروبَ قَدْ ضَرَبَ أباه، وسحَبَه إليه[٧].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرج المروزي في زياداته على «الزهد» لابن المبارك (١٤١٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً «... فتفرح المرأة أن يدور لها على زوجها الحق، أو على ابنها، أو على أختها». وأخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٢٠١)، وغيرهما.

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٨٦) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٤) في (س): «قرأ».

(٥) في (س): «قال بعض التابعين».

(٦) أخرجه أبو نُعيم في «الحلية» (٢/ ٢٧١) والقصة للإمام الجليل محمد بن سيرين رضي الله عنه.

(٧) وفي «صيد الخاطر» لابن الجوزي (١٥٦٤) ما هو أبلغ من هذا. أن الأب قال: حسبك إلى هاهنا سحبت أبي! نعوذ بالله من العقوق وأهله.

وصادَرَ بعضُ وزراءِ[١] الخُلفاءِ رجُلاً، فأخَذَ منه ثلاثةَ آلافِ دينارٍ، فبعدَ مُدَّةٍ غَضِبَ الخليفةُ على الوَزيرِ، وطلبَ منه عَشَرة آلافِ دينارٍ، فجَزِعَ أهلُه مِنْ ذلكَ، فقال: ما يأخذُ مِنِّي أكثَر مِنْ ثلاثةِ آلافِ دينارٍ، كما كنتُ ظلمتُ. فلما أدَّى ثلاثةَ آلافِ دينارٍ وقَّعَ الخليفةُ بالإفراجِ عَنْه[٢].

فسبحانَ مَنْ هُو قائمٌ على كلِّ نفسٍ بما كسبتْ، إنَّ ربَّكَ لبالمرصادِ، حاكمُ العَدْلِ لا يجورُ، وإنَّما يُجازي بالعَدْلِ، وميزانُ عَدْلِهِ لا يُحابي أحداً، بل يتحرَّرُ فيه مثاقيلُ الذَّرِّ ومثاقيلُ الخَرْدلِ، وكما تَدِينُ تُدَانُ.

فجَانِبِ الظُّلمَ لا تَسْلكْ طريقَتَه[٣] عَواقِبُ الظُّلمِ تُخْشى وهيَ تُنْتَظَرُ
وكلُّ نفسٍ ستُجزى بالَّذي عَمِلَتْ وليسَ للخَلقِ مِنْ دَيَّانهم وَزَرُ[٤]

الثالثُ ممَّا استعاذَ منه: وهو اكتسابُ الخَطيئةِ المُحيطَةِ[٥]، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

---

(١) في (ف): «ولاة»، وفي حاشيتها كالمثبت.

(٢) الوزير هو المظفر بن علي بن جهير، المتوفى سنة (٥٤٩هـ)، ولي الوزارة للمقتفي سبعة أعوام ثم عزل. والقصة ذكرها ابن الجوزي في «صيد الخاطر» (١٥٦٦).

(٣) في نسخة أشار إليها في (ف): «مسالكه».

(٤) في (ف): «من ديَّانهم وطر»، وفي (ج) و(س): «من دنياهم وزر». والوَزَرَ: هو الملجأ، والمثبت تلفيقاً من النسخ إنما هو ليستقيم المعنى. والبيتان من قصيدة ذكرت بعض أبياتها في «الزاهر في بيان ما يجتنب من الخبائث الصغائر والكبائر» لابن فرحون (ص: ١٦٩)، وذكرت أيضاً في «قناطر الخيرات» للفقيه أبي طاهر الجيطالي (٣/ ١٩٣)، ونسبها لإبراهيم الشامي. والشطر الثاني من البيت الأول هنا لا يوجد فيهما.

(٥) «المحيطة» سقطت من (ف)، وتصحفت في (س) إلى «المخطئة»، وفي (ر) إلى: «المحبطة»، وانظر ما تقدم في التعليق على الحديث أول الرسالة.

[البقرة: ٨١]، وفُسِّرتْ إحاطةُ الخطيئةِ بالموتِ على الشِّركِ، وفُسِّرتْ بالموتِ على الذُّنوبِ الموجِبَةِ للنَّارِ مِنْ غَيرِ توبةٍ منها[١].

فكأنَّ[٢] ذُنُوبَه أحاطتْ به مِنْ جميعِ جِهاته، فلم يبقَ له مَخْلَصٌ منها، فالخطايا تحيطُ بصاحِبِها حتى تُهْلِكَه.

وقدْ ضَرَبَ النبيُّ ﷺ مَثَلَ الخَطايا التي يتلبَّسُ بها العبدُ بمَثَلِ دِرْعٍ ضيِّقةٍ يلبَسُها، فتضيقُ عليه حتى تَخنُقَه، ولا تنفكُّ عنه إلا بعَملِ الحسناتِ مِنْ تَوْبةٍ أو غيرِها مِنَ الأعمالِ الصَّالحةِ.

ففِي المُسنَدِ عن عُقبَةَ بن عَامرٍ رضي الله عنه عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «إنَّ مَثَلَ الذي يعملُ السَّيئاتِ ثمَّ يعملُ الحسناتِ كمَثَلِ رجلٍ كانتْ عليهِ درعٌ ضيِّقةٌ قد خَنَقَتْه، ثم عَملَ حسنةً فانفكَّتْ حلقةٌ، ثم عملَ حسنةً أُخرى فانفكَّتْ حلقةٌ أُخرى، حتى يخرجَ إلى الأرضِ»[٣]، فلا يخلصُ العبدُ مِنْ ضيقِ الذُّنوبِ عليه، وإحاطتِها به إلا بالتوبةِ والعملِ الصَّالحِ.

كانَ بعضُ السَّلفِ يردِّدُ هذينِ البيتينِ باللَّيلِ ويبكي بكاءً شديداً.

ابكِ لذنبِكَ طولَ اللَّيلِ مُجتهداً ... إنَّ البكاءَ مُعوَّلُ الأحزانِ

لا تنسَ ذنبكَ في النَّهارِ وطولِهِ ... إنَّ الذنوبَ تحيطُ بالإنسانِ[٤]

---

(١) قال الطبري في «تفسيره» (٢/ ١٨٢): «فتأويل الآية إذن: مَنْ أشرك بالله واقترف ذنوباً جمة، فمات عليها قبل الإنابة والتوبة، فأولئك أصحاب النار هم مخلدون فيها أبداً».

(٢) في (س): «وكأن».

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (١٧٣٠٧).

(٤) القصة لأبي جعفر القارئ رحمه الله تعالى. أخرجها ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (١٨٥)، وفي «الهم والحزن» (٧٨).

الرابعُ مما استعاذ منه: الذَّنبُ الذي لا يُغْفَر[(١)]، ويدخلُ فيه شيئانِ:

أحدُهما: الشِّركُ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

والثاني: أنْ يعملَ العبدُ ذَنباً، ولا يُوفَّق لسببٍ يمحُوه عنه، بلْ يلقَى اللهَ به مِنْ غيرِ[(٢)] سببٍ ماحٍ له، فلا يُغفَرُ له بَلْ يُعاقَبُ عليه، فإنَّ اللهَ إذا أحبَّ عبداً أوقَعه في ذنب ووفَّقه[(٣)] لأسباب تمحُوهُ عنه:

إمَّا بالتوبةِ النَّصُوحِ، وفي سُنَن ابن ماجَهْ عن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه مرفوعاً: «التَّائبُ من الذَّنبِ كمَنْ لا ذَنْبَ له»[(٤)].

وإمَّا بحسناتٍ ماحِية ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

وإمّا أَنْ يُبتَلى بمصائبَ مكفِّرةٍ، «فمَنْ يُرد اللهُ به خَيراً يُصِبْ منه»[(٥)]، «ولا يزالُ البلاءُ بالمؤمنِ حتى يمشيَ على الأرضِ وليسَ[(٦)] عليه خطيئةٌ»[(٧)].

وإمّا أَنْ يُغفَرَ له بشفاعةٍ بإذنِ اللهِ لمَنْ يأذَنُ فيها.

---

(١) في (ج): «الذنوب التي لا تغفر».

(٢) في (س): «يلقى الله بغير».

(٣) سقطت من (ف)، وجاء بدلها: «له».

(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٠).

(٥) أخرجه البخاري (٥٦٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) في (س): «ولا».

(٧) طرف من حديث أخرجه الإمام أحمد (١٤٨١) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. ولفظه: «وما يزال البلاء بالعبد...». وأخرجه الترمذي (٢٣٩٨) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٤٠٢٣).

أو أنَّه يغْفِرُه[١] بمجرَّدِ فَضْلِه ورحمتِهِ مِـنْ غيرِ سببٍ آخرَ، فحينئذٍ يكونُ هذا الذَّنبُ مَغفُوراً.

قالَ بعضُهم: إذا أحبَّ اللهُ عبداً لم يضرَّه ذنبٌ[٢]، ومرادُه أنَّه يمحُوه عنه. وربَّما يجعلُ الذَّنْبَ في حَقِّه سَبباً لِشدَّةِ خَوْفه[٣] مِـنْ رَبِّه وذُلِّه وانكسارِهِ له، فيكون سبباً لرفعِ دَرَجَةِ ذلكَ العبدِ عندَه.

وإذا خذَلَ عَبْداً[٤]، وقضى عليه بذنبٍ لم يوفِّقْه لشيءٍ مِنْ ذلك، فلقيَ اللهَ بذَنْبِه مِنْ غيرِ سببٍ يمحُوه عنه في الدُّنيا، ثمَّ يؤاخِذُه بِهِ[٥] في الآخِرَة، فلا يَغْفِرُه له[٦]، فهذا هو الذَّنبُ المستعاذُ مِنْهُ هاهنا.

وحاصِلُ الأَمرِ أنَّ مَنْ عامَلَه اللهُ في ذُنوبه بالعَدْلِ هَلَكَ، ومن عَامَله بالفَضْل نجَا، كما قالَ يحيى بنُ معاذٍ: إذا وَضَعَ عدلَه على عَبْدٍ[٧] لم يُبقِ له حسنةً، وإذا بَسَطَ فضلَه على عبدٍ[٨] لم يُبقِ له سيئةً[٩].

---

(١) في (س): «وإما أن يغفر». وفي (ج): «أو أنه يغفر له».

(٢) من كلام الشعبي رحمه الله تعالى. والأثر أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٢/ ٣٥٠)، والختلي في «المحبة لله» (١٣٨)، وأخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٣١٨)، ويروى مرفوعاً من حديث أنس رضي الله عنه أخرجه القشيري في «الرسالة» (١/ ٢٠٧)، ومن طريقه ابن النجار في «الذيل على تاريخ بغداد» (١٨/ ٥٦).

(٣) في (ف): «خوفه، من خوفه» سبق قلم، وفي (س): «سبباً لخوفه».

(٤) في (ت) و(ع) و(ف): «وإذا أخذل عبداً».

(٥) في (س): «عليه».

(٦) في (س) و(ج): «ولا يغفره».

(٧) في (ف): «عبده».

(٨) في (ف): «عبده».

(٩) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٥١).

يـا وَيْلَنـا مِـنْ موقـفٍ مـا بِـه أخوفُ مِـن أَنْ يعـدِلَ الحاكِـم

يـا رب عفواً منـكَ عنْ مذنـبٍ أسـرفَ إلا أنّـه نـادمُ[1]

***

قولُه ﷺ: «اللهمَّ فاطِرَ السَّماواتِ والأرضِ، عالمَ الغيبِ والشَّهادةِ، ذا الجلالِ والإكرام، فإني أعهدُ إليكَ في هذهِ الحياةِ الدنيا، وأشهِدُكَ وكفى بكَ شهيداً، أني أشهدُ أنْ لا إلهَ إلا أنتَ وحدَك لا شريكَ لك، لك الملكُ، ولكَ الحمدُ، وأنتَ على كلِّ شيءٍ قدير، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُك ورسولُك، وأشهدُ أنَّ وعدَكَ حقٌّ، ولقاءَك حقٌّ، والجنةَ حقٌّ[2] والساعة آتية لا ريب فيها، وأنَّكَ تبعثُ مَنْ في القبور»:

هـذا الدعاءُ استفتَحهُ بقولهِ: «اللهمَّ فاطرَ السماواتِ والأرضِ، عالمَ الغَيبِ والشهادةِ، ذا الجلالِ والإكرام»، وقد قالَ الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦].

وفي «صحيحِ مسلمٍ»: أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يستفتحُ صلاةَ الليلِ بقولهِ: «اللهمَّ ربَّ جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ، فاطرَ السمواتِ والأرضِ، عالمَ الغيبِ والشَّهادةِ أنتَ تحكُمُ بين عبادِك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدِني لما اختُلِفَ فيهِ مِنَ الحقِّ بإذنِكَ، إنَّكَ تهدِي مَنْ تشاءُ إلى صراطٍ مستقيمٍ»[3].

وفـي «المسندِ» و«الترمذيِّ» عن معاذٍ: أنَّ النبيَّ ﷺ سمعَ رجلاً يقولُ: يا ذا

---

(١) ذكرهما الثعالبي في «يتيمة الدهر» (٢/ ٩١) لأحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، وهما في «العقد الفريد» (٣/ ١٧٧) ووقع في «اليتيمة»: «يا ويلتا». والبيتان سقطا من (ت) و(ع) و(ف).

(٢) في (ع) و(س) زيادة: «والنار حق» وسبق التنبيه أنها ليست في هذا الحديث.

(٣) أخرجه مسلم (٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنه.

الجلالِ والإكرامِ، فقال له[١]: «قد استجيبَ لَكَ، فسل»[٢] والمسؤول في هذا الدعاءِ هو أنَّ العبدَ يعهَد إلى ربِّه في هذه الحياةِ الدُّنيا ويُشهِدُه وكفى به شَهيداً أنَّه يشهدُ له بأصولِ الإيمانِ التي مَنْ وَفى بها فقدْ نجا، وهي الشهادةُ للهِ بالوَحدانيَّةِ، وأتْبَعها[٣] بالشَّهادةِ له بالمُلكِ والحمدِ والقُدرةِ على كلِّ شيءٍ والشهادةِ لمحمَّدٍ ﷺ بالعبوديةِ والرِّسالةِ، والشهادةِ لله بأنَّ وعدَه حَقٌّ، ولقاءَه حَقٌّ، وأنَّ الجنَّةَ حقٌّ[٤]، وأنَّ الساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها، وأنَّ اللهَ يبعثُ مَنْ في القُبور، وقَدْ تضمَّنت هذه الشهادةُ أصولَ الإيمانِ الخمسةِ، فإنَّ مَنْ شهِدَ لمحمدٍ ﷺ بالرِّسالةِ فقَدْ شَهِدَ بما أُمِرَ محمدٌ ﷺ بالشهادةِ بهِ وهو أصولُ الإيمانِ الخمسةُ كلُّها، وهيَ الإيمانُ باللهِ وملائِكَتِه وكتبِه ورسلِه واليومِ الآخرِ.

وكانَ النبيُّ ﷺ يقولُ في استفتاحِهِ صلاةَ الليلِ: «أنتَ الحقُّ ووعدُك الحقُّ وقولُك الحقُّ، ولقاؤكَ حقٌّ، والجنةُ حقٌّ، والنارُ حقٌّ، والساعةُ حقٌّ، والنبيون حَقٌّ، ومحمدٌ حَقٌّ»[٥].

وقَدْ أخبرَ اللهُ تعالى عَنْ هودٍ عليه السلام أنَّه قالَ لقومه: ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٥].

وقَدْ وردت الأحاديثُ بفَضْلِ مَنْ عَهدَ إلى ربِّه في الدنيا هذا العهدَ، واستشهَدَه

---

(١) في (س): «فقال لقد».

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢٢٠١٧)، والترمذي (٣٥٢٧)، وقال «حسن». من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٣) في (س): «وإتباعها».

(٤) في (ع) و(س) زاد: «والنار حق».

(٥) أخرجه البخاري (١١٢٠) (٦٣١٧)، ومسلم (٧٦٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

على نَفْسِه بمثلِ هذهِ الشَّهادةِ، ففي «سُنن أبي داودَ» عنْ أنسٍ رضي الله عنه مرفوعاً: «مَنْ قالَ حينَ يُصبِحُ أو يُمسي: اللهمَّ إنِّي أصبحتُ أشهِدُكَ، وأشهِدُ حَمَلَةَ عرشِكَ وملائِكَتَكَ وجَميعَ خلقِكَ، أني أشهدُ أنْ لا إلهَ إلا أنتَ[١]، وأنَّ محمداً عبدُكَ ورسولُك، أعتقَ اللهُ رُبُعَه مِنَ النَّارِ، ومن قالها مَرَّتينِ أعتقَ اللهُ نصفَهُ من النَّارِ، ومَنْ قالها ثلاثاً أعتقَ اللهُ ثلاثةَ أرباعِه مِنَ النَّارِ، ومَنْ قالها أربعاً أعتقَه اللهُ مِنَ النَّارِ»، وخرجه النسائيُّ والترمذيُّ[٢] بمعناه، ورُوي معناهُ مِنْ حَديثِ سلمانَ[٣] وعائشة[٤].

وفي «المُسنَدِ» عنِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «مَنْ قالَ: اللهمَّ فاطرَ السماواتِ والأرضِ، عالمَ الغيبِ والشَّهادةِ، إنِّي أعهدُ إليكَ في هذهِ الحياةِ الدُّنيا أني أشهدُ أنْ لا إلهَ إلا أنتَ وحدَكَ لا شريكَ لكَ، وأنَّ محمداً عبدُكَ ورسولُك، فإنَّك إنْ تكِلني إلى نَفْسي تُقرِّبْني من الشَّرِّ وتُباعِدْني مِنَ الخيرِ، وإني لا أَثِقُ إلا برَحْمَتِكَ، فاجعل لي عِنْدَكَ عَهداً تُوفِّينِيْه يومَ القيامةِ، إنَّكَ لا تُخلِفُ الميعادَ، إلا قالَ اللهُ عزَّ وجل للملائكةِ يومَ القيامةِ: إنَّ عبدِي قَدْ عَهِدَ إليَّ عَهْداً فأوفُوه إيَّاه، فيدخِلُه اللهُ الجنَّةَ».

قالَ القاسمُ بنُ عبدِ الرحمن: ما في أهلنا جاريةٌ إلا تقولُ هذا[٥] في خِدْرِها[٦].

***

---

(١) زاد ناسخ (س): «وحدك لا شريك لك». وليس في السنن.

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٣٠) وأيضاً (٥٠٧٨) من رواية ابن داسة، والنسائي (٩٧٥٣) (٩٧٥٤) واختُلِفَ في لفظه، والترمذي بنحوه (٣٥٠١)، وقال: غريب.

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٢٣)، والطبراني في «الدعاء» (٢٩٩) و(٣٠٠)، وفي «المعجم الكبير» (٦٠٦١ ـ ٦٠٦٢).

(٤) أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٥٢)، والطبراني «الأوسط» (٩٣٥٦)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (٨٧٧).

(٥) في (ت) و(ع) و(ف): «هذه»، والمثبت من (س) و(ج) وهو الموافق للمسند.

(٦) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٣٩١٦).

قولُه ﷺ: «وأشهدُ أنَّكَ إنْ تَكِلْني إلـى نَفْسي تكِلْني إلى ضَيعَةٍ وعَورةٍ وذَنْبٍ وخَطيئةٍ، وإني لا أَثِقُ إلا بِرَحمتك».

هذا كما في حَدِيثِ ابنِ مسعودٍ المتقدِّمِ، «فإنَّك إنْ تكِلْني إلى نَفْسي تُقَرِّبْني مِنَ الشَّرِّ وتباعِدْني مِنَ الخيرِ، وإني لا أثق إلا برحمتك»، والمقصودُ مِنْ ذَلكَ سؤالُ العبدِ لربِّه أنْ يتولاهُ برحمتِه، وأنْ لا يَكِلَه إلى نَفْسِه.

وفـي كتـاب «اليـوم والليلـة» للنَّسـائي، عن أنـسٍ رضـي الله عنـه أنَّ النبيَّ ﷺ قـال لفاطمـةَ رضي الله عنهـا: «ما يَمنَعُكِ أنْ تَسـمَعِي مـا أُوصيكِ بـه، أنْ تقولي إذا أصبحـتِ وإذا أمسيتِ: يا حيُّ يـا قيُّـومُ برحَمتِكَ أَسـتغيثُ، أصلحْ لي شـأني كُلَّه، ولا تَكِلْنـي إلى نَفْسـي طَرْفَـة عَينٍ»[١].

وخَرَّجَه الطَّبرانيُّ، وزادَ فيه: «ولا إلى أحدٍ مِنَ النَّاسِ»[٢].

وخَرَّجَ أبو داودَ والنسائيُّ مِنْ حديثِ أبي بكرةَ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «دعواتُ المكروبِ: اللَّهمَّ رحمَتَك أرجُو، فلا تَكِلْني إلى نفسِي طرفةَ عينٍ، وأصلحْ لي شَأني كُلَّه، لا إلهَ إلا أنت»[٣].

وقـالَ قتادةُ: لمَّا نَـزَلَ[٤] قوله تعالـى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] الآيـات... قـالَ النبـيُّ ﷺ: «اللهـمَّ لا تَكِلْني إلى نَفْسِـي طَرْفَـة عَينٍ»[٥].

---

(١) أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٥٧٠)، (١٠٣٣٠ مع السنن الكبرى). وفيه: «أو تقولي». وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٤٥) وصححه على شرط الشيخين، وغيرهما.

(٢) أخرجه الطبراني في «الدعاء» (١٠٤٦)، وفي «الأوسط» (٣٥٦٥).

(٣) أخرجه أبو داود (٥٠٩٠)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٦٥١)، وفي «الكبرى» (١٠٤١٢).

(٤) في (ت) و(ع) و(ف): «ولما نزلت».

(٥) أخرجه الطبري (١٥/ ١٦).

وفي سُنَنِ أبي داودَ، عن عبدِ اللهِ بنِ حَوالَةَ رضي الله عنه قال: بعثَنا رسولُ اللهِ ﷺ لِنَغْنم على أقدامِنا، فرجَعْنا ولم نَغْنَمْ شَيئاً، وقَدْ عَرَفَ الجَهْد في وُجُوهنا، فقال: «اللَّهمَّ لا تَكِلْهم إليَّ فأضعُفَ عنهم، ولا تَكِلْهم إلى أنفُسِهم فيعجِزوا عنها، ولا تَكِلْهم إلى النَّاسِ فيستَأثِروا عليهم»[1].

فإذا وَفَّقَ اللهُ عبداً توكَّل بحِفْظِهِ وكلاءَتِهِ، وهدايَتِه، وإرشادِه وتوفيقِه وتسديدِه، وإذا خَذَله وَكَلَهُ إلى نَفْسِه، أو إلى غَيْره، ولهذا كانتْ هذِه الكلمةُ[2]: حسبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيل كلمةً عظيمةً، وهي التي قالَها إبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حينَ أُلقِيَ في النَّارِ، وقالها محمدٌ رسولُ اللهِ ﷺ حينَ قالَ له النَّاسُ: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣][3]، وقالتها عائشةُ رضي الله عنها حينَ ركبت الناقةَ لما انقَطَعتْ عن الجيشِ[4]، وهي كلمةُ المؤمنينَ، فمن حَقَّقَ التوكُّلَ على اللهِ لم يَكِلْه إلى غيرِه، وتولَّاه بنفسِه.

وحقيقةُ التَّوكُّلِ: كِلَةُ[5] الأمورِ كلِّها إلى مَنْ هي بِيَدِه.

فمن توكَّل على اللهِ في هِدايتِه وحِراسته وتوفيقِه، وتأييدِه ونصرِه ورزقِه، وغيرِ ذلكَ مِنْ مَصَالِح دينِهِ ودنياهُ، تولَّى اللهُ مصالِحَه كلَّها، فإنَّه تعالى وَليُّ الذينَ آمنُوا، وهذا هُو حقيقةُ الوثوقِ برحمةِ اللهِ، كما في هذا الدعاءِ: «فإنِّي لا أَثِقُ إلا بِرحمَتِك» فمَنْ وَثِقَ برحمةِ ربِّه، ولم يثقْ بغيرِ رحمتِه فقدْ حَقَّقَ التوكُّل

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٢٧).

(٢) في (ج): «كانت كلمة».

(٣) أخرجه البخاري (٤٥٦٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» ٢٤ (١٢٢)، وابن أبي الدنيا في «التوكل على الله» (٤٧)

(٥) في (س): «بكلة».

علـى ربِّـه فـي توفيقِـه وتسـديدِه، فهـوَ جَديـرٌ بـأن[1] يتكفَّـلَ اللهُ بحفْظِـه، ولا يكِلَه إلى[2] نَفْسِـه.

وفـي هَـذا الحديثِ وصـفَ النَّفْـسَ بأوصـافٍ ذَمِيمـة. كلُّ ذلـكَ حذراً مِـنْ أنْ يُـوكَلَ العبدُ إلى ما[3] هـذه صفاته وهيَ أربعةُ أوصـافٍ: الضَّيعةُ، والعَـورَةُ، والذَّنبُ، والخَطِيئَةُ.

فالضَّيعةُ: هي الضَّيَاعُ، فمنْ وُكِلَ إلى نَفْسِه ضَاعَ، لأنَّ النَّفْسَ ضَيِّعةٌ، فإنَّها لا تدعُو إلى الرُّشدِ، وإنما تدعُو إلى الغَيِّ.

والعَورةُ: هي ما يَنْبَغي سَتْرُه لقُبْحِه ودَناءَتِه، فكذلكَ النَّفْسُ، لِقُبْحِ أوصافِها وسُوءِ أخلاقِها الذَّميمَةِ.

والذَّنبُ والخطيئةُ: معناهُما متقارِبٌ أو مُتَّحِدٌ، وقد يُرادُ بأحدِهما الصَّغائرُ، وبالآخرِ الكبائرُ، وقَدْ وصَفَ الله سبحانَه وتعالى النَّفْسَ بأنَّها أمارةٌ بالسُّوءِ، فقال تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٥٣]. فمَنْ رَحِمَه اللهُ عَصَمَهُ مِنَ السُّوءِ الذي تَأْمُر بهِ النَّفْس.

وفي حديثِ أبي بَكْرٍ الصِّديقِ رضي اللهُ عَنْه أنَّ النبيَّ ﷺ عَلَّمَه أنْ يقولَ في كُلِّ صَباحٍ ومَساءٍ وعندَ نومِه: «أعوذُ بكَ مِنْ شَرِّ نفسِي»[4].

---

(١) في (س): «أن».

(٢) في (ف): «إلا إلى نفسه»، وعلى هذا يكون الضمير في «نفسه» هنا راجعاً إلى لفظ الجلالة قبل ذلك، لا إلى العبد، وقد وضع ناسخ (ف) إشارة إلى عود الضمير لذلك.

(٣) في (س): «من» و(ما) راجعة إلى النفس.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٥١)، وأصحاب السنن، وغيرهم.

وأما مَنْ وَكَله إلى نَفْسِه، ولم يَرْحَمْه، فإنَّه يُجيبُ داعِيَ نفسِهِ الأمَّارَةِ بالسُّوءِ، فيفعَلُ كُلَّ سُوءٍ تأمُره[١] به نفسُه.

وفي «المُسنَد» والتِّرمذيِّ مرفوعاً: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نفسَه، وعَمِلَ لما بعدَ الموتِ، والعاجزُ مَنْ أتبعَ نفسَهُ هَواها وتمنَّى على اللهِ عَزَّ وجَلّ»[٢]، فقَسَّم الناسَ إلى قِسْمَين[٣]: كَيِّسٍ وعَاجِزٍ.

فالكَيِّسُ: هُو اللبيبُ الحازمُ العاقلُ، الذي ينظُرُ في عواقبِ الأمورِ، فهذا يَقْهَرُ نفسَه، ويستعمِلُها فيما يَعْلَم أنَّه ينفَعُها بعدَ موتها، وإنْ كانتْ كارهةً لذلك.

والعَاجِزُ: هو الأحمقُ الجاهلُ، الذي لا يفكِّرُ في العواقب، بل يُتابعُ نفسَه على ما تَهواه، وهِي لا تَهوى إلا ما تَظُنُّ أنَّ فيه لذَّتها وشهوتَها[٤] في العاجِل، وإنْ عادَ ذلكَ بضُرٍّ لها فيما بعدَ الموتِ، وقدْ يعودُ ذلكَ عليها بالضَّرَرِ في الدُّنيا قَبْلَ الآخِرةِ، فهذَا هو الغَالِبُ أو اللَّازِمُ، فيتعجَّلُ تابعُ[٥] هوى نفسِه[٦] العارَ والفضيحةَ في الدُّنيا، وسقوطَ المنزلةِ عندَ اللهِ وعندَ خلْقِه والهوانَ والخزيَ، ويُحرَمُ بذلك خيرَ الدُّنيا والآخرةِ مِنْ علمٍ نافعٍ ورزقٍ واسعٍ وغيرِ ذلك، ومَنْ خالفَ نفسَه، ولم يُتْبِعها هواهَا تعجَّلَ بذلكَ العِزَّ في الدُّنيا، ووَجَدَ بركةَ ذلكَ مِنْ حُصُولِ العِلمِ والإيمانِ والرِّزقِ وغيرِ ذلك.

---

(١) في (س): «كل ما تأمره».

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١٧١٢٣)، والترمذي (٢٤٥٩)، وقال: «حسن». قال: «ومعنى قوله: «من دان نفسه»، يقول: حاسب نفسه في الدنيا قبل أن يحاسب يوم القيامة».

(٣) هنا خرم في النسخة (ت) إلى آخر الرسالة.

(٤) في (س): «لذاتها وشهواتها».

(٥) في (ج): «متابع».

(٦) في (س): «فيتعجل هو لنفسه».

وقيلَ لبعضِهم: بِمَ بلغَ الأحنفُ بنُ قيسٍ فيكم ما بَلَغ؟ قال: كانَ أشدَّ الناسِ سُلطاناً على نَفْسِه[1]. فهذه النفسُ[2] تحتاجُ إلى مُحاربةٍ ومُجاهدةٍ ومعاداةٍ، فإنَّها أعدى عَدُوٍّ لابنِ آدمَ، وقد قال النبيُّ ﷺ: «المجاهدُ مَنْ جَاهَدَ نفسَه في الله»[3].

ورُوي عنه ﷺ أنَّه قالَ: «أعدى عَدُوِّكَ نفسُكَ التي بينَ جَنْبَيك»[4].

وقال الصِّديق لعُمرَ[5] رضي الله عنهما في وَصيَّتِه له عِنْدَ مَوْتِه: «أول ما أُحذِّرك نفسُك التي بينَ جَنْبيك»[6].

وفيه يقولُ بعضُهم:

كيفَ احترازي مِنْ عَدُوّي إذا ... كانَ عَدُوِّي بينَ أَضْلاعِي[7]

وقالَ عبدُ الله بنُ عمروِ بنِ العاص لمن سَأَله عن الجهاد: ابدأْ بنَفْسِكَ فجاهِدْها وابدأْ بنفسِكَ فاغزها[8]، ويقال: إنه الجهاد الأكبر، ورُوي مرفوعاً مِنْ وجهٍ ضعيفٍ[9].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» (١١٧)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٤/ ٣١٧، ٣٢٢).

(٢) في (س): «النفوس».

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢٣٩٥١)، والترمذي (١٦٢١)، وقال: «حسن صحيح». من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الخرائطي في «اعتلال القلوب» (٣٢) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٥) وقع في (ف): «ﷺ»، بدلًا من ذكر الشيخين!، وفي (ج): «وقال الصديق يوماً»!

(٦) أخرجه ابن شبَّة في «تاريخ المدينة» (٢/ ٦٧٢)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٠/ ٤١٦). وليس فيه «التي بين جنبيك» هي مدرجة!.

(٧) من أبيات ذكرها الخرائطي في «اعتلال القلوب» (ص: ٢٦) للعباس بن الأحنف.

(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» (٦٢).

(٩) يشير إلى حديث جابر رضي الله عنه مرفوعاً: «قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» قالوا: =

فمَنْ مَلَكَ نفسَه وقَهرها ودَانَها عَزَّ بذلكَ، لأنَّه انتصرَ على أَشَدِّ أعدائِه وقَهرَه وأَسَرَه واكتفى شرَّه، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩، والتغابن: ١٦]، فحَصَرَ الفلاحَ في وِقايةِ شُحِّ نَفْسِه[١]. وشُحُّها: هو تَطَلُّعها إلى ما مُنِعَتْ منه، وحرصُها على ما عند غيرها[٢] ممَّا تشتَهيه مِنْ عُلُوٍّ وتَرَفُّعٍ ومَالٍ وجَاهٍ وأَهْلٍ ومَسكَنٍ ومَأكَلٍ ومَشْرَبٍ ومَلْبَسٍ وغيرِ ذلكَ، فإنها تتطلَّعُ إلى ذلكَ كلِّه وتشتَهيه وهو عينُ هلاكِها، ومنهُ ينشأُ البغيُ والحَسَدُ والحِقْدُ، فمَنْ وُقِيَ شُحَّ نفسِه فقَدْ قَهَرها، وقَصَرها على ما أُبيحَ لها، وأُذِنَ لها فيه، وذلكَ عينُ الفَلاحِ.

كانَ بعضُ العارِفينَ يُنْشِدُ:

إذا مـــا عَدَت[٣] النَّفْسُ ... عـــنِ الحـــقِّ زَجَرناها

وإنْ مالتْ عَنِ الأخرى ... إلـــى الـدُّنـــيا مَنَعْناها

تُخَادِعُنَـــا ونَخْدَعُهـــا ... وبـالـصَّبــــرِ غـلَـبْناها

لهـــا خوفٌ مِـــنَ الفَقْرِ ... وفي القَفْـــر أنخناها[٤]

وبـكُـلِّ حـالٍ فـلا يَـقـوى العبدُ على نفسِه إلا بتوفيقِ اللهِ إيَّاه وتولِّيه لهُ، فمَنْ عَصَمَه الله وحَفِظَه تولاهُ ووقاهُ شُحَّ نفسِه وشرَّها، وقوّاهُ على مُجاهَدَتها ومعاداتها،

= وما الجهاد الأكبر؟ قال: «مجاهدة العبد لهواه». أخرجه البيهقي في «الزهد» (٣٧٤). وقد أفردتُ الكلام عليه في كتابي «نصر الجهادين بقهر العَدوَّين».

(١) في (س): «وقاية شر النفس». وفي (ج): «النفس» بدل «شح نفسه».

(٢) في (ف): «يضيرها»! وفي (س): «عندها».

(٣) في (س): «عَدَلَتْ».

(٤) ذكر الأبيات في قصة: ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (٢/ ٣٠٨) لأبي محمد البسطامي رحمه الله، وفي مطبوعها، وفي (ع) و(ج) و(س): «وفي الفقر أنخناها» والمثبت من (ف).

ومَنْ وكَلَه إلى نَفْسِه غَلَبته وقَهرَته وأسرَته، وجَرَّته إلى ما هُو عينُ هلاكِه، وهُو لا يَقْدِرُ على الامتناعِ، كما يصنَعُ العدوُّ الكافرُ إذا ظَفِرَ بعدوِّه المسلمِ، بل شَرٌّ مِنْ ذلك، فإنَّ المسلمَ إذا قتلَه عدُوه الكافرُ كانَ شهيداً، وأمَّا النفسُ إذا تمكَّنتْ مِنْ صاحِبها قَتَلته قتلاً يهلِكُ به في الدُّنيا والآخرةِ، وهذا معنى الحديثِ الذي رُوِيَ مرفوعاً: «ليسَ عدُوكَ الذي إذا قَتَلْته كانَ لكَ نُوراً يومَ القيامة، وإذا[1] قتلَكَ دخلتَ الجنَّة، أعدى عدُوِّكَ نَفسُكَ التي بينَ جَنْبَيكَ»[2].

فلهذا كانَ مِنْ أهمِّ ما سألَ[3] العبدُ ربَّه أن لا يَكِلَه إلى نَفْسِه طَرْفةَ عَيْنٍ.

يا ربِّ هَيِّئ لَنا مِنْ أمرِنا رَشَدا ... واجعلْ معونَتَكَ الحُسنَى لنا مَدَدا

ولا تَكِلَنَّا إلى تدبيرِ أنفُسِنا ... فالعبدُ يعجِزُ عَنْ إصلاحِ ما فَسَدا[4]

***

قولُه ﷺ: «فاغفرْ لي ذُنوبي إنَّه لا يَغْفِرُ الذُّنوبَ إلا أنتَ، وتُبْ عليَّ إنَّكَ أنتَ التوابُ الرَّحيم»:

ختَمَ الدُّعاءَ بسؤالِ مغفرةِ الذنوبِ والتوبةِ.

قالَ بعضُ السَّلَفِ: الدُّنيا إمَّا عِصْمَةُ اللهِ، أو الهَلَكةُ. والآخرةُ إمَّا عفو اللهِ أو النارُ[5].

---

(١) في (س): «وإن».

(٢) سبق ذكر طرفه الأخير قبل قليل، وذكر تخريجه ثمة.

(٣) في (ق): «أهم الأمور سؤال».

(٤) من أبيات لعُمارة اليمني، ذكرها العماد الأصفهاني في «خريدة القصر» (٣/ ١٤٠ ـ قسم شعراء الشام).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (٧٦)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٢/ ١٤٣)، من كلام محمد بن يوسف الأصبهاني.

فمَنْ حَصَلَ له في الدُّنيا التوبةُ وفي الآخرةِ المغفرةُ فقدْ ظَفِرَ بسعادةِ الدُّنيا والآخرةِ.

وقَدْ تكرَّرَ في الكتابِ والسُّنَّةِ ذِكرُ الأمرِ بالتَّوبةِ والاستغفارِ، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣].

وأخبرَ عن هودٍ عليه السلام وصالحٍ وشعيبٍ عليهما السلام أنَّهم أمرُوا أممَهُم بالاستغفارِ والتَّوبةِ، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٥ ـ ١٣٦] وتركُ الإصرارِ هو التَّوبةُ.

وفي «صَحيحِ مسلمٍ» عَنِ الأغَرِّ المُزنيِّ: أنَّه سَمِعَ النبيَّ ﷺ يقولُ: «يا أيُّها الناسُ تُوبُوا إلى ربِّكم[1]، فإنِّي أتوبُ في اليوم مئة مرة»[2].

وَخَرَّجَهُ النَّسائيُّ ولفظهُ: «يا أيُّها الناسُ تُوبوا إلى ربِّكم واستغفِروهُ، فإنِّي أتوبُ إلى اللهِ وأستغفِرُه كلَّ يومٍ [مئةَ] مرَّةٍ»[3].

---

(١) في «صحيح مسلم»: «توبوا إلى الله»، وزاد في (س): «واستغفروه» وضبب عليها.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٢). وفيه: «في اليوم إليه». وفي (س): «أتوب إليه».

(٣) أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٤٤٤)، وهو في «الكبرى» (١٠٢٠٥).

وقد وقع في النسخ: «أكثر من سبعين» وهو سبق نظر من النساخ، والصواب ما أثبتناه ضمن معقوفين، وذكره المصنف رحمه الله تعالى على الصواب في «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٤١).

وفي صَحِيحِ البُخارِيِّ عنْ أبي هُريرة رضي الله عنه أنَّه سَمِعَ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «واللهِ إنِّي لأستغفِرُ اللهَ وأتوبُ إليهِ في اليومِ أكثرَ مِنْ سبعينَ مَرَّةً»[1].

وخرَّجَهُ النَّسائِيُّ[2] وابنُ ماجَهْ، ولفظُهما: «إنِّي لأستغفِرُ اللهَ وأتوبُ إليهِ كلَّ يومٍ مِئَةَ مَرَّةٍ»[3].

وفي «المُسنَدِ» عَنْ حُذيفةَ رضي الله عنه قال: كانَ في لسَاني ذَرَبٌ على أَهْلِي، ما أعدُوه إلى غيرِه[4] فذكرتُ ذلكَ للنبيِّ ﷺ، قال: «أينَ أنتَ مِنَ الاستغفارِ يا حذيفةُ؟ إنِّي لأستغفِرُ اللهَ كلَّ يومٍ مِئَةَ مَرَّةٍ وأتوبُ إليه»[5].

وفيه، عنْ أبي مُوسى رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «إني لأستغفِرُ اللهَ كُلَّ يومٍ مِئَةَ مَرَّةٍ وأتوبُ إليه»[6].

وفي السُّننِ الأربعةِ عن ابنِ عُمرَ رضي الله عنهما قالَ: إنْ كُنَّا لنَعُدُّ لرسولِ اللهِ ﷺ في المجلسِ الواحدِ مئةَ مرةٍ يقولُ: ربِّ اغفرْ لي، وتُبْ عَليَّ، إنَّكَ أنتَ التوابُ الغفور[7].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٧).

(٢) في (ج): «الترمذي» بدل «النسائي». وقد رواه الترمذي (٣٢٥٩) وليس في لفظه: «وأتوب إليه».

(٣) أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٤٣٤)، وهو في «الكبرى» (١٠١٩٥)، وابن ماجه (٣٨١٥).

(٤) في (ج) و(س): «غيرهم».

(٥) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٣٣٤٠)، والذَّرَبُ: سلاطة اللسان.

(٦) أخرجه أحمد عقب الحديث السابق.

(٧) في (ف): «التواب الرحيم»، وفي (س): «التواب الرحيم الغفور»، والمثبت هو الموافق لما في السنن، أخرجه أبو داود (١٥١١)، والترمذي (٣٤٣٤)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٤٥٨)، وفي «الكبرى» (١٠٢١٩)، وابن ماجه (٣٨١٤). قال الترمذي: حسن صحيح غريب.

وإنما قدَّمَ ذِكْرَ الشَّهادةِ بالتَّوحيدِ على طَلَبِ المغفرةِ، لأنَّ التوحيدَ أعظمُ الأسبابِ التي تُسْتَجْلَبُ بها المغفرةُ، وعدمُه مانعٌ منَ المغفرةِ بالكُلِّيةِ.

وفي الحديثِ: «ابنَ آدم إنْ جئتَني بقُرابِ الأرضِ خَطايا، ثم لقيتَني لا تُشركُ بي شيئاً لقيتُكَ بقُرابها مَغفرةً»[١].

وفي حديثِ سيِّدِ الاستغفارِ: البدايةُ بذكرِ التوحيدِ قبلَ طلبِ المغفرةِ[٢].

وإذا اعترفَ العبدُ بذَنْبِه، وطلبَ المغفرةَ مِنْ رَبِّه، وأقرَّ له أنَّه لا يغْفِرُ الذنوبَ غيرُه كانَ جَديراً أنْ يُغفرَ له.

أقرِرْ بذنبكَ ثمَّ اطلبْ تجاوزَه واعلم بأنَّ جحودَ الذنبِ ذنبانِ[٣]

ولهذا قالَ في الحديثِ: «فاغفرْ لي إنَّه لا يغفِرُ الذُّنوبَ إلا أنتَ»[٤]، وكذلكَ في دعاءِ سَيِّدِ الاستغفارِ، وكذلكَ في الدُّعاءِ الذي عَلَّمَهُ الصِّديقَ أنْ يقُولَه في صَلاته[٥]، وإلى هَذا الإشارةُ بقولِهِ في القرآنِ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠) وقال: حسن. وقُراب الأرض: ما يقارب مِلأها.

(٢) أخرج البخاري من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه (٦٣٠٦). وفي أوله: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت». وفي آخره: «فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

(٣) سقط هذا البيت من (ع) و(ف) و(س)، والمثبت من (ج) والبيت بلا نسبة في «الأغاني» (١٣/ ٨٠) و«تفسير الثعلبي» (٣/ ١٧٠) و«التذكرة الحمدونية» (٤/ ١٢٩) باختلاف.

(٤) من حديث لعلي رضي الله عنه، أخرجه الإمام أحمد (٧٥٣)، و(٩٣٠) (١٠٥٦)، وأصحاب السنن: الترمذي (٣٤٤٦)، وأبو داود (٢٥٩٥)، والنسائي (٨٧٤٨).

(٥) أخرجه البخاري (٨٣٤) (٦٣٢٦)، (٧٣٨٧) ولفظه: «قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم».

وفي حديثِ أبي ذَرٍّ المرفوعِ يقولُ الله عَزَّ وجَلَّ: «مَنْ عَلِمَ منكم أنِّي ذو قُدرَةٍ على المغفرةِ ثُمَّ استغفَرَني غفرتُ له ولا أُبالي»[1].

وفي حديثِ عليٍّ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ ربَّك ليعجَبُ مِنْ عَبْدِه إذا قالَ: ربِّ[2] اغفرْ لي ذُنوبي يَعْلَمُ إنه لا يَغْفِرُ الذنوبَ غيرِي»[3].

وفي الصَّحِيْحِ حديثُ الذي أذنبَ ذَنْباً، فقال: «ربِّ عملتُ ذَنباً فاغفرْ لي، قالَ اللهُ عزَّ وجَلَّ: عَلِمَ عبدِي أنَّ لهُ ربًّا يغفرُ الذنبَ، ويأخذُ بالذَّنبِ، قَدْ غفرتُ لعبدِي»، ثم قال في الرَّابعةِ: «فليعملْ ما شَاءَ»[4]، يعني مَا دامَ على هذا[5] الحالِ كلَّما أذنبَ استغفرَ.

وفي السُّننِ عن أبي بكرٍ الصِّديقِ رضي الله عَنْه مرفوعاً: «ما أَصَرَّ من استغفرَ، وإنْ عادَ في اليومِ سبعينَ مرةً»[6].

التوبةُ والاستغفارُ تُقبلُ في جميعِ آناءِ اللَّيلِ والنَّهارِ.

وفي «صَحيح مسلمٍ» مرفوعاً: «إنَّ اللهَ يبسُطُ يدَه بالليلِ ليتوبَ مُسيءُ النَّهارِ، ويبسطُ يدَه بالنَّهارِ ليتوبَ مُسيءُ اللَّيلِ حتى تَطلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغرِبها»[7].

ولكنْ بعضُ الأوقاتِ أرجَى قَبولاً، فإذا وقعت التوبةُ والاستغفارُ في مَظانِّ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢١٥٤٠)، والترمذي (٢٤٩٥) وقال: حسن، وابن ماجه (٤٢٥٧)، وأصله في مسلم، وهو حديث الشاميين.

(٢) لا توجد في (س) وتوجد في بعض المصادر دون بعض.

(٣) هو طرف من حديث علي رضي الله عنه الذي تقدَّم آنفاً، واللفظ أقرب إلى أبي داود.

(٤) أخرجه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) في (س): «ما دام في هذه».

(٦) أخرجه أبو داود (١٥٠٩)، والترمذي (٣٥٥٩). وقال: حديث غريب، وليس إسناده بالقوي.

(٧) أخرجه مسلم (٢٧٥٩) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

الإجابةِ كانَ أقربَ إلى حُصولِ المطلوبِ، ولهذا مَدَحَ اللهُ تعالى المستغفرينَ بالأسحارِ. فقالَ: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨] وقالَ: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

وفي الصَّحيح: حديثُ النُّزولِ، وأنَّ اللهَ يقولُ كلَّ ليلةٍ حينَ يبقى ثُلثُ الليلِ الآخِرِ: «هَلْ مِنْ مُستَغْفِرٍ فأغفرَ له؟ هَلْ مِنْ تائبٍ فأتوبَ عليه؟»[١].

قالَ الفُضَيلُ بنُ عِيَاضٍ: ما مِنْ لَيلَةٍ اختلطَ ظلامُها، وأرخَى اللَّيلُ سِرْبالَ سَتْرِها، إلا نادى الجليلُ جَلَّ جلالُه: مَنْ أعظَمُ منِّي جوداً، والخلائقُ لي عَاصُون، وأنا لهم مُراقبٌ؟ أكلؤُهم في مَضَاجِعهم كأنَّهم لم يعصُوني، وأتولَّى حِفْظَهم كأنَّهم لم يُذنِبُوا فيما بَيني وبينَهم، أَجودُ بالفَضْلِ على العاصِي، وأتفضَّلُ على المُسيءِ، مَنْ ذا الذي دَعاني فلم أُلَبِّه؟[٢] أمَّنْ ذا الذي سَألني[٣] فلم أُعطِه؟ أمَّن ذا الذيَ أناخَ ببابي فنَحَّيتُه؟ أنا الفَضْلُ ومني الفَضْلُ، أنا الجواد ومني الجُودُ، أنا الكريمُ ومني الكَرَمُ، ومِنْ كرمي أني أغفرُ للعاصِي بعدَ المعاصي، ومِنْ كرمي أني أُعطي العبدَ ما سألني، وأعطيَه ما لم يسألني، ومِنْ كرمي أني أُعطي التائبَ كأنَّه لم يَعْصِني، فأينَ عني يهرُبُ الخلائقُ؟ وأينَ عن بابي يتنحَّى العاصون؟[٤]

---

(١) أخرج الشيخان حديثَ النزول من طرق، أخرجه البخاري (١١٤٥) (٦٣٢١) (٧٤٩٤) ومسلم (٧٥٨). وهو في «موطأ» الإمام مالك (١/ ٢١٤) وهذا اللفظ في «مسند الإمام أحمد» (٩٥٩١).

(٢) في (ج): «أجبه».

(٣) في (س): «يسألني».

(٤) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٩٢) من كلام الفضيل. وذكر في «كنز العمال» (٤/ ٢٢٩) نحوه من حديث أبي هدبة عن أنس، وعزاه للديلمي. =

ما للعصاةِ مَهْرَبٌ مِنَ اللهِ[1] إلا إليهِ فيهربُون منهُ إليهِ، وهذا معنى: لا مَلجأ ولا مَنجا مِنْك إلا إليك.

هربتُ منهُ إليهِ ... بكيتُ منه عليهِ

وحَقِّهِ هو سُؤْلي ... لا زلتُ بينَ يديْهِ

حتى أنالَ وأحظَى ... بما أُرَجِّي لَديهِ[2]

أسأتُ ولم أحسنْ وجِئتُكَ تائِباً ... وأنَّى لعبدٍ عن مَواليه مَهْرَبُ

يؤمِّلُ غُفراناً فإنْ خابَ ظنُّه ... فما أحدٌ منهُ على الأرضِ أخيَبُ[3]

هو أرحَمُ بعبادِهِ مِنَ الوالدةِ بولَدِها، وأفرحُ بتوبةِ عبدِه ممَّن فقَدَ راحِلتَه بأرض مهلكة، حتى أَيِسَ[4] منَ الحياةِ ثمَّ وجَدها، يا مطروداً احذرْ أن تفارِقَ عَتَبَةَ بابِهم، يا مرمياً بالبِعادِ إيَّاكَ أن تبعد عن جَنابِهم، يا مَهْجُوراً ابكِ وترامَ عليهم، يا متوعَّداً بالعِقَابِ لا تهربْ منهُم إلا إليهم.

في حديثِ جابرٍ المرفوعِ: «إنَّ العبدَ ليدْعُو اللهَ، وهو عَليه غضبان، فيعرِضُ عنهُ،

= وفي (ف): «أن أغفر» «أن أعطي» في الموضعين.

وفي (ع): «يتحي».

(١) في (س): «مهربٌ منه».

(٢) هذه الأبيات قالتها مغنية مطربة تدعى: بدعة تابت إلى الله وأنابت. ذكر خبرها وقصتها: ابن قدامة في «التوابين» (ص: ١٧٥). وسقطت الأبيات من (ع) و(ف).

(٣) البيتان لأبي عثمان سعيد بن إسماعيل الواعظ رحمه الله تعالى، أنشدهما بسنده إليه: البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٩٢٢). وسقطا من (ع) و(ف).

(٤) في (س): «يئس».

ثـم يدعوه فيـعرض عنه[١]، فلا يزالُ يدعُوه حتى يقولَ الله عزَّ وجَلَّ للملائكة: إن عبدِي قد أبى أن يدعُوَ غيري فقد استجبتُ له»[٢].

كانَ رجـلٌ مـن أصحـابِ ذي النُّـونِ يطـوفُ فـي السِّـكَكِ يبكي وينـادي: أينَ قَلْبـي؟ أيـنَ قَلبـي؟ مَنْ وَجَدَ قلبـي؟ فدخَلَ يوماً بعضَ السِّـكَكِ فوجـدَ صبيّاً يبكي، وأمُّـه تضرِبُـه، ثـم أخرجَتْه من الـدَّارِ، فأغلقـتْ الباب دونَـه، فجعلَ الصَّبـيُّ يلتَفِتُ يمينـاً وشـمالاً، ولا يـدرِي أيـنَ يذهـبُ، ولا أيـنَ يقصِـدُ، فرجَـعَ إلـى بابِ الـدَّارِ، فوضَـعَ رأسَـه علـى عَتَبَتِهِ فنامَ، فلما اسـتيقظَ جعـلَ يبكي ويقـولُ: يا أمَّاهُ مَـنْ يفتَحُ لـيَ البـابَ إذا أغلقـتِ عنـي بابَكِ، ومـن يُدْنيني مِنْ نفسِـه إذا طردتِينـي، ومَنْ الذي يُؤوينـي[٣] بعـدَ أنْ غضبـتِ علـيَّ، فرَحِمَتْهُ أمُّـه، فقامتْ، فنظـرَتْ مِنْ خَلَـلِ البابِ، فوجـدتْ ولدَهـا تجـرِي الدمُّوعُ علـى خَدَّيـه، مُتَمَعِّكاً فـي التُّرابِ، ففتحـتِ البابَ وأخذَتْـهُ، حتـى وضَعَتْـه في حجرِهـا، وجعلـتْ تُقَبِّلُه وتقـولُ: يا قُرَّةَ عينـي، وعزيزَ نفسِـي، أنـتَ الـذي حَمَلْتنـي علـى نَفْسِـكَ، وأنـتَ الـذي تَعَرَّضْـتَ لما حَـلَّ بِكَ، لـو كنـتَ أَطعتَنـي لم تلـق[٤] مني مكروهـاً، فتواجَـدَ الرَّجُـلُ، ثم قامَ وصَـاح وقال: قدْ وجـدتُ قَلبـي، قَدْ وجـدتُ قلبي[٥].

هكذا ينبَغِي أنْ يكونَ حالُ العَبدِ معَ رَبِّه.

---

(١) سقطت الجملة من (ع) و(ف) و(س)، والمثبت من (ج).

(٢) أخرجه الطبراني في «الدعاء» (٢١)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٢٠٨).

(٣) في (س): «يدنيني». وفي (ج): «يريدني».

(٤) تصحفت في (ف) إلى: «يكن».

(٥) ذكره ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (٢/ ٤٥٤).

إذا هَجَرُوا عِزًّا وصَلْنا تذلُّلا ... وإنْ بعدوا يأساً قَرُبْنا تَعَلُّلا

وإن أغلَقُوا بالهَجْرِ أبوابَ وصْلِهِمْ ... وقالوا ابعدُوا عَنَّا طَلَبنا التَّوصُّلا

وقفْنَا على أبوابِهم نطلُبُ الرِّضَى ... وبالتُّرْبِ[1] عَفَّرنَا الخُدُودَ تذلُّلا

أشَرْنا بتسليمٍ وإنْ بَعُدَ المدى ... إليهم وكَلَّفْنَا الرِّياحَ التَّحمُّلا[2]

* * *

تمَّ هذا الحديثُ وشرحُه، والحمدُ لله وحدَه، وصلَّى اللهُ على سيِّدنا محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ وَسلَّم[3].

* * *

---

(١) في (س): «على الترب».

(٢) سقطت الأبيات من (ع) و(ف).

وهي في «التبصرة» لابن الجوزي (٢/ ٢٩٤) إلا الثالث منها فبدله بيت آخر.

(٣) هذه خاتمة (ف).

وفي (ع): «تم هذا الحديث، الحمد لله رب العالمين».

وجاء في خاتمة (ج): «والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قال العبد الحقير الجاني أبو خليل محمد بن حسين الأنصاري اليماني: وكان الفراغ من نقل شرح هذه الأدعية المأثورة بعد الإشراق قريب ضحى يوم الأحد ثالث عشرة جمادى الأولى من شهور سنة ألف وثلاثمائة وسبعة والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه الهداة والتابعين لهم بإحسان آمين. آمين. آمين».

وفي (س): آخرُه، والحمدُ لله رب العالمين، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما يحب ربنا ويرضى، وكما ينبغي لكرم وجهه، وعزِّ جلاله، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم».



